

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

موسوعة

العلامة الشيخ التسخيري

المجلد السابع

الوحدة والتقريب

المعهد العالي للدراسات التقريبية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي

سر شناسه	: تسخیری، محمد علی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹ . Taskhiri, Muhammad Ali
عنوان و نام پدیدآور	: موسوعة العلامة الشيخ التسخیری / المعهد العالي للدراسات التقريبية، التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامی .
مشخصات نشر	: تهران: مجمع جهانی تقرب مذاهب اسلامي، ۱۴۴۰ ق. = ۲۰۲۰ م. = ۱۴۰۰ -
مشخصات ظاهري	: ۶۸۸ ص.
شابک	: دوره: ۷-۳۲۱-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۱: ۲-۳۲۶-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۲: ۴-۳۲۲-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۳: ۵-۳۲۵-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۴: ۶-۳۲۷-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۵: ۷-۳۳۱-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۶: ۸-۳۲۳-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۷: ۸-۳۲۴-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۸: ۹-۳۲۸-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۹: ۱۰-۳۲۹-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۱۰: ۱۱-۳۳۰-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۱۱: ۱۲-۳۳۲-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ؛ ج ۱۲: ۱۳-۳۳۲-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ .
وضعیت فهرست نویسی	: فیبا
یادداشت	: عربی .
یادداشت	: فهرست نویسی بر اساس جلد اول، ۱۴۰۰ .
یادداشت	: ج ۱ و ۲ و ۳ و ۴ و ۵ و ۶ و ۷ و ۸ و ۹ و ۱۰ و ۱۱ و ۱۲ (چاپ اول: ۱۴۴۲ ق. = ۲۰۲۱ م. = ۱۴۰۰) (فیبا).
یادداشت	: کتابنامه .
مندرجات	: ج ۱: المقدمة، علوم القرآن - ج ۲: التفسیر - ج ۳: العقيدة والحضارة - ج ۴: الحضارة - ج ۵: السياسة - ج ۶: الاقتصاد - ج ۷: الوحدة والتقريب - ج ۸: الفقه - ج ۹: الفقه - ج ۱۰: الفقه - ج ۱۱: الفقه - ج ۱۲: الفقه والاصول الفقه .
موضوع	: تسخیری، محمد علی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹ -- فهرست مطالب
موضوع	: Taskhiri, Muhammad Ali -- Concordances
موضوع	: اسلام -- مطالب گوناگون
موضوع	: Islam -- Miscellanea
شناسه افزوده	: پژوهشگاه مطالعات تقریبی
رده بندی کنگره	: BP۱۱
رده بندی دیویی	: ۲۹۷/۰۱
شماره کتابشناسی ملی	: ۸۵۱۱۸۴۴
اطلاعات رکورد کتابشناسی	: فیبا

هوية الكتاب



مجمع التدریس والدراسات الاسلامیة

اسم الكتاب: موسوعة العلامة الشيخ التسخيري (المجلد السابع) الوحدة والتقريب
تأليف: محمد علي التسخيري
التنظيم والتحقيق: المعهد العالي للدراسات التقريبية
التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامي

تقديم: حميد الشهرياري

مسؤول امور الطباعة وتصميم الغلاف: محمد تقي مهجور

المخرج: عبدالله البراتي

ردمك: الدورة: ۷-۳۲۱-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ج ۷: ۸-۳۲۴-۱۶۷-۹۶۴-۹۷۸ ISBN: ۹۷۸-۹۶۴-۱۶۷-۳۲۴-۸-۷

الطبعة الأولى: ۱۴۴۲ هـ - ۲۰۲۱ م

الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

السعر الدورة: ۲۱۰۰۰۰۰۰ ريال

الناشر: الجمهورية الاسلامية في ايران - طهران، ص، ب: ۶۹۹۵ - ۱۵۸۷۵

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامي

المعهد العالي للدراسات التقريبية (قم) - ص.ب: ۳۸۷۳-۳۷۱۸۵

بريد الإلكتروني: info.taqrrib@gmail.com تليفكس: ۰۰۹۸۲۵۳۷۷۱۱۳۸۸

* جميع الحقوق محفوظة للناشر *

مع المؤتمرات الدولية

حول الوحدة والتقريب

المقدمة

الوحدة الإسلامية، أطروحة تعبر عن هدف أيديولوجي وزمني مقدس، كما أنها أطروحة شاملة ذات ابعاد متعددة، إلا أن الملابس التاريخية والاجتماعية الخاصة اضفت عليها نوعاً من التحديد فصارت - الوحدة الإسلامية - عبارة يفهم منها البعد المذهبي والعلاقات المذهبية بين المسلمين خاصة، مع أنها في الأصل عبارة شاملة تستوعب مختلف جوانب الحياة الإسلامية، ثقافية وسياسية واجتماعية... الخ.

صحيح أن حل المسألة المذهبية له دور أساس في اقامة الوحدة الإسلامية، لكن الظروف الجديدة، جعلت الجوانب الأخرى من الوحدة، كالجانب السياسي والاجتماعي والثقافي لا تقل أهمية عن الجانب المذهبي.

فالوحدة السياسية على صعيد البناء الداخلي للدولة، وعلاقات الإسلاميين فيما بينهم، والوحدة الاجتماعية على صعيد العلاقات القومية والوطنية، والوحدة الثقافية على صعيد الفكر وابعاده المختلفة في الحياة الجديدة ضرورات أساسية لا يمكن التحدث عن الوحدة الإسلامية دون الاستجابة لها وتنفيذ متطلباتها.

الأمر الذي يجتم تطوير آفاق البحث في الوحدة الإسلامية وإشراك خبراء السياسة والاجتماع والثقافة فيه إضافة إلى خبراء المذاهب.

تطور فكرة الوحدة في الجمهورية الإسلامية

الوحدة الإسلامية فكرة صاحبت الثورة الإسلامية منذ أيامها الأولى، وانبثقت من عمق جذورها الفكرية والسياسية والاجتماعية. الأمر الذي انعكس على مرحلة ما بعد الانتصار في

صورة اعطاء أكبر ما يمكن من الجهد في مجال السعي لتحقيق الوحدة بين المسلمين، وتحويل الشعارات إلى واقع حي متحرك بزخم وفاعلية كبيرين وخطوات عملية متلاحقة. ففي البدء، أعلنت الفترة الواقعة بين (١٢ - ١٧ ربيع الأول) من كل عام هجري أسبوعاً للوحدة الإسلامية، يحتفل فيها المسلمون بذكرى الميلاد النبوي الشريف، ويعيشون الوحدة الإسلامية فكرياً وروحياً همماً عميقاً يملك عليهم أبعاد وجودهم. فالنبي الأعظم ﷺ هو المؤسس لهذه الأمة، ومن الطبيعي أن يستذكر المسلمون وحدتهم عند ذكرى ولادته ﷺ، خلافاً لما كان عليه الحال قبل الثورة الإسلامية حيث كان اختلاف المؤرخين في تحديد يوم ولادة النبي ﷺ بين الثاني عشر والسابع عشر من شهر ربيع الأول مظهراً من مظاهر الاختلاف بين المسلمين (السنة والشيعية).

وضرورات الوحدة الإسلامية جعلتها تنصدر أولويات هموم المسلمين، وتفرض نفسها أساساً لإعادة بنائهم، الذي صدعته الخلافات الفكرية، والعقيدية وما أفرزته من اجتهادات متباينة. إلا أن الوحدة باعتبارها مشروعاً لا يمكن أن تتحقق مصداقيتها على أرض الواقع ما لم تتوافر على آلية متقنة وأدوات فاعلة، إضافة إلى إجراء مراجعة تفصيلية لبعض مقولات المذاهب الإسلامية، وإعادة النظر في بعض فواصل نظامهم المعرفي، ومن هذا المنطلق باتت مؤتمرات الوحدة الإسلامية تسير بهذا الاتجاه، حيث أخذت تطرح محاور فكرية تعالج اشكاليات مذهبية مستعصية من خلال دراسات تفصيلية وشاملة، فقد سلط المؤتمر العالمي الثامن للوحدة الإسلامية - مثلاً - الضوء على ثلاثة محاور مهمة هي:

- الكتاب.

- السنة.

- الثابت والمتغير في ضوء الكتاب والسنة.

جاء هذا الأسلوب الجديد في الطرح إيماناً منه بضرورة الوحدة الفكرية أساساً لوحدة المسلمين العملية.

والوحدة الإسلامية بمفهومها الحقيقي، الذي يتجاوز كل الفوارق الطبقية، والعنصرية، واللونية والجغرافية وغيرها هو حلم المسلمين اليوم في شتى أقطار الأرض، وهو نداء القرآن العزيز يهز كل الغيارى أينما كانوا ليسعوا إلى تحقيقه، وهو بالتالي الهاجس الذي يقض مضاجع

الاستكبار العالمي، ويرعبه وهو حلم فكيف به إذا تحقق، واستيقظ هذا العملاق الغافي (كما تصفه بعض كتابات المفكرين الاستعماريين) الممتد من المحيط إلى المحيط والذي له قدرة هائلة تمتلك كل عناصر القوة؛ فأرضه أكثر من ٣٥ مليون كيلو متر مربع، ونفوسه تتجاوز المليار إنسان مضح يؤمن بأن الموت في سبيل الله سعادة، له من الخبرات العاملة ما يتجاوز الـ (٢٥٠) مليون يد عاملة، وله من القدرات العسكرية الظاهرية ما يقارب الـ (١٠) ملايين إنسان مدرب، ولديه أكثر من مائة ميناء إستراتيجي على مختلف البحار والمحيطات، ويسيطر على أكثر مصادر النفط، والنحاس واليورانيوم وغيرها.

كل هذا في الجانب المادي، ناهيك عن الجانب المعنوي الضخم الذي تمتلكه هذه الأمة متمثلاً في رسالتها العظيمة التي تمتلك أعظم اطروحة لحل مشكلات البشرية والقضاء على التناقض بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية، وهو أمر عجزت عنه كل تلك الانظمة الوضعية الخاوية، فإنها زادت حدة وسعاراً.

نعم، إن الاستكبار العالمي يخشى هذه الوحدة التي تبشر بها هذه الصحوة الإسلامية الكبرى، وعلينا نحن المسلمين أن نعد لهذه الخشية فتزداد إصراراً على المسير ونزيد من عزائمنا في سبيل هذه الوحدة الكبرى.

ومن هنا، جعلت الثورة الإسلامية شعار تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى في طليعة شعاراتها وراحت تعمل بكل جهد على تحقيقها متجاوزة كل ما يزرعه الكفر العالمي في طريقها من عقبات، هازئة بكل التهم والدعايات، وكل ما يقوم به عملاء الاستكبار من اثاره للعنعات والطائفيات وما تروجه الاقلام العميلة من روح قومية ممزقة، وشعارات وطنية مفرقة، وغير ذلك.

ولهذا، وجدنا قادة الثورة الإسلامية ممن يتبنون هذا الخط المبارك ويدعون له بكل قوة من خلال لقاءاتهم وكتاباتهم وخطبهم ومواقفهم في الاوساط الفقهية والسياسية وعقد المؤتمرات وإقامة المؤسسات المتخصصة منطلقين بذلك من وعيهم للإسلام العظيم، ولخصائص الأمة الإسلامية، وللظرف المحيط بهذه الأمة، واهتمامهم العالمي بالإنسان والإسلام أينما كان. وما تأسيس القائد الكبير آية الله الخامنهئي لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية إلا خطوة على هذا الطريق اللائح.

وإذا رأينا هذا الهجوم الشامل على الثورة وقادتها فإننا يعبر ذلك عن حقد الكفر العالمي عليهم وعلى هذه الرسالة العالمية الكبرى التي اضطلعوا بحملها وتأكيداها.

إننا نعتقد - بكل وضوح - أن سبيلنا الحقيقي هو سبيل الوحدة الإسلامية الكبرى ولذا فلن نضعف عن الدعوة إليها والاستجابة لنداء الإمام القائد الكبير لتحقيقها، وكلما زاد أوار الحملة ضدنا فلن يزيدنا ذلك إلا إصراراً على اللقم وصبراً على مضض الألم وإلا إيماناً بالنصر المؤكد. إن المسلمين جميعاً ينطلقون من أصول العقيدة الأولى، ويرجعون إلى المنبعين الرئيسيين، الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، ويؤمنون بالإسلام منهج حياة. وما أروع هذه المنطلقات الواسعة إذا استوعبتها الأمة وإذا صممت على تحويل الإيمان بها إلى واقع قائم، وبالتالي لتكوين اللقاء الموحد في مختلف المجالات.

فليعمل المفكرون والمسؤولون، والواعون المتألمون لقضايا امتهم، العاملون على دفع مسيرتها إلى الإمام على تحقيق هذا الهدف الكبير عبر تعميق هذه الاسس المشتركة في وجود الأمة وتوضيح مقتضياتها العملية.

ولتسكت كل صرخة مفرقة، لأنها لا تصدر إلا من شيطان، أو جاهل، أو متعصب مقيت. وما هذا الكتاب - عزيزي القارئ - إلا مجموعة مقالات كتبت في فترات مختلفة وربما بمناسبة انعقاد بعض المؤتمرات الدولية، تحاول استعراض تلك المحاولات الجادة والآراء المستحكمة في نفوس الأمة الإسلامية والنزعات الجاهدة الجادة إلى تحقيقها طلباً لمرضاة الله واصلاح الأمة الإسلامية في وسط هذا الزحام المتراكم من الأفكار والهجمات الثقافية المركزة والمتواصلة من قبل الكفر والاستعمار العالمي. داعين الله أن يحقق آمال الأمة الإسلامية وطموحاتها نحو الخير والصلاح والله الموفق إلى سواء السبيل.

الفصل الأول: الإسلام والوحدة

عوامل الانتصار الأول

﴿..هُوَ الَّذِي آتَىٰكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١.

يمكننا بالتأكيد أن نعرف من هذه الآية الكريمة العوامل الرئيسة التي حققت ذلك الانتصار الإسلامي الرائع في عصر مطلع الإسلام. ولكن قبل التأمل في هذه العوامل ومعرفة آثارها ينبغي الالتفات إلى أهمية ذلك الانتصار الأول وأبعاده.

أهمية الانتصار الأول

إننا إذا تأملنا الوضع العالمي الذي كان قائماً في القرن السابع الميلادي: الانحطاط الأخلاقي الفضيع يغرق العالم، والاستبداد السياسي القاتل يسخر الشعوب لمصالحه والانحراف الديني يقرب وظيفة الدين رأساً على عقب، والكهنوت بكل مظاهره اللاإنسانية يستفيد من الدين لضرب إنسانية الإنسان.

هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا ركزنا على الوضع المتردي في الجزيرة العربية، خلقياً وسياسياً ودينياً بل وحتى شعوراً بالشخصية الاجتماعية، نجد الانسحاق الكامل. ونقصد بذلك أن الإنسان العربي آنذاك لم يكن يشعر بأية رابطة اجتماعية اللهم إلا التعصب القبلي وقد يكون

الحال كما يقول الشاعر:

وأحياناً على بكر أحنينا إذا ما لم نجد إلا أحنانا
إنه بهذا البيت يعبر عن الروح الوحشية المعتدية على كل أحد مهما كان وهو بالتالي يعبر عن
الوضع النفسي الواطئ للإنسان العربي آنذاك.
إذ لاحظنا هذا وقارناه إلى الوضع الذي صنعه الإسلام خلال بضع عشرة سنة - وهي فترة لا
تعد شيئاً في عمر التاريخ - أدركنا عظمة ذلك الانتصار الإسلامي الأول. إننا نلاحظ الوضع بعد
هذه الفترة الوجيزة من عمر التاريخ على النحو التالي:

نور ينطلق من غار حراء المظلم فتشرق به الأرض كلها، وأفراد لم يكونوا يشعرون بوجودهم
تحولوا إلى أمة عقائدية مضحية تمشي على قمم الزمان وتقدم للعالم أروع الصور الأخلاقية والإنسانية
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ودولة إسلامية متكاملة تخضع لها الجبابرة وتنهزم أمام حضارتها
كل الحضارات الأرضية القائمة، وأمام جيوشها العقائدية كل الجيوش الكسرية والقيصرية الجرارة،
ومبدأً إسلامياً يزحف إلى القلوب ويغير الأمم رأساً على عقب ويعطيها الشخصية الجديدة.
هذه بعض معالم ذلك الانتصار الكبير فهل بعد ذلك من مزيد؟!

عوامل الانتصار العظيم

ولنرجع إلى الآية الكريمة لنعرف عوامل ذلك الانتصار الرائع أولاً ثم لنسحبها على واقعنا
الإسلامي اليوم. إن العوامل التي اشير إليها باختصار رائع هي كما يلي:

أولاً: التأييد الإلهي

فإنه تعالى كريم لطيف، تام اللطف والتأثير فإذا توفرت في أي شعب أو مجموعة قابلية التأييد -
باعتبار كونها تسير باتجاه الكمال الإنساني وهو الهدف العام من الخلق - جاء التأييد الإلهي على عجل.
والآيات القرآنية الكريمة والشواهد التاريخية المتتابعة كلها تؤكد هذه الحقيقة الكبرى.

ثانياً: شخصية القائد الشجاع الحكيم

﴿أَيَّدَكَ بِتَبَرِهِ﴾ ولا نرانا بحاجة للاسهاب في عرض الأبعاد القيادية لشخصية الرسول
الأعظم ﷺ فهي مما اجمع عليه المؤرخون والعظماء.

ثالثاً: صفات المؤمنين الأوائل من أصحاب الرسول الكرام ﷺ

بعد أن كانوا مثال الإيمان والارتباط بالعقائد والتعلق به، والتضحية في سبيل العقيدة وتطبيق النظام الإلهي بعد عملية وعي كبرى يقل نظيرها في التاريخ.

رابعاً: وحدة القلوب وتألفها

وهذا العامل يمكنه أن يندرج في العامل السابق ولكن الآية الكريمة أكدت عليه لأهميته ولتبدي سر العظمة فيه فلتأمل سر قوة هذا العامل لندرك أثره التاريخي.

الوحدة الحقيقية

إن القرآن يشير إلى الوحدة الحقيقية معرضاً عن كل انماط الوحدة الزائفة التي يجمعها عنوان (وحدة الأبدان والمصالح المادية) وهي من قبيل:

الوحدة على أساس المصالح السياسية.

الوحدة على أساس العروق القومية.

الوحدة على أساس التعصب القبلي.

الوحدة على أساس العامل الجغرافي.

الوحدة على أساس التاريخ المشترك.

الوحدة على أساس الحضارة المادية.

الوحدة على أساس المصالح الطبقية.

إلى غير ذلك من أنواع الوحدة من هذا القبيل.

إن القرآن لا يرى في أي من هذه الأشكال عاملاً حاسماً للنصر. وفي المقابل يؤكد على (وحدة القلوب) تلك الوحدة التي لو أنفق ما في الأرض على تحقيقها بالعوامل المادية ما تحققت فما هي أسس وحدة القلوب هذه يا ترى؟

إن لها باختصار أساسين:

العقيدة الحية الواقعية.

والعاطفة القائمة على أساس عقائدي.

فلا العقيدة لوحدها بقادرة على تجميع القلوب وتآلفها مهما كانت واقعية قوية، ولا العاطفة لوحدها بقادرة على ذلك. ولو أمكن تحقيق ذلك لنجحنا على المدى الطويل في شد الأفراد بعضهم إلى البعض الآخر، ودفع الأمة للسير الحثيث نحو الكمال. أما المؤثر الحقيقي فهو الإيمان الواعي النافذ إلى الأحاسيس والمالي للوجود والمرتبط بالله الحقيقة الكبرى في الوجود.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^١ وعندما يعمل الإيمان والعاطفة المؤمنة على شد القلوب ويرفدها توفيق الله ومدده فلن تنفصم هذه الوحدة، وهي بالتالي تصنع الأعاجيب والمعاجز كما صنعتها في عصر صدر الإسلام وهي تصنعها في عصر عودة الإسلام من جديد في إيران الإسلام والثورة.

محور الوحدة الإسلامية

إن القرآن الكريم إذ يجذب الوحدة الإسلامية يضع خطة شاملة كبرى عملية لتحقيقها تحتوي على مبادئ سامية مستمدة من قيمة الحيادية التي يؤمن بها. ولسنا هنا بصدد التعرض لمجمل هذه الخطة الكبرى وإنما نحاول الإشارة إلى شيء من ملاحظاتها ومبادئها تحقيقاً لهدفنا المنشود من هذا البحث:

أ- بيان محور الوحدة

إنه يبين المحور الأساس الواضح للوحدة، والملاك القويم الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا يبعث ولا يمزق على أي حال وفي أي مجال متصور. إنه بتعبير القرآن: حبل الله، والوسيلة لتحقيق مرضاته، إنه الإسلام والقرآن نفسه. وكل خط لا يتطرق للخطأ إليه. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^٢.

١. الحديد: ١٦.

٢. آل عمران: ١٠٣.

ب - التذكير بآثار الوحدة

وذلك لابقاء الاحساس بضرورتها حياً دائماً في النفوس دافعاً إياها إلى تجاوز الخلافات الوقتية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^١.

ج - التأكيد على وحدة الأصل والمسير والهدف

إنه يؤكد على أن الأصل واحد ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ويؤكد على أن المسير واحد. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^٢.
ويؤكد على أن الهدف واحد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٣.
وبالتالي يدعو للدخول المجموعي في إطار التسليم الكامل لله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^٤.

د - غرس الأخلاقية والتضحية بمصالح الذات

ذلك إن من الواضح أن من شروط الوحدة والسير المشترك ونسيان الكثير من المصالح الذاتية والعمل لمصالح المجموع الواحد. والإسلام العظيم إذ يشكل المبدأ الوحيد الذي يحل المشكلة الاجتماعية (مشكلة التعارض بين الذاتيات ومصالح المجموع) ضمن خطة رائعة فإنه يضع أساس الوحدة.

ومن ضمن خطة الإسلام غرس الروح الأخلاقية في النفوس، روح الايثار ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ روح العمل في سبيل الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ

١ . آل عمران: ١٠٣

٢ . الشورى: ١٣

٣ . الذاريات: ٥٦

٤ . البقرة: ٢٠٨

مِنْكُمْ جَزَاءٌ وَلَا تُشْكُرُونَ ﴿١﴾. روح اتباع رضوان الله. ومن الواضح أن هذه الروح إذ تسري في الأفراد تذهب بكثير من عناصر التمزق والتفرق والشقاق.

هـ - تصوير الهدفية السامية والوظائف الكبرى

ومن أساليب القرآن الكريم أنه يصور للامه أهدافها السامية، ويمنحها وظائف حضارية كبرى من مثل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ومن الواضح أنه كلما تجلت الأهداف السامية في خلد الأمة اندفعت بشكل طبيعي إلى الوحدة والتآلف والعمل المجموعي. لأن الأهداف الكبرى لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال ذلك وعلى نفس هذا النسق يبين القرآن وحدة المصير إذ يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

و - حذف مقاييس التفاضل الممزقة

أشرنا من قبل إلى أسس مطروحة للوحدة، وأنها أسس باطلة غير قوية وان الإسلام إذ رفضها اسماً للوحدة رفضها اسماً للتفاضل الاجتماعي وأعطى مقياساً إنسانياً عاماً له ما يضمن الجو الصالح لقيام الوحدة ودوامها.

فملاك التفاضل الذي يصوره القرآن هو الأمور التالية:

أولاً: التقوى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

ثانياً: العلم: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

ثالثاً: الجهاد والعمل: فضل الله المجاهدين على القاعدين.

ومن الواضح أن هذا الملاك إذا طبقه المجتمع عاد في تماسك ما بعده تماسك.

ز - الدفع نحو التأكيد على نقاط الالتقاء

وهو منهج قرآني أصيل لا يبين المسلمين أنفسهم فحسب بل وحتى مع معتنقي أقرب الأديان

إلى الإسلام وهم أهل الكتاب، أنها خطوة عملية في مواجهة الاحاد.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾
 وعمل كهذا لا بد أن يهيم أرضية صالحة للتفاهم والوصول إلى الحقيقة.
 إن هذا المنهج يجب أن يدفعنا نحن المسلمين للتأكيد على نقاط الالتقاء بيننا وسنجد أنها أكثر مما يتصور حتماً أنها تشمل كل المجالات بلا ريب.
 والغريب أن البعض منا مستعد لأن يتعايش مع شيوعي ملحد ويناقشه بهدوء مثلاً في حين أنه غير مستعد أحياناً للنظر إلى مسلم يختلف معه في بعض النظرات الجزئية، أليس هذا من عمل أعداء الله؟!

ح - التربية على أسلوب المحاوراة البناءة

إن القرآن يطرح أسلوباً موضوعياً رائعاً للمحاوراة مع أعدائه فضلاً عن أن يطرحه بين أبنائه.
 فيها هو يعلم الرسول الأكرم ﷺ أن يقول للكافرين رغم إيمانه الشديد بما يعتقد ﴿وَإِنَّا أَوْ
 إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^٢.
 إنها الموضوعية الكاملة في النقاش، وأنه الأسلوب الأمثل للوصول إلى نتيجة صحيحة من خلاله. أما السب والشتم والطرده وأمثلة ذلك فهي أمور لا تنفيذ في النتيجة ولا تؤثر فيها وربما أثرت العكس كما هو واضح.

فالنقاش الهادي الموضوعي بين طرفين هما بمستوى النقاش يتوخيان الحقيقة حتى لو خالفت مسبقاتها ويعتمدان الحجة والبرهان المنطقي الأصيل، كل هذا يضمن الوصول في كثير من الأحيان إلى قناعات مشتركة تشكل أساساً للوحدة ومجالاً للتعاون المشترك.

ط - وهناك أساليب قرآنية

في هذا المجال منها طرح المعالم والخصائص المميزة لهذه الأمة ومنها تكتيلها ضد عدوها المشترك وتذكيرها بأنه متحد ضدها وغير ذلك.
 إلا إننا نكتفي بما قلنا لتحدث عن واقعنا الممزق اليوم والعوامل التي ساعدت عليه وأساليب التخلص منه.

١. البقرة: ٦٤

٢. سبأ: ٢٤

الواقع الممزق

قد يقال قبل كل شيء - لماذا هذا التصوير المتشائم للواقع؟ ألسنا نمتلك منظمات إسلامية كبرى واتحادات مشتركة، ومؤتمرات قمة إسلامية وتوجهات مشتركة وأمثال ذلك فلم هذا التشاؤم؟! والحقيقة: إننا يجب أن لا نخدع أنفسنا فالتفاؤل المفرط أشد ضرراً من التشاؤم المفرط وإلا؛ فلماذا هذه الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي؟ ولماذا عدم التوحد حتى على قضية هامة كقضية فلسطين؟ ولماذا هذا الاختلاف الكبير في مستوى المعيشة والقدرات والإمكانات فبين جزء إسلامي لا يجد ما يأكل وجزء إسلامي متختم من كثرة الأكل والترف؟ ولماذا لا نملك اليوم معالم الأمة الواحدة الشاهدة والتي هي خير أمة أخرجت للناس؟ إن هذه المنظمات خطوات صغيرة وربما كانت أحياناً للتغطية السياسية والتمويه والتخدير. ولماذا تروج بيننا الدعوات الممزقة، القومية والوطنية، والجغرافية الضيقة، والعلمانية وأمثال ذلك؟ لماذا لا نملك على الأقل أن نحسس كل المسلمين بقضايانا الكبرى في فلسطين وغيرها فنخرجهم من حالة اللامبالاة؟ لماذا لم ندرك لحد الآن جميعاً أن القوى الكبرى وفي طليعتها أميركا المجرمة لا تريد بنا إلا شراً؟ لقد بلغ بنا الحال إلى حد يسعى فيه البعض إلى مد اليد إلى الصهيونية عدوة الإسلام! إن واقعنا ممزق بلا ريب وعليه أن يعي عوامل هذا التمزق فما هي:

عوامل التمزق اليوم

إن أهم عوامل التمزق اليوم هي:

الاستعمار والاستكبار العالمي والذي يستفيد من أرضية ملائمة للتمزق هي أرضية (التعصب، والجهل، والمصالح الضيقة). إن الاستكبار العالمي اليوم يحس بأن الأمة الإسلامية تمتلك كل عناصر النهوض، رسالة واقعية إنسانية، وعناصر مادية وبشرية، وقيادة حقيقية قدمت تجربة رائعة، وتأييد الهي موعود، ومقومات واقعية للوحدة. ولما لم يكن ليستطيع تغيير أي عنصر سوى الوحدة فهو يركز جل اهتمامه وتآمره على تمزيق هذه الوحدة مستفيداً كما قلنا من جهل بعض المسلمين، ومن تعصب الآخرين، ومن مصالح الخاضعين لسياسته الجائرة.

وهو يسخر لهذا الهدف أساطيله الإعلامية، وعقوله المخططه وعملاء في المنطقة سواء العملاء الفكريون أو الجواسيس والمتسلطون.

فما العمل على ضوء هذا؟

إننا نعتقد أن الشعوب الإسلامية اليوم في يقظة عظمى وفي شوق كبير لتحقيق الوحدة الحقيقية وهذه اليقظة هي مقدمة العمل الكبيرة. فعلينا إذن:

١- أن نفصح مخططات الاستكبار العالمي وهو أمر سهل فيكفي مجرد عرض بعض المواقف الأميركية ليكتشف المسلم الواقع.

٢- كما أن علينا أن نعرض حقيقة التزييف الوجودي المطروح على الساحة ونري أفراد الأمة بالأرقام المحسوسة كذبه وافتراءه.

٣- ومن ثم ننطلق باسم القرآن الكريم لنعمق أساليب القرآن العاملة على الوحدة في الأمة المسلمة أسلوباً أسلوباً فنذكر بمحور الوحدة الإسلامية - (حب الله).

ونذكر بآثار الوحدة هذه.

ونركز على وحدة الأصل والمسير والهدف.

ونغرس الأخلاقية في النفوس.

ونصور للامة أهدافها ووظائفها السامية.

ونشيع مقاييس التفاضل الأصيلة.

ونؤكد على نقاط الالتقاء.

ونتبع الأسلوب الأمثل للمحاوراة البناءة.

وأخيراً يجب أن لا ننسى الدور الذي يمكن أن يؤديه تكتيل الأمة حول قضاياها المشتركة في

فلسطين وغيرها.

إننا أيها المسلمون!

نمتلك كل عوامل الوحدة الحقيقية على الصعيد العقائدي والعاطفي والأخلاقي والسلوكي

فيجب أن لا تمنعنا بعض الاختلاف في الرأي والاجتهاد من أن نلتحم بوجه العدو.

إننا بالإضافة لما سبق نملك بلا ريب إستراتيجية واحدة وتوقف مصالحنا السياسية على هذا

الموقف الواحد ضد الاستكبار العالمي .

وبعد كل هذا نقول:

إن عقيدتنا تدعونا إلى الوحدة الإسلامية .

وإن نظامنا يدعونا إلى الوحدة الإسلامية .

وإن إستراتيجيتنا السياسية تدعونا إلى الوحدة الإسلامية .

فلماذا هذا التواني؟! ولماذا التحير؟ إنها فرصة الوحدة الإسلامية الكبرى فلننتقل لتحقيقها تحت لواء القرآن الكريم ولنستمع بعد ذلك إلى النداءات المخلصة التي يطلقها القادة والمفكرون ونغض الطرف عن كل ما يشين ويمزق هذه الوحدة بعد أن نمتلك المقياس الذي نشخص به الموجهين الحقيقيين عن الأشخاص المزيفين وأدعياء الوصاية على الدين وهم محكومون لمخططات الكفر والاستكبار .

وحدة المسيرة المؤمنة عبر التاريخ

وحدة المسيرة المؤمنة عبر التاريخ . هذه العبارة حقيقة يؤكدها الإسلام ويركزها في خلد الإنسان المسلم ليدركه أنه جزء من سلسلة تاريخية ممتدة من عمق الزمن من جهة، وستمند إلى العمق الآخر إلى الغد الممتد من جهة ثانية .

فالإنسان المسلم ليس وحيداً، ولا يعيش في إطار خاص، وفي دائرة ضيقة، ولا حتى في دائرة مكانه أو قطره أو أرضه كلها، ولا حتى في دائرة زمانه الخاص . الإنسان المؤمن - في الوقع - حلقة من سلسلة ممتدة كلها مترابطة تضع خطواً على خطو، وتستهدف هدفاً واحداً، منطلقاً من منطلق واحد وفي إطار مسيرة واحدة .

هذا المفهوم يركزه الإسلام في ذهن الإنسان المسلم، وفي خلده وفي نفسه، وفي روحيته، من خلال مظاهر شتى:

الأول: يركزه بشكل مباشر فبعد أن يعدد أو يذكر مسيرة الأنبياء - مثلاً - يطرح هذه الحقيقة، قائلاً: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ .

يعني بعد أن يذكر الأنبياء، واحداً بعد الآخر، ورسولاً بعد رسول، ينظر للمسيرة الممتدة، لكل الإنسان المؤمن، قائلاً: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ . أو في آية

أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^١ و﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^٢.

هذا أسلوب يشير فيه القرآن إلى وحدة المسيرة المؤمنة بشكل مباشر.

والثاني: يطرح هذه الوحدة من خلال وحدة المسير، يقول للمؤمنين: (مسيرتكم واحدة، شريعتكم واحدة).

قد تتفاوت الشرايع - من حيث الإجمال والتفصيل -، قد تتفاوت من حيث تحريم بعض الأشياء وتحليلها، ولكن أصول المسيرة ومعالم المسيرة العامة تبقى واحدة دائماً.

القرآن يقول: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾^٣. والآية واضحة جداً في بيان وحدة المسيرة، حتى أننا نجد أن بعض الآيات التي تذكر تشريع بعض العبادات في الإسلام تؤكد أن هذه العبادة ليست أمراً مبتكراً في هذه الشريعة، وإنما كتب مثل هذه العبادة على أمم سابقة مؤمنة.

الآية القرآنية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^٤.

أو على لسان النبي عيسى عليه السلام حيث يقول: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^٥.

فهناك شيء من التفاوت، ولكن الأصول والمعالم العامة واحدة في كل الشرايع.

إذاً: المسيرة المؤمنة - هنا - تركز من خلال وحدة المسير ومن خلال وحدة الشريعة. كما نجد أن

هذه المسيرة تركز في خلد الإنسان المسلم عبر نظرية تقسيم المراحل الإنسانية في القرآن الكريم.

القرآن يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ

١. المؤمنون: ٥١.

٢. المؤمنون: ٥٢.

٣. الشورى: ١٣.

٤. البقرة: ١٨٣.

٥. آل عمران: ٥٠.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^١.

كما تركز (وحدة المسيرة المؤمنة) من خلال وحدة السنن الإلهية في التاريخ، السنن الإلهية التي تتحكم في المسيرة الإنسانية عموماً، هذه الوحدة تنعكس أيضاً على المسيرة المؤمنة.

القرآن يقول: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾^٢.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^٣.

ويتم التركيز على وحدة الأصل ووحدة الهدف، ووحدة المسؤولية، ووحدة المصير: ففي

مجال وحدة الأصل، نجد القرآن يركز أنه: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^٤.

وفي مجال وحدة أصل الهدف. القرآن يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٥.

وعن وحدة المسؤولية: نجد القرآن يركز على أن المسؤولية الإنسانية ملقاة على النوع الإنساني:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^٦. الخليفة هنا هو الإنسان بنوعه.

وعن وحدة المصير يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^٧.

وقد روي أن أحد أصحاب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، قد هزه الفرح عندما انتصر الإمام في

أحدى معاركه، وتألّم أيضاً لأن أخاه لم يوفق لأن يشهد المعركة ويرى هذا النصر العلوي الزاهر.

يأتي هذا الإنسان إلى الإمام ويظهر فرحه من جهة ويظهر أيضاً تألمه لأن أخاه لم يشهد هذا

المعنى، ويسأله الإمام ويقول: (أهوى أخيك معنا؟) هل هو على خطنا، هل هو على نفس

المسيرة؟ فيجيبه ذلك الإنسان: (نعم)، يقول له الإمام: (فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا

١. البقرة: ٢١٣.

٢. الاسراء: ٧٧.

٣. الاحزاب: ٣٨.

٤. الاعراف: ١٨٩.

٥. الذاريات: ٥٦.

٦. البقرة: ٣٠.

٧. البقرة: ١٥٦.

هذا قوم في أصلاب الرجال وراحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان^١. بهذا المستوى: إن الإيمان سوف يقوى بهؤلاء، حتى وإن لم تلدهم أمهاتهم بعد، كما أن هؤلاء شاركوا علياً في مسيرته وفي حربه.

نحن نعلم أن إبراهيم كان هو الذي سمي أمة الرسول العظيم بالمسلمين.

(ملة ايكم إبراهيم هو سماءكم المسلمين من قبل) وهذا يعطي الإنسان المسلم صورة متصلة من ذلك العصر وحتى هذا العصر، وبالتالي يمنح الإنسان المسلم قوة واملأً عظيماً وإصراراً على ذلك الخط العظيم. ثم أن الإنسان الذي يطوف حول الكعبة أيضاً يقال له: انت تضع قدمك في المكان الذي وضع المؤمنون عبر التاريخ اقدمهم، الإنسان المسلم - حساً - يضع قدمه في مكان وضع المؤمنون والأنبياء والصالحون اقدمهم، هذا المعنى يمنح الإنسان المؤمن حساً فيعيش هذا التصور، أنه يعيش في مسيرة مسلمة واحدة، ويطوف حول بيت، يمتد من عهد آدم رمزاً للتوحيد، الأنبياء كلهم يحجون، موسى يحرم ويطوف حول البيت وعليه قطيفتان قطوانيتان كما في الرواية، يلي فتحيه الجبال إبراهيم واسماعيل بينان هذه الكعبة، وهكذا يتصور الإنسان الحاج عندما يطوف حول البيت أنه يقف مواقف أنبيائه - كما يعبر أمير المؤمنين علي سلام الله عليه.

هذا المعنى أو هذا الشعور يترك أثراً على النفس الإنسانية.

١- من الآثار التي يتركها هذا المعنى: أصالة المسيرة المؤمنة، وعمق هذه المسيرة من أول التاريخ إلى نهايته، فليست هناك غربة وليست هناك وحدة وانعزال.

٢- ومن الآثار: الاعتبار من المسيرة الأولى وهو يعني أن الإنسان المسلم يجعل كل مراحل هذه المسيرة مدارس، وما مرت به هذه المسيرة عبراً يستفيد منها. قتل قاييل لهاييل، عبرة لها دلالاتها، حتى حركة وتصرف المرأتين اللتين واجههما موسى عند البئر، وحتى مشية هذه المرأة (تمشي على استحياء) يمكن أن تخلدها العقلية المعتبرة أن المرأة - هنا - جاءت تمشي على استحياء لموسى. امرأة فرعون وموقفها من فرعون يصبح مثلاً يضرب للذين آمنوا عبر التاريخ.

﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي

١. نهج البلاغة - صبحي الصالح ص ٥٥.

مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾

امرأة في مسيرة تاريخية بعيدة تضرب مثلاً لكل المؤمنين عبر التاريخ.
كل التاريخ يصبح عبرة للإنسان من خلال وحدة هذه المسيرة التاريخية. اليس هذا يقوم من فكرة وحدة المسيرة المؤمنة؟
٣- ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمن وسعة افق هذا الإنسان المؤمن.

والشيء الآخر:

تلاحم خطى الأمة المسلمة ومسؤولية كل إنسان عن المستقبل والعمل له.
ومن هنا نستطيع أن أقول إن رسالة الإسلام العالمية رسالة ترتبط بهذا المفهوم بشكل وثيق لا يمكن انفصاله.

صلاة الجمعة: مجتمع إسلامي مصغر من معالم المجتمع الإسلامي

(الإسلام): هو اليوم الدين الوحيد الذي يمتلك اطروحة الترابط بين كل شيء في وجود الإنسان، وواقعه الحياتي الواسع الأبعاد.
هو الترابط بين واقعه الفطري الداخلي وتصوراته العامة عن الكون والحياة، وسلوكه العملي، فنجد أروع تلاحم بين العوالم الثلاثة في وجوده: (عالم الفطرة)، و(عالم النظرة للكون) و(عالم الأيديولوجية والسلوك).
واطروحته هي الوحيدة التي تأخذ بعين الاعتبار كل خصائص العوالم المذكورة بشكل طبيعي، بعد أن كانت هي بنفسها نتيجة حتمية لبناء عقائدي متين. وحصيلة تنظيمية تضمن للإنسان - الفرد والمجتمع - ديمومة السير على خط التكامل المطرد... خط الفطرة الأصيل.
وباعتبار هذه الظاهرة العامة في الإسلام - الظاهرة الواقعية - فهو يعمل على ربط السلوك الإنساني الإرادي بالله منبع الوجود، ومالك الكون، وخالق الإنسان، والرحيم العليم بما يصلحه ويفسده، والغاية القصوى التي يكدح إليها.

وهذا تتم عملية التسامي الإنساني متجلية في التلاحم بين المسجد والحياة، بين العبادة والسلوك، فإذا بالمسجد يسع الحياة، وإذا بالحياة تنبض بروح المسجد، فيمتلئ الوجود الإنساني بنور الله، لينطلق متضرعاً لله يسأله الهدى التشريعي المواكب للهدى التكويني.

بهذا المنظار ندرك معالم المجتمع الإنساني الحق.

إنه مجتمع رباني منشئ بالسماء في تحركه التشريعي.

وهو مجتمع يتبع أثر القيادة الالهية وتشده الولاية إليها بكل وعي.

وهو مجتمع واحد منسجم ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وغير ذلك.

صلاة الجمعة؛ مجتمع إسلامي مصغر

إذا تأملنا معالم المجتمع الإسلامي، رأيناه يتمثل في نموذج عبادي أسبوعي هو (صلاة الجمعة) إذ تتلاحم فيها الصلاة والحياة أو الهيام في الله والتعامل الاجتماعي وشخصية الإمام المطاع، والمجتمع الواعي المحاسب.

ذلك إننا نجد فيها:

أولاً: تجتمع الفئات المختلفة على صعيد واحد.

ثانياً: توجه الجميع إلى الكعبة رمز التوحيد.

ثالثاً: التبعية العبادية لحركات الإمام.

رابعاً: استعراض الإمام للقضايا الاجتماعية أمام المأمومين الأمة.

خامساً: يضم الجميع أطار تربوي متمثل في قصد القرية، وفي المواعظ الأخلاقية العملية التي يقوم بها الإمام، وفي الأدعية المعتبرة التي يدعو بها المصلون، وغير ذلك.

فصلاة الجمعة إذن صورة عملية لمجتمع إسلامي مصغر يعرضها الإسلام كل أسبوع، ليذكر الأمة المسلمة بخصائصها، ويخلق فيها الداعي للعودة إلى مثل هذه المعالم إذا فقدتها يوماً ما.

ولكي يعطي هذه الصورة تأثيرها العميق في النفوس، فإنه يحيط هذه الصلاة بهالة من التقديس، ويعظمها في النفوس، ويعد عليها بالثواب العظيم، وينزل فيها سورة قرآنية كريمة، ويطلب من الأمة أن تترك كل مألدها من عمل وتجارة وغير ذلك، ويحثها للسعي نحو ما عند الله فهو الخير المطلق، وهو العطاء الجزيل.

إذ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وقد جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (ما من قدم سعت إلى الجمعة إلا حرم الله جسدها على النار) ^١ وبهذا يحس المسلم أنه بسعيه إلى الجمعة يسعى إلى الجنة.. الجنة في الحياة الدنيا، والجنة في الحياة الآخرة.

ويأتي أعرابي يقال له (قُليب) إلى الرسول صلى الله عليه وآله فيقول: (يارسول الله اني تهيأت إلى الحج كذا وكذا مرة فما قُدري).

فيقول له الرسول العظيم: (يا قُليب، عليك بالجمعة فإنها حج المساكين) ^٢.

وهذا شعور آخر يعطيه الإسلام للمسلم وهو يتجه إلى صلاة الجمعة، أنه شعور الراحل إلى الحج ليطوف حول مركز التوحيد ورمزه، وليسعى ما بين الحدين، وفي إطار الحدود الالهية، وليرمي الشيطان، فيعلن غضبه على الطاغوت.

وإذا تذكرنا أن عملية الحج هي عملية تربية لمثلي البشرية كلها على نمط السلوك الذي يريده الإسلام للإنسان - الفرد والمجتمع - أدركنا بكل وضوح معنى تركيزنا على أن صلاة الجمعة هي صورة رمزية عملية للمجتمع الإسلامي.

وهنا تبدو لنا رواية تربط بروعة بين عملية التسابق إلى الجنة يوم القيامة، وعملية التسابق في هذه الحياة إلى صلاة الجمعة، فيقول الإمام الصادق عليه السلام: (وإنكم لتتسابقون إلى الجنة على قدر سبقكم إلى الجمعة) ^٣ أليست الحياة الآخرة انعكاساً للحياة الدنيا؟ وأليس السلوك بل والشكل

١. وسائل الشيعة، ج ٣٩ ص ٣٩.

٢. وسائل الشيعة، ج ٥ ص ٥.

٣. نفس المصدر السابق، ص ٧.

الذي يحشر عليه بنو آدم ينسجم مع نوعية السلوك في الحياة الدنيا؟
وفي الرواية عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: (ضمنت لسته على الله الجنة، منهم: رجل
خرج إلى الجمعة فمات فله الجنة)^١.

ألم تؤكد الروايات من قبل أنه في طريق الجنة؟ إذن فهو يصل إلى القصد المطلوب.
وزيادة في التكريم وإعطاء الجو النفسي المؤثر، يأتي الحديث عن: (فضل يوم الجمعة وحقه).
وروى الصدوق بسنده عن الصادق عليه السلام أنه قال: (إنَّ للجمعة حقاً وحُرمةً، فإياك أن تُضَيِّعَ
أو تُقَصِّرَ في شيء من عبادة الله والتقرب إليه بالعمل الصالح، وترك المحارم كلها، فإن الله
يضاعف فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات).

قال: وذكر أن يومه مثل ليلته، فإن استطعت أن تُحَيِّمَها بالصلاة والدعاء فافعل)^٢.
وعن الرضا عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إنَّ يوم) الجمعة سيد الأيام، يضاعف الله فيه
الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات، وتُكشَفُ فيه
الكربات، وتُقضى فيه الحوائج العظام، وهو يوم المزيد، لله فيه عتقاء وطلاقاً من النار. وما استخفَّ
أحد بحرمته وضَيِّعَ حقَّه إلا كان حقاً على الله عزَّ وجلَّ أن يصلِّيه نار جهنم إلا أن يتوب)^٣.

وهناك مجموعة، من الأدعية الواردة استحباب قراءتها ليلة الجمعة ويومها.
وقد علَّم القادة أتباعهم أن يتهيأوا للجمعة وعباداتها، ويعدُّوا لها العدة النفسية المطلوبة. ففي
الرواية أنَّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان يتهيأ يوم الخميس للجمعة^٤.
وهكذا تزيد الرواية التالية الموقف إجلالاً حين تقول: (ما طلعت الشمس بيوم أفضل
من يوم الجمعة)^٥.

ولكي يمكن ضمان التوجه، وبالتالي ضمان تأثير التعليمات الأخلاقية والاجتماعية التي

١. نفس المصدر، ص ٦.

٢. نفس المصدر، ص ٦٣.

٣. نفس المصدر، ص ٦٣.

٤. نفس المصدر، ص ٨.

٥. نفس المصدر، ص ٦.

تتضمنها هذه الصلاة، كان أي حديث أثناء الخطبة ممنوعاً، وأوجب الإسلام الاستماع الواعي المعبر عنه أحياناً بـ (الحضور القلبي).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: (إذا خطب الإمام يوم الجمعة فلا ينبغي لأحد أن يتكلم حتى يفرغ الإمام من خطبته).

هذا وبعد أن تهيأت كل الأجواء النفسية والشكلية اللازمة، تأتي الروايات، لتتحدث عن مضمون الخطبتين، والأهداف التي ينبغي تحقيقها منها.

ونحن هنا نكتفي بذكر الرواية الواردة عن الإمام الرضا عليه السلام التي تبين بكل وضوح الغاية المطلوبة فتقول: (إنما جعلت الخطبة يوم الجمعة؛ لأن الجمعة مشهد عام، فأراد أن يكون للأمير سبب إلى مو عظمتهم وترغيبهم في الطاعة، وترهيبهم من المعصية، وتوقيفهم على ما أراد من مصلحة دينهم ودنياهم، ويخبرهم بما ورد عليهم من الآفات ومن الأهوال التي لهم فيها المضرة والمنفعة، ولا يكون الصابر في الصلاة منفصلاً، وليس بفاعل غيره ممن يؤم الناس في غير يوم الجمعة، وإنما جعلت خطبتين واحدة للثناء على الله والتمجيد والتقديس لله عز وجل، والأخرى للحوائج والإعذار والإنذار والدعاء، ولما يريد أن يعلمهم من أمره ونهيه ما فيه الصلاح والفساد).^١

والرواية تركز على أمور كثيرة:

أولاً: إن صلاة الجمعة، تجمع عام ليس كممثل تجمع صلاة الجماعة، ومن هنا نجد أن فقهاء مذهب أهل البيت يفتون بعدم صحة صلاتي جمعة فيما دون الفرسخين.

ثانياً: فإن الذي يؤم المصلين فيها هو الأمير، وهو من امتلك سلطة تنفيذية، وكان له حق إصدار الأمر في شؤون منطقتة، مما يعطينا الصبغة السياسية التي تملكها هذه العبادة من جهة، ويوضح أن الأمير يجب أن يكون على المستوى الخاص من حسن السلوك بحيث تصح الصلاة خلفه.

ثالثاً: إن الصلاة ترغيب في الطاعة، وترهيب من المعصية، فهي تذكير للأمة بلزوم تطبيق شريعة الله، والحذر من أية معصية وانحراف. وهذا يعني استعراض خطوات الشعب، وتقييمها بهذا المنظار الإلهي.

١. نفس المصدر، ص ٣٩.

رابعاً: تقديم تقرير عن خطط الحاكم المستقبلية لتعويض الأمة، وتقديم بالتالي النصيحة اللازمة.
خامساً: استعراض الموقف السياسي العام وما تتعرض له الأمة من أهوال وحوادث ضارة أو نافعة.
وهكذا تتوالى هذه التعاليم السياسية الاجتماعية.

صلاة الجمعة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

يرتبط تاريخ هذه الصلاة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بدور هذه الصلاة نفسها. ذلك إننا من خلال ما رأيناه نُدرِك أنّ صلاة الجمعة عبادة سياسية ترمز إلى تركيز نوعية العلاقة الاجتماعية فيما بين الأفراد أنفسهم من جهة، وبينهم وبين قيادتهم من جهة أخرى، فمصيرها مرتبط بمصير القيادة الإسلامية المؤهلة العادلة تمام الارتباط. ولذا نجد هذه الصلاة تفقد شرط قيامها لدى الكثير من علماء هذه المدرسة عندما تسلّم الحكم أمثال: يزيد، والسفاح، والمتوكل من الطغاة المتحكّمين ظلماً بالعباد.. وكان هذا المعنى مع وجود شيء من الاختلاف في النصوص، العامل الذي جعل العلماء ينقسمون إلى طوائف:

فطائفة ترى وجوب هذه الصلاة تعييناً، وأخرى ترى أنّها تتحول إلى واجب تحييري، مثلها كمثل صلاة الظهر يوم الجمعة. في حين ترى طائفة ثالثة أنّها تسقط عن الوجوب. وهكذا. وكان هذا الاختلاف عاملاً في عدم عمومية إقامة هذه الصلاة بين أتباع هذه المدرسة. كما قد يكون من العوامل التي دعت - ولو من بعيد - للعمل على تهيئة أرضية الوجوب من جديد، أي إعادة الحكم الإسلامي إلى الواقع التطبيقي، ليؤم الحاكم العادل أو من يعينه المصلين يوم الجمعة. ومن هنا نقول أيضاً:

إنّ من أكبر نتائج نجاح الثورة الإسلامية الظاهرة في إيران بقيادة قائد النهضة الإسلامية الحديثة الإمام الخميني عليه السلام عودة صلاة الجمعة، رمز المجتمع الإسلامي المصغر، إلى الظهور كعامل ثوري ضخم، يشدّ الجماهير إلى بعضها البعض، ويشدّها جميعاً إلى قيادتها الحكيمة، ويعرب فيها الشعب عن إصراره على تطبيق الإسلام، ويتحدث فيها إمام الجمعة عن كلّ شيء بصراحة، يربّي فيها الأمة، ويطلعها على الموقف الاجتماعي والسياسي، ويستشيرها في اتخاذ المواقف المستقبلية.

دور الحج في تنشيط الوحدة الإسلامية

(الوحدة الإسلامية) هي إحدى خصائص الأمة الإسلامية المهمة ولا يمكن أن نتصور أمة إسلامية متكاملة الشخصية دونما تصور لهذه الخصيصة وبدونها تكون الأمة قد فقدت الكثير من خصائصها الأخرى وربما تكون قد فقدت خاصية الإيمان الصادق بالله العظيم وبطريقها الإسلامي الواحد.

ولا تعني الوحدة الإسلامية قولبة كل الأفكار ووحدة كل الانهاط الفكرية والذوقية وامثال ذلك فإن ذلك من المستحيل وانما تعني الاستجابة للبرنامج الإسلامي المخطط وتكوين أمة تقيم التوازن بين خطين أساسيين:

احدهما - هذا الاختلاف الطبيعي بين الاذواق والإمكانات والمستويات العلمية، وزوايا النظر، والثقافات والأدلة وكيفية الاستنباط والقناعات التحقيقية وامثال ذلك من الأسباب الطبيعية التي تنتج الاختلاف وقد بحثها علماءنا الاجلاء منذ القرون العديدة.

وثانيهما: لزوم الموقف الموحد في مجالات عديدة اهمها:

أ - الأصول الإسلامية الأولى التي تقع موقع البديهيات الإسلامية فيجب أن تشكل المساحات الفكرية المشتركة.

ب - الأخلاقية العامة التي تشكل الخصيصة المشتركة الأخرى بل يتعدى الأمر هذه المساحة إلى حيث يشغل كل الخصائص العامة للأمة الإسلامية فيجب أن يعمل كل المسلمين على التحلي بهذه الخصائص أو على أن تتحلى أمتهم بها.

ج - تطبيق الشريعة الإسلامية على كل الحياة ويمكن أن يعد هذا من البديهيات الفقهية للإسلام باعتباره اطروحة حياتية جاء الأنبياء جميعا ليعدوا البشرية لتقبلها وتطبيقها.

د - الموقف السياسي الموحد من القضايا العالمية وخصوصا في قبال اعداء القضية كلها وهم المشركون والمنافقون والمستكبرون والعمل على الدفاع عن بيضة الإسلام.

هذه - إجمالاً - هي المجالات التي يجب أن تتوحد فيها الأمة فإذا تم هذا عدنا إلى ما قلناه من أن الأمة الإسلامية يجب أن تحقق هذا التوازن بين الخطين فتضمن من جهة تدفق الأفكار الجادة ونشاط الاجتهادات المفيدة في نفس الوقت الذي تضمن فيه الموقف الموحد في المجالات الآتفة. وقد أشرنا إلى البرنامج الإسلامي الواسع لتحقيق هذا التعادل ولا نستطيع أن نتناول كل اطرافه

هنا فهو واسع الأبعاد والحقيقة أن من يلحظ الأمور التالية يدرك عمق التخطيط الإسلامي لتحقيق الوحدة الإسلامية وهي:

أولاً: إن الوحدة التي يسعى لها الإسلام تقوم على أساس العقيدة والعاطفة معا والتي يتم التعبير عنها بوحدة القلوب.

ومجمل العقيدة الإسلامية في أصولها، وبرنامج الشد العاطفي الإسلامي يتكفلان بما لا مزيد عليه بتحقيق ذلك باروع صورة.

ثانياً: إن النظام الإسلامي يوقف المسلمين جميعاً دوناً أي تمييز امامه على حد سواء، ويشعرهم بلزوم تحمل مسؤولياتهم المشتركة تجاهه دوناً أي تقصير، والا وجه اللوم للجميع على حد سواء.

ثالثاً: حذف الإسلام كل مقاييس التفاضل وابقى على المقاييس المعنوية فقط وهي (التقوى والعلم والجهاد والعمل) لا غير ووفر بذلك اروع أرضية للوحدة.

رابعاً: هناك مساحات فعلية تشعر المسلمين بوحدتهم من قبيل ما تقرره الشريعة من ملكية عامة لافراد الأمة.

خامساً: ويقف نظام العبادات في طليعة النظم التي تؤدي إلى تعميق الوحدة الإسلامية، حيث يقف المسلمون في كل بقاع الأرض في وقت واحد - عرفاً - متجهين إلى مكان واحد ومرددين ذكراً واحداً ومؤدين لعمل واحد وملتزمين بشروط واحدة. وحين تدخل الأمة الإسلامية كلها في عملية تربوية كبرى في كل سنة شهراً واحداً وذلك بملاء ارادتها فهي تتدرب على استرجاع إنسانيتها وتعميق جذورها في النفوس.

وهكذا نصل إلى الحج كعملية تربوية رائعة يجتمع فيها ممثلو الإنسانية المسلمة من كل حذب وصوب ليتدربوا فيها على أمور كثيرة جدا وليحققوا منافع كبرى لهم في حياتهم المعنوية والمادية. فتتغرس في نفوسهم معاني الأمة الواحدة العابدة الطائفة حول التوحيد والرافضة للنظم الوضعية والأخلاق الصنمية، والملتزمة بحدود الله وحرماته والنازعة لكل العناصر المفرقة ماديا بين البشر والمتبرئة من المشركين، والمحاسبة نفسها وحكامها على ما اكتسبوا، وغير ذلك من الفوائد الجممة.

ولكي يضمن الإسلام للحج أن يؤدي دوره الوحدوي العظيم في حياة الأمة فقد قرن به أموراً وخصه بخصائص كلها تعمل بتناسق على تحقيق أهدافه.

فهناك الظروف المكانية حيث بيت التوحيد الذي خصه الله بخصائصه يوم خلق الأرض والذي بناه أبو التوحيد إبراهيم والذي يحمل في كل جنباته بصمات الأنبياء وفي طليعتها بصمات الرسالة الإسلامية وقادتها العظام.

وهناك الظروف الزمانية حيث الشهر الحرام وحيث الأيام العشر التي يهبها الله للبشرية لكي تستكمل استعدادها لقبول الرسالة الالهية ويتبع هذه الظروف.

هناك العديد يوم العودة الإنسانية إلى ربها والعودة الالهية بالرحمة للعبيد.

وهناك المناسك الرائعة المعنى وكل منها يرمز إلى عطاء كبير ومضمون سخي كالأحرام والطواف والوقوف والنحر والحلق والرمي وغيرها من المناسك الجملة التعبير.

وهناك الأذكار والادعية التي تتناغم مع تلك المناسك غاية التناغم وتحقق الهدف المنشود. ولكي تتم الرسالة الإسلامية الجو المنشود للتأثير طرحت فكرة القدسية والأمان لهذا المكان وهذه الفترة فأكملت بذلك العطاء. وهاتان الصفتان تملكان مضامين اجتماعية كبرى لخصنها في تحقيق آخر بما يلي:

اولاً: الأشعار بأن البيت الحرام وهذه البقعة المقدسة التي تحيط به هي مدار حركة الأرض وان على البشرية إذا ارادت لنفسها الأمان من الأهواء والالهة الوهمية والضياح في متاهات الضلال، أن تطوف حول هذا البيت وتعمل بالشريعة التي تبشر بها وتتأصل في وجودها معاني التوحيد التي يرمز إليها فالأمان الحقيقي هو أمان هذا البيت، والأمان الحقيقي هو الأمان الذي ينبع من الاعتقاد بالله العظيم والالتجاء إليه تعالى وهو القادر المطلق، والأمان المطلق للخائفين والرحيم الودود بعباده، وحيث فلا خوف من المستقبل ولا حزن على الماضي.

إنه أمان اللجوء إلى نظام الله والتخلص من ضلال النظم الوضعية وأنه أمان اللجوء إلى رضا الله كمقياس موحد للبشرية والتخلص من المقاييس المادية الممزقة.

وإنه أمان التلاحم بين القلوب المخلصة التي تعمل لتحقيق خصائص الأمة الإسلامية.

وإنه أمان الاجيال الإنسانية المتتابعة على خط واحد ترسم سبيل الأنبياء وتنفذ أوامر الله تعالى كالملائكة المطيفين بعرش الله.

وإنه أمان الحاملين لعلم الله ولواء الإسلام الحنيف.

كل هذه المعاني يبعثها في النفوس هذا الحكم الالهي المهم.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام (وفرض عليكم حج بيته الحرام: الذي جعله قبلة للانام، يردونه ورواد الانعام، ويألّهون إليه ولوه الحمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته واذعانهم لعزته، واختار من خلقه سماعاً اجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف انبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه يجرزون الارباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائدين حرماً. فرض حقه واوجب حجه وكتب عليكم وفادته)^١. ونحن نلاحظ في هذا النص الشريف التأكيد على:

أ- الارتباط العاطفي للانام بهذا البيت الحرام، تواضعاً لعظمة الله.

ب - الاختيار والتوفيق الالهي لمجموعة من كل منطقة ليمثلوا كل الأرض في هذه الدورة التدريبية السماوية الرائعة.

ج - إن هؤلاء يشعرون بأنهم بهذا: يجيبون دعوة الله، ويصدقون بكلمة الله ويمشون على خط انبيائه (خصوصاً بعد تصور حج الأنبياء جميعاً لهذا البيت). ويتشبهون بملائكة الله الطائفين حول العرش (من حيث تنفيذ أوامر الله وجذب الكون كله لطاعة الله) ويستغلون هذا الموسم لانهاء التكامل العبودي في وجودهم والحصول على المغفرة الالهية المنشودة.

ثانياً: الأشعار بضرورة أن يكون للناس مركز يقول فيه كل مسلم كلمته بكل حرية، ويتبادل المؤمنون فيه الأفكار دونها سلطة من جبار أو حاكم مهما كان لونه ومنزلته فيتحول الحج من خلال ذلك إلى مؤتمر عالمي يتجمع فيه ممثلو الامم ويتدارسون احوالهم وما يحيط بمجتمعاتهم من مخاطر ومشاكل وما ينبغي أن يطرحوه من حلول، ويتعرفون على الوسائل التي ينفذ فيها كل فرد مسلم واجبه تجاه الآخرين، ويلاحظون الدسائس والمخططات الاستكبارية المعادية لمسيرتهم التوحيدية الخالصة وينددون بها ويتعرفون على أساليب الوقوف الموحد بوجهها.

وربما استطعنا أن نستفيد هذه المعنى من التقارن الآتي في الآية الكريمة (واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وهذه حقيقة أشار إليها الكثير ممن درسوا هذه الشعيرة الإسلامية المهمة حتى سمي الحج بالمؤتمر الحر السنوي العام للمسلمين هذا وقد كان الحرم كما رأينا موضعاً مقدساً

١. نهج البلاغة: ص ٤٥.

يقول فيه الناس آراءهم بكل حرية حتى في الجاهلية - كما رأينا - الأمر الذي كان يستفيد منه الرسول ﷺ ليعلم دعوته المباركة بكل حرية تماماً كما استفاد من انتساب البيت لإبراهيم عليه السلام لحياء نداء إبراهيم التوحيدى ونفى شبهات اليهود والنصارى.

ثالثاً: الأشعار بالتلاحم بين القدسية والأمان في ظل الحكم الإلهي الاصيل. وأنه إذا كان الحرم لله - ولذا صار محلاً للأمان والقدس - فإن كل الوجود لله وان اشعاعات هذه الحقيقة تمتد إلى كل الوجود ولذا فلا مجال لأي طغيان أو تخويف أو ارعاب المؤمنين بالله، فإذا لم تتحقق هذه الحقيقة في كل الأرض فإن على المؤمنين أن يعملوا على توسعة هذه الدائرة المقدسة الآمنة لتصل إلى مرحلتها الشاملة.

رابعاً: كما قد تكون هاتان الخصيصتان (القدسية والأمان) سراً من اسرار انجذاب القلوب إلى هذه البقعة الطاهرة والتنعم بعطائها الكبير وهو ما لاحظناه في النص السابق عن الإمام علي عليه السلام حينما قال (ويألهون إليه ولوه الحمام) إن القلوب ترد هذه الاماكن الطاهرة بكل عشق وولوه وتتطهر في أجوائها المضمخة بالطهر الإلهي النقي وترجع إلى حياتها الاجتماعية بعيدة عن اوضار المادة سليمة طاهرة تتلقى العطاء الإلهي بكل صفاء وتنشر الرحمة الود والعطف في ارجاء المجتمع موفرة الجو العاطفي المطلوب في المجتمع الإسلامي.

هذا بالإضافة إلى أن الجو العاطفي الملتهب حبا يدع القلوب أكثر استعداداً وقبالا على العبادة واستماع الوحي والتعلق بالمضامين التي ترمز إليها عملية الحج، وما هي في الواقع لإتربية عبادة سياسية على إقامة المجتمع المسلم لله.

خامساً: ثم أن هذا الأمان المعطى للإنسان والحيوان والاعشاب والأرض في هذه البقعة المقدسة يعبر عن تلاحم طبيعي رائع بين عناصر الكون لتحقيق هدف الإنسان الكبير.

وقد جاءت روايات تؤكد التوافق الطبيعي بين الإنسان والطبيعة في عملية الحج بل في كل المسيرة الحياتية.

وقد جاءت الرواية عن الرسول أنه ﷺ عندما رجع من غزوة تبوك واشرف على المدينة قال: (هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه)^١.

١. سفينة البحار ج ١ ص ١٢.

وقد روى المرحوم الكليني بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: (أحرم موسى من رملة مصر قال: ومر بصفائح الروحاء محرما يقود ناقة بخطام من ليف عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتجييه الجبال)^١.

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما من مهمل يهل بالتلبية إلا أهل من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب ومن عن يساره إلى مقطع التراب وقال له الملكان ابشريا عبد الله وما يبشر الله عبدا إلا بالجنة).

وإن هذه المعاني لتترك أثرها في نظرة الإنسان إلى الكون والحياة وتذكره بأن الكون معه أن سار في خط الأنبياء وراح يحقق مقتضيات الخلافة الالهية في الأرض ويبنى المجتمع العابد المسلم.

١. وسائل الشيعة ج ٩ ص ٣.

الفصل الثاني: محاور الوحدة

قلنا إن الإسلام رفض كل الأسس المطروحة مادياً للوحدة وأكد على أساس وحدة العقيدة والتألف القلبي.

وعلى هذا الأساس وحد منابع الوحدة ومحاورها في الأمور التالية:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية الشريفة.

٣- المرجعية التفسيرية لأهل البيت عليهم السلام للقرآن والسنة.

فمن الطبيعي التعرض لها بشيء من الإيجاز.

المحور الأول: القرآن الكريم

وهو أهم اسس الوحدة الإسلامية وعليه يقوم بناء الإسلام والأمة والتشريع وقد تواترت المحاولات المعادية للتشكيك في هذا الأساس ومنها محاولات بعض المستشرقين إلا إنها باءت بالخسران.

وأهم تشكيكين يطرحان من قبل بعض المغفلين في عالمنا الإسلامي هناهما:

١- وجود المتشابه فيه.

٢- التشكيك في الحجية.

ونحن نتعرض باختصار لهذين التشكيكين.

أولاً: وجود المتشابهات في القرآن الكريم

إن أهم أشكال يمكن أن يورد على وجود المتشابه يلخص في تعبيرين:

الأول: إن القرآن الكريم، هدى، ونور، وذكر، وفرقان وحكيم، وما شابه ذلك في حين إن التشابه لا ينسجم مع هذه الصفات لأنه يوقع الإنسان في حيرة من معرفة الحقيقة وربما كان بعض ما فيه لا يمكن معرفته مطلقاً.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي من أن وجود المتشابه في القرآن كان سبباً لاختلاف المذاهب والآراء وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع مذهبهم ونضيف على هذا فنقول:

إن بعض الآيات التي يشير إليها المستشكلون قد تجعل - بل جعلت - ذريعة للتمسك بعقائد تتناقض تمام التناقض مع العقيدة الإلهية بل تقضي عليها من الأساس وهذا يعني نقض الغرض الذي جاءت من أجله الرسالة. وهذا من مثل عقيدة التجسيم الذي يساوق تقديم صورة هزيلة عن الله تعالى مما ينتهي إلى إنكاره في الواقع وكذا من مثل عقيدة الجبر التي تنفي المسؤولية الأخلاقية وتوجد مشاكل كبرى، وعقيدة نفي العصمة عن الأنبياء التي تنتهي إلى التشكيك في أقوالهم وغير ذلك.

وعليه فإن هذا الاشكال - بهذين التعبيرين - لا يمكن أن يدفع بالوجه المذكورة كحكم لوجود المتشابه والتي مهما تصاعدت قيمتها فإنها قد لا تعادل هذا الخسران الأمر الذي يجز الأمة إلى الضياع والتمزق ويقضي على العقيدة ويفقد القرآن - والعياذ بالله - صفته الهادية، أو أن يقال بتعادل الربح والخسران.

وهذا يدعونا لأن نتطلب وجود ما يعصم الأمة من التفرق والتمزق والعقيدة من الانقلاب على أهدافها فما هو هذا المرجع الذي يجب الرجوع إليه؟
ما يبدو من الآية والروايات الشريفة أمران هما:

أ- الآيات المحكمات:

وفيهم الارجاع إليها من جعلها أما للكتاب، والأمية لا ريب تعني المرجعية فهي التي تنفي ادخال صور باطلة في تصور الإنسان عن الآية أو ادخال مصاديق باطلة للمفهوم منها، ويحتاج هذا إلى رسوخ علمي في نفسه.. وما أكثر الآيات المحكمات الواضحة بما لا يقبل الشك في المقصود وبالتالي لا يبقى أي شك في المراد من المتشابه.

ب - الراسخون في العلم:

وهم المرجع الثاني والأكثر عمومية لحل التشابه، فهم الذين يفسرون الدستور الإلهي، ويعطون تفصيلاته ولهم يرجع في الفصل بين الحق والباطل، فهم محور وحدة الأمة وملجأ العلم ومنتهى السبل، ولكن من هم هؤلاء الراسخون في العلم؟ إن الروايات المتواترة معني عن النبي ﷺ لتركز بصورة عامة على أهل البيت للأمة في كل ما يبدو لها من غموض في كل شيء ومن جوانب الغموض هذا التشابه الذي يلاحظ في بعض الآيات القرآنية وأهم هذه الأحاديث حديث الثقلين الذي سلمت به الفرق الإسلامية والذي أكد اقتران العترة بالكتاب ولزوم التمسك بهما معاً وان الرجوع إليهما معاً عاصم من الضلال وأنها لن يفترقا إلى يوم القيامة. وهكذا الاحاديث النبوية المختلفة في علم الإمام عليه السلام مثل حديث أنا مدينة العلم وعليّ بابها. وقد أكد أهل البيت على مرجعيتهم في كل الأمور فهذا نهج البلاغة يصفهم بأنهم: موضع سر النبي، ولجأ أمره، وأنهم أساس الدين وعماد اليقين اليهم يفى الغالي، وبهم يلحق التالي، وهم أزمة الحق، واعلام الدين، وألسنة الصدق، وهم كمثل نجوم السماء إذا خوى نجم طلع نجم، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم وعندهم ابواب الحكم وضيء الأمر، وان نطقوا صدقوا، وان صمتوا لم يسبقوا، وهم عيش العلم وموت الجهل وان بهم عاد الحق إلى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه.^١

ويقول الإمام في نص رائع يعين المرجع في الشبهة (فلا تنفروا من الحق نفار الصحيح من الأجر، والباري من ذي السقم، واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه فالتمسوا ذلك من عند أهله فإنهم عيش العلم وموت الجهل. هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم وصمتهم عن منطقتهم وظاهرهم عن باطنهم لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق، وصامت ناطق).^٢ وهذا ما سنفصل الحديث في المحور الثالث.

١. راجع ص ٧٣٤، نهج البلاغة، صبحي الصالح.

٢. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

منابع التشكيك في الحجية:

حجية الظواهر القرآنية من الأمور المسلمة رغم ما حدث من تشكيك. ويمكننا أن نحصر هذه المنابع في أمرين طرحهما بعض الجاهلدين أو الموتورين وربما تبعهم آخرون وهما:
 أولاً: ما نسب إلى بعض الاخباريين من دعوى التوقف عن العمل بظاهر القرآن لأحد أمرين:
 الأول: حصول علم إجمالي بطرو مخصصات من السنة. وهذا العلم الإجمالي منجز لمثقله ومانع من جريان الأصول في أطرافه لنفي التخصيص. وحتى لو جرت هذه الأصول لتعارضت وسقطت عن الحجية. وهكذا يسري الإجمال لكل الظواهر ويتم التوقف عن العمل.
 إلا أن جوابه واضح تماماً ذلك أن هذا العلم الإجمالي - بعد الفحص والعثور على المخصصات - ينحل إلى علم تفصيلي بالعمومات المخصصة والمطلقات المقيدة، وشبهات ابتدائية في غير هذه الموارد تجري فيها الأصول.

الثاني: ما ورد من الأحاديث الناهية عن تفسير القرآن بالرأي إلا أن من الواضح أن العمل بالظاهر ليس تفسيراً بالرأي، فالتفسير إنما هو للأمر الغامضة لا الظاهرة.

ثانياً: ما ذكر من شبهة التحريف بالنقيصة في بعض آياته

الأمر الذي لا يفسح المجال للعمل بالظواهر القرآنية لاحتمال فقدان القرائن.
 ومنع هذه الشبهة بعض الروايات التي ربما يستدل بها لهذا الفرض وهي واردة في مختلف كتب الحديث السنية والشيعية، والقابلة لكونها مشيرة إلى التحريف المعنوي.
 إلا أن المسلمين عموماً من كلا الفريقين لم يرتضوا مطلقاً هذا الاستدلال استناداً للأدلة القاطعة الحاكمة بعدم تحريف القرآن وفي طليعتها الآيات القرآنية الدالة على حفظ القرآن من أي باطل.
 وقد ذكر المحقق الكركي وهو من أكابر علماء الإمامية: (إن ما دل من الروايات على النقيصة لا بد من تأويلها أو طرحها فإن الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنة المتواترة، والإجماع، ولم يمكن تأويله ولا حملة على بعض الوجوه وجب طرحه).
 وعلق السيد الخوئي على هذا بقوله^١: (أشار المحقق الكركي بكلامه هذا إلى ما أشرنا إليه

١. البيان في تفسير القرآن، ص ٢٣٤.

سابقاً، من أن الروايات المتواترة قد دلت على أن الروايات إذا خالفت القرآن لا بد من طرحها فمن تلك الروايات ما رواه الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بسنده الصحيح عن الصادق عليه السلام (الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة. إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه).^١

وهكذا تندفع هذه الشبهة بعد حصول الإجماع الإسلامي على سلامة القرآن من التحريف بالزيادة أو النقصان ولا مجال لما يبدو أحياناً من التهاثر الرخيص والذي يمهد السبيل لاعداء الإسلام كي يشككوا بالاستدلال بكتاب الله العزيز.

المحور الثاني للوحدة: السنّة النبوية^٢

ربما أمكن القول بأنه لم تواجه أي رسالة أو عقيدة ما واجهه المبدأ الإسلامي من هجوم شرس على مختلف الأصعدة، وبشتى الأساليب الممكنة خلال تاريخه الطويل؛ السيف، والعذاب، والتهم، والاشاعات، والتشويه، والتشريد، واللغو والتحريف، والتشكيك في كل شيء.

وكل ذلك أمر توقعه الإسلام وأعدّ له عدته، ومن ورائه مدد الله وعونه.

وكذلك يجب أن يتوقعه كل عامل لصالح الإسلام واعادته إلى واقع الحياة اليوم ويعد له عدته، على أساس أن ذلك سنة تاريخية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^٣.

ولعلّ اخطر ما في الحملات، التشكيك بالمنابع الأساسية لهذا المبدأ السامي وإضعاف الثقة به. ومن ثم اذابة كل ما يتوقع من خير تضيفه هذه المنابع لأحكام الصورة الإسلامية الاصيلية، وتعميقها في النفوس، ومنحها اصالتها التي بها تقارع وتقاوم ثم تبني وتتقدم.

ولسنا هنا بصدد عرض تاريخي بقدر ما نحن بسبيل مواجهة فعلية مع المشككين اليوم.

لقد واجه المنبع الرئيس الأول للتصورات والتشريعات الإسلامية (القرآن) سبيل التشكيك

١. وسائل الشيعة، ج١٨، كتاب القضاء، ص ٨٦.

٢. القى في المؤتمر السادس عشر للفكر الإسلامي المنعقد في تلمسان - الجزائر بتاريخ ٦ - ٣ شوال ١٤٠٢هـ.

٣. سبأ: ٣٤.

في نسبه السماوي أولاً، وفي مضامينه ثانياً، وفي حجية هذه المضامين ودورها وغير ذلك ولكنه كان اقوى من أي هجوم، وتقهر التشكيك وصدق وعد الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولم نعد نسمع التشكيك في كتاب الله إلا حسيماً لا قيمة له.

ومن ثم استعرت الحملة - والى يومك هذا - ضد المنبع الرئيس الثاني (وهو السنة النبوية المباركة) لكي تنال منها، ومن قدرتها على اعطاء الصورة الاصيلة عبر الدس أولاً والتشكيك بعد ذلك في مجموع الاحاديث التي تتحدث عن السنة ووصفها بعدم الجدية لوجود الدس والتعارض وامثال ذلك.

والواقع أن المسألة خطيرة مصيرية يجب أن لا نمر بها مرور الكرام، بل نقف عندها وفقه واع فقيه بالابعاد الخطيرة لها.

وقد آثرت في هذه الفرصة التعرض للشبه المثارة بشيء من التفصيل راجياً أن يكون حديثي هذا منطلقاً للاستيعاب الأكثر لجوانب الموضوع.

اتباع السنة والعمل بالحديث من الضرورة

لا أغالي إذا ادعيت أن الضرورة العلمية بين المسلمين قائمة على لزوم اتباع سنة الرسول ﷺ إلى يوم القيامة، بل والعمل بها من خلال مضامين الاحاديث الواصلة الينا. ومن هنا فكل تشكيك بذلك إنما هو مجرد شبهة في قبال ضرورة. وقد انصب التشكيك في الواقع على الوعاء الموصل للسنة الشريفة وهو الخبر وخصوصا الخبر غير المفيد للعلم ويدعى اصطلاحاً بخبر الواحد. ولكن التأمل في المستندات المطروحة المنبهة على هذه الضرورة ينفي كل تشكيك فالتأمل في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوهَا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^١. وملاحظة مفهومها من عدم لزوم التبين إذا كان المخبر غير فاسق يؤدي إلى حجية قول هذا المخبر.

وكذا التأمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ

١. الحجرات: ٦.

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١﴾. وغير ذلك من الآيات، ولو لم يكن قولهم حجة لم يكن مجال للحدز.

وكذا التأمل في التواتر المعنوي الذي تشع به الروايات الكثيرة واخيراً التركيز على السيرة الإسلامية القطعية على العمل بخبر الثقة وان لم يفد علماً كل ذلك ينبهنا لهذه الضرورة والبدئية.

دوافع المشككين

يمكننا أن نلخص دوافع المشككين على اختلافها بما يلي:

١- فسح المجال للاقتباس الفكري: ذلك أن السنة إذا كانت محكمة في التشريع والمفاهيم إلى جنب القرآن الكريم اعطتنا صورة كاملة مفصلة عن النظام الكامل الشامل للحياة وبالتالي لم يكن هناك أي مبرر للتوجه إلى النظم الأخرى لاستجدائها وتطبيقها، أما إذا اقصيت فقد انفتح الباب على مصراعيه، للآراء والأهواء المستوردة من قبل عملاء الغرب والشرق وهذه هي الطامة الكبرى التي ابتلي بها من يسمون بالمتقفين اليوم.

٢- العجز والضحالة في الفهم: فقد يؤدي هذا العجز، وقلة الثقافة وعدم التعمق، إلى تبني مثل هذا الرأي لثلا يتلي بالعواقب، وربما كان للشبهات المثارة دورها في تعميق هذا الاتجاه.

٣- توحيد الموقف: فقد اغرى حب توحيد الموقف الإسلامي البعض للرضوخ لهذا الرأي ظاناً أنه به يستطيع أن يوحد الموقف بارجاع الجميع إلى القرآن الكريم وحده ولكنه لا يدري أنه كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ سيمزق الوحدة بشك فضيع. ويمكننا أن نذكر هنا بعض العوامل الأخرى.

بعض الشبهات المطروحة واجوبتها

ونحن هنا نذكر بعض الشبهات المثارة لنعرف مدى ضحالتها.

اولاً: ذكروا أن هناك بعض الروايات التي تتحدث عن الاكتفاء بكتاب الله عن غيره أو تنهى عن كتابة الحديث وامثال ذلك.

ولكن المرء يكاد يجزم بأن هذه الروايات - لو صحت أسانيدها - انها هي بصدد بيان فضل كتاب الله وعظمته، وان لا وحشة على من كان معه القرآن، فهو خير أنيس للمؤمنين لأن تكون بصدد جعله المصدر الوحيد للتشريع، كيف والقرآن نفسه يدعو إلى الاقتداء والتأسي والطاعة لرسول الله والأخذ بما يخبر به المخبرون عن الإسلام وسيرة الرسول ﷺ .

أما الروايات التي ادعي فيها أن بعض الصحابة نهوا عن كتابة الحديث فلا علاقة لها بنفي العمل بالروايات وانما كانت - فيما اعتقد - تعبر عن تحوط من قبلهم لثلا يقع الخلط بين الحديث والقرآن. وبغض النظر عن صحة هذا التحوط وعدمها فإنها لا دلالة فيها على ما يطلبه المشككون هؤلاء، خصوصاً إذا لاحظنا إن الناهين عن كتابة الحديث أنفسهم كانوا من العاملين بالحديث الشريف والداعين للعمل بسنته ﷺ .

وثانياً: ذكروا أن في الروايات ما هو معارض لغيره من الروايات نفسها ولما لم يكن من الممكن أن تتناقض السنة فيجب التوقف في المجموع.

ومن الواضح سخف هذا الاستدلال ذلك أن الروايات المتعارضة لها مساحة قليلة فإذا اريد التوقف فليكن في هذه الدائرة لا غير.

ثم أنه كثيرا ما يكون التعارض ابتدائياً - أي بالنظر الأولي - ولكن بمجرد التأمل ينحل ذلك التعارض بحصول جمع عرفي ظاهر بين المتعارضين، اما بتخصيص أو تقييد أو تقدم لا حددهما على الآخر باعتباره قرينة والقرينة مقدمة على ذي القرينة أو باعتباره يرفع الموضوع أو يتصرف في الحكم مثل تقدم حديث (لا ضرر ولا ضرار) على غيره من الأحكام الأولية.

نعم إذا استحکم التعارض توقفنا عن العمل بهما معاً.

ويجب أن نلاحظ هنا أن التعارض طبعي الوقوع فقد يكون في الأصل ناشئاً من عملية تدرج في اعطاء الاحكام، أو من سقوط شيء وغيابه عن الراوي مما يغير المدلول، أو من وجود خبر مدسوس لا نعلم بدسه فتصوره حجة علينا.

ثالثاً: راح البعض يتحدث عن روايات تتنافى مع القرآن الكريم، ولكنه لم يستطع أن يذكر إلا بعض الروايات. على أن الكثير مما يذكر كمصدق لذلك يرجع إلى تخصيص أو تقييد لمطلق قرآني وهو أمر واقع بشروطه المذكورة في محلها. نعم إذا رأينا الخبر منافياً تماماً لمضمون القرآن ضربنا به عرض الجدار ولم يكن إلا زخرفاً.

رابعاً: راح البعض يذكر أن الاحاديث كانت موجهة للمخاطبين بها بالفعل فلا تشمل غير عصرهم من العصور.

وهذه الشبهة هي من أوهي الشبهات: ذلك أن من المسلّم به الواضح في خلد جميع المسلمين والموحي به من تعليقات القرآن أنه ﷺ كان يتحدث لا مع عصره فحسب بل مع كل العصور، وأن حاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، وأنه أسوة حسنة لكل المؤمنين عبر التاريخ... مما أوجد لدى المسلمين آنذاك قاعدة الاشتراك، أي اشتراك غيرهم معهم في الاحكام، فمتى ماشك في اختصاصهم هم بحكم، أو حتى اختصاص الرسول بحكم دونهم جاءت قاعدة الاشتراك حاكمة في البين.

خامساً: وراح هؤلاء يسوقون الأمثلة على تغير المصطلحات عبر الفترات الزمانية فمصطلحات (الوطن) و(الاشتراكية) و(الرعية) وغير ذلك قد تغيرت رأساً على عقب، ومن هنا فما أدرانا أن ما نفهمه من الروايات هو المقصود الواقعي منها.

ونحن لا نشك في أن بعض ظواهر اللغة والكلام متطورة عبر مؤثرات مختلفة لغوية وفكرية واشراطات تاريخية معينة، فيختلف المعنى الظاهر في عصر الصدور عن ما يظهر في عصر آخر. والمعول عليه هو الظهور في عصر الصدور لا غيره.

إلا أن هناك أصلاً عقلاً مضمياً حتماً من قبل الشارع المقدس بالاقرار يسمى (بأصل عدم النقل) أو كما يسميه العالم الشهيد السيد محمد باقر الصدر (بأصالة الثبات في اللغة) يحل المشكلة موضحاً أن العقلاء يبنون على هذا الأصل باعتبار البطء في حدوث أي تغيير في المفهوم من اللفظ مما يجعله في نظرهم أمراً استثنائياً. فمتى ما شككنا في تغير ما بنينا على عدمه ولا مشكلة في البين مطلقاً.

سادساً: وذكرنا أن هناك الكثير من الروايات المفتراة فكيف نتأكد من الصدور والحال هذه؟ والجواب على هذا واضح بعد الذي قدمناه إذ اننا بعد التجاوز عما يؤدي إلى العلم بالمضمون من الروايات، نقول إن الشارع عبّداً بمضمون اخبار الأحاد التي يروها الثقات واكمل كشفها الناقص عن الواقع التشريعي (باعتبار كونها ظنية) تعبداً لا وجداناً فاعتبرها كالعلم بالواقع فنحن معذورون إذا عملنا بها وخالفنا الواقع وهي منجزة علينا فليس لنا المخالفة فما علينا اذن إلا الفحص والتمحيص الدقيق في السند والمتن والمداليل، ومتى ما انتهى البحث فنحن معذورون امامه تعالى إذا كانت مخالفة للواقع وهذا هو مقتضى الحجية.

سابعاً: وربما طرح البعض شبهة تقول إن تعليقات الرسول خصوصاً في المجال الاجتماعي كانت تقتضي كونه ولياً للأمر لا مخبراً عن الشارع المقدس، أو على الأقل يقال بوقوع الخلط بين ما يصدر بصفة الولي وما يصدر بصفة المشرع.

ولكن الواقع هو أنه كانت تصدر منه ﷺ تلك التعليقات باعتباره حاكماً ولها جانب مؤقت ولكن كل تلك التعليقات كانت تحمل معها قرائنها اللفظية والحالية وهي أمور متميزة عند العلماء ولو من قياس حالها إلى الحالة السارية عموماً. وهل يشك أحد بأن الأمر بحفر الخندق مثلاً كان أمراً وقتياً متناسباً مع تلك الحرب بظروفها.

ثامناً: وقد طرح فكرة اجتهاد النبي في الأمور التي لا تعبر عن تشريع خالد. والذي نعتقه أنه ﷺ كان لا يعدو بيان الواقع التشريعي الخالد من خلال وصوله إليه بالوحي أو بيان التعليم الاجتماعي اليومي بصفته ولي الأمر، وفي المجال الثاني هذا كان يتم التشاور والعزم لا في المجال الأول، والفرق بين المجالين واضح للمتأملين. أنه ﷺ كان ملتزماً تمام الالتزام بعرض الواقع التشريعي قبل كل شيء وعدم ابداء رأي من عنده، بل لقد كان ﷺ قد التحم بالوحي والحقيقة فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

تاسعاً: ولما لم يجدهم ما ذكروه راحوا يركزون على أن خبر الواحد لا يفيد إلا ظناً وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً غافلين عن أن الأدلة القطعية التي سبقت لحجية خبر الواحد استثنت هذا الظن وأمثاله من عموم النهي عن اتباع الظن وانزلته منزلة العلم باعتباره السبيل العقلاني - الطبيعي للوصول إلى الشريعة، وأنه لا يمكن تكليف الناس جميعاً بتحصيل العلم بكل موارد الإسلام واحكامه. فالظن المنهني عنه هو الظن الذي لم يقم على اعتباره دليل قطعي.

عاشراً: واخيراً راح البعض يستعرض بعض الروايات التي ادعى أنها تخالف العقل والعلم لأجل التقليل من أهمية المجموع الروائي العام. ونحن نسمع كثيراً عن مخالفة العقل هذه وعند التأمل نجد أنها تخالف ذوقاً عقلياً مثلاً أو ميلاً عاماً دون أن تصل إلى مستوى المخالفة القطعية لبديهية عقلية مسلمة. نعم لو وصلت إلى هذا الحد - وذلك بعيد جداً - فقدت الوثوق المطلوب. أما قصة مخالفة البحوث العلمية فيجب فيها أن نتذكر التغييرات الكبيرة التي تطرأ على هذه البحوث وعدم قطعيتها وأنها فرضيات متغيرة.

وخلاصة القول: أن كل ما طرح من شبهات حول الاحاديث والسنة لا يمكنه أن يصمد للنقد والاعتراض.

نقطتان مهمتان: وهنا نود أن ننبه إلى نقطتين مهمتين في ختام هذا البحث هما:

النقطة الأولى: اننا إذ رفضنا هذا الاتجاه الخطر فإن ذلك لا يعني مطلقاً أن نتجه إلى قبول كل ما يرد عنه ﷺ من دون تمحيص وتحقيق في المتون والاسانيد. بل حتى اننا لا نجيز أن يعتمد العلماء على استنتاجات غيرهم من العلماء في هذا السبيل إلا أن تكون شهادة. كلا وانما تجب ملاحظة الاسانيد والرواة فرداً فرداً، والتحقق من توفر الوثوق المطلوب، وعدم التنافي الثابت مع القرآن الكريم والسنة المقطوع بها. واننا لنرى من المناسب أن ننقل نصا جاء عن علي عليه السلام تلميذ رسول الله ﷺ في جواب من سأله عن احاديث البدع، وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر فقال: أن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً. وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً وهمماً، ولقد كذبَ على رسول الله ﷺ على عهده، حتى قام خطيباً فقال: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: (رجلٌ منافق مظهر للإيمان متصنع للإسلام، لا يتأثم، ولا يتحرّج. فهذا أحد الأربعة. ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه فوهم فيه ولم يتعمد كذباً فهو في يديه ويرويه، ويعمل به ويقول انا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثم أنه نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ فلو علم أنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنه منسوخ لرفضوه.

وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ ولم يهمل بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص، فهو حفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاص والعام، والمحكم والمتشابه فوضع كل شيء موضعه...^١.

١. نهج البلاغة صبحي الصالح، ص ٣٢٧.

بهذه الدقة يتعرض تلميذ رسول الله ﷺ إلى الرواة في عصره وهو ألصق ما يكون بعصر الرسول فكيف بنا ونحن نعيش هذا الفاصل الزمني البعيد؟ أن الأمر يتطلب - لا محالة - جهداً وبدلاً للوسع في هذا المجال. وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على النقطة الثانية.

النقطة الثانية: وهي نقطة مهمة جداً يجب التركيز عليها وملخصها:

إننا إذ نرفض الشبهات الماضية ونرفض القبول المطلق لكل ما جاء، نمتنع - في نفس الوقت - عن تسليم السنة - حتى الموثوق بها - إلى كل فرد مهما كان مستواه، وفسح المجال له ليفهم منها ما يشاء وينسبه إلى الإسلام. فإن هذا المنحى خطر جداً وإن كان دعواته اليوم كثر في عالمنا الإسلامي متذرعين بأن الإسلام لكل الناس فلماذا تحصرونه بأيدي عدة قليلة، خالطين بذلك بين هذا وبين كيفية فهم الواقع الإسلامي واستنباطه من النصوص. مثلهم في هذا مثل من يدعو لتسليم الذرة لكل من يطلبها ليستخدمها كيف يشاء بحجة أنها وجدت لصالح الجميع!

إن ملاحظة ما سبق، وإدراك احتياج فهم الواقع الإسلامي من الكتاب والسنة الشريفة إلى دراسات تخصصية معمقة في المجالات اللغوية والفقهية (أصولاً وفروعاً فقهية) والتفسيرية والرجالية وغيرها هو مما يمنع بتاتا من نفي التخصص والخبرة وعدم الركون اليها. وإننا لننبه أمثال هؤلاء إلى الآثار الخطيرة التي تنجم عن رأيهم هذا من:

شيوخ الفهم القاصر للإسلام، وفقدان العمق والاصالة التي تميزه عن غيره، وفسح المجال للأهواء أن تتلاعب بالمقدرات الإسلامية، وعدم قدرة الصورة الناتجة على الصمود امام الاشكالات والشبهات.

هذا بالإضافة إلى أنه يجعل المذاهب بعدد الافراد فويل للامة من مثل هذا اليوم الرهيب... يوم يفتي فيه العسكري، ويلبي فيه هذا الموظف برأيه في الإسلام وذاك الملك وهذا الرئيس وهم لا يملكون مستوى فهمه واستنباطه.

إننا نسأل هؤلاء:

هل تستطيعون أيها السادة أن ترونا مبدأ فيه بعض ما في الإسلام ولا تخصص فيه؟

إننا نؤكد لزوم الحاجة إلى الاختصاصيين الإسلاميين ونسميهم بـ (الفقهاء)، ولزوم أن يكونوا عدولاً

لا يذعنون لهوى نفسي، ولا يركعون امام ظالم أو طاغوت. ويتجلى هذا اللزوم في الميادين التالية:

أ: ميدان فهم الأحكام والنظم الإسلامية للحياة الإنسانية، واستنباطها من منابعها الرئيسة.

ب: مجال القضاء وفصل الخصومات.

ج: مجال قيادة الأمة. فلا يمكن تسليمها لجاهل بالإسلام غير اخصائي فيه. إذ الإسلام تجربة حياتية بشرية كبرى لا يمكن أن تقوم عليها إلا القيادة الواعية لها المؤمنة بها المطبقة لاحكامها المتشعبة بروحها.

وهذا بالضبط ما اصطالحنا عليه بمبدأ (ولاية الفقيه) والذي يعتبر تطبيقه في نظامنا الإسلامي الميزة الإسلامية الكبرى له والأساس الأول الذي اتخفتنا بالوصول إليه ثورتنا الإسلامية الكبرى بتوجيهات وقيادة القائد الفقيه الكبير الإمام الخميني.

ومن هنا تؤكد المادة الرابعة من دستورنا الإسلامي على ضرورة تسليم ولاية الأمر والأمة للفقيه العادل التقي، العارف بالعصر، الشجاع المدير المدير الذي تميل إليه أكثرية الجماهير المسلمة وتدعن لقيادته.

والواقع: إن المتبع لمسيرة الثورة الإسلامية، وما واجهتها من اخطار يدرك الدور الهائل الذي لعبه هذا المبدأ في تجميع الأمة وتكتيلها حول القائد، وقدرة هذا القائد في مجال قيادة دفعة السفينة إلى مرفأ الإسلام رغم ضخامة المؤامرات الاستعمارية، وضمان عدم انحرافها إلى الشرق أو الغرب.

المحور الثالث: المرجعية العلمية والتفسيرية لأهل البيت عليهم السلام

مدخل

ظلّ موضوع المرجعية العلمية للمسلمين محوراً للنقاش والبحث طيلة مئات من السنين، وكانت أهمية هذا الموضوع تزداد كلما ابتعد المسلمون زمنياً عن عصر صدر الإسلام، وتحديدًا عصر النصّ القرآني والنبوي. وكان من شأن اتفاق المسلمين على مساحة مشتركة في هذا المجال أن يشكل أحد أهم محاور الوحدة الإسلامية.

وإذا كان القرآن الكريم وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وستته المحورين الأساسيين اللذين يشكلان الإطار الذي يجمع المسلمين في داخله، فإن المرجعية العلمية التي تفسّر القرآن الكريم، وتكشف

١. بحث قدم إلى المؤتمر الثالث عشر للوحدة الإسلامية بطهران والمنعقد بتاريخ ربيع الاول ١٤٢٢.

عن وجوهه، وتحسم حالة الاختلاف حول أحكامه في الجانبين العقيدي والفقهية، وكذا الحال بالنسبة للسنة النبوية الشريفة، هذه المرجعية العلمية هي أهم قضية ظلّت حائلا دون اتفاق المسلمين في البعد العلمي للاختلاف.

وفي هذا البحث نحاول استئناف الحوار العلمي حول هذه المرجعية العلمية، مع افتراض أنها تتمثل في أهل بيت رسول الله ﷺ؛ إذ أنّ طرح هذا الافتراض في مدخل البحث سيحصر موضوع البحث في دائرة واضحة في معالمها، ويجول دون تشتت محاور البحث وتشظي خطته. ولا شك أنّ هذا الافتراض مبني على أسس رصينة سنأتي عليها في فقرة المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة: لأنّ القرآن والسنة هما المصدران المقدّسان اللذان يمتدح بهما المسلمون على اختلاف فرقهم ومذاهبهم.

ومن هنا فمنهج البحث يقوم على محاولة إثبات محورية مرجعية أهل البيت ﷺ العلمية، وقد سعينا لاستخدام الموسوعات الحديثية والفقهية والتاريخية لأهل السنة أكثر من استخدامنا لكتب الشيعة، وذلك لسبب موضوعي، إذ أنّ الشيعة يعتقدون بما لا يقبل الشك بالمرجعية العلمية لأهل البيت ﷺ، فهو القاعدة التي قام عليها مذهبهم. ومن هنا سيكون الحديث باتجاه مذاهب المسلمين الأخرى للبحث معا، وفي إطار حوار علمي معمق حول الاتفاق على شكل ومضمون المرجعية العلمية التي يجمع عليها المسلمون.

وهذا الاكتشاف المشترك سيؤدي أليا إلى تجاوز الخلاف التاريخي، والتركيز على المساحات المشتركة التي تجمع المسلمين في الحاضر والمستقبل، فضلا عن رفع الحيف عن جزء كبير من المعارف الإسلامية التي ظلّ القسم الأكبر من المسلمين يتجاوزها ولا يتنفع بها. برغم أنها بحر لجّي من العلوم والمعارف.

وستعتمد خطة البحث مجموعة محاور، يشكل كل محور منها محطة من الاستدلالات التي تخرج بنتيجة علمية تنقل البحث أليا إلى المحور اللاحق الذي سيحول النتيجة باتجاه التكامل، وفقا للمنهج الاستقرائي الذي ستحدث عنه في الخاتمة.

المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة

ونقصد بالمرجعية العلمية - كما أشرنا - النقطة المشتركة التي يتفق عليها المسلمون،

وتنتهي عندها مسائل الاختلاف بين المسلمين، ولا سيما في المجالين العقيدي والفقهية، وهي المرجعية التي تكشف عن حقائق القرآن الكريم والسنة النبوية، بالصورة التي تحسم خطوط التقاطع بين المسلمين.

وبما أن القرآن الكريم والسنة الشريفة هما المصدران المقدسان لدى المسلمين كافة، فسنترك القرآن والسنة ينطقان بنوعية هذه المرجعية وباسمها وصفاتها. ولسنا هنا بصدد الدخول في المباحث الأصولية بشأن حجية الأدلة، لأننا سوف لن نخرج عن المساحات المتفق عليها، ولا سيما في ما يرتبط بالحديث الشريف وحجيته ودلالة بعض النصوص.

ومن خلال استقراء ما ورد في القرآن الكريم والسنة الشريفة من نصوص حول هذه المرجعية، وجدنا أن النصوص لا تشير إلى مرجعية أخرى غير مرجعية أهل البيت عليهم السلام وإن كانت هناك بعض الأحاديث الضعيفة التي يختلف فيها المسلمون، ولذا تجاوزناها إلى ما يتفقون عليه. وبالنظر لضيق المساحة المحددة للبحث، فسوف نستعرض أدلة القرآن والسنة استعراضاً سريعاً بالصورة التي لا تطيل البحث ولكنها تفي بالغرض. ونبدأ أولاً ببعض آيات القرآن الكريم المفسرة بالسنة الشريفة.

- ١- يقول تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١. جاء في تفسير ابن جرير الطبري بسنده عن جابر الجعفي: لما نزلت هذه الآية، قال عليّ: (نحن أهل الذكر)^٢. ويقول الحارث: سألت علياً عن هذه الآية: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾. فقال: (والله إنا لنحن أهل الذكر، نحن أهل الذكر، نحن أهل العلم، ونحن معدن التأويل والتنزيل).
- ٢- يقول تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾^٣ جاء عن الإمام علي عليه السلام في خطبة له: (أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا وبغيا علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرّمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدى ويستجلى العمى)^٤.

١. النحل: ٤٣، والأنبياء: ٧.

٢. تفسير القرآن لابن جرير الطبري: ج ١٧، ص ٥.

٣. آل عمران: ٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٤٤، والمناقب - لابن شهر آشوب - ج ١ ص ٢٨٥.

٣- يقول تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^١. عن أبي سعيد الخدري قال: (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قال: (ذاك أخي علي بن أبي طالب)^٢.

٤- يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٣.

وفي تفسير هذه الآية يقول الرسول ﷺ: (أنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب)^٤.

وآية التطهير هذه تؤكد العناية الإلهية الخاصة بأهل البيت ﷺ وإبعادهم عن الزلل والانحراف؛ ليشكلوا نماذج إنسانية سامية يتم الرجوع إليها عند اختلاف المرجعيات الثانوية.

٥- يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^٥.

روى عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ عندما سئل عن هذه الآية: ومن هم القربى؟ قال: (علي وفاطمة وابناها)^٦.

وعن سعيد بن جبیر أمّهم: (قربى آل محمد)^٧.

وهذه الآية تشد القلوب والعقول إلى آل البيت، وتؤكد أن محبتهم الحقيقية هي أجر الرسالة.

ومواليتهم - في البعد العلمي كحد أدنى - هي المودة الحقيقية، وربما يستفاد من الآية

الكريمة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^٨ التلازم بين الاتباع والمودة.

٦- يكشف حديث الكساء عن المقصود بأهل البيت ﷺ.

١. الرعد: ٤٣.

٢. شواهد التنزيل ج ١، ص ٤٠٠، ح ٤٢٢، والأمالى - للصدوق - ج ٣ ص ٤٥٣ وغيرهما.

٣. الأحزاب: ٣٣.

٤. انظر: دلائل النبوة - للبيهقي - ج ١، ص ١٧٠، البداية والنهاية - لابن كثير - ج ٢، ص ٢٥٧، المعجم الكبير - للطبراني - ج ١٢، ص ٨١، ح ١٢٦٠٢ وغيرها.

٥. الشورى: ٢٣.

٦. فضائل الصحابة - لأحمد بن حنبل - ج ٢، ص ٦٦٩، ح ١١٤١، والمعجم الكبير للطبراني، ج ٣، ص ٤٧، ح ٢٦٤١، الدر المنثور في التفسير بالمأثور - لعبد الرحمن السيوطي - ج ٧ ص ٣٤٨ وغيرها.

٧. الصحيح - للبخاري - ج ٤، ص ١٨١٩، ح ٤٥٤١، والسنن - للترمذي - ج ٥، ص ٣٧٧، ح ٣٢٥١، والمسند - لابن حنبل - ج ١، ص ٦١٤، ح ٢٥٩٩، وغيرها.

٨. آل عمران: ٣١.

يروى ابن عباس: (أخذ رسول الله ﷺ ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا. فجعل عليهم كساء خيريا، فقال: اللَّهُمَّ هؤُلاءِ أَهْلَ بَيْتِي، اللَّهُمَّ أَذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا. قالت أم سلمة لرسول الله ﷺ: أَلَسْتُ مِنْهُمْ؟ قال: أَنْتِ إِلَى خَيْرٍ^١. وقد رواه عن أم سلمة: عطاء بن يسار، أبو سعيد الخدري، أبو هريرة. حكيم بن سعد، شهر بن حوشب، عبد الله بن المغيرة. عطاء بن أبي رباح. عمره ابن أفعى. وعلي زين العابدين عليه السلام.

كما روى الحديث عن عائشة كل من: صفية بنت شيبة، العوام بن حوشب، عن التميمي وجميع بن عمير، وقد روته على النحو التالي: (خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^٢.

وقد روى حديث الكساء جمع كثير من الصحابة أيضا، منهم: أبو سعيد الخدري، أبو برزة، أبو الحمراء، أبو ليلى الأنصاري، أنس بن مالك، براء بن عازب، ثوبان، جابر بن عبد الله الأنصاري، زيد بن أقم. زينب بنت أبي سلمة، سعد بن أبي وقاص، صبيح مولى أم سلمة، عبد الله بن جعفر، عمر بن أبي سلمة، عمر بن الخطاب وغيرهم.

وتنص رواياتهم على أن قصد النبي ﷺ من أهل البيت هم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ومعظم أسانيد هذه الروايات منقولة من صحاح أهل السنة وموسوعات الحديثية^٣.
٧- ويكشف حديث الثقلين أيضا عن المقصود بأهل البيت عليهم السلام وهم العترة، وعن مرجعيتهم الشاملة يقول رسول الله ﷺ: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعتري أهل بيتي، ولن

١. انظر: المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری، ج ٣، ص ١٥٨، ح ٤٧٠٥، ج ٢ ص ٤٥١، ح ٣٥٥٨، السنن

الکبری لأبي بكر البيهقي، ج ٢، ص ٢١٤، ح ٢٨٦١، والمعجم الكبير، ج ٣، ص ٥٢، ح ٢٦٦٢، وغيرها .

٢. انظر: المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری، ج ٣ ص ١٥٨ ح ٤٧٠٥، ج ٢ ص ٤٥١، ح ٣٥٥٨، السنن

الکبری لأبي بكر البيهقي، ج ٢، ص ٢١٤، ح ٢٨٦١، والمعجم الكبير، ج ٣، ص ٥٢، ح ٢٦٦٢ وغيرها.

٣. انظر: محمدي الري شهري، أهل البيت في الكتاب والسنة، ص ٢٧ - ٥٠ .

يتفرّقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)^١. وفي رواية أخرى أنه قال ﷺ: (إني قد تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله تعالى وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يتفرّقا حتى يردا علي الحوض)^٢. وحديث الثقلين جعل أهل البيت عدلا للقرآن. وقد رواه عن النبي ﷺ أكثر من (٣٣) صحابياً، منهم: أبو أيوب الأنصاري، أبو ذر الغفاري، أبو سعيد الخدري، أبو شريح الخزاعي، أبو قدامة الأنصاري، أبو هريرة، أم سلمة، أنس بن مالك، خزيمة ذو الشهادتين، سعد بن أبي وقاص، زيد بن ثابت، سلمان الفارسي، عبد الرحمن بن عوف، عبد الله بن عباس، عمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص^٣.

ومن خلال حديث الثقلين يستدل بعض علماء أهل السنة على أن المرجعية المقصودة في الحديث هي مرجعية الفقه، وحسب تعبيره: (لا يدل على إمامة السياسة وأنه أدل على إمامة الفقه والعلم)^٤، ولا نريد هنا الدخول في نقاش حول دلالة الحديث، ولكن نكتفي بالحد الأدنى المتفق عليه بين الفريقين وهو الدلالة على إمامة أهل البيت العلمية.

ويقول أحد الباحثين بأنه جمع (١٨٥) مرجعا من عيون مراجع أهل السنة ذكرت بأكملها نص: (كتاب الله والعتره) وأن المقصود بالعتره أهل البيت الذين ساهم الرسول ﷺ أكثر من مرة كما في دلالة هذا الحديث وحديث الكساء^٥.

٨- عن انس بن مالك، قال الرسول ﷺ لعلي عليه السلام: (أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي)^٦،

١. انظر: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٣، ح ٢٤٠٨، سنن الدارمي، ج ٢، ص ٨٨٩، ح ٣١٩٨، مسند ابن حنبل ج ٧، ص ٧٥، ح ١٩٢٥، والسنن الكبرى ج ١٠، ص ١٩٤، ح ٢٠٣٣٥، فرائد السمطين، ج ٢، ص ٢٣٤، ح ٥١٣، وسنن الترمذي، ج ٥، ص ٦٦٣ ح ٣٧٨٨.

٢. المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١١٨ ٥٧٦، خصائص الإمام أمير المؤمنين للنسائي، ص ١٥٠ وغيرهما. ٣. انظر: صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٨٧٤ ح ٣٦ و ٣٧، سنن الترمذي، ج ٥، ص ٦٦٢ ح ٢٧٨٦ و ٢٧٨٨، سنن الدارمي، ج ٢، ص ٨٨٩ ح ٣١٨٩، مسند ابن حنبل، ج ٤، ص ٣٠، ح ١١١٠٤ وعشرات المصادر الأخرى.

٤. الشيخ محمد أبو زهرة، الإمام الصادق، ص ١٩٩.

٥. أحمد حسين يعقوب، الخطط السياسية لتوحيد الأمة الإسلامية، ص ٣٥١.

٦. مستدرک الصحیحین ج ٣ ص ١٢٢؛ وقال الحاكم النيسابوري أنه حديث صحيح على شرط الشيخين. وانظر أيضاً: كنز العمال للمتقي الهندي، ج ٦، ص ١٥٦.

والحديث واضح الدلالة على المرجعية العلمية لأهل البيت.

- ٩- عن سلمان الفارسي، قال الرسول ﷺ: (أعلم أمتي من بعدي علي بن أبي طالب)¹.
- ١٠- يقول الرسول ﷺ مخاطبا السيدة فاطمة الزهراء: (أما ترضين أنّي زوجتك أول المسلمين إسلاما وأعلمهم علما)².
- ١١- عن عبد الله بن عباس، قال رسول الله ﷺ: (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف)³.
- ١٢- عن أبي ذر الغفاري، قال رسول الله ﷺ: (ألا إن مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح في قومه، فمن ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق)⁴.
- ١٣- قول الإمام علي عليه السلام: (إنا نحن أهل البيت أعلم بما قال الله ورسوله)⁵.
- ١٤- يقول الإمام علي عليه السلام: (... نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكم)⁶.
- ١٥- عن جابر بن سمرة، قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة. كلهم من قريش)⁷.
- ١٦- وعن عبد الله بن مسعود أنهم سألوا الرسول ﷺ عن عدد خلفاء الأمة فقال: (اثنا عشر، كعدة نقيب بني إسرائيل)⁸.

١. كنز العمال، ج ٦ ص ١٥٦، وكنوز الحقائق للمناوي، ص ١٨.

٢. كنز العمال، ج ٦ ص ١٥٣.

٣. المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٦٢ ح ٤٧١٥.

٤. فرائد السمطين، ج ٢ ص ٢٤٦ ح ٥١٩، بنایع المودة، ج ١ ص ٩٤ ح ٥. المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٦٣ ح ٤٧٢٠، المناقب لابن المغازلي، ص ١٣٢-١٣٤ وغيرها.

٥. الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ٦ ص ٢٤٠.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

٧. انظر: صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٤٥٣ ح ١٠، مسند ابن حنبل، ج ٧ ص ٤١٠ ح ٢٠٨٦٩ ومسند أبي يعلى، ج ٦ ص ٤٧٣ ح ٧٤٢٩ وغيرها.

٨. انظر: مسند ابن حنبل، ج ٢ ص ٥٥ ح ٣٧٨١، المستدرک علی الصحیحین، ج ٤ ص ٥٤٦ ح ٨٥٢٩، والمعجم الكبير، ج ١ ص ١٥٨ ح ١٠٣١٠ وغيرها.

وهناك عدد كبير من الأحاديث الصحيحة من مصادر الفريقين تشير إلى المعنى نفسه مع اختلاف في الألفاظ.

وبناء على ذلك فإن المسلمين بأجمعهم متفقون على أن عدد الأوصياء أو الخلفاء أو النقباء والأمرء والأئمة بعد الرسول ﷺ هو اثنا عشر، وكلهم من قريش، وأنهم معينون بالنص كما هو مقتضى تشبيهم بنقباء بني إسرائيل، وأن هذه الأحاديث أكدت بقاء هؤلاء الأئمة ما بقي الدين الإسلامي أو حتى تقوم الساعة، كما هو مقتضى رواية مسلم في صحيحه.

وهذه الأحاديث كانت مأثورة في بعض الصحاح والمسانيد قبل أن يكتمل عدد الأئمة (من علي وحتى المهدي)، فمن المستحيل - اذن - أن تكون أحاديث موضوعة بعد اكتمال العدد المذكور فضلاً عن أن رواة الأحاديث من طرق أهل السنة هم من الموثوقين لديهم. وعموماً فإن حجية ما استعرضناه من آيات وأحاديث، يترتب عليه واقع عملي، وهو الواقع الذي ندعو المسلمين جميعاً إلى صياغته وبلورته، دون أن يفقد أي مذهب إسلامي خصوصياته.

المكانة العلمية لأهل البيت ﷺ في الواقع الإسلامي

ظل المسلمون على مختلف تياراتهم ومدارسهم الكلامية والفقهية ينظرون لأهل البيت ﷺ، نظرة خاصة تميزهم عن غيرهم من الصحابة والتابعين والفقهاء. الأمر الذي تعصب به كتب الحديث والفقه والتاريخ. ولولا السياسة المزيفة التي مارسها بعض الحكام، في العهدين الأموي والعباسي، لبقيت مكانة أهل البيت راسخة في عقول المسلمين وقلوبهم، إذ سعت هذه السياسة المنحرفة إلى تزييف الحقائق والتحايل على الواقع؛ من أجل صرف الأنظار عن أهل البيت ومرجعيتهم.

ولكي لا يطول بنا المقام نستعرض هنا جزءاً من الشهادات التي أدلى بها كبار الصحابة والتابعين الفقهاء بحق أهل البيت ﷺ. بالصورة التي تعكس تطابقاً كاملاً بين الواقع الذي جسده أهل البيت عملياً، والنصوص الواردة في القرآن والسنة، ونظرة المسلمين الموضوعية لأهل البيت ﷺ. وإذا تجاوزنا عصر الرسول الأعظم ﷺ إلى عصر الخلفاء. فسنرى أن البداية كانت مع الخليفة الأول أبي بكر، برغم الملابس المعقدة التي شابت الواقع الإسلامي منذ وفاة رسول الله ﷺ، فأبو بكر رجع إلى الإمام علي ﷺ في موضوع قتال أهل الردة، وفي كثير من الأحكام الشرعية^١.

١. انظر: الرياض النضرة للمحب الطبري، ج ٢ ص ٢٢٤، و ج ٢، ص ١٩٥. وكنز العمال ج ٣ ص ٣٠١، و ج ٣، ص ٩٩.

أمّا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب فكان أكثر الخلفاء تعبيراً عن هذه الحقيقة، إذ كان دائم الرجوع إليه في المسائل العقائدية والفقهية والاجتماعية والسياسية^١، حتّى أنّ مقولات عمر التاريخية في علي بن أبي طالب تظهر أن عمر كان من أكثر المسلمين إعجاباً بالإمام علي، وانبهاراً بشخصيته وعلمه، وإيمانا بدوره ومكانته وموقعه، يقول عمر: (أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن)^٢، (لولا علي هلك عمر)^٣، (أنت [يا علي]. خيرهم فتوى)^٤، (اللهم لا تنزل بي شدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي)^٥، (أبا حسن! لا أبقاني الله لشدة لست لها ولا في بلد لست فيه)^٦، (يا ابن أبي طالب! فمازلت كاشف كل شبهة وموضع كل حكم)^٧، (أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن)^٨ (لا أبقاني الله بعدك يا علي)^٩، وذلك لأنّ الإمام علي عليه السلام كان ينجد عمر في المشاكل العقائدية والفقهية التي تعترضه أو التي يجرجه فيها المسلمون وغير المسلمين.

ومن الأحداث الجديرة بالذكر في هذا المجال، حادثة كتابة التاريخ، إذ أنّ علي بن أبي طالب هو الذي أشار على الخليفة عمر بن الخطاب أن يبدأ بكتابة التاريخ من اليوم الذي هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ففعل ذلك عمر^{١٠}. وكذلك رجع إليه في أن يقود الجيش الذي يفتح إيران والجيش الذي قاتل الروم، وسنأتي على ذلك في فقرة قادمة.

وكذا الحال مع عثمان بن عفان الذي رجع إليه في كثير من المسائل العقائدية والفقهية، بالصورة التي نصت عليها كتب الحديث والفقه والتاريخ^{١١}.

١. أورد ذلك معظم كتب الحديث والتاريخ، ولاسيما الصحاح والسنن والمسانيد، مما يطول تفصيله.

٢. المستدرک علی الصحیحین، ج ١، ص ٤٥٧.

٣. السنن للبيهقي، ج ٧، ص ٤٤٢، وهذه المقولة رواها كثير من كتب الحديث والتاريخ.

٤. الطبقات لابن سعد، ج ٢، ق ٢ ص ١٠٢.

٥. كنز العمال، ج ٣، ص ٥٣.

٦. المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٩.

٧. المصدر السابق، ج ٣، ص ١٧٩.

٨. نور الأبصار للشبلنجي، ص ١٧١.

٩. الرياض النضرة، ج ٢، ص ١٩٧.

١٠. أخرجه البخاري في تاريخه، ورواه الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، ج ٣، ص ١٤.

١١. انظر: الموطأ لمالك بن أنس، ص ٣٦ و ١٧٦. سنن البيهقي، ج ٧ ص ٤١٩، مسند الشافعي، ص ١٧١، مسند ابن

حنبل، ج ١ ص ١٠٠، و ص ١٠٤، تفسير ابن جرير، ج ٢٥ ص ٦١ وغيرها.

وكانت عائشة أيضاً تحيل كثيراً ممن يسألها في الأحكام الشرعية إلى الإمام علي، ومن أقوالها المأثورة في هذا المجال: (عليك بابن أبي طالب لتسأله)^١. (أنت عليا فإنه أعلم بذلك مني)^٢. وروى الحاكم بسنده عن قيس بن أبي حازم أن الصحابي سعد بن أبي وقاص نهر رجلاً تعرض للإمام علي عليه السلام فقال عنه: (ألم يكن أول من أسلم؟! ألم يكن أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله؟! ألم يكن أعلم الناس؟!)^٣. وإن التاريخ ليشهد أن لقب الإمام صار من أشهر الألقاب لعلي، وهناك العديد من الشهادات أيضاً في الإمام الحسن والإمام الحسين، وعلي بن الحسين وباقي الأئمة أيضاً، ولعل من المناسب هنا ذكر أبيات من ميمية الفرزدق في مدح أهل البيت عليهم السلام، وتحديداً الإمام علي بن الحسين (زين العابدين):

من معشر حبه دين وبغضهم	كفر وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم	في كل بدءٍ ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم	أوقيل من خير أهل الأرض؟ قيل هم؛

وكذلك رائية أبي نؤاس التي يمتدح فيها أهل البيت عليهم السلام، إذ يقول:

مطهرون نقيات ثيابهم	تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
فالله لما برى خلقاً فأتقنه	صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملاء الأعلى وعندكم	علم الكتاب وما جاءت به السور ^٥

أما ميمية أبي فراس الحمداني فهي من أكثر القصائد تعبيراً عن مكانة أهل البيت، ونقتطف منها هنا ما يرتبط بالبعد العلمي:

١. انظر: سنن النسائي، ج ١ ص ٣٢، سنن ابن ماجه، ص ٤٢، وسمند ابن حنبل ج ١ ص ٩٦، ص ١٠٠، ص ١١٣، ص ١١٧، ص ٢١٠، ص ١٣٣، ص ١٤٦، و ص ١٤٩.
٢. المصادر السابقة نفسها .
٣. رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين بسنده عن قيس بن أبي حازم، ج ٣ ص ٤٩٩ .
٤. وفيات الاعيان لابن خلكان، ج ٦ ص ٩٦ .
٥. عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق، ج ٢ ص ١٤٣ ح ١٠، والمناقب لابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٣٦٦.

الحق مهتضم والدين محترم
خلوا الفخار لعلمين إن سئلوا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا
تنشى التلاوة من أبياتهم أبداً
الركن والبيت والأستار منزلهم
وفيء آل (رسول الله) مقتسم
يوم السؤال وعمالين إن عملوا
ولا يُضيعون حق الله إن حكموا
وفي بيوتكم الأوتار والنعيم^١
وزمزم والصفاء والحجر والحرم^٢

وهذا التعبير يكشف - في حقيقته - عن اتجاه الرأي العام الإسلامي في ما يرتبط بالمكانة التي يختص بها أهل بيت النبوة ﷺ. بل إن هذا الاتجاه لم يقتصر على الشعراء وعموم الناس، بل عم حتى الفقهاء وأئمة المذاهب الإسلامية، فالشافعي أنشد يقول:

آل النبي ذريعتي
أرجو بهم أعطى غداً
وهم إليه وسليتي
بيدي اليمين صحيفتي^٣

وكان عدد كبير من أئمة المذاهب الإسلامية وكبار الفقهاء قد درسوا على أئمة أهل البيت ﷺ، ولا سيما الإمام جعفر الصادق، إذ جمع الحافظ ابن عقدة أساء أربعة آلاف رجل من الفقهاء والمحدثين، رووا ودرسوا على الإمام الصادق، وذكر ابن عقدة مصنفات كثير من هؤلاء^٤. منهم: مالك بن أنس، أبو حنيفة النعمان^٥، يحيى بن سعيد، ابن جريج، سفيان الثوري، شعبة بن الحجاج، عبد الله بن عمرو، روح بن القاسم، سفيان بن عيينة، إسماعيل بن جعفر، إبراهيم بن طحان، وغيرهم^٦.

ولعل مقولة أبي حنيفة الشهيرة: (لولا الستتان لهلك النعمان)^٧ - وهما الستتان اللتان حضر

١. يقصد الشاعر هنا العباسيين.

٢. ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق د. محمد بن شريفة، ص ١٩٧ - ٢٠٦.

٣. انظر: الصواعق المحرقة لابن حجر، ص ١٠٨، ونور الأبصار، ص ١٠٥.

٤. الرجال لابن عقدة الزيدي، نقلا عن أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين، ج ١ ص ٦٦١.

٥. ذكر ذلك معظم كتب الطبقات والأعلام والتاريخ، كمطالب السؤل لابن طلحة الشافعي، ص ٢١٨، والصواعق المحرقة، ص ٣٠.

٦. حلية الأولياء لأبي نعيم، نقلا عن المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤ ص ٢٤٧.

٧. تحفة الألوسي، ص ٨ وغيره من المصادر التاريخية، وقصة التقريب للسيد محمد تقي الحكيم، ص ٩٠.

فيها دروس الإمام الصادق عليه السلام، وتلمذ عليه - تشير إلى عمق التأثير العلمي لأئمة أهل البيت عليهم السلام في الواقع الإسلامي.

ومثلها مقولة مالك بن أنس: (ما رأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق عليه السلام علما وعبادة وورعا)^١.

ويوضح الشيخ أبو زهرة هذا الواقع بقوله: كان أبو حنيفة يروي عن الإمام الصادق ويراه أعلم الناس باختلاف الناس، وأوسع الفقهاء إحاطة، وكان مالك يختلف إليه دارسا راويا. ولا يزيد فضل الأستاذية على أبي حنيفة ومالك فضلا، فالصادق لا يمكن أن يؤخر عن نقص ولا يقدم عليه غيره عن فضل، وهو فوق هذا حفيد علي زين العابدين عليه السلام الذي كان سيد أهل المدينة في عصره فضلا وشرفا ودينا وعلما، وقد تتلمذ له ابن شهاب الزهري وكثير من التابعين، كما أن الصادق هو ابن محمد الباقر الذي بقر العلم ووصل إلى لبابه^٢.

أسلوب المناظرة يكشف عن علم أهل البيت عليهم السلام

كانت حياة أهل البيت مليئة بالحوار العلمي، فهم رجال الحوار الذين تمثلوا آدابه وأساليبه الصحيحة بالشكل والمضمون اللذين أوضحهما القرآن الكريم، فكانت مجالسهم أو المجالس التي يحضرونها ساحة للمناظرات ومواقف للاحتجاج.

وتختلف هذه المناظرات في دوافعها باختلاف الأحداث التي أدت إليها، فهناك مناظرات كان بعض الحكام يهدفون إلى إحراج أهل البيت فيها. وأخرى كانت تجري في جو علمي صرف هدفه إظهار الحقيقة، وثالثة كانت بطلب من آخرين، حكماً أم رواة وفقهاء، بعد أن عجزوا عن مجارة الخصم. وقد جمع بعض المؤلفين هذه المناظرات في كتب خاصة نقلوها من مصادرهما الأصلية.

والمهم في هذه المناظرات، وبكلمة أدق ما يفيدنا في هذا البحث، هو أن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يخصصوا أو يجرجوا أو يترددوا في أي من هذه المناظرات، برغم أن بعضهم (كالإمام محمد الجواد) أقحم في مناظرة علمية رفيعة المستوى وهو دون التاسعة من عمره - كما سيأتي - فضلا عن

١. تهذيب التهذيب، ج ٢ ص ١٠٤.

٢. الشيخ محمد أبو زهرة في كتاب الإمام الصادق، ص ٣.

المستوى العلمي الفريد الذي كانت تكشفه هذه المناظرات، مما يجعلها دليلاً آخر من الواقع العملي على مرجعية أهل البيت التي لا ينافسهم عليها أحد.

وأول من دخل في هذه المناظرات الإمام علي عليه السلام، وكانت غالباً مع أصحاب الديانات الأخرى، كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم. فضلاً عن حوارهم مع الغلاة، بهدف استنابتهم، ومع الذين خرجوا على إجماع الأمة حول خلافته، بل كان يبحث الأمة على أن يسأله عن كل شيء في العقائد والأحكام والعلوم النظرية والطبيعية ولطالما ناداهم: (سلوني قبل أن تفقدوني)^١.

وعلى سيرة علي عليه السلام سار ولده الحسن والحسين عليهما السلام، فمن مناظرات الإمام الحسن الشهيرة مناظرته مع الرجل الشامي الذي أرسله معاوية بن أبي سفيان، ومعه أسئلة عميقة في مضامينها كتبها له القساوسة الروم، ويريد أن يسأل بها الإمام علي عليه السلام ليحرجه، فأحاله الإمام علي على ولده الحسن عليه السلام الذي أجابه عن كل الأسئلة الدينية والعلمية والفلسفية التي كان يحملها الرجل الشامي^٢. وعلى غرار هذه المناظرة كانت مناظرة الحسن البصري مع الإمام الحسن عليه السلام حول القضاء والقدر^٣.

وللحوؤل دون الإطالة في هذا المجال، سنقتصر على ذكر بعض النماذج من مناظرات الإمام جعفر الصادق، وهي كثيرة جداً ومطولة، بالنظر للفترة التاريخية الاستثنائية التي عاشها الإمام الصادق عليه السلام.

ومن هذه النماذج: مناظرته مع أبي حنيفة النعمان التي أقحمه فيها المنصور، وأحرج فيها أبو حنيفة، إذ يرويها الأخير بنفسه، يقول: (ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور بعث إلي، فقال: يا أبا حنيفة! إن الناس قد افتتنوا بجعفر بن محمد، فهبي له من المسائل الشداد، فهيات له أربعين مسألة. ثم بعث إلي أبو جعفر (المنصور) وهو بالحيرة، فأتيته فدخلت عليه وجعفر بن محمد (الصادق) عن يمينه، فلما أبصرت به دخلتني الهيبة لجعفر بن محمد الصادق مالم يدخلني لأبي جعفر (المنصور)، فسلمت عليه وأوما إلي فجلست. ثم التفت إليه فقال: يا أبا عبد الله (الصادق)

١. انظر: كتاباً يحمل العنوان نفسه للأستاذ محمد رضا الحكيمي .

٢. الاحتجاج، ص ٢٦٧ - ٢٦٩.

٣. تحف العقول عن آل الرسول لابن شعبة الحراني، ص ٢٣١.

هذا أبو حنيفة. فقال: نعم.. ثم التفت إليّ المنصور فقال: يا أبا حنيفة! ألق على أبي عبدالله من مسائلك، فجعلت ألقى عليه؛ فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم، وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، ثم قال أبو حنيفة: ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس)¹.

وهناك أيضاً حوار شهير بين الإمام الصادق عليه السلام مع أحد زعماء الزنادقة، في شتى العلوم الدينية والفلسفية وعلوم الديانات الأخرى، وأدت أجوبة الإمام الصادق عليه السلام بالزنديق إلى الإيمان ودخول الإسلام².

وللإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حوار معروف ومطول، وثقه كثير من المؤرخين، مع علماء ومتكلمي النصارى واليهود والصابئة والمجوس، إذ جمعهم الفضل بأمر من الخليفة المأمون. وطلب منهم أن يتناظروا أمامه، وكانت النتيجة أن أسلم كثير من هؤلاء العلماء والمتكلمين على يد الإمام الرضا عليه السلام.

وقد استمر المأمون - بعد انتهاء المناظرة - في طرح أسئلته على الإمام الرضا عليه السلام في مختلف العلوم³، فكان المأمون يزداد بعد كل جواب دهشة وذهولاً من مستوى علم الإمام، وهي دهشة كانت مشوبة بالخوف من هذا الرجل الذي قد يشكل إجماع الناس عليه خطراً على الدولة العباسية. أما المناظرة الأكثر إثارة ودهشة، فهي مناظرة الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام مع يحيى بن أكثم (قاضي القضاة في عهد المأمون). وكان الإمام الجواد حينها دون التاسعة من عمره، وكانت هذه المناظرة عبارة عن رهان بين المأمون وبطانته حول علم الإمام الجواد، وهي في الواقع امتحان أردوا إخراج الإمام الجواد فيه مستغلين صغر سنه⁴، وحين اكتمل المجلس بحضور المأمون وعدد كبير من قادة الدولة والعلماء والرواة وزعماء الأسرة العباسية، طرح يحيى ابن أكثم سؤالاً قصيراً على الإمام الجواد حول حكم: (محرم قتل صيدا). فأجابه الإمام الجواد عليه السلام بصيغة سؤال:

١. رواها الموفق في مناقب أبي حنيفة، ج ١ ص ١٧٣.

٢. الاحتجاج، ص ٣٣١ - ٣٣٥.

٣. المصدر السابق، ص ٤٢٥ - ٤٣٢.

٤. انظر: الأصول العامة للفقهاء المقارن للسيد محمد تقي الحكيم، ص ١٨٣.

(هل قتله في حل أو حرم؟
 عالماً كان المحرم أو جاهلاً؟
 قتله عمداً أو خطأ؟
 حرّاً كان المحرم أو عبداً؟
 صغيراً كان أو كبيراً؟
 مبتدئاً بالقتل أو معيداً؟
 من ذوات الطير كان أم من غيرها؟
 من صغار الصيد أم من كباره؟
 مصراً على ما فعل أو نادماً؟
 في الليل كان قتله للصيد أم بالنهار؟
 محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرماً؟).
 فتحير يحيى بن أكثم وعجز عن مجارة الإمام.

حينها طلب المأمون من الإمام الجواد أن يفصل أحكام كل تشقيق من التشقيقات التي وضعها الإمام للسؤال. فأجاب عليها الإمام الجواد بالتفصيل واحدة تلو الأخرى. ثم اسقط في يد يحيى وبطانة المأمون ما كانوا يضمرونه للإمام الجواد (ابن السنوات التسع فقط)^١. ولعل هذه المناظرة وما أسفر عنها من نتائج تكفي وحدها للدلالة على أهمية أسلوب المناظرات وفاعليته في الكشف عن مرجعية أهل البيت، دون أن يؤثر في ذلك سن أو زمان أو مكان؟ فلا يمكن أن يكون النجاح الدائم والمطلق في المناظرات - التي كان كثير منها يأخذ طابع الامتحان - مجرد صدفة. فالصدفة هنا مستحيلة - كما يقول أحد الفقهاء^٢: لأنها ممكنة في حدود امتحان مالشخص ما وفي مجال ما، ولكن أن يكون الامتحان في مختلف المجالات، ويتكرر باستمرار، سواء بالنسبة لكل واحد من الأئمة أو بالنسبة لجميع الأئمة، صغارهم وكبارهم، فهو ما لا يمكن أن يكون صدفة أبداً، خصوصاً إذا لاحظنا أنهم كانوا مصححين بأرائهم و مرجعيتهم.

١. انظر: الصواعق المحرقة، ص ٢٠٤. الاحتجاج، ص ٤٤٤ وغيرهما.

٢. السيد محمد تقي الحكيم في الأصول العامة للفقهاء المقارن، ص ١٨٤.

الإنتاج العلمي لأهل البيت عليهم السلام

ترك أهل البيت عليهم السلام للأمة إنتاجاً علمياً ضخماً، استثمرته في ماضيها، وستبقى تستفيد به في حاضرها ومستقبلها؛ فهذا الإنتاج لم يكن لزمانه وحسب، بل هو خالد على مر العصور. وتمثل إنتاج أهل البيت في أحاديثهم وخطبهم وكتاباتهم ودروسهم، وما تضمنته من مناهج وقواعد وتعليقات وعلوم، فضلاً عن الجامعات العلمية التي أسسوها، والطاقت العلمية التي ربوها ورعوها وغدوها بالعلم والمعرفة.

فعلى مستوى التأليف والتصنيف، كان الإمام علي عليه السلام نقطة الانطلاق في تاريخ الإسلام، وكانت أولى أعماله جمع القرآن الكريم مرتباً حسب النزول، وبين أسباب نزول آياته، عامها وخاصها، مطلقها ومقيدها، محكمها ومتشابهها، ناسخها ومنسوخها، عزائمها وخصصها، وسننها وآدابها. حتى أن ابن سيرين قال: لو أصبت ذلك الكتاب لكان فيه العلم^١.

وروى أبو نعيم عن الإمام علي عليه السلام قوله في هذا المجال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله أقسمت أن لا أضع ردائي عن ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين، فما وضعت ردائي عن ظهري حتى جمعت القرآن)^٢. والمصنف الآخر للإمام علي هو (الصحيفة)، وهو كتاب في الديات، أي الأموال المفروضة على الجنايات التي ترتكب خطأً أو شبيهاً بالعمد أي في ما لا يكون القصاص فيه^٣. وكتاب (الجامعة) هو مصنف آخر للإمام علي عليه السلام، وهي أمالي للرسول كتبها الإمام، وتضمنت ما يحتاجه الناس من أحكام شرعية وتفصيل لما جاء في القرآن الكريم.

أمّا الكتب التي جمعت إنتاجه فهي كثيرة، وأهمها (نهج البلاغة) الذي يشتمل على منتخب من خطب للإمام علي عليه السلام وكتبه ورسائله وحكمه ومواعظه، وقد جمعها الشريف الرضي. والكتاب الآخر هو (غرر الحكم ودرر الكلم)، ويتضمن كلماته القصار وحكمه، وقد جمعه عبد الواحد الأمدي.

وإلى جانب مصنفات الإمام علي، فإنّ بعض الموالين لمدرسته، كسلمان الفارسي وأبي ذر

١. انظر: المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين، المراجعة ١١٠.

٢. حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٧.

٣. انظر: تكملة المنهاج للسيد أبي القاسم الخوئي، ج ٢، كتاب الديات.

الغفاري ورافع مولى رسول الله ﷺ والأصبغ بن نباته، مارسوا التأليف والتصنيف أيضا بتوجيه من الإمام نفسه^١. ويمكن مراجعة كتب الرجال للوقوف على تراجم الرجال الذين تتلمذوا على الإمام علي وولديه الإمام الحسن والإمام الحسين، بيد أن مدة إمامة علي بن الحسين زين العابدين، والتي بلغت حوالي ٣٥ عاما، سمحت له بأن يبني جيلا متخصصا من الرواة والفقهاء والمتكلمين، وفيهم عدد من كبار التابعين^٢.

وقد ترك الإمام زين العابدين رسالة رائعة هي (رسالة الحقوق) والتي تتضمن بيانا لأنواع الحقوق وما يترتب عليها.

والفرصة التاريخية نفسها فسحت المجال للإمام الصادق بأن يبني جامعة إسلامية في تاريخ الإسلام، كان تلامذتها كبار محدثي وفقهاء وعلماء الأمة. ومن مختلف البلدان، كالعراق والحجاز وفارس وبلاد الشام، وقد تمكن تلامذة الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق من تصنيف وتأليف كم كبير من الرسائل والبحوث والكتب، ومنهم أبان بن تغلب إذ روى ٣٠٠٠٠ حديث عن الإمام الصادق، وأبو حمزة الثمالي وبريد بن معاوية وأبو بصير وزرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وهشام بن الحكم (اشتهر من كتبه ٢٩ كتابا).

وقد بادر بعض تلاميذ الإمام الصادق إلى تدوين روايات وأقوال الإمام الصادق عليه السلام وجمعوها في ٤٠٠ مصنف، عرفت بالأصول الأربعة^٣.

ثم برع تلامذة الأئمة الآخرين: موسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن العسكري، في التصنيف والتأليف. عبر نقل روايات هؤلاء الأئمة وآرائهم وتحويل توجهاتهم إلى مصنفات مدونة في مختلف المجالات والاختصاصات، ولا سيما علوم الدين.

ومن هؤلاء أحمد بن خالد البرقي الذي ألف نحو ١٠٠ كتاب، والحسين بن سعيد الذي ألف ٣٠ كتابا، والفضل بن شاذان صاحب أكثر من ٢٠٠ مؤلف. ومحمد العياشي الذي كتب أيضا ما يقرب من ٢٠٠ كتاب وبحث^٣.

١. انظر: المراجعات، ص ٤١٢ - ٤١٣، والمناقب لابن شهر آشوب.

٢. انظر: المناقب لابن شهر آشوب، ج ٤ ص ١٦١، ورجال الكشي.

٣. المصدر السابق، ص ٤٢٢.

ولم يقتصر تعليم أهل البيت تلامذتهم على علوم الدين، بل تعدتها إلى العلوم الأخرى أيضاً، كما هو الحال مع علم النحو الذي علمه الإمام علي أبا الأسود الدؤلي، أو علم الكيمياء الذي برز فيه جابر بن حيان الكوفي تلميذ الإمام الصادق عليه السلام وغيرهما^١. وقد أوضح أئمة أهل البيت عليهم السلام كل ماكانت الأمة تحتاجه من أصول عقيدية وفقهية وأخلاقية، وكانت آراؤهم تمثل فصل الخطاب لكل اختلاف علمي ديني يحدث بين العلماء المسلمين ومذاهبهم الكلامية والفقهية، ولاسيما في قضايا التوحيد وصفات الخالق تعالى ووصف ذاته مع صفاته، وقضايا العدل الإلهي وما يرتبط بذلك من أفعال الإنسان، ومسائل القضاء والقدر، والوسطية بين الجبر والتفويض، والبداء والتقية، وكذا القواعد الأصولية والفقهية التي أقام عليها فقهاء مذهب أهل البيت مدرستهم. وقد كتب في هذه المجالات الآلاف من الكتب^٢.

علم أهل البيت عليهم السلام في خدمة مصالح الأمة

برغم المحن القاسية التي مرت على أهل البيت عليهم السلام في مختلف المراحل والعهود، إلا أنهم ظلوا يضحون من أجل رعاية مصالح الأمة ووحدها وتغليب هذه المصالح على أي شيء آخر، من منطلق الرسالة التي كلفوا بحملها. كما ظلت علومهم هي المنار الذي يهدي الأمة إلى الطريق القويم.

وكانت القضية الأولى هي قضية الخلافة، إذ صمت الإمام علي عليه السلام حيالها، برغم تصريحه بأحقية فيها، وذلك حرصاً على مصلحة الأمة التي كانت تعيش مرحلة تثبيت الأقدام والفتوحات وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولم يسمح لمن أراد أن يلوح بورقة الخلافة لتفريق الأمة، بتمرير مخططه، وهو ما حدث مع أبي سفيان، الذي دعاه عقيب السقيفة بأن يتصدى للخلافة، فنهره الإمام علي وفضح أمره، بل إن الإمام علي لم يبخل بأية مشورة للخلفاء الراشدين. ويكفي أن نراجع الخطبة الشقشقية وكتابه إلى أهل مصر الذي بعثه مع مالك الأستر، لنقف على مجمل هذه الحقائق.

١. انظر: رجال الكشي، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام للسيد حسن الصدر، مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام للسيد عبد

الحسين شرف الدين، رجال النجاشي، طبقات مؤلفي الشيعة للشيخ آغا برك الطهراني وغيرها.

٢. انظر: المصادر السابقة نفسها.

ففي كتابه إلى أهل مصر قال الإمام علي عليه السلام: (إن الله سبحانه بعث محمدا نذيرا للعالمين ومهيئنا على المسلمين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فوالله ما كان يلقي في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزيج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته ولا أنهم نحوه عني من بعده، فما راعني إلا والناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلما أو هدما تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان كما يزول السراب، أو كما ينقش السحاب، فنهضت في تلك الأحداث، حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين)^١.

وهذه الكلمات واضحة الدلالة تماما على تغليب الإمام علي عليه السلام مصلحة الإسلام، برغم تصريحه بأحقيقته في خلافة رسول الله، ولم يقف الإمام على الحياد تجاه قضايا الإسلام، بل ظل في خضم الأحداث فاعلا وعاملا، ومن ذلك موقفه من حروب الردة ومانعي الزكاة، ثم موقفه من التجاوزات التي قام بها بعض قادة الجيش الإسلامي خلالها. ففي كليهما تصرف بالطريقة التي يملئها عليه موقفه الشرعي.

وفي السياق نفسه تأتي مواقفه في مرحلة خلافة عمر، فحين استشاره الخليفة في أن يخرج بنفسه لغزو الروم، فإن الإمام علي عليه السلام أشار على عمر بعدم الخروج بنفسه؛ لأنه خليفة المسلمين ومخوّر وحدتهم^٢. وفعل الشيء نفسه حين استشاره عمر بأن يخرج بنفسه لقيادة جيش المسلمين المتوجه لفتح إيران، لأنه - كما يقول الإمام علي - لا بد أن يكون القطب الذي تدور الرحا حوله، فخروجه يعني تشتت أمر المسلمين^٣.

وفي السياق نفسه جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية في إطار الظروف الاستثنائية التي مر بها الإمام وعانت منها الأمة، ثم ثورة الإمام الحسين عليه السلام: إذ ضحى الحسين عليه السلام بنفسه وبصحبه وأهل بيته من أجل مصلحة الأمة والحيلولة دون استئراء الانحراف في جسدها.

١. نهج البلاغة، الرسالة رقم ٦٢.

٢. المصدر السابق، الخطبة ١٣٤.

٣. المصدر السابق، الخطبة ١٤٦.

وبلغت الإمام السجاد عليه السلام الأنظار بدعائه للجيش الإسلامي برغم خضوع هذا الجيش لقيادة الأمويين الذين أذاقوا أهل البيت الأمرين، وهو دعاؤه المعروف بدعاء (أهل الثغور) الذي يقول فيه: (اللهم صل على محمد وآله وحصن ثغور المسلمين بعزتك، وأيد حماتها بقوتك.. وكثر عددهم واشحذ أسلحتهم.. وألف جمعهم، ودبر أمرهم، وواتر بين مسيرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، وأعزدهم بالنصر، وأعنتهم بالصبر... اللهم أعز بكل ناحية من المسلمين على من أذاهم من المشركين وأمددهم بملائكة من عندك مردفين)^١.

كذا الحال مع الإمام الباقر عليه السلام الذي كان يضع علمه وخبرته تحت تصرف الدولة الإسلامية، ومن ذلك حله مشكلة السكة (ضرب النقود)، حين قننها الروم على المسلمين فأشار الإمام الباقر عليه السلام على عبد الملك بن مروان بأن يضرب السكة باسمه.

ثم موافق الإمام الصادق عليه السلام من قضايا الخلاف الكبرى بين الفرق الإسلامية في العهد العباسي، فكان يوجه أصحابه وشيعته بشأن سلوكهم مع أتباع المذاهب الأخرى، فيقول: (صلوا في جماعتهم، وعودوا مرضاهم، واحضروا جنازتهم وموتاهم؛ حتى يقولوا: رحم الله جعفر بن محمد، فلقد أدب أصحابه، كونوا زينا لنا ولا تكونوا شيناً علينا)^٢.

والأمر نفسه كان يحدث مع الأئمة الآخرين، وبالإمكان مراجعة موافقهم كما جاءت في المصادر التاريخية وفي كتب التراجم الموثقة.

وعموماً فإن هذه المواقف كانت تعبر عن نظرتهم المتفردة لقضايا الأمة وتشخيصهم الدقيق لمصلحتها العليا.

النتائج

نخلص مما سبق إلى نتائج نضعها بين أيدي الباحثين والمختصين . للتداول والحوار . بهدف إثرائها وبلورتها:

- ١- إن القرآن الكريم والسنة الشريفة أكدا مرجعية أهل البيت العلمية العامة لكل المسلمين.
- ٢- إن السنة الشريفة الصحيحة كشفت عن المقصود بأهل البيت بصفاتهم وعددهم.

١- الإمام زين العابدين (السجاد) الصحيفة السجادية، ص ٨٧ - ٩١.

٢- الفصول المهمة في توحيد الأمة، للسيد عبد الحسين شرف الدين.

٣- وإيَّهم لم يحتاجوا إلى أحد في حياتهم العلمية، سوى المعصوم الذي سبقهم.

٤- إن أعلام الأمة ورجالات المسلمين. بدءا بالخلفاء الراشدين وأئمة المذاهب الإسلامية وحتى الآن، شهدوا بأعلمية أهل البيت، وبحاجة المسلمين إلى مرجعيتهم العلمية.

٥- إن أهل البيت وظفوا علمهم لخدمة الأمة ومصالحها، برغم مساواة الظروف التي واجهتهم.

٦- وبناء على ما سبق فإن أهل البيت عليهم السلام مرجعية علمية عامة للمسلمين. دون أن يؤثر في ذلك زمان أو مكان، وهو الحد الأدنى الذي يتفق عليه المسلمون بشأن محورية أهل البيت في الوحدة الإسلامية. فإذا كانت الإمامة السياسية لأهل البيت موضع جدل بين المسلمين، فإن المرجعية العلمية هي - وفقا لما سبق - نقطة التقاء بين المسلمين^١.

واتفاق المسلمين على هذه الحقيقة أمر في غاية الأهمية: لأن من شأنه تقرير مصير الأمة في قضية طالما حاول الحكام وحاولت السياسة التعتيم عليها طيلة مئات من السنين.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى منهج الدليل الاستقرائي الذي استخدمه الشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر لإثبات الخالق تعالى: لأنه منهج يعتمد عليه في إثبات جميع الحقائق العلمية، وهو يقوم على حساب الاحتمالات^٢.

فنستخدمه هنا في إثبات كون أهل البيت الفئة التي منحت الأهلية للمرجعية لهذه الأمة.

ويمكن تلخيص هذا المنهج في الخطوات الخمس التالية:

أولاً: التعرف على ظواهر القضية التي نريد إثباتها، من خلال التجربة والحس.

ثانياً: بعد ملاحظة تلك الظواهر وتجميعها، نتقل إلى مرحلة تفسيرها، وإيجاد فرضية علمية صالحة من خلال تفسير هذه الظواهر وتبريرها، والمقصود بكونها صالحة هو أنها إذا كانت ثابتة في الواقع فهي تستبطن أو تتناسب مع وجود جميع تلك الظواهر الموجودة بالفعل.

ثالثاً: إن لم تكن هذه الفرضية صحيحة وثابتة في الواقع. فإن فرصة تواجدها تلك الظواهر مجتمعة كلها ضئيلة جداً، أي أن نسبة احتمال وجودها جميعاً إلى احتمال عدمها أو عدم واحدة منها على الأقل - ضئيلة جداً.

١. لا يعني هذا ذوبان المذاهب الإسلامية في مذهب واحد، بل يعني تحديد مساحة مرجعية عامة يلتقي عندها كل اتباع المذاهب الإسلامية، مع احتفاظ كل مذهب وفريق بخصوصياته.

٢. انظر: السيد محمد باقر الصدر، الأسس المنطقية للاستقراء (ق ٣). ص ١٣٥ فما بعدها.

رابعاً: نخلص إلى أن تلك الفرضية صادقة، ودليل صدقها هو وجود تلك الظواهر المجتمعة معاً، والتي أحسنها في الخطوة الأولى.

خامساً: إن درجة إثبات تلك الظواهر للفرضية المطروحة في الخطوة الثانية تتناسب عكسياً مع نسبة احتمال وجود تلك الظواهر جميعاً إلى احتمال عدمها على افتراض كذب الفرضية، فكلما كانت هذه النسبة أقل كانت درجة الإثبات أكبر، حتى تبلغ في حالات اعتيادية كثيرة درجة اليقين الكامل بصحة الفرضية.

ونحن في هذا البحث استخدمنا هذا المنهج استخداماً غير مباشر حيث قلنا: إن كل هذه الظواهر التاريخية الثابتة إنما تنسجم مع الأهلية الحقيقية لهم عليهم السلام لهذه المرجعية وإلا احتجنا إلى الكثير من الصدق التي لا يعقل اجتماعها، متمنين على أهل العلم والاختصاص الانتفاع من هذا المنهج وفقاً للخطوات التي حددها الشهيد الصدر، في مثل هذه الموضوعات المصيرية بالنسبة للأمة التي تنتمي إلى الرسالة الخاتمة التي تبشر البشرية بجمعاء بالعدل والسعادة وخير الدنيا والآخرة.

النتيجة

ونخلص من هذا البحث إلى أن الأمة الإسلامية لكي توسع من مساحة مصادرها الأصيلة ومقدرتها على مواجهة التساؤلات الحياتية المتنوعة، وتنسجم أكثر مع توجهات القرآن الكريم والسنة الشريفة يجب أن ترجع إلى هذا التراث الضخم وتستمد منه ما يركز موقعها الحضاري المطلوب.

ملاحظة أخيرة

إن البحث عن المرجعية العلمية والتفسيرية لهم: لا يعني أننا ننكر العطاء العلمي والسلوكي للصحاب الكرام والتابعين والعلماء المسلمين الذين زكوا أنفسهم وقدموا بدورهم اسهاماً حضارياً وعلمياً كبيراً على مدى العصور فهم رضي الله عنهم شكلوا رافداً كبيراً باستمرار للمسيرة الحضارية وإنما قصدنا من بحثنا هذا أن نبين عظمة أهل البيت ومحوريتهم العلمية والتي صدق بها الجميع ليكونوا المحور الثالث الذي يجمع هذه الأمة ويصنع وحدتها المنشودة وهو ما يؤكد حديث الثقلين الأنف الذكر.

الفصل الثالث: الثورة الإسلامية والوحدة

صراع الثورة الإسلامية وأعدائها حول قضية الوحدة الإسلامية

لعل محور (الوحدة الإسلامية) يشكل أحد أهم المحاور التي دار عليها الصراع المحتدم بين الثورة الإسلامية في إيران وأعدائها الذين يشكّلون الكفر العالمي بكل أوجهه الشرقية والغربية وعملائه الدوليين والمحليين.

وإن دلّ على شيء فإنما يدل على إدراك طرفي الصراع بكل وضوح لأهمية هذا المحور. فالثورة الإسلامية تدرك تماماً أن إسلامها يركز على هذه الخصيصة ويعتبرها منحة إلهية لا تقدر بثمن، ولا تقدر ثروات الأرض على تحقيقها بشكل قهري وإنما هي من ألطاف الله جل وعلا: (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم).

وتدرك أيضاً أن الوحدة هي السلاح المواجه لاتحاد الكفر على الباطل فإذا لم يتحقق هذا الأمر في وجود الأمة انجرت بشكل طبيعي إلى الفتنة والفساد الكبير: (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير).

وهي تؤمن أشد الإيمان، من جهة أخرى، بأن امتنا الإسلامية لن تسترجع خصائصها الحضارية ما لم تتمتع بهذه الصفة بكل عمق، وأنها ما لم تحقق تلك الخصائص تبقى على تخلفها المقيت وبعدها عن تحقيق الأهداف العليا.

وهذه الأمور يدركها العدو الكافر للثورة، ولكن من زاوية مصالحه الجشعة. فهو يلحظ أن الثورة الإسلامية إذا نجحت في تأصيل هذه الحقيقة الكبرى، فإن آماله ستذهب ادراج الرياح، بل سيواجه قدرة عظمى لا قبل له بها، قدرة تملك عشرات الموانع الإستراتيجية، ومئات الملايين من العقول الفاعلة، والأيدي العاملة النشطة، والشطر الأكبر من الثروات الأرضية. وفوق كل

ذلك أمة تمتلك أطروحة حياتية واسعة الأبعاد، قوية التخطيط، شاملة لكل جوانب الحياة، مؤهلة تماماً لكونها البديل الأروع لحضارته المهزوزة والملاى بالرعب، والتحلل، والقلق، والجشع، والحيوانية المقيتة، وكلها أمور تجافي الطبع قبل أن تجافي العقل السليم.

ويشتد قلقه تماماً عندما يتصور الأمة الإسلامية حاملة تلك الرسالة وقد تأصلت فيها المفاهيم الرسالية، فراحت تنظر للحياة نظرة مرحلية، وللشهادة نظرة تقديس، وللجنة نظرة أمل، وللتأريخ مسرحاً حضارياً لخط الأنبياء، وأي انحراف عن هذا الخط يعني الانحراف عن خط الفطرة الصاعد. إن هذا كله ليرعب الكفر ويدعوه للتأمل مرات ومرات في أساسه ومقومه، وهو: الوحدة الإسلامية.

ومن هنا قلنا إنه يدرك خطورة هذا الأساس، فيلجأ لطرح كل وسائله الشيطانية لتقويضه بشتى الأساليب. وهنا بالضبط، يحدث الصراع بين الثورة باعتبارها رائدة الوحدة الإسلامية، وأعدائها باعتبارهم المتضرر الأكبر بذلك.

إن العدو الكافر لاحظ الإصرار الثوري المجاهد على دعم خط الوحدة الإسلامية في كل خطوات الثورة وبشتى الأساليب الممكنة فراح يعمل على احباط كل الخطط.

ونستطيع أن ندرك سعة الخطوات الثورية على طريق الوحدة إذا لاحظنا الأمور التالية:

أولاً: طرحت الجمهورية الإسلامية شعار: الوحدة الإسلامية بكل قوة، وأعلنت أنه شعار إستراتيجي نابع من صميم العقيدة، وهي أساس البناء الاجتماعي لديها. وتطبيقاً لذلك أعلنت عن أسبوع الوحدة لتؤكد ذلك من خلال الاجتماعات واللقاءات، والبرامج المتنوعة لايجاد الجو المناسب الذي تتلاقى فيه الأفتدة، ويتعرف فيه الإخوة على الحقيقة الوحدوية التي تضمهم جميعاً.

ثانياً: عملت على الصعيد العملي على تنفيذ هذا الشعار في قوانينها وسلوكها العملي، فنظرت للمواطنين بعين واحدة، وأعلنت أن لكل مذهب إسلامي الحرية الكاملة في تطبيق آرائه على أتباعه، ولهؤلاء الاتباع الحق في التحاكم إلى محاكم تعتمد تلك المذاهب. ومنحت الجميع فرص التعاون والتكافل لبناء الدولة الإسلامية وأعلنت حرية الثقافة الإسلامية غير المخلة بالوحدة وبالخلق العفيف.

ثالثاً: جاءت فكرة قيادة الفقيه العادل كأحدى أروع الأفكار الوحدوية، ذلك أن القيادة والإمامة هي عماد الحياة الاجتماعية، وهي السلك الذي يتظم كل شعب تلك الحياة. ولما كان

المجتمع الإسلامي مجتمعاً ايديولوجياً فإن من الطبيعي أن تسلم قيادته للفقهاء المتضلع في الشؤون الإسلامية، والعاقل العامل بتعاليمه كملكة متأصلة في النفس.

ومسألة اشتراط الفقه في القائد مسألة يقود إليها الطبع الفطري السليم، وتؤكد فتاوى علماء المسلمين من جميع الفرق على اختلاف في المستوى الفقهي، وفي نوع الاشتراط، ولكنها على أي حال مسلمة إجمالاً لدى الجميع، وبها تصان القيادة من الانحراف.

فهذا الأمل الكبير بالمستقبل الإسلامي المشرق الذي يحكم فيه القرآن، وهذا الإصرار الدائب على إعلان الشخصية المسلمة والاعتزاز بها، وهذه الدعوات المتتالية هنا وهناك لتطبيق الشريعة الإسلامية على كل مرافق الحياة، وهذه المظاهر الأخلاقية الإسلامية المعروفة كالترام الحجاب، ورفض التحلل، ونبد المحرمات، وتطبيق الشعائر الإسلامية، تعود إلى عالمنا الإسلامي هنا وهناك وتشكل في بعض الأماكن معالم التحرير الإسلامي الراض لنمط الحياة الغربية المنحرفة.

وهذه العودة القوية التي دعت لها الثورة الإسلامية لدور العلماء في قيادة المجتمع وتسلم دور الوريث للأنبياء - كما جاء في الحديث المعروف - هذه العودة كان لها أثرها الكبير في تكوين حس إسلامي عام مشترك بوحدة هذه الأمة وتلاحمها.

خامساً: وكان نجاح الثورة الإسلامية في تحطيم أحد النظم الطاغوتية المتجبرة، وتحديد لكل القوى الكبرى المتجمعة ضدها، ووقوفها إلى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين، ودعوتها للعودة للأصالة الإسلامية، الدور الكبير في دحر كل الطروحات المادية الممزقة لشخصية هذه الأمة، كالطروحات الغربية، وتهافت تلك الشعارات البراقة التي كانت ترفعها هذه الطروحات، مما لا يعود على الأمة إلا بالوبال.

إن تمزق هذه الطروحات وخذلانها عزز مسيرة الوحدة الإسلامية وأكد أن الخلاص الحقيقي من وضعنا المأساوي لا يتم إلا بالإسلام وحده، وهي من أروع الأفكار الوجدانية.

سادساً: طرحت الثورة الإسلامية شعار الحل الإسلامي الوحيد، رافضة الحلول الشريفة والغربية للمشكلات الاجتماعية، وعملت بكل قوة على تأصيل سياسة تخرج شعبها من دوامة التبعية الذيلية للمعسكرين العملاقين، الأمر الذي جعل المفكرين العالميين من جهة، وكل المخلصين الإسلاميين من جهة أخرى، يؤمنون بإمكان هذا السبيل بشكل واقعي، لا بشكل مخادع كاذب كما حصل في قضية دول عدم الانحياز التي يعيث فيها الانحياز فساداً.

إن تقديم هذا النموذج الحي الواقعي ساهم أكبر المساهمة في إيجاد أجواء الوحدة الإسلامية على طريق الله تعالى وهو الصراط المستقيم وسنن الحق دون جواد المضلة.

سابعاً: أصرت الثورة الإسلامية على لزوم إعادة الدور الحقيقي للشعائر الإسلامية، كصلاة الجمعة، والحج، باعتبارها من أكبر المجالات المحققة للاحساس المجموعي بوحدة هذه الأمة في توجهاتها الحضارية، وسلوكاتها العملية، وحتى في ما تتكلم به وتترين به في سلوكها الفردي.

إن الحج مثلاً يعلن وحدة خط الأنبياء عبر التاريخ حول مسألتني (العبودية لله، واجتناب الطاغوت) وذلك بشتى الأساليب التي تتناسق فيها بينها لتؤكد هذا المضمون الوحدوي العظيم.

ومن الأمور التي ركزت عليها الثورة مسألة أحياء الذكريات الإسلامية، كذكرى ولادة الرسول ﷺ، والمعراج، والبعثة، باعتبارها معالم تاريخية شاهدة على ارتباط الأمة بشخصية الرسول الموحدة لهذه الأمة.

ثامناً: إن أهم الخطوات التي خطتها الثورة لتعميق الخط الوحدوي الإسلامي تركيزها المضاعف على لزوم تجميع الأمة حول القضايا المصيرية لها، ودفعها لاختيار الحل الإسلامي، باعتباره السبيل الوحيد للخلاص، وذلك من قبيل تأكيدها الشديد على الحل الإسلامي للقضية الفلسطينية واخفاق كل الحلول الأخرى، والتركيز على أن إسرائيل يجب أن تزول، وأن لا طريق لذلك إلا طريق السلاح الذي يحمله المسلمون ضد أعدائهم، منطلقين من مبدأ الجهاد، والتضحية، والشهادة في سبيل الأهداف العليا.

وهكذا نجد المواقف المشابهة للثورة الإسلامية من قضية لبنان وافغانستان وغيرهما من القضايا الكبرى.

تاسعاً: ويمكننا أن نعد الكثير من المواقف الرسالية الحاسمة التي وقفها الثورة، فكانت بذلك داعية لتجميع المسلمين حولها ومكونة لموقف إسلامي عام.

إلا أن موقف الإمام الخميني عليه السلام، من قضية الهجوم الثقافي الكافر على مقدسات الأمة الإسلامية والتجديف بحق الرسول العظيم، وأصحابه المتجيين، وزوجاته الطاهرات، والكتاب الكريم، والتي تمثلت في الكتاب الساقط للمرتد المجرم سلمان رشدي، هذا الموقف استطاع أن يوقظ الأمة ضد مؤامرات أعدائها، ويوحد موقفها بشكل يقل مثيله في تاريخها

الطويل، الأمر الذي دفع الدول الإسلامية، برغم ارتباط الكثير من مصالحتها بالغرب الكافر، لأن تصدر إعلانها المشهور ضد الغرب وهجومه الكافر اللئيم. كل هذه الخطوات أفضت مضاجع الاستكبار العالمي، الأمر الذي دفعه للتخطيط اللئيم لدحر هذه الخطط الوجودية.

الوحدة الإسلامية كما توحى بها ذكرى ولادة الرسول ﷺ

تعيش الأمة الإسلامية الوحدة بكل وجودها ومشاعرها تنطلق بدماء جديدة تسري في أوصالها ونداءات مخلصه لاسترجاع خصائصها، ومنح إلهية ترفعها لاتخاذ موقعها الحقيقي تحت الشمس. وتأتي الآية الشريفة تدوي في وجودها وتملاً آفاقها ببناء الوحدة العظيم ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^١ ويبدأ الواعون يبحثون عن ﴿حبل الله﴾ وما المراد منه؟ فلا يجدون في ذلك أية صعوبة، خصوصاً بعد أن أكدت الآية السابقة لهذه الآية المعنى حيث قالت: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^٢ فالاعتصام بالله واحد ولكن التعبير في الآية السابقة أكثر تفصيلاً، أنه إذن يفسر ﴿حبل الله﴾ - والقرآن بعضه يفسر بعضاً - فقد ذكر في الآية ١٠١: (كتاب الله وسنة رسوله) كمصدقين لحبل الله، وحيث يكون المراد منه هو كل ما يوصل العباد إلى الله إيصالاً مضموناً معصوماً من الزلل والخطأ. ومن هنا نجد الفخر الرازي في تفسيره يعتبر المراد من الحبل هنا (كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين).

وهذا الكلام صحيح في الجملة، ذلك أنه يعني كل سبيل هو حجة بين العباد والله لمعرفة حقائق الدين، في حين أن الظاهر من ﴿حبل الله﴾ هو الطريق المعصوم القطعي الذي لا شك في إيصاله إلى الله، وهو يشمل الطريق الذي ثبتت حجتيه كما هو معلوم لدى أهل الصناعة الأصولية.

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. آل عمران: ١٠١.

وهنا نجد أن سيد قطب يفسر جبل الله ب(عهده ونهجه ودينه).
 والمرحوم العلامة الطباطبائي يؤكد (إن جبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله وهو الذي يصل ما بين العبد والرب ويربط السماء بالأرض).
 هذا، وقد ورد هذا التعبير في حديث الثقلين الذي كاد أن يصل حد التواتر حيث جاء فيه:
 (كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي).
 حيث نجد مصداقاً ثالثاً يضاف هنا هو العترة الطاهرة وهو جدير بذلك، بعد أن ثبتت لهم الطهارة بنص القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^١.
 وقد جاءت روايات عنهم: تؤكد أنهم مصاديق لحبل الله من قبيل: آل محمد هم جبل الله.
 بعد هذا لا نجد صعوبة كما قلنا في اعطاء التعريف السابق لحبل الله وهو: (الطريق المعصوم إلى الله)
 كما لا نجد أية شبهة في حصر هذا الطريق في عناصر مقدسة ثلاثة هي: (الكتاب، وسنة الرسول ﷺ،
 وسيرة أهل البيت ﷺ باعتبارهم يكشفون عن حقائق الكتاب وسيرة الرسول ﷺ كشفاً قطعياً).
 وما أروع هذا المعنى إذا جعلته الأمة محوراً لوحدها ومسيرتها الصاعدة إلى العلاء، خصوصاً
 وإن الأمة بكل قطاعاتها ومذاهبها تؤمن بهذه المحاور في العموم.
 إنها مقاييس الوحدة الإسلامية نعرف منها طريقنا الموحد فلا نضيع في متاهات الضلال،
 ونعرف منها الحد الوسط فلا نفرط ولا نفرط فتقع تارة في الأفراط المنبوذ فنعمل مثلاً على
 التمسك بالقشور، ظانين أنها هي المقصود دوننا أي نظر إلى المضامين، كما لا نفرط في هذا الحد
 الوسط بحجة التساهل واليسر، فتقبل كل نظام مستورد وكل فكرة ميسرة!! وكل ضغط من
 ضغوط الواقع المصطنع، فنصبح تارة علمانيين، وأخرى اشتراكيين وثالثة رأسماليين... لا شيء
 إلا بحجة الوسطية الزائفة، والتساهل واليسر المنحرفين في التفسير.
 ومن الأفكار التي تنطرح في الأذهان والنفوس بمناسبة مولد قائد البشرية محمد ﷺ
 كونه ﷺ أسوة حسنة لكل فرد يريد أن يطوي طريق التكامل، وكون مجتمعه الذي بناه أسوة
 حسنة لكل مجتمع يسعى لتحقيق خصائص خير أمة أخرجت للناس.
 ويذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم يعرض علينا الكثير من الشبهات والاعتراضات التي

وَدَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرًّا جَامِعًا ﴿١﴾.

والشهود هنا قد يراد به الشهود الحضاري بقريته قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَتَّكُونَ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾. ٢.

والثاني: هو الحد من أي إفراط وغلو في شخصية الرسول يحوله من جسر إلى الله إلى عقبة ذهنية (أي في ذهن الغلاة) في الطريق إلى الله... وهذا ما حدث بالضبط بالنسبة لغلو بعض المسيحيين في المسيح، وبعض اليهود في أنبيائهم، وحتى بعض المسلمين في شخصيات كبرى كأهل البيت (عليهم السلام) وكلها انحرافات يرفضها العقل السليم والمنطق الديني الإسلامي الأصيل. وربما كان من أسرار انطلاق غالب الرسالات من الصحراء، ذلك الصفاء الذهني والبساطة الروحية التي تتقبل العقيدة بكل نقاء دون إضافة ذاتية وعكس أي تعقيد نفسي عليها وتجريدها من خصائصها الأولى.

وعليه: فيجب تلمس الجوانب الإنسانية السامية في شخصية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وجعلها قدوة وأسوة لنا في كل مجالات حياتنا، وهكذا تتلاحم كل القطاعات وتمسك بحبل الله. ولا مجال لمن يطرح شبهة في البين ملخصها أن شخصية الرسول شخصية معصومة وأنه من غير الممكن أن يصل أحد إلى ذلك المستوى من الكمال، فإن هذه الشبهة واضحة البطلان، ذلك أن كون الرسول معصوماً أمر طبيعي وصحيح، ولكن ذلك لا يمنع من أن يعمل الآخرون على الاقتداء به والتقرب أكثر فأكثر من مقامه الرفيع.

يبقى بعد هذا أن نشير إلى حقيقة واقعة تتمثل في هذا التمزق الذي تعاني منه امتنا الإسلامية بالرغم من أنها تملك هذا الكنز الوحدوي العظيم (القرآن والسنة) وبالرغم من أن دينها الرائع قد صمم تصميمياً دقيقاً ليحقق الأمة الواحدة المتلاحمة... إننا نعتقد أن هذا التمزق حصيلة لعوامل كثيرة، أهمها التخطيط الاستكباري الكافر من جهة، ونقاط الضعف الكبرى في واقعنا والتي يستفيد منها الاستكبار، وهي: (الأهواء الشخصية لبعض المسلمين سياسياً، والمصالح الضيقة لبعض المنتسبين إلى العلم من وعاظ السلاطين، بالإضافة لعوامل الجهل والتعصب).

١. الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.

٢. البقرة: ١٤٣.

إن الاستكبار العالمي إنما يمتد في فراغنا الذي نعيش فيه، وإنما ينفذ من نقاط الضعف التي تهددنا من الداخل.

إن امتنا الإسلامية اليوم تعاني وضعاً لا تحسد عليه في هذا المجال، فهناك تتحد قوى الكفر العالمي غريبها وشرقها (برغم اختلافها) على ضرب الإسلام ونهضة المسلمين، وكبت نداء وحدتهم، وهنا يتهاافت الحكام المسلمون على موائد التخطيط الغربي والشرقي معلنين الولاء ومنفذين بكل دقة أحقر المؤامرات على وجود أمتنا الإسلامية، ضاربين بعرض الحائط إرادة هذه الأمة في (تطبيق الإسلام) وفي (محاربة الصهيونية) و(نبد النظم الوضعية) و(البراءة من المشركين) فتجدهم يعتقدون هنا وهناك الصفقات المخزية، بائعين فيها شرفهم لأميركا واسرائيل دونما حياء أو خجل، بل وتجدهم ينفذون المخططات لافراغ العبادات الإسلامية، كالحج، من محتواها، ثم إذا حاول الخط الواعي العودة إلى الإسلام وواقعه راحت كل الجهود السياسية والمالية والاعلامية تتحد ضده وتضربه وتفتك به دونما خشية.

ولكن: ترى هل تستطيع هذه العوامل المخربة التي لخصناها في الاستكبار وعملائه السياسيين والدينيين المزيفين، أن تمزق وحدة هذه الأمة أو تصادر مكتسباتها الإسلامية؟ وهل علينا أن نعيش في اليأس والقنوط؟

إننا نعتقد أن الرسالة، ومقومات الأمة، ومناعتها، هي أكبر بكثير من كل هذه العوامل دونها تقليل من خطرها السلبي الممزق...

إن جماهيرنا الإسلامية أوعى بكثير مما يتصور هؤلاء بل ربما راحت هذه الجماهير تستدل من قرارات هذه المؤتمرات الهزيلة على سلامة الخط الثوري الإسلامي الأصيل، ولا أدل على ذلك من الإهمال الذي واجهته من قبل هذه الجماهير.

وكلمة أخيرة نقولها: إن مسيرة الصحوة الإسلامية صاعدة، وإن العقبات أمامها زائلة، وإن عز الإسلام الأمثل متحقق بلا ريب ولو كره الكافرون!

التأمل الاستعماري على الثورة والوحدة

في الواقع إنما لا نستطيع أن نحصي الخطط الكثيرة التي نفذها الكفر العالمي لمواجهة خطط الثورة الإسلامية لتحقيق حلم الوحدة الإسلامية، ذلك أن الطاقات الاستعمارية هائلة،

والتخطيط الاستكباري ذكي وواسع، يستخدم مختلف العناصر لتحقيق مآربه اللثيمة. إلا أننا نشير إلى بعض النماذج التي توضح سعة ذلك التخطيط، وهي على النحو التالي:

أولاً: قام الاسطول الاعلامي الاستكباري بشن حملة تهريج وتشويه للثورة وصورها وصور قائدها الكبير وسياستها الواضحة، وذلك لتحقيق الكثير من الأهداف التي منها ارباك الوضع الداخلي لاقعاده عن النهوض بالمهمة الإسلامية العالمية الواسعة الابعاد.

كما عمل على ايجاد هوة سحيقة بينها وبين جماهيرها الإسلامية المتلهفة، عبر اقتناع هذه الجماهير بأن التجربة تجربة خائبة ولا يمكنها أن تقدم النموذج الحضاري المطلوب، أو أنها تجربة لها حدودها الاقليمية ولا يمكن اتباعها وإعادة تطبيقها في ظروف أخرى، نظراً للاختلافات المذهبية وغيرها. وبهذا استطاع الاعلام الاستكباري أن يقنع بعض ضعاف النفوس، ويسخر لصالحه بعض وعاظ السلاطين، مستغلاً الأموال الحرام التي تبذلها الأنظمة السائرة في ركابه لشراء الذمم وتشويه الحقيقة الناصعة.

ولن نستطيع في هذه العجالة أن نشير حتى إلى بعض النماذج الهزيلة لهذا التشويه، ولاشك في أن كل مسلم واع اليوم يدرك هذه الأبعاد بكل وضوح.

ثانياً: قام الاستكبار وعملاؤه بافتعال كثير من أنماط الارواء الكاذب لعطش الجماهير الإسلامية للوحدة الإسلامية والخلاص من المشاكل. ثم لا تنقضي مدة حتى تشعر هذه الجماهير بسخف تلك المحاولات وأنها لم توجد إلا لخلق اليأس.

وما تجربة الأبدال الهزيلة التي طرحها الاستكبار لتطبيق الإسلام هنا وهناك في العالم الإسلامي إلا دليل على ذلك.

فقد أعلن بعض الحكام عن عملهم عليتطبيق الشريعة الإسلامية مباشرة، وراح بعضهم الآخر يطلب إلى المجمع العلمية وضع دساتير لتطبيق الشريعة، في حين أعلنت بعض الحكومات الإسلامية عن تدرجها في تطبيق الشريعة، وقامت ببعض الخطوات السطحية.

ولم تمض مدة على ذلك حتى اكتشفت جماهير امتنا إسلامية زيف كل تلك الأساليب بل وتآمرها على القضية.

فلم تعد تلك الإعلانات إلا مهزلة يتندّر بها الشعب لينفّس عن يأسه.

ثالثاً: وكانت مسألة طرح الخلاف بين المسلمين من خلال الكتب الصفراء بهرجة تنبش الماضي السحيق وتتبع العثرات، والفتاوى الفردية، والآراء التي القيت في ظروف خاصة، والكتيبات المؤلفة للتعبير عن حالة نفسية مريها المؤلف في فترة من الفترات، والروايات الضعيفة المتناثرة في الكتب الروائية، بل وتحريف مدلول بعض الروايات، واقتطاع جزء من الكلام وعرضه على أنه كلام كامل ثم التشهير بصاحبه، حتى وجدنا من يعمد إلى بعض القواعد الأصولية التي لها مساحة عمل خاصة بها ليجعلها من أصول المذهب ثم ليشنع بها على أصحابه. وهكذا ارتضى أصحاب هذه الحرفة القائلة الممزقة لوحدة الأمة أن يتم التشكيك في القرآن الكريم والسنة الشريفة والتاريخ الإسلامي، وان تقوم المذابح بين المسلمين، ويقوى معسكر الكفر المتربص، لا لشيء إلا لكي يدكوا الطرف الآخر، وهم بذلك يقدمون، دون شك، أكبر خدمة لأعداء الإسلام، بوعي منهم أو بغير وعي. وقد اعتمد هذا الخط الحثيث على عناصر نفسية، وإمكانات مالية واعلامية واسعة، ونقاط ضعف تلوح بشكل طبيعي في مسيرة كل مذهب، من خلال ما يقبله من روايات وما يقدمه للتاريخ من أبطال ورجال، وما ينتهي إليه من آراء. وحينئذ نجد العناصر الجاهلة، أو المتعصبة، أو المغرضة المأجورة، تستفيد من تلك الإمكانات المالية الهائلة لنيش القبور، واستعراض الآراء، واكتشاف نقاط الضعف، ثم نسبتها أولاً إلى مجمل المذهب ثم القيام بحملة تشهير واسعة.

وأمامنا مكتبات العالم الإسلامي وهي تعج بالغث من هذه الكتب الصفراء وبأفضل الطبعات وبكل اللغات الحية، وبأرخص الأثمان، وكلها تصب في مصب تمزيق الوحدة الإسلامية، وعلى أغلفتها عبارة جامعة تقول: (طبع على نفقة جماعة من المؤمنين دفاعاً عن الدين الحنيف ويوزع مجاناً قرينةً إلى الله)!!

وأمامنا قائمة طويلة بالكتب التي حملت على عاتقها مسؤولية التمزيق، وأخرى نهضت منافع مدافعة. وليس لنا في قبال ذلك إلا أن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم، ونسترجع، ونسأل الله جلّ وعلا لهذه الأمة أن يحفظها من هذا الهذر والسخف اللذين لا طائل تحتها.

رابعاً: ومن جهة أخرى، رأينا دعماً كبيراً للاتجاهات الممزقة بشكل عملي لوحدة الأمة، فهناك نفخ متواصل في نار الأحقاد التي عفى عليها الزمن بين العرب والفرس والترك، وهناك إحياء لتاريخ ما قبل الإسلام، كتاريخ بابل، والفراعنة، والفينيقيين، لتمزيق جبل الوصل القائم بين

المسلمين عبر تاريخهم المشترك، وهناك صراع حول الصفة الغالبة للفكر: أهي صفة العروبة أم صفة الإسلام؟ وهل أمثال الكندي، وابن سينا هم من مفكري العرب أم من مفكري الإسلام! وهنا تغذية للاتجاهات القومية المتطرفة وتعميق للحدود الوطنية (!) الضيقة جداً، وإشاعة للأفكار الحزبية اليسارية أو اليمينية البعيدة عن الثقافة الإسلامية الأصيلة.

خامساً: وقد بدأ تخطيط واسع لضرب كل مظاهر الصحوة الإسلامية، شمل، قبل كل شيء، ضرب معادل الوعي وحملته، وهم الإسلاميون الحركيون في كل مكان، فتمت تصفية الكثير من عناصرهم اغتياً واعتقالاتاً واتهاماتاً وحلاً وتمييعاً.

كما تم هجوم واسع على كل المظاهر الأخلاقية للصحوة بإشاعة الفساد من جديد وبشكل غير مباشر ومحاربة الحجاب عبر سن قوانين صارمة تحظر على المرأة الملتزمة أن تدخل الجامعة، أو الوظائف الحكومية، أو تمارس الكثير من الحقوق الاجتماعية.

وحوربت كتب الصحوة ومؤسساتها، أو عمل على شرائها وتغيير مسيرتها.

وبدأت حملة طالمة تتهم كل مخلص واع يدعو إلى شمل الأمة، والدفاع عن مقدساتها، وتطبيق شريعتها، بشتى التهم، كالرجعية، والأصولية، والتعصب، والارهاب، والتطرف، والجمود الذهني والتخلف الحضاري، وغير ذلك. وقد اضيفت أخيراً تهمة أخرى واعتبرت أحياناً مجوزاً قضائياً، وهي تهمة (التشيع لآل البيت عليهم السلام) وإن عشت أراك الدهر عجباً!

سادساً: وأخيراً وليس آخراً.

لنا أن نشير إلى حملة التشكيك الواسع في كل العناصر التي تشكل محاور لوحدة مسيرة هذه الأمة. فحورب الحل الإسلامي لقضية فلسطين، وتم اركاع بعض القيادات الفلسطينية العاملة وإبصالها إلى حد التضرع والتوسل لإسرائيل كي تقبل بالتفاوض معها وتجلس إليها جلوس الند للند أو حتى الام للبنت.

وتم التآمر على القضية الأفغانية وتحويلها إلى معسكر نفوذ للرجعية الأمريكية العميلة، وذلك لنقل القضية من حوزة العمالة الشرقية إلى دائرة العمالة الغربية.

وحتى القضايا الطبيعية التي كان المفروض أن تشكل عاملاً من عوامل احتفاء الأمة الإسلامية بتاريخها ومعالمها، كاحياء ذكرى ولادة الرسول العظيم، مثلاً، أو الاحتفال بالمعراج، أو غيره، فقد تمت حملة واسعة للتشكيك فيها باعتبارها بدعاً يجب أن تزول، وأنها شرك ودجل، وما إلى ذلك.

بعد كل هذا، يجب أن لا ننسى التآمر الدولي الواسع عليا الثورة الإسلامية، لالهائها وشلّها تماماً عن القيام بواجبها الحضاري، وهذا باب واسع للحديث ذي شجون.
وأخيراً لتأمل كلمات الإمام الخميني رحمته الله في ما يلي:

شذرات من كلمات الإمام الخميني رحمته الله حول (وحدة المسلمين)

على جميع الأخوة: الشيعة والسنة أن يتجنبوا أي خلاف بينهم. (٥٩/٤/٣١ هجرية شمسية)
يجب أن نعي الحقيقة التالية: إننا مسلمون جميعاً وانا اتباع القرآن والتوحيد. (٥٩/٤/٣١ ه. ش)
إن اختلافنا اليوم يعود بالفائدة على أولئك الذين لا يعتقدون بمذهب الشيعة، ولا بمذهب السنة ولا بأي مذهب آخر بل يعملون على محو هؤلاء وأولئك معاً. (٥٩/٤/٣١ ه. ش)
نحن جميعاً اتباع القرآن والرسول الأكرم. إننا جميعاً إخوة لنا وجهة واحدة واتجاه واحد، دين واحد، قرآن واحد. إنني لأمل أن تتجاوز عوامل التفرقة بقوتكم وبالمدد الإلهي. إنني لأرجو أن يتآخى المسلمون وكل الشعوب الإسلامية - اتباعاً لأوامر الإسلام والقرآن المجيد - ويتعاملوا مع أعداء الإنسانية بالشدة ومع الأقطار الإسلامية بمبدأ الإخوة. وهذا لا يتحقق إلا برفع اليد عن الخلافات الجزئية القائمة بين الحكومات ويعيشوا كما يعيش الأخوة. إن هذا النزاع والخلاف يعود بالنفع على أعداء الإسلام والمسلمين فعلياً أن نقف بوجه هذا الانتفاع. (٥٩/٤/١٤ ه. ش)
لا يعرف الإسلام شيئاً اسمه (العنصر) وليس فيه عربي وعجمي وغير ذلك. (٥٨/٤/١٤ ه. ش)

يجب أن ينضوي المسلمون والحكومات الإسلامية ويجمعوا تحت لواء الإسلام والقرآن المجيد. (٥٨/٤/١٤ ه. ش)

في الفرقة خوف الانكسار، وخطر انهزام الإسلام واحكامه الراقية. (٥٨/٥/٤ ه. ش)
على المسلمين أن يكونوا في يقظة وحذر ويستظلوا بلواء الإسلام وهيمنة القرآن. (٥٨/٣/٣ ه. ش)

الأهم والأخطر من الدعوات القومية، العمل على زرع الفرقة بين أهل السنة والجماعة والشيعة، وبث الدعايات المثيرة للفتنة والعداوة بين الأخوة المسلمين. إن الثورة الإسلامية لم تشهد - بحمد الله تعالى - أي خلاف بين الطائفتين إذ يعيش الكل بحب وأخوة. إن أهل السنة كثيرون في إيران

يتشرون في أطرافها وأكنافها ولهم علماء ومشايخ كثيرون ... أنهم لنا أخوة ونحن لهم أخوة متساوون ... أنهم يقفون في وجه كل تلك النغمات التي تزرع النفاق والتي يعزفها بعض المجرمين وعملاء الصهيونية وأميركا. وليعلم اخوتنا أهل السنة في الأقطار الإسلامية أن العملاء المنشدين بالقوى الشيطانية الكبرى لا يعملون لخير الإسلام والمسلمين فعليهم أن يتبرءوا منهم ولا يستمعوا إلى تخرصاتهم التي تبث النفاق ... إنني امد يد الأخوة إلى كل المسلمين المتعهدين في العالم. (من رسالة الإمام إلى الحجاج ٥٦/١/٢١ هـ. ش)

يجب أن يكون المسلمون يداً واحدة، ويتحدوا ولا يفصل بعضهم عن البعض الآخر، ولا يجعلوا الحدود فواصل بين القلوب. (آبان ١٣٥٨ هـ. ش)

ليست الأيدي الملوثة التي توجد الخلاف بين الشيعة والسنة في الأقطار الإسلامية بأيدي شيعية، وإنما هي أيدٍ استعمارية تعمل على أن تسلبنا أقطارنا الإسلامية هذه. لو اتحد المسلمون بملايينهم السبعائة لما استطاعت أميركا أن ترتكب مثل هذه الجرائم ولعجزت روسيا عن ارتكابها أيضاً.

وليس لنا - اليوم إلا الوحدة على أسس رسالية لكل الطبقات كي نتصر على قوى الشرق والغرب العدوانية ومن ثم تصل ثورتنا الإسلامية إلى النصر. إن الإسلام يأمركم بالوحدة ويأمركم بالاتحاد. إن إيران هي القطر الذي قامت فيه الوحدة سواء بين الأخوة من الشيعة والسنة أو بين الحكومة والشعب. تعالوا نحقق رضا الله فرفع أيدينا عن أي خلاف ونعيش مع اخوتنا الآخرين بصلح وصفاء. دافعوا عن بلدكم من خلال التمسك بالقدرة الإلهية وعندها سيكون الله معكم ولن تتغلب أية قوة عليكم. (من رسالة الإمام إلى الشعب في يوم الجمهورية الإسلامية ٥٩/١/١٢ هـ. ش)

إن كل الطوائف الإسلامية - اليوم - تواجه عدواً مشتركاً هو القوى الشيطانية العاملة على تحطيم أسس الإسلام. (٥٩/٦/٤ هـ. ش)

إخوتي؛ الأخوة من أهل السنة، والأخوة من الشيعة. يجب الانتباه إلى أن جذور الفساد التي صبت عليكم ظلمها وسحقتكم تحت أقدام جلاذيتها على مر التاريخ والتي استطعت طردها من بينكم تخطط الآن وبعناوين مختلفة لتزرع بينكم الفرقة لكي تحصل على النتيجة المطلوبة. إن القرآن دعانا للوحدة، الإسلام دعانا إلى الوحدة. لا تدعوا الخلاف يسري بينكم وكونوا إخوة

متساوين، إذا اتحدت الحكومات والشعوب الإسلامية لم يكن هناك أي مجال لأن يزرع حوالى مليار مسلم تحت نير القوى العظمى. ولو كانت هذه القدرة الإلهية ملتزمة بقدرة الإيمان ومشى جميع الأخوة على طريق الإسلام فلن تستطيع أي قدرة أن تغلب عليهم. إننا لنشهد - مع الأسف - إن الخلافات في المناطق خصوصاً في المناطق العربية مكنت إسرائيل بعددها الضئيل أن تقاوم العرب بعددهم الكثير وعددهم الضخمة. على المسلمين والحكومات الإسلامية أن يتحدوا. لقد صبيت جل اهتمامي على أن يكون المسلمون جميعاً يداً واحدة على الاعداء اتباعاً لما يأمر به الإسلام، وجماعة واحدة تحقق ما يرمي إليه الإسلام. (٤/٥٨ هـ. ش)

يجب على المسلمين لكي يحصلوا على استقلالهم وحریتهم أن يمسكوا بمفتاح السر هذا ويسعوا إلى وحدة الكلمة. (١٠/٥٨ هـ. ش)

إننا نمد يد الأخوة إلى جميع الشعوب الإسلامية ونطلب منها العون والتعاقد لتحقيق الأهداف الإسلامية. (١٠/٥٨ هـ. ش)

أمل أن تنهض الشعوب الإسلامية وتتحد بعد أن مزقتها دعايات الأجنب فإذا البعض منها يقف في قبال البعض الآخر. فإذا اتحدت عملت على تشكيل الدولة الإسلامية العظمى تحت لواء لا إله إلا الله وانتصرت هذه الدولة على جميع قوى الأرض. (٦/٥٨ هـ. ش)

إن جميع المؤمنين - طبق أمر الله - إخوة. (٢/٥٨ هـ. ش)

ليس هذا العصر، عصر قعود المسلمين وتقايسهم واكتفائهم بمجرد مراقبة العدو وهو ينهب خيراتهم. إنه عصر النهضة الكبرى يصنعها المسلمون فيطردون الأيدي الأجنبية من أراضيهم. إن عليهم أن يكونوا جميعاً صفاً واحداً، ويصارعوا الأجنب ويسترجعوا حقوقهم المهضومة. (١٤/٥٨ هـ. ش)

إننا لنرجو ويحدونا الأمل الكبير أن تلتقي كل أصناف الشعوب المستضعفة وتتلاحم. ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمن على المسلمين في كل أقطار الدنيا باليقظة والحذر من الفرقة والاختلاف. (٢٤/٥٨ هـ. ش)

إذا تلاحم المسلمون واتحدوا عادوا قدرة لا تقاومها أي قدرة. إن علينا - نحن المسلمين - إن نعرض الإسلام على واقعه للعالم ثم ننضم إلى حزب واحد هو «حزب الله». (٥/١٣٦٧ هـ. ش)

إن زرع الفرقة بين مذاهب المسلمين استهدف تمزيقهم لكيلا يستطيعوا أن يعملوا لصالح الإسلام والمسلمين. (١٦/١٢/٥٧ هـ . ش)

إذا كان المسلمون متحدين لم يبتلوا بمثل هذه الذلة تحت رحمة الأجانب وعملائهم. (١٦/١٢/٥٧ هـ . ش)

لا معنى لأن نشهد حوالي مليار مسلم وهم يرزحون تحت نير القوى المختلفة إذا كانت كلمة المسلمين متحدة وتلاحمت الحكومات والشعوب الإسلامية. لو كان المسلمون متحدين لم يجرؤ العدو على مهاجمتنا في أفغانستان أو فلسطين. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

لو احتفظ المسلمون والحكومات الإسلامية برابطة الأخوة التي أمر بها الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم، وحققوها لم تقع أفغانستان مورداً للهجوم ولا فلسطين ولا غيرها من الأماكن الإسلامية. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

ما الداعي - لو اتحدت كلمة الحكومات الإسلامية - لأن نمديد الضراعة لأميركا أو روسيا؟! (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

إنما تبدو حاجة المسلمين للقوى الكبرى عندما نكون متفرقين كما هو الحال عليه الآن. (٥/١٠/٦٠ هـ . ش)

إن قطرنا الإسلامي يبذل كل جهوده في سبيل الإسلام. من أجل الإسلام يقدم الشهداء، ومن أجل الإسلام يتشرد، ومع هذا فالغريب أن نشاهد الحكومات الإسلامية التي تدعي الإسلام وهي تقف جبهة واحدة في قبال دولتنا الإسلامية. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

إننا لنأسف حقاً لعدم اتخاذ إيران مثلاً من قبل الأقطار الأخرى فتتحد كلمتها وتتلاحم صفوفها. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

القرآن الكريم يدعو للوحدة وانتم تدعون للفرقة والنزاع. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)
إن العقل والإسلام يدعوانكم إلى الاتحاد وإذا اتحدتم لم يستطع أي قطر أن يعتدي عليكم. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

إذا تلاحمتم واتحدتم لم تجرؤ اسرائيل على البقاء في الأراضي المغتصبة. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)
اطمئنوا بالنصر أن اتحدتم ولن تستطيع أية قدرة شرقية أو غربية أن تحكمكم. (٧/١٠/٦٠ هـ . ش)

إن القطر الذي اقيمت فيه اسس الوحدة هو إيران: سواء بين الأخوة الشيعة والسنة أو بين الحكومة والشعب. (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

أولئك الذين يعملون على استثمار الأقطار الإسلامية لا يجدون سبيلاً لذلك أفضل من زرع الخلاف بينها. (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

إن أولئك العملاء للقوى الكبرى لا يدعون هذا الاتحاد، والاتحاد بين الشيعة والسنة يقوم على سوقه وإنما يعملون على تحطيمه. (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

هل كان من الممكن أن يرزح المسلمون تحت سلطة القوتين العظميين - كما هو الحال الآن - لو كانوا اتحدوا وهم يتوفرون على هذه المخازن العظيمة، والمساحة الواسعة؟! (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

إن القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة: حقيقة أن لا يتفرق المسلمون وأن يكونوا يداً واحدة ويعتصموا بحبل الله. (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

إن وحدة الكلمة هي التي انقذتنا من براثن النظام البهلوي المعادي للإنسانية، وجرت تلك الحكومة السفاكة إلى الفناء. (٨/١٠/٦٠ هـ . ش)

كل المسلمين أخوة متساوون لا ينفصل أي منهم عن الآخر ويجب أن ينضوا جميعاً تحت لواء الإسلام ولواء التوحيد. إن الشيعة والسنة يعيشون - في الجمهورية الإسلامية - إلى جنب بعضهم البعض ويتساوون في الحقوق... وكل من ادعى ودعى إلى غير ذلك هو عدو لإيران والإسلام وعلى اخوتنا من أهل السنة أن يقفوا ضد هذه الدعايات ويخفقوها في مهدها. لتعلم أميركا المعتدية على العالم؛ إن الشعب العزيز والخميني سوف لن يدعوها حتى يحطموا كل منافعها الحيوية وسوف يواصلون نظامهم الإلهي حتى يقطعوا أيديها الأثيمة. إن شعبنا تحمل كل المصاعب - كما أظهر ذلك - لكي يحتفظ بشرفه الرفيع وسمعته الإسلامية. إن شعبنا المقاوم الصامد كان يعمل منذ بدء دخوله حلبة الصراع إنه يصارع كل القوى والقوى العظمى. وينبغي أن يعلم شعبنا أن كل الأيدي الداخلية والخارجية للقوى والقوى العظمى - وخصوصاً أميركا المجرمة - سوف تلقي بكل ثقلها وإمكاناتها لتحطمتنا، ولكن لا سبيل لنا ولا خيار إلا الصراع وإن تحمل المصاعب ليس إلا قضية سهلة لتحقيق الشرف الإسلامي الإيراني. على شعبنا أن يستعد لهذا الصراع الحسيني حتى يحقق النصر الكامل فإن الموت الأحمر خير - كثيراً - من الحياة

السوداء. إننا - اليوم - بانتظار الشهادة لكي يقف أبناؤنا غداً مرفوعي الجبين في قبال الكفر العالمي. (١٦/٣/٦٠ هـ. ش.)

ليس أولئك العاملون على زرع الفرقة والخلاف من أهل السنة ولا من الشيعة، إنهم عملاء الدول الكبرى، والمنفذون لمخططاتها، والمسخرون لمصالحها.

الفصل الرابع: التقريب طريق الوحدة

التقريب والتفاهم منهجه وأخلاقياته

المقدمة

﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^٢.

وهكذا كانت نعمة البيان من اروع نعمه تعالى على الإنسان ليشكل الجسر الطبيعي الذي تعبر من خلاله الأفكار من إنسان لآخر ومن جيل لآخر ويتحقق بذلك هدف خلق الإنسان وهو تكامله من جهة واعمار الأرض من جهة أخرى.

فاللغة اذن تكميل لنعمة الخلق ووصل للحلقات الإنسانية المتتابعة وتنظيم لمسيرة الفكر الإنساني نفسه حتى أن البعض تصور أن اداة الفكر هي اللغة وبدونها ينعدم الفكر. ونحن وان أنكرنا ذلك لأنه منتج اللغة وصانعها ولكننا نؤمن أن وضوح الرموز اللغوية للجوانب الفكرية وغناها يوفر مساحات نمو الفكر ونضجه ومنطقيته بلا ريب. فاللغة وسلية اغناء للفكر، والفكر نفسه جسر يعبره الإنسان للخلاص من سجنه الذاتي عبر الاستعانة بمكوناته الفطرية التي اودعها الباري في طبيته يوم خلقه إنساناً سوياً يسعى لهدف سام.

إن هذه المكونات الفطرية تخرجه إلى عالم ارحب من ذاته وتربطه بواقع خارجها ليتنقل عبر إيمانه به إلى حقيقة كبرى هي التي أوجدت كل هذا العالم وبدونها يبقى العالم بلا تفسير. إن

١. القى في مؤتمر الجزائر المنعقد بتاريخ شهر رمضان ١٤٢٣هـ. ق.

٢. الرحمن: ١-٣.

الإنسان يجادل ويشكك وحق له أن يفعل ذلك ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^١، حتى يستقر على الحقيقة المطلقة ويتوصل إليها عن طريق قناعة عقلية ثم ليبر بها العقل إلى كل وجوده فيطمئن بها قلبه ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^٢.

إن النصوص الإسلامية التي علمتنا هذه الحقائق هي التي شجعت فينا منطلق الحوار للوقوع على صخرة الحقيقة وهي التي جعلت التفهيم والتفاهم والافتتاح الوسيلة الإنسانية الحضارية للتواصل والتأثير والتأثر والتفاعل الايجابي: لتبين الحقيقة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^٣.

﴿لِيَثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾^٤. و﴿لِيَثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^٥. إنها الدعوة الواضحة البيّنة والتعامل الإنساني بالفكرة والمنطق والحوار، أما الاكراه وخلق الاجواء الموهمة والاعلام المضلل وشراء الأفكار وغير ذلك فهو منطق الطاغوت ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾^٦.

إنه المنهج النير اللاحب الذي لو سلكته البشرية لو وصلت إلى الصواب. وإنه ليخطئ من يتصور أن الحوار منطق الضعفاء!! كلاب هو منطق الاقوياء حقاً فالمحاور الحق اما أنه يعلم أنه يعرض جوهره ثمينة لا يخشى عليها من الصقل والامتحان أو أنه يمتلك الشجاعة النفسية التي يتخطى بها قناعاته إذا تبينت له قوة الرأي الآخر.

الإسلام والاجتهاد

سمح الإسلام منذ انطلاقه لعملية الاجتهاد أن تؤتي ثمارها ولكن في إطارها الطبيعي وهو السعي

١. الكهف: ٥٤.

٢. البقرة: ٢٦٠.

٣. الانفال: ٤٢.

٤. البقرة: ١٥٠.

٥. النساء: ١٦٥.

٦. البقرة: ٢٥٧.

لفهم الحكم الشرعي للسلوك الفردي والاجتماعي من خلال سبر المصادر التي جعلها الإسلام مرجعاً لاحكامه وتعاليمه رافضاً كل ما ينطلق من الوهم والظن غير المعتمد لأنه لا يغني عن الحق شيئاً. وقد عبر بذلك عن واقعية فطرية من جهة وعن مرونة تستوعب التغيرات والتعقيدات على مر العصور باعتباره رسالة خالدة.

فالاجتهاد مما لا مناص منه ولا تستطيع اية شريعة حتى ولو كانت وضعية إذا اريد لها أن تنظم الحياة على المدى الطويل أن ترفضه. ولهذا تختلف الأفكار وتحصل المذاهب وكل ذلك يعتبر ثروة فكرية لتلك الشريعة وغنى حضارياً لها. وإذا رأينا القرآن الكريم ينهى عن الاختلاف فإنه يعني التمزق في المواقف العملية الرئيسية دون الاختلافات الاجتهادية بلا ريب. وعلى هذا الأساس نشأت المذاهب الإسلامية نشوءاً علمياً طبيعياً وان كنا لا نستطيع أن ننكر الدور السياسي المساعد لهذا النشوء.

ومادام هذا الاختلاف في أطره الفكرية الطبيعية فقد كان ثروة ونهضة إيجابية تعبر عن حرية وحرية ومرونة.

إلا أنه ومع الاسف الشديد تدخلت عوامل كثيرة فحرفت هذه المسيرة عن أهدافها وغيرت الاختلاف المذهبي الطبيعي إلى صراع طائفي مقيت كلف هذه الأمة على طول مسيرتها انهاراً من الدماء والدموع وانهاطاً من الضعف والوهن وحالات هائلة من الصراع والتمزق.

ويمكن أن نذكر لهذا التحول من (المذهبية) إلى (الطائفية) الكثير من العوامل^١ ومنها:

- ١- الجهل وهو آفة الآفات.
- ٢- التعصب الاعمى.
- ٣- الدوافع السياسية للحكام المنحرفين.
- ٤- المصالح الضيقة لبعض المتصيدين.
- ٥- تطفل البعض على مائدة الاجتهاد ممن لا يملكون الاهلية.
- ٦- العامل الخارجي المعادي.

١. يراجع كتاب (قصة الطوائف) للدكتور فاضل الانصاري.

وغير ذلك. ولسنا بصدد الاستقصاء بقدر ما نحن فيه من اشارة إلى الانحراف التاريخي الكبير الذي يتطلب من علماء الأمة والمخلصين فيها العمل الدؤوب لارجاع الحالة إلى وضعها الطبيعي، واخراج هذه الأمة من هذه الورطة التاريخية خصوصاً إذا لاحظنا ما آل إليه وضعنا الحالي من تمزق قاتل واتحاد للعدو المتكالب علينا يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^١.

وها نحن نشهد صرخات الحرب اما على الصعيد النظري كما في نظرية صراع الحضارات لهانتغتون أو نظرية (نهاية التاريخ) لفوكوياما، أو على الصعيد العملي حيث يصرح قادة الحضارة الغربية بأنه أما أن نكون معهم أو فنحن ارهابيون ولا خيار ثالث.

وقد رأينا أن التسامح الإسلامي طرح فكرة الحوار بين الحضارات وفكرة الحوار بين الأديان وتقبل العالم هذه الفكرة حتى جاءت حوادث سبتمبر - ايلول فنسفتها واحلت بدلا عنها منطق القوة والاستعلاء واستغلتها القوى العظمى لتبسط سيطرتها وتحقق حلمها لتمزيق هذه الأمة وتركيز اسرائيل راعية الارهاب وداعيته. وما زالت في بداية الحرب كما تصرح فماذا نحن فاعلون؟ وكما هو واضح فإن الحل هو الرجوع من جديد إلى قرآنا العظيم واستلهامه واستنطاقه، وتوحيد الموقف الإسلامي مع اتساع في الصدور وتحمل للآراء التي يتجهها اختلاف الاجتهاد ثم الانطلاق إلى العالم بمنطق الحوار ولا بد أن يتنصر هذا المنطق إن عاجلاً أو آجلاً.

القرآن وشروط الحوار وأخلاقياته

نستطيع بعد التأمل في القرآن المجيد أن نكتشف أهم مقومات الحوار وأخلاقياته بلا ريب وهانحن نذكر اهمها فيما يلي:

أ- مقدمات الحوار:

هناك أمور يجب أن تفرض مسبقاً حتى يتم الحوار ومنها ما سماه قدماءنا ب(تحرير محل النزاع)^٢

١. الانفال: ٧٣.

٢. راجع الكافية للجويني ص ٥٤٠، وقاموس الشريعة للسعدي ج ٣، ص ٦. وكتب أصول الفقه وغيرها.

فإن الحوار قد يكون مجرد مضيعة للوقت إذ قد يظهر للمتحاورين بعد فترة طويلة انهما كانا يركزان حوارهما على محورين مختلفين لا على محور واحد فيجب تشخيص المحور المدعو اليه. وهذا ما يمكن أن يستفاد من دعوة القرآن لأن يكون الداعي على بصيرة من أمره ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^١.

ومنها: مسألة الانفاق على مسلمة أولية. فإن الحوار لن ينتج مطلقاً إذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقاً وفرضيات مسلمة يرجع إليها المتحاوران مهما كانت أولية أو بديهية.. فمن المستحيل أن تصل إلى نتيجة مع من ينكر البديهيات كأن لا يؤمن باستحالة اجتماع النقيضين أو ارتفاعهما أو لا يؤمن بوجود قانون العلية أو بوجود العالم خارج الذهن الإنساني فإنك مهما استدلت بشيء فإنه مستعد لإنكاره ولا طريق إلا التنبيه على القضايا الوجدانية لأجل انتزاع اعتراف بها. ومن هنا نجد القرآن الكريم يرد على أولئك المنكرين للبديهيات بتنبههم لخطأ ما يعتقدون وياقافهم امام تساؤلات فطرية فعندما يؤمن المقلدون بمبدأ واحد وينكرون غيره وهو (التبعية العمياء للأباء) فإنه لا يمكن الحوار. لذلك يتم تنبيههم عبر سؤال وجداني (لو أنكم علمتم أن آباءكم كانوا مجانين فهل كنتم ستبعونهم؟) إن الجواب سوف يكون بالنفي طبعاً وحيثئذ تنطلق عملية الحوار من أحد المبادئ المسلمة وهي (معيارية العقل).

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^٢. ويقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾^٣ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^٣. إن الجواب الطبيعي هو أن الأهدى هو المتبع.

ب - المتحاوران:

وهناك شروط يجب أن يتصفا بها منها أن يكونا على مستوى موضوع الحوار، فلا معنى

١. يوسف: ١٠٨.

٢. البقرة: ١٧٠.

٣. الزخرف: ٢٣ - ٢٤.

للحوار حول موضوع لا تعلمه الاطراف، أولاً يعلمه أحدهم، أولاً يتخصص فيه أن كان مما يتطلب التخصص، يقول تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِبْتُمْ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^١. ويقول سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^٢. وهنا يقول أحد العلماء (أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق)^٣. ومن هنا فنحن نعتقد أن طرح الاستدلالات العلمية في المجامع العامة مع اختلاف المستويات أمر يجانب الصواب.

ومنها امتلاك الروح الموضوعية وصفة الانصاف فالقرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم مع قوة إيمانه طالباً منه أن يدخل الحوار بروح موضوعية فيقول: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٤.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٥. يقول صاحب المحجة عند التحدث عن شروط المناظرة:

الأول: (ان يقصد بها اصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق لظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره فإن ذلك مرء منه ي عنه بالنهي الأكيد) ويضيف (أن يكون في طلب الحق كمشد ضالة يكون شاكرراً متى وجدها ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره فيرى رفيقه معيناً لا خصماً ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق)^٦.

نعم أن القرآن يعلم المسلم أن يستمع وقيس الأمور وبالتالي يتبع الاحسن.
﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^٧.

١. آل عمران: ٦٦.

٢. غافر: ٥٦.

٣. المحجة البيضاء، ج ١، ص ١٠١.

٤. سبأ: ٢٤.

٥. القصص: ٤٩.

٦. المحجة البيضاء في احياء الأحياء للفيض الكاشاني، ج ١، ص ٩٩.

٧. الزمر: ١٨.

ومما يذكر بهذا الصدد أن البعض اعترضوا على الإمام علي بقوله للحكمين (انظرا فإن كان معاوية أحق بها فاثبتاه وان كنت أولى بها فاثبتاني) فاعتبروه شاكا في نفسه فقال لهم بأن ذلك لم يكن شكا منه ولكنه اراد النصف وذكر الآية الشريفة: (وانا أو إياكم...)^١.

ومنها مسألة احترام الرأي الآخر واحترام قناعاته. ويبدو هذا المعنى من خلال ملاحظة لحن بعض الآيات من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣.

وتبدو روعة التعبير عند ملاحظة عبارتي ﴿أجرمنا﴾ و﴿تعملون﴾.

ويهون القرآن من التأثير للأعمال التي يراها أحد الطرفين أمراً يبعث على الاستغراب فيقول ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٤.

ح - موضوع الحوار:

والموضوع الذي يقبل الحوار يجب أن يكون عملياً فإذا كان أمراً خيالياً أو أمراً يستحيل فهمه من قبل السامع فإن الحوار لن ينتج شيئاً ويجب اقفاله وعدم الاجابة على التساؤلات أو الاجابة بجواب مجمل وقطع الحوار ومن هنا تأتي الآيات التالية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّجِ﴾^٥.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾^٦.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^٧.

١. الاحتجاج للطبرسي، ص ٢٧٦.

٢. الانعام: ١٠٨.

٣. سبأ: ٢٥.

٤. الانعام: ١٠٨.

٥. البقرة: ١٨٩.

٦. الاعراف: ١٨٧.

٧. الاسراء: ٨٥.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾^١.
 ونفس الموقف يتخذه القرآن ممن يطرحون أموراً جدالية أو هزلية.
 وهكذا يجب الاهتمام بالقضايا العملية ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۗ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^٢.
 يقول الإمام الغزالي: (ان ينظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة الوقوع وان يهتم بمثل ذلك)^٣.

د- اجواء الحوار:

ولكي يترك الحوار أثره الجيد يجب أن تتوفر فيه أمور:
 منها: الأخلاقية وقد ذكرنا امثلتها عند الحديث عن شروط المتحاورين.
 ومنها: عدم التهويل ومعه لا معنى للحوار المنطقي الحكيم.
 ومن خير الامثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جو انفعالي صنعه المشركون امام
 الرسول العظيم ﷺ متهمين اياه بالجنون، في مثل هذا الجولا معنى للاستدلال على عدم الجنون
 ولذا يطلب القرآن منه أن يعمل على حذف هذه الاجواء والتفرق ثم التأمل. يقول تعالى: ﴿قُلْ
 إِنَّمَا أُعْطِكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْتَهَىٰ ۚ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ
 لَأُعَذِّبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ شَدِيدٍ﴾^٤.

هـ- منهج الحوار:

ويذكر القرآن الكريم معالم رائعة لهذا المنهج منها مسألة المرونة وعدم الجمود في الأسلوب
 واختيار احسن السبل.
 يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ
 رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٥.

١. طه: ١٠٥.

٢. الرعد: ١٧.

٣. المحجة البيضاء، ج ١، ص ١٠٠.

٤. سبأ: ٤٦.

٥. النحل: ١٢٥.

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^١.

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^٢.

ومنها المنطقية والاستدلال الصحيح بحيث يسير البحث من المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي دونما تحايل أو جدال عقيم. والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة: كقوله تعالى: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾^٣. في حين يدعو إلى البرهنة كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾؛ ويعلن النفور من حالات العناد ويضرب لها مثلاً في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾^٤. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾^٥.

ومنها حذف العناصر التي لا دخل لها في النتيجة وانما تثير التشنج فقط.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^٦.

و- هدف الحوار:

أما الهدف فهو الوصول إلى المساحات المشتركة ويبدو في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^٧.

وبالتالي التعاون في هذا الأطار تعاوناً إيجابياً على البر والتقوى بعيداً عن الاتم والعدوان.

١. اسراء: ٥٣.

٢. العنكبوت: ٤٦.

٣. الزخرف: ٥٨.

٤. النمل: ٦٤.

٥. الأنفال: ٣٢.

٦. آل عمران: ٧٨.

٧. سبأ: ٢٥.

٨. آل عمران: ٦٤.

ز- ويمكن أن نضيف إلى كل هذا وجود الحكم العادل

وربما اشارت إليه الآية الشريفة ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾^١.

حول التقريب والتفاهم

بعد هذه النظرة السريعة إلى كتاب الله العزيز يتبين لنا أن التفاهم أمر يدعو إليه القرآن وينظمه لابين المتدينين فحسب بل بين بني البشر عموماً إلا أولئك الذين انتهجوا منهج العناد والظلم. وهذا الأمر يتركز أكثر عندما ندخل إلى الساحة الإسلامية: ساحة الإخوة والوحدة والتسامح والقبول بأصول الإسلام واستيعاب اختلاف الاجتهادات، الساحة التي يتفق فيها المسلمون على الأصول كما يتفقون على نسبة مئوية كبيرة من الحياة التشريعية بل وربما يندر الاختلاف في بعض النظم الإسلامية أو يندم من قبيل النظام الأخلاقي والنظام التربوي ونظام المعاملات ونظام العقوبات وغيرها.

نعم ندخل الساحة الإسلامية التي يخاطبها القرآن الكريم بخطاب واحد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتي تستقى معالم دينها من منبع واحد رغم اختلاف الطرق أحياناً، هذه الساحة ذات الشعار الواحد والاتجاه الواحد، فإن التفاهم حيثئذ يعود من البديهيات الإسلامية التي لا تحتاج إلى استدلال وبرهان.

شبهات في البين

وقد اثيرت في البين شبهات تارة بحسن نية وأخرى بنية سيئة من قبيل:

- ١- إن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية إنما هو في الأصول.
- ٢- إن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية إنما هو في اختلاف المصادر.
- ٣- اتهام كل طرف الآخر بالابتداع.
- ٤- اتهام كل طرف الآخر بالشرك عبر تبين لوازم العقيدة.
- ٥- اتهام كل طرف الآخر بالنفاق والتأمر.
- ٦- تصور أن القبول بالحوار ينم عن شك في المذهب أو قبول ضمنى بأراء الآخرين.

٧- تصور أن التقريب يستهدف التدويب وحمل الناس على مذهب واحد وهو أمر باطل فالتقريب باطل.

٨- تصور أن التقريب يسهل الأمر للانتقال من مذهب لآخر وبالتالي تخريب المعادلة بين المذاهب.

٩- تصور أن التقريب غطاء للتسلل إلى المذهب الآخر وتبليغ التعاليم المنافية له والتشكيك فيه.

١٠- تصور أن التقريب حركة ذات مصلحة سياسية بعيدة عن جوهر الدين.

الى ما هنالك تصورات واجهت شخصياً بعضها وقرأت عن البعض الآخر الكثير.

ولكنني أشهد الله تعالى على ما في قلبي وفكري حين أقول اني لم أر لهذه الشبهات أي واقع ولا

أرى أنها تعدو مرحلة (الشبهة) وان كنت لا أمانع أن تقوم جماعة بدراستها وكشف زيفها.

ولكنني أشير هنا إلى الحقائق التالية:

أولاً: إننا لاحظنا مسألة اهتمام القرآن بالحوار حتى مع المشركين وأهل الكتاب فكيف نتصور

منعه للتفاهم بين المسلمين.

ثانياً: إن هناك بحثاً قرآنياً وحديثياً واسعاً حول (المداراة) كصفة رائعة للمسلم يتعامل بها مع

الآخرين ولا مجال للتفصيل هنا.

ثالثاً: إن الأئمة كانوا يعيشون معاً ويدرس بعضهم على بعض حتى ليتباهى بعضهم بفترة دراسته

هذه، كما لم يكونوا ليحتكروا العلم بالحقيقة في حين نجد بعض اتباعهم يتعدون حتى عن التفاهم.

رابعاً: ولقد شهدنا حركة تقريبية في الأزهر الشريف في الخمسينات شارك فيها الاعلام

والعلماء ومنهم:

١- الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي.

٢- الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

٣- الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم.

٤- الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

٥- العالم الكبير الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء.

٦- العالم الكبير السيد شرف الدين الموسوي.

٧- الإمام الكبير السيد البروجردي.

٨- الأستاذ الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني.

٩- والشيخ العالم الشيخ محمد تقي القمي.

وهم علماء كبار سنة وشيعة قاموا بحمل لواء التقريب فهل خفيت عليهم هذه الشبهات وبعضها يتصل بالأصول؟!!

وقد استبشر المرحوم الشيخ محمد محمد المدني بخطوة رائعة اتخذها الأزهر بتدريس المذهب الشيعي الإمامي والزيدي في أكبر كلية من كلياته وأخرى اتخذتها إيران (آنذاك) بادخال فقه السنة في كلية المعقول والمنقول^١.

خامساً: وقد شهدت حركة التقريب تقدماً واسعاً وقبولاً عاماً اليوم.

واروع مثال على ذلك قيام أكبر مجمع فقهي هو مجمع الفقه الإسلامي بجده بإيجاد شعبة متخصصة باسم (شعبة التقريب بين المذاهب الإسلامية) وحصول روح توافقية عامة حرة في اجتماعاته العامة مما يكشف عن وحدة المنابع والرؤى وانفتاح للعالم الإسلامي على بعضه البعض. وقد أسس في الجمهورية الإسلامية الإيرانية (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) وهو يضم في مجلسه الاعلى علماء من المذاهب الإسلامية المتنوعة وقد قام هذا المجمع بدوره بتأسيس (جامعة المذاهب الإسلامية).

هذا وقد اعتمدت (الاييسيسكو) المنظمة العالمية الإسلامية للتربية والعلوم التقريب هدفاً وعقدت له مؤتمرات في شتى انحاء العالم.

كما قامت المراكز العلمية الدينية في البلدان الإسلامية كالمغرب ومصر والجزائر والاردن وسورية ولبنان وإيران وباكستان والسودان وماليزيا واندونيسيا وغيرها بعقد الندوات والمؤتمرات العالمية لتركيز هذه الحقيقة.

سادساً: اننا يجب أن نحدد ماذا نعني بالأصول حتى يتضح لنا ماذا نقصد من قولنا عدم وجود الاختلاف فيها؟ واذا لخصنا البحوث المفصلة حول الحدود التي تفصل بين الإسلام واللاإسلام استناداً للآيات الكريمة والروايات الشريفة فإنها جميعاً تركز على الحدود التالية:

١- الإيمان بالتوحيد الالهي إجمالاً.

١. ملف التقريب، ص ٢١٢.

- ٢- الإيمان بنبوة الرسول الاكرم ﷺ ولزوم طاعته في كل ما يصدر عنه.
- ٣- الإيمان بالقرآن الكريم والعمل بكل أوامره ونواهيه وقبول كل تصوراته وتعاليمه.
- ٤- الإيمان بالمعاد إجمالاً.
- ٥- الإيمان بتشريع الإسلام لمجموعة من الأحكام التي تنظم السلوك الفردي والاجتماعي ولزوم تنفيذها.

ولا أجد أي خلاف على هذه الأصول مطلقاً نعم هناك خلافات حول التفاصيل مثلاً:

- ١- في الصفات الالهية وعلاقتها بالذات.
 - ٢- في المسائل العقائدية الفرعية كالجبر والاختيار والقضاء والقدر، والشفاعة وغير ذلك.
 - ٣- في اثبات بعض الروايات وردّها سنداً أو دلالة ويترتب عليه اختلافات أخرى.
 - ٤- في مسائل الخلافة والإمامة.
 - ٥- في بعض الأحكام التشريعية.
- وغير ذلك.

إلا أنهم متفقون جميعاً على أنه إذا ثبت شيء بالقرآن الكريم أو السنة الشريفة فإنه يجب الازدعان له دونما تردد.

وينبغي: التنبيه على أن البعض يحاول الجاء الطرف المخالف للخروج من الحدود الإسلامية من خلال ذكر لوازم قوله مثلاً بهذا الرأي. وهذا الأسلوب مرفوض في هذا المجال مادام الطرف الآخر لا يعتقد بهذا اللزوم إذ لو كان يعترف به كان عليه التراجع بعد أن نفترض إيمانه بالأصول المذكورة. فلا يمكن أن نخرج فرداً عن الإسلام لأن من لوازم قوله في نظرنا نفي الأصول الأولى وبهذا نحل مسألة الاتهام بالابتداع والشرك.

سابعاً: من الواضح أن مصادر التشريع لدى كل المسلمين هي الكتاب والسنة ولا يتنافى هذا مع الاختلاف مثلاً في علاقة الكتاب بالسنة وهل لها أن تخصص العام الكتابي مثلاً أم لا.

ولا مع الاختلاف أحياناً في الطرق الموصلة إلى السنة.

ولا مع الاختلاف مثلاً في دلالة التقرير النبوي.

ولا مع الاختلاف في وجه صدور الأمر النبوي وهل هو باعتباره حاكماً أو باعتباره رسولاً.

ثامناً: اما منطق الاتهام والتشكيك فنحن منهيون عنه.
تاسعاً: إن حركة التقريب كما هو واضح لا تستهدف التذويب مطلقاً وهي تؤمن بأن
المذاهب كلها ثروة لهذه الأمة والحضارة كما تؤمن بأن فكرة المذهب الواحد خيال محض.

التفاهم حول أصول الفقه سبيل للتقريب^١

المدخل

ربما كان من نافلة القول الحديث عن ضرورة الوحدة الإسلامية بعد أن كانت من الخصائص القرآنية للامة الإسلامية حتى لكأنها تفقد هويتها إذا فقدت وحدتها، وتغرق في الفتنة والفساد إذا تمزقت عرى الولاية بين افرادها. يقول تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^٢.

وللوحدة الإسلامية سبلها ومحققاتها وبرامجها التي رسمها الإسلام بكل إحكام وشمول تنتهي بالتالي إلى تحقيق هذا الأمر الكبير.

ولعل من سبلها عملية التقريب بين الأفكار والاتجاهات والمذاهب المختلفة، إذ بدون ذلك تزداد الهوة وتتسع الشقة حيث لتجد الأمة بعد ذلك نفسها ممزقة متهاوية متنازعة، فقدت تماسكها واستواءها، وراحت في مهب الريح العاتية.

وليس التقريب عملية قسرية ولا مصطنعة ولا حركة سياسية يراد بها ستر جانب من الضعف والنقص لكي تتم عملية تمويه على الطرف الاخر بل هي عملية اصيلة تقتضيها مجموعة أمور واقعية، من أهمها:

أولاً: إن الخلاف الفكري والاستنباطي أمر متوقع تماماً، وخصوصا عندما يراد استنباط

١ . ورقة مقدمة إلى الندوة التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع جامعة الزيتونة في تونس

بتاريخ ١٨ - ٢٠ شعبان ١٤١٩ هـ.

٢ . الانفال: ٧٣.

كامل للحياة من نصوص وتقريرات ونماذج عليا، الأمر الذي يقع فيه اختلاف في الاستنتاج بشكل طبيعي ويشد ذلك عندما تفصلنا عن عصر النص عصور وقرون ونبلي بمضافات كثيرة (كضياح جملة من الاحاديث ولزوم تمحيص الاسانيد، وتغير أساليب التعبير وقرائن التفهيم والملايسات التي تكتنف الكلام، ودخول شيء كثير من الدس والافتراء في مجاميع الروايات الأمر الذي يتطلب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق. هذا إضافة إلى أن تطور الحياة يفرض عدداً كثيراً من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نص خاص، فلا بد من استنباط حكمها على ضوء القواعد العامة)^١.

ثانياً: إن فتح باب الاجتهاد أمر طبيعي وضروري لتحقيق المرونة التشريعية والمسايرة الإسلامية لتطورات الحياة، الأمر الذي يؤدي إلى اختلافات كثيرة في الاجتهاد، وهي اختلافات قبلها الإسلام بمقتضى واقعيته. اما النصوص الناهية عن مثل ذلك فلا تنصب على الاختلاف الفكري، وانما على النزاع العملي: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^٢ واذا سرت إلى الجانب الفكري فانما تركز على الجانب المعصوم منه والذي لا يتطرق إليه الخطأ، الأمر الذي لا يقي مجالاً للاختلاف والاجتهاد الفقهي، وهو ما عبر عنه بحبل الله، فالقرآن المصون حبل الله، والسنة الشريفة، بنصوصها المقطوعة سنداً ودلالة حبل الله، ولا مجال للنزاع في ذلك.

ثالثاً: إن الاختلاف الاجتهادي إنما سمح له انطلاقاً من واقع الفكر الإنساني القاصر من جهة وتحقيقاً لعملية الاثراء العلمي من جهة أخرى وهذا يعني أنه يجب أن يسير باتجاه مصلحة الأمة وتراثها التشريعي والقانوني والتنظيمي، لا باتجاه تمزيقها واضاعة شخصيتها المتميزة ولا يتم ضمان السير الطبيعي إلا إذا نفيت كل العناصر التحريفية للمسيرة والتي تعمل على تحويل وجهتها الطبيعية إلى اتجاه تخريبي ممزق، يبدأ قليلاً وينتهي إلى تمزق فضيع. وهذه العناصر كثيرة: منها: الأهواء السياسية التي تسخر بعض الفقهاء، لصالح الحكام ليحققوا بعض الأهداف الضيقة. ومنها: جهل طرف من الاطراف بمباني الطرف الآخر وحدود فتاواهم.

١. الفتاوى الواضحة، السيد محمد باقر الصدر ص ٥.

٢. الانفال: ٤٦.

ومنها: عمليات الخروج عن مقتضيات الخلاف الفكري إلى مساحات عملية لا علاقة لها، نتيجة عملية تجريد للامر عن ظروفه وتحويله إلى عامل نزاع عقائدي، وغير ذلك. وعليه: فالتقريب عملية تفاهم وتقارب ونفي لكل العناصر التحريفية ووضع للمسيرة على الخط الطبيعي المثري لا غير.

أسباب الاختلاف

ومعرفة أسباب الاختلاف الفقهي أمر مفيد جدا لتحقيق التقريب وضروري لبحثنا هذا فما هي هذه الأسباب؟ ورقة العمل التي قدمتها اللجنة المنظمة لندوة التقريب التي انعقدت في المغرب. أرجعت هذه الأسباب إلى أسباب أربعة هي:

- أ- الاختلاف في دلالة النص الثابت.
 - ب- الاختلاف في صحة النص المتعلق بالحكم.
 - ج- تباين الاجتهاد في ترجيح الأدلة عند تعارضها.
 - د- اختلاف الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص صريح^١.
- وأجزها ابن رشد في مقدمة كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وحصرها في ستة أمور: احدها: تردد الألفاظ بين هذه الطرق الاربع، أعني بين أن يكون اللفظ عاماً يراد به الخاص، أو خاصاً يراد به العام، أو خاصاً يراد به الخاص، أو يكون له دليل الخطاب، أو لا يكون. والثاني: الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك إما في اللفظ المفرد كلفظ (القرء) الذي يطلق على الطهر وعلى الحيض، وكذلك لفظ (الأمر) هل يحمل على الوجوب أو على الندب، ولفظ (النهي) هل يحمل على التحريم أو الكراهة، وإما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾^٢ فإنه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة لشهادة القاذف.

١. ورقة عمل ندوة التقريب بين المذاهب الإسلامية والمقدمة إلى ندوة التقريب في المغرب - الرباط، ٩-٧ ربيع الاول ١٤١٢هـ، ص ١٥.

٢. النور: ٥.

والثالث: اختلاف الاعراب.

والرابع: تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة أو حمله على نوع من أنواع المجاز التي هي إما الحذف، وإما الزيادة، وإما التأخير، وأما تردد على الحقيقة أو الاستعارة.

والخامس: اطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة أخرى، مثل اطلاق الرقبة في العتق تارة، وتقييدها بالإيمان تارة.

والسادس: التعارض في الشئيين في جميع اصناف الالفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض، وكذلك التعارض الذي يأتي في الافعال أو في الاقرارات أو تعارض القياسات نفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الاصناف الثلاثة، أعني معارضة القول للفعل، أو للاقرار أو للقياس، ومعارضة الفعل للاقرار، أو للقياس، ومعارضة الاقرار للقياس^١.

إلا أن هذا التقسيم وقع موقع الاعتراض، إذ أنه ركز على الأسباب التي تتصل بالاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور أو حجية القياس في حين أن الاختلاف في الكبريات نفسها باعتبارها المنشأ الأساس لهذا الاختلاف، مما لا يمكن تجاهله. ولذا اتجهوا للتركيز على منبعين رئيسيين هما:

١ - الخلاف في الأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي، كالخلاف في حجية القياس أو العقل أو الاستصحاب.

٢ - الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد انطباقها.

(وفي هذا القسم تنتظم جميع تلکم المناشئ التي ذكرها ابن رشد ونظائرها مما لم يتعرض لها كمباحث المفاهيم، والمشتقات، ومعاني الحروف، وما يشخص صغريات حجية العقل، كباب الملازمات بما فيه من بحوث مقدمة الواجب، واجتماع الأمر والنهي والاجزاء، واقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضده، وغيرها من المباحث المهمة)^٢.

وهذا التقسيم الاخير، بلا ريب، أوفى واكثر انطباقاً على الواقع من التقسيمين السابقين وهذا يعني أن الاختلاف في أصول الفقه هو الأساس في جلّ الاختلافات في الفتاوى، الأمر

١. بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص ٥ - ٦: ج ١.

٢. اصول الفقه المقارن، ص ١٩.

الذي يتطلب جهداً واسعاً ولقاءات علمية مستمرة لتحقيق تفهم أكبر للآراء والأدلة، والوصول إلى مساحات مشتركة - وهي واسعة كما أتصور وذلك تقليلاً للخلاف من جهة وتفهماً أكثر لوجهة النظر الفقهية المخالفة من جهة أخرى الأمر الذي يمنع من انسحاب هذا الخلاف الطبيعي إلى المجالات التحريفية التي المحنا إليها.

ثلاثة مواضيع لها أهميتها في هذا المجال

الموضوع الأول: ضرورة التحديد في منهج الاستدلال وملاحظة الترتيب المنطقي بين الأدلة

وهو أمر ضروري جداً، والا لوقعنا في الخلط الكبير. ولا أعتقد اننا إذا ركزنا على نوع الدليل ولاحظنا ظروفه الخاصة، سوف نختلف في الترتيب المطلوب، وبدون ذلك نشهد اضطراباً واسعاً، فهذا يستدل بالاستصحاب أولاً ثم يلجأ إلى النص، وذلك يذكر مقتضى اصل الاباحة ثم يلجأ للإجماع، وهكذا تقع في دوامة فقهية فضيعة. وسرّ هذا الوقوع عدم التصفية المنهجية ابتداءً، وهي شرط كل استدلال فقهي متين.

وفي هذا الصدد نجد مثلاً الإمام الغزالي يطرح الترتيب على النحو التالي:

يجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النفي الأصلي قبل ورود الشرع، ثم يبحث عن الأدلة السمعية المغيرة، فينظر أول شيء، في الإجماع فإن وجد في المسألة إجماعاً ترك النظر في الكتاب والسنة، فإنهما يقبلان النسخ والإجماع لا يقبله، فالإجماع، على خلاف ما في الكتاب والسنة، دليل قاطع على النسخ، إذ لا تجتمع الأمة على الخطأ، ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة، وهما رتبة واحدة، لأن كل واحد يفيد العلم القاطع، ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بأن يكون احدهما ناسخاً، فما وجد فيه نص عن كتاب أو سنة متواترة أخذ به، وينظر بعد ذلك إلى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصصات العموم من اخبار الآحاد ومن القياسات، فإن عارض قياس عموماً أو خبر واحد عموماً فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها، فإن لم يجد لفظاً نصاً ولا ظاهراً نظر إلى قياس النصوص فإن تعارض قياسان أو خبران أو عمومان طلب

الترجيح، فإن تساوبا عنده توقف على رأي وتخير على رأي آخر.^١
 فالترتيب لديه هو مقتضى القاعدة التي تنفي التشريع قبل وروده، ثم الأدلة المخالفة لهذا
 المقتضى، وفيها أيضاً يرجع إلى الإجماع أولاً والافى النصوص المتواترة، وبعدها إلى العمومات
 الكتابية، ثم المخصصات والارجح إلى القياسات وعند التعارض يطلب الترجيح، ومع التساوي
 فاما التخيير واما التوقف، والذي يظهر أن هناك نقاطاً مبهمه في هذا الترتيب.
 منها: أن الإجماع - لو قلنا باستقلاله في الأدلة - يقف إلى صف واحد مع الكتاب والسنة
 وباقي الأدلة الاجتهادية فما معنى تخصيصه أو لا بالرجوع؟
 ومنها: أن العمومات الكتابية هي على مستوى واحد من عمومات السنة فما معنى تخصيص
 الأولى بالذكر؟

ومنها: أن القياس - لو قلنا به - فهو في رتبة واحدة مع النصوص، فلماذا التأخير؟
 ومنها: أنه ما الموقف عند فقدان الأدلة الاجتهادية؟ أي ما هو الموقف العملي؟ وليس لدينا
 أصلاً دليلاً متعارضاً حتى نتخير أو نتوقف. ثم اين مسألة الاستصحاب والبراءة؟ وعلى أي
 حال فهناك ابهام واضح في البين.
 إن هذا الأمر يتطلب دراسة موسعة حول ملاكات تقديم أي دليل على آخر. وهذه الملاكات
 تعرضت لها بالتفصيل المدرسة الأصولية الإمامية وان كان الاستيعاب قد تم في مرحلة متأخرة جداً.
 وقد ذكرت أن الملاكات هي:

التخصيص، والتخصص، والحكومة والورود. ونشير بالإجمال إلى معانيها:

التخصيص: والمراد به اخراج من الحكم مع دخول المخرج موضوعاً.

التخصص: والمراد به الخروج الموضوعي والوجداني.

١. المستصفي، ج ١ ص ٣٩٢.

٢. فقد قال صاحب (اصول فقه) العلامة المظفر (رحمه الله) ج ٣ ص ١٩٠: ان مصطلحي (الحكومة والورود) هما من
 مبتكرات الشيخ الانصاري الكبير (رحمه الله) المتوفى سنة ١٢٨١ في حين ارجعها المرحوم الحلي إلى طبقة أسبق
 منه، كما ذكر السيد الحكيم في (اصول الفقه المقارن) ص ٨٧.

وهذان معروفان.

الحكومة: والمراد بها أن يكون أحد الدليلين ناظراً إلى الدليل الآخر موسعاً أو مضيقاً له، فمن القسم الأول ما ورد من أن الفقاع خمر استصغره الناس، ومن الثاني قوله ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار) الذي يقوم بتضييق موضوع الأدلة الأولية التي ما لا يشمل الأحكام الضرورية.

الورود: والمراد به الدليل النافي للموضوع وجدانا، ولكن بواسطة تعبد شرعي، كتقديم دليل (حجية خبر الواحد) على دليل الأصل العملي الذي موضوعه الشك حيث يرتفع الشك وجداناً بمعونة التعبد. وعبر هذه الملاحظات لا اظن اننا سنختلف بعد ذلك كثيراً، ذلك أن المجتهد يبحث -أول ما يبحث- عن واقع الحكم الشرعي، فإذا لم يجد شيئاً راح يبحث عما نزل بمنزلة الواقع فإذا لم يعثر على شيء فعليه البحث عن موقفه العملي كما تحدده الوظيفة الشرعية، والأجراً للموقف العملي كما يحدده العقل، وعند تعقد الأمر يلجأ عادة للقرعة طبق لتحديداتها.

وهذا الترتيب قائم على قوانين الحكومة والورود.

فالأدلة التي تكشف بلسانها عن الواقع كالكتاب والسنة والإجماع وغيرها، مقدمة بلا ريب على الأدلة التي تكشف عن الواقع التنزيلي (أي ما هو بمنزلة الواقع) كالأستصحاب واصالة الصحة، وقاعدة التجاوز والفراغ في الصلاة وأمثالها. وذلك لأن الأولى حاكمة على الثانية ومزيلة لموضوعها تعبداً في حين نجد أن أدلة الواقع التنزيلي مقدمة بدورها على أدلة الوظيفة الشرعية العملية كأدلة البراءة، والتخيير، والاحتياط، لأن هذه الأدلة اخذ في موضوعها فقدان الواقع بجميع مراتبه، حتى التنزيلي.

وأدلة الوظيفة العملية الشرعية مقدمة على أدلة الوظيفة العملية العقلية، وهذه الأخيرة مقدمة على أدلة القرعة لما ذكرناه.^١

وما أظنه هو: أن الكثير من الاختلافات في مناهج الاستدلال راجع إلى عدم التركيز على ملاكات التقديم هذه، والافلا مجال للاختلاف الكثير.

١. راجع (اصول الفقه) للمظفر ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٥ و(اصول الفقه المقارن) ص ٨٥ - ٩٢. وباقي الكتب الاصولية من قبيل

(دروس في علم اصول الفقه) للمرحوم الصدر، وغيرها.

ومن الضروري أن ننبه هنا على أن هذه الملاكات بنفسها تلعب دورها في تقديم أدلة الأحكام الثانوية كالأحكام الضرورية والحرجية وأحكام (نفي السبيل على المؤمنين) وأمثالها على أدلة الأحكام الأولية كالوضوء والصوم والحج وغيرها. وكذلك في تقديم أدلة الأحكام الولائية التي يصدرها ولي الأمر في منطقة المباحات بعناوينها الأولية على أدلة الاباحة هنا، باعتبار أن أدلة الولاية ناظرة إلى الأدلة الأولية ومقدمة عليها. وهو باب واسع من الضروري أن تتم دراسته والتأمل العميق فيه.

الموضوع الثاني: ضرورة التركيز على محل الخلاف وتنقيحه

فإن عدم التركيز قد يجر إلى بحوث طويلة نحن في غنى عنها لو حررنا محل النزاع ونقحنا نقطة الخلاف بدقة. وإن المرء ليظفر بموارد كثيرة يتحول فيها النزاع - أحياناً - إلى خلاف لفظي لا أكثر وهذه أمثلة لذلك:

أ- الاجتهاد

يتحدث المرحوم الصدر في كتابه (دروس في علم الأصول) عن نزاع ممتد بين علماء الإمامية انفسهم حول جواز (الاجتهاد) وعدمه وكل طرف يستند إلى ادلته إلا أن الحقيقة هي أن ما يعارضه هذا الطرف كان يختلف عما يؤمن به الطرف الآخر. فالمعارضون له كانوا يتصورونه بمعنى أن الفقيه إذا اراد استنباط حكم شرعي ولم يجد فيه نصاً من الكتاب والسنة رجع إلى اجتهاده واستحسانه بدلاً عن النص وهذا الاتجاه لقي معارضة كبيرة من أئمة أهل البيت والعلماء التابعين لمدرستهم وبقي مرفوضاً على مدى عصور إلا أن هذا المصطلح تطور إلى معنى آخر هو المعروف اليوم، وهو (بذل الجهد في استخراج الأحكام الشرعية) وهكذا تحول من مصدر للحكم الشرعي إلى أسلوب لاستنباط الأحكام من مصادرها. ودخلت في هذه العملية كل طريقة يستخدمها الفقيه لتحديد الحكم الشرعي وحتى الموقف العملي تجاه الشريعة. وعاد الاجتهاد مرادفاً للاستنباط وهذا الاختلاف بين المعنيين عندما يتوضح لن يعود هناك مجال للنزاع^١.

١. دروس في علم الأصول، الحلقة الأولى ص ٥٣ - ٦٤.

ب - القياس:

وقد امتد النزاع حوله منذ ولادته كأصل في اذهان الفقهاء وحتى اليوم إلا أننا نعتقد أن هناك خلطاً بين تعريف القياس والعلة أدى إلى كثير من النزاع الذي لا مسوغ له أحياناً. فالتعريف الذي اختاره الأمدي هو: (الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل).^١

وتعريف ابن الهمام له هو: (مساواة محل لآخر في علة حكم شرعي له لا تدرك بمجرد فهم اللغة)^٢ وهما من اسلم التعاريف.

وهناك تعريف آخر شاع قديماً وانتفى تقريباً، وهو: (التماس العلل الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل) وعبر عنه صاحب (أصول الفقه المقارن) بأنه (كاد أن يهجر على المستهم).^٣ أما المعنى الأول فلا أتصور أن فقيها يرفضه فإذا فرضنا القطع بالاستواء، والقطع بالعلة المستنبطة، فأين الشك في النتيجة التي ننقل معها الحكم من الأصل إلى الفرع؟ ثم هذه العلة ذكروا لها أوصافاً هي: أن تكون (وصفاً ظاهراً منضبطاً) جعله الشارع علامة على الحكم مع مناسبته له)^٤ ثم اضافوا لها شرطاً آخر هو: (ان لا يكون الوصف قاصراً على الأصل) وقد رأى الأستاذ عبد الوهاب خلاف أنه لا ينبغي أن يكون موضعاً لخلاف^٥. ثم فرقوا بينها وبين السبب، والحكمة والشرط.

وإذا تمت كل هذه الأمور في العلة فهل يبقى شك في دوران الحكم معها وجوداً وعدمًا؟ نعم يقع الكلام في حصول القطع الوجداني، أي ثبوتها بدليل تعبدية، وهذا أمر يتبع الموارد المختلفة. وليس في النصوص الثابتة عند الإمامية ما يرفض مثل هذا القياس بل لا يمكن رفضه لحجية القطع الذاتية التي لا تقبل الاثبات أو النفي.

١. الاحكام، ج ٣: ص ٤.

٢. سلم الوصول ٢٧٤.

٣. المصدر نفسه ص ٣٠٧.

٤. أصول الفقه المقارن ص ٢٠٨ نقلاً عن (مباحث الحكم) ج ١ ص ١٣٦.

٥. علم أصول الفقه ص ٧٨.

ج- الاستحسان:

وهنا أيضاً نجد الاقوال المتضاربة والتعريفات المتكثرة بشكل غريب وقد نقل أن الإمام الشافعي قال: (من استحسّن فقد شرع).^١

كما ذكر أن الإمام مالك قال: (الاستحسان تسعة اعشار العلم).

وهذا أمر يدعو للتساؤل، فكيف يتم هذا البون الشاسع والثقافة الأصولية واحدة.

ولكننا عندما نعود إلى التعاريف المختارة نجد بعضها في الواقع تشريعاً محرماً فيصدق عليها قول الإمام الشافعي. وهو من قبيل أن يقال في الاستحسان أنه (دليل ينقذح في نفس المجتهد لا يقدر على التعبير عنه).^٢

أو أنه: (ذوق فقهّي لا تدرك أبعاده).

أو أنه: (ترك القياس والاخذ بما هو أوفق للناس) وما إلى ذلك فإنها تجعل الدين تابعا للاذواق والانقذاحات النفسية والظنون التي لا يعلم مصدرها، وهذا ما يجب أن يتنزه عنه الفقهاء، في حين أنه يعود عملية مهمة جدا عندما يعبر عنه بأنه (العمل باقوى الدليلين)^٣ - كما قال الشاطبي من المالكية أو (العدول بحكم المسألة عن نظائرها لدليل شرعي خاص)^٤ - كما ذكر الطوفي من الحنابلة - في (مختصره)^٥ أو العدول عن موجب قياس إلى قياس اقوى منه أو هو تخصيص قياس بدليل اقوى منه - كما ذكره البرودي من الحنفية^٦.

وهذا المعنى لا يمكن أن يعارضه فقيه فهو في الواقع يعني اتباع الدليل الاقوى عند التعارض والاهم عند التزاحم وهل في هذا اختلاف بل هل يمكن أن يستغني عنه فقيه؟ اليس هذا اذن تسعة أعشار العلم كما يقول الإمام مالك.

١. (فلسفة التشريع الإسلامي) ص ١٧٤ وانظر في (المستصفى) ج ١ ص ٢٧ طبعة المطبعة الاميرية.

٢. (المدخل إلى الفقه الإسلامي) ٢٥٧.

٣. مصادر التشريع: ص ٥٨.

٤. مصادر التشريع: ص ٥٨.

٥. مصادر التشريع: ص ٥٨.

٦. مصادر التشريع: ص ٥٨.

إن الاستحسان بهذا المعنى لا يختلف فيه الفقهاء اماميين كانوا أو غيرهم، يقول السيد الحكيم: (ان كان المراد بالاستحسان هو خصوص الاخذ بأقوى الدليلين فهو حسن ولا مانع من الاخذ به)^١.

والمصالح المرسله أيضاً لا خلاف فيها إن كانت كما يعرفها الأستاذ معروف الدواليبي قائلاً: (والاستطلاع في حقيقته هو نوع من الحكم بالرأي المبني على المصالح، وذلك في كل مسألة لم يرد في الشريعة نص عليها، ولم يكن لها في الشريعة أمثال تقاس بها، وانما بني الحكم فيها على ما في الشريعة من قواعد عامة برهنت على أن كل مسألة خرجت عن المصلحة ليست من الشريعة بشيء وتلك القواعد هي مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وقوله عليه الصلاة والسلام: (لا ضرر ولا ضرار)^٢.

فإذا قطعنا بأن المورد مورد ضرري طبقنا عليه القاعدة الكبرى (لا ضرر ولا ضرار) وكذلك الأمر في مورد العدل والاحسان وهل في هذا الموضوع شك من هذه الناحية؟

والغريب أن نشاهد الخلاف حول الاستصلاح واسعاً جداً. إلا اننا نعتقد أن الخلاف لا ينصب على مورد واحد ليكون خلافاً واقعياً والافلا يبقى مجال للشك في الحجية إذا أمناً كالغزالي بأنه إذا توافرت أمور ثلاثة كشفت عن وجود الحكم وهي: كون المصلحة ضرورية وكونها قطعية، وكونها كلية^٣.

إلا أن الكلام كله في كيفية تحصيل هذه الأمور.

وينبغي أن نشير هنا إلى أن هناك نوعاً من الأحكام هو الأحكام الحكومية الولائية انما تقوم على أساس إدراك الحاكم للمصالح ولا يشترك فيها الإدراك القطعي، ولكنها على أي حال تنحصر في دائرة صلاحيات الحاكم الشرعي وللحديث في هذا المجال تفصيل يذكر في محله. وسوف نعود - إن شاء الله - إلى هذا الموضوع عند التحدث عن الاتجاه التقريبي عند السيد الحكيم.

١. اصول الفقه المقارن: ص ٣٧٧.

٢. (المدخل إلى اصول الفقه) ص ٢٨٤.

٣. (المستصفي) ج: ١، ص ٢٩٦ المطبعة الأميرية.

الموضوع الثالث: ضرورة اخراج بعض ما ادعي كونه من الأصول من دائرتها

فهناك الكثير من الأصول التي ادعت لكنها اما لعدم توفرها على الحجية، أو لكونها تفقد مشخصات كونها أصولاً برأسها، وانما تشكل تعبيراً عن أصول أخرى يجب حذفها من قائمة الأصول، وامثلتها كثيرة، ومنها ما اشرنا إليه من قبل عند الحديث عن الاستحسان بتعريفه المرفوض بل وحتى بتعريفه المقبول وهو: (تقديم أقوى الدليلين) لأن ذلك يعني العمل بالدليل الاقوى كتاباً كان أو سنة أو إجماعاً أو قياساً وهذا يخرج الاستحسان عن كونه دليلاً واصلاً برأسه. وكذلك ما نشاهده في بحث المصلحة المرسله. فإن المصالح إذا استفيدت من النصوص كان العمل بالمصلحة عملاً بالنص فتلحق بالسنة.

وأما إذا لوحظت على أساس إدراك المصالح بالعقل القطعي فإنها أيضاً تدخل تحت اصل العقل ولا تشكل اصلاً برأسه وهذه النقطة نفسها نلمحها في موضوع العرف فإن مجالاته تنحصر في أمور أربعة هي:

- ١ - ما يكتشف منه حجية اصل من أصول الفقه كالاستصحاب.
 - ٢ - ما يكتشف منه حكم شرعي فيما لا نص فيه كعقد الاستصناع.
 - ٣ - ما يرجع فيه لتشخيص بعض المفاهيم كلفظ الاناء، والصعيد، والقرء.
 - ٤ - ما يرجع فيه لاستكشاف مرادات المتكلمين كالدلالات الالتزامية.
- ومن الواضح مع هذا أنه لا يشكل اصلاً برأسه بل يرجع إلى أحد الأصول الأخرى^١.

وبعد:

فهذه أمور ثلاثة وجدنا أن من الضروري أن تدرس حتى يتم من خلال ذلك تقارب حقيقي بين الآراء وتفاهم أكبر على موارد النزاع.

التقريب بين مراتب الأدلة في الاجتهاد

في البحث السابق (التفاهم حول أصول الفقه سبيل للتقريب) تحدثت فيه عن أسباب الاختلاف الفقهي، وانتهيت فيه إلى أن التقسيم المعتمد للاختلاف هو الذي يركز على المنبعين التاليين:

١. راجع (اصول الفقه المقارن) في الصفحات ٣٦٣، ٤٠٣، ٤٢٣.

الأول: الخلاف في الأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي كالخلاف في حجية القياس أو العقل أو الاستصحاب.

الثاني: الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد انطباقها.

كما اشرت فيه إلى ثلاثة مواضيع لها أهميتها في مجال تقليل الاختلاف هي:

أ- ضرورة التحديد في منهج الاستدلال وملاحظة الترتيب المنطقي بين الأدلة.

ب- ضرورة تحرير محل النزاع وتنقيح مركز الخلاف.

ج- ضرورة اخراج بعض ما ادّعي كونه من الأصول.

وهنا أود توضيح الموضوع الأول باعتبار أن تحقيقه وتوضيحه يترك أثره الكبير على تقريب

شقة الخلاف الفقهي وهو بدوره يؤثر في التقريب بين المذاهب الإسلامية.

والاختلاف في ترتيب الأدلة قد يترك أثره في النتائج إلى الحد الذي يمكن ضمّه كمنع ثالث إلى

المنبعين السابقين مما يتطلب تحرير البحث فيه على حدة، وبغض النظر عن الخلاف في الأصل نفسه.

فالاختلاف في ترتيب الأدلة قد يقع بين الذين يؤمنون بأصول مشتركة ويختلفون في ترتيبها.

وعلى هذا فمصعب بحثنا هنا هو (الترتيب المنطقي بين الأدلة) وضرورته لتأمين عملية

استدلال صحيحة مما لا يحتاج إلى بحث.

مبادئ لا بد من الاتفاق عليها أولاً

ولكي يتم الاتفاق على الترتيب المنطقي لا بد من الاتفاق على بعض المبادئ لما لذلك من أثر

في نوعية الترتيب المذكور، ومن أهمها ما يلي:

١- الأدلة ونظرها إلى الواقع.

٢- الأحكام الأولية والثانوية.

٣- العناصر الموجبة لتقديم بعض الأدلة على البعض الآخر.

ولسنا بصدد الدخول في البحث المفصل حول هذه الأمور بقدر ما نحن بصدد توضيحها

لنبنى عليها الترتيب الاستدلالي المنطقي المطلوب.

١- الأدلة ونظرها إلى الواقع

لا ريب في أن للشريعة واقعا قائما بذاته، وبغض النظر عن علمنا به وذلك واضح بملاحظة

أنها تعبر عن تخطيط الهي كامل لتربية الإنسانية وهدايتها لتحقيق هدف خلقتها. وعندما نحاول اكتشاف هذا الواقع فإننا نلجأ إلى (الأدلة الاجتهادية) التي تشير إلى الواقع. وهذه الأدلة منها ما يوجب القطع والعلم بالواقع. والقطع حججته ذاتية لا تكتسب ولا تسلب. ومنها ما يوجب الظن بالواقع ويسمى اصطلاحاً بـ(الامارة) إذا قام على اعتبارها دليل قطعي يؤكد على أن الظن الذي تنتجه هو ظن يعتبره الشارع ويعده كاشفاً عن الواقع، رغم كون هذا الكشف غير تام في نفسه إلا أنه يتم كشفه تعبدًا.

فالامارة اذن تعلن أنها تؤدي إلى الواقع الشرعي من قبيل النصوص التي يظهر منها حكم شرعي، وهناك أدلة لا تعلن أن مؤداهها هو الواقع، ولكن تؤكد على المكلف أن ينزل مؤداهها منزلة الواقع، كالاستصحاب الذي يقول ببقاء اليقين في حالة الشك وذلك من حيث الجري العملي^١. وهناك أدلة أخرى لا تنظر إلى الواقع بكل مراتبه وتسمى بـ(الأصول العملية) من قبيل أصل البراءة وأصل الاحتياط وأصل التخيير ولن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع وإنما نكتفي بهذه الإشارة.

٢- الأحكام الأولية والثانوية

وللأحكام تقسيمات متعددة، إلا أننا نشير هنا إلى تقسيم يرتبط بموضوعنا هذا، وهو تقسيمها إلى الأحكام الأولية والثانوية.

فالحكم الأولي هو الحكم المجعول للشيء أولاً وبالذات، بغض النظر عن العوارض التي تعرض عليه، وهي أكثر الأحكام الواقعية التكليفية كحرمة شرب الخمر، أو الوضعية كبطلان العقد الربوي. أما الحكم الثانوي، فهو ما يجعل للشيء من أحكام بعد طرو عنوان خاص يقتضي تغيير حكمه الأولي كطرو الضرر على الصوم، مما يجول حكمه من الوجوب إلى الحرمة مثلاً.

وهي حالة تعبر عن مرونة عامة في الشريعة الإسلامية. وهناك اصطلاح آخر للحكم هو الحكم الولائي، ويقصدون به الأحكام التي يصدرها وليّ الأمر في مجال ملء منطقة الفراغ أو المنطقة المباحة في التشريعات مما يغيرها إلى أحكام إلزامية، ولا ريب في أن وجوب إطاعة أحكام وليّ الأمر هو من الأحكام الأولية، ولكن متعلقات هذه الأوامر تكتسب أحكاماً ثانوية تقوم على

١. مصباح الاصول، ص ٦.

أساس المصالح التي يراها ولي الأمر في عملية ادارته للمجتمع. وهنا أيضاً لا نريد الدخول في مجالات نفوذ أوامر الولي، فلها مجالها الواسع من البحث.

٣- أهم عنصر في تقديم الأدلة على غيرها

ويمكن القول بأن أهم عنصر يوجب تقديم دليل على آخر هو عنصر (القرينية)، فإذا شكل دليل ما قرينة على المراد من دليل آخر فإنه يتقدم عليه باعتباره يكشف عن المراد الجدي من هذا الدليل الآخر.

وهذه القرينة كما يمكنها أن تغير المراد من لفظ واحد إذا اقترن بقرينة صارفة، - كما في (الاسد الضاحك) - يمكنها أن تصرف المراد في أحد الدليلين إلى ما يؤدي إليه الدليل الآخر لو شكّل هذا قرينة له.

وقد نتصور للقرينة موارد منها:

- أ- حالة التخصيص، حيث يتم الاخراج من الحكم مع بقاء المورد موضوعاً.
- ب- حالة التخصيص، حيث يتم الخروج الموضوعي الوجداني.
- ج- الحكومة، حيث ينظر أحد الدليلين إلى الآخر موسعا تعبداً. كما في (ان الفقاع خمر) أو مضيقاً كما في (لا ربا بين الولد ووالده).
- د- الورد، حيث يأتي دليل شرعي ينفي الموضوع وجدانا، ولكن بواسطة تعبد شرعي، كما في نسبة دليل حجية خبر الواحد إلى دليل الأصل العملي الذي موضوعه هو الشك، فإن الشك يرتفع بمعونة التعبد الوارد من دليل حجية الخبر.

الترتيب المنطقي

إذا عرفنا الأمور السابقة أمكننا أن نوضح الترتيب المنطقي على النحو التالي:

أولاً: مرحلة البحث عن الحكم الشرعي الواقعي عبر الأدلة الاجتهادية كالكتاب والسنة والإجماع.

ثانياً: مرحلة البحث عن الحكم الشرعي المنزل منزلة الواقع، في مثل دليل الاستصحاب واصالة الصحة وقاعدة التجاوز.

ثالثاً: مرحلة البحث عن الموقف العملي والوظيفة الشرعية عند غياب الواقع بكل مراتبه، كأدلة البراءة الشرعية، والاحتياط الشرعي.

رابعاً: مرحلة البحث عن الموقف العملي كما يحدده العقل، كأدلة البراءة العقلية - لو قلنا بها - أو التخيير أو الاحتياط. وهذا الترتيب انما يقوم على قوانين الحكومة والورود. فعندما يوجد دليل يكشف عن الواقع بنفسه فليس هناك مجال للرجوع إلى دليل الاستصحاب مثلاً، وهو إنما ينزل مؤداه بمنزلة الواقع الذي يفترض أنه غائب وليس بغائب هنا. ومن الملاحظ أيضاً أن هذه المناطات في التقديم هي التي تقدم أدلة الأحكام الثانوية من قبيل (لا ضرر) و(لا حرج) على أدلة الأحكام الأولية، كالوضوء والصلاة والحج، كما تقدم أدلة الأحكام الولائية على أدلة الاباحة باعتبارها ناظرة إليها وقرينة عليها. وعلى هذا نستطيع أن نكتشف عدم الدقة في كثير من المناهج التي طرحت لعملية الاستدلال والتي بدأت مباشرة ببعض الأصول العملية الشرعية، بل وربما بدأت مطلقاً بالأصول العقلية من قبيل بعض من استدلوها لاعتبار شرط العلمانية في من يجوز تقليده بقاعدة (انه متى ما دار الأمر بين التعيين والتخيير فالمدار على التعيين)، ولما كان الأمر هنا يدور بين تعيين العلم والتخيير بينه وبين العالم فالمتعين هو لزوم تقليد الأعلم لحصول اليقين فيه بالخروج عن عهدة التكليف. ولسنا هنا بصدد شرح هذه القاعدة أو نقدها بقدر ما نريد الإشارة إلى أن المسلك الطبيعي في مثل هذا المورد هو مناقشة الأدلة الاجتهادية التي تطرح، من قبيل ادعاء جريان السيرة القطعية لدى المسلمين جميعاً على عدم التقييد بالرجوع إلى الأعلم عند الاستفتاء، رغم وجود علم إجمالي بالتخالف بين الصحابة والعلماء في نوعية الاستنباط. وقد لاحظت أثناء مناقشات مجمع الفقه الإسلامي الدولي أن سير الاستدلال هناك في كثير من موارد يعتمد إما على الاستناد إلى أقوال الأئمة أو حتى إلى المجتهدين في إطار المذاهب، أو الاستناد إلى أدلة مختلفة المراتب في الاستدلال، كالاستناد إلى بعض الأصول المحرزة للواقع قبل تحقيق الأمر في الأدلة الاجتهادية. وهذا الأمر طالما اعترضت عليه في جلسات المجمع المتابعة. حيث أكدت على أن العملية الاجتهادية الحرة، يجب أن تسلك السير الطبيعي. على أن أقوال الأئمة والعلماء إنما يستأنس بها للاطمئنان إلى النتائج المستنبطة لا أكثر، اللهم إلا إذا شكلت إجماعاً فإن المجال سيختلف.

ثم أن هناك بعض النصوص التي جاءت في كتب العلماء متحدثين عن سبل الاستدلال ربما أمكن مناقشتها في ضوء البحث السابق، ومنها النص الوارد عن حجة الإسلام الغزالي في كتابه

(المستصفي من علم الأصول) حيث يقول في الفن الثالث من القطب الرابع وهو يتحدث عن بيان ترتيب الأدلة ويجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النص الأصلي قبل ورود الشرع، ثم يبحث عن الأدلة السمعية المغيرة، فينظر أول شيء في الإجماع فإن وجد في المسألة إجماعاً ترك النظر في الكتاب والسنة فإنها يقبلان النسخ والإجماع لا يقبله، فالإجماع على خلاف ما في الكتاب والسنة دليل قاطع على النسخ إذ لا تجتمع الأمة على الخطأ، ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة وهما على رتبة واحدة لأن كل واحد يفيد العلم القاطع. ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بأن يكون أحدهما ناسخاً، فما وجد فيه نصاً من كتاب أو سنة متواترة أخذ به. وينظر بعد ذلك إلى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصصات العموم من أخبار الآحاد ومن القياسات فإن عارض قياس عموماً، أو خبر واحد عموماً فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها، فإن لم يجد لفظاً نصاً ولا ظاهراً نظر إلى قياس النصوص، فإن تعارض قياسان أو خبران أو عمومان طلب الترجيح، فإن تساويا عنده توقف على رأي وتخير على رأي آخر^١.

فالترتيب لديه يتم على النحو التالي:

١ - مقتضى قاعدة نفي التشريع قبل ورود الشرع.

٢ - الأدلة المخالفة لهذا الأصل في هذا المورد بخصوصه.

وهنا يرجع أولاً إلى الإجماع، فإن وجد كفى الأمر، والآتم الرجوع ثانياً إلى النصوص المتواترة لفظاً وسنداً كالكتاب في نصوصه، والسنة المتواترة في نصوصها التي لا تقبل الخلاف. ثم يرجع ثالثاً إلى الظواهر والعمومات، وما يطراً عليها من مخصصات خبرية أو قياسية، وبعد ذلك يرجع للأقيسة فإن تعارضت رجح الأقوى وإلا فالتوقف أو التخيير.

ولسنا بصدد المناقشة المستفيضة لهذا النص وهذا المنهج، ولكننا نشير إلى النقاط التالية:

١ - الظاهر أنه يقصد من النفي الأصلي استصحاب عدم الجعل قبل مجيء الإسلام، أو استصحاب عدم الحكم المجعول في حق المكلف حال الصغر، وهذا المعنى نوقش أصولياً، باعتبار أن المراد هل هو استصحاب عدم ثبوت التشريع بحق هذا الفرد أو ذلك، فهذا لا يتحقق لعدم

١. المستصفي من علم الأصول، ج ٢، ص ٣٩٧ - ٣٩٣.

وجود حالة سابقة أو حالة لاحقة بالنسبة لهما، أم هو استصحاب عدم الجعل الكلي، والذي يلازمه عقلا عدم وجود حكم لنا في هذا العصر، فهو استصحاب مثبت لا قيمة له ولا يثبت لوازمه، كما أنه قد يشكل على مسألة استصحاب عدم الحكم المجعول حال الصغر إلى ما بعد البلوغ، بأن المورد من موارد تبدل الموضوع. ثم أن استصحاب عدم الجعل هذا لا يجري لوجود علم إجمالي بالجعل في كثير من الموارد المشكوكة، ولا يجري الاستصحاب مع وجود علم إجمالي في اطرافه.

٢- إن اللجوء أولاً إلى البراءة يعني اللجوء إلى الرتبة المتأخرة، ولا يجأ إليه إلا عند فقدان الدليل الاجتهادي الناظر إلى الواقع أو الدليل المنزل المؤداه منزلة الواقع.

٣- لا ندري كيف يمكن تصور إجماع على خلاف الكتاب والسنة؟ ومدى حصوله وكيفيته، فإذا لم يمكن تصور حصوله، لم يكن هناك مجال لتصور النسخ من خلاله للكتاب والسنة، على أننا لا نتصور للإجماع حجية في ذاته، ولكن بمقدار ما يكشف عنه من حكم شرعي.

ولا ندري كيف يمكن أن يعتمد الفقيه على ما بدله من إجماع دون الرجوع إلى الكتاب والسنة؟ ثم إن الإجماع نفسه - لو اعتبرناه دليلاً قائماً بذاته - يقف إلى صف الكتاب والسنة في الكشف عن الواقع، فكيف يمكن أن نعده مقدماً عليهما بحجة أنه لا يقبل النسخ وهما يقبلانه؟

٤- ولم يشر عند ذكر عمومات الكتاب وظواهره إلى عمومات السنة وظواهرها، فإن حالها في التخصص والتقييد كحالتها في الكتاب.

٥- وعندما يتساوى الدليلان لديه فيستحكم التعارض، فإن مقتضى القاعدة هو التساقط، ولا مجال للتوقف أو التخيير.

٦- ولم يتضح لدينا معنى التوقف إلا أن يريد به الاحتياط، وهو خلاف المصطلح.

٧- ثم أنه بعد فقدان الدليل الاجتهادي، يجب التوجه إلى الأصول الاحرازية للواقع - كالاستصحاب - لا العبور مباشرة إلى الأصول العملية الأخرى.

٨- على أن هذه الأصول الأخرى، منها ما هو شرعي فيتقدم وما هو عقلي فيتأخر رتبة. وهكذا نجد أن هناك الكثير من التساؤلات التي قد تبقى بلا جواب في هذا المنهج.

رأي الإمام الجويني في ترتيب أصول الفقه

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن علم أصول الفقه يقوم على أسس منطقية متينة، تنطلق أساساً من التصور الدقيق عن واقع الشريعة، وعن السبل الكاشفة عنه وليس علماً سمعياً مأخوذاً من سيرة الصحابة أو الأئمة رغم عظمة مكاتبتهم، وهو الرأي الذي ذكره امام الحرمين الجويني، إذ يقول عن أصول الفقه إنه نظم ما جاء من سير الصحابة الأكرمين، وضمّ ما بلغنا من عبرهم، ولو كانوا عكسوا الترتيب لأتبعناهم، ويضيف: (نعم، ما كان يعتني الكثير منهم بجمع ما بلغ الكافة من أخبار رسول الله ﷺ . بل كانت الواقعة تقع فيبحث عن كتاب الله، وكان معظم الصحابة لا يستقل بحفظ القرآن ثم كانوا يبحثون عن الأخبار فإن لم يجدوها اعتبروا ونظروا وقاسوا)^١.

وهناك مواقع للنظر في هذا النص منها:

أولاً - ما قلناه قبل قليل، من أن علم أصول الفقه قائم على أسس موضوعية، وليس تدوينا لأسلوب معين من الاستنباط قام به المجتهدون الاوائل، ومن الغريب أنه نفسه كان يرجح مذهب الإمام الشافعي على رأي بعض الصحابة باعتبار دقة المنهج فيه.

ثانياً - لم يثبت أن الصحابة ما كانوا يتحرون الآيات كلها والأخبار كلها قدر الإمكان.

ثالثاً - نستطيع أن نقرر أن الاجتهاد آنذاك لم يكن بالمستوى من التعقيد كما نراه اليوم، نتيجة لقرب العهد، ووضوح القرآن، وكثرة الشهود، ووضوح المقصود، وحضور القرائن، ونقاء النصوص النبوية، وسلامتها من التحريف أو الوضع. الأمر الذي كان يسهل الاستنباط. وهذا

١. غياث الأمم في التياث الظلم، الإمام الجويني، البند ٥٧٨، ص ٤٠٦.

لا يعني أن نعتد نحن نفس الأسلوب على ما فيه من سهولة بعد تعيّر الأحوال، وهذا ما لا يحتاج إلى استدلال.

رابعاً - الاعتبار والنظر والتأمل والدقة في الاستنباط من القرآن والسنة شيء والقياس المشار إليه في آخر العبارة شيء آخر، إذا لاحظنا أنه مصطلح متأخر له شروطه وقوانينه، ولذا لا يمكننا أن نسند لهم بكل وضوح قيامهم بالعملية القياسية، وغالبا ما نسب اليهم بل وأحيانا إلى الرسول الكريم ﷺ وهو (ما ينطق عن الهوى) إنما هو في الواقع، تنقيح لصغريات وتطبيق لكبريات وعمومات على مواردها، وهذه أمور ينبغي توضيحها في محلها.

خامساً - لا ريب في أنهم (رض)، كانوا يعملون بالاستصحاب والبراءة والاحتياط، كل في موارد بعد ورود النصوص الشريفة في ذلك، إلا أن النص قد تجاوز كل ذلك. وفي ختام هذا البحث، لا بد لي من التنبيه على أمور لها دخلها في عملية الاستنباط الصحيح وفق المنهج القويم، وربما كانت الإشارة من باب الاستطراد.

الأمر الأول:

إن من المسلم به أن هذا البون التاريخي الشاسع بيننا وبين عصر النص الشريف حمل معه مضاعفات عديدة - كما يقول المرحوم الشهيد الصدر - (كضياح جملة من الاحاديث ولزوم تمحيص الأسانيد، وتغيير كثير من أساليب التعبير وقرائن التفهيم والملابسات التي تكتنف الكلام، ودخول شيء من الدس والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق، هذا إضافة إلى أن تطور الحياة يفرض عدداً كثيراً من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نص خاص فلا بد من استنباط حكمها في ضوء القواعد العامة ومجموعة ما أعطي من أصول وتشريعات) ^١. ثم (ان الحقيقة الإسلامية أعطيت منشورة في المجموع الكلي للكتاب والسنة، وبصورة تفرض الحاجة إلى جهد علمي في دراستها) ^٢.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن لا يترك هذا الأمر لكل وارد، وإنما يجب أن يقوم به

١. الفتاوى الواضحة، الإمام الشهيد الصدر، ص ٤ - ٥.

٢. المصدر السابق.

المتخصصون، المحققون الذين يملكون ملكة الاجتهاد ويقدرّون على استنباط الحكم وتنقيح المواضيع بدقة.

فإذا اضفنا إلى الحقائق السابقة، حقيقة أخرى يتطلبها توحيد الموقف وتحديد المسار العام، خصوصا إذا تعلق الأمر بالقضايا الحساسة والمصيرية والمشاكل الاجتماعية المستعصية، والمسائل المستحدثة التي لها مساقط واسعة، وجدنا أن من الضروري أن تشكل المجامع العلمية المشهود لها بالقدرة والنزاهة والموضوعية، ليتم فيها تبادل الرأي في الحكم الشرعي، وفق المنهج السليم المحدد والضوابط الاجتماعية الدقيقة، كما يتم فيها تحديد الموضوعات وملاحظة ملاسباتها. وتحديد الموضوع له الدور الكبير في معرفة نوع الحكم بلا ريب، ولا يتم ذلك في كثير من الموارد إلا بحضور الاختصاصيين في الطب والفلك والبيئة وأمثال ذلك وتبعاً لنوع الموضوع المبحوث عنه.

والحقيقة هي أن الأدلة التي قررت مشروعية الاجتهاد والتقليد، لا تقر هذه المشروعية للآراء الجمعية فحسب، بل تكاد تفرض ضرورتها أحيانا. هذا وقد تمت بعض الخطوات على هذا السبيل من قبيل تشكيل مجمع الفقه الإسلامي بجدة ومجمع فقه أهل البيت عليهم السلام في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، من قبل قائد الثورة الإسلامية آية الله الخامني (دام ظله) وكذلك مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، وهي خطوات قيّمة ولكنها تحتاج إلى تطوير مستمر.

الأمر الثاني:

قلنا إنه لا ريب في توقف عملية الاستنباط وإصدار الحكم على تنقيح الموضوعات وتحديدتها فالحكم يتغير بتغير الموضوع وربما ينقلب إلى نقيضه في الحلية أو الحرمة. ولا يمس هذا مسألة اثبات الأحكام فحلال محمد صلى الله عليه وآله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة.

والتغير تارة يكون في الموضوعات من داخلها كتغير اللحم النجس إلى تراب ورماد مما يغير حكمه إلى الطهارة، وأخرى يكون التغير من الخارج أي بتغير عنصري الزمان والمكان، فهل يمكن تصور هذا التغيير بحيث يترك أثره على تغير الحكم؟

الملاحظ أن هناك اتجاهين خطيرين متطرفين ازاء هذا الموضوع، فالأول يرفض أي دخل لهذا العنصر في الموضوعات ويجمد عليها، بل وينكر التغيير في الزمان نفسه فيفترض بقاء

الظروف الزمانية على ما هي عليه، والشروط الاجتماعية على ما هي عليه من بساطة رغم كل هذا التعقيد الاجتماعي الملحوظ.

وهناك اتجاه آخر يفتح إلى حد الميوعة يفترض لهذا العامل دخلاً دائماً مما يؤدي في نهاية الأمر إلى فناء الشريعة وتبدل الأحكام وفق الأهواء، وهو اتجاه خطير بدوره. وما نراه من موقف صحيح، هو الرجوع إلى دليل الحكم ولسانه لمعرفة التحديد الذي يقرره للموضوع، فإن كان يطلق الأمر دونها تحديد فليس لنا الخروج عن الدائرة التي يرسمها، وإن كان يسمح حسب الفهم العرفي بمستوى معين من التدخل للزمان، سرنا معه ولا حظنا هذه المرونة فلا نحمل النص ما لا يتحمل من امتداد ولا نقعد عن ارتياد الآفاق التي يفتحها بحجة الاحتياط.

هذا هو المنهج الذي نراه منسجماً مع الحقيقة الشرعية المقررة ونرى العدول عنه خطيراً جداً. إن موضوع تحريم الربا وتحريم الخمر، والسماح بالزواج وإقامة المجتمع على أساس عائلي، من المواضيع التي لا تتدخل فيها التغيرات الزمنية كما يبدو ذلك من أدلتها. في حين لا نجد في مواضيع من قبيل الشورى وتنظيم النسل، والمباحات العامة ومناطق الفراغ المتروكة للحاكم الشرعي، لا نجد فيها تحديداً تمنع من تدخل عنصر الزمان والمكان في صياغة نوع الحكم فيها. أقول هذا، وارفرض مطلقاً أن ننسى وظيفة المجتهد في الوصول إلى الحجّة الشرعية عن طريق القطع إما بالحكم أو بحجية الوسيلة الموصلة إليه.

الأمر الثالث:

قلنا إن هناك أحكاماً أولية ذكرتها الشريعة للأشياء في حدّ ذاتها وبغض النظر عن عوارضها. كما أن هناك أحكاماً ثانوية، تنتجها الظروف القاهرة كالأضطرار والاكراه والضرر والخرج. فهي أمور تطرأ على الأشياء فتبدّل من أحكامها، ثم إن هناك أحكاماً ولائية يصدرها وليّ الأمر وفق ما يراه من مصلحة لتسيير دفة الحكم ويغير بها أحكام الكثير من المباحات الأولية، فهي بالتالي أحكام طارئة، وإن كانت إطاعة وليّ الأمر الشرعي نفسها من الأحكام الأولية.

ولسنا هنا بصدد بيان المساحات التي تنفذ فيها أوامر وليّ الأمر، بقدر ما نحن بصدد بيان هذه الحقيقة، وهي أن الأصل في الحياة الطبيعية إنما هو الأحكام الأولية، وكلما قربت الحياة إليها قربت إلى الصورة الإسلامية طبعاً، مع ملاحظة أن الشريعة نفسها فسحت المجال لوليّ الأمر بالتدخل

وأعطته الضوابط العامة والأضواء الكاشفة التي تساعده على ممارسة هذه العملية. ولكن يبقى الحكم الأولي هو الأصل، تعود إليه الحياة متى سمحت الظروف وارتفعت الطوارئ. ولا ننسى أن نشير إلى أن هناك مباحات أكد الشارع الكريم إباحتها - ولو بالمعنى العام الشامل للمكروه والمستحب - وحيثند فمن الصعب جداً حتى لولي الأمر أن يجد منها، اللهم إلا في الظروف القاهرة جداً فإباحة الزواج تختلف في لسان الشارع عن إباحة المشي وأمثاله، وهذه أمور ينبغي التركيز عليها والتدقيق فيها والاحتياط في مجالها للدين.

السيد محسن الأمين علم التقريب^١

يتصور البعض إن هناك عقبات كثيرة عقائدية وتاريخية ومذهبية وحتى من خلال السنن الشعبية أمام وحدة الأمة وتقارب المسلمين بالشكل الذي يدخل القضية في متاهات الاستحالة واليأس ولكننا نعتقد كما أكد العلامة الكبير الأمين أنهم واهمون كل الوهم: سواء على الصعيد النظري أو على المستوى العملي.

وها هي بشائر التقريب تحل محل التفريق وها هو الأمل يتحقق شيئاً فشيئاً. وها هي جهود القادة من أمثال المرحوم العلامة الأمين تنتج افواجاً من الدعاة لا إلى التقارب بين المذاهب الإسلامية فحسب، بل وحتى الحوار البناء بين المسلمين وأبناء الأديان الأخرى للوصول إلى المساحات المشتركة ولقد كان ; يتعاطف معهم وربما بكى لحلمهم^٢.

ولن ننسى بهذه المناسبة موقفه حينما عارض قانون الطوائف الفرنسي وقال مخاطباً المفوضية الفرنسية: (فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار الشيعيين عامة لهذا القرار وهذه التفرقة بين المسلمين)^٣.

إننا نشهد اليوم تراجعاً كبيراً لهؤلاء اليائسين وانفتاحاً كبيراً من قبل علماء الأمة ومفكريها بل وجماهيرها على التقريب وربما كان لدعوات الحوار العالمي بين الحضارات - وبالأولى بين

١ . ورقة قدمت إلى الندوة التي عقدت بمناسبة مرور نصف قرن على وفاته في دمشق بتاريخ: ٢٣- ٢٥ شوال ١٤٢٣ هـ .

٢ . من حديث العلامة السيد محمد علي الأمين بمناسبة رثاء المرحوم السيد حسن الأمين .

٣ . أعيان الشيعة، م ١٠ ص ٣٧٠ .

المسلمين - وللهجمة الشرسة لأعداء الأمة تحت عناوين الارهاب والعولمة وحقوق الإنسان وغيرها الأثر المهم في هذا المجال.

وقبل كل شيء يجب أن نوضح إن الدعوة للتقريب والوحدة لا تعني مطلقاً العمل على تذويب المذاهب كيف وكلها تراث اجتهادي رائع يمثل ثراء للفكر الإسلامي، وأعمالاً للعقل المسلم عبر القرون لعنصر الاجتهاد في نصوص الشريعة الغراء، وبالتالي يشكل مساحة واسعة تستفيد منها الأمة لحل مشاكلها الحضارية باستمرار.

إن التقريب في رأينا يعني:

١- التمسك بالمبادئ والأصول الإسلامية المسلم بها، والتعاون في المساحات المشتركة بين المذاهب.

٢- السعي الحثيث لكشف هذه الميادين المتفق عليها، وتوسيعها.

٣- رجوع كل فرد إلى مذهبه الخاص في الأمور التي تختلف فيها المذاهب - وما أقلها - ويعذر الواحد من الآخر فيما نختلف فيه من اجتهادات.

٤- تنمية الآداب والأخلاق التقريبية من قبيل: التآلف وحسن الظن والرفق بمستوى التفاهم والاحساس بالأخوة والتكافل.

وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين وهو يشرح هدفه من دعوته التقريبية (ليس مقصودنا من هذه المقالة أن نجعل أهل السنة شيعة أو العكس، أو أن يتبرأ كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته). ويضيف (قد يساء فهم المقصود من فكرة التقارب، فيقال: إنها تدعو إلى ترك البحث حول احقية هذا المذهب أو ذاك، وذلك لأننا لا نستطيع أن نحافظ على الأخوة إلا بترك هذا النمط من البحوث، إلا أن هذا غفلة عن أن هذه الدعوة لا تقبل مادام كل طرف ملتزماً بمذهبه، ويراها هو الحق ولا يمكن أن يتخلى عن اعتقاده من دون دليل أو برهان. إن الذي يجب أن يدعى إليه الطرفان: التعاون، وتحري الأدلة العلمية، والتمسك بالآداب الإسلامية، وتجنب التصرفات غير اللائقة الباعثة على التنفر).^١

١. من مقالة له نشرت بشكل مستقل تحت عنوان (حق اليقين).

هكذا إذن لا يعني التقريب اغلاق باب البحث (الكلامي) ولا باب البحث (التاريخي) بل ولا يطلب من أحد أن يتنازل عن إيمانه بأن مذهبه هو الحق أو الأحق بالاتباع وإنما المطلوب التركيز على عملية التعاون في المساحات المشتركة وتوسيعها وأن يعذر البعض الآخر في موارد الاختلاف في الرأي.

أما تلك العقبات التي تصورها الياثسون فهي أمور يمكن تجاوزها بسهولة إذا تصورناها على واقعها، وإذا تعاملنا معها بروح الحوار القرآني، وإذا أدركنا ما يترتب على هذا التعامل من آثار إيجابية كبرى.

فعلى الصعيد العقائدي لا نجد اختلافاً على الأصول مطلقاً فالتوحيد والنبوة والمعاد والقرآن والسنة النبوية الشريفة وعظمة الصحابة رضي الله عنهم وحب أهل البيت عليهم السلام والكعبة والإيمان بأصول الشريعة وأركانها شيء لا يختلف عليه اثنان، وإن كانوا قد يختلفون في التفاصيل بما لا يחדش مطلقاً أي جانب من الأصول المذكورة.

ولا يعني الاختلاف أحياناً في التفاصيل اختلافاً في التعامل مطلقاً، وما أكثر اختلاف الصحابة في الآراء، وكذلك اختلاف الأئمة في استنباط الحقيقة من نصوص الشريعة، دون أن يؤدي ذلك إلى تنافر في السلوك.

وهنا أتذكر أن بعض الاتباع تصوروا خطأً إن عملية التبري تشمل اتباع الاتجاهات الأخرى ومن لا يقولون بقولهم، وليسوا بمستوى علمهم فواجههم أئمة أهل البيت عليهم السلام برفض هذا المنحى وتصحيح هذا التصور المنحرف.

ففي الرواية (أنه جرى ذكر قوم (فقال الراوي): فقلت له (يعني الإمام الصادق عليه السلام): أنا لنبرأ منهم، أنهم لا يقولون ما نقول: قال: فقال يتولونا ولا يقولون ما تقولون تبرأون منهم؟ - إلى أن قال: فهو ذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم! - إلى أن قال: فتولوهم ولا تبرأوا منهم...)^١.
إن التبري إنما يكون من أعداء الله والإسلام والأمة ولا مجال له بين ابنائها وهو ما يصححه المرحوم الأمين في بعض كلماته.^٢

١. وسائل الشيعة، باب ١٤ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ١٦ ص ١٦٠، من طبعة دار آل البيت عليهم السلام.

٢. راجع مقال (حق اليقين) للعلامة الامين.

والحالة التي ننبه على لزوم اجتنابها هنا هي مسألة المؤاخزة باللوازم. فقد يتصور هذا الطرف مثلاً أن القول بنوع من التجسيم يستلزم الشرك، أو أن القول بالتحسين والتقييح الشرعيين لا العقليين يستلزم اغلاق باب النبوة، أو التصديق بها، وقد يتصور الطرف الآخر أن القول بالشفاعة، والتوسل، وزيارة القبور يستلزم الشرك، وهكذا دواليك. ويبدأ مسلسل نسبة الكفر والفسق والبدعة إلى هذا الطرف أو ذاك. والحقيقة هي إن أي طرف لا يقبل هذه اللوازم المطروحة في ذهن الطرف الآخر بل له توجيهاته ومخارجه التي يستند فيها إلى أدلة شرعية وعقلية معتبرة عنده. وحينها لا معنى لأحكام التكفير والتفسيق مطلقاً.

إنها إذن حالة يجب اجتنابها شرعاً وعقلاً وإلا بقينا ندور في حلقة مفرغة. وفي المجال التاريخي لا نجد هناك أية عقبة كؤود أمام التأخي والتألف. ولنأخذ أشد المواضيع حساسية وهي مسألة الخلافة بعد الرسول ﷺ. فهناك نظريتان تركز احدهما على أنه ﷺ أوصى وعين الخليفة بعده وترفض الثانية ذلك. وهذه قضية تاريخية لها مجالها البحثي، ولا مانع من ذلك في جو اخوي صميم. فإن تم الاتفاق وإلا عذر كل منهما الآخر. وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين: (لم نزل نتنازع على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي هو خليفتنا).

وقد أكد الإمام البروجدي سابقاً على عدم نقل الخلاف إلى الصعيد غير العلمي، وتجاوز هذه المسألة إلى مسألة أخرى هي أكبر أهمية منها وهي مسألة (المرجعية العلمية لأهل البيت ﷺ) حيث تؤكد النصوص وقد لا يختلف فيها المسلمون ولذا اختص علي ﷺ بلقب الإمام في ذهننا التاريخي جميعاً^١.

وهنا نذكر بأن الإمام علياً وخلافاً لما يتصوره البعض لم يتزو عن الحياة ربع قرن من عهد الخلافة الراشدة - كما يقال - بل عاش في قلبها وخاض خضمها وحل الكثير من مشاكلها حتى نقل المؤرخون إن الخليفة الثاني كرر عشرات المرات عبارة: (ما كنت لمعظلة ليس لها أبو الحسن). وإذا انتقلنا إلى تاريخ أئمة المذاهب وتعاملهم رأينا العجب العجاب من التسامح والمداراة والتعاون والاحترام الكبير.

١. راجع بحث (المرجعية العلمية لأهل البيت ﷺ).

فمن المعروف إن كتب أهل السنة حافلة بروايات أهل البيت عليهم السلام حتى إن بعض العلماء^١ ذكر أنه جمع أكثر من عشرة آلاف حديث بهذه الصفة. وهو يؤكد أن الكثير من تلامذة الإمام الصادق كانوا من علماء السنّة وبينهم الكثير من أسر الصحابة والخلفاء وعدد من المتكلمين المشهورين والمؤرخين من أصحاب السيرة.

والعلاقات بين الإمام الصادق والإمام أبي حنيفة معروفة وكذلك مع الإمام مالك الذي نقل كيفية حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، وشعر الإمام الشافعي في أهل البيت مشهور وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل الحديث المعروف بسلسلة الذهب المروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه بأسمائهم وذلك حين مرّ بنيسابور وهو: (كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي) وأردف قائلاً (بشر وطها)، نقل الحديث الإمام أحمد ثم علّق عليه بقوله: (لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته)^٢.

إننا اليوم نرجو - بكل حسرة - أن يعود حالنا في التعاون كحال أئمتنا.

ولا ننسى هنا أن نذكر بأن المذهبية - كما أكدنا - كانت خيراً كبيراً ما دامت تعبر عن غنى علمي، ولكن العوامل الكثيرة كالجهل، والتعصب المقيت وعدم التأدب باداب الإسلام في الحوار، وأهواء الحكام الطغاة، وغير ذلك حولت المذهبية إلى طائفية متعنتة، وتصادمية عمياء، سالت على أثرها الدماء والدموع.

يقول أحد الكتاب المعاصرين: (ولم تكن السلطات الحاكمة بعيدة عن إثارة الصراع وتأجيجه ممّا يتوافق وسعيها للتحصين بالاصطفاف وتمتين اواصرها بين السكان المحليين.. ولم تقتصر على السنّة والشيعية فحسب. إذ تكررت الحوادث بين الحنابلة وكل من الأشاعرة والحنفية والشافعية والمالكية). ويضيف: (وفي تراحم تلك الصراعات سلطت حرب الارهاب الفكري على المبدعين ومن نهاذجها ما حدث عندما توفي محمد بن جرير الطبري عام ٣١٠ هـ فقد دفن بداره ليلاً لأن العامة منعت من دفنه نهاراً)^٣.

١. وهو آية الله محمد واعظ زاده الأمين العام السابق للمجمع العالمي للتقريب في كتابه (دراسات وبحوث ج١ ص ٤١٥ - ٤٢٣).

٢. الصواعق المحرقة لابن حجر ص ٢٠٣.

٣. قصة الطوائف للدكتور فاضل الأنصاري، ص ٢٣٥.

أما مسألة العادات والسنن الشعبية التي يقوم بها هؤلاء وهؤلاء فهي مسألة فيها نظر لأنه ليس من السهل تغيير هذه العادات ولا يقف في قبالها إلا الأبطال، ومنهم شخصيتنا التي نحتفل بذكراها، إذ حارب الخرافات والمبتدعات وطهر المراسم الحسينية من الأعمال السخيفة ولاقي نتيجة ذلك الأمرين حتى من بعض العلماء.

وعندما نتجاوز البحوث العقائدية والتاريخية إلى الميدان التشريعي فإن التلاقي سوف يبدو كأروع ما يكون، فلا يوجد خلاف في الرأي بين المسلمين في المساحة الأخلاقية مطلقاً، كما لا يوجد خلاف في مجالات المعاملات إلا نادراً، وهكذا الأمر في المجالات العبادية إذا تجاوزنا بعض الجزئيات.

وأما العلاقات المدنية فهي متطابقة إلا في بعض القواعد الفقهية وبالتالي يمكننا أن نصدق بقوة ما قاله علماء محققون من إن الشيعة والسنة متفقان في أكثر من ٩٠٪ من المساحة التشريعية.^١

اتجاهان تقريبيان

والحقيقة أن طرح فكرة الوحدة غالباً ما يتم ضمن سياق التوصيات الاجتماعية بها، وفي قالب الدعوة إلى التوعية وتجنب مخاطر التفرقة. لكنّه يلاحظ أن هذا الاتجاه التقريبي وإن تمكّن بسبب امتلاكه المفردات الحيّة الغنيّة من إعطاء صورة توضيحية تعرّف مقولة التقريب، وثبت ضرورته في المجتمع، وحاجة الناس إليه، غير أنه يفتقد - في واقعنا المعاش - الضمانات التي تتكفل بحضوره ودوامه الفاعل في اوساط المجتمع، سيما بين الصفوة من أبناء المذاهب المختلفة. ولحل هذه الاشكالية ينبغي أن نطرح فكرة الوحدة في ميدان الفقه.

فعندما ننظر إلى فكرة التقريب لدى الفقهاء نجد أنها تحركت في اتجاهين مهمين وهما: اتجاه الفقه التقريبي واتجاه التقريب الفقهي. وهذان المشروعان يشتركان في النظر إلى الصلة القائمة بين الفقه والتقريب؛ غير أن التقريب الفقهي يعالج قضية التقريب من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة الفقه أو فلنعبّر رأي الفقه في التقريب، بينما الفقه التقريبي يعالجها من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة التقريب أو فلنعبّر بالفقه المقارن بهدف التقريب.

١. ومن هؤلاء الأستاذ المفكر الراحل محمد المبارك والأستاذ الدكتور الزحيلي والأستاذ حسين محفوظ وغيرهم.

وبما أن العلامة آية الله السيد محسن الأمين من أبرز أصحاب الاتجاه الثاني، فلا بد من توضيح كل اتجاه، وما يختص به من سمات:

اتجاه الفقه التقريبي

زخر التاريخ المذهبي بجملة آراء متطرفة صدرت كنتيجة للتقليد والتعصب المذهبيين، فصارت سببا لصعود الكثير من البحوث الهامشية في الفقه إلى موقع الصدارة، وساهمت إلى حد كبير في تكوين الذهنية الطائفية الفقهية، ثم اتخذت مظهرا من مظاهر الهوية المذهبية. وفي ظل هذه الأخطاء المتكررة في الفقه تحولت الاختلافات الجزئية والهامشية الموجودة بين المذاهب المختلفة إلى خطوط حمراء ساخنة، لا يمكن تجاوزها وغض النظر عنها.

وطبيعي في مثل هذا الجو أن الذي يمكنه أن يقابل الفقه المذهبي، ويكون عوناً للمنظور الفقهي لشتى المذاهب هو الفقه التقريبي فهذا السنخ من الفقه لا ينحصر داخل الحدود المذهبية بل يسعى إلى إبراز المجالات المشتركة والحيوية بين المذاهب، وسيما إبراز تلك البحوث المهمة والمصيرية التي تحظى بموقع خاص في الفقه لا يملؤه بديل أو نظير.

فالمواقف التقريبية التي يتخذها أصحاب هذا الاتجاه قبل أن تكون ناشئة من إدراك ضرورة فقهية معينة لتحليل الموضوعي، تحصل على مسرح الواقع على أساس إدراك لضرورة التقريب لا غير.

وبعبارة أخرى: أن هذه الفئة ترى أن التقريب بين المذاهب عبارة عن محاولة أساسية واجتماعية لا بد منها ضمن مجالاتها المتاحة لها، ومن بين هذه المجالات يبرز المجال الفقهي بوضوح أكثر.

اتجاه التقريب الفقهي

وهذا الاتجاه يبحث من زاوية فقهية، تعنى بالمشاكل التي يواجهها المصلحون التقريبيون في سبيل تحقيق واقع تقريبي. ولو أمنا بأن قسما من المشاكل التي تواجهنا في طريق تحقيق الوحدة تعود أساساً إلى إبهامات لا يوجد لها حل إلا في المجال الفقهي لأمكننا أن نحصل على صورة أوضح لمقدار موقفية ونجاح هذا الاتجاه بالقياس إلى الاتجاه الأول.

وبذلك ندرك أن أصحاب هذا الاتجاه جعلوا نقطة ابتداء وانطلاق الحركة التقريبية وأساسها

هو النظر إلى الملابس الموضوعية والابهامات الفقهية التي قد تواجهها هذه الحركة. ثم درسوا سبل الوصول إلى رفع القناع عن تلك الملابس الفقهية.

فمن هذه النقطة والنظرة ينشأ الدافع لدى هذه الفئة من أصحاب فكرة التقريب نحو قبولها، وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيقها. وبعبارة أخرى فإن الدافع لهم نحو التقريب ينبعث من حاق الفقه ولّبه. ويشكل نتيجة للرؤية الفقهية المتولدة لديهم، مما يعزز دور أبحاث أصحاب هذه الفكرة، باعتبار أن الأبحاث الناشئة من مثل هذه الدافع تكون ذات نفع كبير في تحقيق فكرة التقريب التي راودت - وماتزال - أذهان أصحابها منذ زمن ليس بالتقريب.

وبما أنّ نتائج هذه الأبحاث والدراسات تأخذ كيانها من بوتقة التجارب الفقهية، وأنّ المادة الخام لهذه الفكرة هي فقهية بحثية في الواقع، فإن هذه الفكرة تستطيع بدورها النفوذ إلى أوساط مجتمع المتدينين بصورة ذاتية وطبيعية، دون الحاجة إلى محاورات جانبية معينة قد تشوبها بعض الملابس، وكذلك فإنها تصبح جزءاً لا يتجزأ من المعاشية الفقهية في ذهن المكلفين.

والذي يفرض علينا تبني هذا الاتجاه جملة نقاط:

أولاً: إذا لم يتم التعامل مع الوحدة ضمن إطار موضوعي فقهية، فعلى أن نتنظر جوا يعود فيه العمل الاجتماعي مفعماً بمظاهر الفقه الرسمي التقليدي المذهبي، ومعه لا يفسح المجال للالتزام العملي بالوحدة كما هو واضح.

ثانياً: إن التعصب المذهبية قد اشعلت في بعض الأحيان لهيب نيرانها إلى حد سبب ظهور العداة والعداة بين المذاهب. ولاشك أن خطورة النتائج السلبية لمثل هذا العداة والعداة تزداد فيما لو لبسا لباس الفقه، وأصبحا بسبب ذلك جزءاً من الهوية الفقهية، كأن ترى كل طائفة أن التبري من أصحاب المذهب الآخر وظيفة فقهية محتمة عليها.

ثالثاً: إذا نظرنا إلى الفقه كمجموعة منظمة وهادفة، فإنه يجب علينا ابتداءً أن نعين ماهو الدور الذي يمكن أن تلعبه الوحدة في هذه المجموعة المتشابكة، وأي نوع من الأحكام علينا أن نتركها جانباً بسبب التزامنا بمبدأ الوحدة المقدم عليها.

ولأبأس في الإشارة إلى بعض سمات هذا الاتجاه، وتطبيقها على الحركة التقريبية للسيد العلامة الأمين: الف. أنّ أصحاب هذه النظرة الفقهية إلى التقريب لا ينادون بتوحيد المذاهب بحيث يذوب بعضها في البعض الآخر، بل يسعون إلى تبين مكانة التقريب في منظومة الفقه الاجتماعي،

ويصوغونها بقالب فقهي واضح، ويرفعون تلك الملابس والابهامات الفقهية المتوجهة إلى فكرة التقريب بالأجوبة الشافية والكافية، والالتزام بلوازمه في المجتمع المسلم. يقول السيد الأمين: (ليس مقصودنا من هذه المقالة أن نجعل أهل السنة شيعة أو العكس، وأن يتبرأ كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته).

وبعبارة أخرى: يحاول هؤلاء استنباط حكم التقريب وتنقيح موضوعه، فهم بدل أن يتدخلوا في بعض المسائل الجزئية بين هذا المذهب وذاك، يسعون إلى تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلة الفقهية اللازمة لها.

ب. أن مجرد تبين الحكم الفقهي للوحدة، وطرحه في منظومة الأفكار الفقهية، لا يعني رفع الغموض الذي يكتنف الناحية الفقهية المتعلقة بهذا الموضوع الاجتماعي الحساس، وإنما ينبغي - علاوة على السعي في هذا الطريق - البحث في النسبة بين الأدلة الفقهية للوحدة وأدلة سائر الأحكام الفقهية، وتتبع حركة البحوث والتحقيقات التي يقوم بها العلماء والفقهاء، وفي ظل مطالعة من هذا القبيل يمكننا تشخيص الموارد والظروف التي نعتبر فيها أن الوحدة حاکمة على الأحكام الأخرى بشكل أساسي.

ولعل من أهم المسائل التي تواجه أصحاب هذا الاتجاه التقريبي هي كيفية وضع الحلول العلمية لبعض المشكلات التي تعترض الطريق الواصل بين أدلة الوحدة وأدلة سائر الأحكام الفردية أو الاجتماعية الأخرى.

ونجد مثل هذا الاهتمام في كلمات العلامة الأمين، حيث يتعرض إلى مسألة التولي والتبري من منظور فقهي، ويحاول معالجة صلة قضية التقريب بهذه المسألة، فيقول:

(يقول البعض: إن هذا الأمر يتنافى مع ما في الدين من أمر واجب وهو التولي والتبري وإنكار المنكر بالقلب واليد واللسان، لأن المقصود منها أن يصدر من العبد بنية خالصة لله تعالى. ولذا فإن من قام بعمل قبيح علينا أن نشعره بعدم الارتياح من ذلك، وأن نسعى لمنعه منه، ولا يجوز لنا إلحاق الأذى به خارج إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعامل معه بخشونة، وإنما علينا أن نتعامل معه برأفة، وننهاه عن المنكر ونأمره بالمعروف باللين والنصيحة)^١.

١. راجع مقال: حق اليقين.

ج - الاكثار من رفع شعار الوحدة: عندما يصل الفقيه من خلال استنباطه إلى وجوب الوحدة فسوف يكون له في شعار الوحدة طعم خاص ومتميز. فالوحدة من الشعارات المحببة والخطيرة. محببة لأنه يوجد شعوراً عاماً بأهمية قضية الوحدة، إذ أن المسلمين قاطبة يشعرون أن نقطة الضعف في مواقفهم إنما هو التشتت والفرقة المستشرية فيهم. وكونه خطيراً فلأن الفكر - أي فكر - لو كان تجريبياً محضاً، لا يعنى بواقع الناس ولا يعيش همومهم يتزوي لا محالة ولو بعد حين، بعكس ما لو كان يؤثر في حياة الناس ويتفاعل معهم فإنه سيشكل منعطفاً تاريخياً فيخلد. فقضية الوحدة الإسلامية قضية مهمة وخطيرة حيثما يوجد واقع يشغله مسلمون، ويكفي أن يلقي المرء نظرة على خارطة العالم، ومقدار ما يشغله المسلمون منها من مواقع إستراتيجية، ليدرك جيداً أهمية موقفهم الحضاري.

د - السعي لرفض الخرافات: إن أصحاب النظرة الفقهية إلى التقريب يدركون قبل الآخرين ما تتركه الخرافات من آثار سلبية في المجتمع ومن هذا المنطلق فقد تصدّى لها العلامة المرحوم السيد الأمين بشجاعة كبيرة رغم العقبات التي واجهها، وما خلّفته من متاعب جمّة، وليس هذا بجديد على الفقيه والباحث والمصلح والمحقق، حيث اكتسح الخرافات ورمى بها عرض الحائط. وأسّس مكانها مواقع عمل مشتركة جعلت تملأ الفراغات الحاصلة جرّاء قمع الخرافات والأساطير التي كانت قد عشعشت في اذهان الكثير من الناس. كتبت جريدة (العصر الجديد) ضمن مقال في مقام إطراء منزلته، والثناء على شخصيته:

(لقد حمل البسطاء من الجعفرين أن يتركوا الخرافات التي جاءت من الخارج وأدخلتها على مذاهب السنّة ومذاهب الشيعة مجتمعة) (أعيان الشيعة ١٠/٤٣٣).

ويمكن القول بأن الاتجاهين يتكاملان في خدمة قضية التقريب.

التقريب ومنهجه الاجتهادي

ليس كل منهج بسيط في الاجتهاد متمكناً من العمل في ميدان هذا الاتجاه العظيم الفقهي فالاجتهاد في هذا المجال إنما هو بالعمل على استيحاء روح الإسلام من خلال مفاهيمه العامة، ولا موجب للوقوف على دقائق نصوصه للبحث عن أدلة الوحدة ومثل هذا الاتجاه يرى في حركة الفقه المعاصر امتداداً لحركة الأنبياء والأئمة عليهم السلام الشاملة لكل شؤون الحياة الإنسانية، العامة والخاصة،

والتي تركّز على اهتمام الشارع بكلّ حوادث الحياة البشرية، والعمل عليّ تصحيح مسارها الخاطيء. فيرى هذا الاتجاه ضرورة تقنين الحركة التقريبية وفق الشريعة السمحاء، وإيجاد السبل الصالحة لتطوير وسائل انتشاره، وبيان وجهة نظر الشارع المقدّس في مقرراته وأهدافه وبرنامجه أعماله، ووضع الحلول والاجوبة لكافة المسائل والمشكلات التي تواجه الواقع الوجودي. إنّنا نعتقد بضرورة تحرك الاجتهاد في هذا الطريق، لمواجهة الحالات المستحدثة والوقائع الكثيرة التي يزر بها الواقع، على أساس شريعة الله تعالى النازلة على لسان نبيّنا محمد ﷺ وما تسالم عليه المسلمون من أدلّة وأحكام واستدلالات شرعية وعقلية بما يوافق الكتاب والسنة المطهرة الصحيحة. دون الخضوع للضغوط المختلفة، وتجاوز العراقيل النفسية والاجتماعية، والتي تعمل على تكريس الآراء السابقة، وعدم الاصغاء إلى البعض الذي ذهب بعيداً عن واقع التقريب. إنّ حركة الاجتهاد الفقهي المطلوب اتخاذها لمعالجة مشكلة (تقنين) التقريب على أساس الشريعة الغراء، يجب أن تنهض بالمستوى المطلوب، وذلك من خلال مواجهة الحاجات المطروحة في الساحة بحلول عميقة ومناسبة في هذا العصر، لكي يشعر الإنسان المسلم بوجود أجوبة لكل تساؤلاته العملية من هذه الناحية، قد هيأها فقهاء اعلام معروفون بالورع والنزاهة، فطمئن لها نفسه، وتبرأ ذمته من كل إيهام أو إشكال قد ينقدح بذهنه، فلا يحسّ بالخرج وهو يرافق أخاه المسلم - على غير مذهبه - في بعض الامتثالات، كأن يكون في الصلاة أو الصيام أو الجهاد أو الحج أو الزكاة ...

ويمكن مشاهدة هذا المنهج في حركة العلامة الأمين الفقهية، إذ يقول:

(... فإن شريعتنا سهلة سمحة تدعو إلى العدل والاحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى والتجاوز على حقوق الآخرين ولا يعتبر هذا الأمر خاصاً بمجموعة أو فرقة من الناس فقد أمرت الشريعة الجميع بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحتى بالنسبة إلى أهل الذمّة والمعاهدين مع المسلمين)^١.

ولا يخفى إن من أهم العناصر الفاعلة في هذا المنهج الاستفادة من المباني الكلامية فإن طرح

١. حق اليقين ص ٧.

المباني الكلامية شيء مهم في تتبع المسائل ودراستها وخصوصاً إذا كانت الدراسة مقارنة وكلمياً كانت مسائلنا الكلامية منقحة تحسنت استنباطاتنا وازدادت وارتقت أفكارنا الأصولية. وانطلاقاً من هذا الأمر يحاول الفقهاء التقريبيون تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلة الفقهية اللازمة لها في ضوء تلك المباني.

فهذا الاتجاه الفقهي في التقريب ينبغي أن ينطوي على كافة الأحكام التي تمس الإنسان المسلم في أي مكان من أطراف الأرض المعمورة، وتجيّب على المسائل التي هي محلّ ابتلائه، وترفع عنه حرجه، وتيسّر له الأمور.

لذا فإنه ينبغي أن يشتمل مشروع التقنين التقريبي على:

- ١- الأجوبة الشافية لجمع تساؤلات الإنسان المسلم.
 - ٢- النظرة الشاملة لجميع أطراف الواقع الوجودي، والتي تضع في حسابها عنصرين أساسيين: الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي.
 - ٣- مباحث فقهية تعنى بشؤون المسائل التقريبية والواقع الوجودي المنشود، وتقديم خلاصة الدراسات على هذا الصعيد، وصياغتها بصورة أحكام فقهية مستقلة.. على أن تشمل ما يلي:
 - أ- الأدب الفقهي الخاصّ بالتقريب، واللغة الفقهية - التقريبية الموجهة.
 - ب- الاستدلالات الفقهية المشتركة.
 - ج- بيان أدلة الوحدة فقهيّاً - من الكتاب والسنة الصحيحة - وبراهينها النقلية والعقلية.
 - د- الشواهد التاريخية من الأخبار والآثار.
 - هـ- آراء علماء السلف وأقوالهم في هذا الجانب.
 - و- بيان فلسفة الوحدة وأخلاقيات التقريب.
 - ز- تصوير تحديات الوحدة الإسلامية وسبل معالجتها على مستوى الأمة.
 - ح- تعزيز المباحث بالاقتراحات القيّمة على هذا الصعيد، وتوجيه سبل تطبيقها.
- ولا غرو في ذلك، فقد انجب الإسلام فحولاً كانوا بمثابة منارات تنير درب التقريب الوعر، وأعمدة تقام عليها خيمة الوحدة الإسلامية، انطلقوا ببعد نظرهم ورجحان عقولهم باتجاه التصديّ لتحقيق الواقع الوجودي الذي تنشده أجيال المسلمين.

لقد كان المرحوم الأمين فقيهاً واعياً لواقع المسلمين، مدركاً لاضرار التشتت الذي أصاب الأمة وما زالت اضراره وآثاره السيئة يعاني منها الملايين من مسلمي هذا الزمان، فلذلك دعا إلى التحصن بثقافة متينة مطبوعة بطابع وحدوي، لا تشوبها أية خرافات، ولا ما يثير حفيظة طوائف المسلمين، تستند على دعائم علمية قوية، تستشفّ شرعيتها من جملة قواسم مشتركة بين جميع المسلمين، كتب رحمه الله يقول:

(إن المسلمين - مع وجود قدر من الخطأ والاشتباه في اعتقادهم - لا يخطئون في الأصول).
وأخيراً فإننا نرفع يد الضراعة للباري جلّ وعلا كي يتغمّد الفقيد العلامة السيد محسن الأمين برحمته وينزل عليه شآبيب لطفه.. كما نسأله تعالى أن يمطر روح نجله الراحل قريباً السيد حسن الأمين بالرحمة والمغفرة؛ فقد سار على منهج أبيه وأحيا سيرته وقدم للمكتبة الإسلامية فكراً نيراً بكل مثابرة قد يقل نظيرها.

آية الله السيد محمد تقي الحكيم قدوة فكرية في مجال التقريب^١

المقدمة

لقد كانت لحظات تتلمذي على آية الله السيد محمد تقي الحكيم من امتع ايام حياتي العلمية حيث توسمت في سماحته الأستاذ الوقور، والعالم الكفاء، والقدوة المطمئنة في الرد والاقناع، والمثابرة الدؤوب في التحقيق، والوعي الاجتماعي الفريد.

واستطيع أن اؤكد أنه كان يشكل إلى جانب اخوته من العلماء كالمرحوم العالم المظفر والمرحوم الشهيد العظيم الصدر أحد اعمدة النهضة العلمية والاجتماعية للحوزة العلمية الرائدة في النجف الاشرف.

ولحسن الحظ فقد وفقت للاستماع والاستفادة منه من خلال بحوثه في كلية الفقه كما وفقني الله تعالى للحضور في بحثه الاكاديمي (الخارج) وكان من امتع البحوث واعمقها والذي اود التركيز عليه هنا هو جانب التعادل العلمي الذي امتاز به واعني به (تحقيق التوازن بين الأصالة الأصولية والفقهية والعقيدية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وبين الانفتاح العلمي على مختلف المدارس الإسلامية الأخرى وبمحاولة الاستفادة منها والتقريب بين وجهات النظر المطروحة لدى المدرستين الشيعية والسنية) الأمر الذي يستمد واقعه من واقع استفادة كلتا المدرستين من معين واحد هو (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة) بل واعتمادهما معاً على فكر أهل البيت عليهم السلام ورواياتهم في كثير من

١ . قدم إلى الندوة المنعقدة في لندن لتكريمه، قبل أن يتوفاه الله إلى جواره في شهر صفر من عام ١٤٢٣ هـ . وكان رحمه الله العميد الأسبق لكلية الفقه بالنجف الأشرف، وعضواً في المجمع العلمي العراقي.

المجالات. وحسبنا أن نعرف أن الفقه الإسلامي بمجموعه يعتمد على عمل الإمام علي عليه السلام مثلاً في مسألة البغي والبغاة، وكذلك فإن كل الفقه الإسلامي في كيفية الحج يقوم على روايات أهل البيت عليهم السلام، ويكفي أن نتذكر أن أئمة المذاهب الأربعة قد تتلمذوا إما مباشرة أو بشكل غير مباشر على يد الإمام الصادق عليه السلام.

وسيكون تركيزي على الجانب الفكري الأصولي ومن خلال كتاب السيد الأستاذ في أصول الفقه المقارن فقط، والاف هناك مجالات كثيرة للبحث لا أجد مجالاً للتعرض لها. والكتاب المذكور في مجمله محاولة تقريبية فكرية يقل نظيرها بل يكاد ينعدم وكم كنا نود لو اقتضى العلماء الآخرون أثرها وراحوا يتوسعون فيها، الأمر الذي لم يحدث بعد. لكننا سوف نقتبس نماذج من بحوثه لتبين ما ذكرناه من التوازن بين الاصاله والانفتاح ونعرف آثاره التقريبية من خلال هذه النماذج.

أولاً: في مطلع البحوث

يفصح عن هدفه من هذه البحوث حينها يذكر فوائد الفقه المقارن وتتلخص في الأمور التالية:

أ- محاولة البلوغ إلى واقع الفقه الإسلامي.

ب- العمل على تطوير الدراسات الفقهية والأصولية.

ج- إشاعة الروح الرياضية بين الباحثين ومحاولة القضاء على مختلف النزعات العاطفية.

د- تقريب شقة الخلاف بين المسلمين والحد من تأثير العوامل المفرقة التي كان من أهمها واقواها جهل علماء بعض المذاهب بأسس وركائز البعض الآخر مما ترك المجال مفتوحاً امام تسرب الدعوات المغرضة في تشويه مفاهيم بعضهم والتقول عليهم بما لا يؤمنون به.^١

وهكذا نلاحظ روحاً تقريبية عالية هدفها الانفتاح على مختلف الآراء، والمنطقية في العرض، والعلمية في البحث والاستدلال، والسعي لتضييق الخلاف بين المسلمين ويتجلى هذا المعنى أيضاً حين يتحدث عن أصول المقارنة فيركز على الروح الموضوعية (ونقصد منها هنا أن يكون المقارن مهتماً من وجهة نفسية للتحلل من تأثير رواسبه والخضوع لما تدعو إليه الحجة عند

١. اصول الفقه المقارن ص ١٤.

المقارنة سواء وافق ما تدعو إليه ما يملكه من مسبقات أم خالفها) ويضيف (فإذا كان بهذا المستوى من القدرة على التحكم بعواطفه... كان اهلاً لأن يخوض الحديث)^١.

ثانياً: دراسة أسباب الخلاف

وهي الأصل الثاني من أصول المقارنة، فبعد أن ارجع ابن رشد في مقدمة كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد)^٢ الخلاف إلى الصغريات أي إلى الاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور (اعني ظهور الكتاب والسنة) أو لحجية القياس يؤكد السيد الحكيم أن الخلاف في الكبريات أكبر اثراً من الخلاف في الصغريات، ويقصد به الخلاف في أصول الفقه ليكشف عن هدفه العام في الكتاب وهو تضيق شقة هذا الخلاف تحقيقاً لما ذكره من قبل في التقريب بين المذاهب الفقهية.

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً هنا قلنا إن هناك منشأ آخر لاختلاف نتائج البحوث الفقهية وهو الاختلاف في ترتيب الأدلة وكيفية الرجوع إليها إذ يجد الباحث في بطون الكتب الفقهية الاختلاف الكثير بين الفقهاء فيها مع أن الواقع يقتضي الترتيب بينها. وهذه النقطة بالضبط درسها السيد الحكيم في موضوع آخر بعد الحديث عن مصطلحي (الورود والحكومة) وهما مصطلحان يختص بهما الفقه الإمامي دون غيره وعلى ضوءها يتم ترتيب الأدلة على النحو التالي:

أ- أدلة الطرق والامارات (ادلة الواقع).

ب- أدلة الواقع التنزيلي كالاستصحاب.

ج- أدلة الوظيفة الشرعية.

د- أدلة الوظيفة العقلية^٣.

ومتى ضمناً وحدة الترتيب في الرجوع إلى الأدلة ضمناً التقارب الكبير في النتائج.

ثالثاً: موضوع التحريف

وشبهة التحريف في القرآن الكريم تعد من أكبر الشبهات التي تثار لا في وجه حجية الظواهر

١. ن، م ص ١٦.

٢. بداية المجتهد ص ٥ - ٦ ج ١.

٣. أصول الفقه المقارن ٩٢: ٩١.

القرآنية فحسب بل تستعمل كأداة ضخمة لضرب المذهب الإمامي باعتباره يقول بها وكتب الهمز واللمز هذه تخر بتوجيه الاتهام والكلام المطول ضده.

ومن هنا نجد السيد الحكيم ; يولي أكبر الاهتمام لهذه الشبهة ويعالجها أروع علاج فيبحث أولاً عن منشئها في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث وما ورد في أصول الكافي من روايات مؤكداً على أن المنشأ إنما هو في كتب الفريقين معاً ومعقباً على ما قاله الشيخ أبو زهرة من أن ماجاء في الكافي هي وثيقة تكفير المرحوم الكليني، مؤكداً إن أسلوب التكفير أسلوب مرفوض خصوصاً إذا كان من قبل العلماء موضحاً أن مجرد التشكيك في هذا الموضوع لا يعد تشكيكاً في ضرورة من ضروريات الدين حتى يؤدي إلى الكفر، على أن مجرد رواية احاديث النقص وعدم التعقيب عليها لا يدل على الوثوق بصدورها، بل لعل رواية الكليني لها في النوادر دليل على إنكارها بعد ما جاء في الرواية المرفوعة عنهم: من قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ودع الشاذ النادر).

على أن الكليني نفسه روى الروايات العلاجية والتي تأمر بعرض الروايات على كتاب الله (عز وجل) (فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه)^١ وروايات النقص لا تنسجم مطلقاً مع الآية الشريفة (إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون)^٢. وهكذا يستمر في رد الشبهة منافحاً ومدافعاً بقوة ليقول:

(فرواية هذه الأحاديث في الشواذ النوادر من كتابه وتعارضها في مروياته ولزوم طرحها بالنسبة إلى منهجه الذي رسمه وعدم التلازم بين الإيمان بالصدور - لو آمن بصدورها - وبين الإيمان بمضمونها، كل ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الأخبار وإيمانه بعدم التحريف)^٣. وبعد أن يكمل دفاعه عن المرحوم الكليني - وهو من أجلة العلماء والغيارى على الدين - يعود إلى نفس الشبهة ليؤكد أنها واردة على كتب الصحاح والمسانيد ومستدرک الحاكم وكتب العمال وأمثالها، وان رفع هذه الشبهة بمسألة نسخ التلاوة لا يجدي نفعاً بل إن بعض المرويات لا ينسجم حتى مع نسخ التلاوة.

١. اصول الكافي هامش مرآة العقول ج ١ ص ٦.

٢. الحجر آية ٩.

٣. اصول الفقه المقارن، ص ٢١١.

وهنا يؤكد الأستاذ الحكيم أن نقل الروايات هي من طبيعة أي عمل موسوعي وان على المجتهدين بعد ذلك أن يفحصوا ويمحصوا.

ثم يركز على نفس الشبهة معتبراً اياها شبهة في مقابل البديهة وان اخبار التحريف - مع تضارب مفاهيمها - لا تزيد على كونها اخبار آحاد وهي لا تنهض على الوقوف أمام التواتر الموجب للقطع بأن هذا القرآن الذي بأيدينا هو القرآن الذي نزل على النبي ﷺ دون أن يزداد أو ينقص فيه - وهكذا يمضي في الاستدلال القوي القويم لينقل بعد ذلك أقوال العلماء كالشيخ الطوسي ; والسيد المرتضى مما يؤكد أنها شبهة لا غير.

وهكذا نجده ; يبذل قصارى جهده وعلمه ليرفع عائقاً كبيراً أمام وحدة المسلمين وتقارب آرائهم وتحقيق التقارب بينها.

رابعاً: سنة أهل البيت:

وهذا الموضوع أيضاً يتصوره الكثيرون العائق الأكبر امام تقارب المسلمين باعتباره يعني ايجاد منبع آخر للشريعة في مقابل السنة النبوية وحيثذ فمن الطبيعي أن يؤدي اختلاف المنابع إلى اختلاف النتائج.

إلا أن السيد الحكيم بمقتضى طول باعه يثبت العكس ويؤكد أن الإيمان بسنة أهل البيت ﷺ يعني تحكيم السنة النبوية وتجليتها في المسيرة مما يقلب الاستنتاج الأنف رأساً على عقب. فقبل كل شيء يشير إلى الحوار الذي تم بين المرحوم السيد شرف الدين والمرحوم الشيخ البشري - شيخ الأزهر الشريف - حيث تم دفع الدور المتصور والقائل بأن كلام الأئمة لا يشكل حجة على غيرهم إلا إذا ثبتت حججته وأنه من السنة وكونه من السنة أول الكلام وقد دفع هذه الشبهة بأن ثبوت كونهم من الرواة الموثوقين يرفع شبهة الدور.

ثم راح يستدل على عصمتهم وحجية أقوالهم من الكتاب كما جاء في آية التطهير، ومن السنة كما جاء في حديث الثقلين، ويدفع كل الشبهات المطروحة في البين بأقوى الحجج والبراهين بما لا مزيد عليه أحياناً.

وينتهي إلى أن حجة سنة أهل البيت ﷺ إنما هو في الواقع تحكيم للسنة النبوية وتطبيق لأوامرها خصوصاً وأن السنة النبوية نفسها لم تجمع على عصره ﷺ وفيها الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص،

والمطلق والمقيد، ثم إن المشكلة تتعقد بعده ﷺ عند تكثر الفتوح وانتشار الوضع. يقول: (وما دمنا نعلم أن السنة لم تدون على عهد الرسول ﷺ وان النبي ﷺ منزه عن التفريط برسالته فلا بد أن نفترض جعل مرجع تحدد لديه السنة بكل خصائصها، وبهذا تتضح أهمية حديث الثقلين وقيمة ارجاع الأمة إلى أهل البيت ﷺ فيه لأخذ الأحكام عنهم كما تتضح اسرار تأكيده على الاقتداء بهم وجعلهم (سفن النجاة) تارة و(أماناً للامة) أخرى و(باب حطة) ثالثة وهكذا.^١

ومما ينبغي ذكره هنا لتأكيد ما ذكره السيد الحكيم هو أن الرجوع إلى سنة أهل البيت ﷺ هو في الواقع رجوع إلى سنة رسول الله ﷺ لأنهم تلامذة الرسول والمحكمون لشرعته، وحديثهم حديثه ونقلهم عنه ﷺ، وحيث يعود هذا الفارق الموهوم جسراً للتفاهم والرجوع إلى الواقع والتقارب بين المسلمين.

ولا أدل على ذلك من سعة المساحة المشتركة بين الفقه الإمامي والفقه السني حتى تصل إلى أكثر من ٩٠ بالمائة من الفقه بمجموعه، بل إن الروايات المشتركة بين الفريقين تشكل اروع صورة للتقارب بين المضامين بحيث تعود الروايات المختلفة قليلة الحجم وضعيفة الأثر خصوصاً على الصعيد الفقهي ولهذا مجال مطول من الحديث.

خامساً: حول الأصول المختلف فيها (القياس...).

ومن موارد الاختلاف الكبرى، الاختلاف حول القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وأمثالها، وقد تعرض لها السيد الأستاذ بكل حكمة وموضوعية ودرسها بكل عمق، واستطاع من خلال دراسته أن يثبت حقيقتين كبيرتين:

الأولى: اصالة الموقف الإمامي.

الثانية: إن الهوة بين الموقفين ليست بهذا البعد الذي يتصوره البعض بل قد تضيق هذه الهوة إلى الحد الذي يعود النزاع فيها لفظياً ولو على مستوى بعض الاتجاهات. وهذا ما سنلاحظه فيما يلي:

١. اصول الفقه المقارن، ١٧٤.

أ- القياس

وقد انتهى إلى أن تعريفه هو (مساواة فرع لأصله في علة حكمه الشرعي) وقد أكد أن هذا التعريف ليس محل الاعتراض المعروف على القياس، وإنما ينصب الاعتراض على تعريف آخر تم هجره. وهو (التماس العلة الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل). وقد أكد على أنهم اضافوا شروطاً في تعريف العلة كأن تكون وصفاً ظاهراً، ومنضبطاً ومناسباً وان لا يكون الوصف قاصراً على الأصل، وبهذه الشروط قد تضيق شقة الخلاف. ومن هنا فهو لا يصدر حكمه السريع على القياس وإنما يؤكد على أن الحديث (حول حجية القياس متشعب جداً بتشعب اقوالهم وتباينها وطبيعة البحث تدعونا إلى أن نقف منها موقفاً لا يخلو من صبر وأناة).^١

وهو يؤكد على أن المنع عن العمل إنما ينصب على قسم من اقسام القياس لا غير، فإن المسالك لمعرفة العلة إن كانت مقطوعة أو قام على اعتبارها دليل قطعي فلا شك في الحجية، أما إذا كانت المسالك غير مقطوعة فهي التي يخالفها الشيعة ولم تثبت الأدلة المطروحة عليها للنقد، وقد ناقشها دليلاً دليلاً لينتهي إلى أن جميع ما ذكره مثبتو القياس من الأدلة لا تنهض باثبات الحجية له فنبقى نحن والشك في حجيته، والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها.

ب- الاستحسان

والبحث هنا يكاد يكون من امتع البحوث التقريبية، إذ يثبت فيه الأستاذ إن الخلاف فيه يكاد يندم فبعد استعراض تعاريفه يصل إلى أنها ترجع إلى أصول أربعة هي:
الأول: إن الاستحسان هو العمل بأقوى الدليلين ولا خلاف فيه بين المذاهب.
الثاني: إن الاستحسان هو العمل بما يقتضيه العرف وحيث يكون من صغريات مسألة العرف، وهو لا يكون حجة إلا إذا امتد إلى عصر المعصوم، وأقر من قبله وحيث يكون من تطبيقات كبرى حجية السنة.

الثالث: الاستحسان الذي يرجع إلى الاستصلاح ويأخذ حيثنذ حكمه.

١. اصول الفقه المقارن، ص ٣٢٠.

الرابع: الاستحسان كحالة نفسية لبعض المجتهدين، وحجته مقصورة على من يدعون القطع ولا يشكل قاعدة محددة واصلاً كسائر الأصول وقد ناقش الأدلة المذكورة لحجية هذا القسم الرابع وأبطلها جميعاً.

ج- المصالح المرسلة

وقد اختلف في حجيتها، فذهب مالك وأحمد إلى أن الاستصلاح طريق شرعي لاستنباط الحكم فيما لا نص فيه ولا إجماع، وغالى فيه الطوفي فاعتبره دليلاً أساسياً في السياسات الدنيوية والمعاملات وقدمه على ما يعارضه من النصوص عند تعذر الجمع بينا ذهب الشافعي إلى أن من استصلاح فقد شرع كمن استحسّن والاستصلاح كالاستحسان متابعة للهوى.^١ وبعد استعراض الأقوال والأدلة يخلص الأستاذ إلى نتيجة مهمة هي:

(ان تعاريف المصالح المرسلة مختلفة بعضها ينص على استفادة المصلحة من النصوص والقواعد العامة ... ومقتضى هذا النوع من التعاريف إلحاقها بالسنة ... وأما على تعاريفها الآخر فينحصر إدراكها بالعقل والذي ينبغي أن يقال عنها إنها تختلف من حيث الحجية باختلاف ذلك الإدراك ... وبهذا يتضح أن الشيعة لا يقولون بالمصالح المرسلة إلا ما رجع منها إلى العقل على سبيل الجزم).^٢

وهكذا نجد - على هذا المستوى من البحث أن التلاقي بين الفريقين يتم في هذه المرحلة أيضاً وان كان الاختلاف يتحقق أحياناً في تشخيص المصاديق.

والذي أود أن اضيفه هنا هو أن العمل بالمصالح المرسلة أمر طبيعي في حدوده الطبيعية وان الذي تم تطبيقه في الدولة الإسلامية مثال على ذلك، ذلك أن المصالح المنظورة هنا هي المصالح العامة أو المصالح التي تعود إلى عموم الافراد وهي التي ينظر إليها القائلون بالمصلحة المرسلة ومع ذلك فإن الأمر يعود إلى الحاكم الشرعي الولي الذي اوكلت إليه رعاية مصالح الأمة. والحاكم بدوره عادة ما يشكل مجالس لتشخيص المصالح المذكورة.

١. مصادر التشريع لخلاف، ص ٨١.

٢. اصول الفقه المقارن، ص ٤٠٤.

والفرق بين هذا وما يبحث عنه في بحث المصالح المرسله يتلخص في امرين:
الأول: ايكال الأمر إلى الولي وأهل الخبرة العملية الذين يستشيرهم وعدم الاقتصار على
النظرة الفردية لهذا الفقيه أو ذاك.

الثاني: إن الأحكام القائمة على المصلحة تبقى مؤقتة بمقدار قيام المصلحة، ولا تشكل فتوى
دائمة كما هو الحال لدى الفقهاء - عادة -.

وقد نص الدستور الإسلامي في إيران على إيجاد مجلس لتشخيص المصلحة يقوم على حل
الخلاف بين مجلس الشورى الإسلامي ومجلس صيانة الدستور كما يقوم ابتداء بتشخيص
المصالح العامة وتقديم المشورة للقائد الولي في مجال ادارة شؤون الأمة.

د - فتح الذرائع وسدها

والذريعة هي (الوسيلة المفضية إلى الأحكام الخمسة) كما ينتهي إليه الأستاذ وهذا البحث
ليس من مختصات مذهب دون آخر.

فالفقه الإمامي يبحث عن مقدمة الواجب ومقدمة الحرام ورغم الاختلاف في النتائج فإن
البحث لا يعد غريباً على أي مذهب إسلامي ولذا يقول: (والخلاصة أن جل من تعرفنا عليهم من
الأصوليين - شيعة وسنة - باستثناء بعض محققيهم من المتأخرين هم من القائلين بفتح الذرائع
وسدها وإن لم يتفقوا في حدود ما يأخذون منها وما يتركون)^١. وإن كان السيد الأستاذ يأخذ عليهم
اعتبار ذلك اصلاً في مقابل بقية الأصول مع أنها لا تعدو كونها من صغريات السنة أو العقل.

هـ - العرف

عندما يتم تشخيص مجالات العرف وهي:

١- ما يستكشف منه حكم شرعي فيما لا نص فيه مثل الاستصناع، بل ما يستكشف منه أصل
من أصول الفقه كالاستصحاب،

٢- ما يرجع إليه لتشخيص بعض المفاهيم التي أوكل الشارع للعرف تحديدها كالإسراف،

٣- ما يستكشف منه مراد المتكلمين،

عندما يتم التشخيص يتوضح أن العرف لا يشكل اصلاً من الأصول لأنه يرجع إلى السنة اما بالإقرار كما في المجال الأول أو بتشخيص المصاديق كما في المجالين الآخرين وبهذا التوضيح لا يبقى مجال للخلاف المعتد به.

هذه بعض الأمثلة سقناها من ما كتبه السيد الأستاذ الحكيم لنبز الدور الرائع الذي لعبته بحوثه في مسألة التقريب بين المذاهب، وهناك أمثلة أخرى - سواء في هذا الكتاب أو في غيره - تؤكد هذه الحقيقة.

والواقع: أن فكرة التقريب بين المذاهب وإن كانت قد طرحت مؤخراً كشعار اجتماعي لتحقيق قدر جيد من الوحدة الإسلامية، إلا إنه في الواقع يشكل واجباً شرعياً على كل الفقهاء لتقصي الواقع والوصول إلى الحقيقة بروح موضوعية والتخلص من كثير من سوء الفهم، والتهم التي تطلق على عواهنها لتضعيف هذا أو ذاك أو حتى لتكفير بعض المسلمين وهو أمر خطير.

إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

تنويه

أقدم المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية وفي إطار تحقيق أهدافه وتطلعاته على إعداد "مشروع جامع للخطة الاستراتيجية" .. وقدمه إلى المجلس الأعلى الدولي في اجتماعه بطهران في الفترة ١٨ و١٩ شوال ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٣ و٢٤/١٢/٢٠٢٢م، فتمت مناقشته بالتفصيل وتعديله والموافقة عليه:

وللمشروع قسمان:

- أ- التعريفات الضرورية.
- ب- موجز عن كيفية تشكل المذاهب.
- ج- موجز عن أسباب اختلاف الفقهاء وغيرهم.
- د- لمحة تاريخية عن تعامل الأئمة فيما بينهم.
- هـ - لمحة تاريخية عن دور الحكام والمصالح الشخصية في تأجيج النزاع بين المسلمين وتحويل المذهبية إلى طائفية مقيتة.
- و- دور بعض الحكام وبعض العلماء في تحقيق التقارب.
- ز- التقريب في العصر الحديث ودور دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.
- ح- كيفية انشاء المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
- ط- نقاط الضعف ونقاط القوة في حركة المجمع والتقريب.
- ي- الآفاق والتوقعات حول مستقبل حركة التقريب.

وسيتيم اعداده لاحقاً.

وأما القسم الثاني فهو يركز على الإستراتيجية نفسها والمتمثلة في الفصول التالية:

الفصل الأول: المفاهيم التخصصية

١- التقريب

يعني التقريب حسب وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية: التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية بغية تعرف بعضهم على البعض الآخر على طريق تحقيق التآلف والأخوة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة.

٢- الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية عبارة عن:

التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة واتخاذ موقف موحد من أجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد تجاه اعدادها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

٣- المذاهب الإسلامية

المقصود من المذاهب الإسلامية هو تلك المدارس الفقهية الإسلامية المعروفة التي تتمتع بنظام اجتهادي منسجم ومستند إلى الكتاب والسنة. وإن المدارس الفقهية المعترف بها حسب وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية هي عبارة عن: المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي من أهل السنة، والمذهب الإثني عشري والزيدي والبهرة من الشيعة والمذهب الأباضي. (على أن هناك مدارس أخرى إما أنها لا أتباع لها أو أنها تنضم لأحد المذاهب المذكورة، أو أنها تعبر عن آراء فردية لا تتقيد في عملها بمذهب معين).

الفصل الثاني: أسس التقريب

تقوم مسيرة التقريب بين المذاهب الإسلامية على مبادئ عامة من أهمها ما يلي:

- ١- إن الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان للشريعة، والمذاهب الإسلامية كلها تشترك في هذين المصدرين، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مستمدة منهما.
- ٢- يعد الإيمان بالأصول والأركان التالية ضابطاً للصبغة الإسلامية:
أ: الإيمان بوحداية الله تعالى (التوحيد).
ب: الإيمان بنبوته وخاتمته الرسول الأكرم محمد ﷺ، وأن سنته تمثل أحد مصدري الدين الرئيسين.
ج: الإيمان بالقرآن الكريم ومفاهيمه وأحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام.
د: الإيمان بالمعاد.
- هـ: عدم إنكار ضرورات الدين والتسليم بأركان الإسلام كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد..
- ٣- شرعية الاجتهاد وحرية البحث: لقد اعترف الإسلام الحنيف بالاختلافات الفكرية عبر اعترافه بشرعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، ولذا على المسلمين أن يعتبروا الاختلاف في الاجتهادات أمراً طبيعياً ويحترموا الرأي الآخر.
- ٤- إن الوحدة الإسلامية هي خصيصة قرآنية للأمة الإسلامية وهي مبدأ يمتلك أهمية كبرى فيقدم في موارد التزاحم على غيره من الأحكام التي تقل عنه أهمية.
- ٥- إن مبدأ الأخوة الإسلامية يشكل أساساً عاماً لنوعية التعامل بين المسلمين.

الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته

تتلخص رسالة المجمع العالمي للتقريب في:
"النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتمائاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة".

تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

يعد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية من مختلف دول العالم؛ أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها

للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة. في هذا السياق، ينوي المجمع تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات العشر القادمة:

- ١- السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم ﷺ من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.
- ٢- توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.

٣- تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.

- ٤- اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين أتباع المذاهب اليوم.

الفصل الرابع: مجالات التقارب

تشمل مجالات التقريب الإسلامي بين المذاهب جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة حيث يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

العقائد

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية.

الفقه وقواعده

وفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة، والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مردّه إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم.

الأخلاق والثقافة الإسلامية

ليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الأخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد الفردي والاجتماعي، والرسول الأكرم أسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

التاريخ

ولا ريب أن المسلمين يتفقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة. والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول إلى موارد كثيرة للاتفاق، وعلى أي حال فيجب أن لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للامة.

المواقف السياسية للأمة الإسلامية

لا شك أن المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كأنهم بنيان مرصوص. علماً أن سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في أي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

الفصل الخامس: المبادئ والقيم

يتمسك المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في منهجه الإصلاحية وتنفيذ برامجه انطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم أدناه:

- ١- ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.
- ٢- ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.
- ٣- تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة: علينا كمسلمين يقبلون بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، أن نقبل مستلزمات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الرأي الاجتهادي خطأ في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.
- كما لا ينبغي لأحد من جانب آخر أن يكفر الآخر بسبب أن لوازم حديثه أو رأيه تقود حسب رأينا إلى إنكار أصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.
- ٤- التعامل باحترام عند الاختلاف: حينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الديني في علاقاته مع باقي الأديان، ويطلب من المسلمين أن لا يسيئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية الباطلة للآخرين؛ فإن من الأولى أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم الآخر فيما يختلفون فيه.

- ٥- حرية اختيار المذهب: إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات أن تفرض على أحد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً.
- ٦- حرية العمل بالأحكام الشخصية: فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمور الشخصية، فإن أتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.
- ٧- استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة " فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه "، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.
- ٨- لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

الفصل السادس: الأهداف الرسمية والتنظيمية

- الهدف الرسمي ١: المساعدة في أمر إحياء ونشر الثقافة والتعاليم الإسلامية والدفاع عن ساحة القرآن وسنة النبي الأكرم ﷺ .
- الهدف الرسمي ٢: السعي في سبيل تحقيق التعارف والتفاهم الأكثر بين العلماء والمفكرين والقادة الدينين للعالم الإسلامي في المجالات العقائدية والفقهية والاجتماعية والسياسية.
- الهدف الرسمي ٣: إشاعة فكرة التقريب بين المفكرين والشخصيات النخبوية في العالم الإسلامي ونقله إلى الجماهير المسلمة وتوعيتها بمؤامرات الأعداء المفرقة للأمة.
- الهدف الرسمي ٤: السعي لتحكيم وإشاعة مبدأ الاجتهاد والاستنباط في المذاهب الإسلامية.
- الهدف الرسمي ٥: السعي لإيجاد التنسيق وتشكيل الجبهة الواحدة في قبال التآمر الإعلامي والهجوم الثقافي لأعداء الإسلام وذلك وفقاً للمبادئ الإسلامية المسلّم بها.
- الهدف الرسمي ٦: نفي موارد سوء الظن والشبهات بين أتباع المذاهب الإسلامية.

رسالتنا تقريب

الفكر وتوحيد العمل

المقدمة

فكرة الوحدة في الجمهورية الإسلامية

الوحدة الإسلامية فكرة صاحبت الثورة الإسلامية منذ أيامها الأولى، وإنبثقت من عمق جذورها الفكرية والسياسية والاجتماعية، الأمر الذي انعكس على مرحلة ما بعد الانتصار في صورة إعطاء أكبر ما يمكن من الجهد في مجال السعي لتحقيق الوحدة بين المسلمين، وتحويل الشعارات إلى واقع حي متحرك بزخم وفاعلية كبيرين وخطوات عملية متلاحقة. ففي البدء، أعلنت الفترة الواقعة بين (١٢ - ١٧ ربيع الأول) من كل عام هجري أسبوعاً للوحدة الإسلامية، يحتفل فيها المسلمون بذكرى الميلاد النبوي الشريف، ويعيشون الوحدة الإسلامية فكرياً وروحياً همماً عميقاً يملك عليهم أبعاد وجودهم. فالنبي الأعظم ﷺ و المؤسس لهذه الأمة، ومن الطبيعي أن يستذكر المسلمون وحدثهم عند ذكرى ولادته ﷺ، خلافاً لما كان عليه الحال قبل الثورة الإسلامية، حيث كان اختلاف المؤرخين في تحديد يوم ولادة النبي ﷺ بين الثاني عشر والسابع عشر من شهر ربيع الأول مظهراً من مظاهر الاختلاف بين المسلمين (السنة والشيعة).

وضرورات الوحدة الإسلامية جعلتها تنصدر أولويات هموم المسلمين، وتفرض نفسها أساساً لإعادة بنائهم الذي صدعته الخلافات الفكرية والعقيدية وما أفرزته من اجتهادات متباينة. إلا أن الوحدة باعتبارها مشروعاً لا يمكن أن تتحقق مصداقيتها على أرض الواقع ما لم تتوافر على آلية متقنة وأدوات فاعلة، إضافة إلى إجراء مراجعة تفصيلية لبعض مقولات المذاهب الإسلامية، وإعادة النظر في بعض فواصل نظامهم المعرفي. ومن هذا المنطلق باتت مؤتمرات الوحدة الإسلامية تسير بهذا الاتجاه، حيث أخذت تطرح محاور فكرية تعالج إشكاليات مذهبية

مستعصية من خلال دراسات تفصيلية وشاملة، فقد سلط المؤتمر العالمي الثامن للوحدة الإسلامية - مثلاً - الضوء على ثلاثة محاور مهمة هي:

- الكتاب.

- السنة.

- الثابت والمتغير في ضوء الكتاب والسنة.

وتتابعت المؤتمرات لدراسة المشاكل المشتركة للأمة وكان منها (تحدي العولمة) و(قضية الصحوة الإسلامية) و(إستراتيجية التقريب)، وجاء هذا الأسلوب الجديد في الطرح إيماناً منه بضرورة الوحدة الفكرية أساساً لوحدة المسلمين العملية.

والوحدة الإسلامية بمفهومها الحقيقي الذي يتجاوز كل الفوارق الطبقية والعنصرية واللونية والجغرافية وغيرها، هو حلم المسلمين اليوم في شتى أقطار الأرض، وهو نداء القرآن العزيز يهز كل الغياري أينما كانوا ليسعوا إلى تحقيقه، وهو بالتالي الهاجس الذي يقض مضاجع الاستكبار العالمي ويرعبه، وهو حلم فكيف به إذا تحقق، واستيقظ هذا العملاق الغافي (كما تصفه بعض كتابات المفكرين الاستعماريين) الممتد من المحيط إلى المحيط والذي له قدرة هائلة تمتلك كل عناصر القوة. فأرضه أكثر من ٣٥ مليون كيلو متر مربع، ونفوسه تتجاوز المليار إنسان مضحّ يؤمن بأن الموت في سبيل الله سعادة. له من الخبرات العاملة ما يتجاوز الـ (٢٥٠) مليون يد عاملة، وله من القدرات العسكرية الظاهرية ما يقارب الـ (١٠) ملايين إنسان مدرب، ولديه أكثر من مائة ميناء إستراتيجي على مختلف البحار والمحيطات، ويسيطر على أكثر مصادر النفط والنحاس واليورانيوم وغيرها.

كل هذا في الجانب المادي، ناهيك عن الجانب المعنوي الضخم الذي تمتلكه هذه الأمة متمثلاً في رسالتها العظيمة التي تمتلك أعظم أطروحة لحل مشاكل البشرية والقضاء على التناقض بين المصالح الفردية والمصالح الاجتماعية، وهو أمر عجزت عنه كل تلك الأنظمة الوضعية الخاوية، بل أنّها زادت حدة وسعاراً.

نعم، إنّ الاستكبار العالمي يخشى هذه الوحدة التي تبشر بها هذه الصحوة الإسلامية الكبرى، وعلينا - نحن المسلمين - أن نعد لهذه الخشية، فنزداد إصراراً على المسير، ونزيد من عزائمنا في سبيل هذه الوحدة الكبرى.

ومن هنا، جعلت الثورة الإسلامية شعار تحقيق الوحدة الإسلامية الكبرى في طليعة شعاراتها، وراحت تعمل بكل جهد على تحقيقها متجاوزة كل ما يزرعه الكفر العالمي في طريقها من عقبات، هازئة بكل التهم والدعايات، وكل ما يقوم به عملاء الاستكبار من اثاره للنعنات والطائفيات وما تروجه الأقسام العميلة من روح قومية ممزقة، وشعارات وطنية مفرقة، وغير ذلك.

ولهذا، وجدنا قادة الثورة الإسلامية ممن يتبنون هذا الخط المبارك ويدعون له بكل قوة من خلال لقاءاتهم وكتاباتهم وخطبهم ومواقفهم في الأوساط الفقهية والسياسية، وعقد المؤتمرات وإقامة المؤسسات المتخصصة منطلقين بذلك من وعيهم للإسلام العظيم، ولخصائص الأمة الإسلامية، وللظرف المحيط بهذه الأمة، واهتمامهم العالمي بالإنسان والإسلام أينما كان. وما تأسيس القائد الكبير آية الله الخامني لمجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية إلا خطوة على هذا الطريق اللائح.

وإذا رأينا هذا الهجوم الشامل على الثورة وقادتها فإنما يعبر ذلك عن حقد الكفر العالمي عليهم وعلى هذه الرسالة العالمية الكبرى التي اضطلعوا بحملها وتأكيدها.

إننا نعتقد - بكل وضوح - أن سبيلنا الحقيقي هو سبيل الوحدة الإسلامية الكبرى، ولذا فلن نضعف عن الدعوة إليها والاستجابة لنداء الإمام القائد الكبير لتحقيقها، وكلما زاد أوار الحملة ضدنا فلن يزيدنا ذلك إلا إصراراً على اللقم وصبراً على مضض الألم وإيماناً بالنصر المؤكد.

فإلى الوحدة أيها المسلمون، وتعلموا أنّها قدرنا ومستقبلنا الذي نريد أن نصنع، وغدنا الأمثل الذي لا محيد عنه، ولنجعل قضايانا التي نشترك فيها جميعاً ولا نختلف مطلقاً في مجالها منطلقاً للموقف الموحد في جميع المجالات الحياتية.

إنّ المسلمين جميعاً ينطلقون من أصول العقيدة الأولى، ويرجعون إلى المنبعين الرئيسيين، الكتاب الكريم، والسنة الشريفة، ويؤمنون بالإسلام منهج حياة. وما أروع هذه المنطلقات الواسعة إذا استوعبتها الأمة وإذا صممت على تحويل الإيمان بها إلى واقع قائم، وبالتالي لتكوين اللقاء الموحد في مختلف المجالات.

فليعمل المفكرون والمسؤولون، والواعون المتألمون لقضايا أمتهم، العاملون على دفع مسيرتها إلى الأمام على تحقيق هذا الهدف الكبير عبر تعميق الأسس المشتركة للثقافة الإسلامية في وجود الأمة وتوضيح مقتضياتها العملية.

إنّ الثقافة العامة يمكن تلخيصها - كما يقول المفكر الإسلامي (مالك بن نبي) في مطلع كتابه (مشكلة الثقافة) - بأنها (لا تنضم في مفهومها الأفكار فحسب، وإنما تضم أشياء أعم من ذلك كثيراً تخص أسلوب الحياة في مجتمع معين من ناحية، كما تخص السلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الفرد في ذلك المجتمع من ناحية أخرى).

ووفق هذا التصور نستطيع القول بأنّ الثقافة هي (الفكر والعمل الفردي والاجتماعي) وهما أمران يصوغهما الإسلام ويطبّعهما بطابع عالمي إنساني لا يتغير إلا بتفاصيله. ومن هنا نجد: أولاً: إنّ الفكر الإسلامي أينما كان يتميز بالإلهية والإتجاه نحو الله تعالى في كل الحالات، والتوكل عليه، واستمداد الهدى منه.

ثانياً: إنّ الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية للمسلم تتشكل بمقتضى التعاليم القرآنية حتى إنك لتجد المسلم العادي في مختلف أحواله وبمستوى ثقافته يتمم بالآية الكريمة أو الحديث الشريف ليفسر وضعه الذي يعيشه من نعمة أو بؤس أو فرح أو حزن.

ثالثاً: إنّ الحياة التعبدية بالمعنى الخاص للعبادة واحدة في الشكل والمضمون واللغة - وإن اختلفت اللهجات -.

رابعاً: وحدة المشاعر والأحاسيس والعواطف تجاه المفاهيم والحوادث.

خامساً: وحدة الطرق العامة للعيش، المأكل والملبس والسلوك الفردي والاجتماعي، وإن اختلفت التفاصيل.

سادساً: الشعور العام لدى المسلمين بالترابط الكوني والتشريعي، فالظلم نتيجه الانهيار الحضاري، والشكر نتيجه الرخاء والعزة - مثلاً -.

سابعاً: التوازن العام في الشخصية لدى المسلم، فلا هو جبري ولا هو تفويضي، بل هو يدرك - مهما كان ساذجاً - أنّه مسؤول عن ما يفعل فهو حر، ولكنه يدرك أيضاً دور الإرادة الإلهية في مسيرته العامة.

ثامناً: الإيمان الفردي بالواجبات الاجتماعية تجاه المسلمين جميعاً، والإيمان الاجتماعي تجاه كرامة الفرد وحديثه.

تاسعاً: الإيمان بالفطرة الإنسانية وتميز الإنسان عن الحيوان والجمادات، مما يتيح مقولات إنسانية كالحق والخلق والعدالة ويفرزها عن الحياة الحيوانية.

وهكذا نستطيع أن نستمر في عدّ هذه المشتركات الثقافية. وليس ذلك إلا لوحدة الأسس المعرفية لدى المسلمين.

فلنعمل على تقوية الأسس، وتوضيح ما ينبثق منها، وتركيزه في نفوس المسلمين ليتحقق التقريب. والتقريب الفكري هو من أهم ما يجب التركيز عليه، وذلك تقوية لوحدة المواقف العملية؛ وهو ما نستهدفه في هذا الكتاب.

الفصل الأول: أضواء على مفاهيم الوحدة والتقريب والحوار المنطقي

الوحدة الإسلامية، أطروحة تعبّر عن هدف أيديولوجي وزمني مقدّس، كما أنّها أطروحة شاملة ذات أبعاد متعدّدة، إلا أنّ الملايسات التاريخية والاجتماعية الخاصّة أضفت عليها نوعاً من التحديد، فصارت الوحدة الإسلامية عبارةً يفهم منها البعد المذهبي، والعلاقات المذهبية بين المسلمين خاصّةً، مع أنّها في الأصل عبارة شاملة تستوعب مختلف جوانب الحياة الإسلامية الثقافية والسياسية والاجتماعية...

صحيح أنّ حلّ المسألة المذهبية له دور أساس في إقامة الوحدة الإسلامية، لكنّ الظروف الجديدة، جعلت الجوانب الأخرى من الوحدة؛ كالجانب السياسي والاجتماعي، والثقافي لا تقلّ أهميةً عن الجانب المذهبي.

فالوحدة السياسية على صعيد البناء الداخلي للدولة، وعلاقات المسلمين فيما بينهم، والوحدة الاجتماعية على صعيد العلاقات القومية والوطنية، والوحدة الثقافية على صعيد الفكر وأبعاده المختلفة في الحياة الجديدة، ضرورات أساسية لا يمكن التحدّث عن الوحدة الإسلامية دون الاستجابة لها وتنفيذ متطلباتها.

الأمر الذي يحتمّ تطوير آفاق البحث في الوحدة الإسلامية، وإشراك خبراء السياسة والاجتماع والثقافة فيه، إضافة إلى خبراء المذاهب.

على أنّ ضرورات الوحدة الإسلامية باتت تتصدّر أولويات هموم المسلمين، وتفرض نفسها أساساً لإعادة بنائهم، الذي صدّعت الخلفات الفكرية والعقيدية، وما أفرزته من اجتهادات متباينة.

إلا أنّ الوحدة باعتبارها مشروعاً لا يمكن أن تتحقّق مصداقيّتها على أرض الواقع ما لم تتوافر على آية متقنة وأدوات فاعلة، إضافةً إلى إجراء مراجعة تفصيلية لبعض مقولات المذاهب الإسلامية، وإعادة النظر في بعض فواصل نظامهم المعرفي. ومن هذا المنطلق جاء هذا الأسلوب الجديد في الطرح إيماناً منّا بضرورة الوحدة الفكرية أساساً لوحدة المسلمين العملية.

الوحدة الحقيقية

إنّ القرآن يشير إلى الوحدة الحقيقية، معرضاً عن كلّ إنهاط الوحدة الزائفة التي يجمعها عنوان: وحدة الأبدان والمصالح المادية، وهي من قبيل:

- الوحدة على أساس المصالح السياسية.

- الوحدة على أساس العروق القومية.

- الوحدة على أساس التعصّب القبلي.

- الوحدة على أساس العامل الجغرافي.

- الوحدة على أساس التاريخ المشترك. إلى غير ذلك من أنواع الوحدة في هذا السياق.

إنّ القرآن لا يرى في أي من هذه الأشكال عاملاً حاسماً للنصر. وفي المقابل يؤكّد على (وحدة القلوب) تلك الوحدة التي لو أنفق ما في الأرض على تحقّقها بالعوامل المادية ما تحققت. فما هي أسس وحدة القلوب هذه يا ترى؟

إنّ لها باختصار أساسين:

١ - العقيدة الحيّة الواقعية.

٢ - العاطفة القائمة على أساس عقائدي.

فلا العقيدة لوحدها بقادرة على تجميع القلوب وتآلفها مهما كانت واقعية قوية، ولا العاطفة لوحدها بقادرة على ذلك. ولو أمكن تحقيق ذلك لنجحنا على المدى الطويل في شدّ الأفراد بعضهم إلى البعض الآخر، ودفع الأمة للسير الحثيث نحو الكمال.

أمّا المؤثّر الحقيقي فهو الإيمان الواعي النافذ إلى الأحاسيس، والمالئ للوجود، والمرتبّط بالله الحقيقة الكبرى في الوجود ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ

وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١﴾
وعندما يعمل الإيمان والعاطفة المؤمنة على شدّ القلوب، ويرفدها توفيق الله ومدده، فلن تنفصم هذه الوحدة وهي بالتالي تصنع الأعاجيب والمعاجز كما صنعتها في عصر صدر الإسلام، وهي تصنعها في عصر عودة الإسلام من جديد في إيران الإسلام والثورة.

محاوَر الوحدة الإسلامية

المحور الأول: القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم إذ يجبّد الوحدة الإسلامية يضع خطّةً شاملةً كبرى علميةً لتحقيقها، تحتوي على مبادئ مستمدّة من قيمه الحياتية التي يؤمن بها.
ولسنا هنا بصدد التعرّض لمجمل هذه الخطّة الكبرى، وإنما نحاول الإشارة إلى شيء من ملاحظها ومبادئها تحقيقاً لهدفنا المنشود من هذا البحث:

أ- بيان محور الوحدة

إنّه يبيّن المحور الأساس الواضح للوحدة والملاك القويم الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يبعّض ولا يمزّق على أي حال، وفي أي مجال متصوّر.

إنّه بتعبير القرآن: حبل الله، والوسيلة لتحقيق مرضاته، أنّه الإسلام والقرآن نفسه، وكلّ خطّ لا يتطرّق الخطأ إليه ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^٢.

ب- التذكير بأثار الوحدة

وذلك لإبقاء الإحساس بضرورتها حيّاً دائماً في النفوس، دافعاً إيّاها إلى تجاوز الخلافات الوقتية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^٣.

١. الحديد: ١٦.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. آل عمران: ١٠٣.

ج- التأكيد على وحدة الأصل والمسير والهدف

إِنَّهُ يُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ وَاحِدٌ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^١ وَيُؤَكِّدُ عَلَى أَنَّ الْمَسِيرَ وَاحِدًا. ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾^٢.

ويؤكد على أن الهدف واحد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٣.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾^٤.

د- غرس الإخلاقية والتضحية بمصالح الذات

ذلك أن من الواضح؛ أن من شروط الوحدة والسير المشترك: نسيان الكثير من المصالح الذاتية، والعمل لمصالح المجموع الواحد. والإسلام العظيم إذ يشكّل المبدأ الوحيد الذي يحلّ المشكلة الاجتماعية (مشكلة التعارض بين الذاتيات ومصالح المجموع) ضمن خطة رائعة، فإنه يضع أساس الوحدة.

ومن ضمن خطة الإسلام غرس الروح الإخلاقية في النفوس وروح الإيثار ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^٥ روح العمل في سبيل الله ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾^٦ وروح إتيان رضوان الله.

ومن الواضح أن هذه الروح إذ تسرى في الأفراد تذهب بكثير من عناصر التمزق والتفرق والشقاق.

هـ- تصوير الهدفية السامية والوظائف الكبرى

ومن أساليب القرآن الكريم أنه يصوّر للأمم أهدافها السامية، ويمنحها وظائف حضارية

١. النساء: ١.

٢. الشورى: ١٣.

٣. الذاريات: ٥٦.

٤. البقرة: ٢٠٨.

٥. الحشر: ٩.

٦. الإنسان: ٩.

كبرى من مثل قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^١. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^٢.

ومن الواضح أنه كلما تجلّت الأهداف السامية في خلد الأمة، اندفعت بشكل طبيعي إلى الوحدة والتآلف والعمل المجموعي، لأن الأهداف الكبرى لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال ذلك. وعلى نفس هذا النسق يبيّن القرآن وحدة المصير، إذ يقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^٣.

و- حذف مقاييس التفاضل الممزقة

أشرنا من قبل إلى أسس مطروحة للوحدة، وأنها أسس باطلة غير قوية، وأن الإسلام إذ رفضها أسساً للوحدة، رفضها أسساً للتفاضل الاجتماعي، وأعطى مقياساً إنسانياً عاماً له يضمن الجوّ الصالح لقيام الوحدة ودوامها.

فملاك التفاضل الذي يصوّره القرآن هو الأمور التالية:

أولاً: التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^٤.

ثانياً: العلم ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٥.

ثالثاً: الجهاد والعمل ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾^٦.

ومن الواضح أن هذا الملاك إذا طبّقه المجتمع، عاد في تماسك ما بعده تماسك.

ز- الدفع نحو التأكيد على نقاط الالتقاء

وهو منهج قرآني أصيل، لا بين المسلمين أنفسهم فحسب، بل وحتى مع معتنقي أقرب الأديان إلى الإسلام، وهم أهل الكتاب. أنها خطوة عملية في مواجهة الإلحاد ﴿قُلْ يَا أَهْلَ

١. آل عمران: ١١٠.

٢. البقرة: ١٤٣.

٣. الأنفال: ٢٥.

٤. الحجرات: ١٣.

٥. الزمر: ٩.

٦. النساء: ٩٥.

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾.

وعمل كهذا لا بد أن يهتئ أرضية صالحة للتفاهم والوصول إلى الحقيقة.

إنّ هذا المنهج يجب أن يدفعنا نحن المسلمين للتأكيد على نقاط الالتقاء بيننا، وسنجد أنّها أكثر ممّا يتصوّر حتّى أنّها تشمل كلّ المجالات بلا ريب.

والغريب أنّ البعض ممّا مستعدّ لأن يتعايش مع شيوعي ملحد، ويناقشه بهدوء مثلاً، في حين أنّه غير مستعدّ أحياناً للنظر إلى مسلم يختلف معه في بعض النظرات الجزئية، أليس هذا من عمل أعداء الله؟!

ح- التربية على أسلوب المحاوراة البناءة

إنّ القرآن يطرح أسلوباً موضوعياً رائعاً للمحاوراة مع أعدائه، فضلاً عن أن يطرحه بين أبنائه.

فها هو يعلم الرسول الأكرم ﷺ أن يقول للكافرين رغم إيمانه الشديد بما يعتقد ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٢.

إنّهما الموضوعية الكاملة في النقاش، وإنّهُ الأسلوب الأمثل للوصول إلى نتيجة صحيحة من خلاله. أمّا السبّ والشتم والطرْد وأمثال ذلك فهي أمور لانقيد في النتيجة، ولا تؤثر فيها، وربّما أثّرت العكس كما هو واضح.

فالنقاش الهادئ الموضوعي بين طرفين هما بمستوى النقاش يتوخّيان الحقيقة حتّى لو خالفت مسبقتهما، ويعتمدان الحجّة والبرهان المنطقي الأصيل، كلّ هذا يضمن الوصول في كثير من الأحيان إلى قناعات مشتركة تشكّل أساساً للوحدة، ومجالاً للتعاون المشترك.

وهناك أساليب قرآنية في هذا المجال، منها: طرح المعالم والخصائص المميّزة لهذه الأمة، ومنها: تكتيلها ضدّ عدوّها المشترك، وتذكيرها بأنّه متّحد ضدّها... وغير ذلك.

المحور الثاني: السّنة النبوية

ربّما أمكن القول بأنّه لم تواجه أي رسالة أو عقيدة ماواجهه المبدأ الإسلامي من هجوم شرس

١. آل عمران: ٦٤.

٢. سبأ: ٢٤.

على مختلف الأصعدة، وبشتى الأساليب الممكنة خلال تاريخه الطويل، بالسيف والعذاب، والتهم والإشاعات، والتشويه والتشريد، واللغو والتحريف، والتشكيك في كل شيء.

وكل ذلك أمر توقّعه الإسلام وأعدّ له عدّته، ومن ورائه مدد الله وعونه، وكذلك يجب أن يتوقّعه كل عامل لصالح الإسلام، ويعدّ له عدّته، على أساس أنّ ذلك سنّة تاريخية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^١.

ولعلّ أخطر ما في الحملات: التشكيك بالمنابع الأساسية لهذا المبدأ السامي، وإضعاف الثقة به. ومن ثمّ إذابة كل ما يتوقّع من خير تضيفه هذه المنابع لإحكام الصورة الإسلامية الأصيلة، وتعميقها في النفوس، ومنحها أصالتها التي بها تقارع وتقاوم، ثم تبني وتتقدم.

ولسنا هنا بصدد عرض تاريخي بقدر ما نحن بسبيل مواجهة فعلية مع المشكّكين اليوم.

لقد واجه المنبع الرئيس الأول للتصوّرات والتشريعات الإسلامية (القرآن) سيل التشكيك في نسبه السماوي أولاً، وفي مضامينه ثانياً، وفي حجّية هذه المضامين ودورها وغير ذلك، ولكنّه كان أقوى من أي هجوم، وتقهر التشكيك، وصدق وعد الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٢ ولم نعد نسمع التشكيك في كتاب الله إلا حسيماً لا قيمة له.

ومن ثمّ استعرت الحملة - وإلى يومك هذا - ضد المنبع الرئيس الثاني، وهو السنّة النبوية المباركة، لكي تنال منها، ومن قدرتها على إعطاء الصورة الأصيلة، عبر الدسّ أولاً، والتشكيك بعد ذلك في مجموع الأحاديث التي تتحدّث عن السنّة، ووصفها بعدم الجدّية؛ لوجود الدسّ والتعارض وأمثال ذلك.

والواقع أنّ المسألة خطيرة مصيرية يجب أن لا نمّر بها مرور الكرام، بل نقف عندها وقفه واع فقيه بالأبعاد الخطيرة لها.

ضرورة إتباع السنّة والعمل بالحديث

لا أغالي إذا ادّعت أنّ الضرورة العلمية بين المسلمين قائمة على لزوم إتباع سنّة الرسول ﷺ

١. سبأ: ٣٤.

٢. الحجر: ٩.

إلى يوم القيامة، بل والعمل بها من خلال مضامين الأحاديث الواصلة إلينا. ومن هنا فكلّ تشكيك بذلك إنما هو مجرد شبهة في قبال ضرورة، وقد انصبّ التشكيك في الواقع على الوعاء الموصل للسنة الشريفة وهو الخبر، وخصوصاً الخبر غير المفيد للعلم، ويدعى اصطلاحاً بخبر الواحد.

ولكنّ التأمل في المستندات المطروحة، المنبّهة على هذه الضرورة، ينفي كلّ تشكيك. فالتأمل في الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^١، وملاحظة مفهومها من عدم لزوم التبين إذا كان المخبر غير فاسق، يؤدّي إلى حجّة قول هذا المخبر.

وكذا التأمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^٢، وغير ذلك من الآيات، ولو لم يكن قولهم حجّة لم يكن مجال للحدز.

وكذا التأمل في التواتر المعنوي الذي تشعّ به الروايات الكثيرة، وأخيراً التركيز على السيرة الإسلامية القطعية على العمل بخبر الثقة وإن لم يفد علماً، كلّ ذلك ينبّهنا لهذه الضرورة والبدية.

دوافع المشكّكين

يمكننا أن نلخص دوافع المشكّكين على اختلافها بما يلي:

١ - فسح المجال للاقتباس الفكري.

ذلك أنّ السنة إذا كانت محكمة في التشريع والمفاهيم إلى جنب القرآن الكريم، أعطتنا صورةً كاملةً مفصّلةً عن النظام الكامل الشامل للحياة، وبالتالي لم يكن هناك أي مبرر للتوجّه إلى النظم الأخرى لاستجدائها وتطبيقها. أمّا إذا أقصيت فقد انفتح الباب على مصراعيه للأراء والأهواء المستوردة، وهذه هي الطامة الكبرى التي أبّتلها بها من يسمّون بالمتحقّقين اليوم.

٢ - العجز والضحالة في الفهم.

١. الحجرات: ٦.

٢. التوبة: ١٢٢.

فقد يؤدّي هذا العجز، وقلة الثقافة، وعدم التعمّق إلى تبني مثل هذا الرأي لثلاً يبتلي بالعواقب، وربّما كان للشبهات المثارة دورها في تعميق هذا الاتجاه.

٣- توحيد الموقف.

فقد أغرى حبّ توحيد الموقف الإسلامي البعض للرضوخ لهذا الرأي؛ ظانّاً أنّه به يستطيع أن يوحد الموقف بإرجاع الجميع إلى القرآن الكريم وحده، ولكنّه لا يدري أنّه كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ سيّزق الوحدة بشكّ فطيع.

ويمكننا أن نذكر هنا بعض العوامل الأخرى في سياق الكلام.

بعض الشبهات المطروحة وأجوبتها

ونحن هنا نذكر بعض الشبهات المثارة لنعرف مدى ضحالتها.

أولاً: ذكروا أنّ هناك بعض الروايات التي تتحدّث عن الاكتفاء بكتاب الله عن غيره، أو تنهى عن كتابة الحديث... وأمثال ذلك.

ولكنّ المرء يكاد يجزم بأنّ هذه الروايات - لو صحّت أسانيدها - إنها هي بصدد بيان فضل كتاب الله وعظمته، وأن لا وحشة على من كان معه القرآن، فهو خير أنيس للمؤمنين، لا أن تكون بصدد جعله المصدر الوحيد للتشريع، كيف والقرآن نفسه يدعو إلى الاقتداء والتأسي والطاعة لرسول الله، والأخذ بما يجبر به المخبرون عن الإسلام وسيرة الرسول ﷺ.

أمّا الروايات التي ادّعي فيها أنّ بعض الصحابة نهوا عن كتابة الحديث فلا علاقة لها بنفي العمل بالروايات، وإنما كانت - فيما اعتقد - تعبر عن تحوُّط من قبلهم لثلاً يقع الخلط بين الحديث والقرآن. وبغض النظر عن صحّة هذا التحوُّط وعدمها، فإنّها لا دلالة فيها على ما يطلبه المشكّكون هؤلاء، خصوصاً إذا لاحظنا أنّ الناهين عن كتابة الحديث أنفسهم كانوا من العاملين بالحديث الشريف، والداعين للعمل بسنّته ﷺ.

وثانياً: ذكروا أنّ في الروايات ما هو معارض لغيره من الروايات نفسها، ولما لم يكن من الممكن أن تتناقض السنّة، فيجب التوقّف في المجموع.

ومن الواضح سخف هذا الاستدلال، ذلك أنّ الروايات المتعارضة لها مساحة قليلة، فإذا أُريد التوقّف فليكن في هذه الدائرة لا غير.

ثم أنه كثيراً ما يكون التعارض ابتدائياً، أي بالنظر الأولي، ولكن بمجرد التأمل ينحل ذلك التعارض بحصول جمع عرفي ظاهر بين المتعارضين: إما بتخصيص، أو تقييد، أو تقدّم لأحدهما على الآخر باعتباره قرينة، والقرينة مقدّمة على ذي القرينة، أو باعتباره يرفع الموضوع، أو يتصرّف في الحكم، مثل تقدّم حديث "لا ضرر ولا ضرار" على غيره من الأحكام الأولية.

نعم إذا استحکم التعارض توقّفنا عن العمل بهما معاً.

ويجب أن نلاحظ هنا أنّ التعارض طبعي الوقوع، فقد يكون في الأصل ناشئاً من عملية تدرّج في إعطاء الأحكام، أو من سقوط شيء وغيابه عن الراوي ممّا يغيّر المدلول، أو من وجود خبر مدسوس لانعلم بدسسه فتصوّره حجةً علينا.

ثالثاً: راح البعض يتحدّث عن روايات تتنافى مع القرآن الكريم، ولكنّه لم يستطع أن يذكر إلا بعض الروايات. على أنّ الكثير ممّا يذكر كمصداق لذلك يرجع إلى تخصيص أو تقييد لمطلق قرآني، وهو أمر واقع بشرطه المذكورة في محلّها.

نعم إذا رأينا الخبر منافياً تماماً لمضمون القرآن، ضربنا به عرض الجدار، ولم يكن إلا زخرفاً. رابعاً: راح البعض يذكر أنّ الأحاديث كانت موجّهة للمخاطبين بها بالفعل، فلا تشمل غير عصرهم من العصور.

وهذه الشبهة هي من أوهى الشبهات، ذلك أنّ من المسلّم به، الواضح في خلد جميع المسلمين، والموحي به من تعليقات القرآن: أنّه ﷺ كان يتحدّث لا مع عصره فحسب، بل مع كلّ العصور، وأنّ حلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة، وأنّه أسوة حسنة لكلّ المؤمنين عبر التاريخ، ممّا أوجد لدى المسلمين آنذاك قاعدة الاشتراك، أي اشتراك غيرهم معهم في الأحكام. فمتى ما شكّ في اختصاصهم هم بحكم، أو حتّى اختصاص الرسول بحكم دونهم، جاءت قاعدة الاشتراك حاكمة في البين.

خامساً: وراح هؤلاء يسوقون الأمثلة على تغيّر المصطلحات عبر الفترات الزمانية، فمصطلحات "الوطن" و"الاشتراكية" و"الرعية" وغير ذلك قد تغيّرت رأساً على عقب، ومن هنا فمأدرانا أنّ ما نفهمه من الروايات هو المقصود الواقعي منها.

ونحن لانشكّ في أنّ بعض ظواهر اللغة والكلام متطوّرة عبر مؤثرات مختلفة لغوية وفكرية، وإشرطات تاريخية معيّنة، فيختلف المعنى الظاهر في عصر الصدور ممّا يظهر في عصر آخر.

والمعول عليه هو الظهور في عصر الصدور لا غيره.

إلا أن هناك أصلاً عقلائياً ممضياً حتماً من قبل الشارع المقدس بالإقرار بما يسمّى بـ "أصل عدم النقل" أو كما يسمّيه العالم الشهيد السيد محمد باقر الصدر بـ "أصالة الثبات في اللغة" يحلّ المشكلة موضحاً أنّ العقلاء يبنون على هذا الأصل باعتبار البطء في حدوث أي تغيير في المفهوم من اللفظ، ممّا يجعله في نظرهم أمراً استثنائياً. فمتى ما شككنا في تغيير ما، بنينا على عدمه، ولا مشكلة في البين مطلقاً.

سادساً: وذكرنا أنّ هناك الكثير من الروايات المفتراة، فكيف تتأكد من الصدور والحال هذه؟ والجواب على هذا واضح بعد الذي قدمناه، إذ أننا بعد التجاوز عمّا يؤدي إلى العلم بالمضمون من الروايات، نقول: إنّ الشارع عبّداً بمضمون أخبار الأحاد التي يروها الثقات، وأكمل كشفها الناقص عن الواقع التشريعي - باعتبار كونها ظنية - تعبداً لا وجداناً، فاعتبرها كالعلم بالواقع. فنحن معذرون إذا عملنا بها وخالفنا الواقع، وهي منجزة علينا، فليس لنا المخالفة، فما علينا إذا إلا الفحص والتحصيص الدقيق في السند والمتن والمداليل، ومتى ما انتهى البحث فنحن معذرون أمامه تعالى إذا كانت مخالفة للواقع، وهذا هو مقتضى الحجية.

سابعاً: وربّما طرح البعض شبهة تقول: إنّ تعليقات الرسول خصوصاً في المجال الاجتماعي، كانت تقتضي كونه ولياً للأمر، لا مخبراً عن الشارع المقدس، أو على الأقلّ يقال بوقوع الخلط بين ما يصدر بصفة الولي وما يصدر بصفة المشرّع.

ولكنّ الواقع هو أنّه كانت تصدر منه ﷺ تلك التعليقات باعتباره حاكماً، ولها جانب مؤقّت، ولكن كلّ تلك التعليقات كانت تحمل معها قرائنها اللفظية والحالية، وهي أمور متميّزة عند العلماء ولو من قياس حالها إلى الحالة السارية عموماً. وهل يشكّ أحد بأنّ الأمر بحضر الخندق - مثلاً - كان أمراً وقتياً متناسباً مع تلك الحرب بظروفها؟

ثامناً: وقد طرح فكرة اجتهاد النبي في الأمور التي لا تعبر عن تشريع خالد. والذي نعتقه أنّه ﷺ كان لا يعدو بيان الواقع التشريعي الخالد من خلال وصوله إليه بالوحي، أو بيان التعليم الاجتماعي اليومي بصفته وليّ الأمر. وفي المجال الثاني هذا كان يتمّ التشاور والعزم لا في المجال الأول، والفرق بين المجالين واضح للمتأملين فإنّه ﷺ كان ملتزماً تمام الالتزام بعرض الواقع التشريعي قبل كلّ شيء، وعدم إبداء رأي من عنده، بل لقد كان ﷺ قد التحم بالوحي والحقيقة،

فلا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

تاسعاً: ولما لم يجدهم ما ذكروه، راحوا يركّزون على أن خبر الواحد لا يفيد إلا ظناً، وأنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً، غافلين عن أن الأدلة القطعية التي سيقّت لحجّة خبر الواحد استثنت هذا الظنّ وأمثاله من عموم النهي عن اتباع الظنّ، وأنزلته منزلة العلم باعتباره السبيل العقلاني - الطبيعي - للوصول إلى الشريعة، وأنه لا يمكن تكليف الناس جميعاً بتحصيل العلم بكلّ موارد الإسلام وأحكامه.

فالظنّ المنهّي عنه هو الظنّ الذي لم يقدّم على اعتباره دليل قطعي .

عاشراً: وأخيراً راح البعض يستعرض بعض الروايات التي ادّعي أنّها تخالف العقل والعلم، لأجل التقليل من أهميّة المجموع الروائي العام. ونحن نسمع كثيراً عن مخالفة العقل هذه، وعند التأمل نجد أنها تخالف ذوقاً عقلاً مثلاً، أو ميلاً عاماً، دون أن تصل إلى مستوى المخالفة القطعية لبديهة عقلية مسلمة. نعم لو وصلت إلى هذا الحدّ - وذلك بعيد جداً - فقدت الوثوق المطلوب .
أما قصّة مخالفة البحوث العلمية، فيجب فيها أن نتذكّر التغييرات الكبيرة التي تطرأ على هذه البحوث، وعدم قطعيتها، وأنّها فرضيات متغيّرة .
وخلاصة القول: أنّ كلّ ما طرح من شبهات حول الأحاديث والسنة لا يمكنه أن يصمد للنقد والاعتراض .

نقطتان مهمتان

وهنا نودّ أن ننبّه إلى نقطتين مهمّتين:

الأولى: أنّنا إذ رفضنا هذا الاتجاه الخطر، فإنّ ذلك لا يعني مطلقاً أن نتّجه إلى قبول كلّ ما يرد عنه ﷺ، من دون تمحيص وتحقيق في المتون والأسانيد، بل حتّى أنّنا لانجيز أن يعتمد العلماء على استنتاجات غيرهم من العلماء في هذا السبيل، إلا أن تكون شهادة. كلاً، وإنما تجب ملاحظة الأسانيد والرواة فرداً فرداً، والتحقّق من توفّر الوثوق المطلوب، وعدم التنافي الثابت مع القرآن الكريم والسنة المقطوع بها .

وإنّنا لنرى من المناسب أن ننقل نصّاً جاء عن عليّ عليه السلام تلميذ رسول الله ﷺ في جواب من سأله عن أحاديث البدع، وعمّا في أيدي الناس من اختلاف الخبر، فقال: "إنّ في أيدي الناس حقّاً

وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً. ولقد كُذِّبَ على رسول الله ﷺ على عهده، حتَّى قام خطيباً فقال: من كَذَّبَ عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار. وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان متصنّع بالإسلام، لا يتأتم، ولا يتحرّج... فهو أحد الأربعة. ورجل سمع من رسول الله شيئاً لم يحفظه على وجهه، فوهم فيه، ولم يتعمد كذباً، فهو في يديه ويرويه، ويعمل به، ويقول: أنا سمعته من رسول الله ﷺ، فلو علم المسلمون أنّه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنّه كذلك لرفضه. ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به، ثم أنّه نهى عنه وهو لا يعلم، أو سمعه ينهى عن شيء ثم أمر به وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم أنّه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه. وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب؛ خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ، ولم يهم بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به على ما سمعه، لم يزد فيه ولم ينقص، فحفظ الناسخ فعمل به، وحفظ المنسوخ فجنب عنه، وعرف الخاصّ والعام، فوضع كلّ شيء موضعه...^١.

بهذه الدقّة يتعرّض تلميذ رسول الله ﷺ إلى الرواة في عصره، وهو ألصق ما يكون بعصر الرسول، فكيف بنا ونحن نعيش هذا الفاصل الزمني البعيد؟ إنَّ الأمر يتطلّب - لا محالة - جهداً وبذلاً للوسع في هذا المجال، وهذا ما يقودنا إلى التأكيد على النقطة الثانية.

النقطة الثانية: وهي نقطة مهمّة جداً، يجب التركيز عليها، وملخصها:

إنّنا إذ نرفض الشبهات الماضية، ونرفض القبول المطلق لكُلِّ ما جاء، نمتنع في نفس الوقت عن تسليم السنّة - حتّى الموثوق بها - إلى كلّ فرد مهما كان مستواه، وفسح المجال له ليفهم منها ما يشاء وينسبه إلى الإسلام.

فإنّ هذا المنحى خطر جداً وإن كان دعائه اليوم كُثِرَ في عالمنا الإسلامي، متذرّعين بأنّ الإسلام لكلّ الناس، فلمإذا تحصر ونه بأيدي عدّة قليلة، خالطين بذلك بين هذا وبين كيفية فهم

١. نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٨٨ - ١٩٠.

الواقع الإسلامي واستنباطه من النصوص، مثلهم في هذا مثل من يدعو لتسليم الذرة لكل من يطلبها ليستخدمها كيف يشاء، بحجة أنها وجدت لصالح الجميع!

إن ملاحظة ما سبق، وإدراك احتياج فهم الواقع الإسلامي من الكتاب والسنة الشريفة إلى دراسات تخصصية معمقة في المجالات اللغوية والفقهية - أصولاً وفروعاً - والتفسيرية والرجالية وغيرها، هو مما يمنع بتاتاً من نفي التخصص والخبرة، وعدم الركون إليهما.

وإننا لننبه أمثال هؤلاء إلى الآثار الخطيرة التي تنجم عن رأيهم هذا من:

* شيوع الفهم القاصر للإسلام.

* وفقدان العمق والأصالة التي تميزه عن غيره.

* وفسح المجال للأهواء أن تتلاعب بالمقدرات الإسلامية.

* وعدم قدرة الصورة الناتجة على الصمود أمام الإشكالات والشبهات.

هذا بالإضافة إلى أنه يجعل المذاهب بعدد الأفراد، فويل للأمة من مثل هذا اليوم الرهيب! يوم يفتي فيه العسكري، ويولي فيه هذا الموظف برأيه في الإسلام، وذاك الملك، وهذا الرئيس، وهم لا يملكون مستوى فهمه واستنباطه.

إننا نسأل هؤلاء هل تستطيعون أن ترونا مبدأ فيه بعض ما في الإسلام ولا تخصص فيه؟

إننا نؤكد لزوم الحاجة إلى الاختصاصيين الإسلاميين، ونسميهم بـ "الفقهاء"، ولزوم أن يكونوا عدولاً، لا يدعون لهوى نفسي، ولا يركعون أمام ظالم أو طاغوت.

المحور الثالث: المرجعية العلمية والتفسيرية لأهل البيت:

ظل موضوع المرجعية العلمية للمسلمين محوراً للنقاش والبحث طيلة مئات من السنين، وكانت أهمية هذا الموضوع تزداد كلما ابتعد المسلمون زمنياً عن عصر صدر الإسلام، وتحديداً عصر النص القرآني والنبوي. وكان من شأن اتفاق المسلمين على مساحة مشتركة في المجال أن يشكل أحد أهم محاور الوحدة الإسلامية.

وإذا كان القرآن الكريم وسيرة رسول الله ﷺ وستة المحورين الأساسيين اللذين يشكلان الإطار الذي يجمع المسلمين في داخله، فإن المرجعية العلمية التي تفسر القرآن الكريم، وتكشف عن وجوهه، وتحسم حالة الاختلاف حول أحكامه في الجانبين: العقلي والفقهية، وكذا الحال

بالنسبة للسنة النبوية الشريفة، هذه المرجعية العلمية هي أهم قضية ظلّت حائلاً دون اتفاق المسلمين في البعد العلمي للاختلاف.

ونحن نرى أن هذه المرجعية - وفق كل الدلائل - تتمثل في أهل بيت رسول الله ﷺ. ولاشك أن هذا الافتراض مبني على أسس رصينة يجدها الباحث في كل الكتب التي تتحدث عن المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة؛ لأن القرآن والسنة هما المصدران المقدسان اللذان يحتجّ بهما المسلمون على اختلاف فرقهم ومذاهبهم. وهما يؤكدان على هذه المرجعية، الأمر الذي يثبتته الواقع، التاريخي أيضاً.^١

علم أهل البيت: في خدمة مصالح الأمة

برغم المحن القاسية التي مرّت على أهل البيت في مختلف المراحل والعهود، إلا أنهم ظلّوا يضحّون من أجل رعاية مصالح الأمة ووحدها، وتغليب هذه المصالح على أي شيء آخر، من منطلق الرسالة التي كلّفوا بحملها. كما ظلّت علومهم هي المنار الذي يهدي الأمة إلى الطريق القويم. وكانت القضية الأولى هي قضية الخلافة، إذ صمّت الإمام علي عليه السلام حيالها، برغم تصريحه بأحقّيته فيها، وذلك حرصاً على مصلحة الأمة التي كانت تعيش مرحلة تثبيت الأقدام والفتوحات، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، ولم يسمح لمن أراد أن يلوّح بورقة الخلافة لتفريق الأمة بتمرير مخطّطه، وهو ما حدث مع أبي سفيان، الذي دعاه عقيب السقيفة بأن يتصدّى للخلافة، فنهره الإمام علي وفضح أمره. بل إن الإمام علي لم ييخّل بأية مشورة للخلفاء الراشدين. ويكفي أن نراجع الخطبة الشقشقية، وكتابه إلى أهل مصر الذي بعثه مع مالك الأشتر، لتقف على مجمل هذه الحقائق.^٢

وفي السياق نفسه تأتي مواقفه في مرحلة خلافة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فحين استشاره الخليفة في أن يخرج بنفسه لغزو الروم، أشار عليه بعدم الخروج بنفسه، لأنّ خليفة المسلمين محور وحدتهم.^٣

١. راجع ماضي المرجعية الشيعية وحاضرها، ص ١٣ وما بعدها.

٢. نهج البلاغة، ج ١، ص ٣٠ - ٣٨، ج ٣، ص ٦٣ - ٦٤ و ١١٨ - ١٢١.

٣. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨.

وفعل الشيء نفسه حين استشاره عمر بأن يخرج بنفسه لقيادة جيش المسلمين المتوجّه لفتح إيران، لأنّه - كما يقول الإمام علي - لا بد أن يكون القطب الذي تدور الرحا حوله، وفخر وجه يعني تشبّت أمر المسلمين^١.

وفي السياق نفسه جاء صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية في إطار الظروف الاستثنائية التي مرّ بها الإمام، وعانت منها الأمة. ثم ثورة الإمام الحسين عليه السلام، إذ ضحّى الحسين عليه السلام بنفسه وبصحبه وأهل بيته من أجل مصلحة الأمة، والحيلولة دون استشرء الإنحراف في جسدها.

ويلفت الإمام السجاد عليه السلام الأنظار بدعائه للجيش الإسلامي برغم خضوع هذا الجيش لقيادة الأمويين الذين إذاقوا أهل البيت الأمرين، وهو دعاؤه المعروف بدعاء "أهل الثغور".

الذي يقول فيه: "اللهم صلّ على محمد وآله، وحصّن ثغور المسلمين بعزتك، وأيد حمايتهم بقوتك... وكثّر عدّتهم، وأشحذ أسلحتهم... وألّف جمعهم، ودبّر أمرهم، وواتر بين مسيرهم، وتوحد بكفاية مؤنهم، وأعضدهم بالنصر، وأعنهم بالصبر... اللهم أغز بكلّ ناحية من المسلمين على من يازائهم من المشركين، وأمددهم بملائكة من عندك مردفين"^٢.

كذا الحال مع الإمام الباقر عليه السلام الذي كان يضع علمه وخبرته تحت تصرّف الدولة الإسلامية، ومن ذلك حلّه مشكلة السكّة "ضرب النقود" حين قنّتها الروم على المسلمين، فأشار الإمام الباقر عليه السلام على عبد الملك بن مروان بأن يضرب السكّة باسمه.

ثم مواقف الإمام الصادق عليه السلام من قضايا الخلاف الكبرى بين الفرق الإسلامية في العهد العباسي، فكان يوجّه أصحابه وشيعته بشأن سلوكهم مع أتباع المذاهب الأخرى، فيقول: "صلّوا في جماعتهم، وعودوا مرضاهم، واحضروا جنازتهم وموتاهم، حتّى يقولوا: رحم الله جعفر بن محمد، فلقد أدب أصحابه، كونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا"^٣.

والأمر نفسه كان يحدث مع الأئمة الآخرين، وبالإمكان مراجعة مواقفهم كما جاءت في

١. المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩.

٢. الصحيفة السجادية، ص ١٤٣-١٤٤.

٣. أعيان الشيعة، ج ١، ص ٨٦-٨٧.

المصادر التاريخية وفي كتب التراجم الموثقة.

وعموماً فإن هذه المواقف كانت تعبر عن نظرتهم المتفردة لقضايا الأمة، وتشخيصهم الدقيق لمصلحتها العليا.

وقد خلصنا من بحوثنا إلى نتائج نضعها بين أيدي الباحثين والمختصين، للتداول، والحوار، بهدف إثرائها وبلورتها:

- ١- إن القرآن الكريم والسنة الشريفة أكّدا مرجعية أهل البيت العلمية العامة لكل المسلمين.
 - ٢- إن السنة الشريفة الصحيحة كشفت عن المقصود بأهل البيت بصفاتهم وعددهم.
 - ٣- وإيهم لم يحتاجوا إلى أحد في حياتهم العلمية، سوى المعصوم الذي سبقهم.
 - ٤- إن أعلام الأمة ورجالها المسلمين، بدءاً بالخلفاء الراشدين وأئمة المذاهب الإسلامية وحتى الآن، شهدوا بأعلمية أهل البيت، وبحاجة المسلمين إلى مرجعيتهم العلمية.
 - ٥- إن أهل البيت وظفوا علمهم لخدمة الأمة ومصالحها، برغم قساوة الظروف التي واجهتهم.
 - ٦- وبناءً على ما سبق فإن لأهل البيت عليهم السلام مرجعية علمية عامة للمسلمين. دون أن يؤثر في ذلك زمان أو مكان، وهو الحد الأدنى الذي يتفق عليه المسلمون بشأن محوريتهم أهل البيت في الوحدة الإسلامية. فإذا كانت الإمامة السياسية لأهل البيت موضع جدل بين المسلمين، فإن المرجعية العلمية هي - وفقاً لما سبق - نقطة التقاء بين المسلمين^١.
- وإتفاق المسلمين على هذه الحقيقة أمر في غاية الأهمية؛ لأن من شأنه تقرير مصير الأمة في قضية طالما حاول الحكام وحاولت السياسة التعتيم عليها طيلة مئات من السنين.
- ونخلص من هذا كله إلى أن الأمة الإسلامية لكي توسع من مساحة مصادرها الأصيلة، ومقدرتها على مواجهة التساؤلات الحياتية المتنوعة، وتنسجم أكثر مع توجهات القرآن الكريم والسنة الشريفة، يجب أن ترجع إلى هذا التراث الضخم، وتستمد منه ما يركّز موقعها الحضاري المطلوب.
- وإن البحث عن المرجعية العلمية والتفسيرية لأهل البيت عليهم السلام لا يعني أننا ننكر العطاء

١. لا يعني هذا ذوبان المذاهب الإسلامية في مذهب واحد، بل يعني تحديد مساحة مرجعية عامة يلتقي عندها كل أتباع المذاهب الإسلامية، مع احتفاظ كل مذهب وفريق بخصوصياته.

العلمي والسلوكي للصحابة الكرام، والتابعين، والعلماء المسلمين، الذين زكّوا أنفسهم، وقدموا بدورهم إسهاماً حضارياً وعلمياً كبيراً على مدى العصور، فهم رضي الله عنهم شكّلوا رافداً كبيراً باستمرار للمسيرة الحضارية، وإنما قصدنا أن نبين عظمة أهل البيت، ومحوريتهم العلمية، والتي صدّق بها الجميع، ليكونوا المحور الثالث الذي يجمع هذه الأمة، ويصنع وحدتها المنشودة. إلاّ إنّنا نكتفي بما قلنا لتحدّث عن واقعنا الممزق اليوم، والعوامل التي ساعدت عليه وأساليب التخلّص منه.

الواقع الممزق

قد يقال قبل كل شيء: لماذا هذا التصوير المتشائم للواقع؟ ألسنا نمتلك منظمات إسلامية كبرى، واتحادات مشتركة، ومؤتمرات قمة إسلامية، وتوجّهات مشتركة، وأمثال ذلك، فلم هذا التشاؤم؟! والحقيقة: إنّنا يجب أن لا نخدع أنفسنا، فالتفاؤل المفرط أشدّ ضرراً من التشاؤم المفرط، وإلاّ فلماذا هذه الاتجاهات المختلفة في العالم الإسلامي؟ ولماذا عدم التوحّد حتّى على قضية هامة كقضية فلسطين؟ ولماذا هذا الاختلاف الكبير في مستوى المعيشة والقدرات والإمكانات، فبين جزء إسلامي لا يجد ما يأكل وجزء إسلامي متختم من كثرة الأكل والترّف؟ ولماذا لا نملك اليوم معالم الأمة الواحدة الشاهدة، والتي هي خير أمة أخرجت للناس؟ إنّ هذه المنظمات خطوات صغيرة، وربّما كانت أحياناً للتغطية السياسية والتمويه والتخدير. ولماذا تروّج بيننا الدعوات الممزّقة: القومية، والوطنية، والجغرافية الضيقة، والعلمانية، وأمثال ذلك؟

لماذا لانملك على الأقلّ أن نحسّس كلّ المسلمين بقضايانا الكبرى في فلسطين وغيرها، فنخرجهم من حالة اللامبالاة؟ لماذا لم ندرك لحدّ الآن جميعاً: أنّ القوى الكبرى وفي طليعتها أميركا لا تريد بنا إلاّ شراً؟

لقد بلغ بنا الحال إلى حدّ يسعى فيه البعض إلى مدّ اليد إلى الصهيونية عدوّة الإسلام! إنّ واقعنا ممزّق بلا ريب، وعليه أن يعي عوامل هذا التمزّق.

عوامل التمزق

إن أهم عوامل التمزق اليوم هي: الاستعمار والاستكبار العالمي، والذي يستفيد من أرضية ملائمة للتمزق، هي أرضية التعصب، والجهل، والمصالح الضيقة.

إن الاستكبار العالمي اليوم يحس بأن الأمة الإسلامية تمتلك كل عناصر النهوض، وتمتلك رسالة واقعية إنسانية، وعناصر مادية وبشرية، وقيادة حقيقية قدمت تجربة رائعة، وتأييداً إلهياً موعوداً، ومقومات واقعية للوحدة. ولما لم يكن ليستطيع تغيير أي عنصر سوى الوحدة، فهو يركز جل اهتمامه وتأميره على تمزيق هذه الوحدة، مستفيداً كما قلنا من جهل بعض المسلمين، ومن تعصب الآخرين، ومن مصالح الخاضعين لسياسته الجائرة.

وهو يسخر لهذا الهدف أساطيله الإعلامية، وعقوله المخططة، وعملاءه في المنطقة، سواء العملاء الفكريون أو الجواسيس والمتسلطون.

فما العمل على ضوء هذا؟

إننا نعتقد أن الشعوب الإسلامية اليوم في يقظة عظمى، وفي شوق كبير لتحقيق الوحدة الحقيقية، وهذه اليقظة هي مقدمة العمل الكبيرة.

فعلينا إذن:

- ١ - أن نفضح مخططات الاستكبار العالمي، وهو أمر سهل، فيكفي مجرد عرض بعض المواقف الأميركية ليكتشف المسلم الواقع.
 - ٢ - كما أننا علينا أن نعرض حقيقة التزييف الوجودي المطروح على الساحة، ونري أفراد الأمة بالأرقام المحسوسة كذبه وافتراءه.
 - ٣ - ومن ثم نطلق باسم القرآن الكريم لنعمق أساليب القرآن العاملة على الوحدة في الأمة المسلمة أسلوباً أسلوباً، فنذكر بمحور الوحدة الإسلامية:
- حبل الله، ونذكر بآثار الوحدة هذه... ونركز على وحدة الأصل والمسير والهدف... ونغرس الأخلاق في النفوس... ونصور للأمة أهدافها ووظائفها السامية... ونشيع مقاييس التفاضل الأصلية... ونؤكد على نقاط الالتقاء... ونتبع الأسلوب الأمثل للمحاوراة البناءة.
- وأخيراً يجب أن لانسى الدور الذي يمكن أن يؤديه تكتيل الأمة حول قضاياها المشتركة في فلسطين وغيرها.

إننا نمتلك كل عوامل الوحدة الحقيقية على الصعيد العقائدي والعاطفي والأخلاقي والسلوكي، فيجب أن لا يمنعنا بعض الاختلاف في الرأي والاجتهاد من أن نلتحم بوجه العدو. إننا بالإضافة لما سبق نملك بلا ريب إستراتيجية واحدة، وتتوقف مصالحنا السياسية على هذا الموقف الواحد ضد الاستكبار العالمي.

وبعد كل هذا نقول: إن عقيدتنا تدعونا إلى الوحدة الإسلامية، وإن نظامنا يدعونا إلى الوحدة الإسلامية، وإن إستراتيجيتنا السياسية تدعونا إلى الوحدة الإسلامية.

فلمإذا هذا التواني؟! ولماذا التحير؟ أتمها فرصة الوحدة الإسلامية الكبرى، فلننطلق لتحقيقها تحت لواء القرآن الكريم، ولنستمع بعد ذلك إلى النداءات المخلصة التي يطلقها القادة والمفكرّون، ونغض الطرف عن كل ما يشين ويمزق هذه الوحدة، بعد أن نمتلك المقياس الذي نشخص به الموجهين الحقيقيين عن الأشخاص المزيفين، وأدعياء الوصاية على الدين، وهم محكومون لمخططات الكفر والاستكبار.

حول التقريب والتفاهم

بعد هذه النظرة السريعة يتبين لنا أنّ التفاهم أمر يدعو إليه القرآن وينظّمه، لا بين المتديّنين فحسب، بل بين بني البشر عموماً، إلا أولئك الذين انتهجوا منهج العناد والظلم. وهذا الأمر يتركز أكثر عندما ندخل إلى الساحة الإسلامية: ساحة الأخوة والوحدة، والتسامح والقبول بأصول الإسلام، واستيعاب اختلاف الاجتهادات، الساحة التي يتفق فيها المسلمون على الأصول كما يتفقون على نسبة مئوية كبيرة من الحياة التشريعية، بل وربما يندر الاختلاف في بعض النظم الإسلامية أو ينعدم تقريبا في مثل النظام الأخلاقي، والنظام التربوي، ونظام المعاملات، ونظام العقوبات وغيرها.

نعم ندخل الساحة الإسلامية التي يخاطبها القرآن الكريم بخطاب واحد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتي تستقي معالم دينها من منبع واحد رغم اختلاف الطرق أحياناً، هذه الساحة ذات الشعار الواحد، والاتجاه الواحد، فإنّ التفاهم حينئذ يعود من البديهيات الإسلامية التي لا تحتاج إلى استدلال وبرهان.

التقريب ضرورة ملحة

ولعلّ من سبل الوحدة الإسلامية عملية التقريب بين الأفكار والاتجاهات والمذاهب المختلفة، إذ بدون ذلك تزداد الهوة وتتسع الشقة، حيث تجد الأمة بعد ذلك نفسها ممزقة متهاوية متنازعة، فقدت تمسكها واستواءها، وراحت في مهبّ الريح العاتية.

وليس التقريب عملية قسرية ولا مصطنعة، ولا حركة سياسية يُراد بها ستر جانب من الضعف والنقص لكي تتمّ عملية تمويه على الطرف الآخر، بل هي عملية أصيلة، تقتضيها مجموعة أمور واقعية، من أهمّها:

أولاً: إنّ الخلاف الفكري والاستنباطي أمر متوقّع تماماً وخصوصاً عندما يُراد استنباط كامل للحياة من نصوص وتقريرات وناذج عليا، الأمر الذي يقع فيه اختلاف في الاستنتاج بشكل طبيعي، ويشتدّ ذلك عندما تفصلنا عن عصر النصّ عصور وقرون، ونبتلى بمضاعفات كثيرة، كضياح جملة من الأحاديث، ولزوم تمحيص الأسانيد، وتغيير أساليب التعبير، وقرائن التفهيم، والملابسات التي تكتنف الكلام، ودخول كثير من الدسّ والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلّب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق.

هذا إضافة إلى أنّ تطوّر الحياة يفرض عدداً كثيراً من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نصّ خاصّ، فلا بدّ من استنباط حكمها على ضوء القواعد العامة^١.

ثانياً: إنّ فتح باب الاجتهاد أمر طبيعي وضروري لتحقيق المرونة التشريعية، والمسايرة الإسلامية لتطوّرات الحياة، الأمر الذي يؤدي إلى اختلافات كثيرة في الاجتهاد وهي اختلافات قبلها الإسلام بمقتضى واقعيته.

أمّا النصوص الناهية عن مثل ذلك، فلا تنصبّ على الاختلاف الفكري، وإنما على النزاع العملي ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^٢ وإذا سرت إلى الجانب الفكري فإنها تركّز على الجانب المعصوم منه، والذي لا يتطرّق إليه الخطأ، الأمر الذي لا يبقى مجالاً للاختلاف

١. انظر الفتاوى الواضحة، ص ٥.

٢. الأنفال: ٤٦.

والاجتهاد الفقهي، وهو ما عبّر عنه بحبل الله، فالقرآن المصون بحبل الله، والسنة الشريفة بنصوصها المقطوعة سنداً ودلالةً بحبل الله، ولا مجال للنزاع في ذلك.

ثالثاً: إن الاختلاف الاجتهادي، إنما سمح له إنطلاقاً من واقع الفكر الإنساني القاصر من جهة، وتحقيقاً لعملية الإثراء العلمي من جهة أخرى. وهذا يعني أنه يجب أن يسير باتجاه مصلحة الأمة وتراثها التشريعي والقانوني والتنظيمي، لا باتجاه تمزيقها وإضاعة شخصيتها المتميزة، ولا يتم ضمان السير الطبيعي إلا إذا نُفيت كلّ العناصر التحريفية للمسيرة، والتي تعمل على تحويل وجهتها الطبيعية إلى اتجاه تحريبي ممزق يبدأ قليلاً ويتتهي إلى تمزق فضيع، وهذه العناصر كثيرة:

منها: الأهواء السياسية التي تسخر بعض الفقهاء لصالح الحكّام، ليحققوا بعض الأهداف الضيقة. ومنها: جهل طرف من الأطراف بمباني الطرف الآخر وحدود فتاواهم. ومنها: عمليات الخروج عن مقتضيات الخلاف الفكري إلى مساحات عملية لا علاقة لها، نتيجة عملية تجريد للأمر عن ظروفه، وتحويله إلى عامل نزاع عقائدي وغير ذلك.

وعليه فالتقريب عملية تفاهم وتقارب، ونفي لكلّ العناصر التحريفية، ووضع للمسيرة على الخطّ الطبيعي المثري لا غير. أنه يعني المراحل التالية:

- ١ - البحث عن المساحة المشتركة.
- ٢ - العمل على توسيع هذه المساحة عبر الحوار المنطقي.
- ٣ - التعاون على تطبيق هذه المساحة على الواقع.
- ٤ - أن يعذر البعض الآخر في المساحة المختلف فيها.

قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية والتعليمية الإسلامية

الرؤية الثقافية الإسلامية ووجوب التعليم بها

الرؤية الثقافية الإسلامية رؤية هادفة، تنطلق من مرجعية مقدّسة للحياة الإسلامية تعطيها شكلها ومضمونها المتميزين. وتستبطن هذه الرؤية مجمل أسس عملية التغيير الاجتماعي الشامل؛ فهي الإطار الذي يجمع في داخله مختلف مجالات التغيير. ومهما اختلف علماء الاجتماع والنفس والاثربولوجيا والإعلام في تحديد مفهوم الثقافة أو الرؤية الثقافية، فإنهم يتفقون على دورها الأساسي في رسم تفاصيل حياة المجتمع والفرد وتحديد إنماطها، أي أنّها بكلمة أخرى: العنصر

المركب الذي يحدد الأفكار والسلوك والطواهر الاجتماعية. ويعدّها الإمام الخميني؛ "المصنع الذي يصنع الإنسان" و"طريق إصلاح المجتمع" ^١ أو أنّها كما يقول المرحوم مالك بن نبي "الدستور الذي تتطلبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي" ^٢.

من هنا، فالتصور الإسلامي للثقافة يتلخص في تصور الإسلام للحياة، أو أنّه "الإسلام حين يصبح الحياة" كما عبّرت "الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي" ^٣.

ولهذه الرؤية مرجعية تعطيها مشروعيتها ومضمونها ومنهجها في تطويع الحياة للإسلام، وتمثل مرجعيتها في القرآن الكريم والسنة الشريفة، كما أنّ هناك حقائق الخلق والكون التي تشكل مصدراً معرفياً دائماً للحركة والديناميكية. ولكي تحقق هذه الرؤية غاياتها ومقاصدها في بناء الحياة الإسلامية، فقد وضعت مهمة رسم خطابها العصري وتحديد مناهجها على عاتق أصحاب الاختصاص من فقهاء ومفكرين وخبراء ومثقفين إسلاميين، وعلى أسس علمية تتيح للإصابة استيعاب متطلبات المعاصرة؛ لكي يكون العصر الذي تعيشه المجتمعات الجديدة لصيقاً بالإسلام ورؤيته الثقافية.

ولا يمكن بلورة هذه الرؤية ومراجعتها باستمرار دون عقول أصيلة متحررة من الجمود، وأجواء منفتحة على النقد البناء والحوار الهادف اللذين يمنحهما مناخ الحرية الفكرية المتوازنة.

من هنا فالحوار والتعايش في رؤية واقع التعليم الديني والثقافة الإسلامية، محكومان بقيم المرجعية الإسلامية الملزمة (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)؛ فقيمها الشرعية والعقلية والإخلاقية هي نفسها قيم الدين الحنيف، أو القيم الإنسانية العامة التي لا تتعارض معه.

ومن الواضح أنّ هذه الرؤية تحتاج لمنهج تعليمي جامع؛ يستوعبها أولاً ويخطط لتعميقها في نفوس الجماهير عبر توجيه المناهج الابتدائية والثانوية والجامعية في كل انحاء العالم الإسلامي وكذلك بين الأقليات الإسلامية.

١. «النظرات الثقافية للإمام الخميني»، إعداد: كبرى اسدي.

٢. «شروط النهضة»، ص ١٣٠.

٣. أعدتها منظمة المؤتمر الإسلامي، ص ٥.

أهمية الحوار

الاختلاف سنة كونية، أعطت للحياة ألواناً مختلفة من التفكير والسلوك، وجعلت التباين بين الناس في رؤاهم ونظراتهم للأشياء هو الأصل، بعد أن كانوا أمة واحدة ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾^١، ومرد ذلك إلى الاختلاف في الطبائع الوراثية والتنشئة والتكوين والتجربة والأهواء وغيرها. فليس ممكناً - في الواقع - وجود شخصين متفقين في كل الأشياء بنسبة مئة بالمئة، كما لا وجود لشخصين مختلفين بنسبة مئة بالمئة أيضاً، فالاختلاف والإتفاق قضيتان نسبيتان تتراوح نسبتهما بين الواحد بالمائة والتسع والتسعين بالمائة. وهذا لا يعني عدم وجود حق مطلق، ولكن هذا الحق المطلق هو الذي يحدده الله تعالى فقط أو من يخولهم من عباده كالأنبياء والأوصياء والملائكة. وكذلك تعتبر الفطرة نافذة إلهية لمعرفة الحق، كما لا يعطي هذا الاختلاف حقوقاً متساوية لكل المختلفين في الانتساب للحق، بل أن للاختلاف مرجعية مطلقة ليست من اختراع المختلفين يقول تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^٢ و﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾^٣ فالحكم لله في مواطن الاختلاف، وحكمه عبر عنه في كتابه الكريم، الأمر الذي يلغي مفهوم التعددية في مرجعية الاختلاف بالنسبة للمسلمين.

وهنا يأتي الحوار ليعطي للاختلاف بعداً إنسانياً يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتحول إلى طاقة تدميرية، بل أن الحوار يخفض من مستوى سلبيات الاختلاف ويرفع من مستوى إيجابياته ليكون الاختلاف في هذا الإطار رحمةً وخيراً، ودافعاً للإصلاح والمراجعة المستمرة. وهذا البعد يمنح الحوار مضموناً مصيرياً وموقفاً إستراتيجياً في استمرار الحياة بطعمها المستقر، وإبقاء الجنس البشري بمستوى ما حباه الله من عقل وقدرة على التفكير والاختيار.

إن الحوار أداة للكشف عن الحقائق والأشياء الخفية، ومن خلاله تتم الإجابة على كثير من علامات الاستفهام والإشكاليات العالقة في الذهن، أو تزيد من القناعات الذاتية، كما يمكن من خلاله كشف الباطل ودحضه وكشف مؤثرات ودلائل بطلانه. وبشكل مجمل فإن الحوار ينضج

١. يونس: ١٩.

٢. المائدة: ٤٨.

٣. الزمر: ٣.

الأفكار والقرارات؛ ففي الجانب الفكري والثقافي مثلاً - ينمي الحوار الأفكار ويعمقها، ويشدّها مما يعلّق بها من إنحراف أو جمود أو شوائب، ويحرك العقل باتجاه الإبداع والتجديد والتحرر، في الحدود التي تفرضها مرجعية الاختلاف. وفي الجانب السياسي الاجتماعي، يلعب الحوار الدور نفسه في توضيح القرار الاجتماعي والسياسي وإشعار الآخرين بالمسؤولية وأهمية الموقع الذي يحتلونه، بل أنّ بعض الإنميط تعد في دائرة المسلمين لوناً من ألوان الشورى.

وبالتالي فالحوار في الإسلام يعبر عن قيمة حضارية؛ لأنّه أسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة. فقد إنتشر الإسلام بالحوار والوعظ والمحااجة والقول الحكيم، والذي أوصله إلى أقاصي الدنيا، ولا سيما أفريقيا وشرق آسيا وأمريكا، هو الحوار. هذه البلدان التي يقطنها اليوم مئات الملايين من الناس، دخلت الإسلام بالحوار، فالإسلام هو دين الحجة ودحض الباطل بأسلوب الحكمة ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ﴾^١ ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ الحوار ليس الإستراتيجية الوحيدة في نشر الدين والدعوة والتبليغ، رغم أنّه إستراتيجية أساسية، ورغم أنّه موقف يتخذه المسلم أساساً في الحركة، إلا أنّ الإستراتيجية تتغيّر وفق موقف الطرف الآخر.

مجالات الحوار

تتنوع مجالات الحوار الإسلامي بتنوع أطرافها ووسائلها وموضوعاتها ولهذا التنوع أكثر من معيار للقيم، فعلى أساس معيار أطراف الحوار يمكن تقسيمه إلى:

حوار بين الأفراد (عامة الناس، أو النخب من علماء الدين والمفكرين والأكاديميين والمتقنين وغيرهم).

حوار بين الشعوب.

حوار بين الجماعات.

حوار بين المذاهب.

حوار بين الحكومات (ثنائي أو في إطار المنظمات والمؤسسات).

حوار مع الأديان الأخرى.

حوار مع المدنيات والحضارات الأخرى.
 كما ينقسم على أساس معيار الوسائل إلى:
 حوار مباشر، يتم بين أطرافه بحضور عامة الناس أو عبر وسائل الاعلام (التلفزيون، الإذاعة... الخ)، وهو الحوار المباشر المفتوح الذي يصطلح عليه عادة بـ"المناظرة"، أما الحوار المباشر المغلق، فهو الذي يجري بعيداً عن الآخرين، ويقتصر على المتحاورين وبعض المراقبين.
 حوار غير مباشر، عبر الصحافة أو الرسائل أو عبر طرف ثالث.
 وعلى أساس معيار المادة أو الموضوع، ينقسم الحوار إلى:
 علمي (فقهني، عقائدي، أو مختلف العلوم الإسلامية والإنسانية والاجتماعية أو البحتة والتطبيقية)؛

سياسي (ما يرتبط بالشأن السياسي العملي أو النظري)؛

فكري؛

ثقافي؛

اجتماعي؛

وغيرها.

ومن خلال استعراض هذا التنوع في الحوار، نريد القول أن لكل منها أساليبه الفنية وآدابه وقواعده ومنهجه، وبالتالي فإنّ القيم العلمية والأسلوبية تختلف إلى حد فيها بينها. ولكن القيم الدينية والإخلاقية والإنسانية تبقى قاعدة مشتركة لها جميعاً. وقد ركّزت المرجعية الإسلامية من خلال النصوص على هذه القيم، وفصلها وشرحها الفقهاء وعلماء الكلام والأخلاق، كل من زاويته ومدخله العلمي. ومع التطور الهائل والتغيرات المتسارعة في إنمات الحياة وأساليب الحوار والتخاطب، دخلت معادلات قيمة جديدة في صياغاتها، وليست جديدة في أصولها، وهي مما ينبغي اكتشافه والتعرف عليه وأسلمته.

عناصر الحوار

يمكن تقسيم أهم عناصر الحوار إلى: الأطراف، الموضوع، الأهداف، الإدارة، التحكيم، الزمان، المكان، المنهج، الأسلوب، النتائج.

ومن خلال استعراض هذه العناصر بشيء من التفصيل تأتي على البعد القيمي الإسلامي حيال كل منها بالصورة التي تحقق غايات الحوار، كالغاية الفنية المتمثلة بتقنين حالة الاختلاف والتركيز على إيجابياتها وتفتيت سلبياتها - كما ذكرت.

١. أطراف الحوار: ينبغي توفر مجموعة من المؤهلات في شخصية المتحاورين، على الصعد الذاتية والموضوعية، تكفل لنجاح الحوار مدخله الأساسي ومن أهم هذه المؤهلات:

أ. التساوي في الرغبة والتكافؤ في حرية الطرح، فلا بد أن لا يكون أحد أطراف الحوار مقمّحاً أو مجبراً على الحوار أو مضطراً له تحت ضغوط التهديد، بأنواعه: الاجتماعي، الاقتصادي، السياسي، بالسجن أو الموت أو الطرد أو تلبس التهم، أو تحت ضغوط الحياة والإغراء. فمثل هذا الحوار مهما كانت نتائجه، ليست له قيمة علمية أو دينية أو أخلاقية؛ لأنه يفتقر إلى أبسط أسس الحوار الحقيقي وآدابه؛ لأن أطراف الحوار هنا لن تكون متكافئة في القدرة والحرية، فبعضها يجاور من موقع القوة والاقتدار والاستكبار، والآخر من موقع الضعف والإضطهاد؛ فهناك - إذن - فرق كبير بين الحوار (الثقافي والفكري والسياسي) بين أطراف متكافئة، والحوار بين الغازي (العسكري والثقافي والسياسي) والمنهزم أو المدافع، فالحوار الثقافي والحضاري الحقيقي مثلاً يدور في إطار الاحتكاك أو التبادل الثقافي، في حين أن الحوار في إطار الغزو ليس له أي معنى؛ فالغازي الثقافي يسلب من الحوار كل إيجابياته، ويمكن أن يجرى الحوار حتى خلال المعارك العسكرية، فضلاً عن المعارك الفكرية والسياسية، بهدف إلقاء الحججة على الخصم، شرط ضمان عنصر التكافؤ في حرية الرأي، وألا يكون حواراً من طرف واحد. وفي السيرة والتاريخ الإسلامي نأذج فذة من مواقف الحوار أثناء الحرب لإقناع الخصم ومحاججته في محاولة لتجنب ويلات الحرب وليكفي المسلمون شرها.

ب. التسليح بالعلم والمعرفة في موضوع الحوار، فهو أساسي لدخول الحوار وكسبه موضوعياً: ﴿هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾؛^١ فالحوار الحقيقي ينبغي أن توضع له مقدمات موضوعية ويسير وفق أسس علمية، ولا يتحقق

١. آل عمران: ٦٦.

هذا الجانب دون تخصص المتحاورين في موضوع الحوار واحاطتهم الكافية بحقائقه. ويضرب الله تعالى مثلاً في من يجاور في أمر وجود الله ووجدانيته وهو لا يفقه شيئاً في هذا المجال ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^١ وحتى لو كان الحق مع الطرف الضعيف علمياً؛ فإن هذا الحق سيضيع بين ثنايا الجهل، وقد تترتب عليه آثار سلبية تؤدي إلى ظهور الباطل بمظهر المنتصر، مما يتسبب في تزييف الحقيقة وإنحراف وجهات نظر عامة الناس. وإذا كان الهدف من الحوار تحقيق فائدة علمية، فينبغي كذلك أن تكون الأطراف ضليعة في مجال موضوع الحوار. وهنا يشترط الإمام الغزالي على طرف الحوار أن يناظر مع من هو مستقلٌ بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق^٢.

ج. التحليّ بسلوكية لائقة، فالغضب والتشنج والتهريج والحقد والرياء والفرح بمساندة الطرف الآخر والاستكبار عن الحق، ستنزع من الحوار أية قيمة وتدخلة في دائرة المنازعات والصراع، في حين أن الصفات المعاكسة كالهذوء والتروي وضبط النفس واللين والمرونة وعموماً التوازن في المشاعر، سترفع من مستوى الحوار إلى دائرة النجاح والتأثير وتحقيق أفضل النتائج.

وهنا يبين الله تعالى لرسوله الكريم قاعدة عامة في التناحر مع الآخرين، تقف على أساس اللين والمرونة والتسامح: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^٣. فالله تعالى يأمر الرسول ﷺ بالتشاور مع من قد أساءوا إليه، بعد أن يعفو عنهم ويستغفر لهم كما أمر - من قبل - موسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^٤؛ ونقل المفضل - أحد تلامذة الإمام جعفر الصادق عليه السلام - حادثة تحمل دلالة قيمة مشرقة في هذا المجال: فخلال تحاوره مع أحد الزنادقة، تشنج الموقف وغضب المفضل عليه، فقال له الزنديق: إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر مما

١. الحج: ٨.

٢. إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٥٨.

٣. آل عمران: ١٥٩.

٤. طه: ٤٣ و ٤٤.

سمعت، فما أفحش في خطابنا ولا تعدى في جوابنا، وأنه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتره خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ويتعرف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننا أننا قطعناه وغلبناه، دحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا به الحجة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً فإن كنت من أصحابه فخطابنا بمثل خطابه^١.

٢. موضوع الحوار: ينبغي قبل بدء الحوار تحديد نقاط الإبهام والاختلاف، والمادة التي يتعين التفاوض فيها ليكون الموضوع واضحاً ومحدداً، فالحوار قد ينحرف باتجاهات أخرى ويكون مضية للوقت إذا تبيّن لأطراف الحوار أنهم كانوا يتحاورون في موضوعين أو موضوعات مختلفة. وهذا العنصر أطلق عليه العلماء القدامى اصطلاح "تحرير محل النزاع" وقالوا بضرورة تشخيص أبعاد النزاع ليكون الاستدلال منتجاً وعدّوه شرطاً منطقياً لا حاجة للاستدلال عليه^٢. ويفترض هنا لحاظ جميع الجوانب ذات العلاقة بالموضوع؛ فهناك جوانب مهمة قد لا تلحظ، ولكنها تترك أثرها على النتائج.

٣. أهداف الحوار: تكمن قيمة الحوار في هدفه، والمتمثلة في اكتشاف الحقيقة والتعرف عليها وبلورة شكلها ومضمونها، على اعتبار أن "الحكمة ضالة المؤمن". وهذا الهدف يعطي للتجرد والنزاهة والموضوعية في الحوار معنىً حقيقياً، بالصورة التي يطرحها القرآن الكريم: ﴿وَأَنَا أَوْ يَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٣. أما الحوار الذي لا يحمل هدفاً معيناً ولا يترك أثراً علمياً أو فكرياً، فهو عديم القيمة والفائدة. وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على الحوارات التي تدور حول أمور افتراضية وخيالية ولا علاقة لها بالواقع^٤. وتنوع مناهج الحوار - كما سيأتي - بتنوع أهدافه، فهناك الحوار النقدي، الذي يتلخص في تقويم كل طرف للممارسات وأفكار الطرف الآخر بشكل نقد موجه. وللتنقد من جانبه آداب وشروط، تبقيه في حدوده الشرعية والعقلانية،

١. كتاب «التوحيد للمفضل»، ص ٧. وانظر أيضاً - في مجال أدب المناظرة والحوار - ماورد عن النبي وأهل بيته في كتاب الاحتجاج للطبرسي.

٢. انظر «الكافية في الجدل»، ص ٥٤٠.

٣. سبأ: ٢٤.

٤. يقول الغزالي بأن المناظرة لا بد أن تدور حول «مسألة واقعة أو قرينة الوقوع غالباً». انظر «إحياء علوم الدين»، ج ١، ص ٥٧.

وتحافظ فيه على روح الإنعتاق والتقويم الصحيح والمحاسبة الهادفة والنقد البناء. وهناك أيضاً المدارس التي هي لون من ألوان الحوار، وهدفها يدور حول الموضوع فقط، ليست لها أهداف خاصة أو ذاتية، وبالتالي الوصول إلى نتائج متفق عليها، ولا توجد لدى أطرافها أحكام نهائية مسبقة. أما المحاجة فهو حوار الإقناع وإقامة الدليل، وهدفه تفنيد وجهات نظر الطرف الآخر ومحاولة استيعابه وجذبه وهدايته، أو إيصال رسالة إلى الآخرين وتبنيهم وتوعيتهم.

٤. الإدارة والرقابة والتحكيم: هذا العنصر الفني ضروري جداً لتحسين أداء الحوار وضمان تحقيق أهدافه وتنفيذ نتائجه. فالإدارة لا تدخل طرفاً في الحوار، بل تتلخص مهمتها في تنظيم الحوار وضبطه وتوفير الفرص المتكافئة للمتحاورين ومراقبة أساليبهم ومناهجهم، ثم التحكيم بينهم في حالات معينة. وتفرض هذه المهام شروطاً ومواصفات في عنصر الإدارة والرقابة والتحكيم أهمها: المقبولية لدى أطراف الحوار كافة، والحياد الموضوعية والتجرد، وحساب النتائج بدقة، وعدم تغليب طرف على حساب آخر، إلا في حدود الحقيقة، وحتى لو كان لهذا الجهاز أو بعض أفراده خلفيات فكرية وسلوكية ورؤى تتفق أو تختلف مع أحد الأطراف، ولكن ينبغي أن لا يكون لها مدخلة في الإدارة والتحكيم.

٥. جو الحوار: ومما ينبغي أن يكون عليه جو الحوار، هو عدم وجود أي نوع من المؤثرات التي تنعكس سلباً على المراقبين، وقد يتمثل هذا المؤثر في أجواء استفزازية أو إنفعالية أو صاخبة، أو مؤثرات ناتجة عن أجواء التهويل؛ فيكون المتحاورون منساقين حينها وراء تأثيرات العقل الجمعي، ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أجواء الإنفعال والاستفزاز التي كان المشركون يخلقونها للتأثير على مسير الحوار الذي يقوم به الرسول ﷺ، ولا سيما بعد إتهامه - والعياذ بالله - بالجنون، وهنا يطلب القرآن من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والصخب، والتأمل في التهم التي وجهوها له بغية استئناس الحوار في إطار الموعظة الحسنة ولكن بعد أن يفرقوا ويبعدوا عنهم هذا الجو المصطنع: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَأَحَدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قُرْآنِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^١.

١. سبأ: ٤٦.

ولا شك أنّ ذلك يترك أثره في خلق أجواء خاصة وتأثيرات نفسية هائلة على المتحاورين أو الحضور أو المراقبين.

٦. زمان الحوار: وهو عنصر مهم في اختيار الموضوعات والأهداف، وينبغي في تحديد زمان الحوار مراعاة ظروف أطراف الحوار من النواحي الاجتماعية والنفسية والاستعداد العلمي، وظروف إنعكاس الحوار على الآخرين، وأهمية موضوع الحوار زمانياً؛ فربما يكون لموضوع بعينه أهمية خاصة في زمان ما، ثم تعدم هذه الأهمية في زمان آخر.

٧. منهج الحوار: وهو النظام الذي يسلكه الحوار وفقاً لمجموعة من القواعد العامة^١. ومن بديهيات الحوار العلمي أن يكون منهجه واضحاً ومرسوماً سلفاً، ويفترض بأطراف الحوار أن تكون متفقة على قواعده؛ لكي يكون ملزماً لها جميعاً، كما تذكر الآية الكريمة: ﴿أَنْجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^٢، فهذه الأسماء أراد المشركون أن يفرضوها جزءاً من منهج الحوار، ولكنها لا يمكن أن تكون ملزمة لمن لا يؤمن بهذا الجزء من المنهج.

ونطرح هنا أهم معايير منهج الحوار العلمي في إطار الرؤية الثقافية والتعليمية الإسلامية.

أ. التعارف والتوعية: والمقصود منه تعرّف كل طرف على حدود معينة من حقائق الطرف المقابل ومعتقداته وآرائه، من مصادرها نفسها، وليس من مصادر غيره، ولا سيما أعدائه، بهدف التمكن في الزامه بما ألزم به نفسه الاحتجاج عليه بمصادره نفسها. وكذلك مبادرة أطراف الحوار إلى التعريف بمعتقداتها ووجهات نظرها، ويدخل في هذا الإطار مبدأ التوعية؛ فالإسلام دين التوعية والتربية، وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضم إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... إنه يعرض جوهرته الثمينة؛ لأنه يعلم أن قيمتها ستتكشف بكل وضوح للجميع، ولذا فهو يرفض التقليد في العقيدة، ويرفض عملية الإكراه العقائدي، ويدعو أتباعه إلى أن يكونوا أقوياء في البصر والبصيرة ويأمر - في مجال التعامل مع الآخرين - بالدعوة البينة الواضحة قبل كل شيء^٣.

١. للمزيد انظر غازي عناية، مناهج البحث، ص ٧٦.

٢. الأعراف: ٧١.

٣. للكاتب نفسه، «الأسس المهمة في النظام الإسلامي»، ص ١٢٧.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^١، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^٢. وبالنسبة إلى الحوار مع غير المسلمين، فإن البداية تكون بحقائق الرسالة ومعالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، وفي إطار النقاش المنطقي السليم^٣. وتنقل كتب الحديث أن الرسول ﷺ حين بعث الإمام علي عليه السلام إلى اليمن قال له "يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عزوجل على يديك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت" ^٤.

ب. الوضوح: أي استخدام المنهج الصحيح بصورة واضحة دون لبس أو تورية أو التواء، وعدم الخلط بين الحق والباطل، حتى من أجل الوصول إلى الحق كغاية تبررها الوسيلة! يقول الإمام الصادق عليه السلام: "لا تمزج الحق بالباطل، وقليل من الحق يكفي عن كثير من الباطل". ومن أساليب الإبهام في الحوار كما يقول الإمام الجويني: الاحتيال على المحاور حتى يخرج منه عن محل تساؤله، وتوجيه كلامه إلى وجوه محتملة^٥. إضافة إلى استخدام المغالطات والسفسطة في المنهج.

ج. الموضوعية: ومن أبرز عناصرها التجرد ونبذ التعصب والابتعاد عن القناعات السابقة والمواقف المبيّنة والأحكام المعدة سلفاً خلال تنفيذ الحوار، حتى لو كانت أطراف الحوار على يقين مطلق بمعتقداتها ووجهات نظرها؛ فهذا التجرد يخلق جواً من الصدق في الوصول إلى الحقيقة كهدف نهائي للحوار، مهما كانت هذه الحقيقة، على النحو الذي يدعو فيه النبي ﷺ الآخرين ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٦ وهذه الدعوة هي قمة التجرد والاستعداد لتقبل نتائج الحوار مهما كانت وأينما كانت، رغم اليقين المطلق للرسول الأعظم ﷺ بصحة معتقداته. يقول الفيض الكاشاني في حديثه عن شروط الحوار: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإن ذلك مرء منه ي عنه بالنهي الأكيد.

١. فصلت: ٣٣.

٢. يوسف: ١٠٨.

٣. الشهيد السيد محمدباقر الصدر، «اقتصادنا»، ص ٢٩٩.

٤. رواها الحر العاملي في «الوسائل»، ج ١٥، ص ٤٣.

٥. الجويني، «الكافية»، ص ٥٤٢ - ٥٥٠.

٦. سبأ: ٢٤.

ويضيف: "أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالّة، يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن تظهر على يده أو يدي غيره، فيرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر الحق"^١. وهذا يعني أن الموضوعية لا تلتقي مع هدف استعراض القابليات العلمية خلال الحوار، أو القدرة على امتلاك أدوات الجدل، أو التنكيل بالخصم. ومن شروط الموضوعية في منهج الحوار تقديم الدليل على الرأي والفكرة برهاناً على صحتها وصدقها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^٢. والشرط الآخر هو التقيد بالحقائق والأفكار التي يعتقدتها الطرف الآخر، والاحتجاج بها، وفقاً لقاعدة "الزموهم بما ألزموا به أنفسهم"، وعدم الاحتجاج بما يفهم المحاور من حقائق الآخر، أو الاعتماد على ما ينقله الخصوم والأعداء، وهذا الشرط هو تنمة لمعيار التعارف كما ذكرنا.

د. اعتماد المشتركات: فلا بد - ابتداءً - من اكتشاف الحقائق والمرتكزات المشتركة بين الطرفين؛ لتكون قاعدة رصينة يقف عليها المتحاورون، ومقدمات واقعية ينطلقون منها للوصول إلى حقائق كلية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾^٣.

٨. أسلوب الحوار: ويقصد به آداب الحوار وسلوكيات المتحاورين، وقد قدّمنا في الحديث عن أطراف الحوار قسماً من المؤهلات السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها أسلوب الحوار كاللين والمرونة وضبط النفس والتوازن في المشاعر وغيرها، إضافة إلى الإنفتاح السلوكي المدروس على الطرف الآخر، واحترام مشاعره ومعتقداته، ومحاورته بالحكمة والموعظة الحسنة والتي هي أحسن. فهذه الأساليب كافية لتترك في نفسه إنطباعاً جيداً عن شخصية المحاور وطبيعة أهدافه ومعتقداته. أما الأساليب السلبية، كالتحريض وإثارة الفوضى والشغب والتهريج والتحامل والتشنج والتعصب الأعمى والتكبر واستخدام أسلوب المغالطة والإنكماش والتهرب والاستهزاء والسخرية، فهي مرفوضة في الحوار المنشود، وقد نهى الإسلام عن ذلك: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٤، فكيف بالحوار بين المسلمين أنفسهم! فقيمة الحوار في الرؤية الإسلامية لا تعرف

١. «المحجة البيضاء»، ج ١، ص ٩٩ - ١٠١، و«إحياء علوم الدين»، ج ١، ص ٥٧.

٢. البقرة: ١١١.

٣. آل عمران: ٦٤.

٤. العنكبوت: ٤٦.

المهاترات والسباب؛ لتسببها في انعكاسات سلبية حادة. يقول تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^١. وتدخل هنا قيم سلبية أيضاً، كالاتهام والافتراء والتفسيق والتهديد بالإخراج عن الدين والرمي بالارتداد، دون تمحيص وبحث عقيدي وفقهي واف، فللارتداد والتكفير معايير وقواعد دقيقة جداً بحثها الفقه الإسلامي بعناية، بالصورة التي لا يكون فيها هضم لحق أحد وسلب لحقوقه الاجتماعية الإنسانية. فالتسرع في إطلاق الأحكام خلال الحوار لتحقيق أجواء غير موضوعية، تتقاطع تماماً مع الرؤية الإسلامية، فضلاً عن أن هذه الأساليب - لا سيما التهديد بالعدوان وسلب الحقوق الاجتماعية والحكم المتسرع وغير المدروس بالردة والكفر - تؤدي إلى وضع عكسي، ونجد أنها تسببت في بروز ردود فعل عنيفة ضد الدين، بالصورة التي حدثت حيال أساليب الكنيسة في التعامل مع الآخرين خلال عصور أوروبا الوسطى، ثم أدت إلى ظهور ألوان فاقعة من الإلحاد والانحراف والعلمانية والسقوط والتطرف.

والإسلام يأمر بعدم مواصلة الحوار عند تجاوز الطرف الآخر حدود الحوار وآدابه كممارسة الإضطهاد والتهديد والافتراء والتهريج: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾^٢، أو إصراره على عدم قبول الدليل والحجة والبرهان، رغم وضوحها وقاطعتها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^٣، حينما يدخل الحوار مرحلة العبث وتضييع الوقت، ويستحيل خلالها تحقيق فائدة بالصورة التي يصف فيها القرآن الكريم حوار رسول الله ﷺ مع الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾^٤. من جهة أخرى، ينبغي إتفاق الأطراف على لغة حوار مشتركة^٥، وعلى مستوى علمي وفكري

١. الأنعام: ١٠٨.

٢. النساء: ٦٤.

٣. هود: ٥٣.

٤. البقرة: ٦ و ٧.

٥. المراد هنا الجانب الفني في اللغة أو الخطاب، كاستخدام المصطلحات التخصصية، والمستوى العلمي في التعبير عن الرأي وأسلوب طرحه، والاستفادة من بعض المعارف والعلوم التخصصية، التي ربما يجهلها الطرف الآخر؛ فيكون الحوار حينها كحوار الطرشان - كما يعبرون - ...

معين من اللغة؛ لكي يحصل التكافؤ في إيصال الرأي والرأي الآخر، كما في الحديث الشريف: "نحنُ معاصرَ الأنبياءُ أمرنا أن نكلّمَ الناسَ على قدرِ عقولهم". والواقع أنّ الخطاب الإسلامي الجديد المتطور، ينبغي أن يسود لغة الحوار الإسلامي المعاصر؛ فلكل مرحلة خطاها ولكل مرحلة لغتها وأساليبها الفنية الناجحة في الحوار، على اعتبار أنّ هذا الجانب متجدد يدخل في إطار المتغيرات، شرط أن لا يخرج التجديد عن الثوابت الأسلوبية في الحوار الإسلامي، وهذا التجديد تعبير عن دينامية الإسلام وقدرته المطلقة على استيعاب كل متطلبات الزمان والمكان وتلبية حاجاتها.

٩. نتائج الحوار: وهي ما يترتب على الحوار بعد انتهائه من حقائق وأرقام جديدة تعلن عن تفوق أو انتصار أو براءة أحد أطراف الحوار، وتؤدي بالطرف الآخر إلى التحول في الرأي كلياً أو جزئياً أو تدفعه لمراجعة ذاتية لآرائه ومعتقداته التي تعرّضت للنقد والاهتزاز والهزيمة، وكذلك مراجعة أخرى لأساليبه ومنهجه وخطابه. وقد ينتهي الحوار بتراضي الطرفين وتفاهمهما أو تساويهما في النصر والهزيمة، أو إقدامهما على حالة وسط جديدة. والمهم هنا هو قبول كل أطراف الحوار بالنتائج مهما كانت، وعدم التعصّب والاعتزاز بالخطأ. وبدیهي أن يكون لجهاز الإدارة والتحكيم الدور الأساسي في حساب النتائج، بالوسائل الموضوعية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد يكون مفيداً هنا طرح تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال الحوار، فهذه التجربة دون شك غنية كماً ونوعاً ولعلّ نجاح الجمهورية الإسلامية في دفع هيئة الأمم المتحدة لاقرار مشروعها بتسمية عام ٢٠٠١ م عاماً لحوار الحضارات، هو تعبير عن نضوج تجربة الحوار فيها، وسبق للجمهورية الإسلامية أن طرحت عدة مشاريع رائدة أخرى، تحولت بمرور الزمن إلى مؤسسات وأجهزة فاعلة، وفي مقدمتها مشروع الحوار بين المذاهب الإسلامية، الذي نشط منذ أوائل الثمانينات، ثم تبلور في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكذلك المؤتمر العالمي السنوي للفكر الإسلامي، ومؤخراً في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الاييسيسكو) ومشروع الحوار بين الأديان الذي يمتلك أمانة عامة دائمة تعقد ملتقيات ومؤتمرات دورية على مدار السنة. أمّا في الشأن الداخلي، فإنّ الحوار الدائم والمناظرات بين الجماعات السياسية الاتجاهات الفكرية والثقافية عبر وسائل الاعلام والصحافة أو في التجمعات والندوات، يكاد يكون المنشط الأساسي الذي يميّز الساحة الإيرانية. ولعل آلية الحوار والنقد التي أقرتها الثورة الإسلامية منذ اليوم الأول، ساهمت كثيراً في كشف السلبات، وفي النظرة إلى المشاكل والمعوقات

نظرة موضوعية وواقعية. ولا زال الحوار والنقد البناء يعطيان لمناخ الثورة مرونة عالية في التعامل مع قضاياها؛ لتأتي المعالجات والحلول في إطار دراسات واعية تستوعب الرأي والرأي الآخر.

التعايش بين الشعوب في الرؤية الإسلامية:

في أجواء الاختلاف يكون التعايش على أساس التعددية التي يرتضيها الإسلام، هو الحل الكفيل بتجنب مشاكل الصراع والتضارب في الرؤى والأفكار والمعتقدات بشتى ألوانها ولا يعني التعايش القبول بنسق واحد من التفكير والسلوك، وصهر الجميع في بوتقته، كما لا يعني التنازل عن الحق أو توزيعه على المتعاشين بنسبة متساوية، وفقاً لمفهوم التعددية "بلوراليزم" الذي يفهمه الغرب، بل يعني أن يحتفظ كل طرف بوضعه الخاص، ويارس نشاطه الديني أو المذهبي أو الفكري أو السياسي، في إطار الحقوق والحريات العامة التي يكفلها الإسلام بمضامينها المتوازنة والمرشدة، والتي لا تسمح لأي طرف بسلب حقوق الآخرين أو الإخلال في أمن المجتمع، مهما بلغت قوة هذا الطرف عدّة وعدداً. والصورة المثلى للتعايش هي صورة دولة المدينة التي كان اليهودي والنصراني يعيشان فيها بأمان إلى جانب المسلم وفي كنف الدولة الإسلامية، وكان الحبشي والرومي والفارسي يتمتعون فيها بكل حقوق المواطنة كالعربي تماماً، وهكذا تعايش المهاجرون إلى جانب الأنصار، وتعايش الأوس والخزرج معاً، لقد كان الجميع يدركون حقوقهم وواجباتهم ويارسونها بالصورة التي قننها الإسلام. وتستند الرؤية الإسلامية في مجال التعايش مع الآخرين إلى أساسين رئيسيين، هما:

١. المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

٢. الصلات والرحمة الإنسانية والعلاقات الأخلاقية.

ويستقي التشريع الإسلامي في كل مجالاته من هذين المعنيين فيعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتى جوانبه. أما العناصر الرئيسية التي تحدد نوعية العلاقة بين المسلمين وغيرهم كآلية للتعايش، فأهمها:

١. الأمة... النموذج: يصف القرآن الكريم الأمة الإسلامية بالوسطية، يريد به النموذج

الاسمي، والأمة الشاهدة التي كانت خير أمة أخرجت للناس، وهذا العنصر يدفع الأمة باتجاه السمو والتكامل في كل المجالات، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، ويعني ذلك

الإنتفايح على كل مجالاء الحياة وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى.

٢. المبدئية: وتقضي بنوعين من التعايش: الأول بين المؤمنين، وهو تعايش أخوي. ويعني وحدة الأفراد في مجمل الشؤون، والنوع الثاني مع الآخرين، ويحدد طبيعته مقدار قرب أو بعد هؤلاء عن المبدأ الإسلامي، الذي يحدد مضمون التعايش معهم، كأن يكون ودياً أو حسناً أو يشوبه القلق.

٣. نفي السبيل على المؤمنين: ويعني أن أي تصرف أو وضع معاهدة تؤدي إلى تفوق الكافرين على المسلمين يعد ملغياً من أصله ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾^١ وهذه القاعدة تعد من القواعد الثانوية التي تستطيع الحكم على الأحكام الأولية بمجموعها. وهذا التوجه لا يعبر عن نوع من التكبر، إذ تعمل هذه القاعدة على أساس معايير إنسانية.

٤. التوعية والدعوة: فالتعايش لا يعني تجاوز حقائق الإسلام التي تؤكد على استمرار التوعية والدعوة. ويقضي التعايش المتوازن والعلاقات السلمية بين فئات المجتمع أن تركز التوعية على أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن: ﴿فَلِدَلِكْ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾^٢.

٥. العدالة: يشكل العدل أهم أصول التصور الإسلامي للواقع، وأهم الأسس عند التعامل الاجتماعي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^٣ ولعل الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^٤ تعبر بدقة عن أهمية العدل في معادلات التعايش، حتى في حالات التوتر التي يكاد أن ينسى فيها العدل. ومن خلال النظر إلى طبيعة تعامل دار الإسلام مع غير المسلمين، ندرك البعد الإنساني في عنصر العدل، وهو ما يفسر أيضاً وقوف الإسلام إلى جانب المستضعفين والمحرومين في كل مكان.

٦. تأليف القلوب: في الأجواء التي يحكمها تأليف القلوب، تفتح النفوس على الحقيقة

١. النساء: ١٤١.

٢. الشورى: ١٥.

٣. النساء: ١٣٥.

٤. المائدة: ٨.

وتتقرب إلى الواقع ويعود هذا العنصر إلى تشريع سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، والذي فتح المجال للوقوف إلى جانب المستضعفين والدفاع عن قضاياهم واجتذابهم نحو الإسلام، والإنفاق عليهم بما يحقق مصلحة الإسلام العليا، وتعميق التعايش الإيجابي بين مختلف إتجاهات المجتمع.

٧. الوفاء بالعهد: ويقصد به الوفاء بكل العهود والإتفاقات التي تعقد بين المسلمين وغيرهم ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^١. ومن هذه العقود ما صرح به الإسلام وحدد لها قوانينها العامة، ومنها ما يرى ولي الأمر ضرورتها لتحقيق مصلحة إسلامية عليا. ومثال الأولى: عقد الهدنة وعقد الأمان، ومثال الثانية: العقود الاقتصادية والعسكرية وغيرها.

٨. التعامل بالمثل: مبدأ جزاء الإحسان بالإحسان، ومبدأ القصاص، ومبدأ واقعيان يرتضيها المنطق الإنساني والتعامل الفردي والاجتماعي، هدفها ردع الاعتداء واستقطاب القلوب. يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾^٢. وهو يعني باختصار التعامل مع الآخر بالمثل: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^٣.

ولعل تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال التعايش هي من التجارب المهمة على صعيد التطبيق؛ لما تمثله إيران من دولة تتميز بالتعددية في كثير من المجالات، فهناك أتباع ثلاث ديانات (النصرانية، اليهودية، الزرادشتية) يعيشون إلى جانب المسلمين، وست قوميات (الفارسية، التركية، العربية، الكردية، التركمانية، البلوشية)، وثلاثة مذاهب إسلامية، فضلاً عن الجماعات والتيارات الفكرية والسياسية التي أذعن جميعاً لمعادلات الشورى وآلية الممارسة الديمقراطية. هذه التجربة الفذة التي أبرزت الوجه المشرق للرؤية الإسلامية في مجالي الحوار والتعايش، جديرة بالدراسة والمراجعة المستمرة.

١. الإسراء: ٣٤.

٢. البقرة: ١٩٤.

٣. الممتحنة: ٨.

الفصل الثاني: الاختلاف المذهبي وإستراتيجية التعامل معه

الاختلاف المذهبي

- وحيثما نحاول أن ننظر إلى الاختلاف المذهبي بهذا المنظار نجد أنه أمرٌ طبيعي الحصول، وقد أشار الكثير من المحققين إلى ذلك بشكل مفصل وفي بحوث علمية معقدة.
- فتحدثوا عن ضرورة الاجتهاد في الشريعة والتي تتأصل باستمرار، وذلك بملاحظة الأمور التالية:
- ١- إنّ المصدر الأساس له هو الكتاب والسنة الشريفة. وواضح أن الشريعة بل وعموم التصور الإسلامي لم يُعطَ في صيغ وعبارات واضحة للجميع، وإنما أعطيت في المجموع الكلي للنصوص بشكل يفرض الحاجة إلى مقدمات علمية كثيرة، وجهد علمي واسع للمقارنة واستخراج النتائج بكل دقة وموضوعية.
 - ٢- كلما إبتعدنا عن عصر النص زادت الحاجة إلى هذه الجهود وتنوعت، وذلك لضياح عدد معتد به من الأحاديث، ونسيان ظروف صدور النص، وعدم نقل القرائن التي يجتمل أتمها كانت تحيط به، وتغير أساليب التعبير، ودخول كثير من الخطأ وربما الدس من المغرضين.
 - ٣- ثم هذا التحول الكبير في أساليب الحياة، وهذا التعقد في الحاجات والعلاقات المتنوعة والمسائل المستحدثة التي لا نص فيها، مما يتطلب استخراجها من القواعد العامة أو الأصول الفرعية أو الأصول العملية التي أريد لها أن ترفع حالة التحير والتردد.
 - ٤- أضف إلى كل ذلك الحاجة إلى أشخاص متخصصين بعمق يتفرغون لاستيعاب مختلف الجوانب الإسلامية ويتأهلون لقيادة عملية التطبيق الشاملة لكل جوانب الحياة منسقين بين جوانب الصورة الإسلامية العقائدية والعاطفية والسلوكية ليأتي الحاصل منسقاً، كما يتأهلون للفصل في

مسائل النزاع العملي وهي من لوازم التطبيق، ومن هنا كان الاجتهاد ضرورة حياتية مستمرة - كما أكد العلماء ذلك - ومن هنا أدرك أعداء الإسلام دور الاجتهاد في مرونة الإسلام وحفظ كينونة الأمة، فراحوا يدعون إلى محاربة الاجتهاد بحجة رفض سيطرة العلماء على المجتمع.

خطر الذاتية في الاجتهاد ووسائل التحوط

وبطبيعة الحال؛ فإنّ الاجتهاد في الشريعة يحمل معه خطر (الذاتية) حيث تتدخل معه كل ما تملكه الذات التي تمارس العملية من سوابق ورؤى وذوق وزوايا نظر وقناعات، مما يجعل عملية الاجتهاد مختلفة النتائج لدى شخصين يارسانها في مورد واحد ونصوص واحدة، مما يعني أنّ شيئاً من المعطيات الذاتية أضيف للعملية بعد أن كانت النصوص تعبر عن حقيقة واحدة وحكم واحد - في علم الله تعالى - رغم أنّ ما توصل إليه الشخصان من نتائج تعتبر حجة في حقهم وحق مقلديهم.

ومن هنا لا يمكن أن تعد النتائج التي يحصل عليها الفكر الإسلامي هي الإسلام بعينه بشكل لا يمكن النقاش فيه.

ولا يأتي هذا المعنى حين تكون النصوص قطعية السند وقطعية الدلالة، فلا اجتهاد هنا، وإنما يقع حينما يدخل الظن والاحتمال. ويرتفع خطر الذاتية إلى مستوى أعلى حينما تمارس العملية الاجتهادية على مستوى اكتشاف المذهب الإسلامي أكثر منها حينما تمارس على مستوى اكتشاف الأحكام الفردية.

ويرجع الإمام الشهيد الصدر هذه الظاهرة إلى منابع أهمها:

١- تبرير الواقع الذي يعيشه المجتهد دون أن يشعر بذلك.

٢- دمج النص ضمن إطار خاص.

٣- تجريد الدليل الشرعي من ظروفه وشروطه.

٤- اتخاذ موقف مسبق تجاه النص.^١

وهذه هي النقطة التي يسعى من خلالها المشككون في الفكر الإسلامي، والداعون لرفض

١. اقتصادنا، ص ٣٨٤.

الاجتهاد للنيل منه وحذف دوره في الحياة وتقليص تأثير المجتهدين فيها بحجة أنها منطقة غير معصومة ولا مقدسة.

والحقيقة - كما مر - أن هناك مساحة مقدسة لا يمكن أن تناها يد المعتدين وهي منطقة النصوص القطعية سندا ودلالة بما تتضمنه من أحكام ومفاهيم قطعية، وهناك في المساحة الظنية أيضاً ما دلت عليه الأدلة القطعية، كأدلة حجية الظهور وغيرها، ما يوفر لنا مساحة كبيرة مصونة من أي تناول عليها.

كما أن العلماء إحتاطوا للمساحة الظنية كثيراً لتقليل خطر الذاتية إلى الحد الممكن بعد أن لم يكن مناص من سلوك سبيل الاجتهاد، فهو حالة طبيعية لتفسير أي قانون أو نص.

ومن هنا جاء علم أصول الفقه بقواعده الدقيقة التي تضبط العملية الاجتهادية من خلال:
أ- بحوث الأدلة المحرزة للواقع الشرعي الشاملة للدليل الشرعي اللفظي وبحوثه المفصلة عن الوضع، والصيغ اللفظية، والدلالات، وحجية الظهور وتطبيقاتها.
ثم البحث عن الأدلة العقلية والعلاقات القائمة بين الأحكام في نفسها، ومع موضوعاتها ومتعلقاتها ومقدماتها.

ب - بحوث الأصول الشرعية المطروحة لحل الموقف عند غياب الدليل المحرز للواقع بما تشمله من بحث عن منجزية العلم الإجمالي، والاستصحاب.

ج- بحوث تعارض الأدلة: وهي بحوث غنية مفصلة.
وبعد مرحلة أصول الفقه تأتي البحوث الفقهية المنضبطة بضوابطها الدقيقة.
وقد أضاف بعض العلماء - بحق - موضوع الاعتناء بالمقاصد الشرعية التي علمت من الشريعة لما لها من دخل في عملية الاستنباط.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك مسألة ملاحظة الصفات الإسلامية العامة المسلمة للإسلام من قبيل: الواقعية والفطرية، والتوازن، والشمول، والخلود، والخاصية، والوسطية، والترابط، والعالمية وأمثالها. وعلى أي حال؛ فإنه لم يبق مجال للتقليل من دور الاجتهاد في عملية معرفة الشريعة الإسلامية وتطبيقها.

نشوء المذاهب الإسلامية

ومن الواضح أنه لم يكن هناك شديد حاجة للاجتهاد في عصر الرسول ﷺ بعد أن كانت

الأحكام والمفاهيم تؤخذ مباشرة منه، وربما اجتهد بعض الصحابة فاقرهم الرسول على ذلك^١. وكان الاختلاف بسيطاً، وعندما اتسعت الرقعة الإسلامية نزلت آية النفر التي قررت واقعاً وشرعت أساساً للاجتهاد وحجية خبر الواحد، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^٢. ولكن وتيرة الاجتهاد ارتفعت بطبيعة الحال بعد وفاة الرسول ﷺ وهكذا إستمرت بشكل أشد في عصر التابعين إلا أن المذاهب لم تظهر بشكل واضح ومحدد المعالم إلا بعد هذا العصر. ويرى الأستاذ السائس أن العالم الإسلامي شهد منذ أوائل القرن الثاني وحتى منتصف القرن الرابع أكثر من مئة مدرسة ومذهباً فقهياً، حتى أن الكثير من البلدان كان يمتلك مذهباً خاصاً به^٣، في حين ذكر الأستاذ أسد حيدر أنها كانت تزيد على الخمسين^٤.

وكانت هذه المذاهب التي ظهرت بعد طبقة التابعين - كما يرى بعض العلماء - مذاهب فردية لم تتبن من قبل أتباع أصحابها، ولذلك انقرضت بإنقراض أتباعها، وأخرى جماعية نضجت في ظل ما دونه أصحابها وأتباعهم في مجموعات متكاملة^٥.

ومن المذاهب البائدة:

- ١ - مذهب الحسن البصري (٢٣ - ١١٠ هـ).
- ٢ - مذهب ابن أبي ليلى (٧٤ - ١٤٨ هـ).
- ٣ - مذهب الأوزاعي (٨٨ - ١٥٧ هـ).
- ٤ - مذهب سفيان الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ).
- ٥ - مذهب الليث بن سعد (توفي عام ١٧٥ هـ)

١. كما في حديث معاذ عندما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن وقال له: بما تقضي إذا لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسول الله؟ قال معاذ: (اجتهد رأيي ولا ألو). وإن ناقش بعض العلماء في ذلك (راجع أصول المظفر، ج ٣، ص ١٩٥).

٢. التوبة: ١٢٣.

٣. تاريخ الفقه الإسلامي، ص ٩٤.

٤. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ١٦٠.

٥. موسوعة طبقات الفقهاء: القسم الثاني من المقدمة، ص ٥٧.

٦- مذهب إبراهيم بن خالد الكلبي (توفي عام ٢٤٠ هـ).

٧- مذهب ابن حزم داوود بن علي الأصبهاني الظاهري (٢٠٢-٢٧٠ هـ).

٨- مذهب محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠ هـ).

٩- مذهب سليمان بن مهران الأعمش (توفي عام ١٤٨ هـ).

١٠- مذهب عامر بن شرحبيل الشعبي (توفي عام ١٠٥ هـ).

وغيرهم كثير.

أما المذاهب التي إستمرت مع الزمن وحتى اليوم فهي:

١- المذهب الإمامي الإثنا عشري؛ وقد وسّع معارفه الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام

من أهل البيت عليهم السلام

٢- المذهب الزيدي.

٣- المذهب الحنفي.

٤- المذهب الشافعي.

٥- المذهب المالكي.

٦- المذهب الحنبلي.

٧- المذهب الأباضي.

ولسنا في صدد البحث عن مقدمات نشوء المذاهب، ولا عن عوامل الإنقراض أو الانتشار،

وهي عوامل علمية وموضوعية ذكرها العلماء عند البحث عن عوامل الاختلاف.

فذكر ابن رشد^١ ما يرتبط بتنقيح صغريات حجية الظهور أو حجية القياس، وأضاف إليها

السيد الحكيم^٢ الخلاف في الأصول ومباني الاستنباط، ويمكن أن نضيف إليه الخلاف في مناهج

الاستدلال ومراحله.

وبالإضافة إلى هذه العوامل الموضوعية يمكن تصور عوامل معرفية ذاتية من قبيل سعة

١. بداية المجتهد، ج ١، ص ٣ وما بعدها.

٢. الأصول العامة للفقهاء المقارن، ص ١٨.

المعلومات وضيقها، وعوامل نفسية وفردية كمدى القدرة على التحليل الذهني، وكذلك لا يمكن أن نغفل دور العوامل السياسية والتاريخية والمصلحية والاجتماعية وغيرها، إلا أن الأهم من ذلك في بحثنا هذا هو ذكر النقاط التالية:

أولاً: لقد كان ظهور المذاهب تعبيراً عن تطور في العقلية الإسلامية وسدّاً لفراغ غياب الرسول الأعظم ﷺ وإنقطاع الوحي من جهة، وتوسع الحاجات، وكثرة الحوادث، وتعدد المجتمعات من جهة أخرى، وربما لتراكم المعارف الفقهية وإنطراح الفروع المتصورة من جهة ثالثة. فهي إذن حالة طبيعية صحية حضارية.

ثانياً: وهذه المذاهب تشكل ثروة فكرية غنية للحضارة الإسلامية لا يستهان بها، كما تمنح الحاكم الإسلامي كما الفرد المسلم مساحة للاختيار الأفضل في مجال عملية تطبيق الشريعة في الحياة الفردية (خصوصاً إذا لم يتعين تقليد العلم) والاجتماعية باعتبار أن الرأي الذي ينتج عن عملية إسلامية معترف بها وهي الاجتهاد تصح نسبته إلى الإسلام، وحينئذ يفتح امام الحاكم الشرعي مجال واسع للمناورة وانتخاب الأصلح من الآراء مما يحقق المصالح (حتى لو لم يتفق الحاكم مع الرأي في اجتهاده الشخصي)، بل يمكنه أن يقوم بعملية توفيق وتركيب بين الآراء للوصول إلى النظرية والمذهب الاجتماعي الأصلح مما يعبر أصدق تعبير عن المرونة الإسلامية.^١

ثالثاً: هذه المذاهب - كما قلنا - شكلت غنى للحياة الإسلامية وحالة طبيعية كان الوصول إليها متوقفاً، إلا أن الذي حوّل هذه الظاهرة الطبيعية إلى ظاهرة سلبية على المسيرة الإسلامية هو ما نسميه بالتحويل إلى الطائفية الضيقة، حيث سعت هذه الروح الطائفية للابتعاد عن الحوار الذي دعى إليه القرآن الكريم، ونسيان حالة التسامح والمداراة الإسلامية، والخوض في جدال عقيم في بعض الأحيان وممقوت أخلاقياً. ورحنا نشهد فترات مريعة وأساليب لا إسلامية من التكفير والتفسيق والتبديع - كما يعبر الشيخ القرضاوي^٢ - مما أدى بعد ذلك إلى نزاع عريض

١. وهذه بحوث علمية قمنا بطرحها في مجامع فقهية رفيعة المستوى ونشرناها من قبل ولاداع هنا للتفصيل (راجع تقارير المؤلف عن بحوث مجمع الفقه الإسلامي، وقد بلغت إلى الآن ستة مجلدات).

٢. مجلة رسالة التقريب، العدد ٣٦، ص ٢١٠.

سالت على أثره أنهار من الدماء والدموع، مما مزق الأمة وأزالها عن موقعها الحضاري المطلوب^١. ومن هنا فنحن ندعو بجد لإعادة الحالة المذهبية إلى وضعها الطبيعي عبر إشاعة روح الحوار الإسلامي البناء، والتآلف القلبي، والبحث عن المساحات المشتركة، وهو ما نعبر عنه بـ(حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية).

حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية

إنّ ما أطلق عليه إسم (حركة التقريب) في العقود الأخيرة يمتلك جذورا تمتد إلى أقدم العصور الإسلامية، لأنها تستمد أصالتها وحيويتها من أصول الشريعة الغراء، وتتوضح ضرورتها كلما اتسع نطاق مسؤولية هذه الأمة في صنع الحضارة الإنسانية أو الإسهام الفاعل فيها على الأقل. وقد نجحت في الفترة الأخيرة في التحول إلى إستراتيجية فاعلة.

لقد وضع علماء وشخصيات كبيرة في أواخر الأربعينات من القرن الميلادي الماضي اللبنة الأولى لهذه الحركة المباركة، وجاهدوا حقاً في تبين معالمها، وكتبوا العديد من المقالات لترسيخها في النفوس، بعد أن أصّلوها وبيّنوا جذورها الشرعية وضرورتها المتنامية. ونحن سعداء حقاً إذ نجد هذه البذرة قد نمت وتحولت إلى شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

الأسس

إنّنا نعتقد أنّ الإيمان بمسألة (التقريب) يتأتى بكل منطقية إذا لاحظنا الأسس التالية التي تؤمن بها كل المذاهب الإسلامية دون استثناء وهي:

أولاً: الإيمان بأصول الإسلام العقائدية الكبرى وهي: التوحيد الإلهي (في الذات والصفات والفعل والعبادة) وبالنبوة الخاتمة لرسول الله ﷺ، والقرآن الكريم الذي جاء به وما فيه، والمعاد يوم القيامة.

ثانياً: الالتزام الكامل بكل ضروريات الإسلام وأركانه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها.

١. راجع كتاب قصة الطوائف، ص ١٥٥، فما بعدها.

ثالثاً: الالتزام الكامل بأنّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان لمعرفة رأي الإسلام في شتى الأمور: المفاهيم (عن الكون والحياة والإنسان: ماضيه وحاضره ومستقبله في الحياتين)، والأحكام والشريعة التي تنظم حياة الإنسان وسلوكه الفردي والاجتماعي. أما الأصول والمصادر الأخرى كالعقل والقياس والإجماع وأمثالها فهي لا تملك أية حجية إلا إذا استندت إلى ذينك المصدرين الكريمين وأستمدت مصدريتها منهما. فإذا ثبت عدم الاستناد في الأصل إليهما، فضلاً عما إذا ثبتت مخالفة الرأي أو المنقول عنهما للكتاب والسنة فإنهما يرفضان لا محالة.

وقد صرح إئمة المذاهب جميعاً بهذه الحقيقة بوضوح وأنهم يستقون من هذين المصدرين لا غير. فقد وردت روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكد ذلك من قبيل قول الإمام الصادق: «كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة»^١.

ويقول الإمام مالك بن انس:

"إنما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة"^٢.

ويصرح الشافعي بما يقرب من هذا.^٣

رابعاً: الالتزام بأنّ الإسلام سمح لعملية الاجتهاد - باعتبارها عملية (بذل الوسع لاستنباط الحكم الشرعي من مصادره) - أن تكون هي الموصلة لمعرفة الإسلام. كما أنّها تلعب دورها في تأكيد مرونة الشريعة وقدرتها على استيعاب التطورات الحياتية طبقاً لمعايير وضوابط معينة. وهذا يعني بالضرورة إمكان إيجاد الصلة بين مختلف النتائج التي أدى إليها الاجتهاد، وبين الإسلام، حتى لو كانت مختلفة ومتضادة فيما بينها، وذلك لاختلاف الأفهام وزوايا النظر والقناعات (وهو ما يدرس في العلوم الإسلامية تحت عنوان: أسباب الخلاف).

وإننا نرى أنّ الإسلام إذ سمح بذلك فلأنه دين واقعي فطري، فلا طريق لمعرفة أية شريعة ممتدة

١. وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١١١، وهناك الكثير مما يشابهه.

٢. جلاء العينين، ص ١٩٩.

٣. نفس المصدر، ص ١٩٩.

على مدى العصور يتقطع وحيها ويموت معصومها إلا طريق الاجتهاد، رغم أن هذا الطريق يبتلى أحياناً بالذاتية ويفرز آراء متخالفة قد لا يطابق بعضها واقع المراد الإسلامي في علم الله تعالى. كما أننا نجد أن هذا الأسلوب المنطقي يعم استنباط كل الأمور كالعقائد، والمفاهيم (وهي تصورات تقوم على أساس العقائد من جهة، وتتصل بالواقع مباشرة من جهة أخرى، من قبيل مفهوم الخلافة الإنسانية لله تعالى) والأحكام، بل وحتى المواقف الإسلامية من بعض القوانين الموصوفة بـ(العملية).

خامساً: إن مبدأ (الوحدة الإسلامية) يعبر عن خاصية مهمة من خصائص هذه الأمة المباركة، وبدونها لا يمكن لها أن تدعي اكتمال هويتها. وقد وضع الإسلام خطة متكاملة لتحقيق هذه الوحدة، بانياً لها على أساس الاعتصام بحبل الله المتين (وهو كل سبيل معصوم يوصل إلى الله) ومؤكداً على وحدة الأصل والخلق ووحدة الهدف ووحدة الشريعة والمسير، داعياً إياها للدخول المجموعي في إطار التسليم الكامل لله ونفي خطوات الشيطان، ومذكراً بآثار الوحدة، وغارساً للإخلاقية وعناصر التضحية بالمصالح الضيقة في سبيل الهدف العام، حاذفاً كل المعايير الممزقة كاللغة والقومية والوطن والعشيرة واللون، مركزاً على المعايير الإنسانية كالعلم والتقوى والجهاد، ومؤكداً على لزوم تحري نقاط اللقاء.

إن الإيمان بهذا المبدأ له مقتضياته التي سنشير إليها إن شاء الله تعالى فيما بعد، وهو يعد من ركائز حركة التقريب.

سادساً: مبدأ الأخوة الإسلامية: وهو جزء من الخطة التي أشرنا إليها أعلاه، ولكننا أثرنا التركيز عليه لأنه أهم جزء، ولأنه ينظم مجمل العلاقات الاجتماعية في الإسلام، ولأننا نعتقد أن آثاره لا تقتصر على الجوانب الأخلاقية فحسب بل تتعداها إلى الجوانب التشريعية، وتترك أثرها الكامل على عملية الاجتهاد نفسها، لكي لا نشهد في هذه الساحة أحكاماً تتناقض معه.

سابعاً: اعتماد منطق الحوار القرآني: نستطيع بعد التأمل في القرآن المجيد أن نكتشف أهم مقومات الحوار وأخلاقياته بلا ريب، وقد ذكرنا أهمها.

المبادئ والقيم التي ينبغي أن يلتزم بها التقريبيون

وبناءً على تلك الأسس وتبعاً لما أعلنه العلماء والدعاة التقريبيون، فإننا ندعو للقيم التالية معتبرين

إياها خطوطاً عامة للسياسات التي ينبغي أن يراعيها الخط التقريبي ليحقق أهدافه المرجوة:

الأول: التعاون في ما إتفقنا عليه

والمتفق عليه في مختلف المجالات كثير جداً. فللمذاهب الإسلامية مساحات مشتركة كثيرة سواء كانت في الأصول العقائدية أو في المجالات التشريعية (والتي يصل بها بعض العلماء إلى أكثر من ٩٠٪ من المساحة العامة) أو في المجالات الأخلاقية حيث التوافق يكاد يكون كاملاً. وكذلك في مجال المفاهيم والثقافة الإسلامية وحتى في المسيرة التاريخية والحضارية طبعاً في مفاصلها الرئيسية رغم الاختلاف في تقييم المواقف المعينة. أما المواقف العملية فهم يتفقون جميعاً على لزوم توحيدها عبر التكاتف والتكافل الاجتماعي وعبر وحدة القرار الاجتماعي الذي تتكفله جهة ولاة الأمور الشرعيين. ولا ريب أن التعاون في المشتركات الفكرية يعني التعاضد في تركيزها في الأذهان، وتجنب كل مايؤدي إلى نقضها، وبالتالي تعميقها في مجمل المسيرة. أما التعاون في المجالات المرتبطة بالسلوك الفردي والاجتماعي والحضاري فواضح وتنضوي تحته المجالات الحياتية المختلفة من قبيل:

تطبيق الشريعة الإسلامية، تعظيم الشعائر الإلهية كالجمعة والحج، وتحقيق خصائص الأمة الإسلامية كالوحدة وهكذا.

وهنا نشير إلى أن حركة التقريب يجب أن تبذل قصارى جهدها لاكتشاف المساحات المشتركة هذه، وتوعية الجماهير، وأحياناً نضطر إلى توعية النخبة أيضاً بها، كما تعمل على توسعة نطاق هذا الجانب المشترك عبر الإشارة - مثلاً - إلى كون النزاع والخلاف لفظياً لا جوهرياً، أو عبر التوعية بأسلوب ثالث يشترك فيه الطرفان المختلفان.

الثاني: التعذير عند الاختلاف

فإدنا نؤمن بانفتاح باب الاجتهاد، وهي الحالة الطبيعية التي لا يمكن إغلاقها بقرار، ومادامت أسباب اختلاف النتائج الاجتهادية قائمة وطبيعية، فمعنى ذلك الرضا باختلاف الآراء والفتاوى. ومن الجدير بالذكر هنا أننا لا نجد نهياً إسلامياً عن الاختلاف في الآراء، وإنما ينصب النهي على التنازع العملي المذهب للقوة، والتفرق في الدين، والتحزب الممزق وأمثال ذلك. وهذا يعبر عن عقلانية الإسلام ومنطقيته.

وعليه فيجب أن يوطن الفرد المسلم - عالماً أو متعلماً، مجتهداً كان أو مقلداً - نفسه على تحمل حالة المخالفة في الرأي وعدم اللجوء إلى أساليب التهويل والتسقيط وأمثالها. وحيث أن يكون الخلاف أخوياً وودياً (لا يفسد للود قضية).

ونشير هنا إلى ورود نصوص كثيرة تدعو المؤمن للصبر والمداراة وسعة الصدر، ويمكن عكسها على واقعنا الحالي. ونحن نذكر هنا هذا النص عن الإمام الصادق عليه السلام حيث جرى ذكر قوم فقال الراوي: إنا لنبرأ منهم، إنهم لا يقولون مانقول، فقال الإمام: «يتولّونا ولا يقولون ماتقولون، تبرأون منهم؟ قلت: نعم. قال: هو ذا عندنا ماليس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم - إلى أن قال -: فتولّوهم ولا تبرأوا منهم: إن من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان.... فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ماعليه صاحب السهمين...»^١.

وتعامل أئمة المذاهب فيما بينهم مثال رائع على هذه الحقيقة. وسيطول بنا الحديث لو تعرضنا لما يرويه التاريخ عن ذلك^٢.

كما أننا نجد هؤلاء الأئمة لا يسدون باب الاجتهاد على غيرهم، بل يحرمون إتباع رأيهم لو ثبت لدى أحد دليل على خلافه.

وسنكتفي بذكر الأقوال التالية:

عن الإمام مالك بن أنس: "إنما أنا بشر اصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة".

ويقول الإمام الشافعي: "إذا صح الحديث بخلاف قولي فاضرّبوا بقولي الخاطئ".

ويقول الإمام أبو حنيفة: "هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمن جاء برأي غير هذا قبلناه، حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي".

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: "من ضيق علم الرجال أن يقلدوا الرجال".

وهذا بالضبط ما أكد عليه العلماء الكبار بعد ذلك.^٣

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٠.

٢. يراجع بحث الشيخ واعظ زاده حول الموضوع في كتابه (دراسات وبحوث)، ج ١، ص ٥٤٥.

٣. وهناك الكثير من الأقوال نقلت في الكتب المتنوعة، منها كتاب (جلاء العينين) للآلوسي ص ١٩٩ و(تلبيس ابليس) لابن الجوزي ص ٨٠، ومن الكتب المتأخرة (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) ج ١ ص ١٧٠ و١٧٥.

الثالث: تجنب التكفير والتفسيق والإتهام بالابتداع

ونحن نعتبر مسألة التكفير من المصائب التي أبتلي بها تاريخنا، فرغم النصوص الشريفة التي تحدد المسلم من جهة وتمنع من التكفير للمسلم من جهة أخرى^١ لاحظنا سريان هذه الحالة التي حجرت على العقل أي إبداع أو مخالفة، حتى أننا شاهدنا من يؤلف كتاباً ويرى أن مخالفة حرف واحد فيه تؤدي إلى الكفر، وهذا أمر غريب.

ومن هنا فتحن ندعو إلى التحول بالمسألة من (الإيمان والكفر) إلى مرحلة (الصواب والخطأ) متحلين في ذلك بروح القرآن التي تدعو إلى الموضوعية حتى في النقاش مع الكفار الحقيقيين إذ يخاطب الرسول أن يقول لهم ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^٢.

الرابع: عدم المؤاخذة بلوازم الرأي

من المنطقي أن يحاسب الإنسان على رأيه، ويناقش بكل دقة وأناة. إلا أننا اعتدنا على مناقشات تبني على لوازم الآراء، وبالتالي يأتي التكفير والإتهام بالابتداع، في حين أن صاحب الرأي قد لا يقبل تلك الملازمة. وكمثال على ذلك نجد البعض ممن يؤمنون بمسألة التحسين والتقيح العقليين يصفون من لا يقبلون بها بأنه أمر يغلق باب الإيمان بصدق النبي استناداً إلى أن ما يدفع احتمال كذب النبي الآتي بالمعجزة هو حكم العقل بقبح إجراء المعجزة على يد الكاذب عقلاً. فإذا فرضنا عدم وجود أي تقيح عقلي فمعنى ذلك أننا أغلقنا باب الإيمان بالنبوة، وهكذا يقال بالنسبة لمسألة طاعة الله تعالى، فإن الملزم لنا بطاعته تعالى هو العقل لا غير.

وعلى هذا الغرار نجد البعض الآخر يتهم القائلين بالتوسل، أو الشفاعة، أو القسم بغير الله بالشرك لأنه لازم لهذا القول وهلم جرا.

إن المناقشة العلمية الهادئة أمرٌ مطلوب. ولسنا مع إغلاق باب البحث الكلامي مطلقاً، بل المنطق يقتضي فتحه، ولكننا ندعو للمناقشة المنطقية فلا ننسب للآخر ما لم يلتزم به، ومادام لا

١. يمكن مراجعة احاديث كتاب (الإيمان) في الصحاح، كصحيح البخاري، ج١، ص ١١ وما بعدها، وصحيح مسلم، ج١، ص ٣٩

وما بعدها، وسنن ابن ماجه، ج٢، ص ١٢٩٥، وكتب الحديث مثل (جامع الأصول) لابن الاثير الجزري، ج١، ص ٢٤٥ وما بعدها.

٢. سبأ: ٢٤.

يؤمن بالملازمة بين رأيه والرأي الآخر، فإننا نلتمس له العذر. وبهذا نستطيع أن نغلق باباً واسعاً من الإتهامات الممزقة.

الخامس: التعامل باحترام عند الحوار

ذلك أننا نعلم أن الحوار هو المنطق الإنساني السليم في نقل الفكر إلى الآخرين. وأن القرآن الكريم طرح نظرية رائعة للحوار المطلوب تناولت مقدمات الحوار وظروفه وأهدافه ولغته بشكل لا مثيل له، وكان مما تناوله: مسألة الاستماع للآراء وإتباع أحسنها، ومسألة عدم التجريح، حتى أن الآية الشريفة تقول: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ﴾^١ في مجال توجيه حوار الرسول مع غير المؤمنين بالإسلام وإبعاده عن مسألة إثارة حزازات الماضي والإتهامات المتبادلة فيه والتوجه لمنطقية الحوار نفسه، وهي تراعي حتى التعبير، فلم تقل ولا نسأل عما تجرمون، احتراماً للطرف الآخر، مع أن السياق اللفظي كان يتناسب معه. فكيف بنا ونحن نتحاور باعتبارنا مسلمين متفقين على المبادئ التي أشرنا إليها في أشارتنا لأسس عملية التقريب.

هذا وقد جاء في الحديث: «بحسب إمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^٢.

السادس: تجنب الإساءة لمقدسات الآخرين

والحقيقة هي أن هذا الأمر يتبع المبدأ السابق بل هو في الواقع أولى منه، لأنه يخلق جواً عاطفياً معاكساً، ويفقد الحوار توازنه المطلوب. وقد رأينا القرآن ينهي عن هذه الحالة فيقول تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^٣. بهذه الروح الإنسانية يوجه الله (تعالى) المؤمنين في تعاملهم بعد أن يوضح لهم وظائفهم الدعوية لا التحميلية وفرض الرأي على الآخرين حتى لو كانوا مشركين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾^٤.

١. سبأ: ٢٥.

٢. مسند أحمد، ج ٢، ص ٢٧٧ و ٣٦٠، صحيح مسلم، ج ٨، ص ١١، سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٤٠٩، سنن أبي داود، ج ٢، ص ٤٥٢.

٣. الانعام: ١٠٨.

٤. الانعام: ١٠٧.

والنصوص الإسلامية في النهي عن السب واللعن معروفة. فإذا كان هذا هو الحال مع المشركين، فكيف يكون الأمر، والحال أن المفروض هو الحوار بين مسلمين اخوين يعملان لهدف واحد، ويشعر كل منهما بالآلام الآخر وآماله، فإن الموقف لا يتحمل مطلقاً احتمال الإهانة، وخصوصاً للأمر التي يؤمن الآخر بقديسيته لارتباطها بمعتقداته الأصيلة.

السابع: الحرية في اختيار المذهب

ذلك أننا بعد أن إعتبرنا المذاهب نتيجة اجتهادات سمح بها الإسلام، علينا أن نعدها سبلاً مطروحة للايصال إلى مرضاة الله تعالى. وحين تختلف فإن من الطبيعي أن يدرس المسلم هذه المذاهب ويتخب الأفضل منها وفق معاييرها التي يؤمن بها، والتي يشخص من خلالها أنه أبرأ ذمته أمام الله وأدى أمانته وعهده. وحينئذ فليس لأحد أن يلومه على اختياره حتى ولو لم يرتح لهذا الاختيار. كما أنه لا معنى لإجبار أحد على اختيار مذهب ما، لأن ذلك مما يرتبط بالقناعات الإيمانية، وهي أمر لا يمكن الوصول إليه إلا بالدليل والبرهان.

وهنا أؤكد أن لكل مذهب الحق في توضيح آرائه ودعمها دونما تعد على الآخرين أو تهويل أو تجريح، فلا ندعو إلى إغلاق باب البحث المنطقي السليم في العقيدة أو الفقه أو التاريخ، وإنما نرفض محاولات الاستغلال السيء، والاستضعاف، والجدال العقيم، وفرض الرأي وأمثال ذلك. ونحن نعتقد أن ماجرى من تعد خلال تاريخنا الطويل ناشئ من عدم الالتزام بقواعد الحوار المطلوبة، ونسيان حقيقة أن جميع المذاهب تعمل لإعلاء كلمة الإسلام وفق تصورها عن هذه الكلمة.

شبهات في البين

وقد أثيرت في البين شبهات تارة بحسن نية وأخرى بنية سيئة من قبيل:

- ١- إن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية إنما هو في الأصول.
- ٢- إن الاختلاف بين المذاهب الإسلامية إنما هو في اختلاف المصادر.
- ٣- اتهام كل طرف الآخر بالابتداع.
- ٤- اتهام كل طرف الآخر بالشرك عبر تبين لوازم العقيدة.
- ٥- اتهام كل طرف الآخر بالنفاق والتأمر.
- ٦- تصور أن القبول بالحوار ينم عن شك في المذهب أو قبول ضمنى بآراء الآخرين.

٧- تصور أنّ التقريب يستهدف التدويب وحمل الناس على مذهب واحد وهو أمر باطل فالتقريب باطل.

٨- تصور أنّ التقريب يسهل الأمر للانتقال من مذهب لآخر وبالتالي تخريب المعادلة بين المذاهب.

٩- تصور أنّ التقريب غطاء للتسلل إلى المذهب الآخر وتبليغ التعاليم المنافية له والتشكيك فيه.

١٠- تصور أنّ التقريب حركة ذات مصلحة سياسية بعيدة عن جوهر الدين.

إلى ما هنالك تصورات واجهت شخصياً بعضها وقرأت عن البعض الآخر الكثير.

ولكنني أشهد الله تعالى على ما في قلبي وفكري حين أقول إنّني لم أر لهذه الشبهات أي واقع ولا

أرى أنّها تعدو مرحلة (الشبهة) وإن كنت لا أمانع أن تقوم جماعة بدراستها وكشف زيفها.

ولكنني أشير هنا إلى الحقائق التالية:

أولاً: إنّنا لاحظنا مسألة اهتمام القرآن بالحوار حتى مع المشركين وأهل الكتاب فكيف نتصور

منعه للتفاهم بين المسلمين.

ثانياً: إنّ هناك بحثاً قرآنياً وحديثياً واسعاً حول (المداراة) باعتبارها صفة رائعة للمسلم

يتعامل بها مع الآخرين ولا مجال للتفصيل هنا.

ثالثاً: إنّ الأئمة كانوا يعيشون معاً ويدرس بعضهم على بعض حتى ليتباهى بعضهم بفترة دراسته

هذه، كما لم يكونوا ليحتكروا العلم بالحقيقة، في حين نجد بعض اتباعهم يتعدون حتى عن التفاهم.

رابعاً: ولقد شهدنا حركة تقريبية في الأزهر الشريف في الخمسينات شارك فيها الأعلام

والعلماء ومنهم:

١- الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي.

٢- الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.

٣- الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم.

٤- الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت.

٥- العالم الكبير الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء.

٦- العالم الكبير السيد شرف الدين الموسوي.

٧- الإمام الكبير السيد البروجردي.

٨- الأستاذ الكبير السيد هبة الدين الشهرستاني.

٩- والعالم الشيخ محمد تقي القمي.

وهم علماء كبار سنّة وشيعة، قاموا بحمل لواء التقريب؛ فهل خفيت عليهم هذه الشبهات وبعضها يتصل بالأصول؟!

وقد استبشر المرحوم الشيخ محمد محمد المدني بخطوة رائعة اتخذها الأزهر بتدريس المذهب الشيعي الإمامي والزيدي في أكبر كلية من كلياته وأخرى اتخذتها إيران (آنذاك) بادخال فقه السنّة في كلية المعقول والمنقول^١.

خامساً: وقد شهدت حركة التقريب تقدماً واسعاً وقبولاً عاماً اليوم.

وأروع مثال على ذلك قيام أكبر مجمع فقهي هو مجمع الفقه الإسلامي بجدة بإيجاد شعبة متخصصة باسم (شعبة التقريب بين المذاهب الإسلامية) وحصول روح توافقية عامة حرة في اجتماعاته العامة، مما يكشف عن وحدة المنابع والرؤى وإنفتاح للعالم الإسلامي على بعضه البعض. وقد أسس في الجمهورية الإسلامية الإيرانية (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية) وهو يضم في مجلسه الأعلى علماء من المذاهب الإسلامية المتنوعة، وقد قام هذا المجمع بدوره بتأسيس (جامعة المذاهب الإسلامية).

هذا وقد اعتمدت (الأييسسكو) - المنظمة العالمية الإسلامية للتربية والعلوم - التقريب هدفاً وعقدت له مؤتمرات في شتى انحاء العالم.

كما قامت المراكز العلمية الدينية في البلدان الإسلامية كالمغرب ومصر والجزائر والأردن وسوريا ولبنان وإيران وباكستان والسودان وماليزيا وأندونيسيا وغيرها بعقد الندوات والمؤتمرات العالمية لتركيز هذه الحقيقة.

سادساً: إننا يجب أن نحدد ماذا نعني بالأصول حتى يتضح لنا ماذا نقصد من قولنا عدم وجود الاختلاف فيها؟ وإذا لخصنا البحوث المفصلة حول الحدود التي تفصل بين الإسلام واللاإسلام استناداً للآيات الكريمة والروايات الشريفة فإنها جميعاً تركز على الحدود التالية:

١- الإيمان بالتوحيد الإلهي إجمالاً.

٢- الإيمان بنبوة الرسول الأكرم ﷺ ولزوم طاعته في كل ما يصدر عنه.

٣- الإيمان بالقرآن الكريم والعمل بكل أوامره ونواهيه وقبول كل تصوراته وتعاليمه.

١. ملف التقريب، ص ٢٠٦.

٤- الإيمان بالمعاد إجمالاً.

٥- الإيمان بتشريع الإسلام لمجموعة من الأحكام التي تنظم السلوك الفردي والاجتماعي ولزوم تنفيذها.

ولا أجد أي خلاف على هذه الأصول مطلقاً، نعم هناك خلافات حول التفاصيل مثلاً:

١- في الصفات الإلهية وعلاقتها بالذات.

٢- في المسائل العقائدية الفرعية كالجبر والاختيار والقضاء والقدر، والشفاعة وغير ذلك.

٣- في إثبات بعض الروايات وردها سنداً أو دلالة ويترتب عليه اختلافات أخرى.

٤- في مسائل الخلافة والإمامة.

٥- في بعض الأحكام التشريعية.

وغير ذلك.

إلا أنهم متفقون جميعاً على أنه إذا ثبت شيء بالقرآن الكريم أو السنة الشريفة فإنه يجب الإذعان له دونما تردد.

وينبغي التنبيه على ما قلناه من أن البعض يحاول إلقاء الطرف المخالف للخروج من الحدود الإسلامية من خلال ذكر لوازم قوله مثلاً بهذا الرأي. وهذا الأسلوب مرفوض في هذا المجال مادام الطرف الآخر لا يعتقد بهذا اللزوم، إذ لو كان يعترف به كان عليه التراجع بعد أن نفترض إيمانه بالأصول المذكورة. فلا يمكن أن نخرج فرداً عن الإسلام لأن من لوازم قوله في نظرنا نفي الأصول الأولى وبهذا نحل مسألة الإتهام بالابتداع والشرك.

سابعاً: من الواضح أن مصادر التشريع لدى كل المسلمين هي الكتاب والسنة، ولا يتنافى هذا مع الاختلاف مثلاً في علاقة الكتاب بالسنة وهل لها أن تخصص العام الكتابي مثلاً أم لا.

ولا مع الاختلاف أحياناً في الطرق الموصلة إلى السنة.

ولا مع الاختلاف مثلاً في دلالة التقرير النبوي.

ولا مع الاختلاف في وجه صدور الأمر النبوي، وهل هو باعتباره حاكماً أو باعتباره رسولاً.

ثامناً: أما منطق الإتهام والتشكيك فنحن منهيون عنه.

تاسعاً: إن حركة التقريب كما هو واضح لا تستهدف التذويب مطلقاً، وهي تؤمن بأن

المذاهب كلها ثروة لهذه الأمة والحضارة، كما تؤمن بأن فكرة المذهب الواحد خيال محض.

إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

تمهيد:

أقدم المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية وفي إطار تحقيق أهدافه وتطلعاته على إعداد (مشروع جامع للخطة الاستراتيجية) وقدمه إلى المجلس الأعلى الدولي في اجتماعه بطهران في الفترة ١٨ و ١٩ شوال ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٣ و ٢٤/١٢/٢٠٢٢ م، فتمت مناقشته بالتفصيل وتعديله والموافقة عليه.

وللمشروع قسمان:

- أ- التعريفات الضرورية.
- ب- موجز عن كيفية تشكل المذاهب.
- ج- موجز عن أسباب اختلاف الفقهاء وغيرهم.
- د- لمحة تاريخية عن تعامل الأئمة فيما بينهم.
- هـ- لمحة تاريخية عن دور الحكام والمصالح الشخصية في تأجيج النزاع بين المسلمين وتحويل المذهبية إلى طائفية مقيتة.
- و- دور بعض الحكام وبعض العلماء في تحقيق التقارب.
- ز- التقريب في العصر الحديث ودور دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.
- ح- كيفية إنشاء المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
- ط- نقاط الضعف ونقاط القوة في حركة المجمع والتقريب.

ي- الآفاق والتوقعات حول مستقبل حركة التقريب.
وسيتيم إعداده لاحقاً.

وأما القسم الثاني فهو يركز على الإستراتيجية نفسها والمتمثلة في الفصول التالية:

الفصل الأول: المفاهيم التخصصية

١- التقريب

التقريب حسب وجهة نظر المجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية يعني:
التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية بغية تعرف بعضهم على البعض الآخر عن طريق
تحقيق التآلف والأخوة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة.

٢- الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية عبارة عن:

التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة
وإتخاذ موقف موحد من أجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد
تجاه أعدائها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

٣- المذاهب الإسلامية

المقصود من المذاهب الإسلامية هو تلك المدارس الفقهية الإسلامية المعروفة التي تتمتع
بنظام اجتهادي منسجم ومستند إلى الكتاب والسنة.

وإن المدارس الفقهية المعترف بها حسب وجهة نظر المجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب
الإسلامية هي عبارة عن:

المذهب الحنفي، والشافعي، والمالكي، والحنبلي، من أهل السنة؛ والمذهب الإثني عشري،
والزيدية، من الشيعة؛ والمذهب الإباضي.

(على أن هناك مدارس أخرى إما أنها لا أتباع لها، أو أنها تنضم لأحد المذاهب المذكورة، أو
أنها تعبر عن آراء فردية لا تتقيد في عملها بمذهب معين).

الفصل الثاني: أسس التقريب

تقوم مسيرة التقريب بين المذاهب الإسلامية على مبادئ عامة من أهمها ما يلي:

- ١- إن الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان للشريعة، والمذاهب الإسلامية كلها تشترك في هذين المصدرين، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مستمدة منها.
- ٢- يعد الإيمان بالأصول والأركان التالية ضابطاً للصبغة الإسلامية:
أ: الإيمان بوحداية الله تعالى (التوحيد).
ب: الإيمان بنبوة وخاتمية الرسول الأكرم محمد ﷺ وأن سنته تمثل أحد مصدري الدين الرئيسين.
ج: الإيمان بالقرآن الكريم ومفاهيمه وأحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام.
د: الإيمان بالمعاد.
- هـ: عدم إنكار ضرورات الدين والتسليم بأركان الإسلام كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد..
- ٣- شرعية الاجتهاد وحرية البحث: لقد اعترف الإسلام الحنيف بالاختلافات الفكرية عبر اعترافه بشرعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، ولذا على المسلمين أن يعتبروا الاختلاف في الاجتهادات أمراً طبيعياً ويحترموا الرأي الآخر.
- ٤- إن الوحدة الإسلامية هي خاصية قرآنية للأمة الإسلامية، وهي مبدأ يمتلك أهمية كبرى فيقدم في موارد التزاحم على غيره من الأحكام التي تقل عنه أهمية.
- ٥- إن مبدأ الأخوة الإسلامية يشكل أساساً عاماً لنوعية التعامل بين المسلمين.

الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته

تلخيص رسالة المجمع العالمي للتقريب في:

النهوض بمستوى التعارف والوعي، وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية، وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتهاءاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة.

تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

يعد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية من مختلف دول العالم ؛ أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة. وفي هذا السياق بنوي المجمع تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات القادمة:

- ١- السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم ﷺ من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.
- ٢- توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.
- ٣- تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.
- ٤- اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين أتباع المذاهب اليوم.

الفصل الرابع: مجالات التقارب

تشمل مجالات التقريب الإسلامي بين المذاهب جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة حيث يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

العقائد

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية.

الفقه وقواعده

وفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مردّه إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم.

الأخلاق والثقافة الإسلامية

ليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الإخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد

الفردى والاجتماعى. والرسول الأكرم ﷺ أسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

التاريخ

ولا ريب أن المسلمين يتفوقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول إلى موارد كثيرة للاتفاق. وعلى أي حال، فيجب أن لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للأمة.

المواقف السياسية للأمة الإسلامية

لا شك أن المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كأنهم بنيان مرصوص. علماً بأن سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في أي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

الفصل الخامس: المبادئ والقيم

يتمسك المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في منهجه الإصلاحى وتنفيذ برامجها إنطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم أدناه:

- ١- ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.
- ٢- ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.
- ٣- تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة: علينا كمسلمين القبول بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، وأن نقبل مستلزومات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الرأي الاجتهادى خطأً في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.
- كما لا ينبغي لأحد - من جانب آخر - أن يكفر الآخر بسبب لوازم حديثه أو رأيه التي تقود حسب رأينا إلى إنكار أصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.
- ٤- التعامل باحترام عند الاختلاف؛ فحينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الدينى في علاقاته مع باقي الأديان ويطلب من المسلمين أن لا يسيئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية

الباطلة للآخرين؛ فإن من الأولى أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم البعض الآخر فيما يختلفون فيه.

٥ - حرية اختيار المذهب؛ إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي إذا تمت الحجة لديه على ذلك، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات أن تفرض على أحد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً. والمجمع لا يشجع التبشير المنظم بمذهب إسلامي في أوساط مذهب آخر استغلالاً لحاجة بعض المسلمين أو أوضاعهم الاجتماعية أو السياسية.

٦ - حرية العمل بالأحكام الشخصية؛ فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمور الشخصية، فإن أتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام، حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.

٧ - استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَعِجُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء، وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.

٨ - لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم، والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

العلاقات بين الأئمة والعلماء في العصور السابقة

العلاقات بين الأئمة في العصور الإسلامية

عندما نستعرض إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية السابق ذكرها نجد أن هذا المجمع من بين تطلعاته يستهدف إلى ما يلي:

١- السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم ﷺ من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية، والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.

٢- اقتداء الأتباع بسلك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع البعض الآخر.

ومن هنا رغبتنا في استعراض بعض إنفاط التعامل المشار إليها.

وانطلاقاً من قوله ﷺ: «خير الناس قرني»^١. أولاً، وثانياً من التحذير القرآني من أخطار الابتعاد عن أجواء عصر الرسول التي تلتخص في (قسوة القلوب) التي أصابت بعض أهل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^٢.

ولقد كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يذكر قومه - وهم الأقرب إلى عصر الرسول - بالحالة الحماسية التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم ويقرنها بالحالة التي كان عليها أصحابه فيرى بونا شاسعاً فيقول:

"ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله؛ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا: ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجدداً في جهاد العدو... فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر، حتى استقر الإسلام مُلقياً جرانه ومتبوتاً أوطانه. ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود، ولا اخضر للإيمان عود"^٣، وهذا زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يتحدث عنهم فيقول: "اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، وأستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به... اللهم واصل إلى التابعين لهم باحسان الذين يقولون "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" خير جزائك"^٤،

١. رواه البخاري في صحيحه، ج ٣، ص ١٥١ و ج ٤، ص ١٨٩ و ج ٧، ص ١٧٤، ومسلم في صحيحه، ج ٧، ص ١٨٥ وأحمد في مسنده، ج ١، ص ٣٧٨ و ٤٣٤ و ٤٤٢ وغيرهم كالترمذي في سننه، ج ٣، ص ٣٣٩ و ٣٧٦ وجاء في بحار الانوار: «وأخرجني في خير قرن من أمتي» (ج ١٦ ص ٩٢).

٢. الحديد: ١٦.

٣. نهج البلاغة، ج ١، ص ١٠٤ - ١٠٥.

٤. الصحيفة السجادية، ص ٣٩ - ٤١.

إنطلاقاً من ذلك فإنه كان الأجدر بنا أن نبدأ في تبيين العلاقات في الصدر الإسلامي الأول ولكننا مراعاة للاختصار سوف نركز على عصر الإمام الصادق عليه السلام، فما بعده باعتباره عصر نشوء المذاهب الفقهية المعروفة لنلاحظ الحالة العقلانية التي أوجدها الإسلام والتي تجلت في الحوار البناء، والقبول بالتعددية الفكرية، واحترام الآراء، والاعتراف بفضل الأساتذة والسابقين، الأمر الذي أنتج تراثاً فكرياً حضارياً، فيه من الغنى الشيء الكثير.

نظرة الأئمة إلى بعضهم البعض

ونكتفي هنا بذكر بعض النماذج:

١_ ذكر ابن حجر في الصواعق المحرقة أن الإمام أحمد بن حنبل علق على الحديث القدسي الذي رواه الإمام الرضا عن آبائه بأسمائهم عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله (ولذا سمي بحديث سلسلة الذهب) فقال - أي الإمام أحمد - ما نصه: "لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته".^١

٢- روى الشيخ الصدوق: وهو من أعظم علماء الإمامية عن الإمام مالك بن أنس قوله: "كنت ادخل على الصادق جعفر بن محمد فيقدم لي مخدة ويقول: يا مالك، إني أحبك، فكنت أسر بذلك، وأحمد الله عليه، وكان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إما صائماً وإما قائماً وإما ذاكراً. وكان من عظماء العباد، وأكابر الزهاد الذين يخشون الله (عز وجل)، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد فإذا قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله "أخضر مرة، واصفر أخرى، حتى ينكره من يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام كان كلما همم بالتلبية إنقطع الصوت في حلقه، وكاد يخر من راحلته. فقلت: قل يا ابن رسول الله فلا بد من أن تقول فقال: يا ابن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول: لبيك اللهم لبيك وأخشى أن يقول عز وجل [لي]: لا لبيك ولا سعديك"^٢ وهو القائل: ما رأيت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من

١. الصواعق المحرقة، ص ٢٠٥.

٢. الخصال، ص ١٦٧، الأمالي للصدوق، ص ٢٣٤، وفي تهذيب التهذيب، ج ٢، ص ٨٩ «إما وصل وإما صائم، وإما يقرأ القرآن

جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً.

٣- وقال الإمام أبو حنيفة عن الإمام الصادق: ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد.

٤- وقال، يتحدث عن تتلمذه على يديه: (لولا الستتان هلك النعمان).^١ يقول الإمام السمهودي: "كان الإمام الأعظم أبو حنيفة رحمه الله من المتمسكين بولايتهم، والمتنسكين بودادهم، وكان يأمر أصحابه... بالاعتناء بأنوارهم".^٢

٥- وشعر الإمام الشافعي في أهل البيت معروف مشهور. وقد لامه البعض عليه وقد علق الإمام الرازي على ذلك بقوله: "وأما مدح علي وحبه والميل إليه فذلك لا يوجب القدح بل يوجب أعظم أنواع المدح".

٦- وروى عنوان البصري أنه (كان يختلف إلى الإمام الصادق يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة (أو انشغل) فنصح الإمام أن يختلف إلى مالك)^٣.

٧- يقول الأستاذ عبدالحليم الجندي "ولئن كان مجداً لمالك أن يكون أكبر أشياخ الشافعي، أو مجداً للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، أو مجداً للتلميذ أن يتلمذ لشيخها هذين، إن التلمذة للإمام الصادق قد سربت فقه المذاهب الأربعة لأهل السنة... لقد يجيء للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة الذي لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة في إبان مناظرته: يا فتى، تتكلم في مسألة من مسائل العلم وتضحك؟!؛ والذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه اقبل من دفن والديه! فإذا أنتهى الكلام قال عمرو للإمام: "هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم".^٥

وما رأيت يحدّث إلا على طهارة» وهناك مصادر أخرى لهذا الخبر... راجع: التمهيد لابن عبد البر، ج ٢، ص ٦٧، سبل الهدى

والرشاد، ج ١١، ص ٤٤٠. وقد ذكر صاحب (روضات الجنات) إن هذا الخبر رواه العام والخاص (ج ٧ ص ٢١٤).

١. الإمام جعفر الصادق للجندي، ص ١٦٢ و ٢٥٢.

٢. نظم درر السمطين، ص ١٤٤ - ١٤٥، الصواعق المحرقة ص ١٨٠.

٣. الإمام جعفر الصادق للجندي، ص ١٦١.

٤. الرّد على أبي بكر الخطيب البغدادي، ص ٥٠.

٥. بحار الانوار، ج ٤٧، ص ١٩.

ويجيء إمام خراسان عبدالله بن المبارك، وهو إمام فقه، وبطل معارك تلمذ للإمام زماناً ولأبي حنيفة، فتعلم ما جعله يخفي بطولاته في الفتوح.. وفي الإمام جعفر شعره الذي ورد فيه:

أنت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء

إنما الأشراف أرض ولهم أنت سماء

جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء^١

٨- يقول ابن أبي حازم: "كنت عند جعفر الصادق يوماً وإذا بسفيان الثوري بالباب فقال: ائذن لي، فدخل، فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان في بعض الأحيان، ونحضر عنده، وأنا أتقي السلطان. فأخرج غير مطرود. قال سفيان: حدثني حديثاً أسمعته وأقوم. قال الإمام: حدثني أبي، عن جدي عن أبيه عن رسول الله ﷺ: "من أنعم الله عليه فليحمد الله، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله"^٢.

٩- وقد اشتهر عن أئمة المذاهب القول بحرية الاجتهاد، وعدم تقليد المجتهدين لغيرهم من المجتهدين مثلهم:

فهذا الإمام الشافعي يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"^٣.

ويقول الإمام أبو حنيفة: "هذا رأي النعمان بن ثابت - يعني نفسه - وهو أحسن ما رأيت، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب"^٤.

وهذا الإمام مالك يقول: "إنما أنا بشر أخطئ واصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"^٥.

١. الإمام جعفر الصادق للجندي، ص ١٦٣ - ١٦٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٠١، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج ٦، ص ١١٧.

٣. المجموع، ج ١، ص ٩٢ و ج ٦، ص ٣٧٠، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٣٥، مغني المحتاج، ج ١، ص ١٤.

٤. توالي التأسيس، ص ١٠٩.

٥. العهود المحمدية، ص ٦٣٤.

٦. جامع بيان العلم وفضله، ج ٢، ص ٣٢، الأحكام لابن حزم، ج ٦، ص ٧٩٠ و ٨٦٠.

ويقول الإمام أحمد بن حنبل:

" رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء، وإنها الحجة في الآثار "١.
ويقول الإمام الصادق عليه السلام وهو أستاذ الأئمة: " كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة "٢.

وصايا إلى الاتباع

وإزاء هذا التعامل الجميل بين الأئمة نلاحظ الوصايا التي تترى منهم لأتباعهم، كي يتعاملوا بنفس الروح التسامحية، ويتجاوزوا الخلافات الفرعية في العقيدة والتقييم التاريخي والفقهية إلى الموقف المبدي والتحاب ووحدة الموقف، والتعالي إلى المستويات المصلحية العليا. فلنلاحظ بعض النصوص كما يلي:

١- ذكر التاريخ أن عبدالله بن أحمد بن حنبل روى: أن قوماً من الكرخيين ذكروا خلافة الخلفاء الراشدين (وربما تنازعوا فيما بينهم) فقال: الإمام أحمد ناهياً إياهم عن هذه النزاعات الجانية العقيمة:

" يا هؤلاء أكثرتم القول في علي والخلافة، والخلافة وعلي؛ إن الخلافة لم تزين علياً، بل علي زينها "٣.

٢- وقد طرد الشيخ الحسين بن روح - أحد النواب الأربعة للإمام الثاني عشر المهدي عليه السلام - خادماً له لأنه سمعه يهين معاوية٤.

٣- وأوصى الإمام الصادق أصحابه فقال لهم: " صلوا عشائركم، وأشهدوا جنازتهم، وعودوا مرضاهم، وادوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس وقيل هذا جعفري، يسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر "٥.

٤- روى ابن أبي يعفور قال: سمعت الصادق يقول: "كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا

١. جامع بيان العلم وفضله، ج ٢، ص ١٤٩.

٢. وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١١١.

٣. تاريخ بغداد، ج ١، ص ١٤٥، تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٤٤٦.

٤. بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٣٥٧.

٥. الكافي، ج ٢، ص ٦٣٦، الوسائل، ج ١٢، ص ٦.

- منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير" ^١.
- ٥- تذكر لنا الروايات أنه جرى ذكر قوم عند الإمام الصادق فقال بعض شيعته: إننا لنبرأ منهم، أنهم لا يقولون ما نقول، فقال الإمام: "يتولونا ولا يقولون ما تقولون، تبرأون منهم؟" فاجاب الراوي: نعم، قال: "هو ذا عندنا ما ليس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم" ^٢.
- ٦- وعن الصادق عليه السلام: "من خلع جماعة المسلمين قدر شبر خلع ربة الإيمان من عنقه" ^٣.
- ٧- وعن الصادق عليه السلام في وصيته لشيعته: «فعلَيْكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز، وعودوا المرضى واحضروا مع قومكم مساجدهم للصلاة. أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره!» ^٤.
- ٨- وعن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: (أو يلبسكم شيعاً)، قال: "وهو اختلاف في الدين وطعن بعضكم على بعض" ^٥.
- ٩- وقال الصادق عليه السلام: "عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنّه لا بد لكم من الناس، إن أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بد لبعضهم من بعض" ^٦.
- ١٠- معاوية بن وهب، قال: قلت له (أي الصادق) كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطانا من الناس ممن ليسوا على أمرنا؟ فقال: "تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم ويشهدون جنائزهم، وقيّمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الأمانة إليهم" ^٧.
- ١١- وقال الصادق عليه السلام: "رحم الله عبداً اجتّر مودة الناس إلى نفسه فحدثهم بما يعرفون،

١. الكافي، ج ٢، ص ٧٨.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٨٥، ص ١٣.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٦٣٥، وج ٨، ص ١٤٦.

٥. تفسير القمي، ج ١، ص ٢٠٤، بحار الأنوار، ج ٩، ص ٢٠٥، وج ٥٢، ص ٨٢، تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٤٩ والآية من سورة الانعام: ٦٥.

٦. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٧.

٧. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٦.

وترك ما ينكرون"١.

١٢- وقال زين العابدين عليه السلام: "العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يجب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم"٢.

١٣- ومما يروى عن وقائع صفين: أن حجر بن عدي وعمرو بن الحمق خرجا يظهران البراءة واللعن من أهل الشام. فأرسل إليهما علي عليه السلام أن كفا عما يبلغني عنكما فأتياه فقالا، يا أمير المؤمنين: ألسنا محقين؟ قال: بلى، قالوا: أو ليسوا مبطلين؟ قال: بلى. قال: فلم منعنا من شتمهم؟ قال: «كرهت لكم أن تكونوا لعانين شتامين، تشتمون وتبترأون، ولكن لو وصفتهم مساوئ أعمالهم فقلتكم من سيرتهم كذا وكذا ومن عملهم كذا وكذا كان أصوب في القول وأبلغ في العذر ولو قلتكم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم: اللهم إحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهلة، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به، كان هذا أحب إلي وخيراً لكم»٣.

وهكذا نجد الأئمة يؤكدون على العلاقات الحسنة، والتعامل الإيجابي، وعدم الغرق في نزاعات غير عملية، وعدم الإساءة والإهانة، والدخول في قلب العمل الاجتماعي، وعدم الاعتزال نتيجة الإيمان برأي يخالف الأكثرية من الناس، والسعي للتأدب بأدب الأئمة، وعدم الغرور العلمي، وعدم جعل الاختلاف في الرأي سبيلاً للتدابير، والدخول في جماعة المسلمين، واجتناب العصبية واجترار حب الناس وأمثال ذلك.

بين العلماء من اتباع المذاهب

ورغم احتدام الخلاف الفكري بين العلماء من اتباع المذاهب فإننا نلاحظ في كثير من الأحيان علاقات صفاء ومحبة وتمازج عجيب إلى حد كبير، يدرس بعضهم على بعض، ويدرس البعض

١. وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٢٠.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٣٠٨-٣٠٩.

٣. وقعة صفين، ص ١٠٣.

فقه المذاهب الأخرى، وينقل مناهجهم إلى مذهبه ويطلب بعضهم الإجازة من البعض الآخر. وهناك مجموعة رائعة من كتب الفقه المقارن، ونقل رائع لآراء الآخرين.

ولقد جاء كتاب الخلاف لشيخ الطائفة الطوسي "المتوفى سنة ٤٦٠هـ" أروع مثال على ذلك وقد نقل بكل أمانة آراء المذاهب الأخرى وبالتفصيل ومنها آراء المذهب الشافعي إلى الحد الذي ظن السبكي معه أنه من علماء المذهب الشافعي وذكره في طبقاتهم رغم اعترافه بأنه فقيه الشيعة ومصنفهم ولكنه يقول عنه: (كان ينتمي إلى مذهب الشافعي)^١.

وهذه ظاهرة غريبة نلمحها في بعض العلماء فتعبر لنا عن امتزاج عجيب بين المذاهب، وقد عبروا عن ابن الفوطي (توفي ٧٢٣) وهو صاحب (معجم الألقاب) وكان قياً على أعظم مكتبة في عصره - عبروا عنه بأنه كان شيعياً حنبلياً كما ذكر الشيخ وهبة الزحيلي^٢ بأن الطوفي المعروف بدفاعه الشديد عن أصل (المصالح المرسله) هو من غلاة الشيعة متبعاً في ذلك ابن رجب الذي عده من علمائهم. في حين أن الطوفي كان من علماء الحنابلة في القرن الثامن.^٣ ودفاعه عن هذا (الأصل) الذي يرفضه الشيعة، وعدم ذكره في فهارس علماء الشيعة يؤيدان كونه حنبلياً.

وهذا محمد بن أبي بكر السكاكيني العالم الشيعي المعروف كان كل مشايخه من أهل السنة. وقد خرج له ابن الفخر علاء الدين ابن تيمية (المتوفى سنة ٧٠١) ما رواه عن شيوخه وناظره وشهد له بالتفوق وقال عنه: (هو من يتشيع به السني ويتسنن به الرافضي) وقد نسخ صحيح البخاري بيده، وهو صاحب القصيدة المعروفة ومطلعها:

أيا معشر الإسلام ذمي دينكم تخير دلوه بأوضح حجة

وهو صاحب (الطرائف في معرفة الطوائف).

ولو رجعنا إلى كتب طبقات الحنابلة لرأينا التقارب العجيب فهذا المحيي كبير السنة في دمشق يمدح البهاء العاملي عالم الشيعة المعروف فيقول عنه (كما في خلاصة الأثر): وهو أحق من كل

١. طبقات الشافعية الكبرى، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٧.

٢. في بحثه المقدم إلى ندوة الفقه الإسلامي بمسقط (شعبان ١٤٠٨هـ).

٣. الذيل على طبقات الحنابلة، ج ٢، ص ٣٦٨.

حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه، وإتحاف العالم بفضائله وبدائعها، وكان أمة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم والتضلع بدقائق الفنون، وما أظن الزمان سمح بمثله ولا جاد بنده وبالجملة فلم تشنف الأسع بأعجب من أخباره.

وقد ذكر الخطيب البغدادي أن سيرة سلف السنّة هو الأخذ بروايات الثقات من الشيعة.^١

ومن المعروف أن الشيخ الطوسي كان له مشايخ من أهل السنّة ومنهم:

أبو الحسن بن سوار المغربي، ومحمد بن سنان، وأبو محمد الفحام، وأبو القاسم ابن الوكيل، والقاضي أبو علي المحسن بن أبي القاسم التنوخي^٢، وعدّه صاحب (الرياض) من الشيعة^٣.
والحديث في هذا الباب يطول.

وقد ذكر آية الله السبحاني^٤ نماذج جيدة في هذا المجال من قبيل: أن الشيخ الكليني، وهو أحد كبار المحدثين الشيعة قد تتلمذ على يد أستاذين سنين هما: أبو الحسن السمرقندي والخفاف النيسابوري، ومنها أن الشيخ الصدوق أقام لعدة سنوات في بلخ وبخارى ونقل الحديث عن ٢٦٠ شيخاً منهم بعض أهل السنّة، كما أن بعض مشايخ الخطيب البغدادي كمحمد ابن طلحة النعالي وغيره نقلوا الحديث عنه، وأن علماء كل الطوائف كانوا يحضرون مجلس الشيخ المفيد (م: ١٣ هـ)، ومنها أن السيد المرتضى كان مفرغ علماء العراق - كما يقول ابن بسام الأندلسي في أواخر كتاب (الذخيرة)، ومنها أن شيخ الطائفة الطوسي (م: ٤٦٠ هـ) نقل الرواية عن أبي علي بن شاذان وأبي منصور السكّري، ومنها أن الشيخ ابن إدريس الحلي كان يتعاون مع أحد فقهاء الشافعية علمياً، وأن الشيخ الرافعي القزويني السني تتلمذ على الشيخ منتجب الدين الرازي الشيعي ومدحه، ومنها أن الفيروز آبادي صاحب (القاموس المحيط) يصف الشيخ فخر المحققين ابن العلامة الحلي بأنه "بحر العلوم وطود العلى فخر الدين محمد بن الشيخ الإمام الأعظم برهان علماء الأمم"، وأن كتاب (تجريد الاعتقاد) للشيخ نصير الدين الطوسي الشيعي شرحه ثلاثة من

١. الكفاية في علم الرواية، ص ١٢٥.

٢. راجع بهجة الآمال، ج ٦، ص ٣٦٩.

٣. رياض العلماء، ج ٥، ص ٤٨٠.

٤. راجع مقال سماحة الشيخ السبحاني في مجلة (نصوص معاصرة) تحت عنوان (الانسجام الإسلامي) العدد العاشر، ص ٩١.

علماء أهل السنة وهم: شمس الدين البيهقي وشمس الدين الاصفهاني وعلاء الدين القوشجي، ويقوم المحقق الأردبيلي بتدريس كتاب "مختصر في الأصول" لابن الحاجب لتلميذه صاحب المدارك وصاحب المعالم، وقد شرح العلامة الحلبي هذا الكتاب بشكل جميل حتى وصفه ابن حجر بأنه "في غاية الحسن في حل الفاظه وتقريب معانيه"^١.

ويمكننا أن نضيف هنا بالمناسبة أن المحقق الحلبي وهو خال العلامة الحلبي وأستاذه ألف كتاب (المعتبر في شرح المختصر) ويشكل موسوعة موجزة للفقهاء المقارن^٢، ولم يستطع إتمامه. ومن الجميل فيه أنه أحياناً يسترسل مع الفقه السنّي ويستعمل نفس أسلوبه ومنهجه من قبيل:

١ - ماجاء في مسألة عدم تنجس الكر وتقدير الكر من قوله: لنا ما رواه الجمهور عن النبي ﷺ^٣.

٢ - ما جاء في مسألة تنجس ماء البئر بملاقات النجاسة من قوله: "ويدل عليه النقل المستفيض عن الصحابة بإيجاب النزح. روى الجمهور عن علي عليه السلام^٤ "في الفأرة تقع في البئر تنزح منها دلاء" وينقل ما يؤيده عن الخلال وعن الحسن البصري وأبي سعيد الخدري وابن عباس ويقول: "ولم ينكر ذلك أحد من أهل ذلك العصر"^٥.

٣ - ماجاء في طهارة الميتة مما لا نفس له سائلة من قوله: "وقال الشافعي: نجس بالموت وينجس ما يموت فيه عدا السمك. لنا ما رواه الجمهور... لا يقال: طعن الترمذي في هذا الحديث... لأننا نقول: صححه جماعة ورووه عن المشاهير فزال بهم الطعن..."^٦.

٤ - وفي مسألة تعدد الغسل في الوضوء، من قوله: "لنا ما رواه البخاري عن ابن عباس... وأما استحباب الثانية فلما رواه الترمذي عن أبي هريرة..."^٧.

الشهيدان الأول والثاني نموذجان رائعان للإنتفاع على المذاهب الأخرى:

١. حكي عنه في كشف الحجب والأستار، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

٢. كما يعبر آية الله مكارم شيرازي في مقدمته على الكتاب، ج ١، ص ٤.

٣. المعتبر، ج ١، ص ٤٣.

٤. ن.م. ص ٥٥.

٥. ن.م. ص ١٠١.

٦. ن.م. ص ١٥٨.

ويعتبر الشهيد الأول وهو محمد بن جمال الدين مكّي العاملي الجزيني، من علماء القرن الثامن، والشهيد الثاني وهو زين الدين بن علي العاملي الجبعي من علماء القرن العاشر، يعتبران مثلين رائعين من أمثلة الإنفتاح والتمازج الفكري بين العلماء رغم أنها كانا نموذجين بارزين من أمثلة ما يؤدي إليه التطرف المذهبي من نتائج فجيعة.

فهذا الشهيد الأول يعيش مع علماء عصره، وكان مجلسه لا "يخلو غالباً من علماء الجمهور لخلطته بهم وصحبته لهم"^١، وقد قال في بعض إجازاته: (إنه يروي عن نحو أربعين شيخاً منهم)^٢ وهي إجازته لابن الخازن حيث جاء فيها (فإنني أروي عن نحو أربعين شيخاً من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم عليه السلام)^٣. وكان عليه السلام كما يقول المرحوم صاحب الرياض: "يشتغل بتدريس كتب المخالفين ويقرئهم"^٤. وهذا الشهيد الثاني كان يذكر الصحابة بكل احترام فهو يقول: "ورجعت إلى وطني الأول بعد قضاء الواجب من الحج والعمرة والتمتع بزيارة النبي وآله وأصحابه صلوات الله عليهم..."^٥، وقد استمع إلى جملة من علماء السنّة؛ ففي سفره إلى مصر اجتمع مع "الشيخ الفاضل شمس الدين بن طولون الدمشقي وقرأ عليه جملة من الصحيحين في الصالحية بالمدرسة السلّمية وأجيز منه بروايتهما... ثم سافر إلى بيت المقدس في ذي الحجة (٩٤٨هـ) واجتمع بالشيخ شمس الدين بن أبي اللطيف المقدسي وقرأ عليه بعض صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وأجازته إجازة عامة ثم رجع إلى وطنه واشتغل بمطالعة العلوم ومذاكرته مستفرغاً وسعه. وفي سنة ٩٥٢هـ سافر إلى الروم ودخل القسطنطينية في ١٧ ربيع الأول ولم يجتمع مع أحد من الأعيان إلى ثمانية عشر يوماً وكتب في خلالها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم وأوصلها إلى قاضي العسكر محمد بن محمد بن قاضي زاده الرومي فوقعته منه موقعاً حسناً، وكان رجلاً

١. أعيان الشيعة، ج ١٠، ص ٦٢.

٢. ن.م، وذكر ذلك في أمل الأمل، ج ١، ص ٨٥ و٨٩.

٣. سفينة البحار، ج ١، ص ٧٢١.

٤. رياض العلماء، ج ٥، ص ١٨٩.

٥. أعيان الشيعة، ج ٧، ص ١٤٩.

فاضلاً واتفق بينهما مباحثات في مسائل كثيرة... واجتمع فيها بالسيد عبدالرحيم العباسي صاحب معاهد التنصيص وأخذ منه شطراً... وأقام ببعليك يدرس في المذاهب الخمسة وأشتهر أمره وصار مرجع الأنام ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها...^١ ورحل إلى مصر وقرأ بها على ستة عشر رجلاً من أكابر علمائهم وقد ذكرهم مفصلاً، ويبدو أنه استجازهم وروى كتبهم. ويقول صاحب رياض العلماء: "ويظهر منه ومن إجازة الشيخ حسن وإجازات والده أنه قرأ على جماعة كثيرين جداً من علماء العامة، وقرأ عندهم كثيراً من كتبهم في الفقه والحديث والأصولين وغير ذلك، وروى جميع كتبهم وكذلك فعل الشهيد الأول والعلامة".^٢

وذكر هو بعض هؤلاء:

من قبيل الشيخ زين الدين الجرمي المالكي؛

والشيخ ناصر الدين اللقاني؛

والشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي؛

والشيخ شمس الدين محمد بن أبي النحاس؛

وقال ابن العودي تلميذه: (كثيراً ما كان ينعت هذا الشيخ - يعني ابن أبي النحاس - بالصلاح

وحسن الأخلاق والتواضع).^٣

والحديث مفصل في هذا المجال.

وكأن هذا المسلك لم يرق لبعض علماء الإمامية وخصوصاً للاخباريين منهم، فأبدوا عدم

رضاهم به^٤ وقد اتهمه البعض بالميل إلى التسنن.^٥

وربما جاء الاتهام لأنه ; قام بعمل فريد إذ اعتمد منهج أهل السنّة في علم الدراية وطبقه في

١. الكنى واللقاب، ج ٢، ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

٢. رياض العلماء ج ٢، ص ٣٧٤.

٣. أعيان الشيعة، ج ٧، ص ١٤٩.

٤. راجع مثلاً: أمل الأمل، ج ١، ص ٨٩، ورياض العلماء، ج ٢ ص ٣٧٤، ومعجم رجال الحديث، ج ٨، ص ٣٩١.

٥. كما ذكر ذلك المحدث الجزائري في كتابه (الجواهر الغوالي في شرح عوالي اللآلي) نقلاً عن بعض أولاد الشهيد

الثاني، «راجع مقال المحقق لكتاب (منية المرید)، ص ٤٧>.

المجال الشيعي؛ يقول صاحب الرياض: "ثم أعلم أنّ الشيخ زين الدين هذا هو أول من نقل علم الدراية من كتب العامة وطريقتهم إلى كتب الخاصة، وألف فيه الرسالة المشهورة ثم شرحها كما صرح به جماعة ممن تأخر عنه، ويلوح من تتبع كتب الأصحاب أيضاً، ثم الف بعده تلميذه الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي وبعده ولده الشيخ البهائي وهكذا...^١

وهنا يقول العلامة الأمين: "والعلامة (ويقصد به الحلي) والشهيدان أجل قدرًا من أن يقلدوا أحداً في مثل هذه المسائل أو يقودهم قراء كتب غيرهم إلى اتباع ما فيها بدون برهان وهم رؤساء المذهب ومؤسسو قواعده وبهم اقتدى فيه أهله ومنهم أخذوه، وإنما أخذوا اصطلاحات العامة ووضعوها لأحاديثهم غيرة على المذهب لما لم يروا مانعاً من ذلك، وكذلك فعلوا في أصول الفقه وفي الإجماع وغيره كما بين في محله وكذلك في فن الدراية وغيره، وكيف يكون عدم رضا الشيخ حسن بما فعلوا لهذه العلة وهو قد تبعهم وزاد عليهم.^٢

وهكذا نجد التعامل الإيجابي البناء بين القادة:

- احترام يصل إلى حد التكريم الرفيع، بحيث يعتبر أحدهم قراءة إسناد فيه أسماء الأئمة على مجنون كافياً لبرئته من جنته.

- وعبارات المودة والمحبة سائدة رغم النقد العلمي أحياناً،

- وانبهار واحترام يفوق الوصف،

- وعلماء الفريقين يشرح بعضهم كتاب الآخر،

- وإرجاع من إمام إلى إمام،

- وتدريس البعض وإفتاءه الناس بالمذهب الآخر،

- واعتراف بالفضل والعلم بأروع التعابير،

- وإلحاح على التعلم رغم الوضع السياسي الحرج،

- واستجازة البعض من البعض الآخر ورواية كتبه،

- وأخيراً عدم الإصرار على الرأي، ورد للمنقول عنهم إذا لم يوافق الكتاب والسنة.

١. رياض العلماء، ج ٢، ص ٣٦٨.

٢. أعيان الشيعة، ج ٧، ص ١٥٣.

- وامتزاج إلى حد عدم تبين المذهب لدى البعض،
- وحرية في الاجتهاد وقبول بالتعددية وإنفتاح على الآخر،
- ونقل المنهج العلمي لدى الآخر إلى علوم المذهب،
فهل يا ترى تقتضي العقلانية غير ذلك؟ وهل إحتفظ أتباع الأئمة بمثل هذه الروح بعد ذلك؟!

من مظاهر الحالة الطائفية اللاعقلانية

نعم لم تستمر تلك الحالة النيرة كثيراً، فسرعان ما ساد التعصب والإنغلاق، وتقليد المجتهدين لغيرهم "حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرته لمذهبه ولقوله"^١.
ونقل الفخر الرازي عن أكبر شيوخه أنه قال: "قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون الي كالمتعجب - يعني كيف يمكن العمل بطواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها- ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا"^٢.
وقد ذكر الشيخ أسد حيدر أفولاً أخرى من هذا القبيل^٣. وربما كان إغلاق الاجتهاد وحصر المذاهب نتيجة وعاملاً على المزيد من ذلك.
ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، وإنما إنتقل إلى مرحلة نقل الصراع من مرحلة (الخطأ والصواب) إلى مستوى (الكفر والإيمان)، الأمر الذي نقل الخلاف إلى الجماهير العريضة، وتسبب في كوارث يشيب لها الوليد.
واشتد الهجوم على العلوم العقلية والمتعاطين بها سواء بين الشيعة^٤ أو السنة^٥.

١. نقل عن مختصر المؤمل لشهاب الدين أبي شامة، في كتاب «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» ج ٢، ص ١٤٥.
٢. التفسير الكبير، ج ١٦، ص ٣٧ في تفسير الآية ٣١، من سورة التوبة.
٣. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ٣، ص ١٦٩ وما بعدها.
٤. راجع كتاب (المعالم الجديدة للأصول) ص ٣٤ - ٣٥ و ٧٧ - ٧٨ و ١٤٨ - ١٤٩.
٥. راجع مقال الأستاذ الطويل في كتاب قضية الفلسفة، ص ٢١١.

وراحت التهم تطال المذاهب والآراء فتصفها بالهالكة، وأنها مجوس الأمة وأمثال ذلك، وزاد الخلاف على الفرعيات والانشغال بها وهكذا^١.

وزاد تدخل الحكام (وكانت البلاد قد تحولت إلى إقطاعيات كبيرة) الطين بلة (ومع كل جائحة من عداوة وغضب، أسرفت تهم النبذ والتحريم والتكفير والرمي بالباطل ضد الآخر مقدمة للقتل وإحراق الممتلكات وإتلاف كتب أصحاب المذاهب ومؤلفات فقهاءها ونشر الرعب والكراهية).

وفي تاريخ الجائحات تكررت همجية البطش مع كل سلطة جديدة مرة ضد الشيعة، ومرة ضد السنة....^٢.

وراح الفرد يحاسب على مذهبه؛ فعندما بنى السلاجقة المدرسة النظامية في قبال بناء الأزهر من قبل الفاطميين اشترطوا أن يكون المدرسون والتلامذة شافعيين، ولذا منعوا الفصحي الأسترآبادي وهو تلميذ عبد القاهر الجرجاني من التدريس رغم علمه الجم بالعربية^٣ وأصدر شهاب الإسلام عبد الرزاق رئيس المدرسة النظامية بنيسابور أمراً بقتل الفتال النيسابوري صاحب (روضة الواعظين).

وعند استعراض عوامل جرأة التتار على مهاجمة المسلمين نجد أن النزاع بين الدولة الخوارزمية والدولة العباسية يشكل عاملاً مهماً بالإضافة لدور الصراع المذهبي الرهيب؛ يقول المؤرخ ابن أبي الحديد: "فإنهم أي التتار نزلوا عليها (أي على أصفهان) مراراً في سنة سبع وعشرين وستائة وحاربهم أهلها وقتل من الفريقين مقتلة ولم يبلغوا منها غرضاً. حتى اختلف أهل إصفهان في سنة ثلاث وثلاثين وستائة وهم طائفتان حنفية وشافعية وبينهم حروب متصلة وعصبية ظاهرة.

فخرج قوم من أصحاب الشافعي إلى من يجاورهم ويتاخمهم من ممالك التتار فقالوا لهم: اقصدوا هذا البلد حتى نسلّمه إليكم.. فنزلوا على أصفهان في سنة ثلاث وثلاثين (وستائة)

١. راجع كتاب (قصة الطوائف) للدكتور الأنصاري، ص ١٨٥.

٢. ن.م. ص ٢٦٩.

٣. معجم الأدباء للحموي، ج ١٥، ص ٦٧.

المذكورة وحصرها.

فاختلف سيفا الشافعية والحنفية في المدينة حتى قتل كثير منهم وفتحت المدينة؛ فتحها الشافعية على عهد بينهم وبين التتار أن يقتلوا الحنفية ويعفوا عن الشافعية، فلما دخلوا البلد بدأوا بالشافعية فقتلوهم قتلاً ذريعاً، ولم يقفوا مع العهد الذي عهدوه لهم ثم قتلوا الحنفية، ثم قتلوا سائر الناس وسبوا النساء وشقوا بطون الحبالى ونهبوا الأموال وصادروا الأغنياء ثم أضرمو النار فاحرقوا أصبهان حتى صارت تلوأاً من الرماد^١ وهكذا دامت هذه النزاعات حتى أدت إلى سقوط بغداد بعد زمن قصير.

وهذه النزاعات تقودنا إلى تذكر نزاعات طائفية أخرى أدت إلى تدخل الصليبيين الذين صنعوا العجائب والفواجع في العالم الإسلامي.

يقول أحد المؤرخين الغربيين لهذه الحروب: "على أن الضعف لم يلحق سوريا فحسب بسبب ما حدث من انفصالها عن جسم الأباطورية السلجوقية، بل أيضاً بسبب ما انتابها من انقسامات في الداخل، وما تعرضت له من هجمات الخليفة الفاطمي بمصر من الخارج. ففي سنة ١٠٩٥، تولى الأخوان، رضوان ودقاق، حكم حلب ودمشق على الترتيب، غير أن الحرب لم تلبث أن شبت بينهما، واشترك ياغي سيان أمير إنطاكية فيما وقع بينهما من المنازعات، ولم يتوقف رضوان وياغي سيان عن مهاجمة دقاق، إلا حين بلغت الأبناء باقتراب الصليبيين، فأسرع ياغي سيان إلى إنطاكية، في خريف سنة ١٠٩٧.

وفي تلك الأثناء لم يتوان الفاطميون في الإفادة من هذه المنازعات. إذ أن انشقاقاً دينياً كبيراً، كان يفصل الخليفة الفاطمي في القاهرة، وزعيم المذهب الشيعي، عن الخليفة العباسي ببغداد، وزعيم المذهب السني. وهذا الاختلاف يجوز مقارنته، بما كان بين الكنيستين اليونانية واللاتينية من نزاع. بل إنه يفوقه بما غلب عليه من طابع الاختلاف السياسي. وكيفما كان الأمر، فإن هذا الاختلاف أدى إلى عرقلة حركة المسلمين مثلما أدى ما بين الكسيوس واللاتين من الحسد والحقد، إلى عرقلة حركة الحرب الصليبية. وأدرك الأمراء الصليبيون تمام الإدراك، الفجوة التي

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٨، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

تفصل بين خليفة القاهرة عن الأمراء السنّيين في سوريا، وسعوا عن طريق مبعوثهم إلى أن يتصلوا بخليفة القاهرة، أملاً في أن يظفروا، بفضل مساعدته، ببيت المقدس، التي حكمها وقتذاك نيابة عن الترك سقمان ابن الأمير أرتق^١. غير أن الخليفة (الفاطمي) رأى أن ينفرد بالعمل لنفسه، وأستغل ما وقع بين أمراء سوريا من حروب، وما أثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب، فاستولى على بيت المقدس (أغسطس سنة ١٠٩٨) على الرغم من أن زعماء الحملة الصليبية لم يحرزوا شيئاً من النجاح في استغلال ما وقع من منازعات بين المسلمين على النحو الذي يبتغونه. فالواقع أن ما أصابوه من النجاح، إنما يرجع إلى حد كبير إلى هذه المنازعات^٢.

وكذلك لنا أن نقرأ قول ابن خلدون عن عهد المستعصم بالله: "وكانت الفتنة ببغداد لاتزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة، وبين الحنابلة وسائر أهل المذاهب، وبين العيارين والدعار والمفسدين"^٣.

كما لنا أن نتذكر أن الصراع بين الصفويين والعثمانيين - وكل منهما يتمترس خلف خليفة مذهبية - دام أربعة قرون وأورث الأمة خراباً ودماراً، وإضعفها أمام عدوها الغربي.

وهناك نص للشيخ الطوفي من أئمة الحنابلة ذكره في رسالته للاستدلال على مبدأ (المصالح المرسله) مقدماً إياه على النصوص والإجماع، لأنه رأى أن النصوص متعارضة، والاجتهادات متضاربة، والاحاديث الموضوعية كثيرة. وفي هذا السياق يذكر بعض أنماط الصراع في تلك العصور فيقول:

"إن المالكية استقلت في المغرب، والحنفية بالمشرق، فلا يقار أحد المذهبين احداً من غيره في

١. حدث في وقت واحد المفاوضات والقتال أثناء الحرب الصليبية الأولى. وجرى ذلك أيضاً في الحرب الثالثة والحرب السادسة. ونلاحظ ما قام به العلمانيون من نشاط في توجيه سير الحرب الصليبية. فعلى الرغم من أن هذه الحرب قامت على أساس ديني، فإنها اتخذت في سيرها صفة دنيوية. ومن الأمور المتناقضة أن حملة دينية أسهمت في نمو الحافز الدنيوي، وهيات للعلمانيين أن يفلتوا من ذلك الميل نحو التيقراطية البابوية، وكان ذلك واضحاً في زمن بابوية جريجوري السابع. انظر حبشي: الحرب الصليبية الأولى. القاهرة ١٩٥٨، ص ١٢٦-١٢٧.

William of Tyre Trans. Krey. 1943. Vo.I.pp.223-224

٢. المؤرخ إرنست بارغر في كتابه (الحروب الصليبية) الفصل الثالث ترجمة الدكتور الباز العرني وقد قدم له بمقدمة جيدة.

٣. تاريخ ابن خلدون، ج ٣، ص ٥٣٦.

بلادهم الأعلى وجه ما. وحتى بلغنا أن أهل جيلان من الخنابلة إذا دخل إليهم حنفي قتلوه، وجعلوا ماله فيئاً، حكمهم في الكفار، وحتى بلغنا أن بعض بلاد ما وراء النهر من بلاد الخنافية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ فلم يزل كذلك، حتى أصبح يوماً وقد سد باب ذلك المسجد بالطين واللبن فأعجب الوالي ذلك".^١

والتاريخ يحدثنا عن صور أخرى معبرة عن الحالة المزرية من التعامل الطائفي؛ من قبيل: هجوم الغوغاء على بيت الشيخ الطوسي وإحراق مكتبته عام ٤٤٩ هـ.^٢ والهجوم على مساجد الشيعة عام ٤٨٣ هـ وإتلاف الكتب فيها.^٣ وحادثة منع دفن ابن جرير الطبري وإتهامه بالاحاد مشهورة. والإتهامات وأنماط التكفير ترخر بها كتب التاريخ. والروايات الموضوعية التي تسفه المذاهب كثيرة.

عوامل الانحراف

وبنظرة عامة نستطيع القول: إن أهم العوامل التي نقلت الحالة المذهبية إلى الحالة الطائفية هي: أولاً: تأمر أعداء الأمة لخلق الظروف الملائمة لتمزيقها بشتى الأساليب من الدس والوضع والتحرير وخلق الفتن وهو تأمر مستمر على مر العصور ومنذ صدر الإسلام وحتى اليوم، إذ نلاحظ الاستعمار الغربي يعمل خلال فترات الاحتلال وخصوصاً في الفترة التي احتل فيها العالم الإسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة إسلامية شمولية في الربع الأول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا أنه اعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

- ١ - إبقاء الأمة على تخلفها العلمي والاقتصادي والثقافي والتعليمي وغير ذلك.
- ٢ - إشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي إلى جانب تحريك

١. حكي في اصول البحث للفضلي، ص ٢٢٧.

٢. المنتظم، ج ١٦، ص ١٦.

٣. تاريخ الإسلام للذهبي، ج ٣٣، ص ١٢.

النزعات القومية والعنصرية ولكن سرعان ما فشل مشروعه مما دعا بعض الكتاب المعاصرين لتسميته بـ "النصر سريع الزوال للعلمانية (١٩٢٠ - ١٩٧٠)".

٣ - تمزيق العالم الإسلامي إلى دول وشعوب متفرقة، وتحريك العنعنات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية حتى التاريخية كل ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي يجري الحديث عنه والتخوف منه باستمرار من قبل القادة والمفكرين والكتاب الغربيين ويتم التنظير لصراع دائم مع العالم الإسلامي على أساسه، تقول الكاتبة هانتر في مقدمة كتابها: "قامت الرواية التي ألفها جون بوشان، وكان لا يزال رائداً في استخبارات الجيش البريطاني عام ١٩١٦، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوات الحليفة.

كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء The Green Mantle: "الإسلام عقيدة قتالية، إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أن هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة فماذا سيحدث يا صديقي؟ ستفتح جهنم أبوابها في هذه الأرجاء عما قريب. لدي تقارير من العلماء في كل مكان؛ صغار التجار في جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في أفغانستان والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكة، والأشراف في شمال أفريقيا، ولاسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهندوس والتجار اليونانيين في الخليج، فضلاً عن القناصل المحترمين الذين يستخدمون الشيفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إليّ على الأمر نفسه، أن الشرق في انتظار إشارة إلهية".

بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبر المعلق السياسي الأميركي، تشارلز كراوثر، عن مخاوف مماثلة عندما قال: إن الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأتى أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها جون بوشان في روايته، فهو يتخذ "شكل عالم إسلامي متحد تحت راية أصولية على النمط الإيراني تخوض صراعاً وجودياً ضد الغرب الكافر".^١ وهي من أهم النقاط التي ركز عليها المرحوم السيد جمال الدين في خطته العامة لتحقيق نهضة

١. مستقبل الإسلام والغرب، شيرين هنتر، تعريب زينب شوريا، ص ١١١.

إسلامية كبرى.

وها نحن نشهد دور اليد الأجنبية الممتدة لتحرك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وأفغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها أتباع المذاهب. وربما استخدمت وسائل الإعلام والأقلام والألسنة المأجورة لتحقيق الهدف.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهد اليوم أيضاً حيث يستغل البعض نفوذه ليثير البسطاء بل ربما بعض المتسيين لأهل العلم لتحريك الإحن والنزاعات الطائفية.

يقول أحد الكتاب المؤرخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة: "وكانت لا تمر سنة دون عنف بين ما وصف بفرق السنّة و فرق الشيعة في سائر أرجاء المنطقة العربية الإسلامية، فقد تولى الترك بانفسهم عام (٢٤٩هـ) عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان أكثر الضحايا من منطقة (الشاكرية) ببغداد، وبتيجتها هوجم السجن المركزي وأُحرق أحد الجسرين الواصلين بين جانبي الكرخ والرصافة".

ويستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتن في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة وإلى طبرستان، وتواصلت إلى شمال أفريقيا وهكذا^١.

وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة كمقدمة ابن خلدون وغيرها.

ويكفي أن نذكر بدور النزاع العثماني الصفوي في خلق الفتن الطائفية الداخلية وإضعاف الأمة الإسلامية مما جر بالتالي إلى أن تفقد شوكتها وعزتها أمام التحديات.

فلقد سيطرت الدولة العثمانية (١٢٨٠ - ١٩٢٤ م) على الشام وأجزاء من العراق إضافة إلى مناطق في شمال أفريقيا، وسيطرت الدولة الصفوية (١٥٠٦ - ١٧٣٤ م) على إيران. وراحتا تتنافسان وتؤكدان هويتها المذهبية.

مما أفرز نزاعاً طائفيًا مقيتاً سببه نزاع المصالح ونهم الغزاة والقبائل والمستبدين لا المذاهب، وشهدنا استعمار موجة التكفير والقتل وإهانة المقدسات في كلا الطرفين.

١. قصة الطوائف، ص ٢٣٣.

ونحن إذ نشير إلى هذا النزاع لأنكر الخدمات التي قدمتها للحضارة الإسلامية ولكننا ننعى عليهما استخدام النزعات المذهبية لأغراض سياسية.
وإذا كنا ننكر أي إكراه أو عنف للاجبار على تغيير المذهب فإننا ننكره على الطرفين معاً وبمستوى واحد.

ثالثاً: التكفير

وتعد هذه الظاهرة من أهم العقبات بوجه التقريب. ورغم أن الإسلام وضح تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان، وحددها بدقة فإن هذه الحالة الغريبة حدثت بقوة.
فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^١.
وفي رواية: «أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء»^٢. وروى الشيخان والترمذي: من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار.^٣
وروى سعاة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حققت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواثيق، وعلى ظاهره جماعة الناس»^٤.
وربى القرآن الكريم الرسول الكريم ﷺ وأتباعه على التعامل العقلاني والحوار المنطقي والقبول بالتعددية الاجتهادية إذا كانت على أسس شرعية منضبطة.
إلا أن هذه الظاهرة حدثت في ظل ظروف عصبية في مطلع الأمر كما في قضية الخوارج. وإني أعتقد أن أهم ما قاد لهذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذة الآخر بلوازم كلامه رغم أن هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

١. صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٣٩، الدر المنثور، ج ٢، ص ٢٤٩.

٢. مسند أحمد، ج ٤، ص ١٤٦ و ١٥٣ و ١٨٤، صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٣٩، صحيح مسلم، ج ١، ص ٤٢، سنن أبي

داود، ج ١، ص ٤٥، السنن الكبرى للبيهقي، ج ١، ص ٧٨.

٣. صحيح البخاري، ج ١، ص ٤١، صحيح مسلم، ج ١، ص ٤٣، سنن الترمذي، ج ٤، ص ١٣٣.

٤. الكافي، ج ٢، ص ٢٥.

فقدياً كفر الخوارج علياً عليه السلام معتقدين أن لازم موقفه من التحكيم كفره والعياذ بالله. فقد ذكروا أنه شك في نفسه حين قال للحكمين: «انظرا فإن كان معاوية أحق بها فأثبتاه، وإن كنت أولى بها فأثبتاني فإذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو أحق أم معاوية فنحن فيه أشد شكاً». ورد الإمام عليهم بقوله: "فإن ذلك لم يكن شكاً مني، ولكن انصفت في القول، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾".

ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيه على الحق^١ وبعد عصر الأئمة دبت هذه الحالة بوتيرة أوسع وذلك كما لاحظناه في الاختلاف حول (زيادة الصفات على الذات الإلهية) و(التحسين والتقييح العقلين) حيث رأى الطرفان المتنازعان أن الطرف الآخر يقوده رأيه إلى الكفر وهكذا نجد هذه الظاهرة في قضايا كثيرة من قبيل (التوسل) و(الشفاعة) و(البداء) وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسله) وغيرها. في حين لو إحتكم الجميع إلى الحوار المنطقي لاكتشفوا على الأقل لدى الطرف الآخر ما يبرر له الإيمان بهذه القضية أو تلك وربما اكتشفوا أن النزاع لفظي لاحقيقة له.

وزاد الجهل والتعصب الطين بلة حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلاً لها فيفتي بغير ما أنزل الله. وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا مما أدى إلى سفك الدماء البريئة على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والأمة وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار، فإنه لا يحقق الجو الهادئ المطلوب، ويدفع لنوع من التهرب أو المماطلة أو تلمس العثرات مما يمنع من تحقق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليات الحوار بين أتباع الأديان نتيجة ما يحمله كل طرف من تراكمات ذهنية عن الآخر فالطرف المسيحي مثلاً يحمل أحقاد الصليبية وإيحاءات المستشرقين بما يسمونه بـ (الهرطقة الإسلامية) وما يدور في نفسه من هواجس الصحوة الإسلامية التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الإسلامي سوابق ذهنية كبيرة عن خدمة التبشير المسيحي للاستعمار على مدى قرون.

١. الاحتجاج، ج ١، ص ٤٤٤، والآية من سورة سبأ: ٢٤.

ولكن العمل الجاد والتوجه للتعليلات الإسلامية الهادية والداعية لحسن الظن في الآخر المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقريب خصوصاً إذا تم على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضاً في مجالات العلم والإخلاص والعمل في سبيل الأمة بمجموعها.

خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر. وكل واحد من هذه الأمور يمكن أن يشكل بنفسه مانعاً من تحقق الحوار المطلوب وبالتالي الوصول إلى التقريب، وقد وجدنا النصوص الإسلامية تتطافر في المنع من هذه الأمور: فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ﴾^١ يمنع من الحوار في الاجواء الانفعالية المصطنعة. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٢ يمنع من الإنشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر وذلك أيضاً واضح في الآية التي تنهي حتى عن سب آلهة المشركين. سادساً: أضف إلى كل ذلك أن اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج.

فينبغي السعي إلى ما يأتي:

- ١ - الفراغ من المفروضات المسبقة قبل بدء عملية الحوار.
- ٢ - الإتفاق على منهج واحد للاستنباط وليس هذا الاتفاق أمراً صعباً.
- ٣ - تحقيق محل الحوار بدقة لئلا ينظر كل طرف إلى قضية ومفهوم لا ينظر إليه الطرف الآخر. وهناك موانع أخرى من قبيل:
 - ١ - اعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله.
 - ٢ - أخذ تصورات المذهب من أقوال خصومه.
 - ٣ - دخول من أهلاً في عملية الحوار.

١. سبأ: ٤٦.

٢. سبأ: ٢٥.

٤- إتباع الأساليب المتلوية للظفر بالآخر.

وغير ذلك مما لا يسعنا المجال للتعرض له ولكن يجب حذفه حتى نصل إلى التقريب المطلوب بل الضرورة في عالمنا الملتهب.

تنوع المذاهب بين الماضي والحاضر

انتشار المذاهب بين الماضي والحاضر..

وقد تغيرت الخارطة المذهبية على مر التاريخ نتيجة عوامل كثيرة، ويكفي أن نقارن بين نصين ذكرهما الشيخ أسد حيدر^١ أحدهما للمقدسي وهو يتحدث عن انتشار المذاهب في القرن الرابع الهجري فيقول "سواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وجهر وصعده شيعة. والغالب على صنعاء أصحاب أبي حنيفة والجوامع بأيديهم، وفي نواحي نجد واليمن مذهب سفيان. وفي العراق الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية وأشعرية، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسه فإنها سنّة، وأكثر أهل البصرة قدرية (وشيعة) وثم حنابلة. ... إقليم اقور وهو اليوم شمال العراق - أي الموصل ونواحيها - مذهبهم سنّة وجماعة، إلا عانة فإنها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي، وفيها حنابلة وجلبة للشيعة، وإقليم الشام مذهبهم مستقيمة أهل جماعة وسنّة، وأهل طبرية ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة ولا ترى فيه مالكيًا، والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث. إقليم مصر على مذهب أهل الشام، غير أن أكثر فقهاءهم مالكيون... وأعلى القصبه شيعة وسائر المذاهب في الفسطاط موجودة ظاهرة.

وإقليم المغرب، فالمذاهب على ثلاثة أقسام، وأما في الأندلس فمذهب مالك، وقراءة نافع، وهم يقولون: لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك، وبسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إلا مذهب أبي حنيفة ومالك،

... إقليم جانب خراسان للشيعة والمعتزلة والغلبة لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش فإنهم شوافع وفيهم قوم على مذهب عبدالله السرخسي.

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٠٦ - ٢٠٨.

وإقليم الرحاب مذاهبهم مختلفة، فالغلبة للحنفية وهم نجارية، وبالري حنابلة كثيرة، وأهل قم شيعة، وفي الدينور جلية لمذهب سفيان الثوري.

إقليم خوزستان مذاهبهم مختلفة، أكثر أهل الأهواز ورامهرمز والدورق حنابلة، ونصف الأهواز شيعة، وبه من أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وبالأهواز مالكيون.

إقليم فارس، العمل فيه على أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة، وللداودية دروس ومجالس وغلبة، ويتقلدون القضاء والأعمال.

إقليم كرمان المذاهب الغالبة للشافعي.

إقليم السند مذاهبهم أكثرها أصحاب حديث. ورأيت القاضي أبا محمد المنصور داوديا إماما في مذهبه وأهل الملتان "شيعية يجعلون في الإذان ويثنون في الإقامة" ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة وليس بهم مالكية، ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة^١.

ومن الواضح أن هذه الجغرافيا المذهبية تغيرت بشكل كبير حتى في القرن الرابع والخامس نفسيهما.

أما عن القرن الثالث عشر الهجري فيحدثنا العلامة أحمد تيمور^٢ بما يلي:

"المغرب الأقصى يغلب عليه - الآن - المذهب المالكي. وعلى الجزائر وتونس أيضاً.

"طرابلس" المذهب المالكي بكثرة، والحنفي بقله، وهم من بقايا الأسر التركية؛ وأكثرهم في تونس، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها، ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفي مشاركاً للقضاء المالكي، وأما سائر أعمالها فقضاتها مالكية، وفي الحاضرة كبير المفتين الحنفي ويلقب بشيخ الإسلام، وله التقدم والزعامة المعنوية على الجميع، والمالكي وله المقام الثاني، وقد تساهلوا - الآن - في تلقيبه بشيخ الإسلام أيضاً. ومع قلة المقلدين للمذهب الحنفي، فإن من السنن المتبعة عندهم أن يكون نصف مدرسي جامع الزيتونة حنفية، والنصف الآخر مالكية. وإنما أمتاز الحنفي بذلك لكونه مذهب الأسرة المالكة.

"مصر" الشافعي والمالكي، ويغلب الأول في الريف والثاني في الصعيد والسودان، ويكثر الحنفي وهو مذهب الدولة، والمتبع في الفتاوى والقضاء الحنبلي قليل بل نادر.

١. أحسن التقاسيم، ص: ٩٦ و ١١٥ و ١٢٩ و ١٥٢ و ١٦٩ و ١٩٠ و ٢٤٨ و ٢٧٤ و ٢٨٥ و ٢٩٦ و ٣٠٨ و ٣٢٣ و ٣٤٧.

٢. نظرة تاريخية لأحمد تيمور باشا، ص ٨٦ - ٨٩.

"الشام": الحنفي يشمل نصف أهل السنّة بها والربع شافعية، والربع الآخر حنابلة.
 "فلسطين": يغلب على مذاهب أهل السنّة فيه الشافعي، ويليه الحنبلي فالحنفي، فالمالكي.
 "العراق": يغلب الحنفي فيه على مذاهب أهل السنّة، ويليه الشافعي وبه مالكية وحنابلة.
 "الترك": العثمانيون والألبان وسكان بلاد البلقان، المذهب الحنفي.
 "الاكراذ": المذهب الشافعي وهو الغالب على بلاد أرمينية، لأن مسلميها من أصل تركماني أو كردي، والسنّيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية.
 "الأفغان": المذهب الحنفي والشافعي، والحنبلي بقلّة.
 "تركستان الغربية": التي منها بخارى المذهب الحنفي، وأما تركستان الشرقية فكان الغالب عليها الشافعي، ثم تغلب الحنفي بمسعى العلماء الواردين عليها من بخاري القفقاز وما والاها الحنفي وفيهم شافعية.
 "الهند": الحنفي والشافعي بقلّة وفيها مذاهب أخرى.
 "الهند الصينية" شافعية وكذلك مسلمو أستراليا، وفي البرازيل من أميركا نحو ٢٥ الف مسلم حنفية.
 "أميركا" فيها من المسلمين عدد ينوف على ١٤٠ ألفاً وهم مختلفو المذاهب.
 "الحجاز": الشافعي والحنبلي وفيه حنيفة ومالكية في المدن أهل عسير شافعية.
 "اليمن": السنّيون فيها وفي عدن، وحضرموت شافعية، وقد يوجد بنواحي عدن حنفية، والغالب على عمان الأباضية، ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية.
 "قطر والبحرين": المالكي وفيهما حنابلة من الواردين عليهما من نجد.
 "الأحساء": الغالب على أهل السنّة فيها الحنبلي والمالكي.
 "الكويت": المالكي.
 ويعلق الشيخ اسد على هذا النص قائلاً:
 «هذا ما ذكره العلامة أحمد تيمور باشا عن المذاهب الأربعة وانتشارها، ولم يتعرض لانتشار

المذهب الشيعي في الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر»^١.
 ولا بد من ملاحظة عامل الزمن والتغيرات السياسية. كما لا يعني أن تقسيمات تيمور
 واحصاءاته هي من الدقة بحيث لا تقبل الإضافة في الأسماء والزيادة في العدد.
 وهذا صحيح فاستقصاؤه غير مستوعب لأنه لم يتعرض مثلاً للبلاد الأفريقية السوداء، ولا
 للمسلمين في الصين وروسية وغيرها.
 كما لم يذكر أماكن تواجد الشيعة.

ورغم أننا نرفض تقسيم المسلمين إلى أكثرية وأقلية إلا أن الواقع يفرض نفسه، وهنا نجد
 أن الأكثرية في العالم الإسلامي سنوية وعلى اختلاف في البلدان من حيث كثرة أتباع أحد
 المذاهب الأربعة (الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي) والأقلية شيعية بلا ريب. (إثنا
 عشرية أو زيدية وغيرها) ويوجد أتباع المذهب الأباضي بشكل أكثرية في عمان كما تتواجد
 أقليات إباضية في شمال أفريقية.

فإذا ركزنا على كل دولة دولة رأينا هذه الحقيقة قائمة في أغلب الدول في حين تنقلب النسبة في
 دول كالعراق والبحرين وأذربيجان وتتعاقد تقريباً في لبنان كما أن نوع العلاقات متباين.
 فالأمور في دول جنوب آسيا ووسطها وأفريقيا وأوروبا وأميركا والدول الخليجية تسير نحو
 الوثام ومنح حقوق المواطنة للجميع مع وجود خلل في بعض هذه الدول نرجو أن يزول من
 خلال سعي هذه الدول لتحقيق حالة ديمقراطية مناسبة لها وسيطرة الاتجاه العقلاني والحواري
 على الإتجاه الطائفي المتطرف.

ولكنه متشجع تماماً في العراق نظراً لتدخل المصالح الاستكبارية أولاً وضعف الحكم
 المركزي ثانياً وانتشار السلاح بيد المجموعات الطائفية ثالثاً وتلاحم المجموعات الإرهابية
 التكفيرية مع بقايا النظام البائد رابعاً وثورة النزعات العشائرية والطائفية وإتجاهات الثأر
 والثأر المضاد في المرحلة الخامسة.

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج ١، ص ٢٠٩.

إلا أنني متفائل بمستقبل أفضل يعيد للنسيج العراقي لحمته الطبيعية وللعراق دوره الطبيعي في القضايا الإقليمية والإسلامية والعالمية. وتفاؤلي هذا ناتج من خبرة لا بأس بها بالتركيبة العراقية والأوضاع الإقليمية والعالمية.

إنّ إيمان الأغلبية الساحقة للشعب بالحل الإسلامي، ووجود الكوادر الإسلامية المتمرسّة التي عرّكتها المحنة الطويلة، وتوفر العلماء الأتقياء التقريبيين كل ذلك سوف يساهم في الوصول إلى الغد الأفضل.

وإنني أعتقد أنّ عملية التوعية الجماهيرية وقيام العلماء بدورهم الوحدوي وأداء الدول الإسلامية والعربية دورها المطلوب في رأب الصدع سوف يؤدي إلى تحقيق المصالحة الوطنية المنشودة. أما الأمر في لبنان فلا يمكن أن يصنف في حقل الصراع الطائفي وإن سعى البعض إلى ذلك. وإنما هو صراع سياسي محض نسأل الله تعالى أن يوفق الشعب اللبناني لحله بأفضل وجه. وعدا عن هذه الموارد فإنني لا أجد أية حالة يؤبه لها في العالم الإسلامي إلا في باكستان ولكنها حالات فردية عابرة.

الفصل الثالث: أجواء التقريب،

وسطية وعقلانية وتوازن وأمن اجتماعي، مقترحات لتعميقها

التقريب والوسطية والأمن الاجتماعي

إنَّ التقريب يؤدي لتعميق الإتجاه الوسطي وهذا بدوره يؤدي لتحقيق الأمن الاجتماعي المطلوب فمن الواضح لدى كل دارس للإسلام، أنَّه حدد الهدف من خلقه كل المخلوقات، وهو كما لها أي تحول طاقاتها الذاتية الكامنة بالقوة إلى ظواهر فعلية، بل إنَّ هذا هو ما يدركه الوجدان الفطري حينما يلاحظ التخطيط الإلهي لهذا الكون والتنسيق والهدفية في الخلق.

وبالنسبة للإنسان يحدد القرآن هدف خلقته بوضوح أكبر حين يعلن ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^١، مما يوضح أنَّ تكامل الإنسان يتم كلما تأصلت صفة العبودية لله تعالى فيه كفرد، وأوج كمال الفرد يتمثل في النبي، وأرقى صفة تمنح للنبي أنَّه (نعم العبد).

يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^٢.

وحين يشهد المؤمن لرسول الله سيد البشرية بالرسالة يقدم العبودية أولاً فيقول: (أشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله) وينعكس هذا على الإنسان كمجتمع حيث يعمل عباد الله الصالحون وطلبتهم هم الأنبياء على إقامة المجتمع العابد.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٣. هكذا إذن تكون المسيرة

١. الذاريات: ٥٦.

٢. ص: ٣٠.

٣. النحل: ٣٦.

الصحيحة المتوازنة المتكاملة للبشرية ضمن خطين. خط العبادة وخط اجتناب الطاغوت، وهما الناتجان الأساسيان من حالة العبودية المطلقة لله تعالى.

فنحن هنا نواجه تفصيلاً وتوضيحاً أكبر للعبودية يتمثل في (العبادة) و(رفض الطاغوت).
ولكن ماذا يعنيان؟

إنَّ العبادة في مفهومنا الإسلامي باختصار تعني تعبيد الحياة لله (تعالى) وتنفيذ أوامره ونواهيه:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^١.

وهذا المعنى يشمل العبادة بالمعنى الأخص كالصلاة والصيام، ولا يلخص الحياة فيها بل تتحول الحياة كلها إلى مسجد وصلاة وهو المعنى الأعم للعبادة.

أما الطاغوت: فهو باختصار المتجاوز للحد الوسط في تصور الإسلام، المتعدي عليه، والطغيان هو تجاوز الحد كما يقول الراغب^٢ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾^٣

والوسطية الإسلامية تعني: العدل، والتوازن، والحكمة ووضع الشيء في موضعه بما يحقق الهدف منه، وليس المقياس الكمي، وإذا كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^٤، فإنها لأنها الأمة القدوة والأسوة الحضارية للأمم بعد أن تقتدي بالرسول الأسوة.

وإذا راجعنا كل المفاهيم التي ينفر منها الإسلام وجدناها تخرج عن الحد الوسط بهذا المعنى: فمفاهيم: الاحاد والشرك والفاحشة والتهور والتشدد والاستبداد والعنف والطغيان والتبذير والتطيف وبخس الآخرين والإسراف وأمثالها بل حتى المفاهيم السلبية كالرهبة والبخل والجبن واللامسؤولية، والتحلل هي نوع من أنواع عدم الالتزام بالحد الشرعي إفراطاً أو تفريطاً. فالمعيار هو الحد الإنساني الذي ارتضاه الله تعالى، وربما أدركناه بوجودنا لوضوحه كالطيبات والخبائث، ولكن المنظار الإلهي يعطينا صورة كاملة عن الحد الوسط أو فلنعبّر بالحد الطبيعي الذي يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يأتي هذا التعبير الإلهي الجميل ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾

١. الأنفال: ٢٤.

٢. مفردات الراغب، ص ٣٤٦.

٣. الحاقة: ١١.

٤. البقرة: ١٤٣.

فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾، تماماً كما تفسق النواة حين تخرج عن موقعها الطبيعي فتسميها العرب نواة فاسقة.

والأمن البشري على مدى التاريخ مهدد من قبل الطغاة والفاستين. ذلك أننا لو نظرنا من عل إلى كل أنهار الدماء والدموع والاعتداء على النسل والحرث والعقل والإنسانية فإننا بكل سهولة نستطيع أن نرجعها إلى مظهرين من مظاهر الطغيان هما: كما يعبر الشهيد الصدر: مشكلة الضياع واللائتاء، ومشكلة الغلو في الائتاء بتحويل الحقائق النسبية إلى مطلقات، والتعبير الإسلامي عنها هو (الإلحاد) و(الشرك)، وهما يلتقيان في نقطة واحدة أساسية هي (إعاقة حركة الإنسان في تطوره عن الاستمرار الخلاق المبدع الصالح)^٢ أما العلاج فهو الإيمان بالله الواحد والمسؤولية تجاهه.

إنّ اللاإيمان أو الإيمان بالوثنية هما حالتا طغيان أو فلنعبّر هما سببان عظيمان للطغيان فيما أن تنتفي المسؤولية في حالة اللائتاء أو تتضخم الصورة الوثنية للذات أو للحجر أو للحاكم أو للاسطورة أو للمنصب أو للمال أو للقوة أو للشهوة - وكلها أمور نسبية يحولها الجهل إلى أمور مطلقة - وحيث أن يكون الدمار، ويكون التهديد العظيم للامن الإنساني بشتى أنواعه.

إننا نستطيع أن نتصور أنماطاً شتى من الأمن للإنسان فهناك (الأمن الفكري والاجتماعي، والأخلاقي الإنساني والعائلي والصحي والبيئي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك).

والطغيان وتجاوز الحد والإفراط والتطرف يهدد هذه الأنواع جميعاً.

ونحن نعلم أن فرعون يمثل نموذج الطغيان في النصوص القرآنية ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^٣، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾^٤، فحتى الإيمان يحتاج إلى إذن منه ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُ بِهٖ قَبْلَ أَنْ أَدْنَ لَكُمْ﴾^٥، وكان فرعون رمز التهديد للوجود الشعبي والنسل

١. الحشر: ١٩.

٢. الفتاوى الواضحة، ص ٥٨٣.

٣. طه: ٤٣.

٤. يونس: ٨٣.

٥. الأعراف: ١٢٣.

والخلق، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^١.

وكان رمز الاستخفاف بالامة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِتْمَامًا كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^٢.

وربما كان من نافلة القول بعد هذا أن نتحدث عن دور الإسلام في تحقيق الأمن للإنسان بشتى أنواعه بعد أن عرفنا رفضه لكل الأساليب الطاغوتية الفرعونية جملة وتفصيلاً.

فهو يعمل على توفير الأمن الأخلاقي من خلال نظامه الأخلاقي والتربوي ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾^٣ فهو يعين هنا مرجعية النظام التربوي وبدونها يفقد صبغته وهو ينفي كل ما يلوث الجو الإنساني الخلقى عبر تحريمه المفاسد الخلقية التي تميم إنسانية الإنسان.

كما يعمل على توفير الأمن الاجتماعي من خلال إقامة البناء العائلي ونفي كل ما يوجه الغرائز نحو التحلل أو الإشباع الخاطيء، ومن خلال تقديمه نظاماً للعلاقات الاجتماعية المتعالية، ونفيه كل ما يمزق الأمة من مقاييس مادية، كاللون واللغة والعنصر والقبلية والجغرافيا وغيرها، وكذلك من خلال ضمانه لكل حقوق الإنسان في الوجود والكرامة والحرية والضمأن الاجتماعي والاقتصادي، ورفضه كل عوامل التهديم كالبخل والغصب واكل المال بالباطل وتمركز الثروة والإسراف والتبذير والخرابة والبغي والقتل وغيرها، وكلها تتعاون لتحقيق الهدف، كما يعمل على ضمان المشاركة الشعبية السياسية من خلال مبدأ الشورى ومبدأ الولاية المتبادلة وتعميم المسؤولية ولا نريد أن نستمر في هذا العرض وهو واضح صريح.

إن الإسلام يعمل على المستوى الحضاري لتحقيق الأمن والسلام العادل للبشرية منطلقاً من مبادئه الإنسانية، وحتى لو اضطرت للحرب فإنه يشنها حرباً نظيفة لا رد فيها إلا على المعتدي، أما الأبرياء فلا يناهم شيء بل وحتى الطبيعة تبقى آمنة سليمة.

يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، أصحابه فيقول: «سيروا باسم الله

١. القصص: ٤.

٢. الزخرف: ٥٤.

٣. الجمعة: ٢.

وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تغلو، ولا تثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا إليها...»^١.

إنّ الأمن البيئي والطبيعي والحيواني مضمون إسلامياً وأنّ قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) قاعدة عامة تمنع الإضرار بالبيئة بلا ريب، لأنه إضرار بكل البشرية، خصوصاً إذا فسرنا الضرر بمعناه الواسع مما يشمل المنع من كل إضرار بالفرد أو المجتمع مباشرة أو بشكل غير مباشر. وكل خرق للأمن يعد إضراراً وأنّ الإسلام يجعل الطبيعة مسخرة للإنسان نفسه فعليه أن يشكر نعمتها ولا يكفر بها، ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^٢.

وحتى علاقات الحب والعواطف قد تقوم بين المسلم والطبيعة، فيمر الرسول الكريم ﷺ

على جبل أحد، فيقول: «هذا أحد يحبنا ونحبه»^٣.

ويبقى الوعد الإلهي قائماً في خلد المسلم هدفاً يسعى إليه حثيثاً، إذ يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^٤.

إنّه المجتمع الخليفة الآمن العابد، الآمن من العدو الخارجي والداخلي، وأنه هدف الأنبياء وقد تحقق: عبادةً وأمناً من الطاغوت. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٥. والحقيقة أننا إذا فسرنا الإرهاب بالمنطق الإنساني العام بأنه (كل عمل لا ينسجم مع الوجدان الإنساني من حيث الوسيلة أو الهدف ويهدد الأمن بشتى أنواعه) ويتضمن اعتداء على الحقوق

١. كنز العمال، ج ٤، ص ٣٨٢، وراجع الكافي، ج ٥ ص ٢٧ و ٣٠.

٢. إبراهيم: ٣٤.

٣. مسند احمد، ج ٢، ص ٣٣٧ و ج ٣، ص ١٤٠ و ج ٥، ص ٤٢٥، صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٢ و ج ٣، ص ٢٣٣ و ج ٤، ص ١١٨ و ج ٥،

ص ٣٩ و ج ٦، ص ٢٠٧، صحيح مسلم، ج ٤، ص ١١٤ و ١٢٤، سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٠٤٠، سنن الترمذي، ج ٥، ص ٣٧٩.

٤. النور: ٥٥.

٥. النحل: ٣٦.

فسنجد أن الإسلام يقف بقوة ضده بل ويعمل على اجتثاث جذوره من الأساس .
ومن الطبيعي أن نقول هنا أننا لا نستطيع أن نقضي على المعلول مع الإبقاء على العلل .
إن معظم ما نشاهده من مظاهر الإرهاب يعود إلى عوامل كثيرة منها:
أ- انتشار الجهل وروح التعصب الأعمى والنظرة الظلامية للعالم .
ب- انتشار الفقر والجوع والحرمان، وكاد الفقر أن يكون كفراً .
ج- انتشار الظلم والاستبداد والقهر والعنف وسلب حقوق الإنسان ومصادرة حرياته المشروعة .
د- فقدان الوازع المعنوي وتدني المستويات القيمية وانتشار الروح الحيوانية الجشعة العمياء .
هـ - طغيان حالة الإفراط على السلوكيات الفردية والاجتماعية .
فما لم توضع الخطط العالمية المخلصة للقضاء على هذه العلل أو التخفيف من وطأتها فإنها
سوف تظل تزرع الإرهاب .

والأنكى من كل ذلك أن نجد الدول العظمى التي إرتبط تاريخها بالحروب والدمار والإرهاب
على رأس قائمة محاربهه وهي حتى في حربها المفروضة ضد الإرهاب ترتكب أشنع أنواع الإرهاب
وتدعم نظماً إرهابية فاشية مثل النظام الصهيوني الإرهابي بكل ما في هذه الكلمة من معنى .
فهي تعاقب من تشاء، وتدعم من تشاء، وتدعي على من تشاء، وتدخل من تشاء في خانة
الشر أو الخير، فهي النائب العام عن البشرية وهي القاضي الدولي، وهي المنفذ تحت أسماء عديدة .

الحل على مستوى الأمة الإسلامية

إن الحل على مستوى الأمة يجب أن يتركز على مايلي:

أولاً: رفع مستوى الوعي لدى جماهير أمتنا في مختلف المجالات عبر فهم الإسلام وقراءة
الحياة باسم الله، ثم فهم الواقع القائم، والموقف العالمي والتحديات الدولية من أمثال العولمة
والعلمنة والهجوم الثقافي .

ثانياً: العمل على تعميم تطبيق الشريعة الإسلامية في كل الشؤون الحياتية، فما لم نعد إلى
الإسلام فإن المشاكل سوف تظل تحاصرنا . وإن من أهم الأمور ضمان نظافة الجو العام للمجتمع
مما يهيء مجالاً مناسباً للتنمية المعنوية .

ثالثاً: تطبيق عملية تربية شاملة لمختلف قطاعات الأمة وفق تعاليم الإسلام .

رابعاً: العمل بكل ما من شأنه التقريب في الفكر، لأن الأفكار لا يمكن توحيدها، وتوحيد موقف الأمة عملياً. ولا نريد لهذا التوحيد أن يكون خيالياً، كما لا نريده أن يكون استسلامياً، بل يجب أن يتبع المنهج الوسطي الواقعي على ضوء الأهداف المرسومة. وإشاعة العقلانية الإسلامية، ولغة الحوار المنطقي السلمي، وتحمل التعددية والرأي المخالف، وحرية الاجتهاد بضوابطه، والابتعاد عن لغة التكفير والتفسيق والتبذير وأمثال ذلك.

خامساً: العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الدولية الإسلامية وإيجاد ما يلزم لإيجاده، ومنحها حرية أكبر في التحرك عبر آليات جديدة وفاعلة وواعدة.

واعتماد خطة أمنية اجتماعية شاملة - تبنتي - من جملة ما تبنتي عليه - على ما يلي:

١- وحدة قضايا الأمن في كل أرجاء العالم الإسلامي.

٢- الالتزام باللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.

٣- ضرورة تقوية الأسس العقائدية لتقوم بصياغة العواطف الواعية لتترك أثرها على السلوك الفردي والاجتماعي.

٤- اعتماد مبدأ الحرية العقلانية المسؤولة، واقتلاع جذور الجريمة، ودوافع الاخلال بالأمن، ثم العمل على الردع الإنساني بدلاً من كبت الحريات وخنق المطالبات بحجة الحفاظ على الامن.

٥- اعتماد مبدأ تعاون الشعوب والحكومات للحفاظ على الأمن الاجتماعي.

سادساً: وضع خطة شاملة للاستفادة الأفضل من الإمكانيات السياسية والاقتصادية والإعلامية والجغرافية والمادية والطاقات الجماهيرية والعلمية والثقافية وتعبئتها في عملية المواجعة. والتأكيد على إيجاد مرجعية ثقافية عامة تحدد المعايير وتضبط المسيرة.

سابعاً: العمل على حل، أو تغافل أو تأجيل بعض النزاعات الجانبية أو الثانوية، الفكرية والمذهبية والمصلحية والجغرافية والتاريخية وغيرها خدمة للهدف الأهم واستجابة لقضية التزاحم في الأولويات، وتقديم الأهم على المهم.

ثامناً: الشد من أزر الأقليات المسلمة - وتبلغ حوالي ثلث مجموع المسلمين في العالم - بالتأكيد على وجودها أو لا ووحدتها ثانياً وهويتها ثالثاً، وتقوية مجالات التلاحم بينها وبين الأمة الأم فهي تستفيد من دعم الأمة، والأمة تستفيد من خبراتها، وقدراتها الإعلامية والعلمية وغيرها.

تاسعاً: التركيز على دعم مؤسساتنا الخيرية ومؤسسات الإغاثة والدعوة، وعدم تركها في مهب الريح وعدم إنزلاقها في مداخل الخلافات الجانبية والمذهبية والسياسية وحماتها من الإتهامات المعادية بدعم الإرهاب وأمثاله مما يؤدي إلى إغلاقها.

عاشراً: الاحتفاظ بأصالة التعليم واستقلالية المؤسسات التعليمية وعدم الخضوع للضغوط الخارجية لتؤدي دورها المطلوب على وجه أتم ويتم ذلك عبر استمداد أصولنا التعليمية من الكتاب والسنة مع مراعاة مكتشفات العصر وتعقيدات الواقع.

حادي عشر: الاستفادة الأفضل من المؤسسات والمنظمات الدولية الأخرى غير الحكومية لصالح قضايانا العادلة كما حدث في (دوربان) بأفريقيا الجنوبية.

ثاني عشر: الوقوف بحزم وتخطيط في قضايانا المصرية وأهمها قضية فلسطين. وفي هذا المجال نقترح:

١. تظافر كل الجهود الإسلامية لإفشال خطط إسرائيل لتركيع الشعب الفلسطيني وأثناء الانتفاضة الباسلة بدعم صموده وانتفاضته الباسلة ومقاومته الشجاعة.
٢. القيام بحملة لدعم المنكوبين وترميم الخراب وتكليف كل دولة غنية بسد جانب منه.
٣. ضرورة التأكيد على كون القضية الفلسطينية إسلامية وتعبئة كل الطاقات الإسلامية لذلك.
٤. ضرورة إتخاذ كل الخطوات والاستفادة من كل الإمكانيات القانونية والمحافل الدولية لفضح جرائم الصهيونية.
٥. عدم السماح لأمريكا للاستفراد بالقضية وأمثالها، وعدم الاعتماد على الحلول الأميركية.
٦. لزوم التفكير الجدي للعودة لنظام المقاطعة الشاملة للكيان الصهيوني الغاصب ومن يدعمه بل وتنفيذ المقاطعة الشعبية فوراً.
٧. لزوم تفعيل الدور السياسي لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا المجال خصوصاً في مجال المطالبة بتنفيذ القرارات الدولية ودفعها لتحقيق الأهداف السامية التي أنشئت لأجلها.
٨. لزوم العمل دولياً على وضع تعريف شامل للإرهاب والتفريق بينه وبين المقاومة المشروعة. لئلا تتهم حركات المقاومة بتهمة الإرهاب.
٩. ضرورة إعطاء الغطاء الشرعي للمقاومة الفلسطينية. بل والعمل على رفع روح المقاومة لدى جماهير الأمة بهدف إيجاد الاستعداد اللازم لمواجهة التحديات الخارجية وصنع المستقبل الأمثل.

١٠. السعي لتحقيق كل ما من شأنه اجتثاث الإرهاب من جذوره، فإنَّ الإرهاب معلول له علة، وليس من الحكمة محاربة المعاليل وإبقاء العلة على حالها.

التقريب بين المذاهب والعقلانية المطلوبة

يتميز الإنسان بارادته الحرة، وهذه الإرادة - وإن كانت نتيجة لأشواق وعواطف متنامية حتى تصور البعض من الفلاسفة والنفسانيين أنَّ الإرادة هي نفسها شوق متراكم - ولكنها تتميز على الشوق الحيواني بأنها ترتبط بقناعاته العقلية في مجال (ما ينبغي فعله وما لا ينبغي) أو ما يسمى (بالعقل العملي)، وهي أمور لا تتوفر في الحيوان. فالإرادة الإنسانية السوية - إذن ومهما كانت العواطف المترابطة - تسير بهداية من العقل العملي، في حين تتحرك الإرادة الحيوانية بدافع شهواني انفعالي أعمى. ومن هنا أُعتبر الإنسان الذي يتحرك بنفس هذا الدافع حيواناً، بل هو اضل من الحيوان، لأن الله منحه الكباح الفطري وهو العقل فأهمله، يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^١.

فالحيوان يخلو من أي توجيهات عقلانية واعية محاسبة ومثله الإنسان الغافل عن ما يملكه من طاقات.

ومن هنا كانت الحرية لدى الحيوان وشبيهه الإنساني حرية الشهوة والأهواء، وهي حرية منفلثة من عقالها ومخرجة تجب السيطرة عليها في رأي الفلاسفة المسلمين بل والوضعيين أيضاً؛ فهذا الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي يقول: (العقل العملي هو القوة التي تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل من الأمور الإنسانية التي يفعلها في معاشه ومعاده بخلاف القوة التي دونها فإن أفعالها حيوانية لافكرية).^٢

ويوجه الفيلسوف الألماني المادي هيغل نقداً إلى التعريف الرائج في زمانه للحرية بأنها

١. الاعراف: ١٧٩.

٢. الحكمة المتعالية، ج ٨، ص ٣٥٤ (الهامش).

(القدرة على فعل شيء نشتاق إليه) واصفاً التعريف بأنه يوضح عدم البلوغ الفكري لأنه لا يشير إلى الحق والحياة الإخلاقية وغير ذلك.^١

وهنا يذكر الأستاذ مرتضى مطهري أنّ (ملاك الشرف واحترام الحرية الإنسانية هو كونها في مسير الإنسانية فالإنسان السائر في هذا المسير يجب أن يكون حراً لا ذلك الذي إتبع شهواته حتى ولو كانت موجهة ضد البشرية).^٢

ومن هنا وجدنا الإسلام يربي في الإنسان المسلم العقلانية في الإرادة الفردية والاجتماعية وذلك بشتى الأساليب:

فهو يعتبر العقيدة الإسلامية بإركانها المركزية (التوحيد، النبوة، المعاد) هي الإطار العام الذي يوجه هذه العقلانية بما يتبعها من مفاهيم عامة من قبيل:

- الهدفية في الكون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.^٣
- والمسؤولية ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.^٤
- والحرية الواعية ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.^٥
- والمحاسبة ﴿وَيَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.^٦
- والتوازن في الكون والموقف منه ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.^٧
- ورفض الظلم بشتى أنواعه ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.^٨
- ومن الظلم عدم إعطاء الحق لصاحبه والتطفيف ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.^٩
- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.^{١٠}

١. الفلسفة الاجتماعية والسياسية لهيجل، تأليف جان بلانتر، نقلاً عن كتاب (الحرية، العقل والإيمان) للشيخ سروش، ص ٤٠.

٢. التعرف على القرآن، ج ٣، ص ٢٢٤.

٣. آل عمران: ١٩١.

٤. الصافات: ٢٤.

٥. الإنسان: ٣.

٦. الرعد: ٢١.

٧. الرحمن: ٧ و ٨.

٨. الشعراء: ٢٢٧.

٩. الاعراف: ٨٥.

١٠. المطففين: ١.

نعم في هذه الأطر يربي الإسلام التوازن والعقلانية في المسلم ويعمل على تنمية الجانب العقلي فيه ورفع المعوقات عن التفكير الصحيح.

أما عملية التنمية الفكرية والعقلية فلها برنامج متكامل يشمل - مما يشمل - الأمور التالية:

أ - فتح باب الحوار الإنساني البناء مع التحلي بالموضوعية، واحترام الآخر، والتركيز على الأمور العملية، وإتباع المنهج الأحسن وغير ذلك.

ب - دفع الإنسان للتغيير نحو الاحسن، وعدم الجمود على وضع متخلف، والتأكيد على بدء التغيير منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^١. وعملية التغيير هي من مختصات الإنسان عبر استفادته من قدراته العقلية.

ج - الدفع نحو التأمل والتدبر والتبين والاعتبار والتعقل والوعي ﴿لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ﴾^٢ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾^٣ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^٤ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^٥ ﴿وَتَعَبَّهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾^٦ ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^٧.

د - فسح المجال لعملية الاجتهاد.

هـ - الدفع نحو التشاور.

﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^٨.

كما عمل - على رفع - معوقات التفكير السليم ومنها.

١. الرعد: ١١.

٢. ص: ٢٩.

٣. يوسف: ١٠٩.

٤. النحل: ٦٧.

٥. الحجرات: ٦.

٦. الحاقة: ١٢.

٧. النساء: ٤٣.

٨. الشورى: ٣٨.

أ- المطلقات النسبية الوهمية.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾^١.

ب- الخرافات.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾^٢.

ج- التقليد.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^٣.

د- الغفلة.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^٤.

وغير ذلك.

التقريب والتوازن المطلوب في الخطاب الإسلامي

لا نعني بالخطاب الإسلامي هنا الخطاب التعليمي السطحي أو المعمق، كما لا نقصد به الخطاب الأدبي والبلاغي، وإنما نريد به الخطاب الإعلامي الذي يلامس حس الجماهير، ويوجه الرأي العام، ليقف بصلافة أمام التحديات الكبرى.

ولسنا بحاجة - كما نعتقد - للدخول في عملية تفلسف الخطاب وتحديد له تعاريفه وأقسامه وعناصره وضوابطه، فذلك أمر يكاد يتضح ببداهة لدى المفكرين.

ومقاصد الشريعة واضحة فيه، وتتلخص في كونه يوصل الحقيقة للآخرين أو فلنعبّر عنها بعملية

إبصال الحقيقة من قبل الشاهدين عليها إلى الغائبين عنها كما قال ﷺ: "ليبلغ الشاهد الغائب"^٥.

١. يوسف: ٤٠.

٢. المائدة: ١٠٣.

٣. البقرة: ١٧٠.

٤. الاعراف: ٢٠٥.

٥. مسند احمد، ج ١، ص ٢٣٠، وج ٤، ص ٣٦، وج ٥، ص ٣٧، وج ٦، ص ٣٨٥، سنن الدارمي، ج ٢، ص ٦٨، صحيح البخاري،

ج ١، ص ٢٤-٢٥ و٣٤ و٣٥، صحيح مسلم، ج ٤، ص ١١٠، وج ٥، ص ١٠٨، سنن النسائي، ج ٥، ص ٢٠٦.

وللإسلام أسلوبه الرائع في الدفع نحو الحوار البناء الموضوعي، والمنطقي، بشكل يعد نظرية متكاملة وسابقة في تاريخ الفكر الإنساني.

ولكننا نشعر بأدواء يتلى بها الخطاب الإعلامي الإسلامي بشكل فضيع في عصرنا الحاضر مما يقعه عن تحقيق مقاصده. ولعلنا نستطيع جمعها تحت عنوان "التطرف المرفوض" والابتعاد عن "العقلانية" و"الوسطية" و"التوازن".

ولسنا بحاجة للحديث عن مدى التزام الإسلام بهذه الأمور، فهي ظواهر واضحة في شريعته ووضوحها في مفاهيمه وأخلاقياته.^١

ومن الجدير ذكره أننا لا نريد بالخطاب الإعلامي ذلك الخطاب المتداول والمتدني أحياناً إلى مستوى الاهتمام بالقضايا الجزئية والعادية وربما العامة، بل ما نركز عليه هو إعلام المفكرين الإسلاميين الذي يخاطب عقول الأمة وثقافتها ونهج حياتها ويجدد موقعها الحضاري البشري.

فمحاولتنا هي نقد ذاتي لحركة المفكرين الإعلاميين ودعوة إلى تحقيق الوسطية:

بين السطحية والتعمق التعقدي؛

وبين الاتجاه المتسرع المتهور والنفس التغييرية الطويل؛

وبين التخصص وعدم الاحتكار؛

وبين الانغلاق والتأثر المفرط؛

وبين التعصب والتنازل المبدئي؛

وبين الرجعية والتقدمية المزيفة؛

وبين الإفراط في التقييم واللامبالاة.

وكلها نماذج غير حاضرة لأدواتنا في الخطاب.

النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم

تختلف النفوس والآفاق من حيث الموضوعية والسعة إلى حد كبير، فبين من لا يأبه لأي نقد

شخصي مهما كان حاداً عنيفاً، وبين من تجرّحه كلمة ناقدة مهما كانت موضوعية بناءً.

١. راجع كتاب «من الظواهر العامة في الإسلام» للمؤلف، ص ٤٩ وما بعدها.

إلا أن نقد الحركة والإتجاه الفكري أمر طبيعي، وكثيراً ما يدعو الأفراد للتأمل وإعادة النظر دون أن يصحب ذلك تأجج حماسي بليد، أو عاطفة جريجة ضارية تسد السبل على التفكير الهادئ.. وتلك هي سنة الغضب الطافح عن حده.

وما نحاوله هنا هو تحريك حس النقد الذاتي لمسيرة الفكر الإسلامي السائد اليوم في عالمنا الإسلامي المعاصر، والذي يطالعا بشكل كتاب أو مقال أو محاضرة تطرح منفردة أو تنضم إلى مجموعة نطلق عليها عنوان ندوة أو مؤتمر فكري.

على أن منهجنا في هذا الحديث لا يتوجه بالاتهام الصريح إلى الرموز الفكرية التي تطالعا أسماؤها في هذه الصحيفة الإسلامية أو تلك، وإنما يطرح بعض الأمراض والنقائص التي لا يشك أحد في ماهيتها المرضية، ثم يترك للمفكر نفسه أن يتجرد من دوافعه الذاتية - والمفروض أنه يعمل مخلصاً في سبيل إعلاء كلمة الله - فينظر هل تمسه لفحة من هذا اللهب، أو تدنس ثوبه لوثة من هذا القتام؟

وقبل أن نطرح بعض هذه الإنهاط المرضية نسارع للتركيز على حقيقتين موضوعيتين هما: الأولى: وجود بعض المفكرين الواعين الذين منحهم الله تعالى القدرة على التحليق الفكري المجرد، والإخلاص له - جل شأنه - الأمر الذي جنبهم الوقوع في المزالق وجعلهم مهبط الهداية الإلهية، فهم يعملون - بجهد كبير - على عرض الادواء وتوضيح الدواء.

الثانية: توقع التغيير الشامل للحركة الفكرية الإسلامية، وانسجامها بالتالي مع التغيير الشامل الذي يسري كالعافية الإلهية إلى أوصال عالمنا الإسلامي الكبير.. فنحن إذن إلى التفاؤل أقرب منا إلى التشاؤم.. بل إننا لنجدنا نأمل أملاً قريباً في طلوع إسلامي فكري مشرق، يغمر الأرض نوراً بحوله تعالى وقوته.

أما وقد ركزنا على هاتين الحقيقتين، نود أن نستعرض - بما يتناسب وحجم هذا الحديث - بعض نقاط الضعف، والحالات المرضية التي قد يبتلى بها الفكر، أو فلنقل يبتلى بها المفكرون. وأولها - بكل صراحة - (التبعية المكتمة للأفواه) والتي غالباً ما تشخص بشكل تبعية لذوي النفوذ، وهذه التبعية المقيتة قد تفرضها ظروف الطرف المسيطر، كما قد يلجئ إليها الضعف النفسي للمفكر، وحاجته الاقتصادية أو النفسية إلى مثل هذه التبعية.

ويمكننا أن نفترض لهذه التبعية من آثار السوء الشيء الكثير، فقد تبدأ بعنصر المجاملة، وعدم

التعرض لما يغضب، وتنتهي إلى عملية التزييف المتعمد بعد أن تمتلئ البطون من الحرام، وتتفخ الأوداج من دماء المقهورين.

وبين تلك البداية وهذه النهاية يمكن تصنيف الكثير الكثير مما يكتب أو يلقي في عالمنا الإسلامي وباسم الإسلام، والتربية، والتوعية!!

فهل فكر بهذا الأمر أولئك الذين باعوا أئمن جوهره في الحياة وهي (الحياة المعقولة) للصغار التافهين، فراحوا يمتدحون جاهلاً لا يعقل ما ينطق ولا يملك من مسوغات الوجود المسيطر.

نعم؛ لنتائج التبعية درجات، فمنها ما لا يتجاوز الإعراض عن ذكر ما يغضب، والاقتصار على التوعية البعيدة عن تحريك أبناء الأمة ضد الظلم، في حين نجد المظاهر الأخرى تصل إلى حد التسويغ لما يفعله هؤلاء المانحون حتى ولو كان قد بلغ من الوضوح ما لم تبلغه الجريمة نفسها.

والعينة المرضية الأخرى - على الصعيد الفكري - هذا (التكرار الممض للفكر دونما إبداع وابتكار) لا في مجال الموضوع ولا على صعيد الحلول والاستنباط.. وإنه لما يملأ القلب ألماً إلا نجد من يرفع الخطوة التالية لخطوة رفعها مفكر كبير هو المرحوم آية الله الشهيد الصدر^١ في المجال الاقتصادي، وذلك على الرغم من مرور نصف قرن على هذه التجربة من جهة، والحاجة الماسة إلى مثل هذه الخطى الفكرية الكبرى من جهة أخرى.

وأما الساحة الفكرية، فلنسر فيها، ولنبر هذه المظاهر، ونعمل بالتالي على إدايتها بأي شكل كانت. أما نقطة الضعف الأخرى والتي تبدو للعيان فهي مسألة (عدم التعامل مع الواقع القائم) و(الابتعاد - إلا لماماً - عن المشاكل الواقعية للأمة) لعوامل كثيرة، منها ما سلف من عدم التعرض لما يغضب ذوي النفوذ، ومنها عدم الإحساس بالجمهاير بعد تمام عملية التخدير، وغير ذلك.

وإلا فكم هي الكتابات التي نشهدها عن الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام كله في إطار وحدة إسلامية شاملة تتناسى الحدود والمصالح الضيقة؟ وهل تتوفر الدراسات الكافية للمبادئ المنحرفة التي تسود عالمنا الإسلامي كالقوموية الضيقة، والماركسية، والأفكار الرأسمالية والعلمانية

١. هو الإمام الشهيد محمد باقر الصدر، أستشهد عام ١٩٨٠ في العراق على يد مجرمي نظام صدام البائد، وأفكاره المبدعة في الفقه والفكر والسياسة لا تخفى على أحد، له: اقتصادنا، فلسفتنا، دورس في أصول الفقه، الأسس المنطقية للاستقراء وغيرها.

والهرمنوطيقيا والعمولة وغير ذلك، مع أنّها مشاكل يعاني منها جسم الأمة وفكر شبابها الناهض. واستطراداً في هذا المجال نجد (الفراغ الهائل في الدراسات الجامعية الإسلامية) فأين هي المناهج التي تشبع هذا النهج؟ وهل استطعنا العمل على تلبية هذا الشوق الجامعي المتطلع للإسلام وهو واقع قائم لاشك فيه، فمإذا نحن في قبالة فاعلون؟ وحتى التجارب التي طرحت لأسلمة الجامعات جاءت ناقصة مبتلاة بالأفكار المستوردة دون ملاحظة عدم إنسجامها مع واقعنا الإسلامي. وإذا أردنا أن نستمر في عرضنا لنقاط الضعف فإننا سنجد أمامنا قائمة طويلة ملأى بها وكلها مما لا يمكن غفرانه.

إننا سنجد أمامنا مثلاً: ضعف العرض وقلة التجديد في ذلك، وإهمال مسألة الإثارة الحماسية القائمة على أساس الفكر الأصيل، وهي جانب قرآني أهملناه في بحوثنا، وغير ذلك كثير. ونعود فنكرر ما قلناه آنفاً من أن هذه الظواهر قد تكون غير عامة ولكنها - على أي حال - تمتلك مواقعها في وجودنا الفكري، الأمر الذي يتطلب نقداً ذاتياً موضوعياً يقوم به كل فرد، وكل مجموعة، مستهدفين القيام بالواجب الإلهي التاريخي، عاملين على المواكبة - على الأقل - لمسيرة تطورات الأمة، والتي تطوي المسافات الطويلة لتقع على الهدف الكبير حيث يكون الدين كله لله، وفي الأرض كل الأرض بعونه تعالى، والله على كل شيء قدير.

إننا نعتقد أنّ علينا إعادة الروح التي أرادها الإسلام للخطاب، وهي روح التوازن بين:

- الواقعية والمثالية.
- الفكرية والعملائية.
- التعقل والحماسة.
- الانسجام بين العقيدة والعاطفة والسلوك.
- التناغم بين مستويات التطبيق لنظم الشريعة.
- الخوف والرجاء.
- الاتكال على الله والاعتماد على النفس.
- المنطقية والوضوح.
- التعبد وفهم الحكم.
- المسؤولية الذاتية والمسؤولية الجماعية.

- الشكر في الإنتاج والعدل في التوزيع.

الى ما هنالك من أطر تنظم الحياة، وتدعو للخير والمعروف.
وسنحاول فيما يلي التركيز على نمط واحد من إنباط التوازن المطلوب.

التوازن المطلوب بين خصوصيات الفرد والوطن وعموميات الأمة

والملاحظ في بعض إنباط الخطاب الديني بمعناه الواسع أنه يغرق في الخصوصية الفردية حتى لكأن الدين جاء ليربي الجانب الفردي في الإنسان، ويهمل الجانب الاجتماعي ويمكن أن يعزى هذا، إما إلى غرق في الخصوصية الفردية ينسى معه الباحث والمفكر المسار الاجتماعي، أو إلى تأثر بالفكر الديني الغربي الذي يجعل الدين شأنًا فردياً لا دخل له بالحياة العامة.

ولكننا نراه يغرق في الحالة الاجتماعية والشمولية حتى لكأنه ينكر كل خصوصيات الشعوب. وعلى أي حال فإننا قد نجد الباحث - وقد يكون على مستوى رفيع من الفقه - يركز على النص الديني تركيزاً فردياً خالصاً فيطرح الاحتمالات، والاحتياجات، والمستحبات التي لو عمل بها الفرد إبتعد عن أي نشاط اجتماعي مجد، وهذا ما لاحظناه في بعض الدراسات الأصولية والفقهية. وهذا من قبيل الإفتاء بصرف الزكاة في خصوص محلها لاغير. في حين أن التخطيط لتحقيق التكافل اليوم لا يتم إلا عبر مركزية عامة.

وقد نجد يركز على المصالح المحلية أو الوطنية أو حتى المذهبية إلى الحد الذي ينسى معه مصالح الأمة أو حتى الرؤية الإسلامية الشاملة. وهذا من قبيل أن تدرس مسألة مهمة (كالتقريب بين المذاهب) على ضوء ما يمكن أن تعود به من المنافع على هذا المذهب أو ذاك دونما نظر إلى ما تقتضيه الاتجاهات الإسلامية أو مصالح الأمة بأسرها.

ويدخل في هذا أيضاً تشبّع أتباع المذاهب بفكرهم الخاص حتى أنهم ليستغربون أن تدل آيات كريمة على خلاف مذهبهم.

وقد نجد الخطاب الديني مركزاً على تنمية الموارد الوطنية في إطار المصالح الوطنية دونما نظر للحالة الإسلامية العامة، وضرورة التنسيق معها لتحقيق المصلحة العليا للمجموع.

وربما تم الاهتمام بالمخاطر السياسية أو الاقتصادية أو حتى الأخلاقية المحلية دونما ملاحظة لمسيرة العامة ومقتضياتها.

وأخيراً قد نلاحظ هذا الخطاب يقصر تخطيطه على إصلاح جزئي فردي بعيداً عن اهتمامات الأمة.

وفي المقابل: نجد بعض إنماط الخطاب يفرض في التعميم، والتذكير بمصالح الأمة متناسياً خصوصيات الفرد والأرض والشعب وطبائفة المخصوصة، ولذلك يأتي وقعه باهتاً، ولتواجهه لا أبالية طبيعية من مستمعين غريبين على مثل هذا اللحن العام، مشغولين بمخنهم الخاصة. ومن هنا: فإن المطلوب من الخطاب الديني العودة إلى (التوازن) و(الواقعية) و(العقلانية) و(المرونة) وكلها من الظواهر الإسلامية العامة والتأكيد على نقاط، أهمها:

أولاً: ملاحظة المصالح العامة والخاصة معاً مع تغليب المصلحة العامة عند التعارض. ثانياً: اعتماد النظرة الاجتماعية ومقاصد الشريعة العامة مع النظر إلى المقاصد الخاصة لكل نظام. ثالثاً: إن العالمية الإسلامية لا تعتدي على الخصوصيات الثقافية للشعوب، بل تهذبها وتوصلها وتخلق الإنسجام بينها.

رابعاً: اعتماد مبدأ الوحدة الإسلامية في المواقف العملية، وتحمل التعددية الفكرية، مع الاتجاه إلى اكتشاف المساحات المشتركة، وتوسعتها والتعاون على تطبيقها، والتسامح في موارد الخلاف. خامساً: التحلي بمجمل الظواهر الإسلامية العامة التي أشرنا إليها في عمليات التخطيط التنموي الطبيعي والإنساني المعنوي.

سادساً: نبد منهج الإفراط والتطرف من كل شيء فإنه منهج مخرب، إذا دخل العبادة حولها إلى رهبانية، وإذا دخل العلم حوله إلى حجاب وهو نور، وإذا دخل الجهاد حوله إلى تصرف عشوائي وتمهور واستهانة بالحرمان، وإذا دخل الحوار حوله إلى جدال ظالم وسعى للانتصار بأي ثمن، وإذا دخل المذهبية حولها إلى طائفية تكفيرية تمزق وتفرق بشكل اهوج، وتكفر لأبسط تصور، وتبدع بامتياز، وتفسق لأية زلة.

إن التحديات المشتتة كثيرة، ولا يمكن أن تواجه بخطاب ناقص، ضعيف المنطق، يكتفي بالعموميات والحماسيات ويهمل الجوانب الأخرى. فلنعمل على الارتفاع بمستوى خطابنا ليواجه التحديات، بل ليحولها إلى فرص كما يبدو من مضمون قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^١.

١. آل عمران: ١٧٣.

التقريب وصيانة الهوية من تهديد التنميط وتداعيات التفريط

متى يطرح السؤال؟

عندما تهاجم أمة ذات وعي وموقف من الكون والتاريخ والإنسان ولها إيديولوجيا حياتية مستوعبة مما يتجسّد تماسكا هو من صميم فكرها وشخصيتها، فيراد لها أن تغرق في اللاأبالية، ويستهدف تماسكها، وعندما يتم العمل على فصل الواقع عن جذوره التاريخية العريقة ومبانيه العقائدية، وخصوصياته المحددة، وعندما يخطط الأعداء أن يميّتوا العقل الجمعي والثقافة العامة والترابط الشعوري والتناسق السلوكي، وعندما يراد قهر الإرادة وتفتيت الوحدة وكسر المقاومة، وعندما يُعمل على دفع أمة للتردي في وهدة الحالة الفولكلورية والسطحية ليجتنب من ذلك، إما التمجيد والنرجسية الفارغة أو التعصب والعنصرية (وفي كلتا الحالتين ستكون النتيجة هي التقهقر الهووي والتراجعية والتطرف فكرياً وثقافياً واجتماعياً) - كما يعبر الدكتور فتحي التريكي^١. نعم عندما يتآمر العدو على أمة ما يبرز سؤال (الهوية) أو (ألهوية) كما يعبر بعض الفلاسفة. والهدف الواقعي هو معرفة حقيقة الأمة كما هي ومعرفة حدود هذه الحقيقة ومشخصاتها دونما إغراق في التعميم والنمطية بحيث تتحول إلى حقيقة سيالة ووجود منفتح، ولا تفريط بمعالم الشخصية وتضييع لفرديتها وتشخصها الذي يمنحها ما تمتاز به على غيرها.

ماهي الهوية على صعيد الأمة؟

يطرح الفلاسفة حقيقة لا ريب فيها هي أن المفاهيم الكلية تبقى ذهنية فإذا أريد لها أن تدخل عالم الوجود تشخصت بحدودها وتعينت بمميزات الوجودية ولكنها على أي حال لها هويتها في المرحلتين وهي تنطرح في الإجابة على سؤال ماهي أو ماهو؟ بل لا يمكن أن نتحقق من كون هذا الذي وجد هو مصداق لذلك المفهوم إلا إذا كنا نعرف أبعاد المفهوم نفسه.

١. الحدائنة وما بعد الحدائنة ص ١٩٥.

ولذا يكون السؤال ماهي أبعاد مفهومنا عن ماهية الأمة الإسلامية نظرياً؟ له الأسبقية على سؤال ماهو واقع هذه الأمة ومدى إنسجامه مع الصورة النظرية؟

وما نتصوره لهذه الأمة نظرياً يتأطر بالإطار التالي:

أولاً: تجمع بشري يؤمن بتمييزه الإنسان عن سائر الموجودات الحية بخصائص فطرية لا تتوفر بمجموعها فيها هي:

أ- العقل بأحكامه النظرية والعملية، وقدرته على التخلص من سيطرة الواقع الحسي وتأثيراته من خلال إدراكاته المتخيلة، والموهومة والمستنبطة بالإضافة لمحسوساته التي يتجاوزها لتكوين المفاهيم الكلية التي يسرح بينها ليعود إلى الواقع المحسوس ويدرسه ويلاحظ نقاط القوة والضعف فيه، ويفترض صورة جديدة تتخلص من نقاط الضعف وتحفظ بنقاط القوة ويرسم لنفسه خارطة توصله للصورة النموذج، وحينئذ تبدأ عملية التغيير من خلال دوافع العلة الغائية ولذا يمكن أن يمتاز الإنسان بكون الحيوان المغير.

ب - الغرائز والميول، وهي دوافع عمياء تشاركه في بعضها الأحياء الأخرى ويختص هو بميول متعالية (كالشوق إلى الكمال وحب الاستطلاع والتدين وأمثال ذلك).

ج - الإرادة الحرة التي تقرر الموقف بمسؤولية مهما اشتدت الضغوط العقلية والعاطفية. ثانياً: ويؤمن بالله تعالى خالقاً للكون ومدبراً له وبكل صفاته الحسنى الجمالية والجلالية، وبالأنبياء والرسل وآخرهم الرسول الأكرم محمد ﷺ الذي جاء بالرسالة الخاتمة الخالدة قادة للتاريخ الإنساني ومبلغين لشرائع الله الهادية إلى مدارج الكمال، وبالقيامة معاداً لهذه المسيرة مما يعطيها هدفية ومعنى ولكل هذه المعتقدات فروع كثيرة تستفاد منها منطقياً.

ثالثاً: ويؤمن برسالة إسلامية تنظم الحياة وتبني المجتمع وتربي العقل والعواطف وتوجه السلوك كله نحو الكمال وتتصف بالواقعية والإخلاقية والتوازن والمرونة والشمول والعدالة والوسطية إلى ما هناك من صفات منسجمة.

رابعاً: ويؤمن بضرورة المساهمة في المسيرة الحضارية الإنسانية وامتلاك دور طليعي فيها، عبر إنفتاح على الحضارات والثقافات وتشجيع على التقدم، واتخاذ منهج حوارى منطقي مع الآخر، وتعاون عالمي في كل ما يخدم الصالح الإنساني العام ويدفع الظلم والعدوان على الحقوق وينصر المستضعفين ويحقق السلام العادل.

موارد الحذر

وفي مجال تحديد الهوية يجب الحذر من الجوانب السلبية وأهمها:

أ- السقوط في مفهوم ذاتوي متعال، ونرجسية تصعيدية لامبر لها، ونمطية تهدد كل أنواع الحوار وتنتظر لنفسها على أنها نهاية التاريخ ومنتهى التقدم تماماً كما نشهده عند الليبرالية الديمقراطية ومنظرها اليوم، فهم مهما اختلفوا في الوسائل فهي الصراع أو التنافس يتفقون على أن المسار الحضاري يجب أن تتجه بوصلته نحو (الليبرالية الديمقراطية) لا غير وحتى أولئك الذين يبدون مرونة في التعامل مع الآخر الإسلامي فهم يبقون على الهدف ويخففون من قسوة الوسائل.

إن الهوية الإسلامية رغم قيمها الثابتة الفطرية تفسح المجال للاجتهاد الإنساني أن يقدم إبداعاته التفصيلية، وحكمته العملية التنظيمية الإبداعية، ورغبته الاجتماعية المتغيرة.

ب - السقوط في هاوية التفريط بالقيم الإنسانية الثابتة وهو مرض قاتل للحضارة يعصف بالقيم والعقل والمنطق والحقيقة والمعرفة وهو تماماً ما سقطت فيه حالة مابعد الحداثة الغربية.

فإن الواقع الإنساني يحوي ثوابت قيمة هي سر انطباع أية مسيرة بشرية بالطابع الإنساني ومتغيرات طبيعية من قبيل بعض علاقات الإنسان بأخيه الإنسان أو بالطبيعة، وإذا كان التعامل مع القيم ثابتاً فإن التعامل مع الجانب المتغير يتصف بطابع المرونة.

وعليه فنحن ندعو للمرونة الواقعية ونرفض الميوعة المفرطة، يقول الأستاذ الشهيد الصدر: "فالتحرك الضائع بدون مطلق تحرك عشوائي كريشة في مهب الريح، تنفعل بالعوامل من حولها ولا تؤثر فيها. وما من إبداع وعطاء في مسيرة الإنسان الكبرى على مر التاريخ إلا وهو مرتبط بالاستناد إلى مطلق والالتحام معه في سير هادف، غير أن هذا الارتباط نفسه يواجه من ناحية أخرى الجانب الآخر من المشكلة، أي مشكلة الغلو في الانتماء بتحويل النسبي إلى مطلق، وهي مشكلة تواجه الإنسان باستمرار، إذ ينسج ولاءه لقضية لكي يمدد هذا الولاء بالقدرة على الحركة ومواصلة السير، إلا أن هذا الولاء يتجمد بالتدرج ويتجرد عن ظروفه النسبية التي كان صحيحاً ضمنها، ويتزعزع الذهن البشري منه مطلقاً لا حد له للاستجابة إلى مطالبه، وبالتعبير الديني يتحول إلى إله يعبد بدلاً من حاجة يستجاب لإشباعها^١.

١. الفتاوى الواضحة ص ٥٨٣.

ويقول الأستاذ التريكي: " والفهم الموضوعي (لقضية الهوية في قبال الفهم الذاتي) يحاول إقرار تناظر وتناسق بين الهوية والعقل في صبغته المنفتحة والكونية في الآن نفسه، وهو يأخذ بعين الاعتبار ثوابت الوجود ومتغيراته ويفتح الوجود على الحياة بتغيراتها ومفاجأتها ونضالها وتوتراتها، فالذات في هذا الفهم مؤسسة للعقل والوعي المتحرك"^١.

السلوك الرشيد

ومن هنا فإنّ من اللازم علينا - ونحن نعمل على تلافي تهديد التنميط وتداعيات التفريط - الالتزام بسلوك متوازن رشيد ومن إنباطه مايلي:

١ - أن تمتلك الأمة نظرة عالمية إنسانية تستمد فلسفتها من وحدة الفطرة ووحدة المسيرة، وضرورة التعاون الدولي في نظام عادل يعطي كل ذي حق حقه ويحترم الخصوصيات الثقافية كما يحترم حقوق الإنسان وحرياته دونما اعتداء.

وحيثذ يجب التنبيه والحذر من الوقوع في حبال هذه العولمة المجنونة التي تعتمد الهيمنة الثقافية والسياسية والاقتصادية على الآخرين، وهي في الواقع إعادة إنتاج لنظام الهيمنة الرأسمالية القديمة مع تغيير في الأسلوب والوسيلة.

صحيح أننا لا نستطيع أن نخطط لأية قضية حتى ولو كانت تبدو لأول وهلة داخلية بحتة - من قبيل قضايا التربية والإعلام والبيئة الداخلية وحركة الطاقة الداخلية والمسيرة الزراعية والتنمية العلمية، وحتى المناسبات والقناعات الفولكلورية - إلا إذا لاحظنا المسيرة العالمية للعولمة في كل هذه المجالات، وإلا فسيكون تخطيطنا ناقصاً تواجهه موانع بعد ملاحظة الفضاء العولمي والنفوذ العميق لثقافة العولمة إلى كل مجالات حياتنا شتاً أم أبيتنا.

وتلك بنفسها مشكلة تضغط على إنباط تخطيطاتنا.

ثم أنّ مفهوم الدولة وقدرتها بدأ يهتز بشدة وبالتالي راح دور الضغط الخارجي، والمراقبة الكونية يزداد. وربما كان هذا ذا أثر ايجابي في مجال نفي الأساليب الديكتاتورية والقمعية وإدانة انتهاك حقوق الإنسان، إلا أننا نعلم أنّ العولمة لا تستخدم هذه العناوين البراقة إلا لتبرر تدخلها

١. الحداثة وما بعد الحداثة، ص ٢٠١.

لتحقيق مصالحتها الضيقة، فإذا رأت أن تدخلها ينقلب على أهدافه المخفية تخلت عنه، وهو بالضبط ما رايناه من نخلي أمريكا عن مشاريعها في الشرق الأوسط الكبير والجديد.

٢- أن تعتمد الأسلوب الوسطي المتوازن في مختلف تعاملاتها مع الواقع وتتجنب الإفراط والتفريط فكلاهما يعد خروجاً عن الجادة المستقيمة. ويمكننا أن نؤكد أنها إذا ركزا على أي شيء أفسده حتى العلم والدين والمعرفة فإذا أصيبت هذه الأمور بالإفراط مثلاً تحولت إلى مسارات خطيرة ومنزلاقات واسعة.

٣- أن تجعل عملية الحوار مع الآخر الداخلي والخارجي منطقتها قبل أي خطوة أخرى. وها هو القرآن يتحدث لنا عن أساليب من الحوار جرت ويمكن أن تجري بين أطراف متنوعة ويرسم لنا أحسن الطرق في الحوار، حتى أننا نعتقد أن في القرآن نظرية متكاملة للحوار المنطقي السليم. ويخطئ من يتصور أن الحوار لغة العاجزين، بل هو على العكس لغة الأقوياء في منطقتهم، المطمئنين إلى أصالتهم، الواثقين من هويتهم، الموضوعين في تعاملهم. نعم إذا أراد الآخرون استغلال الحوار لكسب الوقت وتنفيذ الخطط الجهنمية أو لبث الشبهات الممزقة والظلم للوجدان الاجتماعي فإنهم هم الذين يسدون باب الحوار.

٤- أن تعتمد الأمة منهج التغيير المستمر بهدف الوصول إلى الأفضل طبعاً مع الاحتفاظ بالثوابت الإسلامية التي هي جزء من الهوية. وتعمل على تعبئة كل طاقاتها المادية والمعنوية للتخلص من حالة التخلف الاقتصادي والعلمي والاجتماعي والتقني والتربوي والإعلامي وغير ذلك وليكن المنهج التغييرى سمة عامة وفق ما أراده الإسلام كما أشرنا إلى ذلك. إن التجديد حتى في أساليب الاستنباط الديني، والتحرك في عملية الوعي، يشكل منة على الأمة - كما تذكره الروايات.

٥- أن تمتلك الأمة المناعة الكاملة ضد التآمر على هويتها التقنية وثقافتها الاجتماعية من خلال التأثيرات التي تتركها احتكار المؤتمرات الدولية والجو الإعلامي من قبل قوى التآمر. وهذا المعنى ينسحب على عملية التقنين والتشريع الثقافي والاجتماعي، فها نحن نشهد مؤتمرات التنمية والسكان والمرأة تسعى جاهدة لتعميم الثقافة الغربية والتصورات الاجتماعية المنحرفة باسم (الحقوق الجنسية) و(الحرية الفردية للمراهقين) وأمثال ذلك، مضمنة ذلك في خانة حقوق الإنسان وهي الباب الواسع الذي تنفذ منه العولمة إلى جميع المجالات.

كما أننا نشهد تدخل العولمة الإعلامية من خلال الجو الخائق للمعلومات المتدفقة عبر مئات المحطات الفضائية والانترنت لتغير الحقائق، وتبسط الهمم وتبث الشائعات وتمزق الأواصر، وتغير التصورات وتشكك في القناعات وتخلق الحزازات. وهذه أماننا المؤامرة الضخمة التي تعمل على أن يخطئ العالم الإسلامي عدوه الحقيقي ويتوجه إلى أعداء وهميين، بعد تحريك الكوامن الطائفية والقومية والجغرافية والتاريخية فيه.

وعلى نفس الوتر نذكر بالمشكلة الأخلاقية التي جلبها لنا اعلام العولمة، فجعل الرذيلة والعري والتحلل وكل المحرمات مباحة معروضة في العلن امام شبابنا وكل من تتحرك فيهم الأهواء. والأنكى أنه خلق له قواعد ومحطات داخلية تصب حممها على الترابط الخلقي بين مجتمعاتنا فلا يستطيع الخيرون أن يصلحوا الأمر.

وقد أبتلينا أخيراً بالتدخلات العسكرية الأمريكية تحت غطاء العولمة ومساهمة القوى العظمى في دفع الأخطار عن البشرية ومحاربة الإرهاب، بعد أن سوقت لمفاهيم عولمية خطيرة من قبيل مفهوم (الحرب الاستباقية) وأمثال ذلك.

وكانت التدخلات الخطيرة في أفغانستان والعراق ولبنان، والقائمة ممتدة، بالإضافة للعدوان الصهيوني المستمر في تطبيق الأجندة الغربية الممتدة.

ولاريب أن العالم كله قد شهد ما تركته هذه التدخلات من آثار ثقافية واجتماعية واقتصادية مدمرة عانت منها مجتمعاتنا كثيراً.

وربما كان من سخرية المسيرة اليوم أن نجد نظماً حاکمة تتذرع بالدفاع عن شخصية الأمة ووحدتها وصمودها في قبال العولمة بتشديد الرقابة وزيادة القيود على الحرية وتكميم الأفواه ونشر الاستبداد، فتكون بذلك من قبيل المستجير من الرمضاء بالنار. وماهي في الواقع إلا ذريعة للتشبث بالحكم والسلطة وقد توافقها دول العولمة لأنها تؤمن لها نفوذها وهيمنتها وهو المقصد الأول في كل العملية العولمية.

٦- يجب أن تقوم الأمة بالنظر إلى المستقبل والعمل له دون الفرق في الطوباوية ودون أن تهمل تاريخها لأنه أيضاً جزء من هويتها والذي يجب توظيفه لصالح التغيير التكاملي بدلاً من البقاء في أسر أحداثه المتلاطمة. أنه يجب أن يكون عبرة للاعتبار لا وحدة للتخدير وأحياناً للاختلاف المرير.

إنَّ الطوباوية في النظرة المستقبلية مثلها مثل الذاتية التحذيرية في النظرة التاريخية تضر بالمسيرة أيما إضرار.

٧- يجب أن تمتلك الأمة موقف الأمل بالله مع الإطمئنان ببقاء السنن الكونية. فإنه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشأ بالله تعالى في حالاته، ويتعلق بفضله، ولا يبأس من روح الله تعالى في أشد حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنها لن تنفج فهو معتقد بقدرة الله على تغييرها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقق الهدف، نظراً لأنه يعتقد بأنَّ الله "أبى أن يجري الأمور إلا بأسباب" وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي، تشكلان عنصرين مهمين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تتفتت. وسلوك السبيل الطبيعي يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنساناً واقعياً يتعامل مع الواقع كما يتطلبه الواقع.

٨- على الأمة أن توازن بين موقف التوكل على الله وموقف الثقة بالنفس ولعل هذا النوع من التوازن يرتبط كل الارتباط بما قبله، فإن اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنه لا يملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى؛ ولا توفيق إلا به تعالى، مما يركز النظر عليه في كل تأثير... إلا أن هذا التوكل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة بنفسه، ذلك لأنه يتصور أن الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكل تعاليم السماء روحها؛ وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكل، يغير ونظره مركّز على السماء، يبني وهو يعلم أن المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكل على الله تعالى خالق الكون فتفتح الصعاب وتقدم التضحيات.

٩- وعليها أن تقف موقف العلو على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل، فبعد إيمان المسلم بأنَّ العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كل ذلك الإرادة الإنسانية التي تهبُّ للإنسان مجال

التحكم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأن له اختيار تنظيم حياته، ويده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لا يمكنه أن يتحرك تجاهها، وإنما يمكنه - متى لاحظ عدم صلاح واقعه - أن يغيره.

وهذا التصور يعطيه حركية دائمة تعمل على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كل ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريد ويرشده لئلا يضل، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبداً لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كل العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها وغير المحسوس قننت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تماماً كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجازبية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فهو يحسب لكل عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدي التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا - إذن - يوازن بين تقدير عمل العوامل والعلو على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعياً في سلوكه.

١٠- وعلى الأمة أن تقف موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر، وذلك، لأنه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد، فإن الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحاً بسلاح الوعي مستمعاً لإرشادات الوحي، متجنباً مزلق الضلال، مطمئناً بأنه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعادته تكمن في رجمه ورجم كل ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائماً وأهمها العبادات التي تشده شداً بالله تعالى، وتركز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً.

وعليها بالتالي أن تقف موقف الخوف والرجاء ويكاد هذا النمط من التوازن يشكل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المسلمة.

فعن الصادق عليه السلام أنه قال: "كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا"^١. فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية. ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلت لديها المعقولات فقتربت من عالم الحس - كما سيأتي - ومن ثم انعكست على السلوك الخارجي. كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: "لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو"^٢.

والملاحظ هنا - كما لاحظ ذلك بعض الكتاب^٣ - أن الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيهها الوجهة الصحيحة، فنفى كل متعلقاتها الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكل مصدراً للقلق الممزق للنفس الإنسانية، المميّج لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي أبتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية. نعم، نفى الإسلام تعلق الخوف بأمور لا ينبغي الخوف منها، إلا في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلق إلا في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى. وبتعبير آخر: إن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه. والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته فكل خوف أو رجاء لا يؤطره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن ينفي من حياة الإنسان، لأنه مصدر قلق بعد أن تعلق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحياناً.

الحج جو نموذجي للتقريب والوحدة

مرينا القول: إن (الوحدة الإسلامية) هي إحدى خصائص الأمة الإسلامية المهمة، ولا

١. الوسائل، ج ١٥، ص ٢١٦.

٢. الوسائل، ج ١٥، ص ٢١٧.

٣. وهو محمّد قطب في منهج التربية الإسلامية، ص ١٥٧.

يمكن أن نتصور أمة إسلامية متكاملة الشخصية دوننا تصور لهذه الخصيصة وبدونها تكون الأمة قد فقدت الكثير من خصائصها الأخرى، وربما تكون قد فقدت خاصية الإيمان الصادق بالله العظيم وبطريقها الإسلامي الواحد.

ولا تعني الوحدة الإسلامية قولبة كل الأفكار ووحدة كل الأنماط الفكرية والذوقية وأمثلة ذلك، فإن ذلك من المستحيل وإنما تعني الاستجابة للبرنامج الإسلامي المخطط، وتكوين أمة تقيم التوازن بين خطين أساسيين:

أحدهما - هذا الاختلاف الطبيعي بين الأذواق والإمكانات والمستويات العلمية، وزوايا النظر، والثقافات والأدلة وكيفية الاستنباط والقناعات التحقيقية، وأمثلة ذلك من الأسباب الطبيعية التي تنتج الاختلاف، وقد بحثها علماءنا الأجلاء منذ القرون العديدة. وثانيهما: لزوم الموقف الموحد في مجالات عديدة أهمها:

أ - الأصول الإسلامية الأولى التي تقع موقع البدييات الإسلامية، فيجب أن تشكل المساحات الفكرية المشتركة.

ب - الأخلاقية العامة التي تشكل الخصيصة المشتركة الأخرى بل يتعدى الأمر هذه المساحة إلى حيث يشغل كل الخصائص العامة للأمة الإسلامية، فيجب أن يعمل كل المسلمين على التحلي بهذه الخصائص أو على أن تتحلى أمتهم بها.

ج - تطبيق الشريعة الإسلامية على كل الحياة، ويمكن أن يعد هذا من البدييات الفقهية للإسلام باعتباره أطروحة حياتية جاء الأنبياء جميعاً ليعدوا البشرية لتقبلها وتطبيقها.

د - الموقف السياسي الموحد من القضايا العالمية وخصوصاً في قبال أعداء القضية كلها، وهم المشركون والمنافقون والمستكبرون والعمل على الدفاع عن بيضة الإسلام.

هذه - إجمالاً - هي المجالات التي يجب أن تتوحد فيها الأمة، فإذا تم هذا عدنا إلى ما قلناه من أن الأمة الإسلامية يجب أن تحقق هذا التوازن بين الخطين فتضمن من جهة، تدفق الأفكار الجادة ونشاط الاجتهادات المفيدة في نفس الوقت الذي تضمن فيه الموقف الموحد في المجالات الآنفة. وقد أشرنا إلى البرنامج الإسلامي الواسع لتحقيق هذا التعادل ولا نستطيع أن نتناول كل أطرافه هنا فهو واسع الأبعاد. والحقيقة أن من يلحظ الأمور التالية يدرك عمق التخطيط الإسلامي لتحقيق الوحدة الإسلامية وهي:

أولاً: إنَّ الوحدة التي يسعى لها الإسلام تقوم على أساس العقيدة والعاطفة معاً والتي يتم التعبير عنها بوحدة القلوب.

ومجمل العقيدة الإسلامية في أصولها، وبرنامج الشد العاطفي الإسلامي يتكفلان بما لا مزيد عليه بتحقيق ذلك بأروع صورة.

ثانياً: إنَّ النظام الإسلامي يوقف المسلمين جميعاً دونما أي تمييز أمامه على حد سواء، ويشعرهم بلزوم تحمل مسؤولياتهم المشتركة تجاهه دونما أي تقصير، وإلا وجه اللوم للجميع على حد سواء.

ثالثاً: حذف الإسلام كل مقاييس التفاضل وأبقى على المقاييس المعنوية فقط، وهي (التقوى والعلم والجهاد والعمل) لا غير ووفر بذلك أروع أرضية للوحدة.

رابعاً: هناك مساحات فعلية تشعر المسلمين بوحدهم من قبيل ما تقرره الشريعة من ملكية عامة لأفراد الأمة.

خامساً: ويقف نظام العبادات في طليعة النظم التي تؤدي إلى تعميق العقلانية والتوازن والتقريب والوحدة الإسلامية، حيث يقف المسلمون في كل بقاع الأرض في وقت واحد - عرفاً - متجهين إلى مكان واحد ومرددين ذكراً واحداً ومؤدين لعمل واحد وملتمين بشروط واحدة. وحين تدخل الأمة الإسلامية كلها في عملية تربوية كبرى في كل سنة شهراً واحداً وذلك بملء إرادتها، فهي تتدرب على استرجاع إنسانيتها وتعميق جذورها في النفوس.

وهكذا نصل إلى الحج كعملية تربوية رائعة يجتمع فيها ممثلو الإنسانية المسلمة من كل حذب وصوب ليتدربوا فيها على أمور كثيرة جداً وليحققوا منافع كبرى لهم في حياتهم المعنوية والمادية. فتنغرس في نفوسهم معاني الأمة الواحدة العابدة الطائفة حول التوحيد والرافضة للنظم الوضعية والإخلاق الصنمية، والملتزمة بحدود الله وحرماته والنازعة لكل العناصر المفرقة مادياً بين البشر والمتبرئة من المشركين، والمحاسبة نفسها وحكامها على ما اكتسبوا، وغير ذلك من الفوائد الجمّة.

ولكي يضمن الإسلام للحج أن يؤدي دوره الوحدوي العظيم في حياة الأمة فقد قرن به أموراً وخصه بخصائص كلها تعمل بتناسق على تحقيق أهدافه.

فهناك الظروف المكانية حيث بيت التوحيد الذي خصه الله بخصائصه يوم خلق الأرض

والذي بناه أبو التوحيد إبراهيم والذي يحمل في كل جنباته بصمات الأنبياء وفي طليعتها بصمات الرسالة الإسلامية وقادتها العظام.

وهناك الظروف الزمانية حيث الشهر الحرام وحيث الأيام العشر التي يهبها الله للبشرية لكي تستكمل استعدادها لقبول الرسالة الإلهية ويتبع هذه الظروف.

هناك العديد يوم العودة الإنسانية إلى ربها والعودة الإلهية بالرحمة للعبيد.

وهناك المناسك الرائعة المعنى وكل منها يرمز إلى عطاء كبير ومضمون سخي كالإحرام والطواف والوقوف والنحر والحلق والرمي وغيرها من المناسك الجملة التعبير.

وهناك الأذكار والأدعية التي تتناغم مع تلك المناسك غاية التناغم وتحقق الهدف المنشود.

ولكي تتم الرسالة الإسلامية الجو المنشود للتأثير طرحت فكرة القدسية والأمان لهذا المكان وهذه الفترة فأكملت بذلك العطاء. وهاتان الصفتان تملكان مضامين اجتماعية كبرى لخصناها في تحقيق آخر بما يلي:

أولاً: الإشعار بأن البيت الحرام وهذه البقعة المقدسة التي تحيط به هي مدار حركة الأرض، وأن على البشرية إذا أرادت لنفسها الأمان من الأهواء والألته الوهمية والضياع في متاهات الضلال، أن تطوف حول هذا البيت وتعمل بالشرعية التي تبشر بها وتتأصل في وجودها معاني التوحيد التي يرمز إليها، فالأمان الحقيقي هو أمان هذا البيت، والأمان الحقيقي هو الأمان الذي ينبع من الاعتقاد بالله العظيم والالتجاء إليه تعالى وهو القادر المطلق، والأمان المطلق للخائفين والرحيم الودود بعباده، وحيث فلا خوف من المستقبل ولا حزن على الماضي.

إنه أمان اللجوء إلى نظام الله والتخلص من ضلال النظم الوضعية، وإنه أمان اللجوء إلى رضا الله كمقياس موحد للبشرية والتخلص من المقاييس المادية الممزقة.

وإنه أمان التلاحم بين القلوب المخلصة التي تعمل لتحقيق خصائص الأمة الإسلامية.

وإنه أمان الأجيال الإنسانية المتتابعة على خط واحد ترسم سبيل الأنبياء وتنفذ أوامر الله

تعالى كالملائكة المطيفين بعرش الله.

وإنه أمان الحاملين لعلم الله ولواء الإسلام الحنيف.

كل هذه المعاني يبعثها في النفوس هذا الحكم الإلهي المهم.

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وفرض عليكم حج بيته الحرام: الذي جعله قبلة للأنام، يردونه

ورود الأنعام، ويألّهون إليه ولوه الحرام، جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه يجرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرتهم، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً وللعائدين حراماً. فرض حجّه وأوجب حججه وكتب عليكم وفادته^١.

ونحن نلاحظ في هذا النص الشريف التأكيد على:

أ- الارتباط العاطفي للأنام بهذا البيت الحرام، تواضعا لعظمة الله.

ب- الاختيار والتوفيق الإلهي لمجموعة من كل منطقة ليمثلوا كل الأرض في هذه الدورة التدريسية السماوية الرائعة.

ج- إن هؤلاء يشعرون بأنهم بهذا: يجيبون دعوة الله، ويصدقون بكلمة الله ويمشون على خط أنبيائه (خصوصا بعد تصور حج الأنبياء جميعاً لهذا البيت).

ويتشبهون بملائكة الله الطائفين حول العرش (من حيث تنفيذ أوامر الله وجذب الكون كله لطاعة الله) ويستغلون هذا الموسم لأنهاء التكامل العبودي في وجودهم والحصول على المغفرة الإلهية المشودة.

ثانياً: الإشعار بضرورة أن يكون للناس مركز يقول فيه كل مسلم كلمته بكل حرية، ويتبادل المؤمنون فيه الأفكار دونها سلطة من جبار أو حاكم مهما كان لونه ومنزلته، فيتحول الحج من خلال ذلك إلى مؤتمر عالمي يتجمع فيه ممثلو الأمم ويتدارسون أحوالهم وما يحيط بمجتمعاتهم من مخاطر ومشاكل وما ينبغي أن يطرحوه من حلول، ويتعرفون على الوسائل التي ينفذ فيها كل فرد مسلم واجبه تجاه الآخرين، ويلاحظون الدسائس والمخططات الاستكبارية المعادية لمسيرتهم التوحيدية الخالصة وينددون بها ويتعرفون على أساليب الوقوف الموحد بوجهها.

وربما استطعنا أن نستفيد هذا المعنى من التقارن الآتي في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ وهذه حقيقة أشار إليها الكثير ممن درسوا هذه الشعيرة الإسلامية المهمة، حتى سمي الحج بالمؤتمر الحر السنوي العام للمسلمين. هذا وقد كان الحرم كما رأينا موضعاً

١. نهج البلاغة، ج ١، ص ٢٧.

مقدساً يقول فيه الناس آراءهم بكل حرية حتى في الجاهلية - كما رأينا - الأمر الذي كان يستفيد منه الرسول ﷺ ليعلم دعوته المباركة بكل حرية تماماً، كما استفاد من انتساب البيت لإبراهيم عليه السلام لإحياء نداء إبراهيم التوحيدى ونفى شبهات اليهود والنصارى.

ثالثاً: الإشعار بالتلاحم بين القدسية والأمان في ظل الحكم الإلهي الاصيل. وأنه إذا كان الحرم لله - ولذا صار محلاً للأمن والقدس - فإن كل الوجود لله وأن إشعاعات هذه الحقيقة لتمتد إلى كل الوجود، ولذا فلا مجال لأي طغيان أو تخويف أو إرعاب المؤمنين بالله، فإذا لم تتحقق هذه الحقيقة في كل الأرض، فإن على المؤمنين أن يعملوا على توسعة هذه الدائرة المقدسة الآمنة لتصل إلى مرحلتها الشاملة.

رابعاً: كما قد تكون هاتان الخصيصتان (القدسية والأمان) سراً من أسرار إنجذاب القلوب إلى هذه البقعة الطاهرة والتنعم بعطائها الكبير وهو ما لاحظناه في النص السابق عن الإمام علي عليه السلام حينما قال: (ويألهون إليه ولوه الحمام): إن القلوب ترد هذه الأماكن الطاهرة بكل عشق وولوه وتتطهر في أجوائها المضمخة بالطهر الإلهي النقي وترجع إلى حياتها الاجتماعية بعيدة عن أضرار المادة سليمة طاهرة تتلقى العطاء الإلهي بكل صفاء وتنشر الرحمة الود والعطف في أرجاء المجتمع موفرة الجو العاطفي المطلوب في المجتمع الإسلامي.

هذا بالإضافة إلى أن الجو العاطفي المنتهب حياً يدع القلوب أكثر استعداداً وإقبالاً على العبادة واستماع الوحي والتعلق بالمضامين التي ترمز إليها عملية الحج، وما هي في الواقع إلا تربية عبادية سياسية على إقامة المجتمع المسلم لله.

خامساً: ثم إن هذا الأمان المعطى للإنسان والحيوان والأعشاب والأرض في هذه البقعة المقدسة ليعبر عن تلاحم طبيعي رائع بين عناصر الكون لتحقيق هدف الإنسان الكبير.

وقد جاءت روايات تؤكد التوافق الطبيعي بين الإنسان والطبيعة في عملية الحج، بل في كل المسيرة الحياتية.

وقد جاءت الرواية عن الرسول أنه ﷺ عندما رجع من غزوة تبوك وأشرف على المدينة قال: (هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه)¹.

١. سفينة البحار، ج ١، ص ١٢ وقد تقدم تخريجه.

وقد روى المرحوم الكليني بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: (أحرم موسى من رملة مصر قال: ومر بصفائح الروحاء محرماً يقود ناقة بخطام من ليف عليه عباءتان قطوانيتان، يلبي وتحييه الجبال)^١.

وروى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما من مهل يهل بالتلبية إلا أهل من عن يمينه من شيء إلى مقطع التراب ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان: ابشر يا عبد الله، وما يبشر الله عبداً إلا بالجنة)^٢.

وإن هذه المعاني لتترك أثرها في نظرة الإنسان إلى الكون والحياة وتذكره بأن الكون معه إن سار في خط الأنبياء وراح يحقق مقتضيات الخلافة الإلهية في الأرض ويني المجتمع العابد المسلم. وهكذا نجد أن الحج يشكل الجو النموذجي الذي يتم فيه تقارب الأفكار الممهّد لتحقيق الوحدة في المواقف العملية، والتوازن والوسطية والعقلانية المطلوبة كل ذلك في إطار رائع من العبودية الخالصة والتقدس العرفاني الجميل.

مقترحات لتحقيق التقريب

وسائل مقترحة لتحقيق التقريب الفكري

لاشك أن العبء الأكبر من عملية التقريب يقع على عاتق العلماء والمفكرين، ذلك لأنهم من جهة ورثة الأنبياء وحملة الدعوة وبناء الجيل، وهم من جهة أخرى أعلم بالأسس التي يعتمدها التقريب، وأكثر أثراً في توحيد الصفوف وتحقيق خصائص الأمة.

وإذا أردنا أن نقترح باختصار الأدوار التي يجب أن يقوموا بها إقترحنا مايلي:

- ١- تعميق المنهج الوسطي في فهم الشريعة.
- ٢- تعميم منطق الحوار الإسلامي-الإسلامي.
- ٣- مراعاة الأولويات، ومعرفة المآلات، وملاحظة الظروف العملية عند محاولة إصدار الفتاوى والأحكام العملية.

١. الكافي، ج ٤، ص ٢١٣، وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣١٤ و ٣٧٦.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٣٧٩.

٤- مراعاة مقاصد الشريعة وخصائص الإسلام في هذه العملية وعند تحويل الفقه الإسلامي إلى قوانين تطبيقية.

٥- العمل على إحياء علم المقارنات أو الخلاف الإيجابي.

٦- الاهتمام الشديد بمجامع الاجتهاد الجماعي كمجمع الفقه الإسلامي.

٧- الاهتمام بفقه النظريات، ونعني به اكتشاف المذهب الإسلامي في جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والحقوقية وهو أمر يختلف عن الاستنباط الفقهي الجزئي، وهذا الفقه يساعدنا كثيراً في اكتشاف الفروق بين الرؤية الإسلامية ورؤية باقي المذاهب الوضعية، كما يقدم لولي الأمر الحلول العملية ليختار منها ما هو الأصلح في التطبيق.

٨- العمل على تعميم مبدأ الرجوع لأهل الخبرة في الدين وحذف التطفل والاستحسانات العفوية والقراءات الحديثة وأمثال ذلك.

٩- ضرورة التعمق في أسس حركة التقريب وقيمها، وتأصيلها في نفوسهم وعكسها في بحوثهم ودراساتهم وكتابتهم، بل وأخذها بعين الاعتبار في استنباطاتهم الفقهية والفكرية، وملاحظتها كأصل توجيهي ومصلحة مرسله مهمة تقدم في مجال التراحم على الأحكام الأقل أهمية بمقتضى قواعد التراحم المعروفة في أصول الفقه. ومن هنا فقد دعونا في بعض المؤتمرات الدولية إلى دعم حركة (التقريب الفقهي) ومحاولة التركيز على تقريب الآراء الفقهية، وكثيراً ما نجد أن بعض النزاعات الفقهية بعد التأمل فيها تتحول إلى خلافات لفظية ناتجة عن اختلاف زوايا النظر أو اختلاف في المصطلحات، كما نجد الأمر كذلك في بعض البحوث الأصولية، كالبحث عن القياس أحياناً والاستحسان وسد الذرائع وأمثالها. وهو إتجاه نلاحظه في بعض الكتب الأصولية من قبيل (أصول الفقه) للمرحوم العلامة الشيخ محمد رضا المظفر والمرحوم العلامة السيد محمد تقي الحكيم وقد وفقنا الله للتلمذ على يديهما.

وهنا لا بد أن أشير إلى كثير من الكتابات المغرقة في تعميق الخلاف وإعطائه أبعاداً متخيلة توحى للقارئ أن اللقاء مستحيل، وأن الخلاف يستشري في كل المجالات، بحيث لا معنى لتصور أية عملية تقريب. وإني لأظن أنها كتابات تجافي الحقيقة وتتناسى وحدة المنابع ووحدة الأساليب والملاكات ووحدة الهدف.

١٠- العمل المنسق على توعية الأمة والانتقال بثقافة التقريب إلى المستوى الجماهيري فلا يشعر الفرد المسلم تجاه الآخر إلا بشعور الإخوة الصداقة والتعاون رغم الاختلاف المذهبي، وتتسع الصدور للممارسات والتعددية المذهبية، وتتفني المشاحنات العاطفية والترسبات التاريخية والموروثية التي خلفت وراءها صوراً لا تطاق دونها مبرر. فالاختلاف في حكم شرعي، والتفاوت في تقويم موقف تاريخي، والافتراق في سلوك اجتماعي: كلها أمور يمكن تبريرها وتحملها مادامت في الدائرة الإسلامية العامة وناجئة من الاختلاف في الاجتهاد.

نعم إذا خرج السلوك في رأي المجتهدين جميعاً عن الدائرة تم العمل على نفيه بإفضل أسلوب.

١١- السعي المشترك المتظافر لإتخاذ المواقف الوحدوية النموذجية في كل القضايا المصرية من قبيل:
أ- تطبيق الشريعة الإسلامية.

ب- تحقيق نظام السيادة الشعبية في الإطار الديني.

ج- مواجهة العدو وخططه في محور وجود الأمة وهويتها.

د- صيانة وحدة الأمة ونبذ التفرقة.

هـ- تقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة.

١٢- تشجيع إيجاد المؤسسات التقريبية من قبيل:

أ- أقسام الدراسات التقريبية المقارنة.

ب- النوادي الاجتماعية المشتركة.

ج- المعسكرات التقريبية في مختلف الشؤون.

د- إيجاد جماعات التقريب في شتى أماكن تواجد المسلمين.

١٣- وأخيراً فإنّ عليهم السعي لتوحيد مناهج الاستدلال، وهو ما يتطلب منا شيئاً من

التوضيح، وهو ما نقدمه في ما يأتي.

توحيد مناهج الاستدلال من أهم وسائل التقريب

وكمقدمة لابد أن نعرف شيئاً عن أسباب اختلاف الفقهاء.

وقد أوجزها ابن رشد في مقدمة كتابه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) وحصرها في ستة أمور:

أحدها: تردد الألفاظ بين هذه الطرق الأربع، أعني بين أن يكون اللفظ عاماً يراد به الخاص،

أو خاصاً يراد به العام، أو خاصاً يراد به الخاص، أو يكون له دليل الخطاب، أو لا يكون.
والثاني: الاشتراك الذي في الألفاظ، وذلك إما في اللفظ المفرد كلفظ (القرء) الذي يطلق على الطهر وعلى الحيض، وكذلك لفظ (الأمر) هل يحمل على الوجوب أو على الندب، ولفظ (النهي) هل يحمل على التحريم أو الكراهة، وإما في اللفظ المركب مثل قوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾^١ فإنه يحتمل أن يعود على الفاسق فقط ويحتمل أن يعود على الفاسق والشاهد فتكون التوبة رافعة للفسق ومجيزة لشهادة القاذف.

والثالث: اختلاف الإعراب.

والرابع: تردد اللفظ بين حملة على الحقيقة أو حملة على نوع من أنواع المجاز التي هي إما الحذف، وإما الزيادة، وإما التأخير، وإما تردد على الحقيقة أو الاستعارة.
والخامس: إطلاق اللفظ تارة وتقييده تارة أخرى، مثل إطلاق الرقبة في العتق تارة، وتقييدها بالإيمان تارة.

والسادس: التعارض في الشئيين في جميع أصناف الألفاظ التي يتلقى منها الشرع الأحكام بعضها مع بعض، وكذلك التعارض الذي يأتي في الأفعال أو في الإقرارات أو تعارض القياسات نفسها، أو التعارض الذي يتركب من هذه الاصناف الثلاثة، أعني معارضة القول للفعل أو للإقرار أو للقياس، ومعارضة الفعل للإقرار أو للقياس، ومعارضة الإقرار للقياس^٢.
إلا أن هذا التقسيم وقع موقع الاعتراض، إذ أنه ركز على الأسباب التي تتصل بالاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور أو حجية القياس؛ في حين أن الاختلاف في الكبريات نفسها باعتبارها المنشأ الأساس لهذا الاختلاف، مما لا يمكن تجاهله. ولذا إتجهوا للتركيز على منبعين رئيسيين هما:

١ - الخلاف في الأصول والمباني العامة المعتمدة في الاستنباط الاجتهادي، كالخلاف في حجية القياس أو العقل أو الاستصحاب.

٢ - الخلاف في تعيين مصاديق تلك الكبريات وموارد إنطباقها.

١. النور: ٥.

٢. بداية المجتهد، ج ١، ص ٣ - ٦.

(وفي هذا القسم تنتظم جميع تلکم المناشئ التي ذكرها ابن رشد ونظائرها مما لم يتعرض لها كمباحث المفاهيم، والمشتقات، ومعاني الحروف، وما يشخص صغريات حجية العقل، كباب الملازمات العقلية بما فيه من بحوث مقدمة الواجب، واجتماع الأمر والنهي والإجزاء، واقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضده، وغيرها من المباحث المهمة)^١.

وهذا التقسيم الأخير - بلا ريب - أوفى وأكثر إنطباقاً على الواقع من التقسيمين السابقين، وهذا يعني أنّ الاختلاف في أصول الفقه هو الأساس في جّل الاختلافات في الفتاوى، الأمر الذي يتطلب جهداً واسعاً ولقاءات علمية مستمرة لتحقيق تفهم أكبر للآراء والأدلة، والوصول إلى مساحات مشتركة - وهي واسعة كما أتصور - وذلك تقليلاً للخلاف من جهة وتفهماً أكثر لوجهة النظر الفقهية المخالفة من جهة أخرى، الأمر الذي يمنع من إنسحاب هذا الخلاف الطبيعي إلى المجالات التحريفية التي ألمحنا إليها.

الاختلاف في ترتيب الأدلة

والاختلاف في ترتيب الأدلة قد يترك أثره في النتائج إلى الحد الذي يمكن ضمّه كمنبع ثالث إلى المنبعين السابقين، مما يتطلب تحرير البحث فيه على حدة، وبغض النظر عن الخلاف في الأصل نفسه. فالاختلاف في ترتيب الأدلة قد يقع بين الذين يؤمنون بأصول مشتركة ويختلفون في ترتيبها. وعلى هذا فمصعب بحثنا هنا هو (الترتيب المنطقي بين الأدلة) وضرورته لتأمين عملية استدلال صحيحة مما لا يحتاج إلى بحث.

مبادئ لابد من الإتفاق عليها أولاً:

ولكي يتم الإتفاق على الترتيب المنطقي لابد من الإتفاق على بعض المبادئ، لما لذلك من أثر في نوعية الترتيب المذكور، ومن أهمها ما يلي:

١ - الأدلة ونظورها إلى الواقع.

٢ - الأحكام الأولية والثانوية.

١. أصول العامة للفقه المقارن، ص ١٩.

٣- العناصر الموجبة لتقديم بعض الأدلة على البعض الآخر.
ولسنا بصدد الدخول في البحث المفصل حول هذه الأمور بقدر ما نحن بصدد توضيحها
لنبني عليها الترتيب الاستدلالي المنطقي المطلوب.

١- الأدلة ونظرها إلى الواقع

لا ريب في أنّ للشيعة واقعاً قائماً بذاته، وبغض النظر عن علمنا به؛ وذلك واضح بملاحظة
أنها تعبر عن تخطيط إلهي كامل لتربية الإنسانية وهدايتها لتحقيق هدف خلقتها.
وعندما نحاول اكتشاف هذا الواقع فإننا نلجأ إلى (الأدلة الاجتهادية) التي تشير إلى الواقع.
وهذه الأدلة منها ما يوجب القطع والعلم بالواقع، والقطع حجته ذاتية لا تكتسب ولا
تسلب؛ ومنها ما يوجب الظن بالواقع ويسمى اصطلاحاً بـ(الأمانة) إذا قام على اعتبارها دليل
قطعي يؤكد على أنّ الظن الذي تنتجه هو ظن يعتبره الشارع ويعده كاشفاً عن الواقع، رغم كون
هذا الكشف غير تام في نفسه إلا أنه يتمم كشفه تعبدًا.

فالأمانة إذن تعلن أنها تؤدي إلى الواقع الشرعي من قبيل النصوص التي يظهر منها حكم
شرعي، وهناك أدلة لا تعلن أنّ مؤداهها هو الواقع، ولكن تؤكد على المكلف أنّ ينزل مؤداهها منزلة
الواقع، كالاستصحاب الذي يقول ببقاء اليقين في حالة الشك وذلك من حيث الجري العملي^١.
وهناك أدلة أخرى لا تنظر إلى الواقع بكل مراتبه وتسمى بـ(الأصول العملية) من قبيل
أصل البراءة وأصل الاحتياط وأصل التخيير، ولن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع وإنما
نكتفي بهذه الإشارة.

٢- الأحكام الأولية والثانوية

وللأحكام تقسيمات متعددة، إلا أننا نشير هنا إلى تقسيم يرتبط بموضوعنا هذا، وهو تقسيمها
إلى الأحكام الأولية والثانوية.
فالحكم الأولي هو الحكم المجعل للشيء أولاً وبالذات، بغض النظر عن العوارض التي

١. مصباح الأصول، ج ٢، ص ١٠٤-١٠٥ و١٠٦.

تعرض عليه، وهي أكثر الأحكام الواقعية التكليفية كحرمة شرب الخمر، أو الوضعية كبطلان العقد الربوي. أما الحكم الثانوي، فهو ما يجعل للشيء من أحكام بعد طرو عنوان خاص يقتضي تغيير حكمه الأولي، كطرو الضرر على الصوم، مما يحول حكمه من الوجوب إلى الحرمة مثلاً. وهي حالة تعبر عن مرونة عامة في الشريعة الإسلامية. وهناك إصطلاح آخر للحكم هو الحكم الولائي، ويقصدون به الأحكام التي يصدرها ولي الأمر في مجال ملء منطقة الفراغ أو المنطقة المباحة في التشريعات مما يغيرها إلى أحكام إلزامية، ولا ريب في أن وجوب إطاعة أحكام ولي الأمر هو من الأحكام الأولية، ولكن متعلقات هذه الأوامر تكتسب أحكاماً ثانوية تقوم على أساس المصالح التي يراها ولي الأمر في عملية إدارته للمجتمع. وهنا أيضاً لا نريد الدخول في مجالات نفوذ أوامر الولي، فلها مجالها الواسع من البحث.

٣- أهم عنصر في تقديم الأدلة على غيرها

ويمكن القول: بأن أهم عنصر يوجب تقديم دليل على آخر هو عنصر (القرينية)، فإذا شكل دليل ما قرينة على المراد من دليل آخر، فإنه يتقدم عليه باعتباره يكشف عن المراد الجدي من هذا الدليل الآخر.

وهذه القرينة كما يمكنها أن تغير المراد من لفظ واحد إذا إقترن بقرينة صارفة، - كما في (الأسد الضاحك) - يمكنها أن تصرف المراد في أحد الدليلين إلى ما يؤدي إليه الدليل الآخر لو شكّل هذا قرينة له.

وقد نتصور للقرينة موارد منها:

- أ- حالة التخصيص، حيث يتم الإخراج من الحكم مع بقاء المورد موضوعاً.
- ب- حالة التخصيص، حيث يتم الخروج الموضوعي الوجداني.
- ج- الحكومة، حيث ينظر أحد الدليلين إلى الآخر موسعاً تبعداً كما في (أنّ الفقاع خمر)، أو مضيقاً كما في (لا ربا بين الولد ووالده).
- د- الورد، حيث يأتي دليل شرعي ينفي الموضوع وجداناً، ولكن بواسطة تعبد شرعي، كما في نسبة دليل حجية خبر الواحد إلى دليل الأصل العملي الذي موضوعه هو الشك، فإنّ الشك يرتفع بمعونة التعبد الوارد من دليل حجية الخبر.

الترتيب المنطقي

إذا عرفنا الأمور السابقة أمكننا أن نوضح الترتيب المنطقي على النحو التالي:

أولاً - مرحلة البحث عن الحكم الشرعي الواقعي عبر الأدلة الاجتهادية كالكتاب والسنة والإجماع.

ثانياً - مرحلة البحث عن الحكم الشرعي المنزل منزلة الواقع، في مثل دليل الاستصحاب وأصالة الصحة وقاعدة التجاوز.

ثالثاً - مرحلة البحث عن الموقف العملي والوظيفة الشرعية عند غياب الواقع بكل مراتبه، كأدلة البراءة الشرعية، والاحتياط الشرعي.

رابعاً - مرحلة البحث عن الموقف العملي كما يحدده العقل، كأدلة البراءة العقلية - لو قلنا بها - أو التخيير أو الاحتياط. وهذا الترتيب إنما يقوم على قوانين الحكومة والورود.

فعندما يوجد دليل يكشف عن الواقع بنفسه فليس هناك مجال للرجوع إلى دليل الاستصحاب - مثلاً - الذي إنما ينزل مؤداه بمنزلة الواقع الذي يفترض أنه غائب وليس بغائب هنا.

ومن الملاحظ أيضاً أن هذه المناطات في التقديم هي التي تقدم أدلة الأحكام الثانوية من قبيل (لا ضرر) و(لا حرج) على أدلة الأحكام الأولية، كالوضوء والصلاة والحج، كما تقدم أدلة الأحكام الولائية على أدلة الإباحة باعتبارها ناظرة إليها وقرينة عليها.

وعلى هذا نستطيع أن نكتشف عدم الدقة في كثير من المناهج التي طرحت لعملية الاستدلال والتي بدأت مباشرة ببعض الأصول العملية الشرعية، بل وربما بدأت مطلقاً بالأصول العقلية، من قبيل بعض من استدلوها لاعتبار شرط العلم في من يجوز تقليده بقاعدة (أنه متى ما دار الأمر بين التعيين والتخيير فالمدار على التعيين)، ولما كان الأمر هنا يدور بين تعيين الأعلم والتخيير بينه وبين العالم فالمتعين هو لزوم تقليد الأعلم لحصول اليقين فيه بالخروج عن عهدة التكليف.

ولسنا هنا بصدد شرح هذه القاعدة أو نقدها بقدر ما نريد الإشارة إلى أن المسلك الطبيعي في مثل هذا المورد هو مناقشة الأدلة الاجتهادية التي تطرح، من قبيل ادعاء جريان السيرة القطعية لدى المسلمين جميعاً على عدم التقيد بالرجوع إلى الأعلم عند الاستفتاء، رغم وجود علم إجمالي بالتخالف بين الصحابة والعلماء في نوعية الاستنباط.

وقد لاحظت أثناء مناقشات مجمع الفقه الإسلامي الدولي أن سير الاستدلال هناك في كثير

من موارده يعتمد، إمّا على الاستناد إلى أقوال الأئمة أو حتى إلى المجتهدين في إطار المذاهب، أو الاستناد إلى أدلة مختلفة المراتب في الاستدلال، كالاستناد إلى بعض الأصول المحرزة للواقع قبل تحقيق الأمر في الإدلة الاجتهادية. وهذا الأمر طالما إعتضت عليه في جلسات المجمع المتابعة. حيث أكّدت على أنّ العملية الاجتهادية الحرة يجب أن تسلك السير الطبيعي. على أن أقوال الأئمة والعلماء إنما يستأنس بها للإطمئنان إلى النتائج المستنبطة لا أكثر، اللهم إلا إذا شكلت إجماعاً فإنّ المجال سيختلف.

ثم إنّ هناك بعض النصوص التي جاءت في كتب العلماء متحدّثة عن سبل الاستدلال ربما أمكن مناقشتها في ضوء البحث السابق، ومنها النص الوارد عن حجة الإسلام الغزالي في كتابه (المستصفي من علم الأصول) حيث يقول في الفن الثالث من القطب الرابع - وهو يتحدث عن بيان ترتيب الأدلة -: «يجب على المجتهد في كل مسألة أن يرد نظره إلى النص الأصلي قبل ورود الشرع، ثم يبحث عن الأدلة السمعية المغيرة، فينظر أول شيء في الإجماع، فإنّ وجد في المسألة إجماعاً ترك النظر في الكتاب والسنة، فإنّهما يقبلان النسخ والإجماع لا يقبله. فالإجماع على خلاف ما في الكتاب والسنة دليل قاطع على النسخ؛ إذ لا تجتمع الأمة على الخطأ، ثم ينظر في الكتاب والسنة المتواترة على رتبة واحدة؛ لأن كل واحد يفيد العلم القاطع. ولا يتصور التعارض في القطعيات السمعية إلا بأن يكون أحدهما ناسخاً، فما وجد فيه نصاً من كتاب أو سنة متواترة أخذ به. وينظر بعد ذلك إلى عمومات الكتاب وظواهره، ثم ينظر في مخصّصات العموم من أخبار الآحاد ومن الأقيسة، فإن عارض قياساً عاماً، أو خبر واحد عموماً فقد ذكرنا ما يجب تقديمه منها، فإن لم يجد لفظاً نصاً ولا ظاهراً نظر إلى قياس النصوص، فإن تعارض قياسان أو خبران أو عمومان طلب الترجيح، فإن تساويا عنده توقف على رأي وتخير على رأي آخر»^١.

فالترتيب لديه يتم على النحو التالي:

- ١ - مقتضى قاعدة نفي التشريع قبل ورود الشرع.
- ٢ - الأدلة المخالفة لهذا الأصل في هذا المورد بخصوصه.

١. المستصفي، ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

وهنا يرجع أولاً إلى الإجماع، فإن وجد كفى الأمر، وإلا تم الرجوع ثانياً إلى النصوص المتواترة لفظاً وسنداً كالكتاب في نصوصه، والسنة المتواترة في نصوصها التي لا تقبل الخلاف. ثم يرجع ثالثاً إلى الظواهر والعمومات، وما يطرأ عليها من مخصصات خبرية أو قياسية، وبعد ذلك يرجع للأقيسة، فإن تعارضت رجح الأقوى وإلا فالتوقف أو التخيير.

ولسنا بصدد المناقشة المستفيضة لهذا النص وهذا المنهج، ولكننا نشير إلى النقاط التالية:

١ - الظاهر أنه يقصد من النفي الأصلي استصحاب عدم الجعل قبل مجيء الإسلام، أو استصحاب عدم الحكم المجعول في حق المكلف حال الصغر، وهذا المعنى نوقش أصولياً، باعتبار أن المراد هل هو استصحاب عدم ثبوت التشريع بحق هذا الفرد أو ذلك، فهذا لا يتحقق لعدم وجود حالة سابقة أو حالة لاحقة بالنسبة لهما، أم هو استصحاب عدم الجعل الكلي، والذي يلزمه - عقلاً - عدم وجود حكم لنا في هذا العصر، فهو استصحاب مثبت لا قيمة له ولا يثبت لوازمه، كما أنه قد يشكل على مسألة استصحاب عدم الحكم المجعول حال الصغر إلى ما بعد البلوغ، بأن المورد من موارد تبدل الموضوع. ثم إن استصحاب عدم الجعل هذا لا يجري لوجود علم إجمالي بالجعل في كثير من الموارد المشكوكة، ولا يجري الاستصحاب مع وجود علم إجمالي في أطرافه.

٢ - إن اللجوء أولاً إلى البراءة يعني اللجوء إلى الرتبة المتأخرة، ولا يلجأ إليه إلا عند فقدان الدليل الاجتهادي الناظر إلى الواقع أو الدليل المنزل المؤداه منزلة الواقع.

٣ - لا ندري كيف يمكن تصور إجماع على خلاف الكتاب والسنة؟ ومدى حصوله وكيفيته، فإذا لم يمكن تصور حصوله، لم يكن هناك مجال لتصور النسخ من خلاله للكتاب والسنة، على أننا لا نتصور للإجماع حجية في ذاته، ولكن بمقدار ما يكشف عنه من حكم شرعي.

ولا ندري كيف يمكن أن يعتمد الفقيه على ما بدله من إجماع دون الرجوع إلى الكتاب والسنة؟ ثم إن الإجماع نفسه - لو اعتبرناه دليلاً قائماً بذاته - يقف إلى صف الكتاب والسنة في الكشف عن الواقع، فكيف يمكن أن نعدّه مقدماً عليهما بحجة أنه لا يقبل النسخ وهما يقبلانه؟

٤ - ولم يشر عند ذكر عمومات الكتاب وظواهره إلى عمومات السنة وظواهرها، فإن حالها في التخصيص والتقييد كحالها في الكتاب.

٥ - وعندما يتساوى الدليلان لديه يستحكم التعارض، فإن مقتضى القاعدة هو التساقط، ولا مجال للتوقف أو التخيير.

- ٦- ولم يتضح لدينا معنى التوقف إلا أن يريد به الاحتياط، وهو خلاف المصطلح.
 ٧- ثم أنه بعد فقدان الدليل الاجتهادي، يجب التوجه إلى الأصول الإحرازية للواقع -
 كالأستصحاب - لا العبور مباشرة إلى الأصول العملية الأخرى.
 ٨- على أن هذه الأصول الأخرى، منها ما هو شرعي فيتقدم وما هو عقلي فيتأخر رتبة.
 وهكذا نجد أن هناك الكثير من التساؤلات التي قد تبقى بلا جواب في هذا المنهج.

رأي الإمام الجويني في ترتيب أصول الفقه

ولا يفوتني هنا أن أشير إلى أن علم أصول الفقه يقوم على أسس منطقية متينة، تنطلق أساساً من التصور الدقيق عن واقع الشريعة، وعن السبل الكاشفة عنه وليس علماً سمعياً مأخوذاً من سيرة الصحابة أو الأئمة رغم عظمة مكانتهم، وهو الرأي الذي ذكره إمام الحرمين الجويني، إذ يذكر عن أصول الفقه: (أنه نظم ما جاء من سير الصحابة الأكرمين، وضم ما بلغنا من عبرهم، ولو كانوا عكسوا الترتيب لاتبعناهم، ويضيف: (نعم، ما كان يعتني الكثير منهم بجمع ما بلغ الكافة من أخبار رسول الله ﷺ، بل كانت الواقعة تقع فيبحث عن كتاب الله، وكان معظم الصحابة لا يستقل بحفظ القرآن، ثم كانوا يبحثون عن الأخبار، فإن لم يجدوها اعتبروا ونظروا وقاسوا)^١.

وهناك مواقع للنظر في هذا النص منها:

أولاً - ما قلناه قبل قليل، من أن علم أصول الفقه قائم على أسس موضوعية، وليس تدوينا لأسلوب معين من الاستنباط قام به المجتهدون الأوائل، ومن الغريب أنه نفسه كان يرجح مذهب الإمام الشافعي على رأي بعض الصحابة باعتبار دقة المنهج فيه.

ثانياً - لم يثبت أن الصحابة ما كانوا يتحرون الآيات كلها والأخبار كلها قدر الإمكان.

ثالثاً - نستطيع أن نقرر أن الاجتهاد آنذاك لم يكن بالمستوى من التعقيد كما نراه اليوم، نتيجة لقرب العهد، ووضوح القرآن، وكثرة الشهود، ووضوح المقصود، وحضور القرائن، ونقاء النصوص النبوية، وسلامتها من التحريف أو الوضع. الأمر الذي كان يسهل الاستنباط. وهذا لا يعني أن نعتمد نحن نفس الأسلوب على ما فيه من سهولة بعد تغير الأحوال، وهذا ما لا يحتاج إلى استدلال.

١. غياث الأمم، ص ١٨٢.

رابعاً - الاعتبار والنظر والتأمل والدقة في الاستنباط من القرآن والسنة شيء، والقياس المشار إليه في آخر العبارة شيء آخر، إذا لاحظنا أنه مصطلح متأخر له شروطه وقوانينه، ولذا لا يمكننا أن نسند لهم بكل وضوح قيامهم بالعملية القياسية، وغالباً ما نسب إليهم، بل وأحياناً إلى الرسول الكريم ﷺ وهو (ما ينطق عن الهوى) إنما هو في الواقع تنقيح لصغريات وتطبيق لكبريات وعمومات على موارد، وهذه أمور ينبغي توضيحها في محلها.

خامساً - لا ريب في أنهم ﷺ، كانوا يعملون بالاستصحاب والبراءة والاحتياط، كل في موارد بعد ورود النصوص الشريفة في ذلك، إلا أن النص قد تجاوز كل ذلك. وفي ختام هذا البحث، لا بد لي من التنبيه على أمور لها دخلها في عملية الاستنباط الصحيح وفق المنهج القويم، وربما كانت الإشارة من باب الاستطراد.

الأمر الأول:

إن من المسلم به أن هذا البون التاريخي الشاسع بيننا وبين عصر النص الشريف حمل معه مضاعفات عديدة - كما يقول المرحوم الشهيد الصدر - (كضياح جملة من الأحاديث ولزوم تمحيص الأسانيد، وتغيير كثير من أساليب التعبير وقرائن التفهيم والملابسات التي تكتنف الكلام، ودخول شيء من الدس والافتراء في مجاميع الروايات، الأمر الذي يتطلب عناية بالغة في التمحيص والتدقيق، هذا إضافة إلى أن تطور الحياة يفرض عدداً كثيراً من الوقائع والحوادث الجديدة لم يرد فيها نص خاص، فلا بد من استنباط حكمها في ضوء القواعد العامة ومجموعة ما أعطي من أصول وتشريعات)^١. ثم إن الحقيقة الإسلامية أعطيت مثورة في المجموع الكلي للكتاب والسنة، وبصورة تفرض الحاجة إلى جهد علمي في دراستها^٢.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن الطبيعي أن لا يترك هذا الأمر لكل وارد، وإنما يجب أن يقوم به المتخصصون، المحققون الذين يملكون ملكة الاجتهاد ويقدرتون على استنباط الحكم وتنقيح المواضيع بدقة.

١. الفتاوى الواضحة، ص ٥.

٢. المصدر السابق، ص ٤.

فإذا أضفنا إلى الحقائق السابقة، حقيقة أخرى يتطلبها توحيد الموقف وتحديد المسار العام، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالقضايا الحساسة والمصيرية والمشاكل الاجتماعية المستعصية، والمسائل المستحدثة التي لها مساقط واسعة، وجدنا أن من الضروري أن تشكّل الجامعات العلمية المشهود لها بالقدرة والتزاهة والموضوعية، ليتم فيها تبادل الرأي في الحكم الشرعي، وفق المنهج السليم المحدد والضوابط الاجتماعية الدقيقة، كما يتم فيها تحديد الموضوعات وملاحظة ملامحتها. وتحديد الموضوع له الدور الكبير في معرفة نوع الحكم بلا ريب، ولا يتم ذلك في كثير من الموارد إلا بحضور الاختصاصيين في الطب والفلك والبيئة وأمثال ذلك وتبعاً لنوع الموضوع المبحوث عنه. والحقيقة هي أن الأدلة التي قررت مشروعية الاجتهاد والتقليد، لا تقر هذه المشروعية للأراء الجمعية فحسب، بل تكاد تفرض ضرورتها أحياناً. هذا وقد تمت بعض الخطوات على هذا السبيل من قبيل تشكيل مجمع الفقه الإسلامي بجدة ومجمع فقه أهل البيت عليه السلام في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، من قبل قائد الثورة الإسلامية آية الله الخامني (دام ظله) وكذلك مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، وهي خطوات قيّمة ولكنها تحتاج إلى تطوير مستمر.

الأمر الثاني:

قلنا: إنه لا ريب في توقف عملية الاستنباط وإصدار الحكم على تنقيح الموضوعات وتحديداتها؛ فالحكم يتغير بتغير الموضوع، وربما ينقلب إلى نقيضه في الحلية أو الحرمة. ولا يمس هذا مسألة اثبات الاحكام، فحلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة. والتغير تارةً يكون في الموضوعات من داخلها كتغير اللحم النجس إلى تراب ورماد مما يغير حكمه إلى الطهارة، وأخرى يكون التغير من الخارج أي بتغير عنصري الزمان والمكان، فهل يمكن تصور هذا التغيير بحيث يترك أثره على تغير الحكم؟

الملاحظ أن هناك إتجاهين خطيرين متطرفين إزاء هذا الموضوع، فالإتجاه الأول يرفض أي دخل لهذا العنصر في الموضوعات ويجمد عليها، بل وينكر التغيير في الزمان نفسه فيفترض بقاء الظروف الزمانية على ما هي عليه، والشروط الاجتماعية على ما هي عليه من بساطة رغم كل هذا التعقيد الاجتماعي الملحوظ.

وهناك إتجاه آخر يفتتح إلى حد الميوعة فيفترض لهذا العامل دخلاً دائماً مما يؤدي في نهاية الأمر

إلى فناء الشريعة وتبدل الأحكام وفق الأهواء، وهو إتجاه خطير بدوره. وما نراه من موقف صحيح، هو الرجوع إلى دليل الحكم ولسانه لمعرفة التحديد الذي يقرره للموضوع، فإن كان يطلق الأمر دونها تحديد فليس لنا الخروج عن الدائرة التي يرسمها، وإن كان يسمح حسب الفهم العرفي بمستوى معين من التدخل للزمان، سرنا معه ولاحظنا هذه المرونة فلا نحمل النص ما لا يتحمل من امتداد ولا نقعد عن ارتياد الآفاق التي يفتحها بحجة الاحتياط.

هذا هو المنهج الذي نراه منسجماً مع الحقيقة الشرعية المقررة ونرى العدول عنه خطيراً جداً. إن موضوع تحريم الربا وتحريم الخمر، والسماح بالزواج وإقامة المجتمع على أساس عائلي، من المواضيع التي لا تتدخل فيها التغيرات الزمنية كما يبدو ذلك من أدلتها. في حين لا نجد في مواضيع من قبيل الشورى وتنظيم النسل، والمباحات العامة ومناطق الفراغ المتروكة للحاكم الشرعي، لا نجد فيها تحديداً تمنع من تدخل عنصري الزمان والمكان في صياغة نوع الحكم فيها. أقول هذا، وأرفض مطلقاً أن ننسى وظيفة المجتهد في الوصول إلى الحجّة الشرعية عن طريق القطع إتماً بالحكم أو بحجية الوسيلة الموصلة إليه.

الأمر الثالث:

قلنا: إن هناك أحكاماً أولية ذكرتها الشريعة للأشياء في حدّ ذاتها وبغض النظر عن عوارضها. كما أن هناك أحكاماً ثانوية، تنتجها الظروف القاهرة كالأضطرار والإكراه والضرر والخرج. فهي أمور تطرأ على الأشياء فتبدّل من أحكامها، ثم إن هناك أحكاماً ولائية يصدرها وليّ الأمر وفق ما يراه من مصلحة لتسيير دفة الحكم ويغير بها أحكام الكثير من المباحات الأولية، فهي بالتالي أحكام طارئة، وإن كانت إطاعة وليّ الأمر الشرعي نفسها من الأحكام الأولية.

ولسنا هنا بصدد بيان المساحات التي تنفذ فيها أوامر وليّ الأمر، بقدر ما نحن بصدد بيان هذه الحقيقة، وهي أن الأصل في الحياة الطبيعية إنما هو الأحكام الأولية، وكلما قربت الحياة إليها قربت إلى الصورة الإسلامية طبعاً، مع ملاحظة أن الشريعة نفسها فسحت المجال لوليّ الأمر بالتدخل وأعطته الضوابط العامة والأضواء الكاشفة التي تساعد على ممارسة هذه العملية. ولكن يبقى الحكم الأولي هو الأصل، تعود إليه الحياة متى سمحت الظروف وارتفعت الطوارئ.

ولا ننسى أن نشير إلى أن هناك مباحات أكد الشارع الكريم إباحتها - ولو بالمعنى العام الشامل للمكروه والمستحب - وحيث أن الصعب جداً حتى لولي الأمر أن يجد منها، اللهم إلا في الظروف القاهرة جداً؛ فإباحة الزواج تختلف في لسان الشارع عن إباحة المشي وأمثاله، وهذه أمور ينبغي التركيز عليها والتدقيق فيها والاحتياط في مجالها للدين.

ملاحظة:

وفي ختام هذا البند لا بد أن نشير إلى أن بحثنا إنصب على الخلافات الفقهية، أما الخلافات في المجالات الأخرى فهي بحاجة أيضاً إلى توحيد المناهج فيها بالشكل الذي يناسبها مع إضافة مجالات أخرى للبحث كما هو الأمر مثلاً في:

- أ- بحوث علم الكلام الجديد.
- ب- بحوث فلسفة الحضارات وسننها.
- ج- بحوث المستقبلات والإستراتيجيات.
- د- البحوث النفسية والاجتماعية والطبيعية المؤثرة في تشخيص الموضوعات.
- هـ- البحوث النظرية المقارنة بين المذاهب وغيرها.

الفصل الرابع: آراء وتعقيبات

آراء وتعقيبات

آثرت في هذا الفصل أن أختار بعض النماذج المرتبطة بهذا الموضوع - وقد كتبت باقلام كتاب معروفين - وأعلق عليها بتعقيبات مختصرة كنت قد نشرتها في أعداد متنوعة من مجلة رسالة التقريب.

النموذج الأول: بين السنة والشيعة.. هل تنجح الفتنة الطائفية؟

أ.د. رجب البنا

رئيس تحرير مجلة أكتوبر المصرية

الاستعمار هو الاستعمار

في كل زمان وفي كل مكان يسعى إلى تطبيق مبدأ (فرق تسد)^١. وقد حاول الاستعمار البريطاني أن يطبق هذا المبدأ في مصر بإثارة الفتنة بين المسلمين والأقباط وفشل.. وما زال يحاول ويفشل، لأن وحدة شعب مصر أقوى من المؤامرة. وحاول في العراق إثارة الفتنة بين الشيعة والسنة وفشل، وما زال يحاول ويفشل، لأن شعب العراق الحر يرفض الاحتلال، كما يرفض الإنشغال بالاختلافات الطائفية، ويترك الاحتلال ليوطد قواعده ويستقر أمنًا لعشرات السنين، ويتساقط العراقيون ضحايا في الحرب الأهلية. والاحتلال الأجنبي لم يفهم - ولن يفهم - أن الاختلافات بين المذاهب موجودة منذ مئات السنين. بين طوائف السنة وبين طوائف الشيعة. وهذه الاختلافات تدور داخل إتفاق يجمع

١. راجع: موسوعة السياسة، ج٣، ص٣٨٨-٣٨٩، المعجم الوسيط للساعدي، ج١، ص٢٩٨.

المسلمين جميعاً على أركان ومبادئ لا يختلف أحد عليها. فالإسلام مظلة تنطوي تحتها الفرق والمذاهب الإسلامية.

وبعض الكتّاب - مع الأسف - يستغلون جهل كثير من المسلمين بحقيقة الاختلاف والإتفاق بين السُّنة والشيعية، فيعملون على زيادة الفجوة بين الطائفتين، ويرددون أفكار وكتابات غلاة الشيعة من جانب والمتشددين القدامى والمحدثين على الجانب الآخر لغرس بذور الفتنة.. وعلى امتداد التاريخ هناك كتابات مدموسة، وكتابات مسمومة، وكتابات نابغة من سوء الفهم أو سوء القصد أو المصالح الشخصية أو الدوافع السياسية.

وكان من حسن حظي أن تعرفت في السبعينات على واحد من أئمة الشيعة هو الإمام محمد القمي، وهو إيراني، يجيد اللغة العربية وعاش في مصر سنوات طويلة، وكان المؤسس لجماعة التقريب بين المذاهب، ومقرها في الزمالك في القاهرة، وعندما إستقر في إيران كان يزور القاهرة كل سنة لقضاء عدة أسابيع يلتقي فيها بشيخ الأزهر ووزير الأوقاف، ويدلي بأحاديث صحفية عن ضرورة تقريب الفجوة المصطنعة بين السُّنة والشيعة. ولأنني كنت قريباً من وزير الأوقاف في ذلك الوقت (الدكتور عبد العزيز كامل يرحمه الله) وكان أستاذاً كبيراً ومفكراً عظيماً، ووطنياً مخلصاً شديد الإخلاص لدينه ووطنه، فقد عرفني على الإمام القمي، وأجريت معه عدة أحاديث صحفية للأهرام، كما حضرت لقاءاته مع شيوخ الأزهر ووزراء الأوقاف المتعاقبين بعد ذلك، وكان من بينهم الإمام الشيخ متولي الشعراوي حين كان وزيراً للأوقاف والشيخ عبد العزيز عيسى حين كان أيضاً وزيراً للأوقاف.

وكان لجماعة التقريب بين المذاهب نشاط ملحوظ في مصر وإيران، وقد أسس الإمام القمي فرعاً لها في طهران جذب عددا من القيادات الدينية الشيعية هناك.

كان الإمام القمي يؤمن بدعوته وبأنه يقوم بمهمة مقدسة تلبية لدعوة إلهية، وأنه يساهم بها في حركة الإصلاح الإسلامي، وكان يردد دائما الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^١. ويقول في تفسيرها: إن الجملة الأولى تقرر حقيقة هي أن

١. الحجرات: ١٠.

المؤمنين إخوة، ويجب أن يكونوا كذلك دائماً ما داموا مؤمنين، وهذا أمر ربهم، فإن لم يفعلوا فإنهم يخالفون بذلك أمر الله ويخرجون على طاعته. وليس لمسلم أن يكون له هدف يخالف هذا الهدف، أو أن يأتي بفكرة أو عمل يخرج بها عن مقتضيات هذه الأخوة لأي سبب من الأسباب.. والجملة الثانية من الآية تأمر بإصلاح ذات البين، أي أن يبعد المسلمون أنفسهم عن كل ما يمكن أن يفسد علاقة الأخوة التي قررها وقدرها الله بينهم، وفي ذلك تحذير الرسول ﷺ: (إن فساد ذات البين هي الحالقة).. والجملة الثالثة من الآية تأمر بأن يكون الإصلاح بين المسلمين في ظل تقوى الله، فتحذر بذلك من إتباع الأهواء، أو تغليب المصالح والمكاسب الدنيوية الزائلة، أو التمسك بالخطأ وإدعاء من يسعى بالخلاف بين الإخوة بأنه على الصواب، وأنه لا يريد إلا الإصلاح بينما هو يريد الإيقاع بين المؤمنين وتفريق صفوفهم وإثارة النزاعات فيما بينهم.. أما الجملة الرابعة فإن الله يوجه فيها إلى الثمرة التي يفوز بها من إتبع أوامره السابقة، والثمرة هي رحمة ربنا (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) والرحمة هي أعظم جائزة في الدنيا وفي الآخرة (كلكم هالك إلا من رحمته).

أما دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فقد تأسست سنة ١٩٥١، وكان سكرتيرها العام ثم رئيسها هو الإمام محمد القمي، وقد كتب عنه الشيخ محمد المدني أستاذ الشريعة الكبير أنه رجل عاش للتقريب، وإنه كان أول من دعا إلى هذه الفكرة وهاجر وجاهد في سبيلها، واشترك معه، وعاونه عدد من كبار أئمة السنة والشيعة.

يقول الإمام القمي: إنه عندما بدأ نشاطه في الدعوة إلى التقريب بين السنة والشيعة وجد هجوماً من الذين يريدون إثارة العدا والبغضاء بين المسلمين، ووجهوا إليه أغرب التهم.. قال بعضهم: إن دار التقريب من صنع الاستعمار البريطاني (!) وقال بعضهم الآخر: إنها من صنع الإتحاد السوفيتي لتكون منفذاً لنشر الشيوعية (!) وقال آخرون: إنها من صنع المخابرات الأمريكية (!) بل قال البعض: إن هذه الدعوة في عهد الملك فاروق كانت لنشر مذهب الطائفة الإسماعيلية وهدفها إعادة الحكم الفاطمي إلى مصر (!).. ويقول: كانت (الموضحة) السائدة في ذلك الوقت الإساءة في تفسير أي عمل باتهامه بأن الاستعمار الإنجليزي وراءه، ويقول رداً على هذه التهمة: إن الإنجليز يعملون على التفرقة بين أبناء الدين الواحد وأبناء الوطن الواحد، ولو أنهم فكروا حقيقة في العمل على التقريب بين المسلمين فكيف نرفض نحن هذه الدعوة؟

وخرجت فكرة التقريب من محيط العلماء إلى محيط أوسع هو المجتمع العام، وتحدثت عنها الإذاعات، والصحف، والمجلات..

يقول الإمام القمي: كان الإقدام على العمل للتقريب مجازفة خطيرة، وكانت أماننا أسئلة كثيرة: هل يقدر المسلمون على أن يعالجوا مشاكلهم بأنفسهم؟.. وهل هناك مبادئ في صميم الإسلام تضمن للأمة الإسلامية وحدتها؟.. وهل يفهم المسلمون أن التقريب معناه نبذ كل خلاف أو أنهم لا يرون بأساً من وجود خلاف لا يفسد الواحد قائم على دليل، ونابع من ذات الأصول التي يجمع عليها المسلمون والتي لا يحق لمسلم أن يختلف عليها؟.. وهل تتحكم المصلحة وسيطر التعصب أو يتتصر العقل وتسود الحكمة وسعة الأفق؟.. وأخيراً.. هل يريد المسلمون أن يعيشوا معاً أو يقبلون أن يتركوا أمرهم لأعدائهم؟.. وهل يدرك المسلمون أن أعداءهم يعرفون كيف يتنهزون الفرصة، ويستفيدون بموقف المترمتين والداعين إلى جمود الفكر والفعل؟.

وكانت تجربة التقريب بين السنة والشيعية هي التجربة الأولى من نوعها في هذا المجال، وكانت اختباراً لقدرة المسلمين على معالجة أمورهم، وحصر خلافاتهم بالوعي والرشد، ويكونون بذلك أهلاً لحمل رسالة الإسلام.

ويقول: كنت أخشى أن تفشل الفكرة، وينتصر أنصار التفرقة وتوسيع الفجوة، فيلقي ذلك ظلاً من التشكيك في مبادئ الإسلام ذاته، فنظلم الإسلام، ونعطي للمغرضين الفرصة للحكم على الإسلام بتصرفاتنا وأخطائنا، وشتان بين الإسلام وواقع المسلمين.

ويقول: كان الوضع يثير الشجن.. الشيعي والسني كل منهما يتعد عن الآخر، ويعيش على أوهام ولدتها الظنون أو الشائعات أو السياسة ومصالح الحكام، أو روجت لها الدعاية المغرضة، وساعد على بقائها الجهل وقلة الرغبة في الإطلاع على الحقائق عند الفريقين، وكانت الكتب المشحونة بالطعن والتجريح تتداول بين أبناء كل فريق، وتلقى القبول، خصوصاً كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي يتحدث عن طوائف وعقائد لا وجود لها على سطح الأرض، ويبدو كأنه يتكلم عن خلق آخرين في كواكب أخرى غير هذه الأرض! وإذا ألف واحد من أبناء الفريقين كتاباً، لا يعرض إلا آراء مذهبه، وإذا أشار إلى مذاهب أخرى تكون أشارته طعناً واتهاماً، وترديداً لما سمعه أو قرأه أو ورثه عن آبائه يردده دون تحقق أو تمحيص، وبذلك

ساهم مؤلفون في تضخيم الخلافات بين السُّنَّة والشيعية، حتى أصبحت كل دعوة لوحدة المسلمين تقابل بالشكوك والإتهامات، وكل ما يدعو إلى الفرقة يجد القبول.. ووصل الأمر إلى التشكيك في أن مصحف الشيعة هل هو مصحف السُّنَّة؟ وشك كثير من أهل السُّنَّة في أن يكون مصحف الشيعة هو المصحف الذي في أيدي سائر المسلمين، ومع ذلك فلم يكلف أحدهم نفسه بالتقليب في نسخة من ملايين النسخ من المصحف التي يتداولها الشيعة ويتعبدون بها، ولو قرأوا لها لذهب الشك وانتهت المشكلة، ولكنهم حكموا على شيء موجود بالظنون وتناقل أقوال في كتاب مغرض مات صاحبه منذ قرون ولم يحقق أحد مدى الصدق والكذب فيه!

يقول الإمام القمي: ظلت الفرقة بين المسلمين، لأنها كانت تناسب الحكام على مدى قرون، وكان الحكام يستغلونها لتثبيت سلطانهم، ثم جاءت السياسات الأجنبية، وجاء المستشرقون ليكملوا المهمة بدس السموم التي إنخدع بها البسطاء، فكان بعضهم يحكم على البعض الآخر، بما كتبه هذا المستشرق أو ذاك.

هكذا وقع المسلمون في فخاخ المستشرقين من ناحية، والمؤرخين الدسائين ومروجي الأوهام من ناحية أخرى، وانخدع كثيرون بما في بعض الكتب القديمة من أكاذيب وسيطرت عليهم هيبة القديم والمألوف، فحرموا أنفسهم من واجب التفكير فيما ردهه هؤلاء وهؤلاء.. وفقدوا الحق في أن يكون لهم تفكير مستقل يقرأ ويرى ويحكم بما يلتمسه في الواقع وليس بما قاله الآخرون.

يقول الإمام القمي: ليس لمسلم أن يبتكر إسماءً لله لم يرد عن الله، أو أن يبتدع عبادة لم يشرعها الله، أما البحث والتفكير، فقد فتح الله أمام المسلم أبوابها ودعاه إلى التفكير والنظر، وعدم الحكم على الأمور بالظن أو بالسمع.. ودعانا ربنا إلى نبذ التعصب الطائفي، وعلينا أن نتذكر أن الذين حكموا باسم الخلافة الإسلامية قرونًا طويلة كانوا يرون أن آل علي رضي الله عنه هم المعارضون لهم، فكانوا يسيئون إلى شيعة علي، ويستخدمون الأقلام والألسنة ضدهم، حتى أوجدوا حول الشيعة كثيراً من الخلط والتشويش.. وكان من الممكن لأي مصلح أن يمنع شر التفرق، ولكن القوة التي كانت بيد الخلفاء، والقوة التي كانت لبعض الحكام الأجانب بعد ذلك.. حالت دون التقريب..

يقول الإمام القمي: نعم كانت هناك أحداث صورت على غير حقيقتها فزادت من الفرقة..

وعلى سبيل المثال حدث أن ذهب شاب لأداء فريضة الحج، وكان قد قطع مراحل من سفره سيراً على قدميه، وعندما وصل إلى البيت الحرام غلبه القيء فتلقاه في ملابس الإحرام حرصاً على طهارة البيت، ولكن حظه السيئ جعل أحد الطائفين يخيل إليهم أنه يحمل ما يحمل يريد به تلويث البيت فصاح في الناس، فهاجوا وتجمعوا عليه، وشهدوا عليه بما كان بريئاً منه، وقتلوه وهو في رحاب الحرم الشريف، ومن دخله كان آمناً، لكن ذلك كان بسبب سوء ظن طائفة بطائفة، وإثارة العصبية هي التي تقطع الصلات بين أبناء الدين الواحد.. ومع أن هذه حادثة فردية، وعلى غير أساس.. فإنها أثرت في كثير من المفكرين تأثيراً كانت له عاقبة محمودة، فقد أراد الله للمسلمين أن يلمسوا بأنفسهم موضع الداء.. داء التفرق المذهبي، فكانت هذه الواقعة بعد أن تكشفت الحقيقة حافزاً للتفكير والعمل، وكثيراً ما يأتي الشر بالخير، فقد تساءل العقلاء: كيف تعيش أمة متفرقة تعادي بعضها بعضاً في عالم الأقوياء؟.. وكيف يمكن أن نقدم للعالم مبادئ الإسلام، بينما الإسلام في حرب بين أبنائه وأنصاره داخل بلادهم؟.. وكيف نقنع العالم بأن الإسلام دين التسامح إذا كان التسامح مفقوداً بين المسلمين أنفسهم؟.

يقول الإمام القمي: من هنا جاءت فكرة التقريب.. فقمنا بدراسة المشاكل الطائفية، والكتب المعتمدة عند الشيعة والسنة لنحدد الطوائف التي تتفق في الأصول الإسلامية، ودرسنا أيضاً الخلافات الفقهية في الفروع.. وتوصلنا إلى أن الهدف هو توحيد صفوف المسلمين على الأصول والمبادئ الجوهرية في الإسلام على أن يبقى الشيعي شيعياً، والسني سنياً وأن يسود الاحترام بينهما، وأن تتكون جماعة التقريب ممثلة للمذاهب الأربعة المعروفة عند أهل السنة، ومثلي مذهب الشيعة الإمامية، ومذهب الشيعة الزيدية، وأن يمثل كل مذهب من المذاهب الستة علماء من ذوي الرأي والمكانة فيه، وأن تكون هذه الجماعة مستقلة بعيدة عن السياسة، ويكون عملها محصوراً في البحث العلمي ومحاربة الأفكار الخرافية التي لا تعيش إلا في ظل الجهل، والغموض، وقررنا أن تعمل الجماعة أيضاً على مقاومة الطوائف والنحل التي تخالف مبادئ الإسلام والتي يحسبها الشيعي سنةً، ويحسبها السني شيعةً، بينما هي في حقيقتها مخالفة للإسلام.

ويقول الإمام القمي: هكذا تكونت جماعة التقريب، وقمت بالانصال بالمراكز الدينية في كل بلد إسلامي بهدوء وبعيداً عن الدعاية، ولكن المتعصبين والمتزمتين وذوي النزعات والأغراض

رأوا في نشاط هذه الجماعة بدعة لا يصح السكوت عليها، فبدأوا الهجوم على الفكرة وعلى الجماعة، وكان الهجوم ذاته دليلاً على ضرورة فكرة التقريب كي يتخلص المجتمع الإسلامي من العناصر ذات التفكير الجامد الذي يصرف الأذهان عما ينفع الناس، وأذكر أن أحد هؤلاء المتعصبين ملأ كتاباً بالطعن على الشيعة والمهجوم على جماعة التقريب واعتبر عملها فعلة نكراء، وفي نفس الوقت أعيد طبع كتاب من الطرف الآخر من الكتب المؤلفة في عهد الصفوية مليء بالهجوم على أهل السنة.. ولم يقف الأمر عند هذين الكتابين.. بل جاء من مثلها الكثير.. ورأى البعض أن ما نقوم به (محاولة مستحيلة)، ورأى آخرون أن هذه الدعوة وراءها هدف سياسي.. ولم يؤثر ذلك في عزيمة أهل العزائم، فاستمروا في الدعوة وأصدروا مجلة رسالة الإسلام، وكان كل عدد منها يزيل الستار عن جزء من المحجوب، وتبين من أبحاث الفقهاء والعلماء الثقات من السنة والشيعة أن المشاكل الطائفية بينهما، إنما كانت نتيجة تحركهم في ظلام الجهل، حيث لم يكن بعضهم يرى الآخر إلا أشباحاً مخيفة.. وظهر أن المسلمين لا يختلفون في الكتاب، ولا في الصلاة، ولا في الصوم، ولا في الحج، ولا يختلفون قيد أنملة في أصول العقائد وأصول الدين والتوحيد والنبوة، وليس يضيرهم أن يكون لبعضهم مذهب يقول عن الشيعة بأن علياً رضي الله عنه وأولاده أحق بالولاية من غيرهم.. وكان من نجاح جماعة التقريب أن تعرّف أهل السنة على أبحاث واجتهادات الشيعة في الفقه، وتعرّف الشيعة على فقه السنة، واكتشفوا إجماع الشيعة والسنة على حب أهل البيت وإكرامهم. وإن ما صدر عن بعض الظالمين لا يمثل رأي أهل السنة في أهل البيت، وعرف أهل السنة أن الشيعة يعتبرون الغلاة نجساً ويحكمون عليهم وعلى أهل الحلول بالخروج على أصول الإسلام.

وإذن فستان بين الشيعة على حقيقتها، والشيعة التي تصورها البعض متأثرين بالدعايات والأكاذيب.

بعد ذلك قامت وزارة الأوقاف بطبع بعض كتب الفقه في المذهب الشيعي، وجاء قرار الأزهر- في عهد الشيخ شلتوت- بتدريس مذهبي الشيعة الإمامية والزيدية في الأزهر، ففضى على آمال المتربصين والساعين إلى إشعال الخلافات بين المسلمين.

وفي أول اجتماع لجماعة التقريب التقى علماء من السنة والشيعة على مائدة واحدة، وحددوا

هدفاً واحداً لدعوتهم: علاج داء التفرق، وختموا لقاءهم بترديد الآية الكريمة ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا..﴾^١.

وكان من أعمدة دار التقريب بين السُّنة والشيعية الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت الفقيه الأكبر شيخ الأزهر الأسبق، وقد كتب بنفسه قصة هذه الدعوة فقال: إنه عاصر خلالها إخوة أحبهم وأحبه في الله، وكانت بينه وبينهم مناظرات بحثاً عن الحقيقة، لأنه كان يؤمن بأن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، وأن أسلوبها هو الأسلوب الذي أمر به الله ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^٢.

ويقول: إن الذي يتقي الله هو الذي لا تأخذه عصبية، ولا تسيطر عليه مذهبية.. وفكرة الحرية المذهبية فكرة صحيحة مستقيمة وهي نهج الإسلام، وكان عليها الأئمة الأعلام في تاريخ الفقه وكانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن كان العالم منهم يقول: هذا مذهبي وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيع لأحد تقليدي أو إتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت، فإن استقام الدليل في نظره وصح الحديث فهو مذهبي.

يتحدث الشيخ شلتوت عن الإمام القمي فيقول: إن أخي الإمام المصلح محمد تقي القمي، ذلك العالم المجاهد، لا يتحدث عن نفسه، ولا عما لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة، وهاجر من أجلها إلى بلد الأزهر الشريف، فعاش معها وإلى جوارها، وظل يتعهدا بها آتاه الله من عبقرية وإخلاص وعلم غزير، وشخصية قوية، وصبر، وثبات، حتى رآها شجرة يستظل بظلها أئمة وعلماء ومفكرون في هذا البلد وفي غيره.

وعن الدعوة يقول الشيخ شلتوت: لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج سليم، وأسهمت منذ

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. النحل: ١٢٥.

اليوم الأول في هذه الجماعة وفي نشاط الدار، وكان من ذلك فصول في تفسير القرآن الكريم ظلت تنشرها مجلة (رسالة الإسلام) أربعة عشر عاماً حتى اكتملت كتاباً أعتقد أنه تضمن أعز أفكاره، وأخلد آثاري، وأعظم ما أرجو به ثواب ربي، وقد تهيأ لي بهذا النشاط العلمي - في دار التقريب - أن أعرف كثيراً من الحقائق التي كانت تحول بين المسلمين واجتماع كلمتهم، وائتلاف قلوبهم على أخوة الإسلام، وأن أعرف على كثير من ذوي الفكر والعلم في العالم الإسلامي.

وعندما أصبح الشيخ شلتوت شيخاً للأزهر أصدر فتوى شهيرة بجواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، ومنها مذهب الشيعة الإمامية (الإثنا عشرية). وكان لهذه الفتوى صدى كبيراً في مختلف البلاد الإسلامية، وظلت تتوارد عليه الأسئلة والمجادلات، وظل الشيخ شلتوت سنة بعد سنة يشرح الأساس العلمي والفقهية لفتواه، ويرد على شبهات المعترضين، في مقالات وأحاديث إذاعية وبيانات يصدرها ويدعو فيها إلى وحدة المسلمين والتماسك والائتلاف حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد التي ظهرت في الماضي ولم تعد أسبابها قائمة.. وأخيراً إنتصر الشيخ شلتوت على أعداء وحدة الصفوف الإسلامية فقال: (الحمد لله أن أصبحت دعوة التقريب بين السنة والشيعة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون في عهد الضعف الفكري والخلاف الطائفي والتزاع السياسي، يثرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل).

بعد ذلك قرر الأزهر الأخذ بمبدأ التقريب بين المذاهب المختلفة، وقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية من السنة والشيعة دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لمذهب أو لواحد من الفقهاء على غيره، كما قرر الأزهر أن يضم مجمع البحوث الإسلامية أعضاء ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية بما فيها مذاهب الشيعة المعتدلة.. ويعلق الشيخ شلتوت على ذلك بقوله: (وبهذا تكون الفكرة التي آمنّا بها، وعملنا جاهدين في سبيلها، قد تركزت وأصبحت رسالة دار التقريب محل التقدير والتنفيذ).

ويتحدث الشيخ شلتوت عن الاجتماعات في دار التقريب حيث يجلس المصري مع الإيراني أو اللبناني أو العراقي أو الباكستاني أو غير هؤلاء من مختلف الشعوب الإسلامية، وحيث يجلس السنّي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي بجانب الشيعي الإمامي والزيدي حول مائدة واحدة تدوي فيها أصوات العلم، ويسودها الأدب، وفيها تصوّف، وفقه، تجمع بينهم روح الأخوة.

كما يتحدث الشيخ شلتوت عن بعض المدافعين عن فكرة التقريب بين المذاهب فيقول: (أود لو أستطيع أن أبرز صورة الرجل السمو الذكي القلب، العف اللسان، رجل العلم والخلق المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، أو صورة الرجل المؤمن القوي الضليع في مختلف علوم الإسلام، المحيط بمذاهب الفقه أصولاً وفروعاً، الذي كان يمثل الطود الشامخ في ثباته، والذي أفاد منه التقريب في فترة ترسيخ مبادئه أكبر الفائدة، المغفور له أستاذنا الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رضي الله عنه وأرضاه، أو صورة الرجل الذي حنكته التجارب، ومحافل العلم والرأي، المغفور له الأستاذ محمد علي علوبة (باشا) جزاه الله عن جهاده وسعيه خير الجزاء.. وكذلك رجال (من الشيعة) وهبوا أنفسهم هذه الدعوة الإسلامية، وآمنوا بالتقريب سبيلاً إلى دعم قوة المسلمين وفي مقدمتهم الإمام الأكبر الحاج أفا حسين البروجردي أحسن الله في الجنة مثواه، والمغفور لهما الإمامان الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي رضي الله عنهما).

ثم يشير الشيخ شلتوت إلى جانب آخر من الحرب والمعارضة لدعوة التقريب بين السنة والشيعة، ويقول: إن ذلك شأن كل دعوة إصلاحية حين يتصدى لها الذين لم يألفوها، ولهذا لقيت دعوة التقريب نصيباً كبيراً من المعارضة لها والهجوم عليها بقدر أهميتها وعظم هدفها، فكان الجو السائد عند بدء الدعوة مليئاً بالطعون والتهم، مشحوناً بالافتراءات وسوء الظن من كل فريق بالآخر، وهوجمت الدعوة لا من فريق واحد بل من المتعصبين أو المترمتين من كلا الفريقين: السني الذي يرى أن التقريب يريد أن يجعل أهل السنة شيعة، والشيعة الذي يرى أننا نريد أن نجعل منهم سنيين، هؤلاء وغيرهم أساءوا فهم رسالة التقريب فقالوا: إننا نريد إلغاء المذاهب، أو إدماج بعضها في بعض.. وحارب فكرة التقريب ضيقو الأفق، كما حاربها صنف آخر من ذوي الأغراض الخاصة السيئة، ولا تخلو أية أمة من هذا الصنف من الناس.. حاربها الذين يجدون في التفرقة ضماناً لبقائهم وعيشتهم، وحاربها ذوو النفوس المريضة وأصحاب الأهواء والتزعات الخاصة، هؤلاء وأولئك ممن يؤجرون أقلامهم لسياسات تدعو إلى التفرقة بأساليب مباشرة أو غير مباشرة وتحارب كل حركة إصلاحية، وتقف ضد كل عمل يجمع شمل المسلمين ويوحد كلمتهم.

ويقول الشيخ شلتوت: إنَّ دار التقريب ظلت تصدر بانتظام مجلة باسم (رسالة الإسلام) تنشر أبحاثاً لأئمة السُّنَّة والشيعة حول أوجه الإتفاق في الأصول والخلاف في الفروع.

وأخيراً يقول الشيخ شلتوت: أصبحت فكرة التقريب نقطة تحول في تاريخ الفكر الإصلاحي الإسلامي القديم والحديث، ويحق للمسلمين أن يفخروا بأنهم كانوا أسبق من غيرهم تفكيراً وعملاً في تقريب مذاهبهم وجمع كلمتهم، وقد نجحوا في ذلك بفضل إخلاص القائمين على أمر هذه الدعوة، وسلامة تفكير المسلمين ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^١ و﴿كُنْتُمْ أُمَّةً أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^٢.

نستخلص من ذلك أنَّ السُّنَّة والشيعة يجمعها الإسلام، وما يجمعه الله لا يفرقه إنسان. والخلافات بين المذاهب ترجع إلى طبيعة التفكير الإنساني وليس مرجعها الدين الإسلامي ذاته. ولذلك فهي خلافات في التفسير وليست خلافات حول النص المقدس في القرآن، أو حول أركان الإسلام، أو حول الإيمان بالله وبالرسول.

ولكن المشكلة أنَّ هناك متشددين من أهل السُّنَّة، وهناك غلاة بين الشيعة، هم السبب في اشتداد الخلاف، وتبادل الإتهامات بالحق وبالباطل، وقد عمل كل جانب من المتشددين والمتزمتين على تشويه الجانب الآخر وإصاق التهم به واختلاق الأكاذيب والأساطير حوله. هناك اختلافات.. نعم.

ولكن هل في الجانيين من ينكر من هو معلوم من الدين بالضرورة؟.. لا.

إذن فهل يرضى الله أن يكون المسلمون متفرقين؟

هذا هو السؤال.

وجيش الاحتلال الأمريكي في العراق يتمنى أن تكون الإجابة (نعم) لكي يستقر له المقام في العراق لسنوات وسنوات وتمضي إسرائيل في مخططها، وينتقل الجيش الأمريكي إلى المحطة التالية بعد العراق وهو آمن.

١. يوسف: ١٠٨.

٢. آل عمران: ١١٠.

وجيوش الغزو جاهزة ومستعدة.. ورئيس الحرب جاهز ومصمم ومزهو بقوة الجيوش والسلاح.. والثغرة في صفوف المسلمين تسهل له المهمة.
 ورحم الله الإمام العظيم الشيخ شلتوت والأئمة العظام الذين أفسدوا المؤامرة في وقتهم..
 أما نحن؛ فإنّ واجبنا الآن أن نفسد المؤامرة في هذا الوقت.
 والموضوع يحتاج إلى بحث وتفكير لأنه يتعلق بالمستقبل.. مستقبل الأوطان الإسلامية،
 ومستقبل الإسلام ذاته!

لماذا ولمصلحة من نهدم جسور التواصل بين السنة والشيعة؟

معظم أهل السنة لا يعرفون شيئاً عن مذاهب وأفكار الشيعة، وبعضهم عرف قليلاً عنها من أقوال أو عبارات أو أحكام إدانة وهجوم من هنا وهناك، وبعضهم أخذ معلوماته من كتب قديمة كان لأصحابها عداً شديداً للشيعة، وكان هذا العداً في الأصل لأسباب سياسية حول الخلافة والحكم وليس خلافاً حول أصول الدين.. والنتيجة أنّ فكرة أهل السنة عن الشيعة مختلطة بكثير من الأكاذيب والشائعات.. وهذا هو السبب في أنّ معظم أهل السنة ينظرون إلى الشيعة جميعاً على أنّهم فرقة واحدة، مع أنّهم فرق كثيرة.. منها فرق معتدلة لا تختلف كثيراً عن السنة، وفرق أخرى لها أفكار غريبة وبعيدة هي التي يسمونها (غلاة الشيعة) ولا بد أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء، لأنّ الخلط بينها واعتبارها شيئاً واحداً هو الذي أدى إلى استمرار الجفوة. بدون مبرر.
 والمهم أنّ نفهم منزلة الإمام ومكانته عند الشيعة لنعرف كيف نتعامل مع الأئمة المعاصرين.



يقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء - وهو من كبار علماء الشيعة الذين شاركوا في تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب - أنّه من المستحيل إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية وجعلها مذهباً واحداً، لأنّ الخلاف واختلاف الرأي من طبيعة البشر، وخالق البشر يقول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ﴾. فلا يجدي التفكير في إزالة أصل الخلاف بين المذاهب، وأقصى ما يمكن الوصول إليه هو إزالة الأسباب التي تجعل هذا الخلاف سبباً للعداء. وأن يكون الإخاء والتقارب بديلاً عن التباعد والتضارب، لأنّ المسلمين مهما بلغ الخلاف بينهم فإنهم يجمعون على الشهادتين، ومن شهد الشهادتين فقد إتخذ الإسلام ديناً وحرّم دمه وماله وعرضه..

والمسلم أخو المسلم.. ومن صلى إلى قبلتنا ولم يتدين بغير ديننا، فإنّ له مالنا وعليه وما علينا. ويقول: إنّ الفرق الجوهرية بين السُّنة والشيعية هو قضية الإمامة، فالشيعية ترى أنّ الإمامة أصل من أصول الدين، بعد التوحيد والنبوة، وأنها بالنص من الله ورسوله، وليس للأمة رأي فيها ولا اختيار، كما أنّ الأمة ليس لها خيار في النبوة، وإخواننا من أهل السنة متفقون على أنّ الإمامة ليست من أصول الدين، ويرون أنّ الإمامة يجب أن تكون بإجماع الأمة واختيارها وأنها قضية سياسية ليست من الدين، لا من أصوله، ولا من فروعه، ولكن مع هذا التباعد هل يرى الشيعة أنّ من لا يؤمن بالإمامة ليس مسلماً؟ كلا ومعاذ الله. وهل تجد السنة تقول: إن من يؤمن بالإمامة غير مسلم؟ كلا ومعاذ الله. هل يقول السنة: إنّ القائل بالإمامة خارج عن الإسلام؟ لا.. وكلا. إذن، فإنّ القول بالإمامة أو إنكارها لا علاقة له بأحكام الإسلام الجامعة من حرمة دم المسلم ووجوب أخوته.

وبصراحة يقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. لعل قائلاً يقول: إنّ سبب العداء بين الطائفتين، أنّ الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، وقد يتجاوز البعض إلى السب، مما يسيء إلى الفريق الآخر ويهيج مشاعرهم فتشدد الخصومة بينهم. ولو تبصرنا قليلاً ورجعنا إلى حكم الشرع والعقل لم نجد ذلك موجباً للعداء:

أولاً: لأنّ هذا ليس رأي جميع الشيعة، وإنما هو رأي بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، فلا يصح معاداة الشيعة جميعاً لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: إنّ هذا لا يكون موجباً للكفر والخروج على الإسلام، وأقصى ما هناك أنّ يكون معصية، وما أكثر العصاة من الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً.

ثالثاً: قد لا يدخل ذلك في المعصية، ولا يوجب الحكم بالفسق إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأً، فإنّ من المسلم به عند الجميع في باب الاجتهاد أنّ من اجتهد وأخطأ فله أجر وللمصيب أجران.

وهكذا مهما تعمقنا في البحث واعتمدنا على الأدلة العقلية والشرعية وتجردنا من الهوس والعصبية فلن نجد أي سبب يبرر العداء بين طوائف المسلمين مهما اتسعت الخلافات بينهم في

كثير من المسائل مادامت هذه المسائل الخلافية لا تنكر أصلاً من أصول الإسلام أو ركنا من أركانه. وكيف تقبل استمرار الخلافات بعد كل ما سببته من البلاء، مثل ضياع الأندلس والقوقاز وبخارى ونحوها؟ ولو أن المسلمين كانوا في تلك الأيام يداً واحدة كما أمرهم الله لما انتزع منهم شبر واحد، ولننظر الآن إلى ما يحدث في فلسطين وهي الفردوس الثاني المفقود.

وفي هذا السياق كتب الفقيه الأكبر الشيخ حسين مخلوف وهو مفتي الديار المصرية يقول: إنني من المؤمنين بفكرة التقريب بين المذاهب لأن الإسلام دين الوحدة كما هو دين التوحيد، يشرع أسباب التجمع، وينهى عن أسباب التفرق، وينهى عن الجدل فيما لا يجدي.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِبَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^١ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْي سَكُّ مِنْهُ مُرِيبٍ، فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^٢

ويقول الشيخ مخلوف: إن المسلمين منذ عرفوا الاختلاف والطائفية، وصاروا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون، وهنت قواهم، وتمكن منهم أعداؤهم، وجعلوا ينحدرون من سيء إلى أسوأ.

وكتب الشيخ عبد المتعال الصعيدي وهو من كبار أساتذة الأزهر يقول: إن الخليفة المأمون رأى أن يعقد مجالس مناظرة بين الفرق الدينية، فأمر قاضي القضاة - وكان من أهل السنة - أن يجمع الفقهاء وأهل العلم في بغداد، فاختر أربعين رجلاً من الأعلام، ولكنه - مع ذلك - لم يستطع أن يجمع المسلمين على مذهب واحد، فلجأ إلى إكراه المخالفين على ترك مذهبهم فلم يحقق ذلك سوى التعصب والعناد، وحتى عندما لجأ المأمون إلى سجن المخالفين لم يحقق ذلك شيئاً ولكنه أدى إلى

١. الأنعام: ١٥٩.

٢. الشورى: ١٤ و ١٥.

زيادة الخلاف، وقد جعل المأمون أهل السنة يقولون بالإكراه: إن القرآن مخلوق، فشغل الدولة بهذه القضية (هل القرآن قديم أو مخلوق؟) وانصرف الناس عن الأمور النافعة وأدى ذلك إلى ضياع سنوات في الخلافات والصراعات، والدرس المستفاد من ذلك أن يترك الناس أحراراً فيما يعتقدون، حتى الكافر المعاند، فلا يصح أن يحمل بالإكراه على ترك الكفر تحت تهديد بالعقاب، لأن الله تعالى قال في الآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فلم يذكر عقاباً للكافر في الدنيا، ولكن ذكر عقابه في الآخرة، لأن عقاب الدنيا لا يؤدي إلى الإيمان، ولكن يؤدي إلى النفاق والتظاهر بالإيمان.. وهذا ما تؤيده الآية الكريمة في سورة البقرة (٢٥٦): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..﴾.

وكان من نتيجة تفهم علماء السنة لمذاهب الشيعة أن خرجوا عن دائرة مذاهب السنة الأربعة إلى مذهب من مذاهب الشيعة، وذلك في قانوني الطلاق والوصية وغيرهما، فقد أخذوا برأي ابن تيمية، وابن القيم، والشيعة الإمامية، وتم ذلك بهدوء ورضا، وفي الأخذ بمذاهب السنة والشيعة المعتدلة توسعة للمسلمين.

هل كانت دعوة التقريب بين المذاهب دعوة إلى تنازل أصحاب مذهب معين عن مذهبهم؟ وبمعنى آخر، هل ترضى الشيعة أن تتنازل للسنة عن أفكارها، أو ترضى السنة باعتراف أفكار الشيعة بالكامل؟.

كانت هذه هي نقطة الهجوم الرئيسية على فكرة التقريب بين المذاهب، بالرغم من أنها دعوة إلى التقريب وليس التوحيد، دعوة إلى التفاهم والتعايش وليست دعوة إلى الإلغاء أو التنازل، وكان الإمام محمد القمي يجيب كلما واجهته هذه الاعتراضات بالقول: بأن الفكرة أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها، أما نقاط الخلاف في الفروع فعليهم أن ينظروا فيها بالتسامح، ويعذر بعضهم بعضاً فيها، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالحجة والدليل إلى إتفاق في شيء منها فهذا خير، وإذا بقي كل طرف على موقفه فليحتفظ بما يراه، على أساس أن الخلاف في أمر لا يدخل ضمن أصول الدين لا ينقص الإيمان، ولا يخرج المختلفين

عن دائرة الإسلام. وليس في نقاط الخلاف بين السُّنة والشيعة ما يستحق الخصام، ولم يحدث أن قال أحد من علماء السُّنة بمذاهبها، والشيعة الإمامية والزيدية، بكفر طائفة منها، أو الخروج عن الإسلام، لأن العلماء في مذاهب السُّنة والشيعة أجمعوا على أنه لا خلاف في المسائل الجوهرية، ومن يعرف أصلاً من أصول الإسلام أنكرته إحدى هذه الطوائف، أو أتمها زادت من أصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين، فليدلنا عليه ويقدم برهانه على ذلك.

وكان أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب متفقين على أن المسلمين كلهم شيعة لأنهم جميعاً يحبون أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلهم أهل سُنَّة لأنهم جميعاً ملتزمون بالأخذ بسُنَّة الرسول المؤكدة، فنحن جميعاً سُنيون، شيعيون، قرآنيون، محمديون.

وكانوا يرون أن الخلافات بين أهل السُنَّة موجودة بين مذهب الشافعية ومذهب الحنفية في بعض المسائل، مثل نواقض الوضوء مثلاً، فهل نعتبر ذلك خلافاً يوجب ابتعاد أحدهما عن الآخر؟. وليس من أهداف التقريب بين المذاهب إدماج المذاهب الفقهية، لأن الخلاف أمر طبيعي، ما دام محدوداً في الدائرة التي أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر منه في هذه الحالات، بل فيه خير وتيسير للمسلمين.. ومع ذلك، فإن أصحاب المذاهب الفقهية أنفسهم أباحوا الخروج على مذاهبهم، وأباحوا الأخذ ببعض ما فيها والأخذ ببعض ما في غيرها في نفس الوقت، وكان الإمام الشافعي يقول: هذا هو الرأي الذي رأيته، فإذا صح الحديث بما يخالف رأبي، فأضربوا بقولي عرض الحائط. فالمرجع هو قول الله والحديث المؤكد عن الرسول ﷺ، والقاعدة التي أوجبه الله علينا في كتابه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^١. وهكذا فإن كل مجتهد لا بد أن يرى أن مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب.

ولماذا لا يدرس أهل السُنَّة مذهب الشيعة الإمامية والزيدية، ويدرس الشيعة مذاهب السُنَّة الأربعة؟ لماذا لا يعرف المسلمون بعضهم بعضاً؟ ولقد كان الأزهر الشريف قلعة التسامح الفكري، فقرر دراسة مقارنة للمذاهب منذ عهد الإمام الأكبر الشيخ المراغي، وتبعه الإمام

محمود شلتوت، كما أن الأزهر حريص على دراسة مذاهب الفلاسفة أيضاً، والمعتزلة، والجبيرية وغيرهم، ليكون رجل الدين المسلم على علم بكل الأفكار والمواقف في المذاهب الإسلامية القديمة والحديثة..

ولا شك أن الخطوة الكبرى كانت عندما أخذ قانون الأحوال الشخصية في مصر في السبعينات بأحكام من فقه الشيعة، وكان الذين أعدوا هذا القانون من صفوة رجال الأزهر وكبار علمائه. ومع ذلك فلا أحد يدعو، أو يفكر، في الإندماج أو التوحيد.. الفكر والدعوة إلى التفهم.. والتفاهم.. والتجمع في خيمة واحدة وتحت راية واحدة.. والتسامح فيما عليه خلاف.

عندما ذهب الخليفة المنصور إلى الحج إلتقى بالإمام مالك ودرس مذهبه، وقال له: قد عزمت أن أمر بكتبتك هذه فتتسخ، ثم أبعث بها في كل الأمصار، وأمرهم أن يعملوا بها فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا.. فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما وصل إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما أختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. هذا ما رواه التاريخ في ذلك الشأن الإسلامي الخطير كما ورد في كتاب (حجة الله البالغة للدهلوي - ص ٤٥ - الجزء الأول).

فالخليفة شهد اختلاف العلماء في عصره، وأراد أن يوحد المسلمين على مذهب واحد ليتهيئ الجدل والخلاف بين العلماء، وأراد أن يكون مذهب الإمام مالك هو المذهب الأوحده، لكن الإمام مالك نفسه هو الذي رفض فكرة إلغاء المذاهب أو توحيدها، لأنه يرى أن الخلاف بين المذاهب ليس صادراً عن الهوى أو التعصب، ولكنه صادر عن اختلاف في الفهم والتفسير، وهذا طبيعي بالنسبة للعقل البشري، وإن كان الجميع متفقون على الأصول إلا أن اعتماد الناس على روايات مختلفة عن أقوال وأفعال الرسول باختلاف الرواة جعلهم يؤسسون مذاهبهم عليها، وربما تكون الرواية قد بلغت أهل بلد ولم تبلغ غيرهم، خصوصاً أن الأحاديث النبوية لم تكن قد تم تدوينها وتمحيصها وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ.

وفي هذا الاختلاف بين المذاهب حكمة، لأن المسلم حر في أن يأخذ من كل مذهب ما يرتاح إليه قلبه ويقتنع به عقله، وكلها معبرة عن جوهر الإسلام.. ومن مزايا الفقه الإسلامي أنه ترك

باب الاجتهاد مفتوحاً، لأنّ القضايا الجديدة التي تطرح للبحث كل وقت لن تنتهي ولن تتوقف عند حد، وكلما جاء جيل جاءت معه تصرفات وموضوعات وقضايا ومشكلات تحتاج إلى الاجتهاد في الوصول إلى الرأي الذي يتفق مع أصول الدين.

وليس الإمام مالك وحده هو الذي رفض توحيد أو إدماج المذاهب، ولكن الإمام أبو حنيفة أيضاً رفض التعصب لمذهب وكان يقول: لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، وكان يقول بعد كل فتوى: هذا رأيي، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

كذلك كان الإمام الشافعي يتحفظ في التمسك بمذهبه، ويقول: إذا صح الحديث (الذي يستند إليه في فتواه) فهو مذهبي. ويقصد أنه إذا كان هناك حديث صحيح عن الرسول يخالف فتواه، فإنّ هذا الحديث هو الذي يجب الأخذ به. وقال الشافعي لتلميذه إبراهيم المزني: يا إبراهيم لا تقلدني في كل ما أقول، وأنظر في ذلك لنفسك.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ليس لأحد مع الله ورسوله كلام.

وكان يقول لكل تلميذ من تلاميذه: لا تقلدني ولا تقلد الإمام مالك ولا الأوزاعي ولا النخعي، ولا غيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا.. من الكتاب والسنة.

وكان الإمام أبو حنيفة وأصحابه، والإمام الشافعي وأصحابه، يصلون خلف من يختلفون معهم في المذهب، ويصلون خلف أئمة المدينة، وكان مذهبهم إلا يقرأ الفاتحة إلا الإمام ولا يقرأها الآخرون، على أساس أن قراءة الإمام هي الواجبة وليس على الآخرين قراءة..

ولم يقل أحد إن باب الاجتهاد قد أغلق إلا في عصر انحطاط المسلمين.

أما الشيعة الإمامية والزيدية فيرون بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً إلى يوم الدين. والعقلاء من أهل السنة يرون ذلك أيضاً..^١

التعقيب:

إننا إذ نقوم بنشر مقاطع قليلة مختارة من مقال مفصل للأستاذ الموقر رجب البنا رئيس تحرير مجلة أكتوبر المصرية نشرته في اعدادها التي تبدأ بالرقم ١٤٤٢، نود أن نطرح النقاط التالية:

١. مجلة رسالة التقريب، العدد ٤٤، ص ١٩٧-٢١٨.

المهم أنّ هذه المقالات كتبت بروح موضوعية واتجاه تقريبي سليم، نود أن يسود كل كتاباتنا عن الآخرين، فتسهم في توفير الجو الصحيح للحوار، وقد نختلف في بعض الجزئيات مع الأستاذ الكاتب الكبير - وسيأتي التنبيه الإجمالي على ذلك - ولكن ذلك لا يقلل من أهمية هذه المقالات. ويدخل الخلاف في إطار الاجتهادات الفقهية أو التاريخية أو العقائدية وغيرها، ونحن فيها متبعون لقاعدة (نتعاون فيما إتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه).^١ فنشكر الأستاذ الكبير على هذه الروح الطيبة.

وما نود أن ننبه عليه يمكن تلخيصه في نقاط هي:

- ١- إن ما ذكر عن غلاة الشيعة أمرٌ صحيح، والشيعة الإثنا عشرية أنفسهم يتبرأون من الغلاة، بل إن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام شنوا حملة شعواء عليهم وطردوهم وحذروا أتباعهم منهم، فلا داعي لخلط ذكرهم بالبحوث الشيعية، ولا نرى ضرورة عرض غسيلهم القذر من جديد.
 - ٢- وقد نبه الأئمة أنفسهم أنهم عليهم السلام عباد مطيعون لله تعالى، وأنّ حبهم يتجلى في التقوى وعبادة الله تعالى، فلا معنى لتسريب أمثال عقيدة الفداء والشعب الممتاز إلى أتباعهم، بل إنّ العاصي من أتباعهم قد يستحق العقاب مرتين لأنهم يتسببون بذلك في التشكيك بتعاليم أهل البيت الأصيلة.
 - ٣- نحن مع الأستاذ البنا في ضرورة تنقية التراث من إفرازات عصور الظلام والاحن والكذب والوضع والتزوير، وربما تم ذلك بقصد القربة!!
 - ٤- ثبت بالدليل القاطع أنّ شخصية عبدالله بن سبأ، إما هي شخصية أسطورية تؤثر بشكل خرافي على مجرى الأحداث دون أن تترك أثراً حسيّاً، أو هو وجود تافه مرفوض من قبل الجميع، فلا أهمية لترداد إسمه وتضييع الوقت فيه.
 - ٥- من الخطأ أن يقال: إنّ الشيعة يرفضون روايات أهل السنة ورواتهم، في حين أنّ كتب الشيعة والسنة ملأى بروايات ورواة مشتركين. وقد بدأ المجمع بطبع سلسلة روايات في هذا الشأن.
- نعم قد يختلفون في توثيق هذا الراوي أو ذلك، وتضعيف بعض الأسناد أو العمل ببعض

١. وهذه القاعدة تسمى بالقاعدة الذهبية. راجع المعجم الوسيط للساعدي، ج ٢، ص ٧.

- الروايات تبعاً لاجتهادهم في الأمر ولا ضير في ذلك.
- ٦- نحن مع الأستاذ في التأكيد على أن أسباب الخلاف والتخوف والتشكيك قد فقدت موضوعيتها (ع ١٤٤٧).
- ٧- يجب إعادة النظر في أساليب تحامل بعض الكتّاب على هذا المذهب أو ذاك بدواعي كثيرة منها: الجهل أو التعصب أو السياسة، ونشير هنا إلى أساليب إحسان إلهي ظهير وأحمد أمين وعبد المنعم النمر والبيجاني وكثير من المستشرقين من أمثال جولد تسيهر وغير هؤلاء، فإنها لا تثمر إلا العداوة والضياح.
- ٨- والحقيقة أن التلخيصات التي تأتي في ختام كل حلقة تحفل بكثير من الحقائق.
- ٩- ونحن نعتقد أن الكثير من موارد الخلاف:
- أ- إما أنه عاد تاريخياً قد لا يجد له موضوعاً اليوم.
- ب- أو أنه لم يفهم على حقيقته، وعندما يوضح ربما يعود خلافاً لفظياً لا غير.
- ج- أو أنه لا يترك أثراً عملياً وإن كان له مضمون علمي.
- ١٠- ونحن نعتقد أن أساليب الحوار القرآنية هي السبيل الأقوم للوصول إلى الحقيقة، والتفكير بالأهداف العليا ومواجهة التحديات العاصفة التي تعمل على نفي ثقافتنا، بل وجودنا الإسلامي.

النموذج الثاني: عاشوراء في التاريخ

أ.د. عز الدين إبراهيم

مفكر إسلامي كبير

الاحتفاء بعاشوراء

يوم عاشوراء يوم مبارك و متميز في التاريخ، قدره العرب الأقدمون واحتفلوا به، وهو عند أهل الكتاب وخاصة العبرانيين يوم مقدر أيضاً، غير أنه يقع عندهم وفقاً للتاريخ العبري في شهر تشرّي (بكسر التاء وسكون الشين) الذي قد يتوافق أحياناً - وليس دائماً - مع شهر المحرم في التاريخ الهجري. ثم أنه يوم مقدر ومبارك عند المسلمين السنة، وإخوانهم المسلمين الشيعة.

ومع أهمية هذا اليوم، فإن الكتابة عنه بصفة موضوعية، مازالت غير كافية، مما يؤدي إلى عدم وضوح الرؤية التاريخية، واختلاف التفسير، وتفاوت طريقة التذكر والاحتفاء. ومقصودي من

هذا المقال، أن أحاول بأقصى ما أستطيع من الحيدة والموضوعية والتدقيق العلمي، أن أقدم صورة عن هذا اليوم، تبين حقيقته ومنزلته، أو تقترب ما أمكن من ذلك. فأذكر أولاً معنى (عاشوراء) في اللغة والإصطلاح، ثم أبين التفسيرات المتعلقة به بين الفرقاء المعنيين به في التاريخ على مر العصور، وكذلك الممارسات والشعائر المنبثقة عن هذه التفسيرات، ما كان منها صحيحاً أو كان غير ذلك، وأخيراً، بيان بعض الدروس التي يمكن أن تستخلص من ذلك.

عاشوراء في اللغة والإصطلاح

يميل علماء العربية إلى تأكيد عروبة كلمة (عاشوراء)، بمعنى أن أصلها عربي وليست منقولة عن لغة أخرى. فيقول الخليل بن أحمد وغيره: إنَّ العرب أخذوها من لفظ (العاشر) وبنوها على صيغة (فاعولاء) الممدودة. وقال سيبويه وتابعه ابن منظور في "لسان العرب" إنَّ الكلمة مأخوذة من (العشر) أي العدد العاشر، وجاءت على وزن (فاعولاء) وهو وزن عربي، وإنَّ قلت شواهد، ومنها: (الसार وراء) من السراء وهي المسرة، (الضاروراء) من الضراء وهي المضرة، و(الدالولاء) من الدلال، وأورد الزبيدي في "تاج العروس": (الحاضوراء) من الحضور، و(الساموعاء) من السماع. وقال القرطبي في التفسير: عاشوراء هي معدول عاشر، صفة لليلة العاشرة والمد للمبالغة والتعظيم.

ومن المستشرقين - كالعادة - من ينازع في عروبة الكلمة من حيث الأصل، كما فعل فنسك محرر مادة (عاشوراء) في دائرة المعارف الإسلامية، إذ ردها إلى الكلمة العبرية (عاشور) بمعنى العاشر. وقد فعل مثل ذلك غيره حتى مع لفظ (قرآن) ظناً منهم أن لا يكون هذا اللفظ الكريم عربي الأصل! وهو الذي نزل بوصف الله تعالى له "بلسان عربي مبين".

وأياً ما كان الأمر، فإنَّ الكلمة، أصيلة كانت أم منقولة، فهي من كلمات الحديث الشريف، ولها موقعها في المعاجم والاستعمال العربي المستفيض، بمعنى الليلة العاشرة من المحرم التي يسن أو يجب صيامها على اختلاف الحكم الفقهي. وتلحق بها الليلة التاسعة فيقال عنها (تاسوعاء). وللعامية تأويل في (تاسوعاء) بأنها ليلة التوسعة، بلا قياس. ولا يجادل العامة فيما يقولون، والتوسعة تلحق صيام المواسم على أي حال.

وقد اوردت هذا الجدل اللغوي لأؤكد أنَّ الكلمة قديمة في اللسان العربي، دون أن يكون

للعبرية واليهود دخل في ذلك. واشترك العربية من العبرية في كثير من المفردات كثير ومشهور،
فهما من أسرة لغوية سامية واحدة. أما المضمون في كلمة (عاشوراء) فقديم بلا خلاف كما سنين.

عاشوراء قبل الإسلام

من الثابت أن عرب الجاهلية عرفوا يوم عاشوراء ووقروه واحتفلوا به. ولكن وقع الخلاف
حول الأسباب التي من أجلها وقروه. ويوجد قول شائع - ولكنه ليس بالضرورة معتمداً - وهو
أن يوم عاشوراء هو يوم نجاة نوح عليه السلام ومن معه في السفينة من الطوفان الذي أحاط بهم. وقد
أورد هذا القول محمد بن جرير الطبري في تفسيره الآية ٤٨ من سورة هود ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ
بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾، وأستند في ذلك إلى حديث مرفوع ورد في
مسند أحمد (الفتح الرباني ج ١٠ ص ١٧٣ عن أبي هريرة). وقد تبع الطبري المفسرون الفخر
الرازي وابن كثير والقرطبي نقلاً لا مناقشة. ولكن جاء من بعدهم من توقفوا عن قبول هذا
الخبر، نظراً لتفرد أحمد بروايته في المسند. وباعتبار أن تفاصيل قصة نوح هي من الغيبات، لقوله
تعالى في الآية ٤٩ من سورة هود ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا
قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ﴾ (انظر تفسير الطاهر بن عاشور ج ١٠ ص ٦٢).

إلا أن المجمع عليه هو الخبر الوارد في الصحيحين وعند الترمذي والموطأ وأحمد مروياً عن
عائشة وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم بأن قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء في الجاهلية، وأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصومه، وكان يوماً تستر فيه الكعبة. فلما فرض الله صيام رمضان قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من شاء أن يصومه فليصمه ومن شاء أن يتركه فليتركه) وبلغ من اهتمامهم بهذا
اليوم أنهم كانوا يشجعون الصغار على صومه، كما ورد في البخاري عن الربيع بنت معوذ قولها:
(كنا نصومه، ونصوم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن (كرة الصوف)، فإذا بكى أحدهم
على الطعام أعطيناه ذلك حتى يكون الإفطار).

والظاهر أن صيام عاشوراء في الجاهلية كان وفقاً لليوم الطويل ابتداءً من نوم الليلة السابقة
وانتهاءً بمغرب اليوم التالي، لأن التخفيف يجعل الصيام مقصوراً على الفترة بين الفجر
والغروب، إنما وقع في الإسلام كما ورد في سورة البقرة.

وقد تتبع شرح هذه الأحاديث عن عاشوراء قبل الإسلام كل من ابن حجر في (فتح

الباري)، والكاندهلوي في (أوجز المسالك)، وابن قيم الجوزية في (زاد المعاد)، وأستظهروا أسباباً لذلك الاهتمام منها: إتباع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في تكريم الكعبة في يوم مكرم، أو إتباع لنبي سبق، ربما هو (نوح)، وفقاً للخبر الذي أوردناه سابقاً، أو إتباع لما ثبت لدى اليهود عن منزلة هذا اليوم كما سنبينه.

والذي يتلخص لنا مما سبق هو أنّ (عاشوراء) كان يوماً مرموقاً في الجاهلية لواحد أو أكثر من الأسباب المذكورة، والجمع بينها غير مستنكر. وأنّ رسول الله ﷺ قد إستصحب هذه الممارسة في الإسلام، فصام عاشوراء وتحراه وبشر بأنّ صيامه يكفر السنة الماضية كما ورد في البخاري عن ابن عباس.

عاشوراء في صدر الإسلام وبعد الهجرة

ظل حال (عاشوراء) في صدر الإسلام، على ما كان عليه قبل ذلك، من حيث إفراد اليوم بالتوقير والصيام. فلما كانت الهجرة وانتقل النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة جد سبب إضافي لتعزيز هذا اليوم. ففي الصحيحين ومسنده أحمد عن ابن عباس رضيهما عن النبي ﷺ إلى المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى. قال: فنحن أولى بموسى منكم، فصامه وأمر بصيامه.

ولفهم هذا الحديث نذكر بعض الملحوظات: أولاً ما بيناه سابقاً من أنّ هذا اليوم الصالح في التقويم العبري هو العاشر من شهر تشرى، وقد توافق في تلك السنة بالذات مع المحرم، وإلا فإنّ النبي ﷺ على علم، بل وممارسة لما يستحقه العاشر من المحرم، ولم يكن ليستقي معلوماته بادئ ذي بدء من اليهود. والملحوظة الثانية ذكرها القسطلاني - أحد شراح البخاري - وهي أنّ الرسول لم يأمر بتقليد اليهود، لأن ذلك غير وارد في السلوك الإسلامي الذي يحرص على التميز، وإنما أمر بالاحتفاء بالعلة وبالنبي موسى ﷺ. والعلة هنا هي إحدى المعجزات الإلهية التاريخية التي أكرم الله بها النبي موسى، إذ شق له البحر فنجا هو ومن معه من بني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده، وهي علة تستحق التنويه والإكبار، وتتفق بشكل عجيب مع علة نجاة النبي نوح ومن معه في السفينة يوم فار التنور، وغرقت الأرض بها يشبهها ولو بدرجة محدودة ما فعله طوفان (تسونامي) الأخير في الشرق الأقصى.

والملاحظة الثالثة، هي أنّ النبي ﷺ أراد أن يستميل اليهود في واحد من عدة محاولات قام بها معهم، ولكنها لم تنزع سخيمة قلوبهم وعداوتهم، ولم تجد معهم كثيراً، إذ ناصبوا المسلمين العدا وتخالفوا مع مشركي قريش كما هو معلوم في التاريخ. وظل الحال كذلك حتى السنة الثانية من الهجرة، حيث فرض صيام رمضان وتحددت صفاته ومدته اليومية، فترك صيام عاشوراء بالخيار، فمن شاء صامه، ومن شاء لم يصمه. وإن كان التوجه التعبدية عند الجمهور هو الصيام. وبهذا يكون المفهوم الشرعي بعاشوراء قد اكتمل، باعتبارها مناسبة دينية لها عمق تاريخي يحتفى بها بالتذكر والشكر والتعبد.

عاشوراء بعد سنة ٦٠هـ

بعد عام ٦٠هـ طرأت على مفهوم عاشوراء إضافة لا يمكن ولا يجوز تجاهلها، لأنها لونت المناسبة بلون أسود قاتم، ومزجت عاشوراء بمشاعر الأسى والحزن، في كل البلاد الإسلامية وخاصة تلك التي يتمركز فيها إخواننا الشيعة. ففي العاشر من محرم سنة ٦١هـ وقعت معركة كربلاء بين رجال يزيد بن معاوية الخليفة الأموي الثاني، والخارجين على الحكم الأموي بقيادة سبط رسول الله ﷺ الإمام أبي عبدالله الحسين بن علي رضي الله عنهما، وقد استشهد في هذه المعركة الإمام الحسين، وعدد من آل البيت، بما يسمى بالفترة الثانية من (الفتنة الكبرى). و(الفتنة الكبرى) إصطلاح تاريخي، يطلق على فترة الخلافات والمنازعات التي حصلت بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهذه الفتنة فترتان: الأولى سنة ٣٥هـ وحتى عام المجاعة سنة ٤١هـ، حينها تنازل الإمام الزاهد الحسن بن علي رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقناً للدماء وجمعا لشملة المسلمين، والثانية من ٦٠هـ إلى سنة ٦٤هـ، مدة حكم يزيد بن معاوية وفيها وقعت معركة كربلاء المؤسفة. ومنهج أهل السنة في رصد الفتنة الكبرى هو عدم الخوض في تفاصيلها وكثرة الكلام عنها، والأخذ بمقولة (فتنة سلم منها سيوفنا، فلنسلم منها ألسنتنا). وعندما أصدر الدكتور طه حسين كتابه (الفتنة الكبرى) عاب عليه بعض الناس ذلك لأنه نكأ الجروح.

وما كان لي أن أخرج عن منهج أهل السنة، لولا أنني أدرس (عاشوراء) وما جد على مفهومها من إضافة غير بسيطة، وتقتضي الأمانة العلمية أن أذكر ذلك.

وبصورة إجمالية فإنّ (عاشوراء) قد حملت بعد كربلاء معنى جديداً، هو التصاقها بذكرى استشهاد الحسين بكل ما فيها من أحزان وعبر، والحزن والاعتبار هو موضوع إجماع المسلمين سنتهم وشيعتهم، وكيف لا والمقتول إمام، وسبط للرسول ﷺ الذي حكى القرآن الكريم أنّه لم يسأل الناس شيئاً ﴿إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^١. ولكن المواقف بعد ذلك متفاوتة.

فأما في البلاد الإسلامية السنيّة، فقد بقي فيها المفهوم الشرعي الأصلي لعاشوراء على ما هو عليه بما في ذلك صوم يوم عاشوراء وتاسوعاء. وأضيفت ذكرى كربلاء على أنّها ملحظ تاريخي إسلامي محزن.

وأما في البلاد الإسلامية التي يتمركز فيها إخواننا الشيعة، فقد غلبت عليها كربلاء، وبرزت وأصبحت هي السمة الرئيسية لعاشوراء، ومددت فترتها لتشمل الأيام العشرة الأوائل من المحرم، مع الاهتمام باليوم العاشر بوجه خاص، كما أضيف اليوم العشرون من شهر صفر، باعتبار أنّه يصادف ذكرى الأربعين على استشهاد الحسين طيب الله ثراه. ولا ينبغي حمل أهل السنّة على أنّهم استهانوا بكربلاء ونتائجها، فإنّ ذلك قد يصدق على يزيد بن معاوية ومعاوية، ولكنه لا يصدق على عموم أهل السنّة الذين يجعلون آل البيت ويجنونهم بما هم له أهل. ومن ذا الذي لا يتأثر ويجزن وهو يتذكر أحداث كربلاء وشهيدها، ويقرأ كلمات السيد الحميري في الحسين، التي تحرك الحجر فضلاً عن البشر:

فأطل به وقف المطيه	وإذا مررت بقبره
والمطهرة التقية	وابك المطهر للمطهر
يوماً لواحدتها المنية	كبكاء معولة أتت

كما أنّه لا ينبغي أن نفسر موقف الشيعة من عاشوراء كربلاء، بأنّه يتضمن الغفلة عن المفهوم التاريخي التراكمي ليوم عاشوراء. فإنّ هذا المفهوم واضح لديهم وضوحه لدى أهل السنّة، ومن أراد من السنّة أن يثبت، أو أراد من الشيعة أن يجدد التزامه بذلك المفهوم، فليقرأ مثلاً باب (صوم يوم عاشوراء) في كتاب أبي جعفر الطوسي (الاستبصار ج ٢، ص ١٣٤ و ١٣٥) والاستبصار هو

١. الشورى: ٢٣.

أحد الكتب الأربعة المعتمدة لدى الشيعة، ليجد أن ماورد فيه لا يختلف عما هو في كتب السنّة الستة. وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الناس، وهي أن اختلاف الكتب المعتمدة بالأعيان والأسماء لا يعني اختلافها في المضامين، فإنّ المشترك بين مضامين أربعة الكتب التي للشيعة وستة الكتب التي للسنّة لا يقل عن تسعة الأعشار.

إلا أنّه يلزم التأكيد بأنّ موقف إخواننا الشيعة من عاشوراء هو موقف ديني وتاريخي وسياسي معاً. فإنّ للقوم وجهة نظر معروفة في موضوع (الإمامة الكبرى) تختلف عن وجهة النظر السنيّة، ولذلك فإنّ يوم عاشوراء أو أيام عاشوراء العشرة تعتبر موسماً سنوياً للتعبير عن وجهة النظر الشيعة دينياً وسياسياً. ومن يتابع طريقة الاحتفال بأيام عاشوراء عند مثقفي الشيعة، يجد مصداق ما ذكرت حيث تلقى المحاضرات والدروس لبيان ذلك الموقف (أنظر محاضرات المرحوم الشيخ محمّد مهدي شمس الدين بعنوان: (عاشوراء)، كتاب (خطاب عاشوراء) للسيد حسن نصر الله. وعليه، فإنّ (عاشوراء) السنّة تظل في إطارها الذي ذكرناه سابقاً، بينما تتسع (عاشوراء) الشيعة لتشمل الإضافات الخاصة بالمذهب. ولكل وجهة هو موليتها.

ممارسات الاحتفال

ممارسات الاحتفال بعاشوراء يختلط فيها ما هو مشروع، بما ليس مشروعاً، سواء عند السنّة أو الشيعة. والمفروض التمييز والتنبيه بالتي هي أحسن، من دون الإيغال في النكير بأي فريق، لأنّنا أمة واحدة، وما يعيب فريقاً يعيب الأمة كلها حتى نتعاون بالحسنى والسماحة على تغييره. فأما عند السنّة، فالمشروع أساساً هو الصيام، مع تذكر المناسبة والعبر المستفادة منها. وعن ممارسة التوسعة، فإنّ الإمام البيهقي يؤكد أنّ الأحاديث التي وردت بشأنها ضعيفة، ولكن كثرتها تجيز الأخذ بما تدعو إليه. والتوسعة في مناسبات الصوم مألوفة. ومن الإضافات غير الموثقة تحديد صلوات معينة، أو قراءات دينية مخصصة، فليس في ذلك توثيق يؤخذ به. والعبرة في العبادات بالتوقيف، وليس بالإضافات المبتدعة. وهناك بدع اجتماعية في الزيارات والزي والمأكولات، لا تبرير لها، وقد تؤول على غير معناها. ومن البدع السخيفة الاعتقاد بأنّ طائر الصرد (وهو أكبر من العصفور، وكانوا يتشاءمون منه) قد صام عاشوراء. فكل ذلك ابتداع ومعظمه داخل ضمن الفولكلور الاجتماعي الذي يلزم إجماعه.

أما عند الشيعة، فالصيام بالتخيير مقرر. وإقامة مجالس العزاء مع ما يرافقها من المحاضرات عن مناقب الحسين وآل البيت واردة. ويسمى ذلك (بالقراءة - تحريف القراءة). والعلماء يتعففون عن إثارة الفتن، أو ذكر أحد من الصحابة بغير ما يستحقه من التوقير. وقد كان الكميت رحمه الله، وهو صاحب (المهاشميات) المشهورة في مديح آل البيت، ينشد بأنه يهوى علياً أمير المؤمنين ولا يرضى بشتم أحد وهذا هو مذهب فضلاء الشيعة. ولكن لعامة الشيعة ممارسة نشير إليها ولا نفضلها، وهي المواكب التي تسير في الشوارع، ولها تسميات هي: موكب اللطامة (أي لطم الصدور)، وموكب الزناجيل (أي اللطم بالسلاسل)، وموكب التطير بالقامات (أي القفز بالسيوف في الأيدي) وهي جميعاً موضع استنكار من علماء الشيعة الأثبات، الذين يفهمون الدوافع العاطفية للعامة في إظهار حزنهم واستنكارهم لقتل الحسين، ولكنهم يعرفون مالهذه الممارسات من مخاطر بدنية وصحية، وبعدها عن التعبير المشروع. ومن هؤلاء العلماء الإمام الخوئي في كتابه (استفتاءات الإمام الخوئي - المسائل الشرعية) وكذلك الإمامان الخميني والخامني في فتويين معاصرتين معلتين. كما تألفت جمعيات إصلاحية لمواجهة هذه الممارسات بالحكمة والموعظة الحسنة. وقد رصد هذه الظاهرة بصراحة وإنصاف الدكتور إبراهيم الحيدري في كتاب نفيس بعنوان: (تراجيديا كربلاء، سوسولوجيا الخطاب الشيعي) فليرجع إليه. وإنني أطري عمل جمعيات الإصلاح، لأن المشكلة تحتاج إلى معالجة دينية وعقلية وعاطفية من داخل المجتمع الشيعي. وكثرة اللغظ حولها يثير الفتنة الطائفية بلا مبرر، ويصعب على العامة الفكك من عقدها.

دروس من عاشوراء

ومن المفيد أن يختتم هذا العرض لتاريخ عاشوراء ومضامينها والأحداث التي إرتبطت بها، باستخراج بعض الدروس والعبر، ومنها:

أ- تعظيم أيام الله، والاحتفاء بها بما شرع:

فعاشوراء، وعرفة، وليلة القدر، والعشر الأواخر من رمضان، وعشر من ذي الحجة، وغيرها. كلها من أيام الله المباركة، وهي مواسم للطاعة والعبادة، الأكف فيها مرفوعة، وأبواب السماء مفتوحة، فعلياً أن نغتنمها قبل أن تجف الأقاليم، وتطوى الصحف. وقد ورد في الأثر أن

لله في أيام دهركم نفحات إلا فتعرضوا لها. وأحب الأعمال إلى الله في هذه الأيام هي ما شرعه لها: إن بالصيام، وإن بالقيام، وإن بغير ذلك، والتزيد غير مطلوب، والانتقاص غير مرغوب.

ب - تأكيد موقف الإسلام الوفاقي من الرسائل السماوية:

ففي الوقت الذي ترفض بعض الأديان غيرها، نجد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي ينظر إلى الرسائل السماوية وكتبها وأنبيائها بأنها منظومة واحدة متتابعة الحلقات، والحلقة الخاتمة تمام على الذي أحسن من قبل، وكتابتها مهيمناً على الذي سبقه باستيعابه وتكميله.

ونستفيد هذا الدرس من مقولة النبي ﷺ لليهود في المدينة: "فنحن أولى بموسى منكم، وفي هذا السياق نزلت آية آل عمران الجامعة: ٨٤ ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

ج - التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتقارب بين أتباعها:

وهذا الدرس استطراد لما سبقه، إذ لا يجوز الوفاق مع الغير، مع إهدار الوفاق بين أبناء البيت الواحد، فالمسلمون أمة واحدة، وقد إصطلحوا في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي على اعتماد ثمانية مذاهب للرُجوع إليها في التشريع، وهي المالكية، والشافعية، والحنابلة، والحنفية، والإمامية، والزيدية، والإباضية، والظاهرية. ومن الممكن التفاهم مع من وراءهم من أهل التوحيد من أمة محمد ﷺ. و باعتبار تماس الاهتمام بعاشوراء من قبل السنة والشيعة، فمن المفيد أن نتذكر أن كثيراً من الخلافات بين هذين الفريقين قد بدأت سياسية، ثم تغلفت بأغلفة الفقه. والمفروض أن ما فات، وأنه إذا صعب التقريب بين التعاليم، فلنجتهد في تحقيق التقارب بين الأتباع.

د- نفض البدع عن مناسباتنا الدينية

وقد ألمنا بطرف من بدع (عاشوراء) عند السنة والشيعة، فلنعمل كل في دائرته على نفض البدع عنها، ورفض ما قد يكون موضوعاً من أحاديث لتأييدها. وإذا كان الرفض بعد التمحيص المتخصص من مهام العلماء، فإن المثقف العام يستطيع أن يستأنس بمقولة ابن خلدون في باب علم الحديث من مقدمته: (إذا رأيت الحديث يخالف الأصول، ويعارض المنقول، ويناقض المعقول،

فاعلم أنه موضوع، وإن وثقوه ووثقوه) ولكن الرجوع إلى تمحيص العلماء أمن. فإذا تشنج متشنج وأنكر الصيام في عاشوراء رددناه، والحكم بعد ذلك للتخيير. وإذا تساخف متساخف وقال: اكتحلوا في عاشوراء وتزينوا قلنا له هذا يوم استغفار لا كرنفال. وقس على ذلك.

وأخيراً:

نسأل الله تعالى أن يعيد عاشوراء على المسلمين، وهم أكثر إحاطة بمعانيها التراكمية، وأقدر على التسامح فيما بينهم بشأن الاختلاف حول هذه المعاني بحكم التطورات التاريخية، وما عاشوراء إلا واحدة من المناسبات الدينية التي تتفاوت المواقف بشأنها، فإذا كنا قد خرجنا منها للدعوة إلى الوحدة، فإن ديننا ومصالحنا والأخطار المحدقة بنا كل ذلك يجتم علينا أن نتوحد لنصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.^١

التعقيب

الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم هو أحد المفكرين الكبار الذين أكدوا على فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وعملوا لتركيزها، إلى جانب العمل المتواصل لدفع عملية الحوار بين الأديان إلى الأمام. وهذا المقال التحقيقي يأتي في نفس السياق ممتازاً بروح هادئة وموضوعية، ونحن إذ نعظم معه وقفة الإمام الحسين عليه السلام البطلة ضد حكم طاغية منحرف هو يزيد، ونعلن حزننا الدائم على ماجرى على ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنؤكد أن إحياء ذكرى الحسين عليه السلام لا يعني إلا إحياء قيم الثورة على الظلم، وتعظيم معاني التضحية في سبيل العقيدة والإصلاح في الأمة. أما مسألة صيام يوم عاشوراء فهي مسألة فرعية قد لا تكون لها علاقة بالحادثة، وهي مسألة يختلف على استحبابها العلماء، لضعف واضح في مستنداتها، ولذا فالأقوال فيها متنوعة والاستنباطات مختلفة ولا ضير في ذلك، أما الممارسات بمناسبة عاشوراء فالبعض منها طبيعي مندوب إليه؛ لمواساة أهل البيت عليهم السلام وإحياء ذكراهم وقيمهم، والبعض منها تقاليد محلية معبرة عن ذلك، في حين يشط البعض عن الصواب ويدخل في حالات الإفراط المرفوض.

١. مجلة رسالة التقريب، العدد ٤٧، ص ٢٠٣ - ٢١٤.

وأخيراً، فإننا نحبي الأستاذ الكبير في فكره وعمله راجين له العمر المديد.

النموذج الثالث: التقريب بين المذاهب الإسلامية

أ. د. محمد عمارة

مفكر إسلامي من مصر

في الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التي يستخدمها الباحثون في هذا الميدان.. "فالتقريب" بين المذاهب غير "التوحيد" للمذاهب.. وكلاهما متميز عن "احتضان" جميع المذاهب والاستفادة من الملائم في أحكامها واجتهادات مجتهداتها.

ثم إن "المذاهب" قد يراد بها "المذاهب الفقهية".. وقد يراد بها "المذاهب الكلامية". لذلك، لابد من البدء بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات.

"فالتقريب": هو الإنطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة، مع العدول عن نفي مذهب للمذاهب الأخرى، بالتعصب لمذهب واحد، ورفض ما عداه.. فهو - التقريب - تعايش بين المذاهب المختلفة، مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها، ومناطق الإتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف.

أما "التوحيد" بين المذاهب: فإنه يعني دمجها جميعاً في مذهب واحد، ونفي قاعدة التعدد والتمايز والاختلاف..

وبين هذين المصطلحين يأتي "الاحتضان" والاستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة، باعتبارها اجتهادات إسلامية في إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد، والنظر إلى الأحكام التي أثمرتها الاجتهادات المذهبية المختلفة باعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة، ومن ثم الاستفادة بالملائم منها، الذي يلبي حاجات تحقيق المصالح والضرورات المتجددة بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف.. أي توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والاجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها.. ومفهوم "الاحتضان" هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات "التقريب".

أما مصطلح "المذاهب"، فإنه يطلق على المذاهب الفقهية، التي هي علم الفروع، واجتهادات

الفقهاء في إطار الشريعة الإسلامية الواحدة، التي هي وضع إلهي ثابت عبر الزمان والمكان.. وقد يطلق هذا المصطلح - المذاهب - على المذاهب الكلامية، أي التصورات والاجتهادات التي أبدعها علماء أصول الدين في إطار العقائد الإسلامية، وخاصة "الألوهية" وصفات الذات الإلهية.. و"النبوات والرسالات" وما يتعلق بها من المعجزات.. و"فلسفة العلاقة بين الحق والخلق"، وما يتعلق بها من مكانة الإنسان في الكون، وأفعال هذا الإنسان.. الخ. هذا عن ضبط مفاهيم ومضامين مصطلحات هذا المبحث من مباحث الفكر الإسلامي.

أما عن التاريخ الحديث للجهود والدعوات التي بذلت وقامت للتقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ماعداه، والاستفادة من كل الاجتهادات فيها، لتلبية احتياجات التشريع للمستجدات العصرية.. فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ، ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) - في التقرير الذي كتبه لإصلاح القضاء الشرعي - أبرز هذه الدعوات في عصرنا الحديث، لاحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامي، والاستفادة من اجتهاداتها في القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية.. فلقد كانت الدولة العثمانية (٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ، ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م) تلتزم المذهب الحنفي وحده، وبفقهه وحده يحكم القضاء ويفتي المفتون في ولاياتها، رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة: الحنفي.. والمالكي.. والشافعي.. والحنبلي.. وللمذهب الحنفي وحده تم التقنين في "مجلة الأحكام العدلية" عام ١٢٨٦ هـ ١٨٦٩ م.. فلما درس الإمام محمد عبده حال القضاء الشرعي بمصر، دعا - في التقرير الذي كتبه في نوفمبر عام ١٨٩٩ م - إلى إصلاح حال هذا القضاء وفقهه.. ودعا إلى احتضان كل المذاهب الفقهية والاستفادة من اجتهادات جميع مجتهديها، لما في ذلك من فتح باب الاجتهاد، والتيسير على الناس، وتلبية حاجات المستجدات (الأعمال الكاملة ج ٢، ص ٢٠٩-٢٨٨).

ولقد كانت حركة التقنين لفقه الإسلامي بمصر، في مقدمة الحركات التي وضعت دعوة الإمام محمد عبده في الممارسة والتطبيق.. ففي التعديلات التي أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة - الأحوال الشخصية - تمت الاستفادة من المذاهب الفقهية المختلفة، بما في ذلك المذهب الجعفري - للشيعة الإثني عشرية - والمذهب الزيدي - للشيعة الزيدية -.

ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامي - موسوعة جمال عبد الناصر - إتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها، واحتضنت أحكامها واجتهادات مجتهداتها جميعاً - وهي المذاهب السنية الأربعة. مع المذهب الجعفري، والمذهب الزيدي، والمذهب الإباضي، والمذهب الظاهري، فكانت "لفقه المصري" - إذا جاز التعبير - الريادة في انتهاج هذا الطريق الذي لا يكتفي فقط "بالتقريب" بين المذاهب الفقهية، أي رفض التعصب لمذهب واحد ضد ماعده، وإنما تجاوز "الموقف المصري" هذا "التقريب" إلى "احتضان" كل المذاهب، والعمل على الاستفادة من الملائم للمبني لاحتياجات الأمة ومستجدات العصر من اجتهادات المذاهب الفقهية جميعاً.

وفي أربعينيات القرن العشرين، قامت في مصر "جماعة التقريب بين المذاهب"، مركزاً جهودها على مذاهب السنة والشيعية الإمامية بوجه خاص.

ولقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد علي علوية باشا (١٢٩٢ - ١٣٧٥ هـ، ١٨٧٥ - ١٩٥٦ م).. وكان في مقدمة مؤسسيها والعاملين في ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام: الشيخ عبد المجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤ هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ، ١٨٨١ - ١٩٤٥ م) والشيخ مصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ، ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م) والشيخ محمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ، ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م) والشيخ محمد المدني (١٣٢٥ - ١٣٨٨ هـ، ١٩٠٧ - ١٩٦٨ م) والشيخ علي الخفيف (١٣٠٨ - ١٣٩٨ هـ، ١٨٩١ - ١٩٧٨ م) والشيخ عبد العزيز عيسى (١٣٢٧ - ١٤١٥ هـ، ١٩٠٩ - ١٩٩٤ م) والشيخ حسن البنا (١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ، ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م) والشيخ سيد سابق.. وغيرهم من أئمة علماء السنة.

كما ضمت هذه اللجنة - في إطار "دار التقريب" - كوكبة من كبار علماء الشيعة الإثني عشرية.. من مثل آية الله آقا حسين البروجردي.. والسيد محمد تقي الدين القمي - الذي تولى الأمانة العامة للجماعة - والسيد محمد حسين آل كاشف الغطاء.. والسيد شرف الدين الموسوي.. والسيد محمد جواد مغنية.. والسيد صدر الدين شرف الدين.. وغيرهم.

وكانت مجلة "رسالة الإسلام" - لسان حال هذه الجماعة - من أبرز المنابر الفكرية التي تجسدت فيها الجهود التي بذلت في هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية، وفي إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص.

كذلك، كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه اجتهادات هذا اللون

من التقريب بين المذاهب الفقهية.. فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة، وجهود هذه الجماعة فقال: "إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام.. كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام، والتي كان عليها الأئمة الأعلام في تاريخنا الفقهي، أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة، ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والحمول، فلا يزعم أحدهم أنه أتى بالحق الذي لا ريب فيه، وأن على سائر الناس أن يتبعوه، ولكن يقول: "هذا مذهبي، وما وصل إليه جهدي وعلمي، ولست أبيع لأحد تقليدي وإتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت، فإنّ الدليل إذا استقام فهو عمدي، والحديث إذا صح فهو مذهبي".

"ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة، ثم تهيأ لي بعد ذلك، وقد عهد إليّ بمنصب مشيخة الأزهر، أن أصدرت فتاوي في جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول، المعروفة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين، ومنها مذهب الشيعة الإمامية الأثني عشرية.. وقرت الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لاهداف لهم إلا الحق والألفة ومصالحة الأمة. وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات في شأنها وأنا مؤمن بصحتها، ثابت على فكرتها، أؤيدها في الحين بعد الحين، فيما أبعث به من رسائل إلى المستوضحين، أو أرد به على شبه المعترضين، وفيما أنشئ من مقال ينشر أو حديث يذاع، أو بيان أدعو به إلى الوحدة والتماسك والإتفاق حول أصول الإسلام، ونسيان الضغائن والأحقاد، التي أصبحت - والحمد لله - حقيقة مقررة تجري بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة، بعد أن كان المرجفون في مختلف عهود الضعف الفكري والخلاف الطائفي والنزاع السياسي يثيرون في موضوعها الشكوك والأوهام بالباطل، وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية، سنيها وشيعيها، دراسة تعتمد على الدليل والبرهان، وتخلو من التعصب لفلان وفلان" (كتاب مشيخة الأزهر) للشيخ علي عبد العظيم. ج ٢ ص ١٨٧، ١٨٨.

هكذا تحدث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، عن فكرة التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية، والتقريب بين أرباب هذه المذاهب - أي بين علماء السنة والشيعة.. وعن شمول هذه الدعوة لكل المذاهب الفقهية الثابتة الأصول، المعتمدة المصادر، المتبعة لسبيل المؤمنين. وعن جواز

التعبد بفقهِه جميع هذه المذاهب دون استثناء.. كما حدّث عن الجدل الذي دار حول فتواه بهذا الخصوص.. وعن تبني الأزهر الشريف لهذا الإتجاه في التقريب بين مذاهب الفقه الإسلامي. أما نص الفتوى التي أصدرها الشيخ شلتوت، والتي أثارت جدلاً فكرياً حول هذا الموضوع.. فلقد جاءت رداً على سؤال نصه:

"إنّ بعض الناس يرى أنّه يجب على المسلم لكي تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح، أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وليس من بينها مذهب الشيعة، فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه، فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثني عشرية مثلاً؟" .. فكان جواب الشيخ شلتوت على هذا السؤال:

"إنّ الإسلام لا يوجب على أحد إتباع مذهب معين، بل نقول: إنّ لكل مسلم الحق في أن يقلد بادئ ذي بدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً، والمدونة أحكامها في كتبها الخاصة، ولمن قلد مذهباً من هذه المذاهب أن يتقلد إلى غيره - أي مذهب كان - ولا حرج عليه في شيء. إنّ مذهب الجعفرية، المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة، فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلاً للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات" - كتاب (مشيخة الأزهر) ج ٢ ص ١٨٨.

ذلك هو نص فتوى الشيخ شلتوت في التقريب بين المذاهب الفقهية. وفي جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعاً دون تعصب لمذهب ضد ماعداه. وجواز التعبد والتعامل - من قبل أهل السنّة - وفق فقه المذهب الجعفري للشيعة الإمامية الإثني عشرية على وجه التحديد. ورغم أنّ هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيماً وواسعاً ومستمرّاً في الدوائر الشيعية، ورفعت من مقام الشيخ شلتوت في هذه الدوائر، حتى لقد تم الاحتفال به وبآية الله البروجردي في طهران عام ٢٠٠١م.. ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات، إلا أنّه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أي مرجع من مراجع الشيعة، ولم يفت واحد من هؤلاء العلماء الأعلام

بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعي وفقه المذاهب الفقهية السنية، حتى يكون التقريب متبادلاً بين الأطراف المتعددة، وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثاني!

بل إن دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية - الصادر بعد الثورة الإسلامية - قد ذهب إلى الحد الذي جعل المذهب الجعفري وحده هو مذهب الدولة، ونص على أن المادة التي تقرر ذلك لا يجوز تغييرها فيما يطرأ على مواد هذا الدستور من تغييرات!.. الأمر الذي يجعل قضية التقريب بين المذاهب الفقهية قائمة على ساق واحدة، ومن طرف واحد حتى كتابة هذه السطور!..

وإذا كانت لنا من ملاحظات على هذه الجهود العلمية العظيمة التي بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتي أثمرت ثمرات طيبة في ميدان التقريب بين السنة والشيعية.. وهي الجهود التي يحاول مواصلتها - قدر الإمكان.. وعلى نحو من الأنحاء - "المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية" بطهران، فإن هذه الملاحظات يمكن إجمالها في هذه النقاط.

أولاً: إن توجيه جهود التقريب بين المذاهب الإسلامية إلى التقريب بين المذاهب الفقهية، هو جهاد في غير الميدان الحقيقي الأولى بالجهاد.. أو على أحسن الفروض - هو جهاد في الميدان الأسهل، الذي لا يمثل المشكلة الحقيقية في الخلافات بين المذاهب الإسلامية.. وبين السنة والشيعية على وجه التحديد - فالفقه هو علم الفروع.. وكلما زاد الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي كلما تمايزت الاجتهادات في الأحكام الفقهية. ففتح الآفاق أمام تمايزت الاجتهادات هو الذي يحرك العقل الإسلامي المجتهد، وليس التقريب فضلاً عن التوحيد لهذه الاجتهادات فقط يزيد احتضان الاجتهادات المذهبية الفقهية المتنوعة، والاستفادة بالملائم من احكامها للتيسير على الناس، ولمواكبة المستجدات.

وثانياً: إن الفقه هو علم الفروع.. وتمايز الاجتهادات فيه واختلاف المجتهدين في أحكامه لم يكن في يوم من الأيام يمثل مشكلة لوحدة الأمة، بل كان مصدر غنى وثراء للعقل الفقهي والواقع الإسلامي على السواء.. وفي الفقه كان الأئمة والعلماء المختلفون في المذاهب، يتلمذ الواحد منهم على من خالفه في المذهب.. بل ورأينا في تراثنا من العلماء الأعلام من يجمع المذاهب المتعددة في فقهه وعطائه، فيفتي وفق مذهب، ويقضي وفق مذهب ثان، ويدرس كل المذاهب لطلاب علمه ومريديه!.

فاختلاف المذاهب الفقهية هو ظاهرة صحية في الفكر الإسلامي، وهو مصدر من مصادر

الغنى والثراء لهذا الفقه، ولا يمثل أية مشكلة لوحدة أمة الإسلام.. ومن ثم، فليس هو الميدان الحقيقي والأولي للجهاد الفكري في التقريب بين مذاهب المسلمين.

وثالثاً: إنّ الميدان الذي كان ولا يزال يمثل مشكلة لوحدة الأمة - التي هي فريضة إلهية وتكليف قرآني - هو ميدان بعض الاجتهادات المذهبية في المذاهب الكلامية الإسلامية.. وعلى وجه التحديد أحكام "التكفير" و"التفسيق" التي نجدتها في تراث هذه المذاهب، والتي إرتبطت بقضية الإمامة على سبيل الحصر والتحديد.

إنّ اختلاف مذاهب الفقه - السنيّة والشيعية - حول "نكاح المتعة" مثلاً، لا يمثل مشكلة تقصم وحدة الأمة الإسلامية.. لكن الاجتهادات التي تكفر الصحابة الذين أخروا خلافة علي بن أبي طالب هي التي تهدد وحدة الأمة منذ عصر الخلافة وحتى هذه اللحظات.

ومثلها الاجتهادات التي تكفر الشيعة في بعض كتب التراث السني، كما هو الحال عند شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ، ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) وبعض الأئمة "السلفيين".. ويضاف إلى هذه المسائل بعض الآراء التي توهم التجسيد والتشبيه للذات الإلهية.. وبعض المواقف الحادة في ميدان التصوف والصوفيّين.

فالتقريب بين المذاهب، والذي يمثل الميدان الحقيقي للجهاد الفكري المطلوب، هو الذي يوحد الأمة في الأصول والثوابت، وفي أمهات العقائد والمسائل الفكرية.. وهذا هو ميدان علم الكلام.. والجهاد التقريبي - الغائب والمطلوب - هو نزاع "الألغام الفكرية - التكفيرية" التي تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب، لأنّ التكفير هو نفي للآخر، يقصم وحدة الأمة.. وهو خطر لا علاقة له بالفقه الذي هو علم الفروع، ولا بالاجتهادات والأختلافات الفقهية التي هي ظاهرة صحية، تثمر الغنى والثراء في الأحكام، واليسر والسعة للأمة كلها في تطبيق هذه الأحكام.

وإذا كانت هذه "الألغام الفكرية - التكفيرية"، التي تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء في بعض الحوزات العلمية، وفي بعض الدوائر الفكرية السنيّة.. كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة.. إذا كانت هذه "الألغام" قد غدت راسخة، بل و"متكلسة"!.. فإنّ الموقف الممكن والعملية إزاءها يمكن تصوّره فيما يلي:

١- تحديد نطاق هذه "الألغام الفكرية - التكفيرية".. وأغلبها - لحسن الحظ - نابع من نقل القضايا

الخلافية من نطاق "أصول الاعتقاد"، وتحويلها - من ثم - إلى عوامل "نفي.. وتكفير" للمخالفين..
 ٢- اعتماد منهاج وسنّة التدرج في تطبيق خطة إزالة هذه "الألغام الفكرية - التكفيرية" من الكتب التراثية، وخاصة الذي يدرس منها في الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية، وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه.. وفق منهاج المعارف عليه في (تهذيب) كتب التراث..
 ٣- الإتفاق - في إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية - على منع تدريس هذه (الاجتهادات التكفيرية) في الحوزات والجامعات الإسلامية التي تكون عقول العلماء في مختلف بلاد الإسلام.. ولنا في منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة في هذا الميدان، فهو يحتضن كل مذاهب الأمة - الفقهية والكلامية - سلفها وخلفها على حد سواء، مع استبعاد التكفير والتفسيق لأي مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية، حفاظاً على وحدة الأمة، التي هي فريضة إلهية، تعلق فوق اجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين.

وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾^١.

ذلك هو الميدان الحقيقي للجهاد الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية.. أنه علم الكلام.. علم الأصول في الاعتقاد.. وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية، التي تتخصص في الفروع، واختلافاتها رحمة واسعة، ولا تفسد الود بين المسلمين.^٢

التعقيب:

إننا لنقدر للأستاذ المفكر الكبير روحه التقريبية العالية ونتوقع أن يمدنا بأفكاره النيرة ولنا حول هذا المقال بعض النقاط.

الأولى: إن العمل الكبير الذي أنجزه الإمام الشيخ شلتوت لم يكن هو السماح للفرد السنّي بالتمذهب بالمذهب الجعفري، فليس هذا (أي مسألة الانتقال من مذهب إلى آخر) هو المهم؛ إذ من يثبت لديه أرجحية مذهب على آخر، فإنه ينتقل إليه دون انتظار لفتوى أحد، ولكن الرقم الصعب الذي حققه - رحمه الله - هو كسر هذا الحاجز النفسي بين السنّة والشيعّة والذي كان يترك

١. الأنبياء: ٩٢.

٢. مجلة رسالة التقريب، العدد ٣٦، ص ٢٨٥ - ٢٩٤.

أثره في التشكيك والريبة، وبالتالي في التباعد بينهما، حيث أكد إسلامية الشيعة وانتهاهم من المصادر الإسلامية. وعلماء الشيعة بدورهم أكدوا مراراً هذه الحقيقة بحق إخوانهم أهل السنة، فهذه فتوى الإمام الخميني؛ بلزوم التحاق الإيرانيين بصلاة الجماعة في المسجدين والاستشكال في صلاة الجماعة في محل إقامتهم دليل ذلك.

الثانية: إنَّ ما جاء في دستور الجمهورية الإسلامية من جعل المذهب الجعفري مذهب الدولة لا يتنافى مطلقاً مع مهمة التقريب بين مذاهب المسلمين، ذلك أنَّ الدستور يجب أن يكون المرجع في المسائل الخلافية التي ترتبط بالجانب الاجتماعي العام والتي لا تتحمل خلافاً (بخلاف السلوكات الشخصية التي يعمل فيها أتباع كل مذهب وفق مذهبهم).

وحيث لا مناص من إتباع مذهب الأكثرية وهو مافعله الدستور الإيراني، وهو نفس الحل الذي طرحه المرحوم الشيخ أبو الأعلى المودودي حين توجه بمسألة اختلاف المذاهب كعقبة أمام قيام الحكم الإسلامي، فاعتماد المذهب الجعفري من قبل الدولة الإسلامية الإيرانية جاء معتمداً على عامل الأكثرية السكانية (الساحقة) لهذه البلاد، وليس تجاوزاً للمذاهب المسلمين الأخرى، ولذا عملت الدولة وسعها على تعزيز فعاليات تلك المذاهب في مناطق وجودها كالنشاط الحوزوي، والحركة الثقافية كترجمة مؤلفات علماء المذاهب الأربعة، كمؤلفات الأستاذ الشيخ يوسف القرضاوي، حفظه الله - مثلاً - التي إنتشرت بشكل واسع في إيران، وغيرها من مؤلفات علمية قيمة.. ولقد نمت الحوزات العلمية للمذاهب الأربعة في مناطق المسلمين السنة، في الجمهورية الإسلامية كماً، وكيفاً، بشكل لم يشهد له تاريخ إيران مثيلاً.. كما أنَّ دور أتباع المذاهب السنية في الحياة العامة للبلاد لا يختلف مطلقاً عن دور غيرهم في الانتخابات العامة أو المشاركة في المجالس البرلمانية، والحياة الثقافية أو غيرها، رغم كونها أقلية بالنسبة لسكان البلاد..

الثالثة: وبخصوص موقف أئمة الشيعة الإمامية من أتباع المذاهب المسلمة الأخرى، فهو صريح بضرورة إشاعة المودة والتآلف والتعارف معهم، والحرص على إشاعة المعروف والتواصل بين المسلمين كما هي سيرة سائر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام مع المسلمين؛ حتى أنَّ الإمام الصادق عليه السلام دعا أصحابه إلى أن الصلاة معهم كالصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قطعاً لدابر الخلاف والقطيعة بين المسلمين. ونجد في وصايا الإمام جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام إلى شعبة،

الكثير من هذه المفاهيم كما ورد في "تحف العقول" لابن أبي شعبة الحراني، ونستطيع أن نجد في دعوة أهل البيت عليهم السلام وعلماء مدرستهم الموقف الصريح الواضح لوحدة المسلمين، وتبنيهم ونبذ الفرقة بينهم، وتآلفهم، والوقوف في وجه حالات التطرف والتفسيق لإصحاب الرأي الآخر، كما يتضح ذلك في كتاب "الفصول المهمة لتأليف الأمة" للإمام السيد شرف الدين الذي جمع في ذلك الكتاب القيم أروع الروايات التي تحث على وحدة الأمة والمسلمين تحت راية القرآن والسنة الشريفة، كما نجد ذلك صريحاً في كتاب "الدعوة الإسلامية للوحدة بين أهل السنة والإمامية" للمرحوم الشيخ أبو الحسن الخنيزي رحمه الله. إنَّ الروح التي أشاعها العلماء المجاهدون من أتباع أهل البيت عليهم السلام تمثل أروع المواقف الرسالية المخلصة لجمع الصفوف واحترام المذاهب المسلمة الأخرى واحتضان أتباعها أخوة في الدين والمصير.

الرابعة: إنَّ التقريب يشمل كل نواحي الحياة الفكرية والعقائدية والفقهية العملية، فيجب العمل في كل المجالات لتحقيق (تعايش بين المذاهب المختلفة مع اكتشاف الإطار العام الجامع لها ومناطق الإتفاق بينها، وتحديد مناطق التمايز والاختلاف) كما عبر الأستاذ عمارة في مطلع المقال. أما التكفير والتفسيق والتبديع فهو المرفوض وخصوصاً عبر عملية الزام القائل بلوازم قوله - كما نتصورها نحن -.

ونحن نتفق مع الأستاذ في لزوم أتباع الموقف العملي المقترح.

النموذج الرابع: هل التقريب بين السنة والشيعة.. ممكن؟!.

د. عبد الله النجار

كاتب ومفكر من مصر

لم يعد الوقت كما كان في الماضي يتسع لاستيعاب ركاب الخلاف المذهبي أو اختلاف الرأي بين المسلمين، لأنهم كانوا بعيدين عن مرمى المخاطر، ولم تكن هناك كائنات تدبر لهم ليليل لإذلالهم والاستيلاء على مقدراتهم وخيرات بلادهم، وربما لم تكن مطالب الحياة وضغوطها المادية قد وصلت عند هؤلاء الذين يمثلون اليوم مصدر الخطر الأول للإسلام إلى الذروة التي دفعتهم الآن لكي يهبوا في الأرض على وجوههم مدججين بالأسلحة كما تهيم الوحوش شارعة أنيابها في مناحي الغابة بحثاً عن فريسة، فكانوا في غنى على النطاق الأرضي الذي يقيمون عليه، وكان كل

فريق من البشر مهموماً بحاله، يعمل داخل أرض، ويتعامل مع غيره معاملة الند لنده. في مثل هذا الجو، يمكن أن يستوعب استقرار الأحوال ركام الخلاف في الرأي، حتى لو إحتد وإشتد، لكنه يزيد الخلاف ولا يجد من أثره، ولهذا تضخم الخلاف بين أهل السنّة والسنة حتى قرأنا ضمن فتاوى الإمام "محمد عبده"، فتوى عن حكم صلاة الشافعي خلف الحنفي، كما تضخم بين السنّة والشيعة على نحو أكبر حتى أصبح المصدر الأول للعداء والخصومات، والدافع الأكبر للفتن والمواجهات، وإعلان الحروب بين الأمم، ولم يحظ خلاف مذهبي بالقسط الأوفر من الكره والعداء كما وصل الخلاف بين السنّة والشيعة، إلى حد أن كل فريق منهم كان يرمي الآخر بالكفر والمروق من الملة، وما يتبع ذلك من استحلال الدماء واستباحة الحرمات، حتى صار ذلك سنّة معروفة، وسلوكاً معهوداً لم تبدأ وطأته في الزوال إلا في عهد الخليفة الخامس "عمر بن عبد العزيز" رضي الله عنه. فقد كان الخطباء قبل أن يولّى الخلافة يخطبون خطبتهم بالدعاء على الإمام "علي" رضي الله عنه.. ويلعنونه على المنابر قبل أن ينزلوا عنها بلحظات ليصلوا بالمسلمين صلاة الجمعة، ولعن الإمام "علي" كان تجسيدا لعمق المأساة التي ولدها الخلاف في الرأي بين السنّة والشيعة، لما للإمام "علي" عند الشيعة من مكانة تكاد ترقى عند بعض الغلاة منهم إلى درجة النبوة حتى زعموا أن الوحي قد أخطأه، والمعتدلون منهم يشهدون في صلاتهم وعند كل أذان: أن علياً ولي الله، فإذا لعن من شأنه كذلك عند أهل مذهب معين، وفي مثل هذا الوقت والمكان المقدسين يكون ذلك دليلاً على أن بين المذهبيين ما هو أبعد من الخلاف، والصق بالعداء، وهذا ما كان.

فلما ولي "عمر بن عبد العزيز" الخلافة صعد المنبر، وختم خطبته بما أصبح سنة متبعة عنه إلى يومنا هذا، وهو قراءة الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ثم نزل من على المنبر لإمامة المصلين بعد الانتهاء من قراءتها، فظن الحاضرون أنه قد نسي المعهود، ولم يلعن "علياً" كما هو متبع، وصاحوا في وجهه السنّة، السنّة يا أمير المؤمنين، فتعجب لأنهم لم يفهموا دلالة الآية الكريمة التي تلاها على مسامعهم، وفيها ما يأمر بالعدل، وينهى عن الفحشاء والمنكر، وأنهى بذلك تلك العادة الحمقاء، فبدأت حدة الخلاف تخف وأخذ أسلوب الخلاف المذهبي يتشعق بقدر من وقار

التخاطب، وأدب التناول، لكن الخلاف وإن كانت حدة التعبير عنه قد خفت، إلا أنه ظل قابلاً في أعماق النفوس على نحو يثير الشجن ويدعو إلى الحسرة، ويدعو العقلاء إلى إيجاد مخرج يضع اختلاف الرأي في مساره الصحيح، وكان أن وجدت فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، وأنشئت دار التقريب في القاهرة منذ العام ١٩٤٧ لتكون منطلقاً لتلك الفكرة وقاعدة لها، يجتمع فيها أصحاب المذاهب المختلفة، ويلتقي المسلمون من بلادهم المتفرقة منها على مائدة العلم والفكر؛ حيث يجلس الحنفي بجانب المالكي والشافعي والحنبلي بجانب الشيعي الإمامي والزيدي، يتحاورون ويتناقشون في مجلس علم وأدب وتصوف وفقه، تسودهم روح المحبة والمودة وزمالة التعليم والدراسة.

وكان في مقدمة المؤمنين بفكرة التقريب السيد محمد تقي الدين القمي، أحد كبار علماء الشيعة، وشيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد المراغي، والشيخ مصطفى عبد الرازق، وإن كان تأييدهما لفكرتها قد إقتصر على التأييد بالرأي والعلم فقط، ربما لأن مبدأ التطبيق لم يكن قد إستوى على ساقه بعد، أما شيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم فقد أسهم بكل طاقته وجهده في تأييدها، وتابعه علماء أماجد وأئمة كبار من مصر وإيران عاصروه أو حملوا الرسالة من بعده، منهم الشيخ علي الخفيف، والشيخ عبد العزيز عيسى، والشيخ محمد المدني والشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق ومن الجانب الشيعي الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء والسيد شرف الدين الموسوي، والسيد محمد جواد مغنية، وصدر الدين شرف الدين وغيرهم.

وتولى رئاسة جماعة التقريب المصلح "محمد علي علوية باشا" وقد أيد تلك الجماعة الرئيس "محمد أنور السادات" وعاونها وقت أن كان مشرفاً على المؤتمر الإسلامي بالقاهرة، قبل أن يكون رئيساً لمجلس الأمة، ثم رئيساً للجمهورية. وهو الذي ساعدها على إصدار أول مجلة لها وهي مجلة "رسالة الإسلام" ولم ييخل عليها بالمال والجهد الأدبي، والعون في كل مجال، وقد تبنت هذه المجلة فكرة التقريب وشحنت لها نخبة من الأقلام المشرعة القوية التي يحملها أعلام وأئمة لهم ذكرهم وصيتهم وشهرتهم من السنة والشيعة، كالشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والشيخ عبد الحلیم كاشف الغطاء، والشيخ محمد رضا الشيباني، والشيخ محمد أبو زهرة، والدكتور محمد البهي، والشيخ محمد عبد الله وزاد والشيخ عبد المتعال الصعيدي، والدكتور أحمد أمين والدكتور

علي عبد الواحد واقفي، والأستاذ عباس محمود العقاد، والشيخ محمود فياض، وتولى رئاسة تحريرها الشيخ محمد المدني.

وفي أول مقال لشيخ الأزهر الأسبق الشيخ عبد المجيد سليم بعنوان "بيان للناس" قال: إن الأحكام نوعان، ثابتة وهذه يجب الإيثار بها، ولا يسوغ الاختلاف فيها، لأنها لا تتغير بتغير الأزمان والأمكنة.

والثاني أحكام اجتهادية مرتبطة بالمصالح التي تختلف باختلاف ظروفها، وهذه راجعة إلى الفهم والاستنباط، فما كان منها قطعي الثبوت والدلالة لا يجوز فيه الاختلاف كذلك. وما دون ذلك يسوغ فيه الاختلاف، وهذا الاختلاف غير مذموم في الإسلام، مادام المختلفون مخلصين في بحثهم باذلين وسعهم في تعرف الحق واستبينانه، بل إنه يؤدي إلى كثير من مصالح الأمة، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم والأئمة عليهم الرضوان يختلفون ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون بالتي هي أحسن، ويدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم نسمع أن أحداً منهم رمى غيره بسوء، أو قذفه ببهتان، وهكذا ولدت فكرة التقريب ونمت شجرتها.

ومن ترسموا خطى شيخ الأزهر الأسبق المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم الذي يعد أول من تبنى التقريب، هو الشيخ محمود شلتوت، حيث أخلص الفكرة وآمن بها إيماناً لقي هوى في نفسه ورغبة في قلبه، وانطلق في دعوته لها بحماس يعضده أن الشيعة يبلغون أكثر من ستين مليون مسلم يقيمون في بلاد إسلامية كثيرة مثل إيران والعراق واليمن وسوريا ولبنان، والدول الخليجية وباكستان والهند، وهم يؤمنون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر ويؤدون أركان العبادات كما يؤديها أهل السنة، ولا يوجد بين الفريقين خلاف إلا في أمور فرعية لا يخرج صاحبها عن نطاق الإسلام، ومع ذلك ضخم الاستعمار تلك المسائل ليتمكن من تمزيق شمل المسلمين.

يقول الشيخ "شلتوت" رحمه الله: "إنني لا أبيع لأحد تقليدي وإتباعي دون أن ينظر ويعلم من أين قلت ما قلت، فإنّ الدليل إذا استقام فهو عمدي، والحديث إذا صح فهو مذهبي، ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها، وفي وجوه نشاط دارها بأمر كثيرة". وأصدر فتوى بجواز التعبد على مذهب الشيعة وهو شيخ للأزهر، وبفضله وجد الفقه الشيعي طريقه إلى القوانين المصرية، سيما الأحوال الشخصية والوصية الواجبة والإجازة، وإلى

الأزهر الشريف وكلياته، فاستقر في كلية الشريعة ليكون أحد المذاهب المقارنة التي لا يكتمل البحث إلا بها في مجال الرسائل العلمية التي تعد للحصول على درجتي التخصص "الماجستير" والعلمية "الدكتوراه"، ومن أقواله: إن الحكمة، ضالة المؤمنين، فإذا وجدها على لسان كافر، فإن كفره لا يمنع من الانتفاع بها والاستفادة منها، لأن الحق قائم بذاته، فما بالنّا إذا كان الرأي صادراً عن مذهب من المذاهب الإسلامية التي تستمد أحكامها من مصادر التشريع الغراء.

وقد أدى اهتمام الشيخ "محمود شلتوت" بفكرة التقريب إلى أن يكون عند أهل السنة والشيعة رمزاً من رموزها. واستحق أن تقيم له جمهورية إيران الإسلامية ملتقى دولياً لتكريمه مع الإمام البروجردي، وتم توجيه الدعوة لهذا المتلقى للأزهر الشريف، الذي رشح خمسة عشر عالماً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية برئاسة الشيخ "محمود عاشور" وكيل الأزهر، والدكتور محمد رجب البيومي، والشيخ علي فتح الله، والشيخ سيد وفاعجور، والدكتور محمد رأفت عثمان، والدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية السابق وقتئذ، والدكتور محمود عمارة، والدكتور محمد إبراهيم الفيومي، والدكتور محمد كمال إمام، وكاتب هذه الدراسة، وعقد اللقاء بإيران ونزلنا بفندق "آزادي" الشهير بطهران، وبدأت جلسات الملتقى متتابعة، متلاحقة لا تسمح بالتقاط الأنفاس أو الراحة إلا في فترة النوم الليلية فقط، أما مدار اليوم فإنه مشحون بالجلسات واللقاءات والجولات.

بدأت الجلسة الافتتاحية برئاسة المرحوم سماحة آية الله الحكيم، الرئيس السابق للمجلس الإسلامي الأعلى للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وبدأت بتلاوة أي الذكر الحكيم، ثم كلمة ترحيب ألقاها سماحة الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، ثم كلمة الافتتاح لسماحة آية الله هاشمي رفسنجاني رئيس الجمهورية السابق، ثم كلمة الشيخ محمود عاشور وكيل الأزهر.

ثم كلمة حفيد آية الله العظمى البروجردي السيد جواد العلوي البروجردي، ثم كلمة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ علي الدواني، وهو مؤرخ معاصر.

بدأت الجلسة الأولى بعد استراحة وغداء برئاسة آية الله الشيخ التسخيري أحد علماء الشيعة المعروفين بمصر والعالم، وفي الجلسة المسائية دار محور الحديث عن الوحدة الإسلامية والتقريب

بين المذاهب، وتحدث فيها الأستاذ فهمي هويدي، والشيخ التسخيري.

ثم توالى الجلسات والكلمات والبحوث حول هذا المضمون من الوفد الأزهرى، فتحدث الدكتور محمد إبراهيم الفيومي والدكتور نصر فريد واصل والدكتور محمد رأفت عثمان، وكاتب هذه السطور الذي كان قد أعد بحثاً عن الإمام محمود شتوت وعنايته بالفقه المقارن والتقريب بين المذاهب والشيخ علي فتح الله، ومن الجانب الشيعي تحدث آية الله الشيخ عميد الزنجاني، والشيخ عبد الكريم بي آزار الشيرازي، وآية الله رضا الأستاذي عضو مجلس صيانة الدستور، وآية الله الشيخ محمد واعظ زاده الخراساني، وآية الله الشيخ جعفر السبحاني أستاذ الحوزة العلمية بمدينة "قم" المقدسة، وآية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي الزعيم والمرجع الديني للشيعة الإمامية. ولم تخرج محاور البحوث والكلمات عن دائرة الوحدة الإسلامية، وقضية فلسطين والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكيفية تفعيلها.

وقد لوحظ أن علماء الشيعة يتمتعون بعقلية منظمة، وحديثهم مرتب ترتيباً منطقياً ولغتهم هادئة، وأسلوبهم راق، وحجتهم حاضرة، ولهم فهم متميز وقدرة على الجدل والمناظرة ولغتهم العربية فصيحة سليمة يصعب أن تقع لمحدث على خطأ نحوي، كما أن لهم صبراً على الدراسات النصية القديمة التي تقوم على دراسة المتون والحواشي، حتى أصبح لهم باع عريض في ذلك، ولم يقتصر تناولهم للعلوم الإسلامية التقليدية على مآثورات الأئمة السابقين من كبار فقهاءهم، بل أضافوا إليها دراساتهم التأصيلية، حتى أنهم أبلغونا بأنهم قد قطعوا شوطاً كبيراً في مجال الدراسة الأصولية المقارنة، التي تتناول مادة "أصول الفقه" بالمقارنة، وقد وصلنا نحن بالأزهر الشريف إلى الدراسات الفقهية المقارنة، أما الدراسات الأصولية المقارنة فلم نشرع فيها بعد، وإن كنا قد أعجبنا كثيراً بنشاط الشيعة الفقهي والعلمي في هذا المجال، وحبذا لو طبقناه في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وقد زرنا مرقد الإمام "الخميني" الذي يقع ضمن ساحة الشهداء في منطقة جنوب طهران بمسافة قصيرة، ويقوم على مرقد مسجد ضخمة تعقد فيه اللقاءات السياسية العليا، وهو مجهز لذلك، والمرقد يتوافد عليه آلاف الشيعة يومياً من الرجال والنساء، ومقامة عليه مقصورة ضخمة كتلك التي بمشهد الإمام الحسين والسيدة زينب رضي الله عنهما، وبها فتحة ترمى فيها الأوراق النقدية على غرار صناديق النذور في مساجد مصر، وعلى باب المسجد الذي

يضم المرقد تمثال للإمام الخميني يظهر وجهه فيه غائراً، وليس مجسماً على هيئة التماثيل التي نراها، ويضم موقع المرقد ومشهده الضخم ساحة الشهداء، وهي قبور عديدة للشهداء والموتى بنيت من الرخام الراقي بأسلوب انيق، وكتبت عليها أسماء المتوفين ومقام على رأس القبر شاهد مرتفع بمستوى قامته الشخص واقفاً يعلوه صندوق ذو واجهة زجاجية يمكن فتحها عند الحاجة، وتضم صورة أنيقة للمتوفى وهو في ريعان شبابه، وبعض الأشياء التي كان يجيها أو التي تذكر به، ومصحفاً، وربما نبذة عن حياته أو على الأقل تاريخ مولده ووفاته، وقد دفن في ساحة الشهداء أعضاء مجلس الثورة الإسلامية الذين أعتيلوا جملة واحدة في أثناء اجتماع لهم، حيث تتراص قبورهم متوالية بأسلوب هندسي متشابه، تشكل كتابة أسماء الشهداء عليه منظرًا خلاباً، والإيرانيون أوفياء لموتاهم، حيث يزورون تلك القبور ويجلسون حول قبر ميتهم في صمت وحزن وابتهاال وبكاء، يدل على مدى التواصل العاطفي بين الأحياء والموتى عندهم.

كما زرنا، مدينة "قم" المقدسة التي تبعد عن طهران حوالي مائة وخمسين كيلومترا إذ توجد الحوزة العلمية، وهي أشبه بمدينة سكنية ضخمة بنيت على الطراز الفارسي، يتوسطها ميدان فسيح يجتازه طلاب العلم في التنقل إلى جنبات المبنى التي تأخذ شكلاً دائرياً حوله، ومن أهم معالم الحوزة العلمية، مسجد السيدة "معصومة" بنت الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويعتبر هذا المسجد تحفة معمارية فريدة، وله باب ضخم من الفضة الخالصة وبداخله مقصورة كبيرة فوق مرقدها، ويتوافد لزيارتها أعداد غفيرة من الإيرانيين رجالاً ونساءً ويكاد يشبه مسجد السيدة "معصومة" الجامع الأزهر في عصوره الذهبية حيث يتجمع الطلاب في ساحات على هيئة حلقات حول شيوخهم واساتذتهم يراجعون عليهم الكتب القديمة، على نمط ما كان يجري في الأزهر سابقاً، وما زال ذلك هو الأسلوب المتبع في الحوزة العلمية.

وتبلغ الحلقات العلمية أكثر من خمسين حلقة يتراوح عدد كل منها ما بين طالب أو طالبين على الأقل، وعشرة طلاب أو عشرين على الأكثر، فإذا ما دخلت ساحة المسجد العلمية تكاد تسمع لطلاب العلم دويماً كدوي النحل، وتجد اهتماماً وإقبالاً على العلم لا نظير له، وقد جلست بجانب طالب يقرأ على شيخ من كتاب، ولما تناولته منه وجدته: "نهاية السؤال في شرح منهاج

الوصول إلى علم الأصول " للعالم المصري " جمال الدين عبد الرحيم الأبنوي الشافعي " المتوفي سنة ٧٧٢هـ وهذا يدل على اهتمامهم بالدراسات وعدم التعصب لشيوخهم.

وبالجملة، فإنّ الحوزة العلمية أشبه بمؤلد علم، طلاب كثيرون وطالبات يغدون ويروحون في جد واهتمام انتقالاً من مبنى إلى مبنى، ومن حلقة إلى حلقة، وتعتبر هي المركز العلمي الأكبر في إيران. من معالم مدينة " قم " مكتبة " آية الله المرعشي " الذي يعد رمزاً لحب الكتب والمخطوطات حتى أنّهم يحكون عنه في حب الكتب والمخطوطات قصصاً، منها أنّه اشترى إحدى مخطوطاته بأجر صلاته أربع سنوات لدى أحد الأئمة، ويوجد بمكتبته التي بلغ من حبه لها أنّه أوصى بأنّ يدفن في مدخلها، فلا تكاد تضع قدميك على أعتابها حتى تفاجأ بأنّ قبره أمامك مباشرة، فلا تجد مفراً من أنّ تقرأ له الفاتحة، ويقال إنّه سجن بسبب وقوفه ضد السفارة البريطانية ليمنعها من تهريب أحد المخطوطات، ويوجد بهذه المكتبة واحد وثلاثون ألف مجلد، وخمسون ألف كتاب كلها مخطوطات نادرة، وقد أنشأها مركزاً عالمياً لترميم المخطوطات والكتب القديمة بأسلوب علمي فائق، ويضم هذا المركز خبراء من مختلف أنحاء العالم في الكيمياء والعلوم وغيرها من العلوم المتصلة بترميم المخطوطات بالمكتبة، ولأي جهة علمية تطلب منها ذلك.

ومن معالم إيران مدينة " طهران " التي تعتبر مثلاً متميزاً في فن العمارة، حيث تصطف الأشجار في الشوارع على الجانبين أمام المحال التجارية، وبمحاذاة أعمدة الإنارة، فتختلط أنوارها بأوراق الأشجار في منظر بديع، وبين أرصفة المارة، والشارع من الجانبين توجد مسارات المياه العذبة التي تجري فيها مياه الثلوج القادمة من أعالي الجبال، عندما تذوب فتجري في تلك القنوات على جانبي الشارع تحت الأشجار، ومن أراد أن يمر على الرصيف عليه أن يجتاز معابر أنيقة مقامة بالتوالي على مسافة أمتار وربما غطت تلك القنوات المائية في مساحة طويلة أمام بعض المحال التي تريد أن تسهل قدوم العملاء إليها.

وقد أحزننا أنهم يطلقون على أكبر شوارع طهران اسم قاتل المرحوم الرئيس محمد أنور السادات، وقد عبرنا عن حزننا لذلك، لكنهم وعدوا بالتغيير القريب ولا أدري أتم ذلك التغيير أم لا، والإيرانيون يحرصون على حماية ضيوفهم حرصاً بالغاً، فلا يتركونهم في أي توجه، حتى عند التسوق وفي الجولات الحرة، تخوفاً من أن يمسهم أذى أو يعتدي عليهم أحد، ولهم تحذيرات واضحة بذلك، فلا تستطيع أن تتجول حراً بإرادتك وكيفما تريد، بل بترتيب مسبق، وحراسة

معدة سلفاً، كما أنهم لا يحبون عيش الترف، فكل شيء بمقدار حتى في الفنادق الفاخرة، وسيارات المواكب الرسمية أفخر من السيارات الشعبية عندنا قليلاً، وهم يصلون الظهر والعصر جمعاً وقصراً ركعتين كل يوم، ويجهرون بالقراءة فيها ومن يبلغ عن الإمام لا يصلي مع المصلين، بل يقف في مواجعتهم، وظهره للقبلة فإذا إنتهى الإمام من القراءة يقول: الله أكبر ركوع، فيركع الإمام والمصلون، الله أكبر قيام، الله أكبر سجود، الله أكبر قيام الله أكبر سجود حتى تنتهي كل حركات الصلاة، فإذا ما انتهى المصلون صلى هو.

وتقام صلاة الجمعة الرسمية في جامعة "طهران" حيث يخطب الجمعة فيها كبار قادة الدولة مثل رئيس الجمهورية، أو المرشد الديني أو رئيس مجلس صيانة الدستور أو السيد هاشمي رافسنجاني رئيس الجمهورية السابق وأمثالهم، والمصلون يتجاوبون مع الخطيب عندما يتناول في خطبته أمراً سياسياً، أو بين الرأي في موقف دولي، وهنا ترتفع الأصوات بالهتاف تأييداً له، وتعبيراً عن الرضا بما يقول كرغبة شعبية لهم.

وقد إلتقينا بالسيد محمد باقر الحكيم، وهو فقيه كبير وأصولي له مؤلفات عظيمة في الفقه والأصول، وأهدانا عدداً من تلك الكتب، كما التقينا بالسفير المصري "محمد رفاعة الطهطاوي" حفيد المفكر الإسلامي والعربي الكبير "رفاعة الطهطاوي" في مقر السفارة المصرية التي تحفل بالأركان ذات الموروثات الشعبية التقليدية، وبها عدد من السجاجيد الضخمة والنادرة، ولا تزال أطقم الطعام بها تحمل التاج الملكي، وكان قد أعد للوفدين المصري والإيراني عشاء بمقر السفارة، وهو على صلة وثيقة بقيادات إيران، ويحظى منهم بالاحترام الكامل والثقة الكبيرة لهتمته ونشاطه واتقانه للتقاليد الدبلوماسية الناجحة.

كما زرنا جامعة الإمام الصادق بطهران، وهي في مبناها أشبه بحديقة غناء تضم قصوراً صغيرة هذه القصور هي الكليات، فإذا خرج الطلاب منها أو سعوا إليها ساروا بين تلك الحدائق الجميلة فتنشرح صدورهم للدروس وتجدد الهواء في صدورهم فتستيقظ عقولهم للبحث والتحصيل.

وقد لقينا ترحيباً بالغاً من رئيسها ساحة آية الله مهدي كني، الذي ألقى كلمة ترحيبية كان فيها مثلاً للإيرانيين في ترتيب الأفكار وسلاسة التناول وسلامة اللغة العربية، حتى يصعب عليك أن تقتفي لمتحدث منهم خطأ لغوياً أو نحوياً، مع الأدب والهدوء والدبلوماسية في الحديث، وهي ما تتألف من كلية العلوم الإسلامية والدعوة وكلية العلوم الإسلامية والحقوق،

وكلية العلوم الإسلامية والسياسة، وكلية العلوم الإسلامية والاقتصاد، وكلية العلوم الإسلامية والإدارة، ومعهد دراسات الثقافة والإعلام، ويوجد إلى جانب قسم الطلاب "قسم للطالبات" وتضم الجامعة خدمات جامعية راقية مثل مركز الأبحاث والدراسات الإنسانية، والمكتبة المركزية للحاسوب والمعلوماتية والإعلام، ومجلة جامعية باسمها "صفحات جامعية" ومجلة "نضال صادق" للبنات ومجلة "فصلية الأبحاث".

ولهذه الجامعة صلة بالجامعات الإسلامية والعربية، كما أنّ لها صلة وثيقة بجامعة الأزهر، إذ تم إبرام إتفاق للتعاون بين الجامعتين في ٢٨ نوفمبر ١٩٩٩، يتكون من "١٥" مادة لتبادل الأساتذة والأبحاث والمؤلفات واللقاءات والاعتراف بالشهادات بين الجامعتين، وغير ذلك من أوجه التعاون العلمي، وهذا يدل على أنّ الخلاف بين المذهبين إنما هو خلاف صناعي إبتكره أعداء المسلمين للتفريق بينهم، وإذا كان للعداء الناجم عن الخلاف المذهبي أو اختلاف الرأي متسع فيما مضى، فلم يعد له متسع اليوم، وليس أمام المسلمين إلا خيار واحد هو التعاون والتآلف والتآزر، وباختصار شديد، الوحدة التي أمر الله بها في كتابه وسنة نبيه ﷺ والتي أثبتت الأيام أنّه لا حياة للمسلمين بدونها. ^١

التعقيب:

ونحن نقدر للدكتور النجار هذا الحسّ الوحدوي التقريبي ونرجو له كل موفقية. ونود أن نشير إلى بعض النقاط بإيجاز:

- ١- إنّ الإمامية يرفضون الغلو ويعتبرونه كفراً ولا يصنفون الغلاة في إطار التشيع فضلاً عن الإسلام.
- ٢- إنّ عدد الشيعة اليوم كما تبين الاحصاءات يصل إلى حوالي مائتي مليون مسلم.
- ٣- إنّ الصلاة الرباعية عند الشيعة لا تقصر إلا في السفر، كما أنّ الحكم لديهم في صلاتي الظهر والعصر هو الإخفات في القراءة وجوباً.

وهناك ملاحظات أخرى إلا أنّ كل ذلك لا يؤثر على جمال هذا التقرير، فنسأل الله تعالى له التوفيق.

١. مجلة رسالة التقريب، العدد ٣٩، ص ١٩٥ - ٢٠٦.

ونختتم الفصل بذكر بيان موجه إلى الأمة الإسلامية عموماً وإلى شعبنا العراقي خصوصاً

حول افتراءات (الزرقاوي) وعصابته التكفيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد البشرية محمد النبي الأمين وآله الطاهرين وصحبه الأكرمين ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد.

ففي خضم الأحداث الدامية التي يمر بها عراقنا الجريح، من تكالب الأعداء وتنفيذ
المؤامرات على وجوده وهويته وترويع نسائه واطفاله وشيوخه، إلى قتل شبابه ونهب خيراته
وتحويله إلى ساحة تجارب عسكرية، وضرب أبنائه بعضهم البعض الآخر لينشغلوا بانفسهم
ويسود العدو الأمريكي الصهيوني الغادر، وتفتت وحدته، وينمحي الوثام السائد بين أفرادها،
وفي معمعان الهجوم الثقافي لاعداء الأمة على هويتها وثقافتها وتعليمها وعملها الخيري
ونشاطاتها الإنسانية ووحدتها المذهبية والمصيرية، وذلك عبر التحديات الكبرى التي تواجهها
من قبيل تحديات العولمة والعلمانية والتخلف والتفرقة المذهبية والعنصرية والقومية واللغوية
والتاريخية والجغرافية وغير ذلك،

وفي جو الهجوم العسكري الذي تواجهه هنا وهناك، يطلع على شعبنا العراقي بيان من قبل
شخص يسمى بـ (أبي مصعب الزرقاوي) ليدعي أنه يحمل راية الجهاد ضد العدو الأمريكي، وأنه
يمثل صرخة الجهاد الإسلامي وقيادة الأبطال الفرسان وما إلى ذلك، ولكنه بدل أن يصب جام
غضبه على أمريكا رأس الاستكبار العالمي والدول الخليفة لها، ويدعو لوحدة جحافل الشعب

العراقي بكل قومياته ومذاهبه وأديانه بوجه العدو المحتل، وبدل أن يوحد المسلمين خلف الرافضين للاحتلال، بدلاً عن كل ذلك ركز على سب الجميع سنّة وشيعة، وإتهام الرافضين للاحتلال علماء ومثقفين وآخرين غيرهم بشتى التهم الممزقة والمفرقة التي تبث الحزازات وتعيد عهود التاريخ الدامي المملأ بالآلام والدموع وتكفير الآخرين وغير ذلك. وإنما إذ نحذر من مثل هذه المحاولات المشبوهة والتي تخدم العدو المحتل الغاشم لنذكر ببعض الأمور التي ركز عليها البيان آنف الذكر ليعرف الجميع الحقيقة بكل موضوعية:

الأمر الأول:

إننا قبل كل شيء نؤيد ما ذكره البيان من الأهداف الأمريكية الدنيئة من قبيل:

أ- الطمع بثروات البلاد.

ب- الرد على الصحوة الإسلامية وإسكات صوتها ونشر ثقافتها المنحطة

ج- تحقيق الحقد الصليبي الدفين.

د- توفير الأمن لريبتها إسرائيل.

ونضيف إليها أهدافاً أخرى من قبيل:

تحويل العراق إلى قاعدة استعمارية لتنفيذ المخططات الصهيونية - أمريكية في كل المنطقة،

وضرب كل المواقع التي تقف أمام نفوذ أمريكا وغير ذلك.

ولكن ما الذي يضمن للأمة الإسلامية أن تواجه هذا المخطط الاستكباري العنيد غير عودتها

إلى إسلامها وإلى وحدتها الإسلامية، وتنفيذ إستراتيجية واعية تستوعب بها الضربة، ومن ثم

تنطلق لبناء قوتها في كل المجالات واستعادة مكانتها الحضارية، أمة شاهدة على الناس.

فإذا كنا نغرقها بالصراع المذهبي، ونتهم كل رجالها بالعمالة، ونستعدي بعضها على بعض،

ونعيدها إلى عصور الظلام والدماء والتكفير، فهل نكون قد ساهمنا في مقاومة العدو أو أننا

سنكون قد مهدنا له الطريق؟! أليس من الاجدى أن ندعو إلى وحدة هذه الأمة وتكاتفها، وأن

نتمسك جميعاً بالقرآن والسنة وإن اختلفت اجتهاداتنا في الاستفادة منها، فلا مانع من ذلك بعد

التزامنا بضوابط الاجتهاد، وحيث نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

أما على الصعيد العملي فيجب أن يكون الموقف واحداً لا اختلاف فيه، وذلك في كل قضايا الأمة

المصرية. لنستطيع تحقيق ما نصبو إليه.

الأمر الثاني:

إن أكبر تهمة يوجهها البيان للشيعة هي تهمة سب الصحابة والصالحين وهي تهمة ينتزعه عنها العقلاء والواعون بل يركز الشيعة بخطهم العام على احترام الصحابة، والجيل الطليعي الأول، تبعاً لأئمتهم من أهل البيت عليهم السلام وتعليقاتهم التي شهد لها المسلمون جميعاً بالسمو، فيدعو الإمام زين العابدين عليه السلام للصحابة ويصفهم بأنهم المستجبون. ويقول الإمام علي عليه السلام (في الخطبة -٩٧- من نهج البلاغة) واصفاً الصحابة (لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فما أرى أحداً يشبههم منكم: لقد كانوا يصبحون شعناً غبراً، وقد باتوا سجداً وقياماً..) والشيعة يرددون كلام نهج البلاغة ويعشقونه لأنّ علياً كان تلميذ رسول الله صلى الله عليه وآله، وريبب القرآن، وإمام الغر المحجلين، وأحد الصحابة الأجلاء. هذا عمل الواعين، ودعك من عمل الجاهلين.

ورغم هذا الإتهام ونفور البيان مما يدعي بالسب واللعن، فإنّه مشحون بالسب واللعن والهمز واللمز والتهمة، فهو يردد مثلاً مايلي:

– وصف الشيعة بالرافضة وهو مصطلح عصور الصراع المقيت.

– إدعاء أنّ التشيع - كما يقول - دين لا يلتقي مع الإسلام (هكذا بكل بساطة) في حين يصرح كبار العلماء بأنّ نقاط الالتقاء بين الشيعة والسنة تتجاوز الـ ٩٠٪ من المساحة العامة للإسلام.

– إتهام الحاقدون على الإسلام، المستيحيون دماء المسلمين.

– إتهام العدو، والكفرة، والقتلة وأنهم يجنون التتار وائتهم وائتهم..

ويصف العالم الزاهد السيد السيستاني بأنّه إمام الكفر.

بل نجد البيان يسب علماء السنة الداعين إلى رص الصفوف، ويرميهم بأشد الصفات من قبيل وصفهم ب: (الختالات من أهل السنة) (الرادة الكذبة) (علماء السوء) (المخدرون، المخذلون) إلى غير ذلك من أقذع الألفاظ وأسخفها. فهل ينسجم هذا السلوك مع إدعاء الدفاع عن كرامة الصالحين ومجد الأمة وعلائها وخلقها النبيل!؟

الأمر الثالث:

ويقترض البيان في الشيعة تهماً وأوصافاً باطلة، ثم يعمل على التحريض عليهم، ووصفهم بأنهم العدو الحاقد على الأمة، والكفرة الذين يجب تطهير الأرض منهم، وما إلى ذلك. إنّه يطلق عليهم

التهم الكثيرة وهو ترديد لتهم ردها الممزقون من قبل، وفي طليعتها القول بتحريف القرآن. والحقيقة التي أكدها علماءهم أنه كان هناك في الماضي من يتجه إلى مثل هذا القول الباطل، ولكن التيار العام من علماء الشيعة رفض ذلك، وأقام أقوى الأدلة على عدم التحريف، ومنهم العالم العراقي الكبير الإمام الخوئي، فهو بعد أن يستدل بقوة على بطلان القول بالتحريف يقول في كتابه البيان (صفحة ٢٣٣): "وقد صرح بذلك - عدم التحريف - رئيس المحدثين الصدوق، وقد عد القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية، ومنهم شيخ الطائفة.. الطوسي ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدى السيد المرتضى" ثم ذكر أجلة العلماء الشيعة كالمرحوم الطبرسي، والشيخ جعفر كاشف الغطاء، والعلامة الجليل الشهستاني وغيرهم، وختم ذلك بقوله (بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف).

فما الداعي إذن لطرح هذه التهمة من جديد، وإصدار الفتاوى التكفيرية من قبل من ليس أهلاً للفتوى والعلم.

وقد أيد فتواه التكفيرية بنصوص لابن تيمية وغيره وهي أيضاً مبنية على تهم من هذا القبيل، أو موجهة لبعض الغارقين في الباطنية، أو تعبر عن وضع سياسي خاص. فلماذا نتناسى كل ذلك ونعيد الكرة ونكفر خمس المسلمين؟ ولمصلحة من هذا التكفير، وإهدار الدماء الإسلامية؟ ألا يصب ذلك لصالح العدو؟

الأمر الرابع:

ينظر البيان إلى الواقع اليوم ويصب جام غضبه على الشيعة ويصفهم بأنهم المماتون لأمريكا والصهيونية، وأن أمريكا تسعى لدعمهم، وأن إسرائيل تتوحد اليهم، وأنهم ممثلين بفيلق (بدر) قتلوا المجاهدين من أهل السنة واحتلوا مساجدهم، وأن الإيرانيين الشيعة عذبوا أسرى أهل السنة الذين قاتلوا مع صدام ضد الجمهورية الإسلامية، وأن الشيعة مزقوا وحدة الأمة، إلى آخر ذلك من قائمة التهم الطويلة.

ولكن البيان تناسى الحقائق التالية:

أولاً: إن الجمهورية الإسلامية الإيرانية بقيادة الإمام الراحل الخميني (رحمه الله تعالى) كانت حصيلة ثورة إسلامية هزت قلاع الكفر والاستكبار العالمي وفي طليعته الاستكبار الأمريكي،

وأطاحت بنظام الشاه العميل الأمريكي الإسرائيلي، وحولت إيران من قلعة أمريكية إسرائيلية إلى أكبر سند للأمة الإسلامية والقضية الفلسطينية، كما فجرت صحوة إسلامية عالمية أفضت مضاجع الكفر العالمي، وكان من نتائجها المقاومة البطلة في أفغانستان ولبنان، والانتفاضة الباسلة في فلسطين، وعودة الأمل إلى الجماهير الإسلامية في أنحاء العالم بالغد الإسلامي. ويعجز القلم عن تبيان آثارها الإيجابية على الصحوة، وعن توضيح الضربات وإنهاط الحصار السياسي والاقتصادي والهجوم العسكري ضدها، ومن ذلك هجوم النظام الصدامي عليها نيابة عن الاستكبار العالمي، في حرب دامت ثماني سنوات، وقتلت وشردت مئات الألوف من المسلمين بأيدي أناس يتباكى البيان على أسرهم ويدعي تعذيبهم في حين أنّ الشعب الإيراني المسلم اعتبرهم - رغم ما فعلوه - ضيوفاً لديه.

ومواقف الجمهورية من قضايا المسلمين في أرجاء العالم الإسلامي واضحة ويكفي أن نشير إلى البوسنة وكشمير وغيرها لنذكر بأنها مناطق غير شيعية، ولكنها حظيت باكبر الاهتمام. ثانياً: إنّ حزب الله البطل وأكثريته من الشيعة دافع عن كرامة الأمة ومرغ أنف لأمريكا بالتراب وأرغم العدو الصهيوني على الهزيمة لأول مرة في حياته الإجرامية. ولا نجدنا بحاجة للتفصيل لوضوح الأمر. ولكن البيان أغفل هذه الحقيقة تماماً. ثالثاً: فيلق بدر وجهاده ضد صدام خلال سنوات المحنة أمر يعرفه كل العراقيين، ومواقفه الرائعة في خدمتهم لا يمكن أن تغطيها هذه التهم الباطلة، وشهادته الأبطال ينرون تاريخ العراق الحديث.

رابعاً: أما جهود الجمهورية الإسلامية وعلماء الشيعة في مجال وحدة الأمة فلا غبار عليها. ويكفي أن نذكر هنا بأنّ الوحدة الإسلامية هي خط إستراتيجي ثابت في دستور الجمهورية الإسلامية ومسيرتها العملية، وأنه لم تصدر فتوى واحدة من عالم شيعي معتد به بتكفير أهل السنة رغم فتاوى التكفير المستمرة عبر العصور ضدهم.

خامساً: إنّ المقاومة الأصيلة في العراق اليوم بتنوع أساليبها لا تقتصر على فئة دون فئة، بل يعمل العراقيون جميعاً على طرد المحتل وعلى كل الصعد، فلا احتكار للمقاومة ولا معنى لإتهام هذا أو ذاك بالرضوخ. وإننا لنعتقد أنّ أمريكا مالم تلملم جيوشها وترحل فإنها ستغرق في الوحل العراقي القاتل لها ولن وقف معها.

الأمر الخامس:

يفتخر البيان بأنه صنع مجزرة الجمعة في النجف الأشرف وقتل سيد المجاهدين آية الله السيد باقر الحكيم ومعه عشرات القتلى ومئات الجرحى. ولعله تغافل عن جريمة كبرى أخرى وهي ضربه الملايين المتجمعة في عاشوراء لآحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام (والذي يدعي الدفاع عنه)، وذلك بصواريخ تسعة أوقعت أيضاً المئات من الاصابات والقتلى.

ولا ندري بم نصف هذه الأعمال الإجرامية وكيف ننسبها للجهاد؟

إنّ عظمة الجريمة تتجلى حينما نعرف من هو آية الله السيد محمد باقر الحكيم علماً وجهاداً ودعوة ونذراً للحياة في سبيل الإسلام وكرامة الشعب العراقي المهذورة على يد صدام المجرم. وهي حقائق يعرفها الشعب العراقي ولا تحتاج إلى توضيح.

إنّها عمليات أقل ما يقال فيها الوصف بالإرهاب الأعمى الذي لا يرضاه الإسلام، ولا ندري كيف يلقي صانعوها الله تعالى يوم الجزاء؟ وأخيراً نتساءل:

أليس إيقاع الفتنة في صفوف الشعب العراقي يخدم الأهداف الأمريكية الإسرائيلية؟ أليس القيام بقطع رأس الرهينة الأمريكية يبرر لامريكا جرائمها البشعة في سجن أبي غريب؟ أليس إتهام الجمهورية الإسلامية الإيرانية، والتحامل عليها، وهي الدولة الوحيدة التي ترفض الكيان الإسرائيلي كله، وترفض حتى إقامة العلاقات السياسية مع أمريكا، أليس ذلك خدمة كبرى لأمريكا وأطماعها في المنطقة؟ والأسئلة كثيرة كثيرة، وهي تجعلنا نطمئن بأنّ اليد الأمريكية الاسرائيلية هي التي تصنع هذه الألعابة الجهادية والله تعالى أعلم.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^١

صدق الله العلي العظيم

فهرس مصادر التحقيق

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- الاحتجاج.
- تأليف أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) /
تعليق: محمد باقر الموسوي الخرساني / نشر: دار النعمان - النجف / ١٣٨٦ هـ.
- ٣- أحسن التقاسيم: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.
- تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ /
تحقيق: محمد أمين الضناوي / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ.
- ٤- الإحكام لابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام.
- تأليف: أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / نشر: مطبعة
العاصمة - القاهرة.
- ٥- إحياء علوم الدين.
- تأليف: أبي حامد تاج الدين محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي الشافعي المتوفى سنة
٥٠٥ هـ / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦- الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي.
إعداد: منظمة المؤتمر الإسلامي.
- ٧- الأسس المهمة في النظام الإسلامي.
- تأليف: محمد علي التسخيري / نشر: إيران.
- ٨- أصول البحث للفضلي: أصول البحث.
- تأليف: د. عبد الهادي الفضلي / نشر: مؤسسة دار الكتاب الإسلامي - قم.

- ٩- الأصول العامّة للفقّه المقارن.
- تأليف: محمد تقي بن سعيد الطباطبائي الحكيم المتوفى سنة ١٤٢٣ هـ / نشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام قم / الطبعة الثانية- ١٩٧٩ م.
- ١٠- أصول المظفر: أصول الفقّه.
- تأليف: محمّد رضا بن محمّد بن عبدالله بن محمّد المظفر النجفي المتوفى سنة ١٣٨٣ هـ / نشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين- قم.
- ١١- أعيان الشيعة.
- تأليف محسن بن عبدالكريم الأمين العاملي المتوفى سنة ١٣٧١ هـ / تحقيق: حسن محسن الأمين / نشر: دار التعارف- بيروت / ١٤٠٣ هـ.
- ١٢- اقتصادنا.
- تأليف: محمّد باقر بن حيدر بن إسماعيل الصدر المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ / تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي- خراسان / نشر: مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي- قم / الطبعة الثانية- ١٤٢٥ هـ.
- ١٣- الأمالي للصدوق: الأمالي، أو: المجالس.
- تأليف: أبي جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ المعروف بالشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ هـ / تحقيق ونشر: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسّسة البعثة- قم / الطبعة الأولى- ١٤١٧ هـ.
- ١٤- الإمام جعفر الصادق للجندي: الإمام جعفر الصادق.
- تأليف: عبدالحليم الجندي / مراجعة: محمّد توفيق عويضة/ نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة / ١٣٩٧ هـ.
- ١٥- الإمام الصادق والمذاهب الأربعة.
- تأليف: أسد حيدر / نشر: مكتبة الصدر- طهران / الطبعة الثالثة- ١٤١١ هـ.
- ١٦- أمل الآمل.
- تأليف: محمّد بن الحسن بن علي الحرّ العاملي المتوفى سنة ١١٠٤ هـ / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مكتبة الأندلس- بغداد.

- ١٧- بحار الأنوار: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار.
تأليف: محمد باقر بن محمد تقي بن المقصود علي المعروف بالمجلسي الثاني المتوفى سنة ١١١١ هـ /
نشر: مؤسسة الوفاء- بيروت / الطبعة الثانية المصححة- ١٤٠٣ هـ.
- ١٨- بداية المجتهد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد.
تأليف: أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ /
نشر: مكتبة الشريف الرضي- قم / الطبعة الأولى- ١٤١٢ هـ.
- ١٩- بهجة الآمال: بهجة الآمال في شرح زبدة المقال.
تأليف: علي العلياري التبريزي المتوفى سنة ١٣٢٧ هـ / طبع: المطبع العلمية- قم / ١٤٠٨ هـ.
- ٢٠- تاريخ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.
تأليف: أبي زيد ولي الدين عبدالرحمان بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي
المتوفى سنة ٨٠٨ هـ / نشر: مؤسسة الأعلمي- بيروت / ١٣٩١ هـ.
- ٢١- تاريخ الإسلام للذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.
تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ /
تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري / نشر: دار الكتاب العربي- بيروت / الطبعة الثانية- ١٤١٧ هـ.
- ٢٢- تاريخ بغداد: تاريخ مدينة السلام.
تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / تحقيق:
مصطفى عبدالقادر عطا / نشر: دار الكتب العلمية- بيروت / الطبعة الأولى- ١٤١٧ هـ.
- ٢٣- تاريخ الفقه الإسلامي.
تأليف: مجموعة من الباحثين / مراجعة وتصحيح وتهذيب: محمد علي السائس / نشر
الجامعة الأزهرية (كلية الشريعة)- القاهرة.
- ٢٤- تاريخ مدينة دمشق.
تأليف: أبي القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي المعروف بابن عساكر
المتوفى سنة ٥٧١ هـ / تحقيق: علي شيري / نشر: دار الفكر- بيروت / ١٤١٥ هـ.

- ٢٥- التعرف على القرآن.
- تأليف: مرتضى بن محمد حسين المطهري المتوفى سنة ١٣٩٩ هـ / نشر: إيران.
- ٢٦- تفسير القمّي: التفسير.
- تأليف: أبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي المتوفى بعد سنة ٣٠٧ هـ / تصحيح: طيب الموسوي الجزائري / نشر: مؤسسة دار الكتاب - قم / الطبعة الثالثة - ١٤٠٤ هـ .
- ٢٧- التفسير الكبير: مفاتيح الغيب.
- تأليف: أبي عبدالله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التميمي البكري الطبرستاني الشافعي المعروف بالفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / نشر: دارالكتب العلمية - طهران / الطبعة الثانية.
- ٢٨- تفسير الميزان: الميزان في تفسير القرآن.
- تأليف: محمد حسين بن محمد بن محمد حسين الطباطبائي المتوفى سنة ١٤٠٢ هـ / نشر: مؤسسة الأعلمي - بيروت / الطبعة الخامسة - ١٤٠٣ هـ .
- ٢٩- تليس إبليس: تليس إبليس على إخوانه المناحيس.
- تأليف: أبي الفرج عبدالرحمان بن علي بن محمد بن علي البغدادي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / تصحيح وتعليق: إدارة الطباعة المنيرية بمساعدة بعض علماء الأزهر الشريف / نشر: عالم الكتب - بيروت.
- ٣٠- التمهيد لابن عبدالبرّ: للتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.
- تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبرّ النمري القرطبي المالكي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبدالكريم البكري / نشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية / ١٣٨٧ هـ .
- ٣١- تهذيب التهذيب.
- تأليف: أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر الكفائي العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .

- ٣٢- توالي التأسيس .
- تأليف: أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر الكنانى العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / نشر: القاهرة/١٤٠٦ هـ.
- ٣٣- جامع الأصول: جامع الأصول في أحاديث الرسول.
- تأليف: أبي السعادات مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى الجزري الموصلى المعروف بابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ / تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ.
- ٣٤- جامع بيان العلم وفضله: جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله.
- تأليف: أبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البرّ النمرى القرطبي المالكي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / ١٣٨٩ هـ.
- ٣٥- جلاء العينين: جلاء العينين في محاكمة الأحمدين.
- تأليف: أبي البركات خير الدين نعمان بن محمود بن عبدالله الألوسى البغدادي المتوفى سنة ١٣١٧ هـ / طبع: مطبعة المدني - بغداد / ١٤٠١ هـ.
- ٣٦- الحدائث وما بعد الحدائث.
- تأليف: د. فتحي التريكي / نشر: بيروت.
- ٣٧- الحرب الصليبية الأولى.
- تأليف: حبشي / نشر: القاهرة / ١٩٥٨ م.
- ٣٨- الحروب الصليبية.
- تأليف: أرنست باركر / ترجمة: د. الباز العريني / نشر: بيروت.
- ٣٩- الحرّية العقل الإيوان.
- تأليف: سروش / نشر: إيران.
- ٤٠- الحكمة المتعالية: الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة.
- تأليف: صدرالدين محمد الشيرازي المعروف بصدر المتألهين المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربى - بيروت / الطبعة الثالثة - ١٩٨١ م.

- ٤١- الخصال: الخصال الممدوحة والمذمومة.
- تأليف: أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق المتوفى سنة ٣٨١ هـ / تحقيق: علي أكبر الغفاري / نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم / ١٤٠٣ هـ.
- ٤٢- الدرّ المشثور: الدرّ المشثور في التفسير بالمأثور.
- تأليف: جلال الدين عبدالرحمان بن أبي بكر الكمال بن محمد بن سابق الدين الخضير السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١ هـ / نشر: دار المعروفة - بيروت.
- ٤٣- دراسات وبحوث.
- تأليف: محمد واعظ زاده الخراساني / إعداد: جلال الدين ميرآقائي / نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران / الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ.
- ٤٤- الذيل على طبقات الحنابلة.
- تأليف: أبي الفرج زين الدين عبدالرحمان بن أحمد بن حسن بن رجب البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٧٩٥ هـ / تصحيح: محمد حامد الفقي / طبع: مطبعة السنّة المحمّدية - مصر / ١٣٧٢ هـ.
- ٤٥- الردّ علي أبي بكر، الخطيب البغدادي.
- تأليف: أبي عبدالله محبّ الدين محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي المعروف بابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / تحقيق: مصطفى عبدالقادر يحيى / نشر: دار الكتب العلمية، بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ.
- ٤٦- روضات الجنّات: روضات الجنّات في احوال العلماء والسادات.
- تأليف: محمد باقر بن زين العابدين بن أبي القاسم بن حسين الموسوي الخوانساري الاصفهاني المتوفى سنة ١٣١٣ هـ / نشر: دار الإسلام - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١١ هـ.
- ٤٧- رياض العلماء: رياض العلماء وحياض الفضلاء.
- تأليف: عبدالله أفندي الأصفهاني المتوفى سنة ١١٣٠ هـ / تحقيق: أحمد الحسيني / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامة - قم / ١٤١٥ هـ.
- ٤٨- سبل الهدى والرشاد: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد.
- تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن يوسف الصالح الشامي المتوفى سنة ٩٤٢ هـ /

تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض / نشر: دارالكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٤ هـ.

٤٩ - سفينة البحار: سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار.

تأليف: عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمي المتوفى سنة ١٣٥٩ هـ / نشر: مؤسسة انتشارات فراهاني - إيران.

٥٠ - سنن ابن ماجه: كتاب السنن.

تأليف: أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٥ هـ / تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي / نشر: دار الفكر - بيروت.

٥١ - سنن أبي داود: السنن.

تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير السجستاني الأزدي الحنبلي المتوفى سنة ٢٧٥ هـ / تحقيق: محمد سعيد اللحام / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٠ هـ.

٥٢ - سنن الترمذي: الجامع الصحيح.

تأليف: أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ / تصحيح: عبدالرحمان محمد عثمان / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الثانية - ١٤٠٣ هـ.

٥٣ - سنن الدارمي: السنن.

تأليف: أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمان بن الفضل بن بهرام الدارمي التميمي السمرقندي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / نشر: دار الفكر - القاهرة / ١٣٩٨ هـ.

٥٤ - السنن الكبرى للبيهقي: السنن الكبرى.

تأليف: أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري المتوفى سنة ٤٥٨ هـ / نشر: دار المعرفة - بيروت .

٥٥ - سنن النسائي: السنن.

تأليف: أبي عبدالرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني المتوفى سنة ٣٠٣ هـ / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الأولى - ١٣٤٨ هـ.

٥٦ - سير أعلام النبلاء.

تأليف: أبي عبدالله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ

/ تحقيق: مجموعة من الباحثين / إشراف: شعيب الأرنؤوط / نشر: مؤسّسة الرسالة - بيروت / الطبعة الحادية عشرة - ١٤١٧ هـ.

٥٧ - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة.

تأليف: أبي حامد عزّ الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني المعتزلي المعروف بابن أبي الحديد المتوفّى سنة ٦٥٦ هـ / تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم / نشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة. ٥٨ - شروط النهضة .

تأليف: مالك بن نبي المتوفّى سنة ١٩٧٣ م / نشر: دار الفكر - دمشق.

٥٩ - صحيح البخاري: الصحيح.

تأليف: أبي عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن برد زبه البخاري الجعفي المتوفّى سنة ٢٥٦ هـ / نشر: دار الفكر - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤٠١ هـ.

٦٠ - صحيح مسلم: الصحيح.

تأليف: أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفّى سنة ٢٦١ هـ / نشر: دار الفكر - بيروت.

٦١ - الصحيفة السجّادية.

نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين - قم / ١٤٠٤ هـ.

٦٢ - الصواعق المحرقة: الصواعق المحرقة في الردّ على أهل البدع والزندقة.

تأليف: أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمّد بن علي بن حجر الهيتمي المكي السعدي الشافعي المتوفّى سنة ٩٧٤ هـ / تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف / نشر: مكتبة القاهرة - القاهرة.

٦٣ - طبقات الشافعية الكبرى.

تأليف: أبي نصر تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي بن علي بن علي السبكي الأنصاري الشافعي المتوفّى سنة ٧٧١ هـ / تحقيق: عبدالفتاح محمّد الحلو ومحمود محمّد الطناحي / نشر: دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.

٦٤ - العهود المحمّدية.

تأليف: أبي المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد العلوي المصري الشافعي المعروف

بالشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ / نشر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر / الطبعة الثانية - ١٣٩٣ هـ.

٦٥ - غياث الأمم: غياث الأمم في التياث الظلم.

تأليف: أبي المعالي ضياء الدين عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني النيسابوري الشافعي المعروف بإمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ / تحقيق: خليل المنصور / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٧ هـ.

٦٦ - الفتاوى الواضحة.

تأليف: محمد باقر بن حيدر بن إسماعيل الصدر المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ / طبع: مطبعة الآداب - النجف.

٦٧ - فيض القدير: فيض القدير شرح الجامع الصغير.

تأليف: زين الدين محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري المتوفى سنة ١٠٣١ هـ / تصحيح: أحمد عبدالسلام / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٥ هـ.

٦٨ - قصة الطوائف.

تأليف: د. فاضل الأنصاري / نشر: دمشق.

٦٩ - قضية الفلسفة.

تأليف: الطويل / نشر: بيروت.

٧٠ - الكافي.

تأليف: أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي المعروف بثقة الإسلام المتوفى سنة ٣٢٩ هـ / تحقيق: علي أكبر الغفاري / نشر: دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الثالثة - ١٣٨٨ هـ.

٧١ - الكافية في الجدل.

تأليف: أبي المعالي ضياء الدين عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني النيسابوري الشافعي المعروف بإمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ / تحقيق: د. فوقية حسين محمود / نشر: مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة / ١٣٩٩ هـ.

- ٧٢- كتاب التوحيد للمفضّل: كتاب التوحيد.
تأليف: المفضّل بن عمر الجعفي / تحقيق: كاظم المقداد / نشر: مؤسّسة الوفاء - بيروت /
الطبعة الثانية- ١٤٠٤ هـ .
- ٧٣- كشف الحجب والأستار: كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار.
تأليف: إعجاز حسين بن محمّد قلي بن محمّد بن حامد الموسوي الكنهوي الكنتوري النيسابوري
المتوفّي سنة ١٢٨٦هـ / نشر: مكتبة المرعشي النجفي العامّة- قم / الطبعة الثانية- ١٤٠٩ هـ .
- ٧٤- الكفاية في علم الرواية.
تأليف: أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي المتوفّي سنة ٤٦٣ هـ / نشر: دار
الكتب العلمية- بيروت / ١٤٠٩ هـ .
- ٧٥- الكنى والألقاب.
تأليف: عبّاس بن محمّد رضا بن أبي القاسم القمّي المتوفّي سنة ١٣٥٩ هـ / نشر: مكتبة
الصدر- طهران / الطبعة الخامسة- ١٣٦٨ هـ . ش .
- ٧٦- كنز العمّال: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال.
تأليف: علاء الدين علي المتقيّ بن حسام الدين الهندي البرهان فوري المتوفّي سنة ٩٧٥ هـ /
ضبط وتفسير الغريب من الكتاب: بكري حيّاني / تصحيح وفهرسة: صفوة السقا / نشر:
مؤسّسة الرسالة- بيروت / ١٤٠٩ هـ .
- ٧٧- ماضي المرجعية الشيعية وحاضرها.
تأليف: محمّد علي بن علي أكبر بن محمّد حسين التسخيري / نشر: المجمع العالمي للتقريب
بين المذاهب الإسلامية- طهران / الطبعة الأولى- ١٤٣١ هـ .
- ٧٨- مجلّة رسالة التقريب.
إصدار: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران / الأعداد: ٣٦ و ٣٩
و ٤٤ و ٤٧ .
- ٧٩- مجلّة نصوص معاصرة.
إصدار: إيران / العدد: ١٠ .

- ٨٠- المجموع: المجموع في شرح المهذب.
تأليف: أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي الشافعي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / نشر: دار الفكر- بيروت.
- ٨١- المحجة البيضاء: المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء.
تأليف: محمد محسن بن مرتضى المعروف بالفيض الكاشاني المتوفى سنة ١٠٩١ هـ / تحقيق: علي أكبر الغفاري / نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين- قم / الطبعة الثانية.
- ٨٢- المستصفي: المستصفي من علم الأصول.
تأليف: أبي حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / تصحيح: محمد عبدالسلام الشافعي / نشر: دار الكتب العلمية- بيروت / ١٤١٧ هـ.
- ٨٣- مستقبل الإسلام والغرب.
تأليف: شيرين هنتر / تعريب: زينب شوربا / نشر: بيروت.
- ٨٤- مسند أحمد: المسند.
تأليف: أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني المتوفى سنة ٢٤١ هـ / نشر: دار صادر- بيروت.
- ٨٥- مصباح الأصول: مصباح الأصول (تقريباً لأبحاث السيّد أبي القاسم بن علي أكبر الموسوي الخوئي المتوفى سنة ١٤١٣ هـ).
تأليف: محمد سرور بن الحسن البهسودي الواعظ الحسيني المتوفى سنة ١٣٩٩ هـ / نشر: مكتبة الداوري- قم / الطبعة الخامسة- ١٤١٧ هـ.
- ٨٦- المعالم الجديدة للأصول.
تأليف: محمد باقر بن حيدر بن إسماعيل الصدر المتوفى سنة ١٤٠٠ هـ / طبع: مطبعة النعمان- النجف / الطبعة الثانية- ١٣٩٥ هـ.
- ٨٧- المعبر: المعبر في شرح المختصر.
تأليف: أبي القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن بن يحيى بن الحسن الهذلي المعروف بالمحقق الحلّي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / طبع: مطبعة سيّد الشهداء- قم / ١٣٦٤ هـ. ش.

- ٨٨- معجم الأدباء.
تأليف: أبي عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / نشر: دار الفكر- بيروت / الطبعة الثالثة- ١٤٠٠ هـ.
- ٨٩- معجم رجال الحديث: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة.
تأليف: أبي القاسم بن علي أكبر بن ميرهاشم الموسوي الخوئي النجفي المتوفى سنة ١٤١٣ هـ / نشر: مدينة العلم- قم / الطبعة الخامسة- ١٤١٣ هـ.
- ٩٠- المعجم الوسيط للساعدي: المعجم الوسيط فيما يخص الوحدة والتقريب.
تأليف: محمد جاسم الساعدي / نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران / الطبعة الأولى- ١٤٣١ هـ.
- ٩١- مغني المحتاج: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج.
تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت / ١٣٧٧ هـ.
- ٩٢- مفردات الراغب: معجم مفردات ألفاظ القرآن.
تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٣ هـ / تحقيق: إبراهيم شمس الدين / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- ٩٣- ملفّ التقريب.
إعداد: د. محمد علي آذر شب / نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية - طهران / الطبعة الأولى- ١٤٢١ هـ.
- ٩٤- من الظواهر العامة في الإسلام.
تأليف: محمد علي بن علي أكبر بن محمد حسين السخيري / نشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية- طهران / الطبعة الأولى- ١٤٢٦ هـ.
- ٩٥- مناهج البحث.
تأليف: غازي عناية / نشر: بيروت.

- ٩٦ - المتظم: المتظم في تاريخ الأمم والملوك.
تأليف: أبي الفرج عبدالرحمان بن علي بن محمد بن علي البكري البغدادي الحنبلي المعروف بابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا / نشر: دار الكتب العلمية - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١٢ هـ.
- ٩٧ - منهج التربية الإسلامية.
تأليف: محمد قطب / نشر: دار دمشق - دمشق / الطبعة الثانية.
- ٩٨ - منية المرید: منية المرید في آداب المفید والمستفید.
تأليف: زين الدين بن علي بن أحمد الجبلي المعروف بالشهيد الثاني المتوفى سنة ٩٦٥ هـ / تحقيق: رضا المختاري / نشر: مكتب الإعلام الإسلامي - قم / الطبعة الأولى - ١٤٠٩ هـ.
- ٩٩ - موسوعة السياسة.
تأليف: د. عبدالوهاب الكيالي وجماعة من المتخصصين / نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت / الطبعة الرابعة - ١٩٩٩ م.
- ١٠٠ - موسوعة طبقات الفقهاء.
تأليف: اللجنة العلمية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بقم / إشراف: جعفر السبحاني / نشر: مؤسسة الإمام الصادق - قم / الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.
- ١٠١ - النظرات الثقافية للإمام الخميني.
إعداد: كبرى أسدي / نشر: إيران.
- ١٠٢ - نظرة تاريخية لاحمد تيمور: نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة.
تأليف: أحمد بن إسماعيل بن محمد تيمور المتوفى سنة ١٩٣٠ م / نشر: دار القادري - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤١١ هـ.
- ١٠٣ - نظم درر السمطين: نظم درر السمطين في فضائل المصطفى والمرضى والبتول والسبطين.
تأليف: جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي المدني الحنفي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ / تحقيق: علي عاشور / نشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت / الطبعة الأولى - ١٤٢٥ هـ.
- ١٠٤ - نهج البلاغة.

- جمع: الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ / شرح: محمد بن عبده بن حسن خير الله المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ / نشر: دار الذخائر- قم / الطبعة الأولى- ١٤١٢ هـ.
- ١٠٥- الوسائل: تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة.
- تأليف: محمد بن الحسن بن علي الحرّ العاملي المتوفى سنة ١١٠٤ هـ / تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث- قم / الطبعة الثالثة- ١٤١٦ هـ.
- ١٠٦- وقعة صفين.
- تأليف: أبي الفضل نصر بن مزاحم بن سيار المنقري المتوفى سنة ٢١٢ هـ / تحقيق: عبدالسلام محمد هارون/ نشر: المؤسسة العربية الحديثة- القاهرة / الطبعة الثانية- ١٣٨٢ هـ.

لمحات من فكر بعض
الشخصيات التقريبية

تقديم

لمن دواعي الغبطة والسرور أن أرافق سماحة العلامة الشيخ محمد علي التسخيري في بعض جولاته العلمية والدعوية والتقريبية، والمؤتمرات العالمية والندوات التي تعقد هنا وهناك داخل البلد وخارجه، حيث لمست فيه، المدرسة السيارة والدعوة الشفوقة نحو أمته الإسلامية، وأهدافها في لم شملها وجمع كلمتها، تلك هي أمة المليار والثلاث مليار في العالم بمختلف توجهاتهم واجتهاداتهم، بل ولغاتهم وأجناسهم تحت لافتة «شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، تلك الشهادة التي تصان بها النفوس والأرواح وتحفظ بها الأموال والحرمان.

فسكنت نفسي لهذه الشخصية العلمية النادرة، حيث قضى عقود الستة في دعوة الخير والصلاح والوحدة والتقريب مع العلماء الواعين والدعاة المجاهدين، فتحمل الصعاب والآلام كما هي سيرة آل الله سبحانه من الأئمة الأطهار والأصحاب البررة الأخيار في نشر رسالة السماء تبليغاً وإنهاءً وتسديداً، وكان الله جلّت قدرته في عونه وتسديده نحو الخير والنصر «فما كان لله ينمو...».

وأخيراً وليس آخراً كان لي شرف الرفقة مع علمنا العزيز في مؤتمر المغرب لحضور مؤتمر «حوار الحضارات والتنوع الثقافي» في مدينة فاس عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٧م، وكانت مقالة سماحة الشيخ بعنوان «القيم الإنسانية المشتركة» التي أثارت مداخلات جديدة بناءً ورائعة لا سيما في السنة التي أعلنها القائد المكرم الإمام الخامني (حفظه الله ورعاه)، في تسميته هذا العام «عام الوحدة الوطنية والانسجام الإسلامي» إذ أبدى المداخلون إعجابهم وإكبارهم لهذه المقالة الرزينة في معانيها ومقاصدها؛ الأمر الذي دعا الحاضرين لإظهار كمال شكرهم وتممينهم لسماحة الشيخ، وهو ما دفع «المركز المغربي للدراسات الإستراتيجية والدولية» للطلب من أستاذنا التسخيري لقبول عضوية المركز المذكور بموجب الرسالة المرسلة من المركز إلى

سماحته، وهي تشير إلى فضيلته وغازة علمه، وآفاقه الرحبة، ومشاركته الفاعلة، ومدخلاته الحكيمة ذات الوقع الكبير على عموم المؤتمر، وإشادة المشاركين برحابة صدره وبديع عباراته وجلالة أخلاقه وطلاقة محيّه الإيماني.

وخلال الرحلة لحضور هذا المؤتمر جرى الحديث حول جهاد العلماء الأعلام التقريبيين ممن نقلوا الأمة بأفكارهم وأساليبهم وجهادهم إلى عهد الرسالة الأول والصحابة السابقين، أولئك الذين بجهادهم ووحدتهم وصل الإسلام عالياً ناصعاً، لا يحمل سوى المحبة والجهد والاجتهاد المتعاون، حيث أشار سماحة الشيخ إلى مقالات كتبها حول بعض الشخصيات التي تتناغم أفكارها وأهدافها ومسايعها مع أولئك الآباء من الصحابة الأجلاء، لما يحمله شيخنا الجليل من أهداف صادقة ومخلصة وعملية في إيجاد أمة الوحدة الإسلامية على الهدى والمحبة وموالة البعض للآخر. فذكر مجموعة من هذه الشخصيات التي يحويها هذا الكتاب، حيث هزني هذا الحديث وجعلني اقترح على فضيلته أن يخرج هذا العمل إلى النور على شكل كتاب يحمل عنوان «لمحات من فكر شخصيات تقريبية». وقد رحب سماحته بهذه الفكرة وهامو الكتاب بين يدي القارئ الكريم.

ليشرفني أن يضاف باقتراحي هذا كتاب جديد إلى سلسلة الكتب التي ألّفها سماحة الشيخ والتي تجاوزت الخمسين كتاباً في مختلف صنوف المعرفة والفكر الإنساني الإسلامي، فضلاً عن مئات المقالات العلمية المطروحة في المؤتمرات العلمية المختلفة، راجياً منه تعالى أن يمتعنا بطول عمره الشريف ليكمل المشوار في طريق الوحدة الإسلامية التي مازالت دعوة المولى جل جلاله وهدف الرسالة السمحاء، ونيها العظيمة «محمد» صلى الله عليه وآله الكرام وخلفائه العظام من آله الطيبين وصحبه المجاهدين.

نسأله تعاضمت آلاؤه أن يمنّ على الأمة الإسلامية في إزالة عوائق وحدتها، وشدّ القوى لتحقيق ذلك وانتصارها على أعدائها، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

كلمة المؤلف

فكرة عن رواد الوحدة الإسلامية والتقريب

ثمة حقيقة مفادها: أنّ فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية قد بدأت بالانتشار بشكل جيد، واستقبلها العلماء والمفكرّون من شتى أنحاء العالم الإسلامي بحماسة، وعقدت المؤتمرات الدولية، والندوات الاقليمية والمحلية في مناطق عديدة من العالم: في إيران وسورية والأردن والجزائر والبحرين وماليزيا، وحتى في روسيا وكندا وغيرها. ازدادت أعداد الكتب التي تصبّ في هذا الاتجاه، وتأسست اقسام جامعية لهذا الغرض، كما في الجامعة العالمية في ماليزيا، وجامعة أهل البيت عليه السلام العالمية في عمان، وجامعة المذاهب الإسلامية بطهران، وجعلت المنظمة الإسلامية للدراسات والعلوم (الاييسيسكو) التقريب أهم أهدافها، وشكّل مجمع الفقه الإسلامي الدولي لجنة خاصة من العلماء عنوانها: شعبة التقريب بين المذاهب الإسلامية.

كل هذا يوضح الاستقبال الكبير لهذه الفكرة، ويشير إلى التطور الحاصل على هذا الصعيد.

ويمكننا أن نعزو هذا الترحيب والاستقبال لفكرة التقريب إلى وجود علل أهمّها:

اولاً: منطقية الفكرة، وملائمتها لطبيعة الإنسان عموماً، وانسجامها مع منطق الحوار

الإنساني السليم.

وثانياً: امتلاكها للجذور الإسلامية الراسخة باعتبار أنّ الإسلام أكّد على الحوار السليم،

ووضع له نظريته وأسسها وأهدافه وشروطه، وأكّد على اكتشاف المشترك مع الآخر والتعاون فيه،

هذا من جهة عامة.

ومن جهة خاصة فإنّ المذاهب الإسلامية تشترك في وحدة مصدر الفهم والتشريع، وهو الكتاب

الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبالتالي تشترك في مساحة تاريخية وعقدية وتشريعية ضخمة.

ويؤكد الإسلام هذه المسيرة بالدعوة إلى الوحدة باعتبارها أكبر خصائص هذه الأمة، وتقوم هذه الوحدة على الأخوة الإسلامية الحميمة التي لا تنفصم عراها.

وثالثاً: لتكالب الأعداء على هذه الأمة، وارتفاع وتيرة التآمر على هويتها ووجودها، والتآمر لا يفرق بين مسلم ومسلم، ومنطقة وأخرى. وقد اتحدت القوى المتنازعة فيما بينها لتهزم هذه الأمة، الأمر الذي يدعوها هي للاتحاد، ونسيان الخلافات الجانبية، واتخاذ الموقف العملي الموحد لمواجهة التحديات المصيرية، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^١.

وأما رابعاً: فهو انضمام ثلثة من كبار العلماء والمفكرين والمصلحين الكبار إلى هذه الدعوة، مما اعطاها ثراءً وقوة، وفسح المجال لنفوذها إلى القلوب والعقول. وهذا هو مانودّ هنا الحديث عنه بشيء أكثر تفصيلاً:

فما أن بادر عالم إيراني هو العلامة القمي للاجتماع بعلماء الازهر الشريف حتى وجد الأذان الصاغية والقلوب المفتحة، والتأييد الجيد، مما مهد لاجداد دار التقريب في القاهرة بتاريخ (ربيع الأول ١٣٦٨ يناير ١٩٤٩). ولم تمض الأمد قصيرة حتى انضم إلى هذه الدعوة كبار العلماء والمفكرين والدعاة، وما أن صدرت (رسالة الإسلام) وهي المجلة الرائدة في هذا السبيل حتى تلقفتها العقول، واشتركت فيها الاقلام الممتازة، لتشكل من خلال أعدادها الستين وعلى مدى (٢٣) عاماً منبعاً ثراً خيراً، وموسوعة مباركة تمهد السبيل للوحدة الإسلامية .

شخصيات تقريبية واهتمام وحدوي

يبدو من المناسب ذكر بعض الشخصيات الراحلة التي تركت بصماتها واضحة على مسيرة الوحدة وحركة التقريب (على أن في الأحياء العشرات من الشخصيات الوجدوية) وسنبداً أولاً بذكر الشخصيات السنية، ونتبع ذلك بذكر الشخصيات الشيعية، مكتفين بذكر الاسماء وبعض ما أثر عنها:

١- الإمام الشيخ محمود شلتوت (شيخ الازهر)

يعد من ابرز دعاة التقريب، واشتهر بفتواه المعروفة التي وضعت أساساً متيناً للتآخي بين السنة والشيعة، ورفعت الغبش في نظرة كل منهما للآخر. لقد كان ; موضوعياً في تصوراته إلى حد بعيد، ويدعو للموضوعية دائماً، فهو يقول مثلاً عن المرحوم الطبرسي - وهو من علماء الإمامية الكبار، ومن مؤلفاته تفسير (مجمع البيان) -: «قد استطاع إلى حد بعيد أن يغلب اخلاصه للفكرة العلمية على عاطفته المذهبية... فإننا لا نراه مسرفاً في مجازاة هذه العاطفة ولا حاملاً على مخالفيه ومخالفيه مذهبه».

ويضيف: «أول شيء على المسلمين وأوجهه على قاداتهم وعلمائهم أن يتبادلوا الثقافة والمعرفة، وأن يقلعوا عن سوء الظن، وعن التنازع باللقاب، والتهاجر بالطعن والسباب»^١.

٢- الإمام الشيخ عبد المجيد سليم

وهو أيضاً من أكبر الدعاة إلى الوحدة الإسلامية والتقريب، وكان العدد الأول من مجلة (رسالة الإسلام) مزيناً ببيانه الهام الذي يوضح أن مسألة التقريب عميقة الجذور في تاريخنا وتراثنا، فيقول فيه: «ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم باحسان والأئمة عليهم الرضوان، يختلفون، ويدفع بعضهم حجة بعض، ويجادلون عن آرائهم والتي هي أحسن، ويدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم نسمع أن أحداً منهم رمى غيره بسوء... ولكن المسلمين لم يلبثوا أن انصرفوا عن هذه السبيل، واتخذوا من خلافاتهم عصبية جامدة لا تعرف التفاهم». ويعتبر المرحوم أول من راسل الإمام البروجردي، وشكره على دعمه لفكرة التقريب، فكان يرد عليه بكل احترام، ويعتبره ممن وقفوا أنفسهم لخدمة الأمة.

ويروي المرحوم القمي في مذكراته^٢ أن المرحوم الشيخ سليم كان يعتزم اصدار نفس الفتوى التي اصدرها شلتوت وقبل عشر سنوات، إلا أن الأيدي الخبيثة خلقت زوبعة حول الموضوع وأجّلت الصدور. هذا وقد اعتبر الإمام كاشف الغطاء بيان الشيخ سليم فتحاً مبيناً جاء على لسان هذا العالم الكبير المسؤول .

١. مقدمته لمجمع البيان المطبوع في القاهرة.

٢. المنشورة في رسالة الإسلام.

٣- الإمام الشيخ سليم البشري (شيخ الأزهر)

ويعرف علو أدبه من نفس مكاتباته مع المرحوم الإمام عبد الحسين شرف الدين والتي نشرت في كتاب (المراجعات)، ليعبر عنه المرحوم شرف الدين بأنه «من المبرزين بعقل واسع، وخلق وادع، وفؤاد حي، وعلم عليهم، ومنزل رفيع يتبوؤه بزعامته الدينية، بحق وأهلية»^١. وكتب الشيخ يقول في أول كتبه للسيد شرف الدين: «وما أنا فيما أرفعه بباحث عن عثرة أو متبّع عورة، ولا بمفند أو مندّد، وإنما أنا نشاد ضالة، وبّاحث عن حقيقة»^٢.

٤- الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي

وهو أحد الرواد في هذا السبيل، وأحد الدعاة المتقدمين إلى فتح باب الاجتهاد وجواز تقليد غير الأئمة الأربعة متى صحّ النقل عن غيرهم،^٣ وفتح باب الفقه المقارن بالأزهر، ويقول (رحمه الله تعالى) عن الوحدة: «أنه عند التأمل نجده (الإسلام) يرمي إلى الوحدة في جميع التكاليف، ذلك لأنّ الوحدة أساس الإصلاح في الحياة الدنيا، وأساس العزة والسلطان»^٤.

٥- الأستاذ حسن البنا

مؤسس حركة الإخوان المسلمين. ودور هذا الإنسان المفكّر الحركي الكبير في انشاء (دار التقريب) ودعمها ونشر فكرها معروف وباهر، حتى إنّ تسمية «الدار» كانت باقتراح منه، وقد طبعت مناسك الحج على المذاهب الخمسة من قبل مؤسسته، ووزّعت في موسم الحج، وكان المرحوم البنا قد حجّ في تلك السنة، والتقى بأية الله الكاشاني زعيم حركة تامين النفط في إيران.^٥

٦- الإمام الباحثة الشيخ محمد أبو زهرة

وقد كتب في الوحدة الإسلامية مقالات، وأكد فيها أنّ أول خطوات الوحدة من الناحية العملية أن يتم التوحيد الفكري والنفسي بين الشعوب الإسلامية في ظلّ هيئة علمية تعنى

١. رسالة الإسلام العدد ٣، ص ٢٣٧.

٢. المراجعات، ص ٢، طبعة القاهرة.

٣. رسالة الإسلام، العدد ٤.

٤. الوحدة الإسلامية للشيخ بي آزار الشيرازي، ملف التقريب، ص ٤٩٧.

٥. ملف التقريب، الدكتور آذرشب، ص ١٣٨.

بالقرب ما بين الطوائف الإسلامية، وأن يعمل على منع النزاع بين الاقاليم الإسلامية وأن يعرف المسلمون أنفسهم بلغة جامعة هي العربية^١.

٧- الشيخ البهائي على الخفيف

وهو أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة التقريب، يقول في إحدى مقالاته في ذيل الآية الشريفة الرابعة والعشرين من سورة التوبة ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ...﴾: «وإنَّ المسلمين آمنوا بهذه الآية الإيذان الذي يظهر أثره في نفوسهم وأعمالهم، وآمنوا كذلك بما نزل في التفرق بسبب الاختلاف في الدين، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^٢ ما فرقت بينهم المذاهب الدينية، ولا الأهواء السياسية، ولا العصبية الجنسية»^٣.

٨- الشيخ الإمام محمد محمد المدني

وكان من الأوائل في هذه الحركة، والمجاهدين في سبيلها، وارتبط به الشيخ القمي فكريباً وعاطفياً، حتى إنَّه حين سمع نبأ اصطدامه تضرع إلى الله أن يقبل منه حياته فداءً للشيخ المدني. ومقالات المرحوم المدني في مجلة (رسالة الإسلام) علمية وداعية دائماً للتوحيد. وقد وصفه الإمام شرف الدين بقوله: (بطل من أبطال الفكر، والعلم، والجهاد، وحسن البلاء، العلامة الدرّاة)^٤. وكان أيضاً من المؤسسين لدار التقريب في القاهرة، وبقي إلى نهاية عمره الشريف يعمل لهذا الهدف.

٩- العلامة الشيخ محمد سرور الصبان

وكان من كبار رجال الدولة السعودية، وقد بعث برسالة للإمام عبد المجيد سليم بمناسبة عودته لمشيخة الأزهر، يمدح فيها جهوده وسعيه للتقريب بين المذاهب الإسلامية، فأجابه المرحوم سليم بقوله (إنَّه لاصلاح للأمة إلاَّ بائتلاف قلوبها، واتحاد أبنائها، وتعاونهم على البر والتقوى، ونسيانهم ما كان سبباً في فرقتهم)^٥.

١. الوحدة الإسلامية للشيخ بي آزار الشيرازي .

٢. الانعام: ١٥٩.

٣. الوحدة الإسلامية، ص ١٤٨.

٤. رسالة الإسلام، المجلد العاشر، ص ١٠٨.

٥. رسالة الإسلام، المجلد الرابع، ص ٢٢٠.

١٠- الإمام الشيخ حسنين محمد مخلوف

وقد كتب ; يقول: (إنني من المؤمنين بفكرة التقريب، العاملين على أن يدرك المسلمون جميعاً مزاياها وماتؤدي إليه) ١.

١١- المرحوم الشيخ عبد المتعال الصعيدي

وقد كتب عن الموضوع من المغني المفيد يقول: (التقريب بين المذاهب الإسلامية غاية من أسمى الغايات، وهو السبيل إلى عودة المسلمين إلى سابق مجدهم) ٢.

١٢- المجاهد التونسي السيد محيي الدين القليبي

وله كلمات جيدة في الوحدة، وقد تحدّث عن عبارة أعجب بها من المرحوم السيد أبي القاسم الكاشاني حين سئل عن رأيه في الخلاف بين السنة والشيعة، فأجاب: «أنا مسلم، لا أعرف إلا الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ من عند ربّه، وهو الذي يجب أن يتحد عليه المسلمون، أمّا ما عدا ذلك فلكل أن يحتفظ بها عنده لنفسه» ٣.

١٣- المرحوم الشيخ محمود فياض

أستاذ الازهر الشريف، وقد اعتبر أنّ أيسر وسيلة لجمع الكلمة واعزاز المسلمين هي (التقريب بين المذاهب الإسلامية، باعتباره دعوة للتعاون على البر والتقوى) ٤.

١٤- الإمام أبو الاعلى المودودي

وكان طوداً شامخاً، وداعية للإسلام الشمولي، ورافضاً للتعصّب والتقليد الأعمى، ومحارباً للدعوات التمزيقية، ومعتبراً الشهادتين ملاك الإخوة ٥.

١٥- المرحوم الشيخ محمد الغزالي

١. الوحدة الإسلامية، ص ٥١.

٢. ن. م. ص ٨٢.

٣. ن. م. ص ٨١.

٤. ن. م. ص ٩٩.

٥. راجع مقالنا عنه في رسالة التقريب، العدد ٣٨، ص ١٧١.

وهو أيضاً من الرواد، ظلّ يطرح الفكرة هنا وهناك، مجاهداً منافحاً، داعياً لإصلاح الأفكار والقلوب والتقريب بين المذاهب، وجعل الفقه فقه دعوة لا فقه فرقة^١.

١٦- المرحوم الأستاذ أحمد أمين

كتب يقول: «ولو أحصينا ما كان بينهم (اي السنّة والشيعية) من عهد علي عليه السلام إلى الآن لبلغت حوادثه المجلدات الضخمة، كلّها خلاف وكلّها دماء، ولو كان أنفق هذا الجهد في سبيل الإصلاح لبلغ المسلمون ذروة المجد»^٢.

١٧- الأستاذ الشيخ محمد عرفه

١٨- الأستاذ الشيخ يس سويلم طه من علماء الأزهر

١٩- الأستاذ المحقق الموسوعي محمد فريد وجدي

٢٠- الأستاذ الكاتب الكبير عباس محمود العقاد، وتأييده للمرحوم الإمام شلتوت رافع^٣.

٢١- الأستاذ محمد عبد الله دراز

وقد اعتبر انشاء جماعة التقريب ايذاناً بعهد جديد للمسلمين^٤.

٢٢- الأستاذ حامد حفني داود.

وكتابات رائعة بهذا الصدد، فهو يقول مثلاً: (ونحن - اليوم - ندعو أن تكون نظرة أهل السنة إلى الشيعة الإمامية نظرة فقهية بحثية بعيدة عن العصبية، وأن ينظر إلى الخلافات الفقهية بيننا وبينهم نظرنا إلى الخلافات بين الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة)^٥.

٢٣- الأستاذ محمد فكري أبو النصر

وكان يؤكد أن العلماء من كل المذاهب يستطيعون إذا أخلصوا النية لله أن يحققوا الوحدة المنشودة^٦.

١. راجع مقال الأستاذ جواد جميل عنه في رسالة التقريب، العدد ٣٦ ص ٢٧٣.

٢. راجع مقدمته على كتاب (تاريخ القرآن) للشيخ أبي عبد الله الزنجاني.

٣. ن. م. ص ٥٠٢.

٤. ن. م. ٤٩٧.

٥. راجع مقدمته لكتاب المراجعات.

٦. ن. م.

٢٤- العلامة الكبير الشيخ أحمد كفتارو

مفتي سوريا، وله مواقف كبيرة في خدمة التقريب. هذه ثلّة من العلماء السنة، وهناك كثيرون غيرهم. ممّن دعموا حركة الوحدة والتقريب، لا يمكننا استيعابهم جميعاً. أمّا العلماء والمفكرون الشيعة الداعمون لهذا التوجه، فهم أيضاً من الكثرة بحيث لا يمكن استيعابهم، ولذلك نقتصر على ذكر الشخصيات التالية:

٢٥- الإمام البروجردي

وكان من كبار علماء الشيعة ومرجعهم الاعلى، وفي طليعة الداعين للتقريب بين المذاهب الإسلامية. قام بخطوات عملية في هذا المجال، فدعم مباشرةً هذه الحركة، وكان يراقب المسيرة بكلّ حذر حتى نقل أنّه أوصى بها وهو على فراش الموت.^١ وكان في كثير من الأحيان يشجّع الدراسات الفقهية المقارنة، وفي مجال الدراسات التاريخية دعا لنقل البحث من المرجعية السياسية الادارية بعد الرسول ﷺ إلى المرجعية العلمية. فكان بحقّ في طليعة رواد التقريب.

٢٦- الإمام الخميني

ومواقف الإمام الوحودية أكثر من أن تحصى، وهو صاحب المقولة الشهيرة (إنّ الذين يفرّقون بين السنّة والشيعة ليسوا سنّة ولا شيعة) ويقول أيضاً: (إنّ الثورة الإسلامية لم تشهد - بحمد الله - أيّ خلاف بين السنّة والشيعة، ينبغي أن يعيش الكلّ بحبّ وأخوة)^٢. وقد اتّسمت مدرسته الفكرية والفقهية والسياسية بهذه السمة، فتربى عليها أتباعه، ومنهم آية الله الخامنئي القائد الثاني للثورة الإسلامية، الذي أمر بتأسيس المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في مطلع سنين قيادته.

وسنأتي في هذا الكتاب الحديث أكثر عن مدرسة الإمام الخميني وما تتسم من سمات.

٢٧- آل كاشف الغطاء

١. ملف التقريب للدكتور آذرشب، ص ١٣٥.

٢. راجع كتابنا حول الوحدة والتقريب، ص ١١٠.

وقد آثرنا هذا العنوان العام لنوضح أنّ هذا البيت العريق بعلمائه وشخصياته، كان بيت الوحدة، فقد نقل أنّه نبغ فيهم في القرون الأخيرة خمسة وعشرون مجتهداً كبيراً، وفي طليعتهم امام الشيعة الكبير الشيخ جعفر صاحب كتاب (كشف الغطاء) وهو موسوعة فقهية، وقد قام بخطوات عملية تقريبية كبرى، وكذلك ولده الشيخ موسى الذي اشتهر بالإصلاح بين الدولتين العثمانية والصفوية، وولده الآخر الشيخ حسن.

وأخيراً العلامة الكبير الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، وهو أحد الرواد الكبار في حركة التقريب وخطواته كثيرة مشهورة.^١ وهو - بنفسه - يشير إلى خطبه وبياناته ومؤلفاته خلال أربعين عاماً حول الموضوع.^٢ والحقيقة أنّ هذه الجهود بمجموعها تشكل موسوعة وحدوية كبرى.

٢٨- الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين

وهو أشهر من أن يعرف، لمواقفه الوحدوية ومؤلفاته القيمة في هذا الصدد، ومنها كتابه (الفصول المهمة في توحيد الأمة) وكان شديد التواصل مع إخوته علماء الازهر الشريف، ومراجعاته تشهد لذلك.

٢٩- آل الحكيم

وهم أسرة عريقة استوطن أجدادها العراق منذ القرن الثاني الهجري، وقد برز منها علماء مشهورون، وقدّمت توضّحات كبرى. وفي طليعة من ينبغي ذكره في مجالنا هذا الإمام السيد محسن الحكيم وآية الله السيد محمد تقي الحكيم وآية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم. والواقع فأنني أجدني عاجزاً عن توفية هذه الاسرة الكريمة حقّها بهذا الصدد.

فالإمام السيد محسن الحكيم، علم وفقه وجهاد متواصل، وخصوصاً في مجال الوحدة الإسلامية، فبالإضافة لجهاده تحت راية الخلافة العثمانية، قام بدور مشرف في دعم تأسيس دار التقريب في القاهرة، ودعم وحدة الشعب العراقي بعربه واكراده، وشيعته وسنته، وأما آية الله

١. يراجع كتاب (العقبات العنبرية) للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وتحقيق الدكتور جودت القزويني. وكذلك كتاب

(النجف الاشراف اسهامات في الحضارة الانسانية) الجزء الاول، ص ٤٢١.

٢. رسالة الإسلام، العدد ٣، الصفحة ٢٦٨.

السيد محمد تقي الحكيم فقد كان طوداً شامخاً في مجال التقريب ويكفيه كتابه الرائع (أصول الفقه المقارن) شاهداً على ذلك^١.

وأما آية الله السيد محمد باقر الحكيم فهو شهيد الوحدة، وقد ساهم في تأسيس المجمع العالمي للتقريب ورأس مجلسه الأعلى لأكثر من عشر سنوات، وألف العديد من الكتب، وحاضر وقام بعمل سياسي واجتماعي رائع، حتى أريق دمه الطاهر بعد صلاة الجمعة في النجف الاشرف^٢.

٣٠- الإمام السيد أبو القاسم الخوئي

وكان زعيم الحوزة العلمية في النجف، وقد قدم خدمة كبرى للتقريب ببحوثه القيمة، ومنها كتابه (البيان في تفسير القرآن) وقد نشرت (رسالة الإسلام) بحثه الرائع عن (صيانة القرآن من التحريف). فترك أثراً عظيماً في هذا المجال، كما كرس في أولاده وتلامذته هذه الروح، حتى شهدنا نشاطاً جيداً من قبل ولده الشهيد الحجة السيد عبد المجيد الخوئي في مجال التقريب بين المذاهب الإسلامية، وعقد مؤتمراً ضخماً في سورية للوصول إلى إستراتيجية محددة له.

٣١- العلامة السيد هبة الدين الشهرستاني

وكان عالماً موسوعياً مجاهداً قوياً في دعمه لحركة التقريب بين المذاهب.

٣٢- الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر

مرة أخرى أجد نفسي أعجز من أن أكتب عن أستاذي الشهيد العظيم الصدر بشكل يفيد حقه، فقد كان الطود الشامخ والإمام المخلص لقضية الأمة ووحدها. كان كما يقول الكاتب الكبير رفعت سيد احمد: «ضرب المثل فكراً وسلوكاً على كونه أبعد أثراً من حدود الجغرافيا (العراق) ليصبح مؤثراً في أن التمثيل الصحيح لسيرة الإمام الشهيد تتطلب منا أن نؤكد أنها كانت سيرة صراع بين الحق والباطل»^٣.

كان ملكاً للرسالة بكل معنى الكلمة، وما ألّفه كَلِّه كان تخطيطاً فكرياً وعملياً لعودة الإسلام إلى الساحة، وتأجيجاً للصحة الإسلامية المباركة. ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن كتاباته تيممة في هذا المجال.

١. راجع ماكتبناه عنه في (الوحدة والتقريب)، ص ١٧٨.

٢. يراجع رسالة التقريب، العدد ٣٩، الصفحة ١٦٣.

٣. رسالة التقريب، العدد ٤٠، الصفحة ٧٤.

وكان أروع ماكتب نداه للشعب العراقي للثورة على النظام الصدامي، حيث جاء فيه «إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى ابنائنا البررة من السنّة أن المسألة مسألة شيعة وُسنة، ليفصلوا السنّة عن معركتهم ضد العدو المشترك، وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين، وإبناء أبي بكر وعمر، إنّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السنيّ، إنّ الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل علي السيف للدفاع عنه، إذ حارب جندياً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر، وكلّنا نحارب تحت راية الإسلام مهما كان لوننا المذهبي...»

وحسبه فخرًا أن كتابه (اقتصادنا) يدرس اليوم في الحواضر الإسلامية دون أن يلاحظ مذهب كاتبه، وأنّ البنوك والصناديق الإسلامية التي بلغت المئات تستلهم أطروحة اللابوية، وأنّ كتابه (الاسس المنطقية للاستقراء) يشكّل شمساً في سماء الفكر المنطقي العالمي، وأنّ فكره اليوم يقود الصحوة الإسلامية في كل مكان. وسيأتي الحديث عنه مفصلاً.

٣٣- العلامة الشيخ محمد تقي القمي

وهو - بحق - المحرك الأول لهذه الحركة، وله الفضل السابق في تنظيمها وقبولتها، ويعتبره الدكتور آذرشب الرجل الذي واصل مسيرة المرحوم السيد جمال الدين في كسر الحواجز الاقليمية والمذهبية بين المسلمين، ويقول عنه الإمام شتوت: «ذلك العالم المجاهد الذي لا يتحدث عن نفسه، ولا عمّا لاقاه في سبيل دعوته، وهو أول من دعا إلى هذه الدعوة، وهاجر من اجلها إلى هذا البلد: بلد الازهر الشريف، فعاش معها والى جوارها منذ غرسها بذرة مرجوة على بركة الله، وظل يتعهدها بالسقي والرعاية بما آتاه الله من عبقرية وإخلاص، وعلم غزير، وشخصية قوية، صبر على الغير، وثبت على صرف الدهر...»^١.

ولا أجد أبلغ من هذا التعبير عن شخصية المرحوم القمي وجهاده.

٣٤- العلامة السيد محسن الأمين

١. ملف التقريب، ص ٥.

وكان - إلى جانب كونه علم الجهاد والعلم النافع - علماً شامخاً من أعلام الوحدة والتقريب، وموضّحاً جيداً للمقصود منه، مؤكداً «إنّ الذي يجب أن يدعى إليه الطرفان: التعاون، وتحريّ الأدلة العلمية، والتمسك بالآداب الإسلامية، وتجنّب التصرفات غير اللائقة الباعثة على التنفر» وقد حارب الخرافات والسنن الشعبية الباطلة، ولاقى نتيجة ذلك الأمرين^١.

٣٥- العلامة الشيخ محمد جواد مغنية

وهو أيضاً من أعلام الوحدة، وقد ألف كتابه المعروف (الفقه على المذاهب الخمسة) تحقيقاً لغرض التفاهم، ورفد مجلة (رسالة الإسلام) بمقالات على هذا النهج، كالحديث عن الأصول الشيعية و(التقية) وموقع الإمامية بين الأشاعرة والمعتزلة، وحديثه الجيد تحت عنوان (الخلاف لا يمنع من الإنصاف) وغير ذلك.

٣٦- المرحوم العلامة الشيخ محمد صالح المازندراني

وتشير كتاباته ورسائله إلى روح سامية مخرصة لهذه الدعوة، إذ يعبر عن مجلة (رسالة الإسلام) بأنّ ما تحويه هو (متقى الجمان من مشتهى العلم والأدب) ويقول أيضاً: (فيجب على المجتهدين الجمع بين طرق الصحابة المدوّن معظمها في الصحاح الستة لأهل السنة وبين طرق أهل البيت المدوّن أكثرها في الجوامع الثمانية للإمامية .. وكلّ ذلك من غير أن يتشيع سنيّ أو يتسنن شيعي)^٢. ويعبر عن الشيخ عبد المجيد سليم بعد وفاته، فيقول: (وقد كان طيلة قيامه بالأمر مهدياً إلى الطيب من القول، وإلى صراط العزيز الحميد)^٣.

٣٧- العلامة الشيخ مسلم الحلبي،

وله مقالات جميلة في مجلة رسالة الإسلام تؤكّد على عمق هذه المسيرة، ورفض العنعنات الجاهلية.

٣٨- المحامي المفكّر توفيق الفكيكي،

وله كتابات جيدة تصبّ في هذا الاتجاه.

٣٩- العلامة الشيخ عبد الكريم الزنجاني،

١. راجع مقالنا عنه في رسالة التقريب، العدد ٣٧، ص ٢٤١.

٢. رسالة الإسلام، ١٢٤، ص ٤٠٣.

٣. رسالة الإسلام، ٧٤، ص ٩١.

وجهوده كبيرة في هذا المجال، وقد دوّن رحلته الشهيرة إلى فلسطين ومصر بشكل جميل.
 ٤٠- العلامة الشيخ محمد علي ناصر العاملي،
 وله أيضاً حديث جيد مؤثر في هذا المجال.
 ونكتفي هنا بهذا المقدار ونذكر:

- ١- بأننا أشرنا إشارة عابرة، وكان المفروض أن نطيل لولا أنّ المقصود التذكير بأنّ نجاح الحركة كان بسبب - إلى جانب العلل الأخرى - انضمام هذه الشخصيات إليها ودعمها لها.
 - ٢- إنّنا اكتفينا بذكر المرحومين، وفي الأحياء الكثير الكثير من الدعاة والمصلحين.
 - ٣- إنّنا ركّزنا على مقطع زمني خاص، وهو حوالي النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، وإلاّ لطلال الحديث وامتدت القائمة.
- والله تعالى نسأل أن يجعلنا من العاملين المساهمين في إنجاح هذه الحركة المقدسة والمباركة، وصولاً لتعميق الصحوة الإسلامية، وتحقيق الوحدة الإسلامية، وهي الخاصية القرآنية المهمة لهذه الأمة المرحومة.

السيد الشريف الرضي عليه السلام وشخصيته المتوازنة

قبل كل شيء يجب أن نركز على أن المقصود بالتوازن ليس ما قد يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة من التساوي من الجانبين أو ما إلى ذلك، وإنما يقصد منه ملء الواقع بالشكل العادل بحيث يوضع الشيء في محله دون أن يتحقق كيف بأجزاء الواقع، وبحيث يشكل هذا الملء أفضل حالة لصالح الكمال. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التوازن الحكيم) أو (التوازن العادل). فمثلاً لو أننا لاحظنا جانب الغرائز الإنسانية فإننا نجد أنها تحتاج إلى إشباع معين، وهي قد تتطلب ما يزيد على إشباعها الصحيح، فيؤثر هذا على إشباع الغرائز الأخرى. فإذا أعطيت أكثر مما يتطلبه واقعها وهدفها فقد اختل التوازن المطلوب في إشباع الغرائز فالتوازن لا يعني أن تشبع كل غريزة بالمقدار الذي تشبع به الغرائز الأخرى.

وعندما يتضح هذا المفهوم، نستطيع بأنه لا يحتاج في إجماله إلى استدلال، فإن نظرية خلق الكون بحكمة وإحكام وكون التشريع حكمة تشريعية تنسجم مع الحكمة الكونية هي من أوضح النظريات القرآنية التي يتكرر التصريح والإشارة إليها في مختلف الآيات القرآنية. كما أن وصف (حكيم) هو من الأوصاف التي يؤكد عليها القرآن لله تعالى بعد عرض آية، أو ذكر نعمة، أو تقرير حكم، أو بيان جانب تكويني، وأمثال ذلك.

وبالنسبة للإنسان يحدد القرآن هدف خلقته بوضوح أكبر حين يعلن ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^١، ومما يوضح أن تكامل الإنسان يتم كلما تأصلت صفة العبودية لله تعالى فيه كفرد، وأوج كمال الفرد يتمثل في النبي، وأرقى صفة تمنح للنبي أنه (نعم العبد).

يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^١.

وحين يشهد المؤمن لرسول الله سيد البشرية بالرسالة يقدم العبودية أولاً فيقول: (اشهد أن محمداً عبده ورسوله) ويعكس هذا على الإنسان كمجتمع حيث يعمل عباد الله الصالحون وطلعتهم هم الأنبياء على إقامة المجتمع العابد؛

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^٢. هكذا إذن تكون المسيرة الصحيحة المتوازنة المتكاملة للبشرية ضمن خطين. خط العبادة وخط اجتناب الطاغوت، وهما الناتجان الأساسيان من حالة العبودية المطلقة لله تعالى.

فنحن هنا نواجه تفصيلاً وتوضيحاً أكبر للعبودية يتمثل في (العبادة) و(رفض الطاغوت). فالمراد إذن إيجاد الشخصية المتوازنة التي ترضى شهواتها ولكن وفق التخطيط الإلهي، وتنطلق هادية للآخرين مستخدمة كل المسائل لتبليغ كلمة الحق ونشر الخلق الحميد، منفتحة على الآخر مع الاحتفاظ بخصوصيتها وقناعاتها.

وهذه الصفات نلاحظها تماماً في شخصية السيد الشرف الرضي.

فإن الدارس لشخصية العالم الأديب والشاعر الفحل السيد الشريف الرضي يجد هذه الظاهرة (التوازن الحكيم) متجسدة فيها بشكل رائع، مما يؤهله لأن يشكل قدوة رائعة للأجيال.

حياته الشخصية وظروفه السياسية

ولد في أوائل النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في بغداد مقر الخلافة العباسية التي كانت تترنح تحت وطأة الديلم والأتراك وحيث سيطرة العوائل الشيعية على مجمل العالم الإسلامي، فآل بويه في العراق وإيران، والحمدانيون في الشام، والفاطميون في مصر والعوائل العلوية في شمال إفريقيا وهكذا.

وكانت عائلته من العوائل الهاشمية العريقة فأبوه هو الطاهر ذو المناقب وكان يعد من الشخصيات المرموقة في المحافل العلمية والاجتماعية والسياسية، وقد كان بينه وبين عضد

١. ص: ٣٠.

٢. النحل: ٣٦.

الدولة البويهية أمور أدت إلى اعتقال والد الشريف الرضي وعمه ومصادرة أموالهما ليعيشا معتقلين في قلعة فارس من سنة ٣٦٩ وحتى سنة ٣٧٦ هـ ورغم أن هذا العمل كان قميناً بتحريك الجماهير ضد عضد الدولة إلا أن إصلاحاته الواسعة واعماره اسكت خصومه.

ولما مات عام في شوال سنة ٣٧٢ خلفه ولده صمصام الدولة الذي استمر على سياسة أبيه في التصديق إلا أن أخاه شرف الدولة الذي كان يقيم بكرمان بادر بالإفراج عن والد الشريف خلافاً لرغبة صمصام، وفي سنة ٣٧٦ هـ دارت الحرب بينهما وانتصر شرف الدولة ودخل بغداد فاتحاً، وعاد الوالد إلى عائلته في بغداد.

أما أم الشريف فكانت السيدة الجليلة فاطمة وهي من سلالة الناصر الكبير فاتح مازندران وجيلان، وكانت تحظى بمكانة اجتماعية عالية ولها عند المرحوم الإمام الشيخ المفيد مقام رفيع وقد ألفت لها وباسمها كتابه (أحكام النساء).

وقد عنيت بولديها (الرضي والمرضى) غاية العناية رغم نكبتها بزوجها ووفرت لهما أساتذة كباراً فنشأ علمين يفتخر بهما التاريخ وحازا مكانة اجتماعية مرموقة فكان الشريف الرضي نقيب الإشراف وهو في الحادية والعشرين ثم منح لقب الأمير العام ونائب الخليفة على الحجاج تم تسنم مقام رئيس ديوان المظالم وهي مقامات رفيعة تكشف عن استعدادات وقابليات كثيرة، ومن الغريب أنه أحرز هذه المناصب مع وجود أمثال الشيخ المفيد والسيد المرتضى وهذان ارتفعا في مقامهما العلمي إلى مستوى جعلها من أعظم علماء الشيعة على مدى التاريخ.

هذا وقد ألفت الشريف الرضي تسعة عشر كتاباً طبع منها لحد الآن سبعة كتب، وقد تناولت مجالات القرآن والحديث والأدب.

وقد أسس مدرسة لتدريس العلوم الدينية وأسماها (دار العلم) ولعلها كانت أول مدرسة من نوعها كما أسس أخوه السيد المرتضى مدرسة أخرى، وكان العلمان الجليلان الشيخ الطوسي والقاضي عبد العزيز بن البراج من تلاميذها وبطبيعة الحال فقد سبقت هاتان المدرستان تأسيس (المدرسة النظامية) بحوالي ٨٠ عاماً، وربما جاءت تقليداً لهما.

هذا وقد عرف من تلامذة الشريف الرضي عشرة من العلماء والأفاضل.

ويعد جمعه لكلمات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في كتاب اسمه «نهج البلاغة» أروع ما قام به على الإطلاق، وقد روته عنه ابنة أخيه السيد المرتضى بعد أن درسته على يديه.

وقد توفي عام ٤٠٦ هـ وهو في السابعة والاربعين مخلفاً تراثاً علمياً وأدبياً وشعرياً ضخماً لا يقدر بثمن، وان لم يقدره البعض بدوافع تعصبات مذهبية أو علمية أو حتى أدبية. وسوف نركز في هذا المقال على ظاهرة عامة هي (التوازن الحكيم) حيث تبدو بوضوح لكل من درس حياته، وسبر أغوار نفسيته من خلال شعره الذي بلغ الأوج، ومؤلفاته التي وصلت إلينا وتم طبعها وما لم يطبع منها كثير مع الأسف، بل وصلنا بعضها ناقصاً؛ فكتابه الرائع (حقائق التأويل) وصلنا منه جزءه الخامس فقط وهو يفسر الآيات من سورتي آل عمران والنساء تخالف بالنظرة الأولى ما هو معروف من القواعد الأدبية أو الشرعية أو العقلية وهو يرى أن الآيات الست في مطلع سورة آل عمران من المحكمات ويركز على واحد وثلاثين مورداً منها. ويمكن أن نلخص هذه الظاهرة في حياة السيد الشريف الرضي في المظاهر التالية:

أولاً: العلم المعمق والأدب والشعر الرائع ورغم

أن هذه الحالة تبدو لنا في حياة الكثير من العلماء سابقاً ولاحقاً ومنهم أخوه الإمام السيد المرتضى إلا أنها هنا تبدو أعظم جلاءً بل تكاد فيه أن تصل إلى حد التضاد فلا يمكن أن تجتمع شاعرية مرهفة وخيال مجنح مع الطبيعة النفسية للعالم المحقق المتأمل بعمق وصبر.

اذكر بهذه المناسبة بيتين لعالم كبير واديب المعني هو الشيخ الحر العاملي؛ يقول فيهما:

علمي وشعري اقتتلا واصطلحا فخضع الشعر لعلمي راغما

فالعلم يأبى أن اكون شاعراً والشعر يرضى أن أعدّ عالماً

ولا يحل هذا التضاد إلا إذا وجدت الروح الكبيرة والإيمان العميق والثقافة الواسعة والإرادة

القعساء، وهذا ما نشهده في شخصية هذا العالم والشاعر الشاعر وفوق ذلك الإنسان الإنسان.

والجميل أن يشير هو إلى عنصر التوازن في شخصية الإمام المؤمنين علي عليه السلام، فينقل لنا أنه

أراد في جمعه لكلامه في «نهج البلاغة» أن يبدي هذا الجانب فيقول:

«ومن عجائبه، عليه السلام، التي انفرد بها، وأمن المشاركة فيها، أن كلامه الوارد في الزهد والمواعظ،

والتذكير والزواج، إذا تأملته، وفكر فيه المتفكر، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره، ونفذ

أمره، وأحاط بالرقاب ملكه، لم يعترضه الشك في أنه كلام من لاحظ له في غير الزهادة، ولا شغل

له بغير العبادة، قد قبع^١ في كسر بيت^٢، أو انقطع إلى سفح جبل^٣، لا يسمع إلا حسه، ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلامٌ من ينغمس في الحرب مصلاً سيفه^٤، فيقطُّ الرقاب^٥، ويجدُّ الأبطال^٦، ويعود به ينطف^٧ دمًا، ويقطر مهجاً^٨. وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد، وبدل الأبدال^٩ وهذه من فضائله العجيبة، وخصائصه اللطيفة، التي جمع بها بين الأضداد، وألف بين الأشتات^{١٠}، وكثيراً ما أذاكر الإخوان بها، وأستخرج عجبهم منها، وهي موضع للعبرة بها، والفكرة فيها».

إننا هنا لا نحتاج للتدليل على شاعريته فهي كالشمس لا تحتاج إلى بيان، ولكن نشير إلى ما يدل عليه وقد أجمع مؤرخو الأدب على جعل حجازيات الشريف من ألمع فرائد الشعر العربي، ولكن نشير إلى علمه على بالإضافة لما مر عند الإشارة لكتابه (حقائق التأويل) حيث يكشف المطالع له ثقافة وعلماً واسعين، فعندما يطرح الآية الشريفة (زين للناس حب الشهوات...) يتساءل عن هذا التزيين وحقيقته، وإذا كان الأمر كذلك فما معنى العقاب عليه؟ ثم يجيب بأن هذه الطاقات معطاة بالفطرة ولكنها عيون فوارة بينت الشريعة أساليب الاستفادة منها على نحو متوازن فإذا خالف الإنسان أمرها استحق العقوبة.

وهكذا نجده يقف بعمق متأملاً المعاني الواردة في المقاطع القرآنية الشريفة: (هن أم الكتاب) (ربنا لا تزغ قلوبنا) (شهد الله أنه لا إله إلا هو) وغيرها.

وإذا انتقلنا إلى كتابه (تلخيص البيان في مجازات القرآن) نجده أحد أهم المصادر البلاغية على

١. قبع الفننذ، كمنع: أدخل رأسه في جلده، والرجل أدخل رأسه في قميصه، أراد منه: أنزوى.

٢. كسر البيت: جانب الحباء.

٣. سفح الجبل: أسفله وجوانبه.

٤. أصلت سيفه: جرده من غمده.

٥. يقط الرقاب: قطعها عرضاً. فإن كان القطع طويلاً قيل: بقد.

٦. يجدل الأبطال: يلقبهم على الجدالة كسحابة: وهي وجه الأرض.

٧. ينطف: من نطف كنصر وضرب، نطفاً وتنطقاً: سال.

٨. المهج: جمع مهجة، وهي: دم القلب، والروح.

٩. الأبدال قوم صالحون لا تخلو الأرض منهم، إذا مات منهم واحد بدل الله مكانه آخر. والواحد بدل أو بديل.

١٠. الأشتات: جمع شتيت: ما تفرق من الأشياء.

الإطلاق. وهو أول كتاب يركز على المجازات القرآنية بمعناها البلاغي، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فهو في كتابه ينجح إلى التفسير أكثر كما لا يركز الجاحظ في كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) على خصوص المجازات وكذلك نجد ابن قتيبة - تلميذ الجاحظ - في كتابه (تأويل مشكل القرآن). وربما كان تبحر الرضي في البلاغة ناتجاً عن دراسته على أساتذة كبار كالسيرافي وابن نباتة. وقد ذكر الأستاذ زكي مبارك ذلك وقال: «ومعاذ الأدب أن استخف بآثار الشريف في ميادين الفكر والعقل، فقد بلغ الغاية في كتاب (المجازات النبوية) وكتاب (حقائق التأويل) ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أمثال العلماء ولكن عبقريته الشعرية جنت عليه، فخف ميزانه في الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه ومنهم أخوه الذي أتى بالأعاجيب في الفقه والتوحيد»^١.

ثانياً: الاعتزاز بالمذهب والدفاع عنه مع الانفتاح على الآخر

ولا تنافي بين الأمرين في الواقع وإن كان البعض يرى التنافي إلا أن الحقيقة تؤكد الانسجام. فطبيعي أن يعتز المرء بما يقتنع به وإن اعتبره صحيحاً حقاً يعبد الله على أساسه، ولكن ذلك لا يعني أن يرفض الآخر أو يحقره أو يكفره. فالشريف شيعي مؤمن بمذهب أهل البيت عليهم السلام يعمل على نشر فضائلهم، ويتغنى بتاريخهم، ويتألم لآلامهم ولكن ذلك لا يمنع من احترام الآخرين وتحليلهم فيقول عن يوم (الغددير):

غدر السرور بنا وكان
يوم أطاف به الوصي
ويقول عنه أيضاً:

لله در اليوم ما أشرفا
ساق الينا فيه رب العلى
وخص بالأمر علينا وإن
ودر ما كان به أعرفا
ما أمراض الأعداء أو أتلفا
بدل من بدل أو حرّفا

١. عبقرية الشريف الرضي ج ١ ص ١٩٣.

إن كان قولاً كافياً فالذي قيل له بلغ فإن لم يكن

قال بخم وحده قد كفى مبلغاً عن ربه ما وفي^١

ويفتخر به فيقول:

على مثل هذا اليوم تخنى الرواجب
وطلت بما نلناه أجنحة الورى
وقال اناس هالم مارأوالنا
وقصيدته في التأوه على فاجعة كربلاء سارت بها الركبان ويقول فيها:

كربلا لازلت كرباً وبلا
كم على تربك لناصرعوا

ما لقي عنك آل المصطفى
من دم سال ومن دمع جرى

ونجده يمدح الفاطميين رغم أنه كان يعيش في دولة العباسيين فيقول:

وطاغ يعير البغي غرب لسانه
شنتت عليه الحق حتى رددته
يُبدل بغير الله عضداً وناصراً
يُعير رب الخير بالي عظامه
ولكن رأى سب النبي غنيمَةً
ولو كان بين الفاطميين رفرفت

وليس له عن جانب الحق ذائد
صموتاً وفي انيابه القول راقد
وناصررك الرحمن والمجد عاضد
إلا تزهت تلك العظام البوائد
وما حوله إلا مريب وجاحد
عليه العوالي والظبا والسواعد

وربما يصح ما قيل: ان اهتمامه بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحض للمفتريات التي وجهت إلى التشيع والتي ادعت أن الشيعة لا يهتمون بالقرآن والحديث، ومن هنا نفهم أن الشريف المؤلف كان معلماً عظيماً. وكان من الساهرين على

١. مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج ٢، ص ٢٢.

٢. الديوان تحقيق المحامي ج ١ ص ٣٥.

رعاية الوحدة الإسلامية وهو بالتكريم خليق^١.

ومع كل ذلك فإن موضوعيته وعلميته كانت تسمو على شخصيته المذهبية، وقد اهتم بدراسة مذهب الإمام الشافعي تماماً كما رأينا تلميذ مدرسته الشيخ العظيم الطوسي يهتم به ويطرحة في كتاب الخلاف حتى عدّه المرحوم السبكي من علماء الشافعية^٢ ويبدو أن حالة التسامح هذه كانت سمة عامة آنذاك فقد ألف السيد المرتضى (الناصريات) وفاء لجدّه الناصر وهو زيدي المذهب مركزاً على نقاط الوفاق، وربما أيد الرأي الآخر حيث يقول مثلاً: «ويقوى في نفسي - عاجلاً إلى أن يقع التأمل في ذلك - صحة ما ذهب إليه الشافعي»^٣.

ومن الجميل أن نجد أن العلاقة بينه وبين أبي اسحق الصابي بلغت شأواً بعيداً، مع اختلاف الدين والعمر وقد رثاه بقصيدة رائعة يقول في مطلعها:

أرأيت من حملوا على الأعواد أرأيت كيف خبا ضياء النادي
ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى أن الثرى يعلو على الأطواد

ثالثاً: بين خلق الشعراء وأدب العلماء وعفتهم

فصحيح أن خلق الشعراء وخيالهم ينجح بهم إلى الطرف والغزل والنسيب والجمال حتى في أقدس اللحظات والحج والحجاز في موردنا أقدس الأماكن ولكنه في شخص شريفنا لا يتجاوز الصورة الشعرية ولا يعبر العفة والخلق الرفيع، بل يمتلئ شعره بالوعظ والتربية الحلقية. وهو ما نلمحه في كثير من العلماء وحتى العرفاء والربانيين. وربما عبروا به عن وله بمعشوقهم الأصيل.

وإن المرء ليعيش روعة الحب العذري وعلو الروح والصورة عندما يعيش مع حجازيات الشريف وغيرها من شعره الغزلي البدوي الحضري الأصيل.

ولا تزال الأبيات التالية تتردد عبر العصور وهي تصف حالة وداع ديار الحبيب:

١. عبقرية الشريف الرضي المبارك، ج ١، ص ٢٠٠.

٢. طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ٥١.

٣. مقدمة كتاب الناصريات ص ٤٣.

ولقد وقفت على ديارهم
فبكيته حتى ضجج من لغب
وتلفتت عيني فمذخفيت
وينطلق الخيال معه وهو يقول:

إن الذي غمر الرقاد وساده
لولا هواك لما ذللت وإنما
أو يقول:

أبكي ويسم والدجى ما بيننا
قمر إذا استخجلته بعتابه
قد كنت أجزيك الصدود بمثله

ولكن العفة تطفح في شعره فتوازن المسيرة فيقول:

عفاف كما شاء الإله يسرني
ويقول:

وإذا هممت بمن احب أمالي
ويقوله:

يعف عن الفحشاء ذلي كأنها
ويقول:

أنا من علمتن الغداة نقيّة

وشعره في بث روح العمل والخلق الحسن والعزيمة كثير فهو يقول:
ينال الفتى من دهره قدر نفسه
وتأتي على قدر الرجال المكابد
ويقول:

ما الفقر عار وإن كسفت عورته
ويقول:

أزري وضامنة العفاف مآزري

وإنما العار مال غير محمود

يقدّم الباسل الأبى على	الحتف وفيه عند الهوان نكول
ويقوله:	
وما واثق بالدهر إلا كراقد	على فضل ثوب الظل والظل يسرع
ويقول:	
بالجدلا بالمساعي يبلغ الشرف	تمشي الجدود باقوام وان وقفوا
ويقول:	
وما جمعي الأموال إلا غنيمة	لمن عاش بعدي واتهام لخالقي

إلى غير ذلك مما يشعرنا بنفس الزاهد المربي الحصيف.

والحقيقة إن معالم التوازن في هذه الشخصية العظيمة كثيرة؛ من قبيل ما نلاحظه من توازن بين البداوة والحضارة، وبين تحمل الاضطهاد وعلو النفس، وبين الاعتداد بالأصل والعشيرة ونبد الأقارب العاقين وغير ذلك فلنكتف بما أوردناه.

وفي ختام هذا المقال أشعر بكثير من التقصير من قبل كتابنا ومحققينا تجاه هذه الشخصية الفذة فليعوض الجميع ذلك والله الموفق.

الشهيدان: نموذج لتعامل علماء المذاهب فيما بينهم (مع التركيز على الشهيدين الأول والثاني)

رغم احتدام الخلاف الفكري بين العلماء من اتباع المذاهب نلاحظ في كثير من الأحيان علاقات صفاء ومحبة وتمازج عجيب إلى حد كبير، حيث يدرس بعضهم على بعض، ويدرس البعض فقه المذاهب الأخرى، وينقل مناهجهم إلى مذهبه ويطلب بعضهم الإجازة من البعض الآخر. وهناك مجموعة رائعة من كتب الفقه المقارن، حيث يتم نقل رائع لآراء الآخرين. ولقد جاء كتاب الخلاف لشيخ الطائفة الطوسي «المتوفى سنة ٤٦٠هـ» أروع مثال على ذلك وقد نقل بكل أمانة آراء المذاهب الأخرى وبالتفصيل ومنها آراء المذهب الشافعي إلى الحد الذي ظن السبكي معه أنه من علماء المذهب الشافعي وذكره في طبقاتهم رغم اعترافه بأنه فقيه الشيعة ومصنفهم ولكنه يقول عنه (كان ينتمي إلى مذهب الشافعي).^١

وهناك ظاهرة غريبة نلمحها في بعض العلماء فتعبر لنا عن امتزاج عجيب بين المذاهب، وقد عبروا عن ابن الفوطي (توفي ٧٢٣) وهو صاحب (معجم الألقاب) وكان قياً على أعظم مكتبة في عصره عبروا عنه بأنه كان شيعياً حنبلياً. كما ذكر الشيخ وهبة الزحيلي^٢ بأن الطوفي المعروف بدفاعه الشديد عن أصل (المصالح المرسله) هو من غلاة الشيعة متبعاً في ذلك ابن رجب الذي عدّه من علمائهم. في حين أن الطوفي كان من علماء الحنابلة في القرن الثامن.^٣ ودفاعه عن هذا

١. طبقات الشافعية الكبرى للشيخ تاج الدين تقي الدين السبكي ج ٣ ص ٥١.

٢. في بحثه المقدم إلى ندوة الفقه الإسلامي بمسقط (شعبان ١٤٠٨هـ).

٣. مصادر التشريع ص ٨٠.

(الأصل) الذي يرفضه الشيعة، وعدم ذكره في فهارس علماء الشيعة يؤيدان كونه حنبلياً. وهذا محمد ابن أبي بكر السكاكيني العالم الشيعي المعروف كان كل مشايخه من أهل السنة. وقد خرّج له ابن الفخر علاء الدين ابن تيمية (المتوفي سنة ٧٠١) ما رواه عن شيوخه وناظره وشهد له بالتفوق وقال عنه: (هو من يتشيع به السني ويتسنن به الرافضي) وقد نسخ صحيح البخاري بيده، وهو صاحب القصيدة المعروفة ومطلعها:

أيامعشر الإسلام ذمي دينكم تخير دّلوه بأوضح حجة

وهو صاحب (الطوائف في معرفة الطوائف) الذي مزقه السبكي وأحرقه.

ولورجعنا إلى كتب طبقات الحنابلة لرأينا التقارب العجيب فهذا المحيي كبير السنة في دمشق يمدح البهاء العاملي عالم الشيعة المعروف فيقول عنه (كما في خلاصة الأثر): وهو أحق من كل حقيق بذكر أخباره ونشر مزاياه، واتحاف العالم بفضائله وبدائعه، وكان أمة مستقلة في الأخذ بأطراف العلوم والتضلع بدقائق الفنون، وما أظن الزمان سمح بمثله ولا جاد بنده وبالجملة فلم تشنف الاسماع بأعجب من أخباره.

وقد ذكر الخطيب البغدادي أن سيرة سلف السنة هو الأخذ بروايات الثقات من الشيعة^١. ومن المعروف أن الشيخ الطوسي كان له مشايخ من أهل السنة ومنهم: أبو الحسن بن سوار المغربي، ومحمد بن سنان، والقاضي أبو القاسم التنوخي^٢ وعده صاحب (الرياض) من الشيعة. والحديث في هذا الباب يطول.

وقد ذكر آية الله السبحاني^٣ نماذج جيدة في هذا المجال من قبيل: أن الشيخ الكليني - وهو أحد كبار المحدثين الشيعة قد تتلمذ على يد أستاذين سنيين هما: أبو الحسن السمرقندي والخفاف النيسابوري، ومنها أن الشيخ الصدوق اقام لعدة سنوات في بلخ وبخارى ونقل الحديث عن ٢٦٠ شيخاً منهم بعض أهل السنة كما أن بعض مشايخ الخطيب البغدادي كمحمد بن طلحة النعالي وغيره نقلوا الحديث عنه، وان علماء كل الطوائف كانوا يحضرون

١. الكفاية في علم الرواية ص ١٢٥.

٢. راجع (الاجازة الكبيرة) للعلامة الحلبي.

٣. راجع مقال سماحة الشيخ السبحاني في مجلة (نصوص معاصرة) تحت عنوان (الانسجام الإسلامي) العدد العاشر ص ٩١.

مجلس الشيخ المفيد (م: ٤١٣هـ)، ومنها أن السيد المرتضى كان مفزع علماء العراق - كما يقول ابن بسام الاندلسي في اواخر كتاب (الذخيرة)، ومنها أن شيخ الطائفة الطوسي (م: ٤٦٠هـ) نقل الرواية عن أبي علي بن شاذان وأبي منصور السكرّي، ومنها أن الشيخ ابن إدريس الحلّي كان يتعاون مع أحد فقهاء الشافعية علمياً، وأن الشيخ الرافعي القزويني السني تتلمذ على الشيخ منتجب الدين الرازي الشيعي ومدحه، ومنها أن الفيروز آبادي صاحب (القاموس المحيط) يصف الشيخ فخر المحققين ابن العلامة الحلّي بأنه «بحر العلوم وطود العلي فخر الدين محمد بن الشيخ الإمام الأعظم برهان علماء الأمم»، وأن كتاب (تجريد الاعتقاد) للشيخ نصير الدين الطوسي الشيعي شرحه ثلاثة من علماء أهل السنة وهم: شمس الدين البيهقي وشمس الدين الاصفهاني وعلاء الدين القوشجي، ويقوم المحقق الاردبيلي بتدريس كتاب «مختصر في الأصول» لابن الحاجب لتلميذه صاحب المدارك وصاحب المعالم، وقد شرح العلامة الحلّي هذا الكتاب بشكل جميل حتى وصفه ابن حجر بأنه «في غاية الحسن في حل الفاظه وتقريب معانيه»^١.

ويمكننا أن نضيف هنا بالمناسبة أن المحقق الحلّي وهو خال العلامة الحلّي وأستاذه أَلَّف كتاب (المعتبر في شرح المختصر) ويشكل موسوعة موجزة للفقهاء المقارن^٢، ولم يستطع اتمامه. ومن الجميل فيه أنه أحياناً يسترسل مع الفقه السني ويستعمل نفس أسلوبه ومنهجه من قبيل:

١ - ما جاء في مسألة عدم تنجس الكر وتقدير الكر من قوله: «لنا ما رواه الجمهور عن النبي ﷺ»^٣.

٢ - ما جاء في مسألة تنجس ماء البئر بملاقات النجاسة من قوله: «ويدل عليه النقل المستفيض عن الصحابة بإيجاب الترح. روى الجمهور عن علي عليه السلام «في الفأرة تقع في البئر تترح منها دلاء» وينقل ما يؤيده عن الخلال وعن الحسن البصري وأبي سعيد الخدري وابن عباس ويقول: «ولم ينكر ذلك أحد من أهل ذلك العصر»^٤.

١. الدرر الكامنة لابن حجر ج ٢ ص ٧١.

٢. كما يعبر آية الله مكارم شيرازي في مقدمته على الكتاب.

٣. المعتبر ج ١ ص ٤٤ منشورات مؤسسة سيد الشهداء قم.

٤. ن. م. ص ٥٥.

٣- ماجاء في طهارة الميتة مما لا نفس له سائلة من قوله: «وقال الشافعي نجس بالموت وينجس ما يموت فيه عدا السمك. لنا ما رواه الجمهور... لا يقال: طعن الترمذي في هذا الحديث... لانا نقول: صححه جماعة ورووه عن المشاهير فزال به الطعن...»^١.

٤- وفي مسألة تعدد الغسل في الوضوء، من قوله: «لنا ما رواه البخاري عن ابن عباس... وأما استحباب الثانية فلما رواه الترمذي عن أبي هريرة...»^٢.

الشهيدان الأول والثاني نموذجان رائعان للانفتاح على المذاهب الأخرى:

ويعتبر الشهيد الأول وهو محمد بن جمال الدين مكّي العاملي الجزيني، من علماء القرن الثامن، والشهيد الثاني وهو زين الدين بن علي العاملي الجبعي من علماء القرن العاشر، يعتبران مثلين رائعين من أمثلة الانفتاح والتمازج الفكري بين العلماء رغم أنهما كانا نموذجين بارزين من أمثلة ما يؤدي إليه التطرف المذهبي من نتائج فجيعة.

فهذا الشهيد الأول يعيش مع علماء عصره، وكان مجلسه «لا يخلو غالباً من علماء الجمهور لخلطته بهم وصحبته لهم»^٣، وقد قال في بعض اجازاته (أنه يروي عن نحو أربعين شيخاً منهم)^٤ وهي إجازته لابن الخازن حيث جاء فيها (فاني أروي عن نحو اربعين شيخاً من علمائهم بمكة والمدينة ودار السلام بغداد ومصر ودمشق وبيت المقدس، ومقام الخليل إبراهيم عليه السلام)^٥.

ومن اساتذته القاضي ابن جماع. حيث درس عنده في المدينة سنة ٧٥٤ كتاب الكشاف للزمخشري. وكان عليه السلام كما يقول المرحوم صاحب الرياض: «يشتغل بتدريس كتب المخالفين ويقرئهم»^٦. ومما يذكر له أنه افتى بترجيح الصلاة خلف العالم السنّي على الجماعة التي يؤمها شيعي عندما يخير

١. ن.م ص ١٠١.

٢. ن.م ص ١٥٨.

٣. اعيان الشيعة للسيد محسن العاملي ج ١٠ ص ٦٢.

٤. ن.م، وذكر ذلك في أمل الأمل ج ١ ص ١٠٣.

٥. سفينة البحار ج ١ ص ٧٢١.

٦. رياض العلماء ج ٥ ص ١٨٥.

الشيعة بينهما فقال: «ويستحب حضور جماعة العامة كالخاصة بل أفضل، فقد روي: «من صلى معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله ﷺ فيه»^١ ويتأكد مع المجاورة»^٢. وهذا الشهيد الثاني كان يذكر الصحابة بكل احترام فهو يقول: «ورجعت إلى وطني الأول بعد قضاء الواجب من الحج والعمرة والتمتع بزيارة النبي وآله وأصحابه صلوات الله عليهم...»^٣، وقد اجتمع إلى جملة من علماء السنة؛ ففي سفره إلى مصر اجتمع مع «الشيخ الفاضل شمس الدين بن طولون الدمشقي وقرأ عليه جملة من الصحيحين في الصالحية بالمدرسة السليمية واجيز منه بروايتها كما اشتغل بها على جماعة منهم الشيخ شهاب الدين احمد الرملي الشافعي (ت: عام ٩٥٧) وقرأ عليه (منهاج النووي) في الفقه، وأكثر (مختصر الأصول) لابن الحاجب وكتباً أخرى كثيرة، ومنهم والشيخ الملا حسين الجرجاني وقرأ عليه جملة من (شرح التجريد) للقوشجي وغيره، ومنهم الشيخ شهاب الدين بن النجار الحنبلي وقرأ عليه وسمع منه كتباً كثيرة منها الصحيحان، واستجازه، ومنهم الشيخ زين الدين الحري المالكي وغيرهم»^٤.

ثم سافر إلى بيت المقدس في ذي الحجة (٩٤٨هـ) واجتمع بالشيخ شمس الدين بن أبي اللطيف المقدسي وقرأ عليه بعض صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وأجازة إجازة عامة^٥ ثم رجع إلى وطنه واشتغل بمطالعة العلوم ومذاكرته مستفرغاً. وسعه وفي سنة ٩٥٢هـ سافر إلى بلاد الروم ودخل القسطنطينية في ١٧ ربيع الأول ولم يجتمع مع أحد من الأعيان إلى ثمانية عشر يوماً، وكتب في خلالها رسالة في عشرة مباحث من عشرة علوم وأوصلها إلى قاضي العسكر محمد بن محمد بن قاضي زاده الرومي فوقعته منه موقعاً حسناً، وكان رجلاً فاضلاً، واتفق بينهما مباحثات في مسائل كثيرة... واجتمع فيها بالسيد عبدالرحيم العباسي صاحب معاهد التنصيص وأخذ منه شطراً... وأقام ببعلبك يدرس في المذاهب الخمسة واشتهر أمره وصار مرجع الأنام

١. وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٣٨١.

٢. الدروس الشرعية - طبعة مشهد - ج ١ ص ١٩٣ ولعله يقصد بالمجاورة جوار بيت السكن.

٣. اعيان الشيعة ج ٧ ص ١٥٠.

٤. وهو ما صرح هو به في ترجمة نفسه بقلمه. راجع رسائل الشهيد الثاني المطبوع بقم ص ٨٦٦.

٥. ن. م. ص ٨٦٩.

ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها...»^١ وذكر الأستاذ القزويني أنه؛ افتى في (المدرسة النورية) ببلبك لمدة ثلاث سنوات من ٩٥٣ حتى ٩٥٥ هـ يدرس المذاهب الخمسة^٢. ووصف الشهيد نفسه أيامه هناك بأنها كانت أياماً ميمونة وواقاتاً بهيجة ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها^٣ وذكر تلميذه ابن العودي بعض ذكرياته فقال: «كنت في خدمته تلك الأيام، ولا أنسى وهو في أعلى مقام ومرجع الأنام وملاذ الخاص والعام، ومفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها، ويدرس في المذاهب كتبها، وكان له في المسجد الأعظم بها درس مضافاً إلى ما ذكر، وصار أهل البلد كلهم في انقياده، ومن وراء مراده، بقلوب مخلصه في الوداد، وحسن الإقبال والاعتقاد، وقام سوق العلم بها على طبق المراد، ورجعت إليه الفضلاء من اقاصي البلاد» ورحل إلى مصر وقرأ بها على ستة عشر رجلاً من أكابر علمائهم وقد ذكرهم مفصلاً، ويبدو أنه استجازهم وروى كتبهم. ويقول صاحب رياض العلماء «ويظهر منه ومن إجازة الشيخ حسن وإجازات والده أنه قرأ على جماعة كثيرين جداً من علماء العامة، وقرأ عندهم كثيراً من كتبهم في الفقه والحديث والأصول وغير ذلك، وروى جميع كتبهم وكذلك فعل الشهيد الأول والعلامة»^٤.

وذكر هو - أي الشهيد - بعض هؤلاء:

من قبيل الشيخ زين الدين الجرمي المالكي

والشيخ ناصر الدين اللقاني

والشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي

والشيخ شمس الدين محمد بن أبي النحاس

وقال ابن العودي تلميذه: كثيراً ما كان ينعت هذا الشيخ يعني ابن أبي النحاس بالصلاح

وحسن الأخلاق والتواضع.^٥

١. الكنى واللقاب ج ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٣.

٢. تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية ص ٣٣٤.

٣. الدر المنثور لعلني بن محمد العاملي. ج ٢ ص ١٨٢.

٤. رياض العلماء ج، ص ٣٦٥.

٥. اعيان الشيعة ج ٧ ص ١٤٩.

والحديث مفصل في هذا المجال ويمكن أن يشمل مسألة التركيز على المقاصد الشرعية، ومسألة النقل الروائي الكثير من كتب أهل السنة وهي ظاهرة في كتب الشهيد، وكذلك مسألة التركيز على الفقه المقارن بأسلوب موضوعي، وكذلك مسألة نقد بعض الاتجاهات الفقهية المذهبية الخاصة بكل شجاعة كما نجده في مسألة نقد من يقول بالوجوب التخيري لصلاة الجمعة حيث يرى الشهيد الثاني أن السر في تهاون البعض فيها يكمن في أن الذين يقيمونها - أي صلاة الجمعة - في العصور السابقة كانوا منصوبين من أئمة الضلال ممن لا يصح الاقتداء بهم مما قلل الاهتمام بها لينقلب الوجوب العيني لديهم إلى التخيري (لوجه نرجو من الله أن يعذرهم فيه) ويضيف: «وما كان حق هذه الفريضة المعظمة أن يبلغ بها هذا المقدار من التهاون» ونقل هذا الرأي عن الإمام عماد الدين الطبري المعاصر للمحقق نصير الدين الطوسي^١، وكذلك ما نشهده من التأكيد على عدم تحريف القرآن.

وكان هذا المسلك لم يرق لبعض العلماء وخصوصاً للاخباريين منهم فابدوا عدم رضاهم به^٢ وقد اتهمه البعض بالميل إلى التسنن^٣.

وربما جاء الاتهام لأنه قام بعمل فريد إذ اعتمد منهج أهل السنة في علم الدراية وطبقه في المجال الشيعي^٤؛ يقول صاحب الرياض: «ثم اعلم أن الشيخ زين الدين هذا هو أول من نقل علم الدراية من كتب العامة وطريقتهم إلى كتب الخاصة، وألف فيه الرسالة المشهورة ثم شرحها كما صرح به جماعة ممن تأخر عنه، ويلوح من كتب الأصحاب أيضاً، ثم الف بعده تلميذه الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي وبعده ولده الشيخ البهائي وهكذا...»^٥

١. راجع رسالته في (صلاة الجمعة) المطبوعة في كتاب (رسائل الشهيد الثاني - نشر مركز الأبحاث والدراسات بقم - إيران - ص ١٨٨).

٢. راجع مثلاً، أمل الأمل ج ١ ص ٩٠ ورياض العلماء ج ٢ ص ٣٦٥ ومعجم رجال الحديث ج ٧ ص ٣٧٨.

٣. كما ذكر ذلك المحدث الجزائري في كتابه (الجواهر الغوالي في شرح عوالي اللآلي) نقلاً عن بعض اولاد الشهيد الثاني (راجع مقال المحققين لكتاب (منية المرید) ص ٤٣).

٤. ومن ذلك التقسيم الرباعي للحديث إلى: صحيح وحسن وموثق وضعيف. وإن أرجح البعض ذلك إلى عصر جمال الدين بن طائوس أو قبله (راجع مقالاً بهذا الشأن في كتاب (مجموعة مقالات مؤتمر الشهيدين ص ٤١٩) ولكن الشهيد الثاني يعد مطوراً لمثل هذه الدراسات عند الإمامية بلا ريب.

٥. رياض العلماء ج ٢ ص ٣٦٥.

وهنا يقول العلامة الامين: «والعلامة والشهيدان أجل قدرًا من أن يقلدوا أحدا في مثل هذه المسائل أو تقودهم قراءة كتب غيرهم إلى اتباع ما فيها بدون برهان وهم رؤساء المذهب ومؤسسوا قواعده وبهم اقتدى فيه أهله ومنهم أخذوه، وإنما أخذوا اصطلاحات العامة ووضعوها لأحاديثهم غيرة على المذهب لما لم يروا مانعاً من ذلك، وكذلك فعلوا في أصول الفقه وفي الإجماع وغيره كما بين في محله وكذلك في فن الدراية وغيره «وكيف يكون عدم رضا الشيخ حسن بما فعلوا لهذه العلة وهو قد تبعهم وزاد عليهم»^١.

وهكذا نجد التعامل الايجابي البناء بين القادة:

- احترام يصل إلى حد التكريم الرفيع.
 - وعبارات المودة والمحبة سائدة رغم النقد العلمي احياناً،
 - وانبهار واحترام يفوق الوصف،
 - وعلماء الفريقين يشرح بعضهم كتاب الآخر،
 - وإرجاع من امام إلى امام،
 - وتدريس البعض وافتاؤه الناس بالمذهب الآخر،
 - واعتراف بالفضل والعلم بأروع التعابير،
 - وإلحاح على التعلم رغم الوضع السياسي الحرج،
 - واستجازة البعض من البعض الآخر ورواية كتبه،
 - واخيراً عدم الإصرار على الراي، ورد للمنقول عنهم إذا لم يوافق الكتاب والسنة.
 - وامتزاج إلى حد عدم تبيين المذهب لدى البعض،
 - وحرية في الاجتهاد وقبول بالتعددية وانفتاح على الآخر،
 - ونقل المنهج العلمي لدى الآخر إلى علوم المذهب،
- فهل يا ترى تقتضي العقلانية غير ذلك؟ وهل احتفظ اتباع الأئمة بمثل هذه الروح بعد ذلك؟!

١. اعيان الشيعة ج ٧ ص ١٥٧.

الحالة الطائفية اللاعقلانية

إننا نجد الأمة - بكل اسف - بعد ابتعادها عن تلك العصور اتجهت نحو حالات طائفية بغيضة فسرعان ما ساد التعصب والانغلاق، وتقليد المجتهدين لغيرهم «حتى آل بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل وسيلة من التأويلات البعيدة، نصره لمذهبه ولقوله»^١.

ونقل الفخر الرازي عن أكبر شيوخه أنه قال: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون الي كالمتعجب - يعني كيف يمكن العمل بطواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها- ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا»^٢.

وقد ذكر الشيخ أسد حيدر اقوالاً أخرى من هذا القبيل^٣. وربما كان اغلاق الاجتهاد وحصر المذاهب نتيجة وعاملاً على المزيد من ذلك.

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، وانما انتقل إلى مرحلة نقل الصراع من مرحلة (الخطأ والصواب) إلى مستوى (الكفر والإيمان)، الأمر الذي نقل الخلاف إلى الجماهير العريضة، وتسبب في كوارث يشيب لها الوليد.

واشتد الهجوم على العلوم العقلية والمتعاطين بها سواء بين الشيعة^٤. أو السنة^٥. وراحت التهم تطال المذاهب والآراء فتصفها بالهالكه، وأنها مجوس الأمة وامثال ذلك، وزاد الخلاف على الفرعيات والانشغال بها وهكذا^٦.

١. مختصر المؤمل لشهاب الدين ابي شامة، ص ١٤.

٢. التفسير الكبير، ج ١٦، ص ٣١ في تفسير الآية ٣١، من سورة التوبة .

٣. الإمام الصادق والمذاهب الاربعة طبعة مجمع اهل البيت، ج ٣، ص ١٩٢ .

٤. راجع كتاب (المعالم الجديدة لعلم الاصول) للامام السيد محمد باقر الصدر .

٥. راجع مقال الأستاذ الطويل في كتاب قضية الفلسفة، ص ٢١١.

٦. راجع كتاب (قصة الطوائف) للدكتور الانصاري، فصل الحقبة الطائفية، ص ١٨٥.

وزاد تدخل الحكام (وكانت البلاد قد تحولت إلى اقطاعات كبيرة) الطين بلة (ومع كل جائحة من عداوة وغضب، اسرفت تم النبذ والتحرير والتكفير والرمي بالباطل ضد الآخر مقدمة للقتل واحراق الممتلكات واتلاف كتب أصحاب المذاهب ومؤلفات فقهاءها ونشر الرعب والكراهية.

وفي تاريخ الجائحات تكررت همجية البطش مع كل سلطة جديدة مرة ضد الشيعة، ومرة ضد السنة...^١.

ولنا أن نراجع ما ذكره ياقوت من التقاتل بين اتباع المذاهب.

كما لنا أن نتذكر أن الصراع بين الصفويين والعثمانيين - وكل منهما يتمترس خلف خلفية مذهبية - دام أربعة قرون واورث الأمة خراباً ودماراً، واضعفا امام عدوها الغربي.

وسنكتفي بذكر نص للشيخ الطوفي من أئمة الحنابلة ذكره للاستدلال على مبدأ (المصالح المرسله) مقدماً اياه على النصوص والإجماع، لأنه رأى أن النصوص متعارضة، والاجتهادات متضاربة، والاحاديث الموضوعه كثيرة. وفي هذا السياق يذكر بعض انماط الصراع في تلك العصور فيقول: «ان المالكية استقلت في المغرب، والحنفية بالمشرق، فلا يقار أحد المذهبين احداً من غيره في بلاده الاعلى وجه ما. وحتى بلغنا أن أهل جيلان من الحنابلة إذا دخل اليهم حنفي قتلوه، وجعلوا ماله فيئاً، حكمهم في الكفار، وحتى بلغنا أن بعض بلاد ماوراء النهر من بلاد الحنفية كان فيه مسجد واحد للشافعية، وكان والي البلد يخرج كل يوم لصلاة الصبح فيرى ذلك المسجد فيقول: أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ فلم يزل كذلك، حتى اصبح يوماً وقد سد باب ذلك المسجد بالطين واللين فاعجب الوالي ذلك»^٢. ولكن الأمة بوعي علمائها تخلصت من افرازات عصور النزاع هذه.

غير أننا في الآونة الاخيرة شهدنا عودة غريبة لهذه الحركة سببها عدو الأمة القديم الجديد وهو الاستعمار والاستكبار العالمي، الذي يعيش باستمرارها جس الصحوة الإسلامية، ويخاف منها على مصالحه الاستعمارية.

١. ن.م. ص ٢١٩.

٢. رسالة الطوفي، ص ١١٦.

فهو في هذه الفترة الزمنية، وبعد أن مني بالهزائم المتتالية في نقاط متنوعة من العالم الإسلامي كافغانستان والعراق ولبنان وفلسطين والصومال، وبعد فشل مشاريعه الواحد تلو الآخر، راح يخطط لآحياء النعرات الطائفية، ويحسس رجال كل مذهب بضرورة الدفاع وتحريك الاشكال على الآخر.

ولا ريب أنه - وكما هو الحال دائماً - استفاد من ذوي التعصب وهواة التكفير ومن الجهلاء بالمصالح، وبعد ذلك من العملاء الذين نصبهم في المنطقة، ليصنوا له نفوذه، ويحققوا له مايطمح اليه، بل واستفاد من العدو الصهيوني الغادر ليحقق تنفيذاً واسعاً للخطة الطائفية، ويعطي النزاعات السياسية في الأصل بعداً طائفيماً مقيتاً.

ويبقى أن يتبته العلماء والعقلاء لهذا التآمر فيعملوا على افشاله والحد من آثاره، والله ولي التوفيق.

العلامة ابن ميثم: نظرة إلى مقدمته في شرح نهج البلاغة

عندما رحلت أطلع بعض مؤلفات هذا العالم الجليل، لفتت نظري مقدمته المفصلة لشرحه لنهج البلاغة، ورأيت فيها كنوزاً معرفية نافعة جداً، مما يستدعي التركيز على هذه المقدمة وبيان بعض معالمها.

وإنني لأزعم أن المقدمة هي بنفسها كتاب كامل مستقل، بل إن كلاً من قواعدها الثلاث تشكل بنفسها كتاباً متكاملًا ينبغي أن يدرس بعمق وروية.

وقد شهدنا بعض العلماء يتبعون نفس المنهج بكتابه مقدمات لها وحدها قيمتها المستقلة، ولا أدل على ذلك من مقدمة ابن خلدون¹ التي انتهى من كتابتها عام ٧٧٩هـ في حين توفي شيخنا ابن ميثم عام ٦٧٩هـ مما يكشف عن شهرة هذا المنهج آنذاك. ورغم أن المقدمتين تتحدثان عن موضوعين مختلفين إلا أن كثرة التفرع هي الطابع السائد في المقدمتين إلى الحد الذي يضيع معه القارئ، وينسى الأصل الذي تشعب منه الفصول والأبحاث وهو أمر اعتبره محلاً بالمقصود ومتعباً للقراء.

وعلى أي حال فقد جاءت مقدمة كتابه في شرح نهج البلاغة كثيرة التفرع، وقد ركزت على قواعده المهمة ثلاث:

١. يعلق الدكتور عبداللطيف سعيد على المقدمة الرائعة التي كتبها المرحوم مصطفى صادق الرافعي لكتابه المشهور (المسكين) قائلاً: «ولكن والله ما رأيت فيه أروع من المقدمة ولا أشمل لغرض الكتاب منها... وليس ذلك بغريب. ومن قبل عاشت مقدمات كتب وماتت الكتب. ولعل أوضح مثال على ذلك مقدمة ابن خلدون التي هي مقدمة لكتاب تاريخ واجتماع، ضاع الكتاب وسقط من ذاكرة العلماء وبقيت المقدمة فلا يقال الا: مقدمة ابن خلدون، ولا يقال مقدمته لكذا... فالمقدم له قد امحى وبقيت المقدمة (مصطفى صادق الرافعي: حياته وأدبه ومعاركه الادبية ومنطقاته، ص ١٩٦).

الأولى: في مباحث الألفاظ.

والثانية: في الخطابة^١.

والثالثة: في أنّ علياً عليه السلام استجمع الصفات الإنسانية^٢. وذلك لانتصال هذه القواعد بشرح كلام الإمام عليه السلام وإدراك مقصوده، وما نحاوله في هذا البحث هو عرض هذه القواعد؛ لأنّها تكشف عن سعة اطلاع الشيخ وعمقه الأصولي، ثم ذكر بعض التعليقات الموجزة.

القاعدة الأولى:

وقد بحث فيها عن دلالات الألفاظ وأقسامها وأحكامها أولاً، ثم تبيّن بذكر الكيفيات التي تلحق الألفاظ فتزيّنّها وتعدها لأداء المعاني^٣.

فكان القسم الأول بحثاً عن الدلالات وقد قسّمه إلى فصول، فبحث في الفصل الأول: عن دلالة اللفظ على المعنى، فاعتبر أنّ دلالة اللفظ على تمام مسماه هي دلالة وضعية جاءت بوضع الواضع، أمّا دلالته على جزء مسماه من حيث هو جزؤه، وكذلك دلالته على ما يلازم المعنى في الذهن (كالضاحك اللازم لمفهوم الإنسان) فنسب إلى الفخر الرازي وغيره كونها دلالة بالعقل، ولكنّه ردّ عليهم مؤكّداً أنّها دلالة تعتمد العقل والوضع.

وطبيعي أنّه في الدلالة التضمنية يعتبر كون المعنى مركباً، وإلاّ لما تم تصور الجزئية، أمّا في الدلالة الالتزامية فلا ضرورة للتركيب.

ثم ذكر أنّ الدلالة الحقيقية هي الدلالة الوضعية الصرفة، أمّا الدلالتان الأخريان فليستا حقيقيتين ولا مجازيتين؛ لأنّ من شرط المجاز استعمال اللفظ في غير ما وضع له استعمالاً مقصوداً بالذات، وانتقال الذهن إلى الأجزاء وأجزائها، واللوازم ولوازمها، بشكل عرضي وطبيعي. فالدلالة - إذن - لا تنحصر في الحقيقية والمجازية إلاّ إذا تدخلت الإرادة، وربما كان بهذا يشير إلى أنّ الدلالة قد تكون تصورية تحدث بشكل عفوي لدى الذهن، وهي لا تتبع الإرادة. فإذا تصور

١. المقدمة، ص ٦٠.

٢. المصدر السابق، ص ٧٥.

٣. المصدر نفسه، ص ١٨.

الذهن تمام المعنى كانت الدلالة حقيقية، أما إذا تصور جزءاً أو لازمه فإنّ الدلالة ليست مجازية ولا حقيقية. وعندما تتدخل الإرادة فإذا كانت في مقام الثبوت كانت استعمالية، وإذا كانت جدية سمّيت إرادة جدية أو دلالة تصديقية ثانية. ثم تحدّث الشيخ عن اللفظ المفرد، فإذا كان مجرد تصور معناه مانعاً عن الشركة فيه فهو الجزئي، وإلاّ فهو الكلّي، وذكر بعض التقسيمات لذلك.

وفي الفصل الثاني راح يدرس مسألة تعدّد اللفظ والمعنى ووحدتها، والأقسام المتصورة في ذلك، ممّا ينتج تقسيمات إلى المتواطئ (كالإنسان بالنسبة لأفراده)، والمشكك (كالوجود) والعلم (كزبد) وهكذا، وبعد ذلك ذكر أنّ اللفظ المفرد قد يكون حرفاً إذا لم يستقلّ معناه بالمفهومية، وقد يكون فعلاً إذا استقلّ ودلّ على الزمان، وإلاّ فهو الاسم، وتابع هذا التقسيم: أمّا المركّب فأما أن يكون قابلاً للتصديق والتكذيب فهو الخبر، وإلاّ فهو الإنشاء... واستمر يتابع تشقيقاته وتعريفاته. أمّا في الفصل الثالث فراح يبحث في الاشتقاق وحقيقته، وهل يجوز صدق المشتقّ منفكاً عن صدق المشتقّ منه أم لا؟

ودخل في المسألة الأصولية المعروفة وهي (هل يصدق إطلاق المشتق مع انقضاء مبدئه؟ وقد اختار صدق ذلك مستدلاً بإطلاق أهل اللغة، وأنّه لا يلزم من نفي الخاص نفي العام (الضرب الفعلي ومطلق الضرب)، وأنّ المشتقات من المصادر السيّالة.

والحقيقة أنّ الأقوال في المسألة كثيرة، والاختلاف قديم، فقد ذهب المعتزلة وجماعة من متأخري الإمامية إلى أنّ المشتق حقيقة في المتلبس ومجاز في غيره، وذهب الأشاعرة وجماعة من متقدمي الإمامية إلى أنّه حقيقة في كليهما^١ وهو مختار شيخنا ابن ميثم، واستدلّ أصحاب الرأي الأول بأدلة منها:

١- التبادر .

٢- أنّ القول بالوضع للأعم يؤدي لانتفاء التضاد بين الأوصاف الاشتقاقية (عالم وجاهل).

٣- صحة سلب المشتق فيما لو انقضى المبدأ.

١. تراجع المصادر التالية: الكفاية للمرحوم الآخوند ج ١ ص ٥٦، فوائد الاصول ج ١ ص ٨٣، نهاية الأفكار، ج ١ ص ١٨، بحوث في علم الاصول، ج ١، ص ٣٦٣ وغيرها.

٤- أن مدلول المشتق أمر بسيط لا يعقل وضعه للأعم ولا جامع لحالتي التلبس وعدمه. وعلى أي حال فإن المشهور هو القول الأول، وهناك بحوث أخرى. ثم إن الشيخ طرح مسائل أخرى ترتبط بالبحث وانتقل إلى الحديث عن الترادف والتوكيد متحدّثاً عن ماهيتها أولاً، وعن أسباب حصول الترادف في اللغة، معتبراً أن أكثر الأسباب هو اختلاف التسمية بين قبيلتين، ثم تساءل عن إمكان إقامة كل واحد من المترادفين مقام الآخر، كما تحدّث عن أقسام التوكيد وأدواته وحسن استعماله، وبحث كذلك في الاشتراك وحقيقته وإمكانه ووجوده وأقسامه وأسبابه وإمكان استعماله في جميع معانيه، وذكر الخلاف القديم فيه مع ذكر أدلة كل طرف، واختار هو المنع، وردّ على حجج المجوزين، والمسألة أصولية معروفة تترتب عليها نتائج مهمة. وأعقب ذلك بالبحث عن أن المشترك يبقى مجملاً ما لم تكن هناك قرينة، وإلى هنا أنصّب حديثه على دلالات الألفاظ وأقسامها وأحكامها.

أمّا القسم الثاني فقد ركّز فيه على الكيفيات التي تلحق الألفاظ فترينها وتعدّها لأداء المعاني. وقد قدّم لذلك ببحث عن حدّ البلاغة باعتبارها بلوغ العبارة أقصى المراد من غير إيجاز مخلّ ولا تطويل مملّ، وحدّ الفصاحة باعتبارها خلوص الكلام من التعقيد، وبحث عن موضوع علم الفصاحة والبلاغة. وبعد المقدمة تحدّث أولاً عن المفردات اللغوية وفصل في بحوثها بما يمكن أن يشكّل مادة دراسية مفصّلة، مدعمة بالتقسيمات والتطبيقات والشواهد الشعرية. وربّما كان في غنى عن ذلك وهو يكتب مقدمةً لكتابه.

وتحدّث ثانياً عن النظم بين المفردات في جمل مناسبة، وذكر هنا في أقسام النظم (المطابقة، والمقابلة، والمزاوجة، والاعتراض، والالتفات، والاقتناس، والتلميح، والتعديد، والتنسيق، والإبهام، ومراعاة النظر، والمدح الموجه، والمحتمل للضدين، وتجاهل العارف، والسؤال والجواب، والحذف، والتعجب، والإغراق، وحسن التعليل) وذكر لها أمثلة من القرآن والسنة ونهج البلاغة والشعر. واعتبرها أساليب بلاغية مبتكرة تاركاً الباب مفتوحاً للمبدعين^١.

١. المقدمة، ص ٥١.

وعقب ذلك في الحديث عن التقديم والتأخير بشكل مفصّل. وكذلك تحدّث عن الحذف والاضمار، وأحكام إنّ وإنّما، وأنهى البحث في القاعدة الأولى في ستين صفحة تقريباً.

أما القاعدة الثانية:

فهي تتحدّث عن الخطابة أو ما نصلح عليه اليوم بالخطاب الإسلامي، ويتحدّث فيها عن عناصر مهمة، هي:

الأول: الإقناع للجمهور المخاطب باعتبار أنّ المسيرة الإنسانية إنّما تدوم بالمشاركة، والمشاركة تحتاج للحوار، وهو يقوم على قيم ويحتاج إلى الثقة المتبادلة، ويجب أن يقوم الخطاب بهذه الأدوار عبر ألفاظ مأنوسة للعامة، وفي إطار الحكمة والموعظة الحسنة .

الثاني: التعميم وطرح الأمور العامة العقائدية والسياسية، واعتماد سبيل الاستشهاد بالشواهد لتحقيق الإقناع، وانتخاب أفضل صوت وأنسب حالة.

الثالث: اعتماد مبادئ الخطابة وهي المشهورات المحمودة الحقيقية (ويقصد بها ما تدعو إليه الفطرة من حسن وقبح) والظاهرية، ثم المقبولات كالأقوال المنقولة عن الكبار والأمثال، ثم المظنونات العرفية التي لا يصاحبها جزم.

الرابع: ملاحظة الأهداف والانسجام معها، فقد يكون المراد النصيحة وقد يراد التنفير، وقد يقصد الهجوم.

الخامس: اعتماد الأساليب المؤثرة المناسبة لمقتضى الحال.

السادس: اعتماد محسّنات الخطاب كال فصاحة وعدم التعقيد، ومراعاة روابط الكلام من قبيل: التكرار، وعدم الفصل بين الجملتين بفواصل طويلة، ومراعاة التقديم والتأخير، واعتماد السجع أحياناً وهكذا. وفي ختام الكلام عن القاعدة يذكّر بالهدفية، وأنّ علياً عليه السلام إنّما أراد أن يقوم بدوره إماماً هادياً مربّياً ومديراً لدولته.

أما القاعدة الثالثة:

فقد ركّز فيها على فضائل أمير المؤمنين عليه السلام فذكرها في فصول:

ففي الفصل الأول ذكر ما يلي:

أولاً: فضله النسبي

ثانياً: سبقه إلى الإسلام

ثالثاً: جهاده

رابعاً: مصاهرته للرسول ﷺ

خامساً: تربيته لسيدي شباب أهل الجنة

سادساً: ما ورد في فضله من أحاديث نبوية شريفة، وهنا فصل في القول

سابعاً: ما جاء في كلامه من معارف جليلة واسعة

ثامناً: انتساب العلماء والطوائف إليه

وذكر في الفصل الثاني فضائله النفسية، فتحدّث عن:

أ- كمال قوته النظرية والإيمانية

ب- قوته العملية وثباته على الخطّ المستقيم المتوازن.

وتحدّث في الفصل الثالث عن كرامته التي منحها الله له، كإخباره بالغيبات، تعلّمًا من

رسول الله ﷺ واستعداداً نفسياً لذلك، كما تحدّث عن صدور الأعمال الخارقة عنه؛ كقلع

باب خيبر وغيره.

وفي ختام المقدمة تحدّث باختصار عن السيد الشريف الرضي؛ وعن مقدمته لنهج البلاغة.

ملاحظات سريعة

وبعد هذا العرض السريع الذي حاولت أن أبرز فيه الهيكل الذي يشكّل هذه المقدمة أ طرح

هذه الملاحظات:

أولاً: أذكر بما قلته في مطلع المقال من أنّ هذا التقسيم والتفريع الكثير، والإدغام في المباحث يعقد

الأمر على القارئ، ولذلك أدعو إلى برمجة المقدمة وطباعتها طبعة فنية تسهل الأمر وتعين الروابط.

ثانياً: أنّ المقدمة تكشف عن شخصية علمية موسوعية رائعة، فالشيخ ابن ميثم يبدو عبر

مقدّمته عالماً في الفقه والأصول والأدب والبلاغة والحديث والتفسير والتاريخ والكلام وغير

ذلك، ممّا يعطي هذا الشرح مقاماً خاصاً لدى أهل العلم.

ثالثاً: حاولنا أثناء العرض الإشارة إلى آرائه الأصولية في مباحث الألفاظ، ووضّحنا بعض

الشيء ما يرتبط بها. وكنا نتمنى لو اطلعنا على نظرياته الأصولية بشكل مفصل، ولكن كتاباته ضاعت علينا ولم يسعفنا البحث بشيء.

رابعاً: اعتقد أن الكثير مما طرح من تعريفات وبحوث وتقسيات يعدّ من المقدمات البعيدة لمعرفة نهج البلاغة، وهي تتناسب مع كتاب مستقلّ يؤلّف في تلك العلوم، لا مع مقدمة لشرح كلام الإمام عليه السلام.

خامساً: من أجل البحوث في المقدمة حديثه عن الخطابة والخطاب الإسلامي وعناصره وأهدافه، والعلاقة بين الإقناع والمشاركة والحوار وظروفه الموضوعية، ومنها تحقّق الثقة المتبادلة واللغة الرصينة، بعيداً عن الإثارة والدخول في مسارات لا تتسجم مع الهدف، وتركيزه على الأساليب الفطرية والمشهورات المحمودة. وكلّ هذه أمور يحتاجها الخطاب الإسلامي في كلّ عصر.

سادساً: ورغم أنّ عصره كان يعجّ بالأفكار المتطرفة والسطحية في تلقي الأخبار والغلو في الأئمة الطاهرين أحياناً، فإننا نلاحظ أنّ الشيخ كان أصولياً في منهجه، معتدلاً في آرائه، غير مغال في وصف الإمام علي عليه السلام حتى عندما يتحدّث عن علمه بالمغيبات فإنّه يرجع ذلك إلى استعداده النفسي الرفيع لتلقّي هذه المعلومات من رسول الله ﷺ، وهذا المنهج ملحوظ في شرحه لنهج البلاغة.

وفي الختام:

أدعو للبحث المستمر في أبعاد هذه الشخصية التي مازالت غامضة من قبيل علاقاته بالمدارس العلمية آنذاك في كلّ من العراق وإيران ولبنان، وكذلك لا بدّ من كشف مواقفه السياسية آنذاك من قبيل علاقته بالدولة التتيرية في بغداد، وخصوصاً علاء الدين عطا ملك ابن بهاء الدين محمد الجويني. ومن الجوانب المخفية علاقاته بمشايخه الكبار؛ كالمحقّق الحليّ صاحب (الشرائع) و(المختصر النافع) المتوفّي سنة ٦٧٦هـ، وكذلك علاقته بالعالم الموسوعي الفيلسوف نصير الدين الطوسي فهي مشوبة بالغموض، فلا يعلم اهو أستاذه أم تلميذه؟ وكلّ هذه جوانب جديرة بالبحث والتنقيب لاستكشاف أبعاد هذه الشخصية الغدّة.

السيد جمال الدين: الخطة الوحيدة والصحة الإسلامية

فمهما طال الحديث عن هذه الشخصية الفذة فإنه سيظلّ يتحفنا بجوانب مهمة ترتبط بواقعنا ومستقبلنا تمام الارتباط، ذلك أنّ هذا الرجل أدرك بعمق أدواء هذه الأمة وراح يجتهد في تقديم العلاج، وإذا كان لم يستطع أن يحقق طموحاته، فإنّ حلوله مازالت حية قوية ترعب أعداء هذه الأمة وتؤرقهم، وتفتح أمام الواعين المتحرّقين سبلاً واسعة للخلاص.

لقد عاش السيد - وهكذا كان يوقع أحياناً - وضعاً كثيباً مرت به الأمة الإسلامية في القرن التاسع عشر الميلادي وبذل أقصى الجهد متنقلاً من بلد إلى بلد، تاركاً كلّ افتخار وانشداد وطني وقومي وعائلي، ناذراً نفسه للإسلام أينما كان، مسخراً كل طاقاته المتفجرة للنهضة والصحة، مخطّطاً تخطيطاً إستراتيجياً لإنقاذ الأمة من واقعها الأليم.

صورة الواقع الأليم ونقاط الضعف

لقد نظر السيد في أوضاع الأمة فرآها كثيبة، وشخص أهم نقاط ضعفها في الأمور التالية:
أولاً: الاحتلال الغربي والاستعمار، فلم تكن هناك أرض إسلامية تسلم منه إلا إيران والدولة العثمانية وبعض المناطق الأخرى.

ثانياً: هدر الطاقات، وضعف النفوس، وتناقلها عن حمل الرسالة.

ثالثاً: انتشار الفساد الخلقي القاتل.

رابعاً: انتشار عناصر التفرقة الممزقة مذهبياً وقومياً وحزبياً.

خامساً: التخلف في جميع المجالات العلمية والاقتصادية والاجتماعية.

سادساً: التحجّر الفكري والتعصب والتكفير وشيوع الأفكار المخدرة كالجبرية.

سابعاً: الاستبداد وضعف الشورى، وعدم المشاركة الشعبية. وكانت علّة العلل - في رأيه - في كلّ هذه الأمور تكمن في ابتعاد هذه الأمة عن دينها وعدم تطبيقها لتعاليم الدين الحنيف، ممّا أدى بها إلى الحالة السيئة الممزّقة. وكان من الطبيعي أن يخطّط إستراتيجياً وهو البصير النقاد للإنقاذ.

والإستراتيجية - كما نعلم - تنطلق من حمل رسالة معيّنة، إلى تعيين أفق منظور وعملي ومحسوس وجذاب له قدرة تنسيق كل النشاطات، وتنظيم كل القطاعات لتحقيق تلك الرسالة، وبالتالي تتطلّب تعيين الخطّة العملية للوصول لذلك الأفق المنظور. وكلّ هذا نجده في تخطيط السيد جمال الدين. أمّا الرسالة فكانت تتلخّص في إنقاذ الأمة من ما هي عليه. وأمّا الأفق المنظور فيتلخّص في تقريب الأمة من مجتمع صدر الرسالة، من حيث القيادة الواعية الرسالية، والمجتمع المتلاحم المطيع لها، القوي في عزمته العارف لأهدافه.

وأما السياسات والخطوات التي يجب أن تتبع فهي: التركيز على التوعية بالإسلام وتعاليمه، وإحياء دور العلماء، والعمل على التوحيد وتنظيم طاقات الأمة وتحريك الأحاسيس ضد أعدائها. ومن هنا دعا إلى الأمور التالية:

أولاً: التركيز على عودة الأمة لإسلامها، فهو الحلّ الناجع لكلّ أدوائها، يقول: «فعالجهما الناجع إنّما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية... ولأنّ جرثومة الدين متأصلة في النفوس.. فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلّا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح»^١.

وهو بهذا يقرّر حقيقة قائمة وهي أنّ النفوس مؤمنة إجمالاً، ويحتاج الأمر إلى توعية شاملة حتى تتحرك بسرعة نحو الهدف، في حين أنّ الأطروحات الغربية كالقومية والاشتراكية حتى لو أعطيت عنواناً عربياً لا تستطيع أن تنمو في هذه التربة، ممّا يفسّر فشلها الذريع.^٢

ثانياً: دعوة العلماء والمفكرين لاستعادة دورهم الاجتماعي عبر تقريهم بعضهم إلى البعض الآخر

١. الآثار الكاملة: العروة الوثقى، ص ١١٤.

٢. وهذا ما أشار السيد الصدر كما سيأتي في هذا المقال.

وتلاهمهم، ثم القيام بواجبهم وتنسيق جهودهم الدعوية، وتنسيق العمل في مراكزهم ومساجدهم. ثالثاً: تكوين الجمعيات والتشكيلات الإسلامية لتشكّل العرق النابض في الأمة، وقد قام هو بتشكيل جمعيات (العروة) منذ إقامته في مدينة (كلكتا) بالهند، وعمل على نشر فروعها في شتى أنحاء العالم، وكان يرسل من يقوم بتشكيلها إلى مختلف المناطق.

وربما كانت مجلة (العروة الوثقى) التي كان يصدرها من باريس بدعم مالي من المخلصين من أنحاء العالم الإسلامي الناطق الرسمي باسم هذه الجمعيات.

رابعاً: الدعوة إلى إقامة مؤتمر إسلامي في مكة المكرمة يتركّب من العلماء ومندوبي الدول الإسلامية، مستفيدين من قدسية المكان وأنوار موسم الحج محيين لهذه الشعيرة، متدارسين لمشاكلهم وحلولها، معلنين نتائج بحوثهم أمام جماهير الأمة.

والحقيقة أنّ هذه الشعيرة عبّئت في التعاليم الإسلامية لمثل هذه الأغراض، ولكن سوء الفهم أفقدها هذا التأثير؛ ومع ذلك فقد كان الاستعمار الهولندي مثلاً يشعر بارتفاع وتيرة التحرك ضده بعد عودة الحجّاج، لذا حاول إرسال بعض عملائه لمعرفة سرّ ذلك؛ عملاً منه على إدامة احتلاله الذي طال ثلاثمائة عام في أندونيسيا.

وهذه الفكرة أكّد عليها تلامذته؛ كالكوكبي وعبدّه ومن بعده رشيد رضا وغيرهم. خامساً: الدعوة الحثيثة لنفي تأثيرات العوامل التمزيقية للأمة من قبيل النعرات القومية، والاختلافات المذهبية، كما يحدث باستمرار بين الشيعة والسنة، والتركيز على التعاون في نقاط الاشتراك الكثيرة وتقديم مصالح الأمة على المصالح الضيقة. وكان يقدم التجربة الألمانية الموّحدة للأمة رغم اختلاف المذاهب فيها.^١

ومن الأمور التي ركّز عليها نفي التعصّب الأعمى الذي يؤدّي لطائفية قاتلة، وتكفير للآخرين بأية ذريعة، وبالتالي تعظم الخلافات. كما كان يدعو لرفض الأمور الاستفزازية المنفرة. سادساً: ورأى السيد أنّ فقدان المعنويات والفضائل الأخلاقية، وانتشار مظاهر الرذيلة والفساد هي أكبر عوامل الانهيار الاجتماعي، ولذا دعا لمحاربة الرذائل ونشر الفضائل لاستعادة التوازن إلى الجماهير.

١. جمال الدين، الأعمال الكاملة، تحقيق محمد عمارة، ص ٢٦٩.

سابعاً: ورغم أنه كان يرى أنّ الوحدة الإسلامية العملية الكاملة بما فيها وحدة القيادة في هذه الأمة، وأن لا جنسية لهذه الأمة إلا بالدين،^١ إلا أنه وإذعاناً للواقع ركّز على تضامن الحكومات الإسلامية والتزامها بالأخوة الإسلامية وتطبيق تعاليم الإسلام، بل حاول أن يتدرج في توحيد الأراضي الإسلامية بالدعوة إلى اتحاد إيران وأفغانستان - وهو ما كرره مراراً في نداءاته، بل دعا الدولة العثمانية للاتحاد مع الهند وبلوجستان وإيران وأفغانستان وتركمنستان ودول آسيا الوسطى ضد روسية، وتعهّد بالعمل على ذلك دعماً للدولة العثمانية التي كانت تمثل الدولة الإسلامية القوية آنذاك، وقد رحل إلى الأستانة ليدعم نظريته، وأرسل رسائل بهذا الخصوص إلى مختلف الدول والشخصيات، وتلقّى إجابات إيجابية من قبل مختلف الدول والشخصيات، وقد ذكر أنه تلقّى مائتي رسالة من هذا النوع من قبل علماء إيران والعراق، ولكن المشروع لم يحقق أهدافه لأنّ الدولة العثمانية كانت تتنّ تحت مشاكلها، والانجليز يعملون بكلّ جدّ لإفشال هذه المشاريع، وقد تواصلت المؤامرات ضد السيد حتى قضت عليه وعلى مشروعه.

ثامناً: ربّي السيد جمال الدين ثلّة من المفكرين والعلماء المؤمنين بأفكاره والساعين لتحقيقها حتى عاد بيته محوراً ومرجعاً لهؤلاء العاشقين له ممّا ألّب العثمانيين أنفسهم عليه، وكان من تلامذته أو تلامذة مدرسته شيوخ الأزهر والكواكبي والشيخ عبدالقادر المغربي، والأمير شكيب أرسلان، والشيخ حسين الجسر، ومولانا أبوالكلام آزاد، وإقبال، وكثير من علماء العالم الإسلامي ليكونوا جميعاً الحياة الصحية التي يرادها أن تسري في عروق الأمة.

تاسعاً: وكانت أهم خطته محاربة الاستعمار البغيض الجاثم على صدر الأمة، وذلك من رؤيته الدقيقة للأحداث وإطلاعه على الأمور، وجهاده ومثابرتة وأسفاره إلى الشرق والغرب، وكان الاستعمار يرصده ويرصد تحركاته بدقة، وقد سجّل كتاب كباراً تحركاته ضد الاستعمار بكلّ دقة. لقد ركّز على فضح خطط الاستعمار وأساليبه ومؤامراته، ونشر الوعي بخططه الجهنمية في أنحاء العالم الإسلامي: الهند وشمال أفريقية، وأندونيسيا وماليزيا، وآسية الوسطى

١. المجموعة الكاملة، ص ٢٦.

٢. من قبيل: د. غنايت. د. محيط الطباطبائي، د. أحمد أمين، د. الجبلاوي د. محمود محمود، الأستاذ مزيناني، الأستاذ خسرو شاهي وغيرهم.

وغيرها، وركّز بالخصوص على الاستعمار الإنجليزي وهو أخطر أنواع الاستعمار، وكشف خطته المستقبلية، وهو ما تحقّق بعد موت السيد من القضاء على الدولة العثمانية واحتلال كلّ الأرض الإسلامية في الربع الأول من القرن العشرين.

وقد اعتبر الصراع ضد الاحتلال من أهم الواجبات، وبذل في سبيل التحسيس بهذا الواجب كلّ جهوده وأحيا روح الجهاد، وعزّة الأمة وقوتها وغيرها على وجودها وثقتها، ورفض الاتجاه التغريبي لدى عملاء الغرب في العالم الإسلامي، كما رفض كل عوامل التمزيق والتخدير والتبئيس، وحاول أن يعمل على تربية الجيل المسلم المقاوم فلسفياً وعقائدياً واقتصادياً. كما أنّه دعا الحكّام إلى التضامن والاستفادة من فرص التنافس بين المستعمرين الجشعين.

كل ذلك كان تحت مراقبة الاستعمار وعيونه، فسخرّ عملاءه من الكتّاب والسياسيين، والمتنورين ضده، فاتهموه بشتى التهم، ومنها العمالة للاستعمار، وتبّعه الاستعمار في كلّ مكان، في مصر التي قضى فيها ثماني سنوات (١٢٨٨ - ١٢٩٦ هـ. ق) وأوجد نهضة إصلاحية كبرى ضايقه الاستعمار وأبعد هو وتلميذه محمد عبده، وفي الهند حيث أبعده بدأ نشاطه التوعوي أيضاً ضيقوا عليه إلى الحدّ الذي اضطر معه إلى السفر إلى أوروبا، حيث بدأ ينشر أفكاره هو وتلميذه محمد عبده، فمنعوا أيضاً نشر مجلة (العروة الوثقى) في بلدانهم، ثم منعوها مطلقاً من النشر بعد أن أصدرت ١٨ عدداً خلال ٨ أشهر (١٥ ج، ١٣٠١ هـ إلى ٢٦ ذي الحجة من نفس العام) وكان لها القدح المعلى في نشر أفكاره.

وهكذا لاحقه الاستعمار إلى إيران وروسية وغيرها. أمّا التهم ضده فحدّث عنها ولا حرج، فقد اتهم بالبهائية، والماسونية (وكان قد انتمى إليها ظناً منه أنّها ستحدث تغييراً، فلمّا عرف حقيقتها رفضها) والعمالة والإلحاد وغير ذلك.

جمال الدين والصحة الإسلامية

نستطيع بحقّ أن ندّعي أنّ السيد كان من أكبر عوامل نشر الصحة الإسلامية وترشيدها في العالم الإسلامي. وكانت أفكاره ونشاطاته الواسعة قد هيأت العالم الإسلامي للثورة الكبرى ضد الاستعمار، واستعادة دوره الحضاري والنهوض من كبوته.

ورغم أثره العظيم فإنّ وفاته في (٩ مارس ١٨٩٧ - ٧ شوال ١٣١٤ هـ) تركت فراغاً كبيراً في العالم الإسلامي.

فلقد خطّط الاستعمار للقضاء على الدولة العثمانية، ونجح في تحقيق ذلك عام ١٩٢٤، كما خطّط لاحتلال كل العالم الإسلامي تقريباً، وقد تسنّى له ذلك بعد الحرب العالمية الأولى، كما خطّط لزرع الكيان الصهيوني في قلب العالم الإسلامي وحقق حلمه عام ١٩٤٧. ومع كل ذلك فقد ظلّ هاجس الصحوة الإسلامية يؤرقه، وشبح السيد جمال الدين يطارده، ولذا ظلّ الكتاب الغربيون وعملاؤهم في المنطقة يشكّكون في نواياه. وظلّ يركّز على الثلاثي المرعب في العالم الإسلامي وهو (التخلّف والتمزّق والعلمانية) بكل الأساليب.

وقد حاولت الكاتبة الغربية شيرين هاتر في كتابها الجديد (مستقبل الإسلام والغرب) أن تشوّه الدور الإصلاحي للسيد جمال الدين وتلميذه الإمام محمد عبده وتصفها بالنفاق، مستندة للجواب الفاتر (كما تعبّر) للمرحوم السيد علي هجوم (رينان) على الإسلام، وترى أنّه استخدم (التقية) في ذلك، وتعمل على إرجاع عوامل الصحوة إلى تمزق النسيج الاجتماعي القائم في القرن الثامن عشر ممّا أدى إلى نشوء اتجاهين متخالفين: (اتجاه العودة للإسلام، إمّا بشكل حر في كالاتجاه السلفي أو بشكل مرن كمدرسة إقبال، واتجاه السير مع الغرب).

وهكذا تحذف دور السيد جمال الدين في هذه المعركة ممّا يعبّر عن وجل مستمر لدى الكتاب الغربيين. والحقيقة أنّ الصحوة الإسلامية في الأساس جاءت لتردّ على العناصر الثلاثة الماضية (التخلّف، والتمزّق، والعلمانية)، ولتحقق العودة إلى الإسلام بكل مقتضياته؛ فالإسلام دين التقدم، يدعو إلى العلم بشتى أنواعه، ويطلب من الأمة الإسلامية أن تحقّق كل عناصر القوة، وأن تبذل أقصى جهدها لتكون خير الأمم، وتكون في الطليعة الحضارية للناس، والتخلّف حالة غير طبيعية مطلقاً.

والإسلام دين الوحدة الإسلامية، والتخطيط الإسلامي للوحدة واضح تماماً، فالقانون واحد، والقائد واحد، والعواطف واحدة، والشعارات والعبادات واحدة، وثروات الأمة هي ملك كل الأمة، وقد جعلت لها قواماً وقياماً، وحقوق المسلمين جميعاً متكافئة، لا بل قد يشترك كل المسلمين في بعض أنواع الملكية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة شاملان لكل المسلمين، والمسلمون جميعاً مسؤولون عن مجموع الأمة وحدودها مسؤولية مشتركة.

أمّا الحالة الراهنة، والتبريرات التي تساق لها فهي كلها استثناءات يجب أن يعمل الجميع على

حذفها في النهاية، والعودة إلى واقع الإسلام. ولا نجد عالماً أو حتى مجرد مطلع على حقيقة الإسلام يجادل في هذه الحقيقة الواضحة.

والإسلام دين الحياة - كما قلنا - فلا يمكن أن ينسجم مع العلمنة بأيّ تعريف جاءت، وأية صفة اتخذت، إيجابية أم سلبية، أما الاستناد إلى التجارب القائمة فهو مجرد خداع؛ لأنها تجارب مفروضة على العالم الإسلامي، ومتنافية مع حقيقة الإسلام.

وقد نستطيع أن نؤيد الكاتبة في بعض عباراتها فنركّز على أن رغبة العالم الإسلامي في تحقيق عنصر (التفوق) باعتباره سرّ الصراع بين الإسلام والغرب، ولكن الذي يجب التركيز عليه أن الرغبة في التفوق عامل طبيعي يعمل على تطوير الحياة الإنسانية في كل المجالات إذا اتخذ منحىً إيجابياً تنافسياً. كما يؤدي كغيره من العوامل الطبيعية إلى الخراب والدمار والظلم إذا اكتسب الصفة السلبية، واعتمد عامل الحذف بالقوة والهيمنة ومحو الآخرين، كما نجده اليوم في العولمة والتعامل الغربي مع المسلمين.

إنّ الصحة الإسلامية - إذن - تدعو للتفوق الإسلامي الحضاري، فلا ينبغي أن يثير ذلك حفيظة الآخرين إن كانوا يملكون الروح الرياضية الحضارية، وآتى لهذه الروح أن تسود.

أما عن عوامل هذه الصحة فلا نتوقّع للكاتبة أن تكشف لنا عن العوامل الحقيقية، ولذلك تلجأ إلى العوامل الجانبية وربما تسطح فكرها هي عندما تطرح فكرة الحسد، وتغيّر العلاقات وأمثالها.

إنّنا نتصور هذه العوامل - على ضوء دراساتنا للساحة - كما يلي:

أولاً: طاقات الإسلام الذاتية التي لا تفتأ تمدّ المسلمين بدوافع التغيير، وتشدّد على الحفاظ على الهوية الحضارية بعد أن أعطتها معالمها الشاملة، بل وتدفع دائماً على الحفاظ على التفوق أو استعادته إذا فقد. وقد مرّ بنا القول: إنّ كل أساليب التمييع سوف تبقى آثارها وقتية؛ لأنّ الإسلام بطبيعته يدعو للوحدة ويرفض العلمنة.

والكاتبة تتردد في إشارتها لهذا العامل، فتارة تعترف به وأخرى تحاول أن تقلّل من أهميته.

ثانياً: اشتداد الحملة الأوربية على العالم الإسلامي بحيث استباح الغرب كل الثروات، واستعمر معظم البلاد، واعتدى على الهوية الثقافية، بل راح يهاجم المكونات العقائدية والأخلاقية، وينشر الرذائل، ويمزق النسيج الاجتماعي من خلال عملائه الحقيقيين أو الثقافيين،

ويزرع الكيان الصهيوني الغاصب في قلب العالم الإسلامي. ولا ريب أن حملة من هذا القبيل سوف تواجه برّد فعلٍ قوي من أمة يبقى الإسلام فيها حياً، رغم عمليات القضاء عليه. ولا نريد أن نطيل في الحديث عن هذا العامل لوضوح أبعاده، ووضوح حقيقة أن الاحتلال يستتبع المقاومة بثتى ألوانها. ولعلّ الغرب شعر بهذه الحقيقة حين حاول التنفيس والاستعاضة عن ذلك بإعطاء الاستقلال السوري لبعض المناطق الإسلامية. ولكن هذا العمل بنفسه وفرّ فرصةً لنمو الصحوة الإسلامية بشكل واسع، وانطراح الإحساس الإسلامي بالإسلام الشمولي في الستينات، واتساعه بشكل مرعب للغرب في السبعينات والثمانينات.

ثالثاً: فشل كل الحلول والأطروحات البديلة للمقاومة والتغيير، لأنها كانت تحمل في داخلها عناصر فشلها. لقد فشلت الأطروحة القومية الضيقة رغم التطويل والتزوير، ورغم نزولها المبكر إلى الساحة وتحقيقها الكثير من الأهداف الغربية، ومسحها الكثير من السمات الإسلامية في تركيا وغيرها؛ ذلك لأنها لا تنسجم مع الطبيعة الإسلامية التي تتجاوز القوميات.

كما فشلت الاشتراكية لأنها اعتمدت على أسس إحادية رغم تمتّعها ببعض الشعارات المنسجمة مع بعض التعاليم الإسلامية؛ كالعدالة الاجتماعية والدفاع عن المحرومين ومعاداة الاستعمار. وفشل الشكل التركيبي (الاشتراكي القومي) أيضاً؛ لأنه تركيب وهمي لا ينسجم مع الحس الإسلامي، ولا يعبر عن أية إضافة معرفية.

وهنا أودّ الإشارة بشكل وافٍ إلى التحليل الرصين الذي كتبه أستاذنا الشهيد الإمام محمد باقر الصدر حول هذا الموضوع حيث قال: (إنّ الأمة على الصعيد الإسلامي وهي تعيش جهادها ضد تخلفها وانهارها، وتحاول التحرك السياسي والاجتماعي نحو وجود أفضل وكيان أرسخ واقتصاد أغنى وأرفه، سوف لن تجد أمامها عقيب سلسلة من محاولات الخطأ والصواب إلاّ طريقاً واحداً للتحرك وهو التحرك في الخطّ الإسلامي) ويضيف: (حينما أخذ العالم الإسلامي يفتح على حياة الإنسان الأوربي، ويدعن لإمامته الفكرية وقيادته لموكب الحضارة بدلاً عن إيمانه برسائله الأصيلة وقيمومتها على الحياة البشرية، بدأ يدرك دوره في الحياة ضمن إطار التقسيم التقليدي لبلاد العالم الذي درج عليه الإنسان الأوربي، حين قسّم العالم على أساس المستوى الاقتصادي للبلد، وقدرته المنتجة إلى بلاد راقية اقتصادياً وبلاد فقيرة أو متخلفة اقتصادياً، وكانت بلاد العالم الإسلامي كلّها من القسم الثاني).

وبعد أن ذكر أن العالم الإسلامي ظنَّ أن الخلاص يكمن في تبعية الغرب، راح يجد هذه التبعية بالتبعية السياسية، والاقتصادية والمنهجية التي تمثّلت إمّا في الاقتصاد الاشتراكي، أو في الاقتصاد الرأسمالي، وكان لكل من المنهجين ما يبرّره، بعد هذا راح ينتقد أولئك الذين يغفلون - عند محاولتهم تطبيق خطة ما - العامل النفسي للأمة (فلا بد للأمة بحكم ظروفها النفسية التي خلقها عصر الاستعمار وانكماشها تجاه ما يتصل به أن تقيم نهضتها الحديثة على أساس نظام اجتماعي ومعالم حضارية لا تمت إلى بلاد المستعمرين بنسب) وكان الحلّ المقترح هو اتخاذ القومية فلسفة وقاعدة للحضارة، ولكن القومية (ليست إلاّ رابطة تاريخية ولغوية، وليست فلسفة ذات مبادئ ولا عقيدة. فنادت بالاشتراكية العربية تغطية للواقع الأجنبي المتمثّل في الاشتراكية من الناحية التاريخية والفكرية، وهي تغطية فاشلة لا تنجح في استغلال حساسية الأمة، لأنّ هذا الإطار القلق ليس إلاّ مجرد تأطير ظاهري وشكلي للمضمون الأجنبي)... (ولا يمكن لدعاة الاشتراكية العربية أن يميّزوا الفوارق الأصلية بين اشتراكية عربية واشتراكية فارسية واشتراكية تركية) ويقول بالتالي: (وبالرغم من أنّ دعاة الاشتراكية العربية قد فشلوا في تقديم مضمون حقيقي جديد لهذه الاشتراكية عن طريق تأطيرها بالإطار العربي، فإنهم أكّدوا بموقفهم هذا تلك الحقيقة التي قلناها، وهي أنّ الأمة بحكم حساسيتها الناتجة عن عصر الاستعمار لا يمكن بناء نهضتها الحديثة إلاّ على أساس قاعدة أصيلة لا ترتبط في ذهن الأمة ببلاد المستعمرين أنفسهم). ويقول عن الإسلام الذي يواجه هذه الأطروحات: (إنّ هذه القوة مهملتها قدرنا لها من تفكّك وانحلال نتيجة لعمل الاستعمار ضدها في العالم الإسلامي، لا يزال لها أثرها الكبير في توجيه السلوك، وخلق المشاعر، وتحديد النظرة نحو الأشياء)^١.

ونعود إلى الكاتبة لنجدها أحياناً تشير لهذا العامل حين تؤكّد أنّ العلمانية حقّقت نصراً زائفاً خلال خمسين عاماً، ولم تستطع أن تحقّق الطموح، وعاد التمسك بالإسلام هو الحلّ.

رابعاً: ظهور شخصيات توعوية كبرى كان لها الأثر المتفاوت في إيجاد هذه الصحة أو مقدماتها أو ترشيدها، أو إعطائها طاقات حماسية وفكرية، أو منحها الثقة بنفسها والأمل الواعد

١. اقتصادنا، المقدمة.

بمستقبلها الحتمي، إضافة للوعود الإلهية الحتمية بانتصار المؤمنين، والمستضعفين، وحلول العدل الشامل وظهور المصلح المنتظر عليه السلام.

ويمكننا أن ندرج في قائمة هذه الشخصيات الكثير من الكبار، من أمثال المرحوم السيد الاسدآبادي (الأفغاني) - وإن حاولت الكاتبة التشكيك في إخلاصه - والمرحوم محمد عبده - وقد شككت فيه أيضاً، بل جعلته عاملاً على اتجاه بعض تلامذته للعلمنة - والمرحوم الميرزا النائيني، والمرحوم كاشف الغطاء، والمرحوم الإمام الخميني، والمرحوم سيد قطب، والمرحوم الإمام الصدر، والمرحوم المطهري، والمرحوم الغزالي، والمرحوم البهشتي، وغيرهم كثير.

خامساً: ويجب أن لا ننسى دور التطورات والحوادث الكبرى في إذكاء هذه الصحوحة من قبيل:

١- تنامي مستوى وسائل الاتصال، والحركة المعلوماتية ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

٢- ارتفاع مستوى التعليم الإسلامي.

٣- تطور أساليب الدعوة إلى الإسلام.

٤- توفّر بعض أجواء الحرية في العالم الإسلامي.

٥- اشتداد حركة مقارعة الاستعمار.

٦- قيام المؤسسات الدولية الإنسانية المدافعة عن حقوق الإنسان، والداعية لتنظيم العلاقات

الدولية على أسس إنسانية .

٧- حدوث بعض الحوادث المروعة كإحراق المسجد الأقصى أو هزيمة عام ٦٧ .

٨- انتصار الثورة الإسلامية الكبرى في إيران، وانتصار المجاهدين الأفغان على الاتحاد السوفيتي.

٩- انهيار الاتحاد السوفيتي وتحزّر الدول الإسلامية.

وغير ذلك من التطورات التي ساهمت في اتساع الصحوحة الإسلامية ونشر مفاهيمها،

ودعوتها في رفض التخلف والتمزق والعلمنة، والعودة إلى الحلّ الإسلامي الذي لا بديل له.

ومن الجدير بالإشارة إليه: أنّ الغرب لم يأل جهداً في إجهاض الصحوحة، ومقابلتها،

وإلهائها واتهامها بشتى التهم من قبيل: (التخلف والرجعية، والتطرّف والأصولية، والعنف

والإرهاب، والعمل ضد الديمقراطية - والحرية، وضرب حقوق الإنسان)، ولم يعدم من قدّم

له الذرائع من المسلمين ممن عرض فكراً رجعياً، أو سلك مسلكاً متطرّفاً، أو عمل عملاً

إرهابياً، أو قاوم الديمقراطية والحرية أو نقض حقوق الإنسان. ولكن الواضح تماماً أنّ هؤلاء لا يمثلون الاتجاه الإسلامي العام، فضلاً عن أن يكون سلوكهم ممثلاً للصحة الإسلامية أو معبراً عن روح الإسلام وتعاليمه، وهو أمر تقرّ به الكاتبة بكلّ وضوح .

العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي عالم مجاهد ضد الاستعمار وعملائه

بصدد الحديث عن المرحوم الشيخ البلاغي رحمه الله أريد أن أركز على الجو الديني والسياسي الذي عاشه المرحوم وإخوانه من العلماء، لنكشف بالشكل الدقيق الدور الذي لعبه الشيخ في عصره، وسوف نعرف أن دوره كان مهماً جداً، وبالتالي نعرف أن تكريم وتبجيل مثل هذا العلامة اليوم يؤدي إلى الاقتداء بالأمثال في حوزاتنا العلمية، وبالتالي يترك أثره المطلوب.

فإذا أردنا أن نتحدث عن المرحوم البلاغي وعمره الشريف الذي بلغ السبعين عاماً، علينا تقسيمه إلى قسمين: القسم الأول في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في حين يقع القسم الثاني بدقة في النصف الأول من القرن العشرين، فقد ولد عام ١٨٦٥ وتوفي ١٩٣٥ م.

وفي هذه الفترة مرّت أمتنا الإسلامية والمنطقة بظرف تاريخي عصيب وحساس جداً. ويستطيع الباحث أن يلخص الظواهر في هذه الفترة على الشكل التالي:

أولاً: اتخذ الهجوم الاستعماري الغربي شكلاً جديداً، وبلغ التخطيط والتآمر الذروة على العالم الإسلامي، وقد شهدنا كيف خطط الغرب للقضاء على الدولة الإسلامية القائمة آنذاك وهي الدولة العثمانية بتعاون بين الصليبية والصهيونية وقوى الاستعمار الطامعة، واستطاعت هذه القوى أن تقضي على هذه الدولة التي لا نعتبرها دولة إسلامية كاملة، فإن لديها كثيراً من النقص، ولكنها على أي حال كانت دولة تقوم على تعاليم الإسلام، ودولة قوية يمكنها أن تقف بوجه الاستعمار الغربي بقوة، لكن التخطيط بدأ في أواخر القرن التاسع عشر وفي عام ١٩٠٥ عقد مؤتمر في إنجلترا وصمم على القضاء على الدولة العثمانية، وبالتالي تمّ القضاء عليها في عام ١٩٢٤ ميلادي.

والى جانب هذا الموضوع رأينا الاستعمار يخطط بخطوط عريضة أخرى للقضاء على مقاومة

هذه الأمة، وبالتالي المهجوم على عقيدة المسلمين أولاً، ويعمل على انحراف عاطفة وإحساسات المسلمين ثانياً، وبالتالي يعمل للقضاء على أي سلوك إسلامي مطلوب . فإذا قضي على عقيدة أمة وعواطفها وسلوكها، فمعنى ذلك أنه تم القضاء على شخصيتها تماماً.

كان الاستعمار يخطط لزراعة العلمانية بشكل كامل، وفصل الدين عن الحياة، وكان يخطط بدقة لتمزيق العالم الإسلامي إلى دويلات وإلى مساحات صغيرة، وتقسيم المقسم وتجزئة المجرأ لكي تفقد الأمة وحدتها الإسلامية المطلوبة. كما كان يعمل على إبقاء هذه الأمة متخلفة في جميع المجالات: التخلف العلمي والاقتصادي والاجتماعي والأصعدة الأخرى.

كما أن الاستعمار عمل على تشجيع الأفكار الإلحادية أصلاً والتي تعمل على محو الدين. نعم كان هناك تعاون - كما قلنا - بين الاستعمار والصليبية والصهيونية للقضاء على شخصية هذه الأمة: الشخصية الإيمانية، والشخصية العاطفية والشخصية السلوكية، كما كان هناك تشجيع للأفكار اللادينية والإلحادية بشكل كبير، وكان هناك عمل على تغيير التعليم في العالم الإسلامي، وكان قد بقي تعليماً إسلامياً ليحل محلّه التعليم الغربي الذي يبعد الإنسان عن واقعه الديني، وكان هناك أيضاً تخطيط لضرب الثقافة الإسلامية التي كانت تقرأ الحياة بسم الله، وتبني كل تصور الإنسان من خلال النظرة القرآنية، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به»^١.

نعم، هؤلاء عملوا على تغيير هذه الثقافة، وكان المستشرقون أكبر العوامل على تغيير هذه الثقافة، فقد هاجموا كل نقاط القوة في الفكر الإسلامي، وحاولوا أن يشككوا المسلمين في عقائدهم وكلّ ثوابتهم. كما نستطيع أن نشير لدور الجمعيات الاستعمارية في عالمنا الإسلامي كالماسونية التي كان لها دور كبير في ربط هذا العالم بعجلة الاستعمار. كما نستطيع أن نشير إلى الاتجاهات الباطلة أو المذاهب الوهمية التي حاول الاستعمار أن يوجدها لتمزق هذا العالم الإسلامي. ونشير هنا إلى الاتجاهات التكفيرية التي حاولت أن تزرع النزاع بين السنة والشيعة، بل كفّرت المعتزلة والشيعة والصوفية، ثم كفّرت الأشاعرة أيضاً، وهذا يعني زرع عنصر التكفير الذي يقضي على وجود هذه الأمة وقدرتها على المقاومة.

١. نهج البلاغة، الخطبة رقم (١٣٣).

أيضاً كان هناك سعي حثيث لزرع الأفكار الوهمية باسم الدين؛ كالبابية والبهاية في قلب العالم الإسلامي. واعتقد أنّ من الأمور التي شملها هذا التخطيط إيجاد طبقة منورة الفكر أو مثقفة، وقد تظهر بشكل أحزاب أحياناً تدعو لانصهار العالم الإسلامي بالغرب وبالتالي تجعل خلاص العالم الإسلامي بالارتباط بالغرب وبالتبعية لثقافته وما عنده من تقدّم كما يزعّمون، كل هذه العناصر دخلت وتوفّرت في تلك الفترة التي عاشها المرحوم البلاغي.

ثانياً: ولا نريد أن نفرط في التشاؤم، فلقد كانت هناك عناصر قوة في العالم آنذاك. إنني أعتقد أنّ اتساع رقعة العالم الإسلامي، وسيطرته على موارد الثروة المادية والنقاط الإستراتيجية في العالم المعروف آنذاك، كان يشكّل نقطة قوة وإن كان أيضاً يشكّل عنصراً يدفع الأعداء للسيطرة على العالم الإسلامي أيضاً، ثم آني أريد أن أشير إلى وجود الشخصيات النادرة الكبرى التي عملت على إحياء روح المقاومة، في هذه الأمة؛ كالمرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني والمرحوم المرزا حسن الشيرازي، وأمثال هؤلاء، وأستطيع أن أجعل من هؤلاء المرحوم الشيخ البلاغي؛، هذه الشخصيات غرست في الأمة روح المقاومة إلى جانب شخصيات كبرى أخرى لها دورها في هذا المجال.

أذكر هنا أنّ إحدى الكاتبات الغربيات واسمها شيرين هنترتنقل أنّ ضابطاً انجليزياً أرسل تقريراً قبل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ يقول «إنّ الشرق يعيش على بركان هائج، يكفيه أن تطلق عليه شرارة حتى ينفجر بوجه الغرب» هذه الأمور كانت تقلق الغربيين؛ فهذا السياسي الانجليزي الكبير غلادستون يعلن في البرلمان «مادام هذا القرآن بيد المسلمين فإننا لن نتصر». ونستطيع أن نستعرض كثيراً من الثورات التي قامت آنذاك ضد نفوذ الغرب، لنلاحظ: ثورة التبغ في عام ١٨٩١ وكيف اضطرت ناصر الدين شاه الطاغية الإيراني لإلغاء الاتفاق الاحتكاري الانجليزي للتبغ في إيران.

والثورة الدستورية التي صاحبت أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي مثّلت عنصر المقاومة القوية جداً، وكان للعلماء فيها دور كبير جدا لتحقيق انتصارها.

وكذلك ثورة عام ١٩٢٠ في العراق وقد اشترك فيها المرحوم الشيخ محمد تقي الشيرازي والمرحوم الحبوبي والمرحوم الكاشاني وغيرهم.

وكذلك الثورات الأخرى في إنحاء العالم إسلامي:

ففي عام ١٨٠٨ بدأت ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي.

وفي عام ١٨٣١ بدأت ثورة السنوسيين في ليبيا.

وفي عام ١٨٠٧ بدأت ثورة المسلمين في الهند.

وفي عام ١٩٣٠ شبت ثورة عمر المختار في ليبيا.

وفي عام ١٨٨٦ قامت ثورة عرابي في مصر.

وكانت هناك النهضة المصرية في عام ١٩١٩، كما كانت ثورة سورية في عام ١٩٢٤،
والنهضة الخطابية في عام ١٩٢٤ وغيرها من الثورات الكبيرة، كثورة الشيخ شامل في منطقة آسيا
الوسطى، والتحركات الكثيرة في اندونيسيا ضد الاستعمار الهولندي. لو لاحظنا كل ذلك أدركنا
نقطة قوة كبرى لهذه الأمة.

ثالثاً: ومن جهة أخرى سيطر العالم الغربي واحتل تقريباً كل الأرض الإسلامية احتلالاً
عسكرياً مباشراً.

ذكرت كل هذا لأقول إنه كانت هناك عوامل وتحديات سلبية كبيرة، كما كانت هناك
عوامل إيجابية أيضاً.

وعلى ضوء كل هذه الأمور نستطيع أن ندرك الدور الذي لعبه العلماء المسلمون في إيجاد روح
المقاومة، وبالتالي ندرك دور المرحوم العلامة البلاغي الفكري والعملي في هذا المجال: فقد ترك
دراسته في سامراء عند المرحوم الميرزا الشيرازي وانطلق مهاجراً من سامراء إلى الكاظمية، ثم من
هناك إلى النجف، واشترك في اجتماعات الثوار محرّضاً الجماهير على المقاومة، ومنها اجتماع
المسجد الهندي في النجف الأشرف في سنة ١٣٣٨ هجرية حيث صدر بيان وقع عليه العلماء
الكبار من أمثال آية الله العظمى السيد أبو الحسن الاصفهاني، وقد حرّض الجماهير على مقاومة
الاستعمار في ثورة العشرين في العراق.

وبالنسبة إلى الجانب الفكري نهض المرحوم البلاغي لإبطال شبهات التكفيريين التي كانت
تثير الفرقة بين المسلمين، وألّف كتاب (دعوة الهدى) ليثبت خطر التكفير على الأمة، وله شعره
المعروف في هذا المجال.

وكذلك تحرك ضد البهائية تحركاً قوياً عملياً في بغداد، واستطاع أن يغلق مركزاً هاماً لهم وكتب رسالة ضدهم، كما كتب رسالة للرد على القاديانية، وهي إحدى المذاهب التي أوجدها الاستعمار أيضاً في الهند والباكستان، لكي يكشف هذه المذاهب الباطلة التي صنعها الاستعمار، وعمل بقوة للرد على التبشير المسيحي الذي انتشر بقوة خاصة في جنوب شرق آسيا، وألّف كتابين في الرد عليه، وهما كتاب (الهدى إلى دين المصطفى ﷺ) وكتاب (الرحلة المدرسية) وقد تحمّل المشاق لتعلم اللغات الأخرى؛ كالفارسية والانجليزية والعبرية لكي يكشف نقاط الضعف في المنشورات التبشيرية، ويواجه المبشرين بنقاط ضعفهم بقوة، كما ألّف كتاباً للرد على الماديين والدهريين، وإبطال شبهات الملحدين من أمثال شبلي شميل ورد عليهم بقوة، وشنّ حملة ضد المستشرقين الذين كانوا يبتون الشبهات في العالم الإسلامي، وكشف أباطيلهم وشبهاتهم من أمثال شبهة (الغرائق العلى) كما رد على الشبهات التي أوردوها على الأحكام الإسلامية؛ كالاغراض على حكم القصاص. كل هذا إلى جانب البحوث والدراسات العلمية التي قدّمها، إلى الحد الذي أوصله إلى مقام أهله ليكون أحد المراجع في عصره.

وبالتالي نحن نعتقد أنّ المرحوم البلاغي استطاع أن يلعب دوراً كبيراً في الرد على ذلك الهجوم الكاسح القوي ضد الإسلام، وأنّه كان يدعو للوحدة واتحاد المسلمين.

هذه خلاصة للجو العام الذي كان يعيشه المرحوم البلاغي ومواقفه، وهي تكشف لنا عن وعيه للأحداث التي كانت تجري آنذاك، كما تكشف أيضاً عن إخلاصه للقضية الإسلامية، فقد سخر علمه وعمله وحياته في سبيل الرد على الهجوم الفكري الكاسح آنذاك. وأنا أعتقد إنّ ما كان يمتلكه المرحوم البلاغي من الخصائص ساعدته على أن يكون نجماً متألقاً من نجوم المقاومة في عصره، فقد كان عالماً أديباً شجاعاً يرد على أستاذه (كما رد على الشيخ النوري في كتابه (فصل الخطاب) وعلى زميله العلامة الأمين، إذ اعتقد أنّ المرحوم الأمين خرج عن المسار الصحيح. وفي رسالة قوية أثبت عدم صحة نسبة تفسير الإمام العسكري عليه السلام إليه، لقد كان يملك أسلوباً رائعاً للحوار، وكان يربّي العناصر التي تحاور وتبث الوعي، حتى أنّ أحد تلامذته وهو الشيخ جعفر محبوب يقول: «إنّ بيته كان مدرسة لتربية هؤلاء المحاورين» وبالتالي فإنّ سعيه وجهده في

تعلم اللغات الأخرى يشكّل سابقة رائعة للإنسان الداعية العالم الذي يعمل على اكتشاف كل الوسائل التي يستطيع من خلالها أن يوصل صوته إلى الآخرين.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً هذه المهمة، وهذا الإخلاص، وهذا الزهد، وهذه الروح العالية والشجاعة العلمية، لكي نحقق الأهداف المرجوة منّا جميعاً.

العلامة السيد محسن الأمين: علم التقريب

يتصور البعض إنَّ هناك عقبات كثيرة عقائدية وتاريخية ومذهبية - وحتى من خلال السنن الشعبية - أمام وحدة الأمة وتقارب المسلمين بالشكل الذي يدخل القضية في متاهات الاستحالة واليأس، ولكننا نعتقد - كما أكد العلامة الكبير الأمين - أنهم واهمون كل الوهم: سواء على الصعيد النظري أو على المستوى العملي.

وها هي بشائر التقريب تحل محل التفريق، وها هو الأمل يتحقق شيئاً فشيئاً. وها هي جهود القادة من أمثال المرحوم العلامة الأمين تنتج أفواجا من الدعاة، لا إلى التقارب بين المذاهب الإسلامية فحسب، بل وحتى الحوار البناء بين المسلمين وأبناء الأديان الأخرى للوصول إلى المساحات المشتركة، ولقد كان يتعاطف معهم، وربما بكى لحالهم^١.

ولن ننسى بهذه المناسبة موقفه حينما عارض قانون الطوائف الفرنسي، وقال مخاطباً المفوضية الفرنسية: (فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار الشيعيين عامة لهذا القرار، وهذه التفرقة بين المسلمين)^٢.
إننا نشهد اليوم تراجعاً كبيراً لهؤلاء اليائسين، وانفتاحاً كبيراً من قبل علماء الأمة ومفكرها بل وجماهيرها على التقريب، وربما كان لدعوات الحوار العالمي بين الحضارات - وبالأولى بين المسلمين - وللهجمة الشرسة لأعداء الأمة تحت عناوين الأرهاب والعملة وحقوق الإنسان وغيرها الأثر المهم في هذا المجال.

١. من حديث العلامة السيد محمد علي الأمين بمناسبة رثاء المرحوم السيد حسن الأمين.

٢. أعيان الشيعة، م ١٠ ص ٣٧٠.

وقبل كل شيء يجب أن نوضح أنّ الدعوة للتقريب والوحدة لا تعني مطلقاً العمل على تذيب المذاهب، كيف وكلها تراث اجتهادي رائع يمثل ثراءً للفكر الإسلامي، وإعمالاً للعقل المسلم عبر القرون لعنصر الاجتهاد في نصوص الشريعة الغراء، وبالتالي يشكل مساحةً واسعةً تستفيد منها الأمة لحلّ مشاكلها الحضارية باستمرار؟!

إنّ التقريب - في رأينا - يعني:

١- التمسك بالمبادئ والأصول الإسلامية المسلم بها، والتعاون في المساحات المشتركة بين المذاهب.

٢- السعي الحثيث لكشف هذه الميادين المتفق عليها، وتوسيعها.

٣- رجوع كل فرد إلى مذهبه الخاص في الأمور التي تختلف فيها المذاهب - وما أقلها - ويعذر الواحد من الآخر فيما نختلف فيه من اجتهادات.

٤- تنمية الآداب والأخلاق التقريبية من قبيل: التآلف، وحسن الظن، والرقي بمستوى التفاهم، والإحساس بالأخوة والتكافل.

وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين - وهو يشرح هدفه من دعوته التقريبية -: (ليس مقصودنا من هذه المقالة أن نجعل أهل السنة شيعاً أو العكس، أو أن يتبرأ كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته) ويضيف: (قد يساء فهم المقصود من فكرة التقارب، فيقال: إنها تدعو إلى ترك البحث حول أحقية هذا المذهب أو ذلك، وذلك لأننا لا نستطيع أن نحافظ على الأخوة إلا بترك هذا النمط من البحوث، إلا أنّ هذا غفلة عن أنّ هذه الدعوة لا تقبل مادام كل طرف ملتزماً بمذهبه، ويراه هو الحق ولا يمكن أن يتخلّى عن اعتقاده من دون دليل أو برهان. إنّ الذي يجب أن يدعى إليه الطرفان: التعاون، وتحري الأدلة العلمية، والتمسك بالآداب الإسلامية، وتجنب التصرفات غير اللائقة الباعثة على التنفر).^١

هكذا - إذن - لا يعني التقريب إغلاق باب البحث (الكلامي) ولا باب البحث (التاريخي) بل ولا يطلب من أحد أن يتنازل عن إيمانه بأنّ مذهبه هو الحقّ أو الأحقّ بالاتباع، وإنّما المطلوب

١. من مقالة له نشرت بشكل مستقل تحت عنوان: (حقّ اليقين).

التركيز على عملية التعاون في المساحات المشتركة وتوسيعها، وأن يعذر البعض الآخر في موارد الاختلاف في الرأي.

أمّا تلك العقبات التي تصوّرها اليائسون فهي أمور يمكن تجاوزها بسهولة إذا تصوّرتناها على واقعها، وإذا تعاملنا معها بروح الحوار القرآني، وإذا أدركنا ما يترتب على هذا التعامل من آثار إيجابية كبرى.

فعلى الصعيد العقائدي لا نجد اختلافاً على الأصول مطلقاً، فالتوحيد والنبوة والمعاد والقرآن والسنة النبوية الشريفة وعظمة الصحابة عليهم السلام وحبّ أهل البيت عليهم السلام والكعبة والإيمان بأصول الشريعة وأركانها شيء لا يختلف عليه اثنان، وإن كانوا قد يختلفون في التفاصيل بما لا يحدش مطلقاً أيّ جانب من الأصول المذكورة.

ولا يعني الاختلاف أحياناً في التفاصيل اختلافاً في التعامل مطلقاً، وما أكثر اختلاف الصحابة في الآراء، وكذلك اختلاف الأئمة في استنباط الحقيقة من نصوص الشريعة، دون أن يؤدي ذلك إلى تنافر في السلوك.

وهنا أتذكر أنّ بعض الأتباع تصوّروا خطأً إنّ عملية التبرّي تشمل أتباع الاتجاهات الأخرى ومن لا يقولون بقولهم، وليسوا بمستوى علمهم، فواجههم أئمة أهل البيت عليهم السلام برفض هذا المنحى وتصحيح هذا التصور المنحرف.

ففي الرواية: (أنّه جرى ذكر قوم - قال الراوي: - فقلت له - يعني الإمام الصادق عليه السلام -: إنا لنبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول، قال: فقال: يتولّونا ولا يقولون ما تقولون، تبرأون منهم؟ - إلى أن قال: - فهو ذا عندنا ما ليس عندكم، فينبغي لنا أن نبرأ منكم! - إلى أن قال: - فتولّوهم ولا تبرأوا منهم...)^١.

إنّ التبرّي إنّما يكون من أعداء الله والإسلام والأمة، ولا مجال له بين أبنائها، وهو ما يصحّحه المرحوم الأمين في بعض كلماته.^٢

والحالة التي ننبه على لزوم اجتنابها هنا هي مسألة المؤاخذة باللوازم.

١. وسائل الشيعة، باب ١٤ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ١٦ ص ١٦٠، ط مؤسسة آل البيت (ع).

٢. راجع مقال (حق اليقين) للعلامة الأمين.

فقد يتصوّر هذا الطرف مثلاً: أنّ القول بنوع من التجسيم يستلزم الشرك، أو أنّ القول بالتحسين والتقييح الشرعيين لا العقلين يستلزم إغلاق باب النبوة أو التصديق بها، وقد يتصور الطرف الآخر أنّ القول بالشفاعة، والتوسل، وزيارة القبور يستلزم الشرك، وهكذا دواليك. ويبدأ مسلسل نسبة الكفر والفسق والبدعة إلى هذا الطرف أو ذاك.

والحقيقة هي إنّ أيّ طرف لا يقبل هذه اللوازم المطروحة في ذهن الطرف الآخر، بل له توجيهاته ومخارجه التي يستند فيها إلى أدلة شرعية وعقلية معتبرة عنده. وحينها لا معنى لأحكام التكفير والتفسيق مطلقاً.

إنّها - إذن - حالة يجب اجتنابها شرعاً وعقلاً، وإلاّ بقينا ندور في حلقة مفرغة. وفي المجال التاريخي لا نجد هناك أية عقبة كؤود أمام التأخي والتألف. ولنأخذ أشد المواضيع حساسية وهي مسألة الخلافة بعد الرسول ﷺ. فهناك نظريتان، تركز إحداها على أنّه ﷺ أوصى وعين الخليفة بعده، وترفض الثانية ذلك. وهذه قضية تاريخية لها مجالها البحثي، ولا مانع من ذلك في جو أخوي صميم. فإن تم الاتفاق وإلاّ عذر كلّ منهما الآخر. وهنا يقول المرحوم العلامة الأمين: (لم نزل نتنازع على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي هو خليفتنا).

وقد أكدّ الإمام البروجردي سابقاً على عدم نقل الخلاف إلى الصعيد غير العلمي، وتجاوز هذه المسألة إلى مسألة أخرى هي أكبر أهمية منها، وهي مسألة (المرجعية العلمية لأهل البيت ﷺ) حيث تؤكد النصوص، وقد لا يختلف فيها المسلمون، ولذا اختصّ عليّ ﷺ بلقب الإمام في ذهننا التاريخي جميعاً.^١

وهنا نذكر بأنّ الإمام علياً - وخلافاً لما يتصوّره البعض - لم ينزو عن الحياة ربع قرن من عهد الخلافة الراشدة - كما يقال - بل عاش في قلبها وخاض خضمها، وحلّ الكثير من مشاكلها، حتى نقل المؤرخون أنّ الخليفة الثاني كرر عشرات المرات عبارة: (ما كنت لمعضلة ليس لها أبو الحسن). وإذا انتقلنا إلى تاريخ أئمة المذاهب وتعاملهم رأينا العجب العجاب من التسامح والمداراة والتعاون والاحترام الكبير.

١. راجع بحث (المرجعية العلمية لأهل البيت ﷺ).

فمن المعروف أنّ كتب أهل السنّة حافلة بروايات أهل البيت عليهم السلام حتى إنّ بعض العلماء^١ ذكر أنّه جمع أكثر من عشرة آلاف حديث بهذه الصفة. وهو يؤكّد أنّ الكثير من تلامذة الإمام الصادق كانوا من علماء السنّة، وبينهم الكثير من أسر الصحابة والخلفاء، وعدد من المتكلمين المشهورين والمؤرخين من أصحاب السيرة.

والعلاقات بين الإمام الصادق والإمام أبي حنيفة معروفة، وكذلك مع الإمام مالك الذي نقل كيفية حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، وشعر الإمام الشافعي في أهل البيت مشهور، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل الحديث المعروف بسلسلة الذهب المروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آباءه بأسمائهم وذلك حين مرّ بنيسابور وهو: «كلمة لا إله إلاّ الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي» وأردف قائلاً: (بشروطها)، نقل الحديث الإمام أحمد ثم علّق عليه بقوله: (لو قرأت هذا الإسناد على مجنون لبرئ من جنته).^٢

إنّنا اليوم نرجو - بكلّ حسرة - أن يعود حالنا في التعاون كحال أئمتنا.

ولا ننسى هنا أن نذكر بأنّ المذهبية - كما أكّدنا - كانت خيراً كبيراً ما دامت تعبّر عن غنى علمي، ولكن العوامل الكثيرة كالجهل، والتعصّب المقيت، وعدم التأدّب بأداب الإسلام في الحوار، وأهواء الحكّام الطغاة، وغير ذلك حولت المذهبية إلى طائفية متعنّته، وتصادمية عمياء، سالت على أثرها الدماء والدموع.

يقول أحد الكتاب المعاصرين: (ولم تكن السلطات الحاكمة بعيدة عن إثارة الصراع وتأجيجها، ممّا يتوافق وسعيها للتحصين بالاصطفاف وتمتين أواصرها بين السكان المحليين.. ولم تقتصر على السنّة والشيعة فحسب، إذ تكرّرت الحوادث بين الحنابلة وكلّ من الأشاعرة والحنفية والشافعية والمالكية). ويضيف: (وفي تراحم تلك الصراعات سلّطت حرب الارهاب الفكري على المبدعين، ومن نماذجها ما حدث عندما توفي محمد بن جرير الطبري عام ٣١٠هـ، فقد دفن بداره ليلاً لأنّ العامة منعت من دفنه نهراً).^٣

١. وهو آية الله محمد واعظ زاده - الأمين العام السابق للمجمع العالمي للتقريب - في كتابه (دراسات وبحوث ج١ ص ٤١٥ - ٤٢٣).

٢. الصواعق المحرقة لابن حجر، ص ٢٠٣.

٣. قصة الطوائف للدكتور فاضل الأنصاري، ص ٢٣٥.

أمّا مسألة العادات والسنن الشعبية التي يقوم بها هؤلاء وهؤلاء فهي مسألة فيها نظر، لأنّه ليس من السهل تغيير هذه العادات ولا يقف في قبالها إلاّ الأبطال، ومنهم شخصيتنا التي نحتفل بذكراها، إذ حارب الخرافات والمبتدعات، وطهر المراسم الحسينية من الأعمال السخيفة، ولاقى نتيجة ذلك الأمرين حتى من بعض العلماء.

وعندما نتجاوز البحوث العقائدية والتاريخية إلى الميدان التشريعي فإنّ التلاقي سوف يبدو كأروع ما يكون، فلا يوجد خلاف في الرأي بين المسلمين في المساحة الأخلاقية مطلقاً، كما لا يوجد خلاف في مجالات المعاملات إلاّ نادراً، وهكذا الأمر في المجالات العبادية إذا تجاوزنا بعض الجزئيات.

وأمّا العلاقات المدنية فهي متطابقة إلاّ في بعض القواعد الفقهية، وبالتالي يمكننا أن نصدّق بقوة ما قاله علماء محققون من أنّ الشيعة والسنة متفقان في أكثر من ٩٠٪ من المساحة التشريعية.^١

اتجاهان تقريبيان

والحقيقة أنّ طرح فكرة الوحدة غالباً ما يتم ضمن سياق التوصيات الاجتماعية بها، وفي قالب الدعوة إلى التوعية وتجنّب مخاطر التفرقة، لكنّه يلاحظ أنّ هذا الاتجاه التقريبي - وإن تمكّن بسبب امتلاكه المفردات الحيّة الغنيّة من إعطاء صورة توضيحية تعرّف مقولة التقريب، وثبتت ضرورته في المجتمع، وحاجة الناس إليه - غير أنّه يفتقد - في واقعنا المعاش - الضمانات التي تتكفل بحضوره ودوامه الفاعل في أوساط المجتمع، سيما بين الصفوة من أبناء المذاهب المختلفة. ولحلّ هذه الاشكالية ينبغي أن نطرح فكرة الوحدة في ميدان الفقه.

فعندما ننظر إلى فكرة التقريب لدى الفقهاء نجد أنّها تحركت في اتجاهين مهمين وهما: اتجاه الفقه التقريبي، واتجاه التقريب الفقهي. وهذان المشروعان يشتركان في النظر إلى الصلة القائمة بين الفقه والتقريب؛ غير أنّ التقريب الفقهي يعالج قضية التقريب من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة الفقه، أو فلنعبّر رأي الفقه في التقريب، بينما الفقه التقريبي يعالجها من زاوية النظر إلى موقعها في منظومة التقريب، أو فلنعبّر بالفقه المقارن بهدف التقريب.

١. ومن هؤلاء: الأستاذ المفكّر الراحل محمد المبارك، والأستاذ الدكتور الزحيلي، والأستاذ حسين علي محفوظ وغيرهم.

وبما أن العلامة آية الله السيد محسن الأمين من ابرز أصحاب الاتجاه الثاني، فلا بد من توضيح كل اتجاه، وما يختص به من سمات:

اتجاه الفقه التقريبي

زخر التاريخ المذهبي بجملة آراء متطرفة صدرت كنتيجة للتقليد والتعصب المذهبيين، فصارت سبباً لصعود الكثير من البحوث الهامشية في الفقه إلى موقع الصدارة، وساهمت إلى حدّ كبير في تكوين الذهنية الطائفية الفقهية، ثم اتخذت مظهراً من مظاهر الهوية المذهبية. وفي ظل هذه الأخطاء المتكررة في الفقه تحوّلت الاختلافات الجزئية والهامشية الموجودة بين المذاهب المختلفة إلى خطوط حمراء ساخنة، لا يمكن تجاوزها وغضّ النظر عنها. وطبيعي في مثل هذا الجوّ أنّ الذي يمكنه أن يقابل الفقه المذهبي ويكون عوناً للمنظور الفقهي لشتى المذاهب هو الفقه التقريبي، فهذا السنخ من الفقه لا ينحصر داخل الحدود المذهبية، بل يسعى إلى إبراز المجالات المشتركة والحيوية بين المذاهب، سيما إبراز تلك البحوث المهمة والمصيرية التي تحظى بموقع خاص في الفقه لا يملؤه بديل أو نظير. فالمواقف التقريبية التي يتخذها أصحاب هذا الاتجاه قبل أن تكون ناشئة من إدراك ضرورة فقهية معينة للتحليل الموضوعي، تحصل على مسرح الواقع على أساس إدراك لضرورة التقريب لا غير. وبعبارة أخرى: أنّ هذه الفئة ترى أنّ التقريب بين المذاهب عبارة عن محاولة أساسية واجتماعية لا بد منها ضمن مجالاتها المتاحة لها، ومن بين هذه المجالات يبرز المجال الفقهي بوضوح أكثر.

اتجاه التقريب الفقهي

وهذا الاتجاه يبحث من زاوية فقهية، تعنى بالمشاكل التي يواجهها المصلحون التقريبيون في سبيل تحقيق واقع تقريبي. ولو آمنّا بأنّ قسماً من المشاكل التي تواجهنا في طريق تحقيق الوحدة تعود أساساً إلى إبهامات لا يوجد لها حلّ إلاّ في المجال الفقهي لأمكننا أن نحصل على صورة أوضح لمقدار موقفية ونجاح هذا الاتجاه بالقياس إلى الاتجاه الأول. وبذلك ندرك أنّ أصحاب هذا الاتجاه جعلوا نقطة ابتداء وانطلاق الحركة التقريبية وأساسها هو النظر إلى الملابس الموضوعية والابهامات الفقهية التي قد تواجهها هذه الحركة، ثم درسوا سبل الوصول إلى رفع القناع عن تلك الملابس الفقهية.

فمن هذه النقطة والنظرة ينشأ الدافع لدى هذه الفئة من أصحاب فكرة التقريب نحو قبولها، وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيقها. وبعبارة أخرى: فإن الدافع لهم نحو التقريب ينبعث من حاق الفقه ولبه؛ ويشكل نتيجة للرؤية الفقهية المتولدة لديهم، مما يعزز دور أبحاث أصحاب هذه الفكرة، باعتبار أنّ الأبحاث الناشئة من مثل هذا الدافع تكون ذات نفع كبير في تحقيق فكرة التقريب التي راودت - وامتزال - أذهان أصحابها منذ زمن ليس بالتقريب.

وبما أنّ نتائج هذه الأبحاث والدراسات تأخذ كيانها من بوتقة التجارب الفقهية، وأنّ المادة الخام لهذه الفكرة هي فقهية بحثية في الواقع، فإن هذه الفكرة تستطيع بدورها النفوذ إلى أوساط مجتمع المتدينين بصورة ذاتية وطبيعية، دون الحاجة إلى محاورات جانبية معينة قد تشوبها بعض الملابس، وكذلك فإنها تصبح جزءاً لا يتجزأ من المعيشة الفقهية في ذهن المكلفين. والذي يفرض علينا تبني هذا الاتجاه جملة نقاط:

أولاً: إذا لم يتم التعامل مع الوحدة ضمن إطار موضوعي فقهي، فعلينا أن نتنظر جواً يعود فيه العمل الاجتماعي مفعماً بمظاهر الفقه الرسمي التقليدي المذهبي، ومعه لا يفسح المجال للالتزام العملي بالوحدة كما هو واضح.

ثانياً: أنّ التعصبات المذهبية قد أشعلت - في بعض الأحيان - لهيب نيرانها إلى حدّ سبب ظهور العداء والعناد بين المذاهب. ولاشك أنّ خطورة النتائج السلبية لمثل هذا العداء والعناد تزداد فيما لو لبسنا لباس الفقه، وأصبحت بسبب ذلك جزءاً من الهوية الفقهية، كأن ترى كلّ طائفة أنّ التبري من أصحاب المذهب الآخر وظيفة فقهية محتمة عليها.

ثالثاً: إذا نظرنا إلى الفقه كمجموعة منظمة وهادفة، فإنّه يجب علينا ابتداءً أن نعيّن ماهو الدور الذي يمكن أن تلعبه الوحدة في هذه المجموعة المتشابكة، وأي نوع من الأحكام علينا أن نتركها جانباً بسبب التزامنا بمبدأ الوحدة المقدم عليها.

ولا بأس في الإشارة إلى بعض سمات هذا الاتجاه، وتطبيقها على الحركة التقريبية للسيد العلامة الأمين:

(أ) إنّ أصحاب هذه النظرة الفقهية إلى التقريب لا ينادون بتوحيد المذاهب بحيث يذوب بعضها في البعض الآخر، بل يسعون إلى تبيين مكانة التقريب في منظومة الفقه الاجتماعي، ويصوغونها بقالب فقهي واضح، ويرفعون تلك الملابس والابهامات الفقهية المتوجّهة إلى

فكرة التقريب بالأجوبة الشافية والكافية، والالتزام بلوازمه في المجتمع المسلم. يقول السيد الأمين: (ليس مقصودنا من هذه المقالة أن نجعل أهل السنة شيعةً أو العكس، وأن يتبرأ كل من الطرفين من آرائه ومعتقداته).

وبعبارة أخرى: يحاول هؤلاء استنباط حكم التقريب وتنقيح موضوعه، فهم بدل أن يتدخلوا في بعض المسائل الجزئية بين هذا المذهب وذاك، يسعون إلى تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلة الفقهية اللازمة لها.

(ب) أن مجرد تبين الحكم الفقهي للوحدة، وطرحه في منظومة الأفكار الفقهية، لا يعني رفع الغموض الذي يكتنف الناحية الفقهية المتعلقة بهذا الموضوع الاجتماعي الحساس، وإنما ينبغي - علاوة على السعي في هذا الطريق - البحث في النسبة بين الأدلة الفقهية للوحدة وأدلة سائر الأحكام الفقهية، وتتبع حركة البحوث والتحقيقات التي يقوم بها العلماء والفقهاء، وفي ظل مطالعة من هذا القبيل يمكننا تشخيص الموارد والظروف التي نعتبر فيها أن الوحدة حاکمة على الأحكام الأخرى بشكل أساسي.

ولعل من أهم المسائل التي تواجه أصحاب هذا الاتجاه التقريبي هي كيفية وضع الحلول العلمية لبعض المشكلات التي تعترض الطريق الواصل بين أدلة الوحدة وأدلة سائر الأحكام الفردية أو الاجتماعية الأخرى.

ونجد مثل هذا الاهتمام في كلمات العلامة الأمين، حيث يتعرض إلى مسألة التولي والتبري من منظور فقهي، ويحاول معالجة صلة قضية التقريب بهذه المسألة، فيقول: (يقول البعض: أن هذا الأمر يتنافى مع مافي الدين من أمر واجب وهو التولي والتبري وإنكار المنكر بالقلب واليد واللسان، لأن المقصود منهما أن يصدر من العبد بنية خالصة لله تعالى.. ولذا فإن من قام بعمل قبيح علينا أن نشعره بعدم الارتياح من ذلك، وأن نسعى لمنعه منه، ولا يجوز لنا إلحاق الأذى به خارج إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعامل معه بخشونة، وإنما علينا أن نتعامل معه برأفة، وننهاه عن المنكر ونأمره بالمعروف باللين والنصيحة)^١.

١. راجع مقال: حقّ اليقين.

(ج) الإكثار من رفع شعار الوحدة: عندما يصل الفقيه من خلال استنباطه إلى وجوب الوحدة فسوف يكون له في شعار الوحدة طعم خاص ومتميز. فالوحدة من الشعارات المحببة والخطيرة، محببة لأنه يوجد شعوراً عاماً بأهمية قضية الوحدة، إذ أن المسلمين قاطبة يشعرون أن نقطة الضعف في مواقفهم إنما هو التشتت والفرقة المستشرية فيهم، وكونه خطيراً فلأن الفكر - أي فكر - لو كان تجريدياً محضاً، لا يعنى بواقع الناس ولا يعيش همومهم يتزوي لا محالة ولو بعد حين، بعكس ما لو كان يؤثر في حياة الناس ويتفاعل معهم، فإنه سيشكل منعطفاً تاريخياً فيخلد. فقضية الوحدة الإسلامية قضية مهمة وخطيرة حيثما يوجد واقع يشغله مسلمون، ويكفي أن يلقي المرء نظرة على خارطة العالم، ومقدار ما يشغله المسلمون منها من مواقع إستراتيجية، ليدرك جيداً أهمية موقفهم الحضاري.

(د) السعي لرفض الخرافات: إن أصحاب النظرة الفقهية إلى التقريب يدركون قبل الآخرين ما تتركه الخرافات من آثار سلبية في المجتمع؛ ومن هذا المنطلق فقد تصدّى لها العلامة المرحوم السيد الأمين بشجاعة كبيرة رغم العقبات التي واجهها، وما خلّفته من متاعب جمّة، وليس هذا بجديد على الفقيه والباحث والمصلح والمحقق، حيث اكتسح الخرافات ورمى بها عرض الحائط، وأسس مكانها مواقع عمل مشتركة جعلت تملأ الفراغات الحاصلة جرّاء قمع الخرافات والأساطير التي كانت قد عشعشت في اذهان الكثير من الناس.

كتبت جريدة (العصر الجديد) ضمن مقال في مقام إطراء منزلته، والثناء على شخصيته: (لقد حمل البسطاء من الجعفرين أن يتركوا الخرافات التي جاءت من الخارج، وأدخلت على مذاهب السنّة ومذاهب الشيعة مجتمعة) (أعيان الشيعة ١٠/٤٣٣).

ويمكن القول بأن الاتجاهين يتكاملان في خدمة قضية التقريب.

التقريب ومنهجه الاجتهادي

ليس كلّ منهج بسيط في الاجتهاد متمكناً من العمل في ميدان هذا الاتجاه العظيم الفقهي، فالاجتهاد في هذا المجال إنما هو بالعمل على استيحاء روح الإسلام من خلال مفاهيمه العامة، ولا موجب للوقوف على دقائق نصوصه للبحث عن أدلة الوحدة، ومثل هذا الاتجاه يرى في حركة الفقه المعاصر امتداداً لحركة الأنبياء والأئمة عليهم السلام الشاملة لكل شؤون الحياة الإنسانية،

العامة والخاصة، والتي تركّز على اهتمام الشارع بكلّ حوادث الحياة البشرية، والعمل على تصحيح مسارها الخاطيء.

فبرى هذا الاتجاه ضرورة تقنين الحركة التقريبية وفق الشريعة السمحاء، وإيجاد السبل الصالحة لتطوير وسائل انتشاره، وبيان وجهة نظر الشارع المقدّس في مقرراته وأهدافه وبرنامج أعماله، ووضع الحلول والأجوبة لكافة المسائل والمشكلات التي تواجه الواقع الوجودي.

إننا نعتقد بضرورة تحرك الاجتهاد في هذا الطريق، لمواجهة الحالات المستحدثة والوقائع الكثيرة التي يزر بها الواقع، على أساس شريعة الله تعالى النازلة على لسان نبيّنا محمد ﷺ وما تسلم عليه المسلمون من أدلّة وأحكام واستدلالات شرعية وعقلية بما يوافق الكتاب والسنة المطهّرة الصحيحة. دون الخضوع للضغوط المختلفة، وتجاوز العراقيل النفسية والاجتماعية، والتي تعمل على تكريس الآراء السابقة، وعدم الإصغاء إلى البعض الذي ذهب بعيداً عن واقع التقريب.

إنّ حركة الاجتهاد الفقهي المطلوب اتخاذها لمعالجة مشكلة (تقنين) التقريب على أساس الشريعة الغراء، يجب أن تنهض بالمستوى المطلوب، وذلك من خلال مواجهة الحاجات المطروحة في الساحة بحلول عميقة ومناسبة في هذا العصر، لكي يشعر الإنسان المسلم بوجود أجوبة لكل تساؤلاته العملية من هذه الناحية، قد هيأها فقهاء أعلام معروفون بالورع والنزاهة، فتطمئن لها نفسه، وتبرأ ذمته من كلّ إبهام أو إشكال قد ينقدح بذهنه، فلا يحسّ بالحرج وهو يرافق أخاه المسلم - على غير مذهبه - في بعض الامتثالات، كأن يكون في الصلاة أو الصيام أو الجهاد أو الحج أو الزكاة ...

ويمكن مشاهدة هذا المنهج في حركة العلامة الأمين الفقهية، إذ يقول: (... فإنّ شريعتنا سهلة سمحة تدعو إلى العدل والاحسان وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي والتجاوز على حقوق الآخرين، ولا يعتبر هذا الأمر خاصاً بمجموعة أو فرقة من الناس، فقد أمرت الشريعة الجميع بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحتى بالنسبة إلى أهل الذمّة والمعاهدين مع المسلمين)^١.

١. حق اليقين، ص ٧.

ولا يخفى أنّ من أهم العناصر الفاعلة في هذا المنهج الاستفادة من المباني الكلامية، فإنّ طرح المباني الكلامية شيء مهم في تتبع المسائل ودراستها وخصوصاً إذا كانت الدراسة مقارنة، وكلّما كانت مسائلنا الكلامية منقّحة تحسنت استنباطاتنا وازدادت وارتقت أفكارنا الأصولية. وانطلاقاً من هذا الأمر يحاول الفقهاء التقريبيون تنقيح المباني الكلامية للتقريب، وإعداد الأدلّة الفقهية اللازمة لها في ضوء تلك المباني.

فهذا الاتجاه الفقهي في التقريب ينبغي أن ينطوي على كافة الأحكام التي تمسّ الإنسان المسلم في أيّ مكان من أطراف الأرض المعمورة، وتجيّب على المسائل التي هي محلّ ابتلائه، وترفع عنه حرجه، وتيسّر له الأمور.

لذا فإنّه ينبغي أن يشتمل مشروع التقنين التقريبي على:

- ١- الأجوبة الشافية لجميع تساؤلات الإنسان المسلم.
 - ٢- النظرة الشاملة لجميع أطراف الواقع الوجودي، والتي تضع في حسابها عنصرين أساسيين: الإنسان المسلم والمجتمع الإسلامي.
 - ٣- مباحث فقهية تعنى بشؤون المسائل التقريبية والواقع الوجودي المنشود، وتقديم خلاصة الدراسات على هذا الصعيد، وصياغتها بصورة أحكام فقهية مستقلة.. على أن تشمل ما يلي:
 - أ- الأدب الفقهي الخاصّ بالتقريب، واللغة الفقهية - التقريبية - الموجهة.
 - ب- الاستدلالات الفقهية المشتركة.
 - ج- بيان أدلّة الوحدة فقهياً - من الكتاب والسنة الصحيحة - وبراهينها العقلية والعقلية.
 - د- الشواهد التاريخية من الأخبار والآثار.
 - هـ- آراء علماء السلف وأقوالهم في هذا الجانب.
 - و- بيان فلسفة الوحدة وأخلاقيات التقريب.
 - ز- تصوير تحديات الوحدة الإسلامية وسبل معالجتها على مستوى الأمة.
 - ح- تعزيز المباحث بالاقترحات القيّمة على هذا الصعيد، وتوجيه سبل تطبيقها.
- لقد كان المرحوم الأمين فقيهاً واعياً لواقع المسلمين، مدركاً لأضرار التشتت الذي أصاب الأمة وما زالت أضراره وآثاره السيئة يعاني منها الملايين من مسلمي هذا الزمان، فلذلك دعا إلى

التحصّن بثقافة متينة مطبوعة بطابع وحدوي، لا تشوبها أية خرافات، ولا ما يثير حفيظة طوائف المسلمين، تستند على دعائم علمية قوية، تستشفّ شرعيتها من جملة قواسم مشتركة بين جميع المسلمين ولا غرو في ذلك، فقد انجب الإسلام فحولاً كانوا بمثابة منارات تنير درب التقريب الوعر، وأعمدة تقام عليها خيمة الوحدة الإسلامية، انطلقوا ببعد نظرهم ورجحان عقولهم باتجاه التصديّ لتحقيق الواقع الوحدوي الذي تنشده أجيال المسلمين.

كتب المرحوم الأمين: (إنّ المسلمين - مع وجود قدر من الخطأ والاشتباه في اعتقادهم - لا يخطئون في الأصول).

وأخيراً فإننا نرفع يد الضراعة للباري جلّ وعلا كي يتغمّد الفقيد العلامة السيد محسن الأمين برحمته وينزل عليه شآبيب لطفه.. كما نسأله تعالى أن يمطر روح نجله الراحل قريباً السيد حسن الأمين بالرحمة والمغفرة؛ فقد سار على منهج أبيه، وأحيا سيرته، وقدم للمكتبة الإسلامية فكراً نيراً بكلّ مثابرة قد يقلّ نظيرها.

الإمام النورسي: من خلال لمعاته في (رسائل النور)

من المعلوم أن (رسائل النور) ألفت خلال أربع وثلاثين سنة وهي سنين اعتزاله السياسة بعد أن انكشف زيف مدعياتها. وهي رسائل تزيد على المئة والثلاثين رسالة وتقع في آلاف الصفحات مقسّمة على أربعة أقسام هي: الكلمات، والمكتوبات، واللمعات، والشعاعات، ونحن هنا سنركز على اللمعات كما جاءت في ترجمة الملام محمد زاهد^١.

ومن يطالع هذه اللمعات الرائعة يكتشف جوانب كثيرة من شخصيّة هذا الرجل الكبير؛ إنه الرجل العابد المؤمن المتفاني في الله، العاشق التوّاق لمناجاته في كل آن، المتأمل في كتاب الله، المنتظر للألطف الإلهية التي تتجلّى في كل شيء، وتبرق في خاطره الشفاف رسائل نور إلهية، ومعاني تسمو بروحه فتجعله ينطلق إلى آفاق واسعة قد لا تبدو لكل مفسّر. إنها إشعاعات إيمانية ورموز عرفانية يتفاعل معها وهو يحاول أن يعرج إلى آفاق الأسماء الإلهية والكلمات العليّة التي لا تحصى ولا يعدّها العادون، وتساؤلات حول الكون وخلقته وحكمته وحاكميته، وتداخل العوالم وتشابك أنواعها ووحدة عناصرها وإطلاق القدرة الإلهية، وأبعاد القويمية والحاكمية الجلالية والجمالية، وجريان الحكمة في الكون مما لا يدع مجالاً لإنكار الآخرة، ولزوم استكناه الكنوز وسريان قوانين العدل فيها من الذرات إلى الشموس، لتتكشف له الحقائق خطوطاً لقلم قضائه وقدره سبحانه وتعالى، فإذا هو يسبح في عالم من الحمد والتسبيح والتهليل متناغماً مع كل ذرة في الكون ومع كل صرخة إيمان للأولياء.

إنه الكون المنسجم تماماً وحتى عدد أيام اعتقاله من قبل الظالمين فإنه يتناسب مع أعداد المعتقلين من تلاميذ رسالة النور التي بشر بها.

١. منشورات دار الآفاق الصحيحة - بيروت.

وهو بهذا الأفق الواسع يتأمل آيات القرآن الكريم آية آية، ويحاول اصطيد اللمحات والنكات والعبر ويرد على الشبهات وما يمكن أن يخطر في البال من إشكالات. بعد هذه الرحلة التأملية ينطلق إلى نفسه وإلى اتباعه مقدماً الدواء الناجع على شكل أقراص خُلِقَتْ تصل إلى خمسة وعشرين، ورجاءات تصل إلى ستة وعشرين، وهكذا تستمر رحلة التأمل والتربية والتفاعل مع الحياة.

وأجل ما يجده المطالع في أفكاره، هذه الموسوعية وهذا الإطلاع على مختلف اللغات وهذا الانفتاح على الفكر الآخر، وهذه الدعوة للوحدة والاتفاق وهذا الوله والحب لرسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وصحابته الكرام (رضوان الله عليهم). ومن هنا ولعدم قدرتنا على استيعاب آفاق شخصيته كلّها أثرنا التركيز إلى حدّ ما على نقاط ثلاث هي:

أولاً: انفتاحه على ثقافة الشعوب وبالخصوص على آداب اللغة الفارسية الملائى بالعرفان والحكمة والتأمل.

ثانياً: دعوته الوجودية الجامعة.

ثالثاً: حبه وولعه وذوبانه في الرسول وأهل بيته الكرام.

١- أما مسألة تعرّفه على الثقافة الفارسية وخصوصاً الجوانب العرفانية منها فإن الشواهد تكشف لنا معرفة واسعة لها؛ فكثيراً ما يستشهد بالأمثال والأشعار الفارسية من قبيل إشارته إلى قاعدة (من لا أدب له يحرم من لطف الرب) «بي أدب محروم باشد از لطف رب»، (ص ٩٢) وحديثه عن الإمداد الإلهي له في حالة كآبة حيث انطلق القلب باكياً داعياً طالباً المدد من الله الرحيم، قائلاً: «غريم بي كسم ضعيفم، ناتوانم، الأمان گويم، عفو جويم، مدد خواهم ز درگاهت الهي»، (ص ٣٥٩)

ونقله عن شاعر الفارسية الحكيم سعدي رؤيته لرجل من أهل السلوك ينتقل إلى مقاعد الدراسة لأن السالك ينقذ نفسه، أما العالم فينقذ نفسه والآخرين، (ص ٤٣٧)

واستشهاده للجوء المخلوقات جميعاً لله تعالى بالبيت الفارسي:

كه لا اله إلا هو برابر مي زند هر شي دمام جويدند يا حق، سراسر گويند يا حي

وفي معرض حديثه عن فكرة (وحدة الوجود) وضرورة فهمها فهماً عميقاً وعدم تسليمها إلى

العوام وإنما يجب التطلع من خلالها من الثرى إلى الثريا ليستطيع - كما يرى - أن يقول مقالة الشاعر الفارسي العارف جلال الدين الرومي: «افتح سمعك تسمع من الله ما تسمعه من كل أحد من الأقوال كالحكايات الفطرية». (ص ٤٤٧)

كل هذه الشواهد توضح لنا مدى تفاعله ومعرفته بهذه اللغة والثقافة.

٢- أما في مجال الوحدة الإسلامية فمن الواضح أن القرآن الكريم لم يترك سبيلاً إليها إلاً وسلوكه، فدعى إليها إجمالاً، وأوضح محاورها وأبعادها وأسسها، وأقامها على أسس عقائدية وعاطفية وتشريعية، وربط بينها وبين وحدة الكون ووحدة المسيرة التاريخية الدينية، ولذا نجد كل الأئمة والمصلحين الرساليين أكدوا عليها ودعوا الجماهير والمسؤولين لتحقيقها، وطرحوا أساليب عملية تؤدي إليها.

ونحن نعلم أن الدعوة إلى الوحدة قويت في زمن السلطان عبد العزيز ١٨٦١م ومن بعده السلطان عبدالحميد الثاني الذي ركز على فكرة الجامعة الإسلامية وبدأ في إنشاء خط حديد الحجاز محاولاً به ربط تركيا بالبلاد العربية وخاصة مكة والمدينة باعتبارهما رمزي الوحدة، وإذا كان ينطلق في مشروعه من أهداف سياسية أحياناً فلا ريب أنه يستمد أيضاً من قناعته الدينية. ويذكر في هذا الصدد أن الإصلاحيين في العصور الأخيرة كالمرحوم الأفغاني الأسد آبادي والمرحوم الشيخ محمد عبده والمرحوم الشاعر محمد عاكف وعلماء النجف وعلماء الثورة الدستورية في إيران وصولاً إلى قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني، وقائد الثورة الإسلامية الإمام الصدر، كلهم كانوا وحدويين ودعاة للوحدة.

ومما يذكر بهذا الصدد أن النورسي زار دمشق عام ١٩٩١م وألقى خطبته الشامية داعياً إلى الوحدة الإسلامية شارحاً مبرراتها موضحاً العقبات في طريقها وأساليب التغلب عليها، وقد اعتبر الوحدة العلاج الوحيد لقضية التمزق والتخلف والعلمنة، ورأى أن السبيل الأمثل هو سلوك الطريق الوسطى والمعتدل وعدم الاستماع للتعالم الإلحادية الغربية الداعية لإحياء الروح القومية التمييزية، وسلوك طريق التغيير الداخلي الفردي والاجتماعي في كل أرجاء العالم الإسلامي، واعتبر جميع المسلمين أعضاءً في جمعية واحدة. وعند قيام (الاتحاد المحمدي) في أبريل عام ١٩٠٩ والإعلان عنه في مسجد (أياصوفيا) ألقى خطاباً قوياً يؤيده.

ومن هنا يمكن اعتباره من رواد الوحدة، كما أن انفتاحه على سائر المذاهب ووسطيته تجعله من رواد التقريب باعتباره طريقاً للوحدة الإسلامية.

ولذلك نراه ينتقد المتطرفين سواء كانوا سنة أو شيعة: فهو ينتقد الوهابية والخوانرج من أهل السنة، والعلويين من الشيعة، ويرى أن المستفيد من تطرف الفريقين هو خط الإلحاد الذي يعمل على إيجاد الخلاف والنزاع رغم ما بينهما من مئات الروابط القدسية التي تأمر بالأخوة والاتحاد. (ص ٣٩)

ومما يلاحظ أنه؛ قام بخطوات عملية في سبيل تحقيق الوحدة.

فركز على إحياء الشعائر الإسلامية وأهمها عملية الحج، ودعا إلى استعادة الروح البناءة الأصيلة لها وهي خطوة ركز عليها الإمام الخميني كثيراً في مجال تمهيدته لنشر الصحوة الإسلامية وتعميقها. واستمداداً من القرآن الكريم الذي يعالج الحالة النفسانية التي ابتلي بها المؤمنون بعد الهزيمة في أحد فجاءت آيات شريفة من سورة آل عمران، ومنها قوله تعالى: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (الآية - ١٥٩).

نعم، لقد ركز المرحوم على الشورى ودعى إلى اعتمادها لاستعادة دور الأمة في بناء الحياة العامة. ٣- أما عن حبه لأهل البيت عليهم السلام فالشواهد تؤكد على ولعه بحبهم، فهو يؤكد مكرراً أن الإمام الحسن عليه السلام هو الخليفة الراشد الخامس. (ص ٥١ و ٥٢ و ٥٣)

وعن حق آل العباء الذين عيّنهم رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عديدة وروايات مسلمة مصاديق لآية التطهير يقول: «إن الرسول الأكرم (عليه الصلاة والسلام) رأى بنظر النبوة الموانس للغيب والمشاهد للاستقبال: أنه ستقع فتن مهمة بين الصحابة والتابعين بعد ثلاثين وأربعين سنة فتسفك الدماء، وشاهد أن أفضل شخصيات ممتازة فيها هم أولئك الشخصيات الثلاث تحت عبائه، فستر أولئك الأشخاص الأربعة مع نفسه بذلك العباء الذي أهدى لهم عنوان (آل العباء الخمسة) وذلك تطهيراً وتبرئة لعل في نظر الأمة وتعزية وتسلية للحسين، وتحيية وتهنئة للحسن، وإعلاناً لشرفه وفائدته العظيمة للأمة الإسلامية بإزالته فتنه مهمة بالصلح وإعلاناً بطهارة ذرية فاطمة وبشراقتهم ولياقتهم بعنوان (أهل البيت)؛ ذلك العنوان العالي...». ص ١٥٢

وفي جواب من يرى أن طلب المودة في القربى يتنافى مع سنة الأنبياء في عدم طلب الأجر على

الرسالة لأنه طلب فائدة تأتي من جهة القرابة النسبية، يرى أن الرسول ﷺ رأى بنظره الأنيس للغيب أن أهل بيته سيصبحون في حكم شجرة نورانية بين عالم الإسلام وأن الذين يؤدون وظيفة الهداية والإرشاد في درس الكمالات الإنسانية في كل طبقات عالم الإسلام سيخرجون من آل البيت على الأكثرية المطلقة، وكشف أن دعاء الأمة في حق الآل في التشهد وهو «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد» سيكون ذلك الدعاء مقبولاً: أي كما أن الهداة المنورين في ملة إبراهيم كانوا الأنبياء من آل إبراهيم ومن نسله بالأكثرية المطلقة كذلك رأى (عليه الصلاة والسلام) أن أقطاب آل البيت المحمدي يكونون كأنياء بين إسرائيل في الأمة المحمّدية في الوظائف العظيمة الإسلامية وفي أكثر طرقها ومسالكتها، فلذلك أمر بأن يقول: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى»، وقد قال (صلى الله تعالى عليه وسلم) في روايات مكررة تؤيد هذه الحقيقة: «إني أترك فيكم شيئين إذا تمسكتن بهما تنجون؛ أحدهما كتاب الله والآخر آل بيتي»، لأن منبع السنّة السنية والمحافظة عليها والمكلف بالتزامها بكل جهة هو آل البيت، فعلى هذا السر أعلنت هذه الحقيقة الحديثة بعنوان الكتاب والسنّة. (ص ٣٣)

ومن أجل ما نقل عنه وأوصى به أتباعه تركيزه على الدعاء المسمّى بـ (الجوشن الكبير) الذي يدور حول معرفة الله، حيث ذكره خاتمة للنتكته الخامسة من نكات اللمعة الثلاثين. (ص ٥٦٩) ومما يذكر بهذا الصدد أن أتباع أهل البيت ﷺ يكثرون من قراءة هذا الدعاء، ولم أره في المصادر السنية.

ولكن روي في المصادر الشيعية، ومنها ما رواه الشيخ الكفعمي أحد علماء الشيعة في كتابه (المصباح) عن الإمام زين العابدين عن أبيه الحسين عن أبيه: عن رسول الله ﷺ حيث نقله إليه جبرئيل ﷺ في أحد غزواته وكان عليه جوشن ثقيل أجهدته ﷺ وطلب منه أن يخلعه ويقرأ هذا الدعاء ففيه الأمان، وذكر له فضائل أخرى. ويشتمل الدعاء على اسم الله الأعظم وفيه مائة فصل وفي كل فصل عشرة من أسماء الله الحسنى ويكرر الداعي في آخر كل فصل عبارة (سبحانك يا لا إله إلا أنت، الغوث الغوث الغوث، خلّصنا من النار يا رب) وهو دعاء شريف رائع يخلّق بالإنسان إلى آفاق سامية.

العلامة شرف الدين والخطوط العامة للمنهج الوحدوي في كتابيه: (الفصول المهمة) و(المراجعات)

١- الخطوط العامة للمنهج الوحدوي في (الفصول المهمة)

لقد كان المرحوم آية الله شرف الدين رجل العلم والحوار والعمل والتحرق لأمته وعقيدته، نذر حياته للجهد العلمي والعمل، ولاقى الأمرين في سبيل ذلك، إلا أن الله تعالى جزاه خيراً في هذه الدار بأن جعله منار العارفين السالكين إلى الله، ومعلم الدعوة أساليب الدعوة الحققة. ورائداً من رواد الوحدة الإسلامية العظام. ونسأل الله - جل وعلا - له الثواب الجزيل في الآخرة.

وقد اتسعت أبعاد شخصيته لمختلف الجوانب، وقد اخترنا منها - بحكم عملنا وتوجهنا الأصل - سعيه لتحقيق الوحدة الإسلامية، وهي خاصية هذه الأمة، وبدونها لا نستطيع أن نعلن نفسها أمة جامعة لكل الخصائص التي وصفها بها القرآن الكريم والسنة الشريفة.

وجهد المرحوم العلامة في هذا السبيل متنوعة أيضاً مما جعلنا نركز على كتابه القيم (الفصول المهمة في تأليف الأمة) بالخصوص، واكتشاف الخطوط العريضة التي سلكها لنستهدي بذلك في مسعانا المبارك إن شاء الله تعالى.

وباستعراضنا لهذا الكتاب، والمنهج المتبع فيه تبدو لنا الخطوط التالية:

أولاً: التركيز على أهمية الوحدة الإسلامية في التصور الإسلامي، ومدى اقتضاء الظروف لها، والآثار السلبية للتمزق والتناحر.

ثانياً: السعي لتعيين الخط الرئيس الفاصل للإيمان عن الكفر، والنجاة عن الضياع.

ثالثاً: إشاعة الثقة والتآلف بين جماهير المسلمين.

رابعاً: كشف العناصر الممزقة باعتبارها العقبة الكؤود في سبيل تحقق هذه الخاصية القرآنية للأمة.

وفيا يلي نستعرض هذه الخطوط بشيء من التفصيل:

الخط الأول: أهمية الوحدة وأخطار التمزق

وهو يؤكد على أن النهضة الإسلامية، وتنمية العالم الإسلامي وتقدمه حتى في المجال المدني، وخلصه من نير العبودية، وإقامة نظام العدالة لا يتم إلا من خلال الوحدة، وبدونها تعود الأمة اذل الأمم داراً واجدبها قراراً، نزهة للطامع، وهدفاً للسهام، وقبسة العجلان، وحلقة ضيق، وعرصه موت، وحومة بلاء، لاتأوي إلى جناح دعوة، ولاتعتصم بظل منعة (المقدمة).

وفي الفصل الأول: يذكر نبذة من ما جاء في الكتاب العزيز والسنة الشريفة من الترغيب في الوحدة والتآلف، وتحقيق الأخوة الإسلامية والولاية المشتركة، والرحمة المتبادلة والاعتصام بحبل الله، والبعد عن التخلّق بأخلاق الأمم المتفرقة الغارقة في العذاب الأليم.

ومما تؤكد النصوص الشريفة:

- الإيمان رهن بالتحاب
- الحب للأخ المسلم ما يحب لنفسه
- ذمة المسلمين واحدة
- لزوم نفي كل ما يؤدي للتباعد
- لزوم تعميم الالتزام بحقوق المسلم
- ضرورة التواصل بشتى الأساليب
- التآلف من صفات المؤمنين
- أولياء الله هم المتحابون وهم جيران الله في داره
- الى غير ذلك مما لا مزيد عليه.

الخط الثاني: تعيين الحد الفاصل بين الإيمان والكفر، والنجاة والهلاك

وقد ركز عليه في فصول:

الفصل الثاني: حيث أكد إجماع أهل السنة على أن الإسلام، والإيمان عبارة عن: الشهادتين، والتصديق بالبعث، والصلوات الخمس إلى القبلة، وحج البيت، وصيام رمضان، والزكاة والخمس المفروضين. وأيد ذلك بروايات من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومصادر الشيعة.

والفصل الثالث: حيث ذكر نبذة من الصحاح الدالة على أن من تشهد الشهادتين حقن ماله وعرضه ودمه، وذلك من صحيح البخاري وصحيح مسلم ومنها الحديث: أن رجلاً قام فقال: يا رسول الله! اتق الله. فقال ﷺ: «ويلك ألسنت أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟» فقال خالد: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال ﷺ: «لا، لعله أن يكون يصلي»^١.

والفصل الخامس: حيث ركّز فيه على نجاة أهل التوحيد، ذاكراً نصوصاً من الصحاح تؤكد ذلك، وحاول الإجابة على إشكال تعذيب الموحّدين العاصين بأثمهم يعدّون دون خلود في النار، وأشار إلى أحاديث كثيرة في هذا الباب من الفريقين، بل إن بعض الأحاديث تكتفي بالموت عالماً بالتوحيد لدخول الجنة.

والفصل السادس: وركّز فيه على فتاوى كثير من العلماء على نجاة من نطق بالشهادتين، ومنهم: شيخ الإسلام تقي الدين السبكي، وابن العربي، والفاضل الرشيد، والعارف الشعراي، وابن تيمية، وابن حزم وغيرهم بما يحقّق الإجماع، وبهذا يوضّح المعيار تماماً.

ملاحظة هامة: يشير المؤلف إلى أن الشيعة يضيفون عنصر الولاء لأهل البيت عليهم السلام بمقتضى النصوص الكثيرة لديهم (ص ٥٤) و(ص ٢٣) ولكن عدم الولاء لا يخرج الإنسان من دائرة الإيمان إلا إذا كان بمنطق العناد، فإن العناد لله ورسوله هو معيار التكفير. (ص ٦٨) أمّا من لم تقنعه الأدلة بالولاء على المستوى الذي يفهمه الشيعة فإنّه باق في دائرة الإيمان، وله نفس الحقوق التي قال بها الإسلام للمسلم. وهذا الرأي هو الرأي السائد لدى العلماء، وما تثبته النصوص عن أهل البيت عليهم السلام بلاريب. أمّا على مستوى الحبّ والاحترام فهو من أوضح الواضحات بحيث لا ينكره إلا معاند. لذا يهتّز المرحوم شرف الدين عندما يواجه كلاماً غريباً مجافياً للحقّ وكاشفاً عن العناد، من أمثال قول ابن خلدون حيث ذكر في مقدمته المشهورة أنّه (وشدّ أهل البيت في مذاهب ابتدعوها، وفقه انفرادوا به، وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح). وهو يعلّق عليه بقوله: (ولا غرو إن قام المسلم عند سماع هذه الكلمة وقعد، بل لاعجب إن مات أسفاً على الإسلام وأهله. إذ بلغ الأمر هذه الغاية) (ص ٢٥٥).

١. كنز العمال، ج ١١ ص ٣١٠ ح ٣١٥٩٧.

الخط الثالث: إعادة الثقة المتبادلة والتآلف بين السنة والشيعية

ويتنظم في محاور:

المحور الأول: الابتعاد عن لغة التجريح والنقد اللاذع، والاحترام للرأي الآخر بشكل لافت للنظر.

فهو إذا ذكر أهل السنة ذكرهم بلفظ (إخواننا) (ص: ٢٣) وإذا نقل حديثاً عن البخاري قال - مثلاً - (قلت: أعظم بهذا الحديث!) (ص: ٣٥)، وإذا ذكر الصحابة ترصّى عنهم وأجلّهم، وإذا ذكر أم المؤمنين عائشة قال عنها: (إنّها انقى جيّاباً، وأطهر ثوباً وأعلى نفساً، وأعلى غرضاً وأمنع صوتاً، وأرفع جناباً، وأعزّ حذراً، وأسمى مقاماً من أن يجوز عليها غير النزاهة أو يمكن في حقّها إلاّ العفة والصيانة) (ص: ٢١٠) وغير ذلك من الشواهد.

المحور الثاني: السنة والشيعية والمعايير المذكورة

بعد أن تحدّث عن معايير الإيثار والنجاة راح يطبّقها على السنة والشيعية في فصل كامل هو الفصل الرابع الذي عنوانه بـ(السنة كالشيعية يجمعهم الإسلام) ويجعل ذلك في (غاية الوضوح في مذهبنا) (ص ٤١) ناقلاً الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام والإمام الباقر عليه السلام حيث في الصحيح عنه قوله: (والإسلام ما ظهر من قول أو فعل، وهو الذي عليه جماعة من الناس من الفرق كلّها، وبه حقنت الدماء، وعليه جرت المواريث، وجاز النكاح، واجتمعوا على الصلاة والزكاة والصوم والحج، فخرجوا بذلك عن الكفر وأضيفوا إلى الإيثار).

المحور الثالث: بشارات السنة للشيعية

ويزيد في هذا المحور فيتحدّث عن انصاف السنة للشيعية وبشاراتهم لهم؛ تأكيداً على عرى المحبة، وبعثاً للثقة المتبادلة، حيث ينقل بعض الروايات التي أوردها بعض الحفاظ من أهل السنة وهي تؤكّد على علي عليه السلام وشيعته، واصفةً إيّاهم بالراضين والمرضيين والغرّ المحجّلين والشهداء، ويعلّق في نهاية الفصل بقوله: (فعسى أن يعرف الشيعي بعد هذا أنّ أهل السنة قد أنصفوا واعترفوا، وعسى أن يعرف السنّي أن لا وجه بعد هذه المبشّرات لشيء من الضغائن أو الهناة. والسلام على من أتبع السنن وجانب الفتن ورحمة الله وبركاته) (ص ٨١).

المحور الرابع: فتح باب التآؤل يمنع الكثير من الأحكام الجارحة

وهذا باب مهم يركّز عليه كثيراً ليفسّر الكثير من المبهات في أذهان الطرفين على أساس أنّ تلك التصرفات إنّما تعبّر عن اجتهادات أو تصورات قد تكون صحيحة أو خاطئة، ولكنّها لا تفتح باب الاتهام بالانحراف والكفر والفسق. وهو يؤكّد أنّ فتح هذا الباب يهدف إلى إعدار المتأولين (ص ٨٥) ويذكر أمثلةً متنوعةً تشمل مايلي:

- سعد بن عباد وبعده من أفضل المسلمين رغم أنّه تأوّل وتخلّف عن بيعة الخليفين أبي بكر وعمر وخرج مغاضباً إلى الشام.

- حباب بن المنذر الانصاري البدري الأحدي، وقد تخلّف عن البيعة.

- كثير من الصحابة أيضاً تأوّلوا وتخلّفوا عنها.

- خالد بن الوليد حينما قتل مالك بن نويرة وطالب عمر بمجازاته، فقال عنه الخليفة ابوبكر: تأوّل فأخطأ.

وعلق المرحوم شرف الدين هنا قائلاً: (وليس شعري متى كان التأوّل في الفروع نكراً، أم كيف لا يكون عند الله عذراً؟ وقد تأوّل السلف كثيراً من ظواهر الأدلة) (ص ٩٥).

ثم ذكر بعض الأمثلة؛ كطلاق الثلاث، ومتعة الحج، ومتعة النساء، وأذان الصبح، وإسقاط (حي على خير العمل)، وصلاة التراويح، وإسقاط سهم المؤلّفة قلوبهم، وآية الخمس، وحديث الغدير، وغير ذلك. وقد أطل في هذا الموضوع وربّما نسي أصل ما دعاه لطرحة، ودخل في مناقشات تاريخية وعقائدية أبعده عن أصل مشروعه، وكأنّه أراد أن يقول: إنّ بعض هذه التأولات ممّا لا يصح ولا يسمح به المنطق والشرع، وكأنّه لاحظ ذلك وأكد أنّه لو أراد أن يفيض في الأمر، ويستوفي حقّ الموضوع، لخرج عن خطّة الكتاب (ص ١٦٨). وعاد ليؤكّد على معذرة المتأولين، ونجاتهم يوم الدين، ولتتابع التمثيل بما جرى أيام الخليفة الثالث عثمان من تأولات كثيرة منه ومن مخالفيه أيضاً، ومع ذلك بقي الجميع على العدالة، وهكذا ما جرى من البعض أيام خلافة الإمام عليّ عليه السلام، ويستمر مفيضاً في كثيراً من المخالفات التي حملت على التأوّل خصوصاً في عهد معاوية. وكأنّي به يريد أن يقول في النهاية - وإن لم يصرّح بذلك في هذا الفصل لكنّه أشار إليه في مواضع أخرى (ص ٢٠٨ مثلاً): إنّنا يجب أن نتعامل مع الآخرين من المسلمين بنفس المنطق، ونعذرهم إذا ما قاموا بأيّ عمل نراه واضح الخطأ. فلعلّهم تأوّلوا واجتهدوا وأخطأوا،

وبالتالي نبقي باب الرحمة مفتوحاً على مصراعيه، ولاندخل في عمليات تكفير وتفسيق وتبديع. وربما أراد أن يقول هنا: أن السبّ الذي يبدو من البعض القليل من المسلمين، رغم أنه مرفوض، لكنّه لا يؤدّي إلى الكفر الصريح، والى فتاوى تستبيح الدماء والأعراض والأموال. وقد أشار في موضع آخر إلى الموضوع مذكراً أنّ الشيعة يتبرأون من ذلك (أي السبّ) (ص ٢١٢) وأردف ذلك بتأكيد على أنه حتى لو كان فإنه لا يؤدّي إلى الكفر، مؤكّداً ذلك بالدليل القاطع من العقل والنقل وأقوال الفقهاء الكثيرين في هذه المسألة.

المحور الخامس: توضيح الأمر ودفع الشبه المثارة لدى كلّ طرف ضد الآخر

ومن الشبه المثارة التي ردّها بالتفصيل:

١- ما ذكرناه من مسألة السبّ.

٢- مسألة المتعة (ص ٩٩); وقد أفاض في بيان أصل مشروعيّتها إجماعاً في بدء أمرها، ثم جاء الاختلاف في دوام حلّها واستمرار إباحتها، وناقش دعوى النسخ وأكّد أنّ التحريم جاء في عهد الخليفة الثاني عمر، وأنّ بعض الصحابة كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وغيرهم لم يقبلوا ذلك.

٣- مسألة الموقف من السيدة عائشة والصحابة; فأكّد احترام الشيعة للسيدة عائشة أم المؤمنين وإيمانهم بطهارتها، وإن اختلفوا معها في بعض تصرّفاتهما كخروجها على ولي الأمر الشرعي. وكذلك الأمر بالنسبة للصحابة الكرام مع المناقشة وعدم قبول بعض تصرّفاتهم، وذكر الأمر بالتفصيل في (ص ٢٦٣).

حيث أكّد أنّ (الكاملية) - وهي فرقة مغالية - تتحامل على الصحابة، أمّا الإمامية فهم من جهة يقتنون - حتى في تشييعهم - بكبار الصحابة، وذكر منهم الكثيرين، ورثبهم حسب الحروف الابجدية، ومن جهة أخرى فهم يتولّون الآخرين الذين اختاروا مسيراً معيّناً لمصلحة رأوها، واختلفوا مع آخرين لأنهم لم يرتضوا ما صدر عنهم. ونقل هنا من الصحاح بعض الروايات التي تذكر أنّ البعض منهم أحدثوا بعده.

٤- بعض الأقوال المغالية; وقد ردّ عليها بأنّ هناك الكثير من الفرق المغالية تنتسب إلى التشييع؛ كالأغاخانية والكيسانية والناووسية والخطابية والفضحية والواقفية، فربما وجدت أقوال من هؤلاء ثم نسبت إلى الإمامية (ص ٢٢٥).

٥- بعض المنقولات التاريخية عن الشيعة وهم منها براء، من قبيل:

- تجويز نكاح تسع نسوة!

- تحريم الكرب!

- تحريم لحوم الابل!

- عدم ايجاب العدة على النساء.

وغير ذلك، فينبغي ألا ننسب إلى مذهب أقوالاً إلا إذا استقيت من الكتب الأصيلة له.

الخط الرابع: التركيز على العناصر الممزقة ومناقشتها، ويتجلى ذلك في قيامه بالبحث عن أسباب

الفرقة والتباعد بهدف تشخيص الداء لوصف الدواء الناجع كما يعبر (ص ٢٤٩) ويراها كما يلي:

أ- الأمور التي ينفر منها الشيعي وأهمها أمران:

الأول: ما يسمعه من تكفير وتحقير وتزوير.

الثاني: إعراض الأخوة - كما يعبر - من أهل السنة عن مذهب أهل البيت، وعدم الاحتجاج

بحديثهم، رغم الاحتجاج بدعاة الخوارج والمرجئة والمشبهة والقدرية، وذكر هنا عدم رواية

البخاري عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وعبارة ابن خلدون المار ذكرها.

وهنا دعا جميع المسلمين أن يدخلوا مدينة العلم النبوي من بابها بعد أن اسفر الصبح عن

توثق الروابط بين الطائفتين، والحمد لله رب العالمين (ص ٢٦١).

أما ما ينفر السنة من الشيعة فقد أشار إلى أنه ذكر بعضها في ثنايا الكتاب، وأكد على عدم صحتها.

ب- وركز على فتاوى التكفير الصادرة من البعض؛ كالشيخ نوح الحنفي وغيره، وناقش الأدلة

التي سيقنت تبريراً لها، دليلاً دليلاً، واعتراض على خصوص تعبير الشيخ الحنفي عن الشيعة بأنهم

كفرة بغاة فجرة، وأن من توقف في كفرهم وإلحادهم ووجوب قتلهم وجواز قتلهم فهو كافر

مثلهم!! وحكم بوجوب قتلهم، تابوا أو لم يتوبوا! واسترقاق نساءهم وذرائعهم (ص ١٩٦).

والحقيقة هي أن كل منصف عاقل يستسخف هذه الفتاوى. وأطب السيد في مناقشة

حججه وأدلته.

ج- ثم تحدث عن دور الكذابين المفرقين من بعض الكتاب، حيث نسبوا للشيعة أموراً كثيرة

يبرأون منها. وذلك إما إرضاء للسلطات الحاكمة (ص ٢٢٣) على مر التاريخ، أو إبعاداً للأمة عن

سماح أقوالهم وتنفيذها منهم، أو لالتباس الأمر على هؤلاء الكتاب لرؤيتهم أقوالاً لغلاة ينتسبون للشيعة فنسبوا للتشيع، والتشيع الإمامي نفسه يتبرأ من الغلاة، وهذا ما أشرنا إليه سابقاً. وختاماً نقول: إننا حاولنا أن ننقل بأمانة ما ذكره العلامة شرف الدين، وربما جمعنا أطراف بعض الأفكار لبيان تجلّي هذه الخطوط في هذا الكتاب القيم، ولم نتعرض لأفكاره كلها في كتبه القيمة الأخرى؛ لأن ذلك يتطلب جهداً أكبر ووقتاً أوسع لم نكن نمتلكه.

والأمر الذي لا غبار عليه أنه؛ كان يتشوق من جهة إلى وحدة هذه الأمة، وانفتاح بعضها على البعض الآخر، كما كان من جهة أخرى ملتزماً بمذهبه تمام الالتزام منافحاً مدافعاً مثبثاً له بقوة. ونحن إذ ندعو للوحدة الإسلامية لانرمي إلى أن يتنازل أي فرد أو مذهب عن آرائه التي توصل إليها بقناعة واستدلال، لمجرد إرضاء الطرف الآخر. نعم يمكن تأجيل بعض الخلافات النظرية أو عدم التركيز على بعضها الآخر، لأنها قد لاترك كبير أثر على الواقع القائم. وهذا ما أشار إليه في جوابه على الاتهام الموجه للشيعة بأنهم يرفضون خلافة الشيخين، فقال بأنه لا يمكن إنكار واقع تاريخي (ولا ينكر استخلاف الشيخين (رضي الله عنهما) ذو شعور، ولا يرتاب فيه ذو وجدان، وقد امتدت إمارتهما من سنة ١١ إلى سنة ٢٣ وفتحت بها الفتوحات، وضرب الدين بجراحه. على أن خلافتها من الشؤون السياسية التي خرجت بانقضائها وتصرمها عن محلّ الابتلاء، فأبى وجه لتنافر المسلمين اليوم بسببها واي ثمرة عملية تترتب فعلاً على الاعتقاد بها. فهلوموا يا قومنا للنظر في سياستنا الحاضرة... وأبى وجه لتكفير المسلمين بإنكار سياسة خالية وخلافة ماضية؟ وقد أجمع أهل القبلة على أنها ليست من أصول الدين، وتصافقوا على أنها ليست مما بني الإسلام عليه) (ص ٢٠٧).

وهي دعوة طرحها الإمام البروجردي ١ وبعض العلماء الآخرين، كالمرحوم شمس الدين في ميثاقه الوحدوي.^١

وعلى أي حال فباب البحث الأكاديمي العلمي مفتوح في المجال العقائدي، وكذلك في مجال التقويم التاريخي شريطة اتباع منهج الحوار القرآني. ولكن هذا لايعني أن ننقل هذا إلى نزاع عملي

١. مجلة رسالة التقريب، العدد ٣٣ ص ١٧٧.

نهينا عنه بشدة، وأن يتحامل بعضنا على البعض الآخر، وأن نمزق صفنا الواحد، خصوصاً بعد أن تجمّع علينا الأعداء من كلّ جانب، ووحدوا خطّهم - رغم اختلافاتهم فيما بينهم - ولنعبر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^١.

٢- الخطوط العامة للمنهج الوحدوي في (المراجعات)

ونحن إذ ندرس كل انتاجه العلمي نلمس خطوطاً وحدوية واضحة فيه وان تفاوتت درجات التركيز، تبعاً للاغراض التي يستهدفها هذا الكتاب أو ذلك، وهو ما نحاول التعرف عليه عند قراءتنا لكتابه الشهير (المراجعات).

فبالنسبة للخط الأول نجده رحمه الله يجعل الوحدة الإسلامية ونبذ الفرقة دافعه الرئيس للتوجّه إلى مصر الكنانة، حيث كان مسرح المكاتبات التي يتألّف منها كتاب المراجعات. يقول المؤلّف في المقدمة:

«أما فكرة الكتاب فقد سبقت مراجعاته سبقاً بعيداً، إذ كانت تلتمع في صدري منذ شرح الشباب التماع البرق في طيات السحاب، وتغلي في دمي غليان الغيرة، تتطلع إلى سبيل سويّ يوقف المسلمين على حدّ يقطع دابر الشغب بينهم، ويكشف هذه الغشاوة عن أبصارهم، لينظروا إلى الحياة من ناحيتها الجدية، راجعين إلى الأصل الديني المفروض عليهم، ثم يسيروا معتمدين بحبل الله جميعاً، تحت لواء الحق إلى العلم والعمل، إخوة بررة يشدّ بعضهم أزر بعض. لكن مشهد هؤلاء الإخوة المتصلين بمبدأ واحد، وعقيدة واحدة، كان - وأأسفاه - مشهد خصومة عنيفة، تغلو في الجدال غلو الجهال، حتى كأن التجالد في مناهج البحث العلمي من آداب المناظرة، أو أنه من قواطع الأدلة! ذلك ما يثير الحفيظة، ويدعو إلى التفكير، وذلك ما يبعث الهم والغم والأسف، فما الحيلة؟ وكيف العمل؟

هذه ظروف ملمة في مئين من السنين، وهذه مصائب محدقة بنا من الأمام والوراء، وعن الشمال وعن اليمين، وذلك قلم يلتوي به العقم أحياناً؛ وتجور الأطماع أحياناً أخرى؛ وتدور به الحزبية تارة؛ وتسخره العاطفة تارة أخرى، وبين هذا وذاك ما يوجب الارتباك، فما العمل؟ وكيف الحيلة؟

ضقت ذرعا بهذا؛ وامتلاّت بحمله همّاً فهبطت مصرّاً أواخر سنة ١٣٢٩، مؤملاً في «نيله» نيل الأمانة التي أنشدها؛ وكنت الهمت أني موفق لبعض ما أريد؛ ومتصل بالذي أدور معه الرأي، وأتداول معه النصيحة، فيسدّد الله بأيدينا من «الكنانة» سهماً نصيب به الغرض، ونعالج هذا الداء الملحّ على شمل المسلمين بالتمزيق، وعلى جماعتهم بالتفريق، وقد كان - والحمد لله - الذي أملت؛ فإن مصر بلد ينبت العلم؛ فينمو بها على الاخلاص والإذعان للحقيقة الثابتة بقوة الدليل؛ وتلك ميزة لمصر فوق مميزات التي استقلت بها».

وهو في المراجعة رقم ٤٨ يوضّح حقيقة هامة، هي أن لمّ شعث المسلمين لا يعني تنازل اتباع المذاهب عن مذاهبهم؛ لأن اختلاف الرأي أمر طبيعي، خصوصاً بعد أن فتح الإسلام باب الاجتهاد وإنما يتم عبر القبول بالآخر. فهو يقول: هلم بنا إلى المهمة التي نبهتنا إليها من لمّ شعث المسلمين، والذي أراه أن ذلك ليس موقوفاً على عدول الشيعة عن مذهبهم ولا على عدول السنة عن مذهبهم... نعم يلمّ الشعث ويتنظم عقد الاجتماع بتحريركم مذهب أهل البيت واعتباركم إياه كأحد مذاهبكم، حتى يكون نظر كلّ من الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية إلى شيعة آل محمد ﷺ كنظر بعضهم إلى بعض، وهذا يجتمع شمل المسلمين، ويتنظم عقد اجتماعهم.

والواقع أن هذه الحالة التي دعا إليها الأمام شرف الدين شكّلت هدفاً إستراتيجياً، وأفقاً منظوراً للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، حيث جاء في إستراتيجية المجمع مايلي:

ينوي المجمع تحقيق النقاط التالية:

١ - السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ظروف ووضع ما يكون إلى عصر الرسول الأكرم ﷺ من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية، والقضاء على أجواء العداوة والعصبيّة الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.

٢ - توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كلّ المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.

وفي هذا السياق وفي نفس المراجعة يؤكّد المرحوم على موضوع فتح باب الاجتهاد ويرى أنّ إغلاقه يعبر عن ظاهرة سلبية بعد أن كان مفتوحاً على مصراعيه في القرون الثلاثة الأولى وبعد أن لم يدع أئمة المذاهب أنفسهم لذلك.

وبالتالي فهو في المراجعة رقم (٦) يستند في اعتبار مرجعية أهل البيت محوراً للوحدة الإسلامية إلى أقوال أهل البيت «انفسهم، بعد أن قرنهم رسول الله ﷺ بمحكم الكتاب، وجعلهم قدوة لأولي الألباب، وسفناً للنجاة إذا طغت لجج النفاق، وأماناً للأمة من الاختلاف إذا عصفت عواصف الشقاق، وباب حطة يغفر لمن دخلها، والعروة الوثقى لا انفصام لها، وقد قال أمير المؤمنين^١ «فأين تذهبون وأنى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوبة فأين يتاه بكم؟ بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم؟ وهم أزمة الحق، وأعلام الدين وألسنة الصدق؟ فانزلوهم بأحسن منازل القرآن وردّوهم ورود المهيم العطاش. أيها الناس! خذوها^٢ من خاتم النبيين ﷺ إنه يموت من مات منا وليس بميت، ويلى من بلى منا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، واعذروا من لا حجة لكم عليه وأنا هو، ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر^٣ وأترك فيكم الثقل الأصغر، وركزت فيكم راية الإيمان...» الخ.

وقال عليه السلام: ٤ أنظرو أهل بيت نبيكم، فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا، وان نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا».

وذكرهم عليه السلام مرة فقال: ٥ «هم عيش العلم وموت الجهل، يخبركم حلمهم عن علمهم، وظاهرهم عن باطنهم، وصمتهم عن حكم منطقتهم، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه، هم دعائم الإسلام وولائج الاعتصام، بهم عاد الحق في نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقلوا الدين عقل وعناية ورعاية لا عقل سماع ورواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل».

١. كما في ص ١٥٢ من الجزء الاول من النهج من الخطبة ٨٣.

٢. أي: خذوا هذه القضية عنه ﷺ وهي (إنه يموت الميت من أهل البيت وهو في الحقيقة غير ميت) لبقاء روحه ساطعة النور في عالم الظهور) كذا قال الشيخ محمد عبده وغيره.

٣. عمل أمير المؤمنين بالثقل الأكبر وهو القرآن وترك الثقل الأصغر وهو ولده ويقال عترته قدوة للناس كذا قال الشيخ محمد عبده وغيره من شارحي النهج.

٤. كما في ص ١٨٩ من الجزء الاول من النهج من الخطبة ٩٣.

٥. كما في ص ٢٥٩ من الجزء الثاني من النهج من الخطبة ٢٣٤.

وقال عليه السلام من خطبة أخرى: ^١ «عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر وشجرته خير الشجر نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال وثمره لاتنال».

وقال عليه السلام: ^٢ «نحن الشعار والأصحاب والخزنة والأبواب، ولاتتوتى البيوت إلا من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سمي سارقا» إلى أن قال في وصف العترة الطاهرة: «فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا، فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله» الخطبة.

وقال عليه السلام من خطبة له ^٣: «واعلموا أنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه، ولن تأخذوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نقضه، ولن تمسكوا به حتى تعرفوا الذي نبذه، فالتمسوا ذلك من عند جهله، فإنهم عيش العلم، وموت الجهل، هم الذين يخبركم حكمهم عن علمهم، وصمتهم عن منطقتهم، وظاهرهم عن باطنهم، لا يخالفون الدين ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهد صادق وصامت ناطق»

إلى كثير من النصوص المأثورة عنه في هذا الموضوع، نحو قوله عليه السلام: «بنا اهتديتم في الظلماء، وتسنتم العلياء، وبنا انفجرتم عن السرار، وقر سمع لم يفقه الواعية» الخطبة ^٤.

وقوله: ^٥ «أيها الناس! استصبحوا من شعلة مصباح واعظ متعظ، وامتاحوا من صفوعين قد روّقت من الكدر» الخطبة.

وقوله: ^٦ «نحن شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم وبنابيع الحكم، ناصرنا ومحبنا ينتظر الرحمة، وعدونا ومبغضنا ينتظر السطوة».

١. كما في ص ١٨٥ من الجزء الأول من النهج من الخطبة ٩٠.

٢. كما في ص ٥٨ من الجزء الثاني من النهج من الخطبة ١٥٠.

٣. كما في ص ٤٣ من الجزء الثاني من النهج من الخطبة ١٤٣.

٤. هي الخطبة ٣ ص ٣٣ من الجزء الأول من النهج.

٥. كما في ص ٢٠١ من الجزء الأول من النهج من الخطبة ١٠١.

٦. في آخر الخطبة ١٠٥ آخر ص ٢١٤ من الجزء الأول من النهج - وقال ابن عباس نحن اهل البيت شجرة النبوة ومختلف الملائكة واهل البيت الرسالة وأهل بيت الرحمة ومعادن العلم. نقل هذه الكلمة عنه جماعة من اثبات السنة وهي موجودة في آخر باب خصوصياتهم ص ١٤٢ من الصواعق المحرقة لابن حجر.

وقوله: ١ «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرّمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطي الهدى ويستجلى العمى، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاية من غيرهم» إلى أن قال عمّن خالفهم: «آثروا عاجلاً وأخروا آجلاً وتركوا صافياً وشرّبوا آجناً» إلى آخر كلامه .
وقوله: ٢ «فإنه من مات منكم على فراشه وهو على معرفة حق ربّه وحقّ رسوله وأهل بيته مات شهيداً، ووقع أجره على الله واستوجب ثواب ما نوى من صالح عمله، وقامت النية مقام إصلاّته لسيفه».

وقوله عليه السلام: «نحن النجباء، وأفراطنا أفراط الأنبياء، وحزبنا حزب الله عزوجل، والفئة الباغية حزب الشيطان، ومن سوى بيننا وبين عدوّنا فليس منّا».
وخطب الإمام المجتبي أبو محمد الحسن السبط سيد شباب أهل الجنة، فقال: «اتقوا الله فينا فإنّا أمراؤكم» الخطبة ٤.

وكان الإمام أبو محمد علي بن الحسين زين العابدين وسيد الساجدين إذا تلا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يدعو الله عزوجل دعاءً طويلاً يشتمل على طلب اللحوق بدرجة الصادقين والدرجات العلية ويتضمن وصف المحن، وما انتحلته المبتدعة المفارقة لائمة الدين والشجرة النبوية ثم يقول: «وذهب آخرون إلى التقصير في أمرنا، واحتجّوا بمتشابه القرآن فتأولوا بأرائهم، واتهموا مآثور الخبر فينا» إلى أن قال: «فإلى من يفزع خلف هذه الأمة وقد درست اعلام هذه الملة ودانت الأمة بالفرقة والاختلاف يكفر بعضهم بعضاً والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فمن الموثوق به على ابلاغ الحجة وتأويل الحكم إلاّ أعدال الكتاب وأبناء أئمة الهدى ومصاييح الدجى، الذين احتج الله بهم على عباده ولم يدع الخلق سدى من غير حجة، هل تعرفونهم أو تجدونهم إلاّ من

١. من كلام له ١٤٠ ص ٣٦ من الجزء الثاني من النهج.

٢. في آخر الخطبة ١٨٥ ص ١٥٦ من الجزء الثاني من النهج.

٣. نقل هذه الكلمة عنه جماعة كثيرون، احدهم ابن حجر في آخر باب خصوصياتهم من آخر الصواعق ص ١٤٢.

٤. راجعها في أواخر باب وصية النبي بهم من الصواعق المحرقة لابن حجر، ص ١٣٧.

فروع الشجرة المباركة، وبقايا الصفوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وبرأهم من الآفات، وافترض مودتهم في الكتاب» هذا كلامه^١ عليه السلام بعين لفظه فأمعن النظر فيه وفيما تلوناه عليك من كلام أمير المؤمنين تجدهما يمثلان مذهب الشيعة في هذا الموضوع بأجلى مظاهره واعتبر هذه الجملة من كلامهما نموذجاً لأقوال سائر الأئمة من أهل البيت، فإنهم مجمعون على ذلك وصحاحنا عنهم في هذا متواترة والسلام».

وهكذا نجد أنّ مصلحة الأمة ووحدها أصل يتقدم - عنده - على غيره، ومن هنا يشير المرحوم إلى هذه الحقيقة عندما يحاول الإجابة على الاعتراض القائل: لماذا لم يطالب الإمام علي عليه السلام بحقه (لو كان يؤمن به) بعد السقيفة؟ فيقول في المراجعة ١٠٢: «إن علياً لم ير للاحتجاج عليهم يومئذ أثراً إلاّ الفتنة التي كان يؤثر ضياع حقه على حصولها في تلك الظروف إذ كان يخشى منها على بيضة الإسلام وكلمة التوحيد».

واستند إلى نص جاء في نهج البلاغة عنه عليه السلام يقول فيه واصفاً موقفه من البيعة: «فأمسكت يدي حتى رايت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد ﷺ فخشيت أن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون فيه المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي انما هي متاع أيام قلائل يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما يتقشع السحاب، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأنّ الدين وتنهت»^٢.

ولانجد حديثاً مفصلاً عن معيار الكفر والإيمان، وهو الخط الثاني الذي اعتمده في (الفصول المهمة) لأنّ المرحوم العلامة البشري قد تسامى على هذه المسألة، وانفتح أمام فكر ومذهب أهل البيت عليه السلام فلم يكن أيّ داع لفتح هذا الموضوع إلاّ بمقدار توضيح شبهة الخروج على الإجماع على الأخذ بمذهب الأشعري في أصول الدين والمذاهب الأربعة في الفروع «وقد دان بها السلف الصالح، ورأوها اعدل المذاهب وأفضلها واتفقوا على التبعّد بها في كل عصر ومصر وأجمعوا على عدالة أربابها، كما عبّر المرحوم المناظر في المراجعة الثالثة».

١. فراجع في ص ٩٠ من الصواعق المحرقة لابن حجر في تفسير الآية الخامسة (واعتصموا بحبل الله جميعاً) من الآيات

التي أوردها في الفصل الأول من الباب ١١.

٢. راجع كتابه إلى أهل مصر، وقد بعثه مع مالك الاشتهر.

فأجاب المرحوم شرف الدين بما ملخصه أن التزام الشيعة بمذهب أهل البيت عليهم السلام لم يكن لتحزب أو تعصب ولا للريب في اجتهاد أئمة تلك المذاهب، ولا لعدم عدالتهم وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم، علماً وعملاً، لكن الأدلة الشرعية دعوتهم إلى ذلك ولو سمحت لهم لقصوا آثار الجمهور، وجروا على أسلوبهم؛ تأكيداً لعقد الولاء وتوثيقاً لعرى الاخاء.

ثم تحدّث عن فضل أئمة أهل البيت عليهم السلام وأشار إلى بعض النصوص ونبه إلى أن أهل القرون الثلاثة الأولى لم يدينوا بشيء منها أصلاً، وانتقد عملية سدّ باب الاجتهاد - كما أسلفنا - وأكد من جديد على أن عدم اتباع مذاهبهم لا يعني عدم الاعتراف بعلو قدرهم.

وقد أشار المرحوم في مقدمته إلى فكرة اتفق عليها العلمان وهي أن الطائفتين: السنة والشيعة، مسلمون يدينون حقاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، لا اختلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبس بالمبدأ الإسلامي الشريف، ولا نزاع بينهم إلا ما يكون بين المجتهدين في بعض الأحكام لاختلافهم فيما يستنبطونه من الكتاب أو السنة أو الإجماع أو الدليل الرابع، وذلك لا يقضي بهذه الشقة السحيقة، ولا بتجشّم هذه المهاوي العميقة، إذن أيّ داع آثار هذه الخصومة المتطايير شررها منذ كان هذان الاسمان: سنة وشيعة، إلى آخر الدوران ونحن لو محصّنا التاريخ الإسلامي وتبيّنا ما نشأ فيه من عقائد وآراء ونظريات، لعرفنا أن السبب الموجب لهذا الاختلاف إنّما هو ثورة لعقيدة ودفاع عن نظرية أو تحزب لرأي، وأن أعظم خلاف وقع بين الأمة اختلافهم في الإمامة فإنّه ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة! فأمر الإمامة إذن من أكبر الأسباب المباشرة لهذا الاختلاف، وقد طبعت الاجيال المختلفة في الإمامة على حب هذه العصبية، وألفت هذه الحزبية، بدون تدبّر وبدون روية، ولو أن كلاً من الطائفتين نظرت في بينات الأخرى نظر المتفاهم، لا نظر الساخط المخاصم، لحصص الحقّ وظهر الصبح لذي عينين. وقد فرضنا على أنفسنا أن نعالج هذه المسألة بالنظر في أدلة الطائفتين، فنفهمهما فهماً صحيحاً، من حيث لا نحس إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد، بل نتعرّى من كلّ ما يحوطننا من العواطف القومية، ونقصد الحقيقة من طريقها المجمع على صحته، فلمسها لمساً، ففعل ذلك يلفت أذهان المسلمين، ويبعث الطمأنينة في نفوسهم، بما يتحرر ويتقرر عندنا من الحقّ، فيكون حداً ينتهي إليه إن شاء الله تعالى. اما بالنسبة للخط الثالث وهو العمل على إشاعة الثقة فنحن نجده واضحاً هنا تماماً.

فالمُتَّبِع للمراجعات يجدها بعيدةً عن لغة التجريح والنقد اللاذع، إذ تسودها لغة الاحترام المتبادل بين المتناظرين الجليلين. فالمرحوم شرف الدين يصف المرحوم البشري بأنه علم مصر وإمامها وأنه قبلة الراجي وعصمة اللاحج، والمرحوم البشري بدوره تشيع في رسائله اروع معاني الاحترام. واذا تحدث المرحوم شرف الدين عن الصحابة أطراهم ومدحهم وترضى عنهم فهو يقول في المراجعة ٥٢: نحن نؤمن بفضائل أهل السوابق من المهاجرين والأنصار كافة، رضي الله عنهم ورضوا عنه، وفضائلهم لا تحصى ولا تستقصى، وحسبهم ما جاء في ذلك من آيات الكتاب وصحاح السنة.

وإن كان منهجه يوجّه النقد الموضوعي لسلوك الصحابي إذا كان فيه ما يوجب النقد فهو من جهة يرى أن لأم المؤمنين عائشة فضلها واحترامها ولكنه ينتقد بعض ما قامت به. وبالنسبة لائمة المذاهب الأربعة فقد مرّ بنا أنه وصفهم بالأمانة والنزاهة والجلالة، كما في المراجعة الثالثة.

وكما فعل في (الفصول المهمة) فقد فتح هنا باب التأوّل ليبقي الجميع في دائرة الطاعة، وينقل النزاع إلى مرحلة الخطأ والصواب بدلاً من كونه بين الإيثار وعدمه. فهو يرى في المراجعة ٨٣ في الجواب على سؤال محيّر خلاصته: أن الشيعة يستدلّون بالنصوص المستفيضة الدالة على الوصية، فكيف يجتمع هذا مع الإيثار بعظمة الصحابة وإيمانهم وتعبدهم؟ فهو يرى أن حل هذا التناقض يكمن في تأوّل بعضهم في هذه النصوص التي لا ترتبط بالأمر العبادية والتشريعية، وإنّما تعنى بالأمر الاجتماعية وشؤون المجتمع، فكأنّها تمثل أوامر ارشادية لا غير، ويضيف إلى ذلك قوله: ولما توفّقوا في حفظ النظام ونشر دين الإسلام، وفتح الممالك والاستيلاء على الثروة والقوة، ولم يتدنّسوا بشهوة، علا أمرهم، وعظم قدرهم، وحسنت بهم الظنون، وأحبتهم القلوب».

ونحن نعتقد بأنّه بعلمه الغزير، ووجهته الوحودية، وفق إلى حدّ كبير في حلّ الكثير من العقد التي ظلّت تتطلب الحلّ، وإن كان هناك مجال للبحث في مدى صحة هذه الحلول، ولكنها - والحقّ يقال - حلول جريئة وعميقة قابلة للتأمل والتفكير. وقد أشار إلى المصاديق التي تؤيد فكرته في المراجعات اللاحقة وإن كان ناقش اصل فكرة التفريق بين النصوص من حيث الطاعة والاتباع المتجزئي بقوة، وأكد على عدم صحة هذا المنهج في نظره، ولكنّه على أيّ حال يبقي النزاع في إطاره الصحيح.

ثم راح في بحوث مفصلة يوضح الأمر في كثير من المسائل المهمة فكرياً لكي يزيل الالتباس الذي قد يحصل في الأذهان ويوضح الأدلة عليها.

وقد امتاز طرحه بالعمق وسعة الصدر، والرجوع إلى مختلف المصادر، ومن أهم ما طرحه المسائل التالية:

١ - الأدلة التي طرحها الشيعة على مذهب أهل البيت عليهم السلام (المراجعة ٦ وما بعدها) من الكتاب والسنة الشريفة وكلمات أهل البيت أنفسهم نافية شبهة الدور والشبهات الأخرى.

٢ - إثبات استناد علماء السنة ومؤلفيهم إلى الرواة الشيعة، وقد ذكر أسماء مائة منهم على سبيل المثال لا الحصر، وحسب الحروف الأبجدية وفيهم بعض شيوخ الإمام البخاري والترمذي والنسائي وغيرهم.

٣ - إثبات أن العمل بمذهب أهل البيت عليهم السلام مبري للذمة.

٤ - إثبات الإمامة بأدلة تفصيلية، وأشار منها إلى:

أ- نصّ الدار يوم نزلت آية الإنذار في مكة.

ب - نصوص خصائص الإمام علي عليه السلام التي تفرّد بها على غيره، كحديث المنزلة، وأنها إنما تنتهي للإمامة.

ج- نصّ الغدير، واطنب فيه وأجاد، ودفع الشبه عنه.

د- نصوص الوصية ... وغير ذلك.

٥ - تفصيل احتجاج أهل البيت بالنصوص السابقة.

٦ - إثبات استناد مذهب أهل البيت اليهم في الفروع والأصول .

٧ - إثبات تدوين الشيعة للعلوم، واسماء بعض المؤلفين منهم زمن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وكلّها بحوث قيّمة قابلة للتأمل تثبت أصالة التشيع في التاريخ الإسلامي إلى جانب مسلك التسنن وتؤكد انهما معاً يشكّلان تراث هذه الأمة الحضاري.

وانا اعتبر كلّ ذلك جهداً موفّقاً في هذا السبيل، وأؤكد من جديد ما قلته في الحديث السابق عن منهجه في (الفصول المهمة) من أنّه كان يتشوّق من جهة إلى وحدة هذه الأمة، وانفتاح بعضها على البعض الآخر، كما كان من جهة أخرى ملتزماً بمذهبه تمام الالتزام، منافحاً مدافعاً مثبتاً له بقوة.

ونحن إذ ندعو للوحدة الإسلامية لانرمي إلى أن يتنازل أي فرد أو مذهب عن آرائه التي توصل إليها بقناعة واستدلال، لمجرد إرضاء الطرف الآخر. نعم يمكن تأجيل بعض الخلافات النظرية أو عدم التركيز على بعضها الآخر لأنها قد لاترك كبير أثر على الواقع القائم. وهذا ما أشار إليه في جوابه على الاتهام الموجه للشيعة بأنهم يرفضون خلافة الشيخين، فقال بأنه لايمكن إنكار واقع تاريخي ولاينكر استخلاف الشيخين (رضي الله عنهما) ذو شعور، ولايرتاب فيه ذو وجدان، وقد امتدت امارتهما من سنة ١١ إلى سنة ٢٣ وفتحت بها الفتوحات، وضرب الدين بجرانه. على أن خلافتها من الشؤون السياسية التي خرجت بانقضائها وتصرفها عن محل الابتلاء، فأبي وجه لتنافر المسلمين اليوم بسببها وأي ثمرة عملية تترتب فعلاً على الاعتقاد بها؟ فهلّموا يا قومنا للنظر في سياستنا الحاضرة... وأي وجه لتكفير المسلمين بإنكار سياسة خالية وخلافة ماضية؟ وقد أجمع أهل القبلة على أنها ليست من أصول الدين، وتصافقوا على أنها ليست مما بني الإسلام عليه (ص ٢٠٧ من الفصول المهمة).

وهي دعوة طرحها الإمام البروجردي ١ وبعض العلماء الآخرين؛ كالمرحوم شمس الدين في ميثاقه الوحدوي.^١

وعلى أي حال فباب البحث الاكاديمي العلمي مفتوح في المجال العقائدي، وكذلك في مجال التقويم التاريخي، شريطة اتباع منهج الحوار القرآني. ولكن هذا لايعني أن ننقل هذا إلى نزاع عملي نهينا عنه بشدة، وأن يتحامل بعضنا على البعض الآخر، وان نمزق صفنا الواحد، خصوصاً بعد أن تجمّع علينا الأعداء من كل جانب، ووحدوا خططهم - رغم اختلافاتهم فيما بينهم - ولنعتبر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾^٢.

١. مجلة رسالة التقريب عدد ٣٣ ص ١٧٧.

٢. الانفال: ٧٣.

الإمام الحكيم مرجع العصر الذهبي للحوزة العلمية

يمكننا أن نقول إن النصف الثاني من القرن العشرين يشكل أحد المعاصرين في الحوزات الشيعية والإسلامية على الإطلاق وربما كان هذا التحول انعكاساً للتحول الكبير في مسيرة النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية إلى حد كبير.

لقد شهدت الحوزات العلمية ظاهرتين ذهبيتين:

الأولى: تطور العملية الاجتهادية ويرجع بجذوره إلى دور المرحوم الإمام الوحيد البهبهاني (ت ١٢٠٦هـ) وإخوانه من العلماء من أمثال السيد محمد بحر العلوم (ت ١٢١٢هـ) والسيد العاملي (ت ١٢٢٦هـ) والشيخ كاشف الغطاء الكبير (ت ١٢٢٨هـ) والميرزا القمي (ت ١٢٣١هـ) وصاحب الرياض (ت ١٢٣١هـ) والشيخ النجفي صاحب الجواهر (ت ١٢٦٦هـ) دورهم في دحر الجمود الأخباري الذي أصاب العملية بالشلل، ولكن النهضة الاجتهادية الكبرى بدأت على يد الشيخ الأعظم الانصاري (ت ١٢٨١هـ) ثم قويت على يد علماء من أمثال المرحوم اليزدي، والمرحوم الآخوند الخراساني ثم الميرزا النائيني والشيخ العراقي والشيخ الإصفهاني وكانت القمة تتمثل في الجيل التالي من مثل المرحوم الإمام الحكيم، والمرحوم الإمام الخوئي والمرحوم الإمام الخائري والمرحوم الإمام البروجردي والمرحوم الإمام الخميني، واخيراً - فيما اعتقد - بلغت نضجها العظيم على يد أمثال الإمام الصدر.

الثانية: الحضور الحوزوي الفعال في المجالات الاجتماعية، وتراكم التجارب الإصلاحية والثورية لدى زعماء الحوزة عبر نهضة التنبك ضد الاستغلال، والثورة الدستورية في إيران ضد الاستبداد، وثورة العشرين ضد الاستعمار في العراق. وبعد أن حاول الاستعمار بمخططاته

لاحتلال العالم الإسلامي كله تقريباً أن يبعد الأمة عن إسلامها بإشاعة العلمانية البغيضة فكانت اقوى ردود الأمة تتمثل في النهضات التي قادت الحوزات ضده مما انتج حضوراً قوياً في الساحة وعصراً ذهبياً لها توجهه بانتصار الثورة الإسلامية بقيادة الإمام الخميني عليه السلام.

ولم يكن ذلك ممكناً لولا وعي الجماهير المتلاحمة مع العلماء وفي ذلك يقول المرحوم الشهيد الصدر (بدأت الأمة نفسها تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية المتمثلة في الإسلام بعد أن اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية المزيفة التي حملها إليها الاستعمار، ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوعي على حركة الاجتهاد نفسها ويؤكد احساسها الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشتها في عصر ما بعد الاستعمار بأن الإسلام كل لا يتجزأ)^١.

في مثل هذا العصر الذهبي ظهر الإمام الحكيم عليه السلام وساهم أكبر المساهمة في ذهبيته فكان بحق وكما قال الإمام الخميني عليه السلام: مرجع العصر ولكل الشيعة في العالم.

ولقد حوت شخصيته و مرجعيته أبعاداً واسعة أهمها فيما اعتقد الابعاد التالية:

١- البعد العلمي: وقد تمثل هذا البعد في آرائه ونظرياته العلمية التي ضمنها كتبه الشهيرة وفي كتابه العلمي الشهير (مستمسك العروة الوثقى) الذي بلغ أربعة عشر مجلداً وكان أول شرح لكتاب (العروة الوثقى) للإمام الزيدي وقد ضمنه تحقيقاته ونظرياته العلمية الدقيقة بحيث عاد منهجاً للدراسات التالية التي ركزت على محوريات هذا الكتاب بعد أن كانت تركز قبله على كتاب (التبصرة) للعلامة الحلي عليه السلام والشرائع للمحقق الحلي ; وهكذا عاد المستمسك مرجعاً علمياً للحوزات يتردد فيها ويرسم لها مسيرتها العلمية.

ورغم أنه موسوعة فقهية فقد حوى الكثير من الآراء الأصولية إلا أن آراءه الأصولية المعمقة جمعها كتابه الأصولي (حقائق الأصول) الذي يعد تعليقا على كتاب (كفاية الأصول) للعلامة الكبير الخراساني وموضحاً رائعاً له.

وهكذا فإن الحديث سيطول لو اردنا استقصاء كتبه العلمية التي وصلت إلى الاربعين^٢.

١. من مقاله حول (الاتجاهات المستقبلية للاجتهد).

٢. يراجع كتاب الأستاذ تيرانيان (الإمام الحكيم محيي الحوزة النجفية) ص ١٩٢.

كما تتطلب معرفة البعد العلمي جيداً الحديث عن منهجه العلمي وعن قدرته الرائعة على تربية العلماء وادارة عملية البحوث في الحوزة العلمية النجفية، وهذا ما لا تقدر عليه في هذا المختصر.

٢- جهوده في بناء حوزة واعية وجيل إسلامي يبني مستقبلاً واعداءً.

وهذا البعد لا يقل اهمية عن البعد الأول بل يمنح الإمام الحكيم الميزة المهمة التي يتمتع بها. ويدخل في هذا البعد الكثير من النشاطات التي يقف المرء امامها على سعة من التخطيط وقوة و ارادة فريدة وتوضيحات جسيمة وبعد نظر حصيف واحاطة شاملة بمقتضيات العصر وهذه أمور لا تجتمع إلا في قليل من الشخصيات الالهية المخلصة الواعية ولقد وفقني الله تعالى لأن أعيش هذا العصر وادرك عظمة هذه الخطط المدروسة بدقة. واذكر منها مايلي:

أ- شبكة وكلائه التي امتدت في مختلف مناطق العالم؛ العراق وإيران والباكستان والهند وتركيا ولبنان وغيرها. وقد اختيروا بكل ذكاء ليكونوا دماء العافية التي تسري في عروق الأمة، تنقل لها توجيهات المرجعية وتحل لها مشكلاتها وتعبئها إذا تطلب الأمر.

ب - مكاتب الإمام الحكيم، وكان في طليعتها مكتبته العامرة المركزية في النجف الاشرف وكانت بالإضافة لتوفيرها المراجع العلمية للبحوث والتحقيقات مراكز توعوية ضخمة تقوم بشتى النشاطات الإسلامية والحقيقة أنها لعبت أكبر الادوار في عملية التوعية والتعبئة الجماهيرية في اخرج اللحظات السياسية.

ج - دعم الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعية فقد كان الإمام الحكيم نفسه من المجاهدين الذين انطلقوا يساهمون في عملية مقاومة الشعب لجنود الاحتلال واذنابهم وخبروا الأعيهم السياسية، ومن هنا فقد كان التخطيط السياسي يشمل ايجاد تشكيلات علمائية واعية من قبيل (جماعة العلماء) التي لعبت دوراً مهماً في عملية التوعية، وكان دور الشهيد الصدر فيها أساسياً وان لم يكن عضواً فيها لصغر سنه، وكانت مجلة الاضواء صوتاً مدوياً لها، وكان تشكيل جماعة علماء بغداد والكاظمية أيضاً أحد هذه التشكيلات الموفقة جداً.

كما كان التخطيط يشمل تشكيل جمعيات واحزاب سياسية كان في طليعتها حزب الدعوة الإسلامية الذي لعب دوراً كبيراً في تحقيق الهدف ومازال يؤدي دوراً كبيراً بعد زوال نظام الطاغوت الصدامي البغيض.

وهناك الكثير من التنظيمات السياسية والاجتماعية الكبرى الأخرى التي نشأت في ظل هذه السياسة المرجعية من قبيل:

- مؤسسة متدى النشر

- المجلس الإسلامي الشيعي الاعلى في لبنان وغيرها

هذا بالإضافة لمواقفه السياسية الحاسمة في دعم الحركة السياسية في إيران بقيادة الإمام الخميني رحمته الله وادانته لسياسات الشاه المقبور ودعوة العالم الإسلامي للوقوف إلى جانب الحركة الإسلامية الإيرانية واحتضانها المؤسسات العلمية والخيرية.

د- ايجاد المؤسسات العلمية والتربوية والخيرية:

والحديث هنا مفصل أيضاً ويكفي أن نذكر مايلي:

١- تشجيع فكرة الاحتفالات التوعوية بالمناسبات.

٢- اصلاح المواكب الحسينية

٣- تنظيم حركة التبليغ والاعلام لتغطي كل المناطق

٤- تشجيع حركة التأليف في شتى فروع المعرفة الإسلامية

٥- الدفع لايجاد المعاهد العلمية التربوية كمدارس متدى النشر وبالتالي كلية الفقه ومدارس الإمام الجواد وكلية أصول الدين.

٦- تشجيع ايجاد المؤسسات الخيرية من قبيل الصندوق الخيري الإسلامي في الكاظمة وغيره.

وكلها أعمال جليلة تشكل تاريخاً ضخماً من المنجزات.

هـ اتخاذ المواقف السياسية المبدئية تجاه الانحراف العقائدي في العراق.

والحديث في هذا المجال طويل والوقائع كثيرة. ويكفي أن نقول إن الإمام الحكيم رحمته الله من خلال هذه المواقف افشل خطط الشيوعيين في السيطرة على عقول الناس وقلوبهم بعد انقلاب ١٩٥٨ وبالتالي السيطرة على مقاليد الحكم، وكانت فتواه المشهورة (الشيوعية كفر والحاد) من اقوى المواقف.

كما أن مواقفه أفشلت بلا ريب خطط البعثيين العقليين ومنعتهم من تحقيق أهدافهم، ليرفع

الراية من بعده الإمام الشهيد الصدر الذي قضى على كل أحلامهم رغم أنهم قتلوه.
زعموا بأن قتل الحسين يزيدهم كذبوا لقد قتل الحسين يزيداً

٣- رؤيته الإسلامية العامة ودفاعه عن قضايا الأمة وحرسته التقريبية. وهذا جانب مهم من جوانب رؤيته ومرجعيته الفذة قد لا يلاحظه الآخرون.
ومن الواضح أنه ينطلق فيه من منطلق أهل البيت عليهم السلام ومنطقهم الوحدوي الذي يعمل على تعبئة الصفوف لتحقيق الأهداف الكبرى.

ولقد صبغ هذا الاتجاه كل مرجعيته فكانت له مظاهر متنوعة نذكر منها:

١ - تربيته لأبنائه وتلامذته تربية وحدوية، وهذا ما نشهده يتجلى في شخصية نجله الشهيد آية الله السيد محمد باقر الحكيم الذي قدم أكبر الخدمات لهذه القضية في كل مكان من أنحاء العالم الإسلامي، وترأس المجلس الأعلى للتقريب بين المذاهب الإسلامية وساهم في كتابة أسس مسيرته وألّف كتباً في هذا المجال مما أهله ليكون أحد الرواد في هذا المجال، ولقد شهدت عمق إيمانه بهذا الطريق، وتلهفه لمواصلته، وتحرقه وتألمه من عدم تفهم البعض لأبعاده المقدسة.
كما نجده يتجلى في شخصية تلميذه الكبير النابغة آية الله السيد محمد تقي الحكيم الذي طفحت كتاباته بهذه الروح وخصوصاً كتابه (أصول الفقه المقارن) الذي تشرّفنا بتدريسه لنا، وكان المرحوم يشجعه على حضور المؤتمرات الدولية.

٢- مواقفه المبدئية من قضايا الأمة من قبيل:

أ- مسألة فلسطين

وهي قضية حمل همها ودافع عنها بكل قوة فندد بقرار الأمم المتحدة بالاعتراف رسمياً بإسرائيل الصهيونية عام ١٩٤٨ م واعتبر كرامة الأمة وكيانها مرتبطة بهذه القضية، ودعا إلى تعبئة كل الجهود لإفشال خطط العدو، ورأى أن الحل يكمن في سلوك السبيل الإسلامي.
وأرسل رسائله إلى بعض المؤتمرات الإسلامية من قبيل مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد في عمان عام ١٩٦٧ بعد النكبة ليعلن فيها أسفه لما آلت إليه أوضاع المسلمين ويوضح مسؤولية الحكام والعلماء ولزوم حمل المسؤولية إلى الوحدة الإسلامية ورفض أساليب المساومة والتركيز

على إسلامية القضية واعتبر أن العمليات الاستشهادية جائزة بل هي من الواجبات الدينية إذا تمت تحت قيادة حكيمة مما ترك أكبر الأثر في سير عمليات المقاومة وتبع ذلك سفر ياسر عرفات إلى النجف ولقائه بالإمام الحكيم عليه السلام.

وهكذا كان يحرك القضية ويساندها بشتى الأساليب ويجرض على الانضمام لصفوف الحركة الفلسطينية وقد أجاز حتى شراء أوراق اليانصيب لصالحها رغم أن العلماء كانوا يجرمون مثل هذه المعاملة^١.

وقد قام بتحركات قوية بعد حريق المسجد الأقصى ليشير الحماس في قلوب الجماهير.

ب - وقوفه ضد إثارة الفتن الطائفية رغم إقدام الاستعمار على تحريك عملائه لإثارتها عبر اهانة المقدسات (كقضية الجبهان).

ج - دفاعه عن العثمانيين ضد الإنكليز، وعن الأكراد في العراق عندما تعرضوا للظلم والقهر، وعن المفكر سيد قطب بعد صدور الحكم بإعدامه.

د - دفاعه عن حركة التقريب بين المذاهب وتأييدها والاتصال المستمر مع شيوخ الأزهر الشريف حولها.

هـ - تأييده لمشاركة علماء الشيعة في المؤتمرات الدولية مما كان له أكبر الأثر في التقريب.

و - سعيه الحثيث لإيجاد حالة من قبول (العلويين) لدى المسلمين ومحو حالة التنافر بإزالة أسبابها.

ز - إقدامه الجريء على رفض بعض البدع التي أراد بعض المنتسبين إلى أهل العلم تنفيذها خدمة لمصالح شخصية رخيصة فأمر بتحريمها وانقذ الأمة من الفتنة.

وفي الختام؛

فإنه كان من اللازم التعرض للمحن التي كابدها المرحوم الإمام الحكيم عليه السلام سواء من الحكام المستبدين من أمثال عبدالكريم قاسم وعبدالسلام عارف والبعثيين وبالخصوص من صدام المجرم واحمد حسن البكر، أو ممن انتسبوا إلى أهل العلم اما جهلاً أو حسداً أو من غيرهم.

١. كتاب (الإمام الحكيم). للأستاذ تبرايتان ص ٤٥٥.

وما جرى بعده على الحوزة العلمية وعلى علمائها وعلى أبناء أسرته الأبطال وخصوصاً الشهداء الكثير منهم.

ولكن الصبر والاحتساب وتحمل الشدائد في سبيل الله هو ديدن هؤلاء العظام الذين يقل أن يوجد بهم الزمان وهذه الأسر الشريفة وخصوصاً العلوية منها.

فلنحتسب ذلك عند الله تعالى ونسأله جل وعلا أن يجعل ثواب ذلك عزة الأمة وعلاها وانتصارها على أعدائها وتحقيقها للمرتبة التي ارادها الله لها.

رحمه الله رحمة واسعة وحشره في عليين مع النبيين والشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

الإمام الخميني عليه السلام وحركة الصحوة الإسلامية

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١﴾.

في يوم ولادة الزهراء عليها السلام بزغ نجم من سلالة أهل البيت عليهم السلام، وشق طريقه في سماء الإسلام والإيمان، والعلم والعرفان، فأشرق على أمة قهرها أعداؤها، ودأبوا يمعنون في قمعها واذلالها، فأثار بإسراقة ظلمة الديجور الذي يلقبها، وكشف بشاعة المظالم التي تكتنفها، واستبداد السياسة بأرائهم، وكذب مراوغة المسؤولين في تعاملهم، وثراء المرابين الفاحش في اوساطهم، وفقر الأغلبية المدقع في مجتمعاتهم، وشيوع المنكرات والفواحش بين مترفيهم، وتعالى وطاغوتية كبرائهم، واستخذاء واستكانة فقرائهم، فأثار فيهم النخوة الإسلامية، وحب القيم الإنسانية، والتطلع إلى التحرر من أسر الطغاة، والتطلع إلى رحاب العزة والكرامة وسعادة الدارين، الدنيا والآخرة. فتظافرت الجهود وتعاضدت الهمم، والتفت الجماهير حول قائدها، وغلا مرجل تدمرها وتدخلت العناية الالهية، في توفير الأسباب والعلل، وتوفيق الجهود (وما يعلم جنود ربك إلا هو) حتى تفجّر البركان، فكانت الثورة الإسلامية في إيران، فالتهمت الطغاة الظالمين، وأزالت هيمنة الطغاة المترفين، وأطاحت بأعظم ركيزة للاستعمار في المنطقة، واستقرت دعائم الجمهورية الإسلامية في إيران، رغم الحروب العسكرية والاقتصادية والاعلامية وكثرة الاغتيالات والمؤامرات، وزرع الجيوب والألغام،

ووضع الموانع في طريقها، فتجاوزتها جميعها، بحكمة وهمة، وإيمان وصبر، وشجاعة قائدها ومؤسسها ساحة آية الله العظمى روح الله الموسوي الخميني عليه السلام.

وقد أحدثت هذه الثورة المباركة هزة عنيفة في العالم، أيقظت الحس الإسلامي في المسلمين، بعد سبات طال عقوداً من السنين، ولفتت أنظارهم إلى مبادئ الإسلام الحية، وأحكامه السليمة، السالمة من نزعات الإنسان، وأنانيته، وعشيته، وأهوائه، وانفعالاته، وقصور إحاطته وعلمه، الذي ثبت وجودها في الانظمة الوضعية، فشلت بسببها، كالأشتركية في الاتحاد السوفياتي، بتجربتها المرة التي ذاقت شعوبها عذابها الأليم، والرأسمالية التي نخرت بناءها الأنايات، فتفككت أسرها نتيجة اطلاق الحرية الفردية فيها، وسرت وفتكت الأمراض بها نتيجة شيوع الحرية الجنسية، وهيمنت ثلثة من الرأسماليين على الشعوب الأمريكية وغيرها من الشعوب اقتصادياً وسياسياً واعلامياً.

وها نحن نشهد - اثر قيام الجمهورية الإسلامية في إيران - إقبال المسلمين وغيرهم المتزايد على الإسلام، وقيام الحوار بين الأديان، والحوار بين الحضارات، وشيوع الصحوة الإسلامية، وتبدل الصورة القائمة التي حاول الاستكبار أن يشبها في أذهان الناس عن الإسلام بصورته النقية الحقيقية، الناصعة الحية، الفاعلة في مجالات الحياة المختلفة.

وبعد أن انتقل قائدها الشجاع ومرشدها الحكيم إلى الرفيق الأعلى تحوّلت الراية إلى علم آخر من أعلام أهل البيت عليهم السلام، تلميذه الشجاع، ساحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي، ليقود المسيرة على نهج أستاذه الراحل عليه السلام.

وفي ملحمة هذا الصراع القائم في عالمنا المعاصر، ووسط استعراض الاقوياء عضلاتهم بوجوه الضعفاء، وتنامي صراع الشعوب ضد أعداء الإنسانية، وتطاحن الحكومات مع بعضها، وتعاليلها على بعضها، ووسط الضجيج الاعلامي الذي راح يصم الآذان ويسلب الألباب، ووسط الاستحواذ المادي والشهواني على عقول وأحلام الكثير من الشباب، ووسط تعملق الشركات وخططها الجهنمية في سحق المستضعفين واتخاذ طاقاتهم وقوداً لحركة عجلات ودواليب معاملها، وسوفاً لتصريف بضاعتها، ووسط الفقر الجماهيري الشديد إلى القيم التي تحييمهم، والقيادة التزيهية التي تخلّصهم من هذا الواقع الفاسد وهذه الحياة البيسة. إننا - في هذا العصر وسط هذه الحقائق - نفتقر إلى مثل هذه القيادة المؤمنة الرشيدة المخلصة لدينها وأمتها.

وإننا، إذ نحیی هذه الذكرى الحبيبة ونحياها، ونمجد مثل هذه الشخصية اللامعة، إننا نمجد

المبادئ الخيرة، والقيم الشريفة، والتفاني النزيه في الله، ولكي نستفيد من الدروس والعبر التي نحصل عليها منها، ونصلح بها شؤوننا، ونصحح بها مواقفنا، ونبني بها مستقبلنا وحاضرنا، ونشيد بها عزتنا وكرامتنا.

وبهذه المناسبة نهيب بكل المسلمين والأحرار في العالم دراسة الإسلام عن وعي وبصيرة، والعمل بمبادئه بجديّة وإخلاص لعلنا ننال رحمة الله ورضاه. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^١ وقبل الدخول في الموضوع من المناسب أن نذكر مايلي:

أولاً: لقد اعتادت الأمم والشعوب أن تمجّد شخصياتها العلمية والسياسية، وتكرم شعراءها ومفكرها كلاً بمستوى جهده وخدماته ودوره ومكاته في أمته؛ وفاءً لإخلاصه، وتقديراً لخدماته، وتثميناً لجهوده، وتجديداً لدوره ونشاطه، وإحياء لسيرته وسنته التي يراد الاهتداء بهديها والافتداء بمحاسنها ومراسمها.

وهذا التكريم والتمجيد حقّ لازم وسنة حسنة، وعادة مقبولة، ونتيجة بطبيعة يقرّها العقل والعرف، ويؤكدها الشرع الإسلامي الشريف، قال تعالى: ﴿لَلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾^٢ وقال: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾^٣.

والتكريم الإلهي للإنسان كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^٤، لم يكن هذا التكريم والتفضيل إلا بالصفات، وللصفات الحسنة التي يتسم بها الإنسان، ويسمو بها عن وضاعة البهيمية، ويرتفع بها إلى مقامات الكمال، فيكون جديراً بخلافة الله في أرضه، يتقاد لمشيئته كثير من مخلوقات الله في البر والبحر، ويسخر لصالحه كثير مما في السماوات والأرض: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^٥.

١. يوسف: ١٠٨.

٢. النساء: ٣٢.

٣. الانعام: ١٣٢.

٤. الاسراء: ٧٠.

٥. الجاثية: ١٣.

إلا أن الناس ونتيجة للصراع القائم في أعماقهم الذي يعيشونه، والنزاع المتواصل الذي يعانونه بين العقل وما يتبعه من قيم ومثل وأعراف إنسانية ودينية من جهة، وبين النفس وما يتبعها من شهوات وطموحات ونزعات من جهة أخرى، فيبقون منشدين إلى كلٍّ منهما، متأثرين بهما معاً، حتى يغدوان فريقتين: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾^١ فتغمر الهداية طلاب الآخرة وتلهم الرحمة، بينما الكافرون الذين ﴿اسْتَحْبُوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾^٢ و﴿اشترُوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾^٣ ينغمسون بشهوات الذات والملذات فينصرفوا عن ذكر الله ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللّٰهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ﴾^٤.

ومقياس تكريم الإنسان الذي أكدّه الإسلام، وألزم الناس به، وكذا أقره العقل بما تقتضيه الحكمة هو السلوك القويم، والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتِ﴾^٥ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾^٦، وقال: ﴿وَالْعَصْر، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾^٧.

وقد تكررت الوصية بالعمل الصالح والحث عليها في القرآن الكريم في أكثر من مئة وعشرين مرة، فضلاً عن التعابير الأخرى المؤدية إلى العمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^٨.

ومعلوم أن العمل الصالح هو: كلُّ جهد يقدمه المؤمن بفكره وعلمه، وقوله وقلمه، وبيته وعمله، مما أمر الله به، مقروناً بنية طاعة الله والتقرب إليه. ويشمل الأخلاق الحسنة، وحسن

١. آل عمران: ١٥٢.

٢. النحل: ١٠٧.

٣. البقرة: ٨٦.

٤. النحل: ٣٦.

٥. الشورى: ١٥.

٦. فصلت: ٣٠.

٧. العصر.

٨. البقرة: ٦٠.

الظنّ بالناس والتعامل معهم بالحسنى، كما يشمل أداء الأعمال وإنجازها بإتقان وإخلاص، والإبداع الحسن والابتكار والتقدم العلمي والتقني في جميع مجالات الصناعات والعلوم التي تسهم في إسعاد الناس، وتفيدهم في حياتهم الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^١ ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيدُهْبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^٢.

وفرق بين هذه النظرة الإسلامية في تقييم الإنسان ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^٣ والنظرة الناجمة عن ظنّ أو غواية أو هوى أو سفه في تقييم الإنسان على أساس من الزمالة أو الصداقة والمحبة، أو القرابة والمصاهرة، أو القومية والوطنية، أو الملة والجاه، أو أمثال هذه الاعتبارات التي لا تمت إلى عقيدة الإنسان التي تهيمن على جوارحه، وتوجّهه في أخلاقه وسلوكه بمنّ عناهم الله بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^٤.

وفرق بين المؤمن الذي يتوخّى الخير للبشرية على هدى من الله، ويسعى جاهداً للإصلاح وخدمة للبشرية تقرباً إلى الله، وإنسانٍ تطغى أنانيته فيتوخّى مصلحته قبل كلّ أحد، أو يتخذ من هواه دليلاً ومرشداً فيعمل ما يهواه دون علم ولا هدى من الله؛ إرضاء لذاته ولذاته حتى وإن ارتكب أشنع الجرائم وقام بأقبح الأعمال وخالف المثل والأديان قال تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾^٥.

وبديهي أنّ من يسنّ السيئات ويفعل المنكرات، ويسبّب للناس الأذى ويخلق لهم الويلات والمشكلات، لا يستحقّ إلاّ القذح والذم والنبد والإعراض، وأنّ من يفعل الخيرات ويعمل الصالحات، ويسعى جاهداً بما ينفع الناس يستحقّ المدح والثناء، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا

١. النساء: ١١٤.

٢. الرعد: ١٧.

٣. الأحزاب: ٤.

٤. النساء: ٦٥.

٥. آل عمران: ١٦٣.

السَّيِّئَةُ ﴿١﴾، ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ ﴿٢﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣﴾.

وهذا ما يقره الشرع والعقل والعرف.

ومن هذا المنطلق الشرعي والعقلي والاجتماعي نكرم الخيرين من أبناء الإسلام ممن يعملون به ويؤمنون، باعتباره يتضمّن أعلى درجات الكمال والنقاء من الخرافات، والصفاء والنزاهة من نزوات الإنسان ونزعات الشرّ، كالجهل والغفلة والهوى، باعتبار المسلم أحرص الناس على تطبيق القيم الإسلامية الحقّة، والعلماء في القمة من هذه المراتب وفي المقدمة من المسؤولية، باعتبارهم أعلم وأدرى بمبادئ الشرع الإسلامي الحنيف، فلا يستوي العالم والجاهل، كما لا يستوي العادل والظالم، قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْحَيِّثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَيِّثِ﴾، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.٦.

لقد كان الإمام الخميني رحمته الله شخصيةً جامعةً لصفات سامية يندر اجتماعها في شخص واحد، كان يفيض إيماناً، وينطق قرآناً، وتتكشّف خطبه وتعايره، وبياناته وتوجيهاته، علماً وعرفاناً، وحنكةً وصموداً، وحياته زهداً وعبادةً وجهاداً، فهو مدرسة في الأخلاق والعرفان، وعلماً في الفقه والفلسفة، حتى عاد مرجعاً للتقليد وأستاذاً في الفلسفة، عاش في الدنيا زاهداً، والله عابداً، ولأتمته ناصحاً رائداً، وللظالمين والمستعمرين مجاهداً، لم تغره المغريات، أو تستدرجه شهوة الحكم والسلطان إلى الظلم والطغيان أو اكتناز المال، وأمثال ذلك من زخارف الدنيا ومتعها، فاكتفى منها

١. فصلت: ٣٤.

٢. النساء: ٨٥.

٣. القصص: ٨٤.

٤. الزمر: ٩.

٥. المائدة: ١٠٠.

٦. فاطرة، الآيات: ١٩ - ٢٢.

بما يسد حاجته، ويحقق للإسلام عزته وغلبته، وللشعب المسلم حرّيته وكرامته ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١.

اتّخذ الوجود كلّ محراباً للعبادة، والحياة زمناً لها، وجميع الآفاق والأعمال ميداناً لها، بدأ بنفسه فأدبها فأحسن تأديبها، وألزمها طاعة الله وخدمة عباده ونصرة دينه، ثم انطلق إلى آفاق المجتمع فقادها إلى حياة العزة والكرامة، والانعقاد من حياة الذلّ والعبودية.

نشأ في عصر ساد فيه الظلم فطغى، واستشرت فيه المفاسد والخرافات، وحوصر الدين في زوايا المساجد والتكايا، حتى عاد سبة لا يرتضى، وذنبا لا يغتفر، وعاراً يلاحق المؤمنين، فراح البعض يتوارى بصلاته عن أعين الناظرين، ويتظاهر بفسقه دنواً من الفاسقين، فعمل على بثّ الثقافة الإسلامية في المجتمع المسلم، وإحياء الأمل وزرع الثقة في نفوس الجماهير، وإعطائها دورها المناسب في صنع حياتها المستقبلية، واستعادة دور الدين في زعة النفوس، وتحكيم الشرع الإسلامي في الحياة كلّها: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ أَنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^٢.

كان يعيش أمل إقامة الحكومة الإسلامية، واستعادة العالم الإسلامي هويته الإسلامية بعد أن انتزعتها الاستعمار الكافر بوسائله وأساليبه الثقافية والسياسية.

وبعد أن تخلّص الشعب الإيراني المسلم من مخالب الاستعمار والهيمنة الطاغوتية الأمريكية والأوروبية، وانتصرت الثورة الإسلامية في إيران، عمل على تحكيم الإسلام فيه، فسنّ قانوناً إسلامياً سياسياً للبلاد، ووظف لجنة من كبار العلماء لصيانته وحمايته، والإشراف على تنفيذه ورعايته، ورفض القوانين المخالفة له، ومنع المغرضين المناوئين من التلاعب به وتحريفه، ثم راح يكافح المفاسد الأخلاقية الاجتماعية من خمور وسفور، وفقر وظلم، وعمل على نصرته المستضعفين بحمايتهم ورعايتهم وتأسيس المؤسسات التي ترعى شؤونهم وتمدّهم بالمعونة، مثل: «بنياد مستضعفان» وتعني مؤسسة المستضعفين، و«كميته إمداد إمام خميني» وتعني لجنة الإمام الخميني للاغاثة، وأمثالهما.

١. الحشر: ٩.

٢. فصلت: ٢٣.

كما اقتفى أثر الأنبياء واقتدى بهم في استعادة دور العبادات في تركية النفوس، وتربية أبناء الأمة على تحقيق دور الأنبياء في إقامة المجتمع المطيع لله والمتجنب للطاغوت ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^١، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^٢، فأقيمت صلوات الجمعة في كل مدينة، وجعل من كل إدارة ومدرسة مسجداً، ومن كل عمل محراب عبادة، لجميع المهن والطبقات والمستويات، سيما النساء والشباب الجامعيين، واتخذها منبراً لتبليغ أحكام الإسلام، وبيان وتثبيت العقائد الحقة، ونشر الثقافة السياسية الإسلامية.

كما اهتم بالتربية الطلابية، فشكّلت اللجان لوضع البرامج الدراسية، وتأليف الكتب المناسبة لها، وإلقاء المحاضرات التهديبية والأخلاقية داخل الصف وخارجه، إضافة إلى إصدار الصحف الإسلامية بما تحمله من أخبار وأفكار، وشكّلت لجان للإشراف على سير وبرامج محطات الإذاعة والتلفزيون التابعة للجمهورية الإسلامية، وإصدار الكتب داخل القطر وخارجه.

ثم اتجه إلى العالم الإسلامي فأكد على توثيق العلاقات الأخوية الطيبة بين مختلف الشعوب الإسلامية بدعوته إلى الوحدة الإسلامية، وإحكام الصلة بينها وبين الشعب الإيراني المسلم، وبث روح التعاون والمحبة في رحاب طاعة الله، ونشر الثقافة الإسلامية في أوساطها، مؤكداً على أن تتحمل الشعوب مسؤولياتها في مقاومة الظلم، ومجاهدة الحكام الظالمين، وأداء دورها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الاستعمار والأعداء الحقيقيين للأمة الإسلامية ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣.

ثم اتجه إلى أرحب من ذلك بالنسبة إلى العالم الإسلامي، داعياً قاداته إلى إحكام الإسلام

١. النحل: ٣٦.

٢. الجمعة: ٢.

٣. التوبة، الآيات: ١١١-١١٢.

ومفاهيمه في مجال التعامل مع القضايا الخارجية والعلاقات مع الآخرين، مقتدياً بالنبي العظيم ﷺ، في فتح الحوار معهم، ممثلاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^١ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ...﴾^٢. فأرسل رسالته إلى رئيس الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية (خروشوف) آنذاك، فافتفى أثره في ذلك قائد الجمهورية الإسلامية في إيران ساحة آية الله الخميني (أدام الله عزه)، ففتح الحوار مع العالم غربه وشرقه، وبالأخص مع العالم المسيحي، حيث كانت له عدّة لقاءات مع وجوه وشخصيات مسيحية كاثوليكية... وعندما أذرتة حكومة العراق بلزوم الصمت أو إخراجه، ورفض إيواؤه الكويت وأنته إقامته فرنسا، وأغلقت السبل بوجهه الاباب الله، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^٣، فعاد إلى إيران والحكومة البهلوية قائمة مطمئن النفس هادئ البال واثقاً بنصر الله، فكان انتصار الثورة وقيام الحكومة الإسلامية في إيران.

وبعد الثورة الإسلامية في إيران، لم يطأطئ رأسه للكفر، ولم يذعن لرغبة الاستعمار، بل تحدّاه رغم الولايات والمؤامرات التي دبرتها وصنعتها الدوائر الاستعمارية الأمريكية لإيران:

- * من تفجير مقرّ الحزب الجمهوري الإسلامي واستشهاد اثنين وسبعين من قادة البلاد.
- * ومن حرب ضارية بمختلف الأسلحة دامت ثمان سنوات،
- * ومن تفجيرات و اغتالات أودت بالكثير من العلماء والشخصيات السياسية الإسلامية الجليلة.
- * ومن حرب اقتصادية وثقافية وسياسية على نطاق عالمي واسع، حتى كسرت هيبتها في كسر قرارها وإرادتها.

لقد سعى الإمام الخميني إلى إعادة القيم الإسلامية وترسيخها في النفوس، فحثّ العلماء والفقهاء على استعادت دورهم الاجتماعي المنشود في توجيه الأمة إلى حقائق الإسلام، والردّ على الشبهات، وصيانة العقائد والأخلاق، وإحياء سنّة القضاء الإسلامي بين الناس، وبالتالي تسلّم

١. آل عمران: ٦٤.

٢. البقرة: ٢١.

٣. الطلاق: ٢.

قيادة المجتمع بعد عملية انتخاب نزيه تقوم به الجماهير لتختار قائدها الفقيه العادل المدير المدبّر. وهذا هو مقتضى كون العلماء ورثة الأنبياء، والحاملين للواء الحق، وحصون الإسلام، والحكام على الناس، والحجة بينهم وبين الله تعالى، كما تشير بعض النصوص الإسلامية إلى ذلك.

كما وأكد على السنن الإسلامية: في الأخوة الإسلامية دون الاعتبارات الأخرى، مثل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^١ و﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^٢.

وفي التعاون، في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^٣. وفي الأمل بالمستقبل، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^٤، وقوله: ﴿إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^٥، وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾^٦ وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^٧. وفي الوحدة، في قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^٨.

وفي عمل الصالحات، في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^٩، و﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾^{١٠}، و﴿هُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾^{١١}، و﴿جنات النعيم﴾^{١٢}، وفي الإصلاح، في مثل قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ

١. الحجرات: ١٣.

٢. الحجرات: ١٣.

٣. المائدة: ٢.

٤. آل عمران: ١٣٩.

٥. محمد: ٧.

٦. محمد: ٣٥.

٧. النور: ٥٥.

٨. آل عمران: ١٠٣.

٩. مريم: ٩٦.

١٠. طه: ١١٢.

١١. طه: ٧٥.

١٢. لقمان: ٨.

﴿إِصْلَاحِ بَيْنِ النَّاسِ..﴾^١، و﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾^٢.
 وفي إعداد القوة، في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^٣.
 وفي الجهاد، في قوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^٤
 و﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾^٥ و﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾^٦ وأمثال ما سبق من قيم
 إسلامية، وفضائل أخلاقية مما تفتقر إليها الأمة في قيامها ودوامها وقيمويتها.

وهكذا قام هذا الإمام العظيم في إحياء معالم الدين والصحوة الإسلامية، ليس على مستوى
 شعبه فقط بل وعلى مستوى العالم الإسلامي وغيره، فكان مثلاً ونموذجاً حياً لكثير ممن مدحهم
 القرآن الكريم بقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ
 يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^٧.
 وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^٨.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^٩.
 ثانياً: إن الإمام وإن كان شخصاً عظيماً، إلا أننا هنا لا نبحث عن جوانب العظمة فيه، بقدر
 تلمسنا لأبعاد رؤيته للواقع، وبرنامجه لتطوير هذا الواقع، ومدى تحقيق هذا البرنامج واقعاً، أو
 مدى ما يمكن تحقيقه منه مستقبلاً، وذلك لكي نتخذة مثلاً وقدوةً في مسيرتنا الجهادية، في مجال
 زرع بذور الصحوة أو إيجادها أو ترشيدها في أي منطقة من عالمنا الإسلامي، أو بالأحرى من
 امتدادنا الإسلامي حتى في المساحات الأخرى.

١. النساء: ١١٤.

٢. الأنفال: ١.

٣. الأنفال: ٦٠.

٤. المائدة: ٢٥.

٥. التوبة: ٤١.

٦. الحج: ٧٨.

٧. النور: ٣٧.

٨. فاطر: ٢٨.

٩. الاحزاب: ٣٩.

ثالثاً: ممّا لا ريب فيه إنّه ; كان يمتلك تصوّراً متكاملًا عن قضية الصحوة بكل أبعادها، وهو ما يشهد له استقراء كلماته ومواقفه وخططه الثورية. فالمتبّع لكلماته في مطلع دخوله ساحة العلن الكلامي، وقيامه بتأليف كتبه، يشهد وحدةً في نمط الكلام من الوضوح والنفوذ إلى عمق المشكلة القائمة، والتركيز على التركيبة الروحية للفرد والمجتمع من جهة، وعلى سرّ المشكلة من جهة أخرى. والمتبّع لمواقفه يجدها وكأنّها تشكّل خطوات متتابعة مرسومة من قبل، تتناغم مع الظروف، وتتصاعد مع الحوادث، إلّا إنّها كلها يربطها خيط واعي واحد، ولا أدلّ على ذلك من استعراض مواقفه من نفسية الشعب الإيراني من جهة، والنظام الشاهنشاهي القائم من جهة أخرى.

وهكذا يمكن ملاحظة تخطيطه الحديث الذي سار بعملية التوعية الفكرية منذ البدء وحتى الختام، والذي استهدف إثارة الحماس الثوريّ بالمدى المناسب مع ما تسمح به الظروف المتغيرة والمناسبات الإسلامية، ومن ثم التخطيط لتحويل ذلك الحماس إلى فعل جماهيري حاشد مزق كلّ حسابات الكمبيوتر البشري، وبالتالي صنع أروع ثورة عرفها التاريخ المعاصر، حيث انفلت الشعب الإيراني المسلم من طوق الهيمنة العالمية عليه وحطّمها بالكامل.

رابعاً: إنّ الإمام يؤمن تماماً بمبدأ (تصدير الثورة) وهو أمر لا يمكن أن ينكره أحد على الرغم ممّا حاوله بعض الناس مما يعبر عن انهزامية أمام النقود المطروحة، إلّا إنّّه لم يكن ليقتصد الصورة التحريفية التي منحها إياه الإعلام الغربي، أي: صورة التصدير بالسلاح وإيجاد الانقلابات العسكرية... وما إلى ذلك! إنّه كان يركّز على الجانب الثقافي والحماسي في آن واحد، فهو يقول، حين يتحدّث مع سفراء الأقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ: «اننا نعتبر الأقطار الإسلامية جميعاً جزءاً من وجودنا، دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقلّ، وإنّا نريد لها أن تتمتع بما تتمتع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى، وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كلّ الشعوب، إننا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كلّ الشعوب وكل الحكومات وتتخلّص من قيود التبعية والتسلط»^١.

وفي حديث آخر يقول سماحته وهو يتحدّث إلى سفراء الجمهورية الإسلامية: «إننا نرنا لنحبي

١. كتاب (كلام الإمام): ج ١٥، ص ٣١٧.

الإسلام، ومن ثم لنصدّر الثورة - بمشيئة الله - إلى كلّ مكان، ذلك أنّنا إخوة وأحبة، ممّا يزيد فينا الأمل للعمل سوياً وبكلّ ما نستطيع، لتعميم هذا الجهاد، وتحقيق هذا الهدف»^١.

بل كان ﷺ يرى أنّ بالإمكان تعميم هذا التصدير إلى كلّ الشعوب فيقول بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ: «إنّنا إذ نعلن عزمنا على تصدير الثورة إلى كلّ الأقطار الإسلامية، بل كلّ الأقطار التي يرزح فيها المستضعفون تحت نير المستكبرين، فإنّنا نريد من ذلك أن نحیی في الشعوب روح التحرك ضد المستكبر الفتاك، ونردم تلك الهوة بين الشعب والحكم المسلط عليه»^٢.

فالتصدير - إذن - يعني (تصدير نموذج في إيران) وهذا يعني بدوره تصدير الخصائص المشتركة أو التي يمكن لها أن تمتد إلى انحاء العالم الإسلامي، وتجريدها من المزايا المحلية الخاصة. والذي نريد أن نخلص إليه؛ أنّ الإمام الخميني إذ يتحدّث عن الثورة الإسلامية في إيران وعن مزاياها وخصائصها ودوافعها، ومحركاتها ونتائجها وعواقبها وموانعها، فإنّه إنّما يتحدّث عن مسيرة الصحوة الإسلامية عبر مصداق من مصاديقها، وتطبيق أمثل لها في إيران، وهو بالتالي يبرز نظريته العامة في مجال الصحوة الإسلامية، وإلاّ فما معنى التصدير؟ ومن هنا نجد رحمة الله يؤكّد مثلاً أنّ ما نشاهده من تخطيط لضرب الثورة إنّما هو تخطيط لضرب الإسلام والصحوة الإسلامية عموماً، والقضاء على كلّ أمل للجماهير المسلمة في صياغة تشكيلة حكومية إسلامية في أيّ مجال آخر.

فهو يقول مخاطباً مجموعة من الأخوة الباكستانيين في خريف عام ١٩٨٠ م:

«هل تتصورون أنّ هدف الخطط الاستعمارية هو القضاء على إيران؟ كلاً، إنّ الهدف هو القضاء

على الإسلام، فليس الأمر يقتصر على قطر واحد فحسب، إنّهُ يعمّ الأقطار الإسلامية جميعاً»^٣.

ومن هنا جاز لنا أن نعّم حديثه إلى مجموع العالم الإسلامي حتى ولو كان يتحدّث عن الثورة

الإسلامية في إيران وعواملها ونتائجها.

خامساً: إنّنا إذا شئنا أن نتعرّف على منهج أو خطة أو أبعاد شخصية معيّنة، فلا بد من تتبّع

أقوالها وأفعالها وتقاريراتها، لنقوم - بعد التأكد من دلالاتها - باستنباط مجمل الأبعاد، ومعرفة

١. المصدر السابق.

٢. المصدر نفسه: ص ٣١٦.

٣. كلام الإمام، ج ١٥، ص ٤٦ - ٤٧.

أجزاء النظرية المتكاملة، وهذا بالضبط ما يجب أن نفعله عندما نحاول اكتشاف مذهب معين أو نظام عام للإسلام. ذلك أنّ علينا أن نكتشف هذا من خلال مجموعة النصوص النظرية أو المفهومية المطروحة، والأحكام المتفرقة المبنية على ذلك المذهب أو التي تشكل أبعاد النظام، وبالتالي أن نلاحظ نوع التطبيقات الفعلية التي قبلها الإسلام ونفذها في الحياة. وبنفس هذا الأسلوب نستطيع أن نكتشف أبعاد الشخصيات المنظّرة، ونعرف مجمل نظراتها إلى الواقع والحياة، وهذا ما نرجو أن نتبعه في دراستنا السريعة هذه.

حقيقة الصحوة

ذكرنا أنّ أمّتنا الإسلامية مرّت بفترات زمنية طويلة، عمّتها غفوة، وشملها تخدير وضياح مقيت، يهتز له القلب ألماً، لذلك فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفّر، إلّا على صعد فردية محدودة المجالات، وحيث أنّ فمّن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثّر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزئية؛ تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كلّ الجهات، فهو ممزّق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء، وهو ممزّق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات متعددة وآلهة التاريخ والتمدن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، ممزّق وجوده. هذه المفاهيم كلّها سوف نشهدها في كلمات الإمام الخميني وهو يتحدّث عن إيمانه بمستقبل الصحوة، ومظاهر الصحوة وثمارها، وعواملها وأسلوب ترشيدها والحفاظ عليها والأخطار التي تواجهها من قبل أعدائها.

فمن الظواهر التي أكّدها الإمام الخميني في كلماته، وسعى بجهد لتحقيق الإيمان بها في ذهن الجماهير؛ هي موضوع الإيمان بمستقبل الصحوة الإسلامية، بحيث لا تشوبه أية شائبة، ولا يساوره أيّ شكّ في تحقيق هذا الغد المرتقب، وطبيعي أنّ الأمل الكبير يلعب دوره في تحريك الهمم نحو صنعه، ويشدّ العزيمة على تحقيقه.

فنجده تارةً يذكّر بالوعد الإلهي الذي لا يتخلّف مطلقاً، باعتباره قاعدة لهذا الأمل الكبير، فيقول في رسالته التي وجّهها بمناسبة قيام الجمهورية الإسلامية، وذلك بعد أشهر من نجاح الثورة الإسلامية: «إنّ الله تعالى قد وعد بانتصار المستضعفين على المستكبرين بتوقيه ووعد

وجعلهم أئمة، وها هو الوعد الإلهي يقرب من تحقّقه، إنّنا لنأمل أن نشهد نحن هذا التحقّق»^١.
 وأخرى تنبأ بانتصار حتى على القوى العظمى، فيقول في حديثه لمجموعة من أعضاء حركة
 أمل اللبنانية (اواخر عام ١٩٨٠م): «يجب أن نحذف من قاموسنا منطق الهزيمة القائل بأننا لا
 نستطيع الالتحام مع القوى الكبرى، إنكم إذا شئتم حققتهم ما تريدون بإذن الله»^٢.
 ونجده؛ تنبأ بسقوط المعسكر الشيوعي وانهاره بسرعة، وذلك قبل تحقّق هذا الانهيار الذي
 نشهده، فقد أرسل رسالته المشهورة لغورباتشوف في مطلع عام ١٩٨٩م وهي إحدى الرسائل
 النادرة التي بعثها إلى زعماء الدول، وقد قال له فيها بالحرف الواحد: «إنّ البحث عن الشيوعية
 ينبغي أن يتوجّه من الآن فصاعداً إلى متاحف التاريخ»^٣.
 وربّما كانت هذه الرسالة من أعظم الوثائق التي تؤكّد لنا أنّ المؤمن الصادق ينظر بعين الله
 تعالى، فيفتح الله له آفاق الحقيقة.

ومن ثم نجده (رضي الله عنه وأرضاه) يركز عنصر الإيمان بنمو الانتفاضة الإسلامية في كلّ
 مكان، ويشير دائماً بانفتاح الآفاق أمام الصحوة بعون الله. ففي عام ١٩٧٠م يجيب على رسالة
 للطلبة الجامعيين المسلمين في أوروبا فيقول: «أنني - على الرغم من شيخوختي وعدم حصولي
 على ما كنت آمله - لامل بكل ثقة أن تستمر شعلة هذه النهضة التي انطلقت في السنين الأخيرة
 بتأييد الله تعالى وأدت للتقارب بين العلماء والمثقفين»^٤.

ويتحدّث الإمام الخميني عن الثورة الإسلامية وانتصارها عام ١٩٧٩م فيقول: «لقد تحقّق ذلك
 على الرغم من الحسابات المادية التي كانت تطرح استحالة أن تنهار قوة تقف القوى كلها مساندة لها،
 وحتى الحكومات المتسببة للإسلام أيضاً كانت تقف موقف الدعم لها ولكنها انهارت بالتالي»^٥.
 ويقول في كتابه الرائع (ولاية الفقيه) والذي كان الموجّه الكبير لقيام الثورة الإسلامية: «أنت

١. كلام الإمام ج، ١، ص ٢٤.

٢. المصدر السابق: ج ١٥، ص ٢٦١.

٣. مجلة التوحيد: العدد ٥٣، ص ٧.

٤. كلام الإمام ج، ٦، ص ٢٨.

٥. المصدر السابق: ج ١٥، ص ٦٦.

أيها الشعب إذا أصررت على الطريق المستقيم وقمت بالأمر فإنك ستمسك أزمّة الأمر بيدك، وستصدر منك الأمور وإليك تعود، وإذا تحققت الحكومة التي أرادها الإسلام فإنّ الحكومات الفعلية في العالم لن تستطيع الوقوف أمامها»^١.

ويقول أيضاً مخاطباً الطلبة الجامعيين في أمريكا وكندا في ١٧ رمضان ١٣٩٥ هـ: «إن نقطة الوضوح التي تريدني في أواخر عمري أملاً تتركز في هذا الوعي واليقظة التي تسري في هذا الجيل الشاب، إنّها روح سارية بكلّ سرعتها، وهي بحول الله تعالى ستصل إلى نتائجها الحتمية، فتقطع أيادي الأجنبي، وتسطر العدالة الإسلامية»^٢.

وفي بيان أصدره إلى عموم الشعب الإيراني في عام ١٩٧٢ م - أي قبل سبع سنوات من الانتصار - يقول: «إنكم تملكون طاقات شابة عظيمة تستطيع أن توصل الإسلام والبلاد إلى أوج العظمة والعزّة، وتقطع أيدي الجناة عن البلاد الإسلامية وبلدكم أنتم، تلك الطاقة التي لو بذلت في طريق الحقّ لتحوّلت إلى طاقة أبدية واتّصلت بالقدرة الإلهية الأبدية... فاستيقظوا وأيقظوا الغافلين.. عودوا أحياءً وامنحوا الحياة للأموات، وانطلقوا تحت لواء التوحيد لتطووا ملفّ الاستعمار بنوعيه الأحمر والأسود»^٣.

ويقول في لقائه الضباط الباكستانيين أوائل عام ١٩٧٩ م: «على المسلمين أن ينهضوا، فهم منتصرون في نهاية المطاف وسينتصرون.. وإنّ أمريكا لن تستطيع أن تقف في قبال المسلمين»^٤. وهكذا نجده مطمئناً واثقاً بمستقبل الصحوة الإسلامية، ساعياً بكلّ قوة وبمنطق سليم لتعميق هذا الإيمان في نفوس أبنائه الثوار.

ومن غريب الأمر أنّ الاستعمار حاول أن يتغافل عمق الصحوة الإسلامية، ومدى اتّساعها، بل الأعرب من ذلك أن نجد بعض المنتمين إلى المدرسة الرجعية يحاولون جاهدين إنكار حدوث صحوة إسلامية مطلقاً^٥.

١. كلام الإمام: ج ١٠ ص ٣١.

٢. المصدر السابق: ج ١٠ ص ٦٩، ونداء الثورة، ص ١٩٨.

٣. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ٦٥ الخميني والثورة. ص ١٠٢.

٤. كلام الإمام: ج ١٥ ص ١٦٧.

٥. حاول بعض المفكرين أن يعلن ذلك بصراحة في مؤتمر الفكر الإسلامي في الجزائر فتم التصدي لدعوته وفضحها.

والإمام يعتبر هذه الغفلة الاستكبارية تغافلاً يجب على المسلمين أن يردّوا عليه ردّاً عملياً. فهو يقول في جوابه على الرسالة التي وجّهتها إليه المنظمات التحررية في أنحاء العالم والتي عقدت اجتماعها في الجزائر أوائل عام ١٩٧٩م ما يلي: «إننا نعدّ عدم إدراك عمق النهضة الإسلامية في العصر الحاضر والجيل المعاصر أحد الأخطاء الكبرى للسيد كارتر وأمثاله، وإنّ على الشعوب الإسلامية - عبر وحدتها الإيمانية المستمدة من الله - أن تخرج هؤلاء من غفلتهم. فيا أيها المسلمون في أنحاء العالم! ويا أيها المستضعفون الثائرون! ويا أيها البحر الإنساني اللامتناهي! انهضوا ودافعوا عن كيانكم الإسلامي والوطني»^١.

ولكن لم هذا التغافل والتجاهل؟ الحقيقة هي إنّه يستهدف أن لا تعي كلّ الجماهير حقيقة ما يحدث، وإلاّ فإنّ النهضة ستسري سريان العافية في العروق البييسة، والنار في الهشيم، وهو ما أصر الإمام الخميني على توضيحه أمام الجماهير. إنّه يقول في حديث له أمام عوائل الشهداء عام ١٩٨١م: «إنّ هؤلاء يرون حديث سقوطهم وفنائهم في كلّ مكان من العالم، فحتى السود في أمريكا يعلمون ذلك، إنهم يرون الإسلام قدرة متقدمة تعبّ بنفسيها الشعب والأجنحة المتدينة والعناصر المظلومة، وإننا لنترجو بمشيئة الله أن يؤدي هذا لثورة المستضعفين في العالم للقضاء على القوى العظمى.. إنهم يخافون من هذا التحرك...»^٢.

وهكذا راح يستعرض مظاهر هذه النهضة والصحوة ليؤكّدها في وعي الجماهير:

أ- التحرك الإسلامي الواسع

فمن أهم المظاهر التي أكّدها عليها وعلى قوتها: هذا التحرك الجماهيري الإسلامي في عدّة أماكن من العالم الإسلامي، ومنها الثورة الإسلامية الكبرى في فلسطين. وكلّنا يعلم أنّ الإمام عاش لهذه القضية وسخر لها طاقاته، وبقي وفيّاً لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته. فقد أعلن أنّ إسرائيل غدة سرطانية يجب اقتلاعها، وأن المسلمين قادرون - مهما عنت أمريكا وإسرائيل - على القضاء على منبع الفساد هذا، وكان يتألّم حينما يرى هذا التخاذل والتراجع

١. كلام الإمام: ج ١٥ ص ١٦٧.

٢. كلام الإمام: ص ٢٢١.

المستمر، وعلى أي حال فإن الإمام الخميني؛ كان يأمل كثيراً في هذه الصحوة الإسلامية في الجماهير الفلسطينية، وكان يعتبر ذلك سبيل الخلاص الوحيد، وملف القضية الفلسطينية في أقوال الإمام واسع جداً لا يمكننا أن نستوعب حتى جزءاً يسيراً منه.^١

كان يعتبر يوم القدس يوم الإسلام، ويوم الحكومة الإسلامية التي ستسود العالم الإسلامي كله، يوم قهر القوى العظمى، ويوم انطلاقة المسلمين من عقالمهم لإحقاق حقوقهم، ويوم الردّ العملي على تغافل القوى الكبرى لحقيقة الصحوة الإسلامية.^٢

ومن أنماط ذلك التحرك الواسع ثورة الشعب الأفغاني المسلم بوجه الطغاة الملحددين، بل وقوفه أمام القوة الشرقية العظمى بكلّ جبروتها، وبمتهى الضعف في السلاح والقوة في العزيمة، مما أدى في النهاية إلى انهيارها.

وهنا يخاطب الإمام الخميني الرئيس الأميركي كارتر قائلاً: «من المستحسن أن يعتبر كارتر بأفغانستان، حيث الحكم المسلط يدعمه الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية واليسارية... إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يخضعوا الشعب الأفغاني المسلم لإرادتهم».^٣

ويقول في رسالته إلى حجاج بيت الله الحرام عام ١٤٠٤هـ: «لقد ردّ الشعب الأفغاني العدوان السوفيتي الغادر، عدوان تلك القوة الأسطورية والجيش الضخم والحكم الغاصب والحزب الخائن، ردّه بقدرة الإيمان والتوكّل على الله العظيم، والاعتقاد على النفس، بحيث يمكن القول إن الاتحاد السوفيتي يعيش الآن الحيرة والندم على هجومه الظالم، وهو يحار كيف ينقذ نفسه ويحفظ ماء وجهه».^٤

ب - انتفاء الأساطير الاستعمارية

ومن مظاهر الصحوة الإسلامية: هذا الوعي السياسي الكبير لحقائق الأمور، وانتفاء

١. تراجع الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الشأن، ومنها الجزء ١٩ من كتاب (كلام الإمام)، وهو تحت عنوان (كلمات الإمام في فلسطين والصهيونية).

٢. كلام الإمام: ج ١٩ ص ١٢٩.

٣. كراس (القيادة وأفغانستان): ص ٦ من حديث للإمام مع طلاب كلية الإلهيات أواخر عام ١٩٧٩.

٤. المصدر السابق: ص ١١.

الأساطير التي حاول الاستعمار زرعها في النفوس، من قبيل: أسطورة إسرائيل التي لا تقهر، وأسطورة انحصار سبيل السعادة بأحد المذهبين الرأسمالي أو الاشتراكي، وأسطورة (التخدير الديني) و(تضاد الاتجاه الديني والثورة) وأسطورة انحصار السبيل بالمعسكرين دونها ثالث. وهنا يقول الإمام الخميني عليه السلام في رسالته بمناسبة يوم القدس العالمي في أوائل العقد الثامن من هذا القرن: «إلى متى تسحر أسطورة الشرق والغرب الكاذبة المسلمين الأقوياء، وتوحشهم الأبواق الإعلامية الجوفاء؟»^١ وفعالاً فقد حطمت الثورة الإسلامية هذه الأسطورة.

ج - معالم كبيرة أخرى

ومن يستعرض كلمات الإمام التي تركّز على معالم الصحوة الإسلامية يستطيع اكتشاف الكثير من هذه المعالم:

- (١) فهذا الاتجاه العام نحو تفهم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.
- (٢) وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة، وخصوصاً قطاع الجيل الشاب نحو تطبيق الإسلام، على كلّ شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كلّ المهالك والمشاكل التي تورّطت فيها مسيرة الأمة. كلّ هذا بعد الجهود الكبرى التي بذلها الاستعمار لكي تنسى الأمة إسلامها.
- يقول عليه السلام مخاطباً مجموعة من حراس الثورة عام ١٩٧٩ م: «إنّ الإسلام كاد أن يُنسى، وكادوا يقضون عليه، وكادوا يسحقون القرآن، إلّا أنّ ثورتكم يا شباب إيران، ونهضتكم يا أبناء الشعب الإيراني - وهي نهضة إلهية - أحيت القرآن، وأحيت الإسلام، وأعطت الإسلام حياةً جديدةً»^٢.
- (٣) وهذا التفهم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي في التخطيط لإفناء الشخصية الإسلامية، ثم العمل على امتصاص دماؤها.
- (٤) وكذلك تفهم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، ونوع المرحلة التاريخية التي تعيشها.

١. كلام الإمام: ج ١٥ ص ٣٢٠.

٢. كلام الإمام: ج ١٠ ص ٣٧٨.

(٥) وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتَزَّ المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

(٦) ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدّة على كلّ الأرض الإسلامية.

(٧) ثم هذا التخطيط العلمي الرائع للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وتطبيق قاعدة «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه».

ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنّها تكشف جميعها عن التطلّع والعمل على صنع المستقبل. (٨) وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقصّ مضاجع اللصوص الكبار، وتهزّ عروش العملاء الصغار، وتمزّق أستار المستترين والمتبرقعين، إنّها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمدّ أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسياً دنياه ومتعته، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

يقول الإمام الخميني في رسالته إلى الشعب عام ١٩٨٠م: «أنّي لأخجل حقّاً حينما أشاهد هذا الجيل الشاب الذي يطالبي - وهو في عنفوان شبابه - أن أدعو له كي يرزق الشهادة»^١. ويقول أيضاً مخاطباً الشبان: «أنتم ذخائر الإسلام، وإنّ هذا التحوّل الذي حدث بين شبابنا إنّما هو صنع إلهي»^٢.

(٩) وأخيراً وليس آخراً؛ هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة، وذلك يمثّل ظاهرة إسلامية ضخمة، وأضحّت المرأة المسلمة في طليعة الثائرين حتى قال فيها الإمام الخميني: «أنّن قدتنّ الثورة الإسلامية»^٣.

١. المصدر السابق: ج ٦ ص ١٠٦.

٢. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ١٣٩.

٣. المصدر نفسه: ج ٦ ص ٨٤.

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى مجموعة من المحرومين في أواخر عام ١٩٧٩م: «إنكم إذا أمعنتم النظر فستجدون قادة القوى العظمى يعيشون الاضطرابات والقلق، إنّه ليقلقهم أن تنطلق جماعة تعمل باسم الله ولا ترجو إلا ثوابه. إنّها نعمة إلهية ولن نستطيع أن ندرك عظمة النعم الإلهية الخفية»^١.

كلّ هذه المظاهر أشار لها الإمام وعمل على تكرارها على مسامع العالم؛ ليحقق غرض العزّة والشعور بالكرامة والثقة بالمستقبل في نفوس جماهير الأمة، في حين يبعث الرعب في قلوب المستكبرين، وللرعب جيش لا يقهر، وله دوره الذي تحدّث عنه الآيات القرآنية الشريفة في دحر العدو الكافر.

عوامل الصحوة

ومن يستعرض عوامل الصحوة الإسلامية المعاصرة كما يصوّرها الإمام الخميني؛ ربّما يجار في وضعها في سلسلة العوامل أو في سلسلة النتائج، إلا أنّ هذه الحالة حالة طبيعية، ذلك لأننا نتحدّث عن ظاهرة اجتماعية تعيش مع الإنسان، فهي بالقدر الذي تصنع فيه تأثيرها تتأثر بدورها وتكبر وتقوى في نفس الوقت.

خذ على ذلك - مثلاً - عامل توفّر القيادة الواعية الصبورة، فإنّه عامل حاسم في صنع التغيير، إلا أنّ التغيير نفسه يهب القيادة وعياً أكبر، وجلداً أقوى، ونظرة أكثر خبرة لكي تواصل مسيرتها الطويلة. وهكذا يمكن القول عن باقي العوامل، وهذا ما سنعرفه من خلال هذا البحث الشيق في كلمات الإمام الخميني وتصوراتهِ عن الصحوة المباركة.

وأهم ما لاحظنا من عناصر هي كالتالي:

أ- التأييد الإلهي.

ب- توفّر القيادة الواعية.

ج- توفّر مجموعة من العلماء والمفكرين المربّين.

د- تأهل الشعب لعملية التغيير.

١. المصدر نفسه: ج ١ ص ٥٠.

هـ- ظلم الطغاة.

و- قدرة الإسلام نفسه من خلال تصوراته وتعاليمه ومناسباته على صنع التغيير.

ز- الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استنهاها.

ولعلنا نجد أنّ هذه العوامل هي الأهم في صنع الثورة الإسلامية الأولى بقيادة الرسول الأكرم محمد ﷺ، فلقد كان التأييد الإلهي - قبل كل شيء - هو العامل الأهم، كما كانت شخصية الرسول ﷺ صاحبة الأثر العظيم، في حين كان استعداد الأمة للعمل - وهو استعداد ناهي شياً فشيئاً - ذا أثر ضخم في صنع ذلك التحوّل التاريخي الكبير. وطبيعي أنّ الرسالة التي حملها أولئك المؤمنون كانت ذات خصائص كبرى وفرت السبيل للنصر، ودخلت إلى القلوب وتعمّقت مع الجذور الإنسانية، ولعلّ الآية الشريفة التالية تشير إلى أهم هذه العوامل، يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي آتَىكَ بِنُصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّفَّ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^١

فلنستعرض إذن باختصار دور هذه العوامل في كلمات الإمام:

العامل الأول: تأييد الله تعالى

وهذه حقيقة أكدها الإمام مراراً، وأعلن أنّ الذي صنع هذه الصحوّة هو لطف الله ورحمته، وإنّا لم نكن إلاّ وسائل لتزول هذه الرحمة الإلهية، ولعلّه لم يكن يخلو كلام للإمام من ذكر هذه الحقيقة، وهو ما شهدناه في بعض النصوص الماضية.

وكمثال على ذلك يقول في رسالته إلى الطلاب في أمريكا عام ١٩٨٠م: «إنّ الثورة الإسلامية بتأييد الله المتّان تتسع على المستوى العالمي، وهي بمشيئة الله سوف تجرّ القوى الشيطانية إلى التقوقع والانزواء».

العامل الثاني: توفّر القيادة المطلوبة

وهذه بدورها حقيقة مهمة وما أكثر ما كانت بعض أنماط الصحوّة تتجلّى هنا وهناك إلاّ إنّها

١. الأنفال، الآيات: ٦٢ و ٦٣.

تؤول إلى الاضمحلال بسبب عدم توفر القيادة الكفؤة أو ضعف هذه القيادة، ومن هنا فالقائد دائماً هو المستهدف من قبل أعداء الصحوة للتصفية الجسدية أو المعنوية، وكلنا يعلم دور الدعايات المشتركة ضد الرسول العظيم ﷺ وأتباعه المخلصين منذ صدر الإسلام ولحد الآن.

وأول ما يشترط في القائد الإخلاص للقضية، والتواضع الخلقى والعمل في سبيل تحقيق رضا الله، فهو روح العمل وسر استمراره وتوفيقه، فهو ينظر للواجب قبل أن ينظر لنتيجة العمل.

يقول الإمام الخميني في حديثه لسكان كردستان عام ١٩٧٩ م: «إلهي إنك تعلم أننا ما طلبنا في نهضتنا هذه سوى رضاك، وإنك لتعلم أننا ننفر من الظلم حتى ولو أصاب فرداً واحداً»^١.

ويقول لمراسل صحيفة بالتي مورسان قبيل نجاح الثورة: «أنني بعون الله تعالى سأقوم بواجبي في خدمة الإسلام والمسلمين، وسأستمر ما لم يكن هناك منع (إسلامي) للاستمرار»^٢.

وفي حديثه لوزير الداخلية والمحافظين في أواخر عام ١٩٧٩ م يقول: «إن علينا واجباً يجب أن نقوم به، وهو ما فعله، والذين يعملون بواجباتهم ليس المهّم لديهم النصر أو الهزيمة، فإذا انتصرنا فهو حسن، وإذا انهزمنا فقد هزم من قبلنا أمير المؤمنين والحسين ولكنهم قاموا بواجباتهم، وها نحن نعمل بواجبنا»^٣.

وعندما يسأله مراسل التايمز اللندنية قبيل نجاح الثورة عن حياته الشخصية يجيب: «حياتي الخاصة حادثة فردية من مجموع حوادث العالم، ولا تحتاج إلى توضيح، أما عقيدتي فهي كعقيدة سائر المسلمين في تلك المسائل الواردة في القرآن الكريم والسنة الشريفة والقادة الصادقين بعده، وروح هذه العقيدة وأهمها وأجلها عقيدة التوحيد»^٤.

وعندما تحدّث أحد النوّاب في مجلس الشورى بحضوره، فأطنب في وصفه، ردّ عليه قائلاً: «أنني لأخشى أن تكون هذه الأقوال وأمثالها سبباً لحدوث حالة من الغرور والانحطاط لي، وإنني لاعوذ بالله - تبارك وتعالى - من الغلو، ولو كنت أعتبر نفسي حائزاً على مرتبة أعلى من سائر

١. كلام الإمام: ج ١٥ ص ١٨٧.

٢. المصدر السابق: ج ٦ ص ٤٠.

٣. المصدر نفسه: ص ٦٠.

٤. كلام الإمام: ج ٦ ص ٧٧.

الأفراد فذلك انحطاط فكري وتسافل روحي»^١.

ويقول في حديثه في لقائه بالطلاب الدارسين في الهند عام ١٤٠١ هـ: «إن علينا تحقيق مفاد الآية الكريمة ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وعلى الشعوب الإسلامية أن تحقق الحق في مجتمعاتها وتبطل الباطل»^٢.

ومن شروط القائد أن يكون شعبياً متواضعاً يعيش مع الجماهير المسلمة ولها، ويفكر في ما يصلحها ولا ينغزل عنها، كل همه خدمتها ورضاها، يعي آلامها ويعيش آمالها، ويحكم قلوبها قبل أبدانها. وهو ما طبّقه الإمام الخميني نفسه على حياته الشخصية والسياسية.

يقول الإمام في رسالته إلى الشعب في عيد انتصار الثورة الأول: «إن الأطباء ممنوعون من الاشتراك في عيد الشعب الغيور والجيش الإسلامي، إلا أن قلبي مع الشعب الشريف، والجيش الإسلامي الوطني والحرس، ودعائي المتواضع يودعهم، وسأبقى ما بقي في رمق من الحياة خادماً مضحياً في خدمة الجميع»^٣.

ويقول في كلمته إلى الخطباء والعلماء في طهران عام ١٩٨١: «إننا جميعاً رهن لمنة هذه الجماهير العظيمة. إنها تعطي كل شيء في سبيل الإسلام، ولا تطلب شيئاً»^٤.

ويقول قبيل الثورة وهو يقيم بباريس: «إن شعبنا يعتبرنا خدماً للإسلام والوطن، والمسائل التي نطرحها كانت في ضمير هذا الشعب، ولذا فنحن نتحدث عن مطالب الشعب»^٥.

ويقول مخاطباً الوفد المرسل للتحقيق في الحرب المفروضة، وكان يضم بعض القادة الكبار عام ١٩٨٠ م: «أتني أنصحكم أيها السادة - وأنتم على رأس بعض الأقطار الإسلامية - أن تسعوا لتحكموا القلوب لا أن تحكموا الأبدان والقلوب عنكم بعيدة»^٦.

١. المصدر السابق: ص ٩١ - ٩٢.

٢. المصدر نفسه: ج ١٥ ص ١٧٣.

٣. كلام الإمام: ج ٦ ص ٥٨.

٤. المصدر السابق: ص ١٠٤.

٥. المصدر نفسه: ص ٢٩.

٦. المصدر نفسه: ص ١٨١.

وهكذا كانت سيرته العملية، فلم يكنز شيئاً، ولم يسكن قصرًا، ولم يترك شيئاً يذكر، كانت حياته تتلخص في بيت مستأجر وغرفة صغيرة ومصحف وبعض الكتب المهداة، هذا وهو الرجل الذي هدّد القوى العظمى، ونغص حياة ذوي القصور الفارهة في أنحاء العالم.

كان يعيش مع شعبه بكل وجوده، وهذا ما يشهد له به التاريخ.

ومن الأمور المشتركة في القائد بشكل طبيعي أن يتمتع بالأهلية العلمية، ذلك إنّه يريد أن يقود تحركاً عقدياً، ويسعى لتطبيق منهج إنساني متكامل وأطروحة جامعة. وطبيعي أنّ القائد يجب أن يطبق الأطروحة على نفسه، كما يسعى للالتزام بتوجيهات الأطروحة ومناهجها في أسلوبه العملي حتى إذا ما انتصر راح يعمل على تطبيقها على الحياة الاجتماعية تطبيقاً ترضاه أدلتها ومنابع رؤيتها للواقع والحياة.

وهذه أمور تتطلب أن يكون القائد متمتعاً بالصفات العلمية والخلقية العليا، وهي في الواقع ما يسمّى بالأساس العقلي، أي الأساس الطبيعي لنظرية ولاية الفقيه، فلا بد لقيام الحكومة الإسلامية من وجود ولاية تسوّغ إصدار القوانين والتحديدات التي تستتبعها هذه القوانين للحرية الأصلية للأفراد، تحقيقاً لطموحات الرسالة ومصالح المجتمع، وهذه الولاية إنّها تمنح للشخصية التي تتمتع بالقدرة الفقهية والسلوك الملتزم العادل والأهلية القيادية المطلوبة، ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبعاد هذه النظرية الإسلامية الأصيلة بقدر ما أردناه من الإشارة إلى ضرورة تمتّع القائد بهذه الصفة العلمية.

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى الناس في أوائل عام ١٩٧٩ م: «إلهي إنّك تعلم أنّي لا أدافع عن العلماء (ودورهم) لأنني منهم، بل لأنني أعلم أنّ هذا الصنف من الناس هو الذي يستطيع إنقاذ الشعب»^١.

وكان من تأكيدات أنه يتم الالتحام بين الجامعات العلمية الدينية (الحوزات) والتي كانت المدرسة الفيضية مثلاً لها، والجامع العلمية الحديثة (الجامعات الأكاديمية)، وذلك بعد أن عمل الاستعمار على إيجاد الهوة السحيقة المملأى بالتهم والسخرية بينهما.

١. كلام الإمام: ج ٦ ص ٥٢.

لذلك نراه يقول مخاطباً مجموعة من العلماء الدينيين والأساتذة والطلبة الجامعيين في أوائل عام ١٩٨٠م: «لقد هدمتم ذلك السدّ الكبير بين ما نسميه بالفيضية والجامعة، إنّها الخطوة الأولى، والتي يجب أن تستتبعها خطوات، فتعملوا على أن تكونوا مستقلّين غير تبعيين... إنّ الأجيال الآتية يجب أن تعلم بضرورة وحدة هذين المركزين، وإنّما يتمّ ذلك من خلال العلم والعمل، إنّ العلم والتهذيب، إنّما يشكّلان جناحين لا يمكن الطيران بأحدهما فقط»^١.

وطبيعيّ إنّهُ إذا تمّ الالتحام وقفت كلّ الجامعات العلمية تسند القيادة علمياً وعملياً.

وعندما حاول بعض المفكرين الجامعيين النيل من مكانة الفقهاء، وذلك قبيل نجاح الثورة الإسلامية عاتبه الإمام الخميني قائلاً: «لقد عمرتُ ثمانين عاماً، وعشتُ ستين عاماً في الجامعات العلمية، ولي منذ حوالي ثلاثين عاماً اشتراك في مسيرة الأمور الاجتماعية، وأمامي هذه العقود الأخيرة بكلّ حوادثها، ومعنى ذلك أنّني لا أفتقر للخبرة في هذا المجال، ولذلك فأنتي أعلن من خلال معلوماتي عن مسيرة الإسلام منذ الصدر الأول وحتى اليوم، أنّ الذين حفظوا المسيرة الدينية بكلّ أبعادها هم العلماء»^٢.

العامل الثالث: قيام العلماء بواجباتهم

وإدراكاً منه لدور العلماء نجده يتوجّه إليهم ويذكرهم بدورهم في عملية النهضة الاجتماعية، ويعمل على نفي العناصر العميلة التي يسميها بوعّاظ السلاطين، وهو مصطلح طرح من قبل على ألسنة بعض المفكرين الاجتماعيين إلاّ إنّهُ كان معبراً عن روحية هذه الطبقة. وقد هاجمها الإمام الخميني بشدّة، وحذّر الناس منها، وطردها من المسيرة الاجتماعية.

إنّهُ يؤكّد في حديثه لأهالي مدينة قم في أوائل عام ١٩٨٠م: «لقد قلت مراراً: إنّ العالم الذي يعمل خلافاً لشأن العلماء وتعاليم الإسلام ويتأمر علينا، إنّهُ أشد من السافاك، بل هو سافاك معتمّم... إنّ لي نفوراً من الكثير منهم، ولا أوّمن بالكثير منهم...»^٣.

١. المصدر السابق: ص ٦٣.

٢. المصدر نفسه: ص ٧٣.

٣. كلام الإمام: ج ٦ ص ٦٢-٦٣.

ويؤكد في كتابه (ولاية الفقيه)^١ قائلاً: «إن ذلك الفقيه الذي يدخل في جهاز الظلمة، ويعود من حواشي البلاط ويطيعهم، ليس أميناً، ولا يمكن أن يحمل الأمانة الإلهية، والله وحده يعلم مدى المصائب والمحن التي صبها علماء السوء هؤلاء على الإسلام».

وفي قبال ذلك يؤكد الإمام الخميني في أماكن كثيرة على قيام العلماء بواجباتهم في سبيل دفع عجلة الصحوة إلى الأمام: (لقد رأينا أناساً كانت مجرد معاشرتهم وملاحظة سيرتهم تترك أثرها التنزيهي على الآخرين. إنَّ عليكم أن تهذبوا أنفسكم إلى الحد الذي يترك سلوككم فيه، وأخلاقكم وإعراضكم عن الدنيا أثره في إصلاح الناس، فيقتدون بكم، وتعدون أسوة للأنام، وجنداً لله، لتستطيعوا أن تعرفوا الإسلام، والحكومة الإسلامية. لا أريدكم أن تتركوا التفقه، بل عليكم الدراسة المتواصلة بكل جدية، وأؤكد على هذه المسألة. لا تُخلو الحوزات من الفقهاء، وما لم تتفقهوا فإنكم لن تستطيعوا أن تخدموا إسلامكم، إلا أن عليكم خلال دراستكم أن تعرفوا الإسلام للناس».

ويضيف: «إنَّ تحطيم الطاغوت - أي القوى السياسية المنحرفة الحاكمة - في وطننا الإسلامي إنما هو من واجباتنا»^٢.

وقبل أكثر من خمسة عشر عاماً من نجاح الثورة، كان الإمام الخميني يؤكد هذه الحقيقة: «إنَّ على علماء الإسلام الدفاع عن أحكام الإسلام المسلمة، واستقلال الأقطار الإسلامية، والنفور من الظلم وإسرائيل وعملائها وأعداء القرآن المجيد، والإسلام، والوطن... إنَّ السكوت في هذا العصر في قبال الظلم إنما هو إعانة عليه»^٣.

ويقول أيضاً: «إنَّ الفقهاء يجب أن يقودوا الشعب ويمنعوا من اندراس معالم الإسلام وتعطيل أحكامه... إنَّهم اليوم حجة على الشعب، تماماً كما كان الرسول حجة على الأمة، وكانت الأمور كلها موكولة إليه، فكل راد عليه محجوج، والفقهاء منصوبون من قبل الإمام ﷺ حججاً على الناس»^٤.

١. المصدر السابق: ص ١٩٩.

٢. ولاية الفقيه: ص ٢٠٣.

٣. بيان صادر بمناسبة الخامسة عشر من خرداد عام ١٩٦٣.

٤. ولاية الفقيه: ص ١٠٦ و ١١٨ وغيرهما.

ولا ننسى هنا أن نشير إلى صفة كان الإمام القائد يؤكّد عليها في القيادة، وهي صفة الشجاعة في قول الحق، وهي صفة تمتّع هو بها في القمة، إذ يقول مثلاً: «إنّ (رجال السلطة) يعاملونني معاملة العبيد في القرون الوسطى، أنّي أقسم بالله العظيم بأنّي لا أريد حياة كهذه. (إنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برماً)»^١، ليتهم يقبضون عليّ حتى أعلم إنّي قد أدّيت واجبي)^٢. ويقول عليه السلام: «لقد أعددت قلبي لرمح عملائكم، ولكنّي لن أتقبل الخضوع أمام الجبابرة»^٣. والحقيقة أنّنا نستطيع أن نجعل من أهم عوامل الصحة؛ قيام العلماء بواجباتهم.

العامل الرابع: التحوّل الشعبي باتجاه الإسلام والمعنويات

والواقع أنّ عمل العلماء انصبّ على أن يستعيد الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفّل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفّق يفجر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دفائنها، وإذا تجلّت الفطرة النفسية على السطح الحياتي كان الفلاح كلّ. والجدير بالذكر أنّ هؤلاء المفكرين لم يستطيعوا أن يحققوا ما حقّقوا إلّا بعد أن حرّروا نفوسهم من المتع الرخيصة، ونذروا أنفسهم للهدف، وتخلّصوا من قيود التبعية للحكّام الذين شكّلوا - في فترة الغفوة - قيوداً ظالمةً، وما زال الكثيرون منهم يشكّلون ذلك، وإلّا بعد أن اتّصفوا بالعملية والروح التغييرية الإسلامية معاً.

يقول الإمام الخميني؛ عام ١٩٧٩ م: «إنّ ما حدث في إيران من ثورة معلول لعاملين: الأول: - وهو الأهم من غيره - هو أنّ الشعب التحم مع الإسلام في مسيرته، بمعنى أنّ إيران من أقصاها إلى أقصاها كانت تطالب بالإسلام».

والأمر الثاني: إنّ جميع الأصناف والقطاعات اتّحدت وتلاحمت فيما بينها»^٤. ويقول في حديثه إلى بعض الجنود في نفس السنة: «إنّ سرّ انتصارنا يكمن في أنّ نهضتنا لم تكن

١. العبارة التي قالها الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء قبيل استشهاده.

٢. بيان إلى الشعب عام ١٩٦١.

٣. في بيان صادر عام ١٩٦٢.

٤. كلام الإمام: ج ١٠ ص ١٤٧.

سياسية فقط، أو لانقاذ النفط من التبعية فحسب، وإنّما كانت تمتلك بعداً معنوياً إسلامياً، شبّاننا كانوا يتمنون الشهادة، ويستقبلونها تماماً كما كان المسلمون في صدر الإسلام»^١. ويقول أيضاً: «إنّ هذه الهدية الغيبية، وهذه الحرية، وهذا الخلاص من تحكّم الظالمين، وهذا الاستقلال الذي منحنا الله إياه وقطع عنّا أيادي الأجنبي، إنّما هو لقوّة الإيمان ووحدة الكلمة والاتجاه إلى الله - تبارك وتعالى - حيث ألقت يد العناية الإلهية على رؤوس هذا الشعب ظلّها، وحققت هذا النصر، فلتحفظوا هذه الهدية الإلهية»^٢.

ويقول مخاطباً مندوبي السودان والأردن بعد عام من نجاح الثورة: «إنّ على المسلمين أن يوجدوا التحوّل المطلوب التحوّل من الخوف إلى الشجاعة، التحوّل من التوجه للدنيا إلى الإيمان وإلى الله، فإنّ منشأ كلّ الانتصارات أن تتحوّل إلى موجودات إسلامية إنسانية إيمانية كما أراد الله لنا»^٣. ومن الملاحظ هنا أنّ القائد الحكيم هو الذي يراقب مسيرة الثورة بكلّ دقّة، فإذا ما حدثت حالة (الإقبال الثوري) لدى الأمة عمل على استثمارها على أفضل وجه، في سبيل تحقيق مصالح الشعب ومتطلباته، وتصعيد الوعي لتحقيق الصحوة المطلوبة. ولنا من القرآن الكريم وعمل الرسول الأكرم والقادة خير الأدلّة والتطبيقات لهذه القاعدة الأساس.

العامل الخامس: اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري

وهذا العامل عندما يتصاعد، وبالخصوص عندما يتصاعد الإحساس الشعبي بهذا الظلم، يترك أثره في تحريك الجماهير نحو بذل الغالي والرخيص للخلاص منه، وتحقيق التغيير الاجتماعي المطلوب. يقول الإمام الخميني عليه السلام في جوابه على رسالة الرئيس الليبي أو آخر عام ١٩٧٧ م: «إنّ الشعب الإيراني وبعد انقضاء المراحل الزمنية السود الملأى بالعنف، وبعد تحمّل أزمة مرعبة، وفقدان الاستقلال، وضياح الشعائر الإسلامية والوطنية على أيدي الجناة الذين تقف على رأسهم عائلة بهلوي المجرمة، وبعد مشاهدة كلّ ذلك السلب والنهب، وأنماط الخيانة اللامتناهية للمقدسات

١. المصدر نفسه: ص ١٢٩.

٢. المصدر نفسه: ص ١٣٦.

٣. المصدر نفسه: ج ١٥ ص ٦٠.

الدينية والوطنية، والذخائر الوطنية العظمى، وفي طليعتها القوى الإنسانية والتراث الثقافي هذا الشعب - وبمشيئة الله تعالى وتوكله على الإسلام والقرآن - عاد إلى ذاته، وراح من خلال نهضته الإسلامية يتقدم كسيلٍ عارمٍ لتحطيم السدود الكبرى للاستعمار والاستبداد...^١. ويقول: «مخاطباً مجموعة من عشائر محافظة (بويراحمد): «إنَّ أحدَ العوامل التي حققت لكم النصر؛ هذا التصاعد في الظلم والإرهاب. ذلك أنَّ الرعب والإرهاب عندما يطغى فإنَّ الانفجار سيتبعه، ويتجمّع الحقد الشعبي لتطلقه صرخة شجاعة، وفي إيران تجمعت هذه العقد النفسية وحصل الانفجار، والأهم من كلِّ ذلك أنَّ هذا الانفجار رافقه اتجاه نحو الإسلام، ولقد كانت صرخة الإيمان هي انطلاقة هذا التحرك»^٢.

العامل السادس: الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها

وهذا عامل واسع الأبعاد بدوره، ذلك أنَّ الإسلام - بمعنى من المعاني - يربّي الإنسان على أن يكون تغييرياً ثورياً دائماً لا يقبل مطلقاً بواقع فاسد. ومن أساليبه المهمة مسألة تعيين بعض الأماكن والأزمنة والشعائر لتمتلك زخماً معنوياً ثورياً يفوق الحالة الاعتيادية، ويعمل على إيجاد ضخٍّ معنوي وحالة يقظة وصحوة، ويدفع نحو تحقيق المعاني الكبرى التي يريدتها الإسلام. فعلى الرغم من أن الله تعالى له ما في السماوات والأرض، وهو معكم أينما كنتم، إلاَّ إنه شاء أن يعيّن بعض الأماكن وينسبها خصوصاً له بما يسمى (بيوت الله)، كما شاء أن يعيّن مكاناً معيناً له في الأرض ليكون بيته الحرام، وعلى الرغم من أن الزمان ملك لله تعالى وحده، لكنّه شاء أن يعيّن شهر رمضان المبارك شهراً له، وعلى الرغم من أن الأيام كلّها له، لكن هناك أياماً تثير الكثير من المشاعر، لذا سمّيت أياماً لله، وهذه المحطات الزمانية والمكانية لها دورها الكبير في تحقيق عودة إلى الله، وسرعة في العملية التغييرية.

والقيادة الواعية الحكيمة هي التي تستثمر هذه المناسبات الإسلامية لتحقيق التغيير المطلوب في مستوى الوعي والصحوة. وكم كان الإمام يردّد: إنَّ كلَّ ما لدينا من عطاء ثوري إنّما هو نتيجة

١. كلام الإمام: ج ١٠ ص ٨٠.

٢. المصدر نفسه: ج ١٠ ص ١٣٧.

عطاء شهر محرم، والمجالس التي يعقدها المؤمنون لإحياء ذكرى ثورة الحسين بن علي عليه السلام. فهو يؤكّد في وصيته الخالدة قائلاً: «وليعلموا أنّ تعاليم الأئمة عليهم السلام لإحياء هذه الملحمة التاريخية الإسلامية - ثورة الحسين عليه السلام -... إنّها هو بأجمعه صرخة بطولية شعبية بوجه الحكّام الظلمة على مرّ التاريخ وإلى الأبد»^١.

وعن أثر المساجد يقول في أحد أحاديثه عام ١٩٧٩ م: «إنّ كلّ الحركات الإسلامية منذ صدر الإسلام إنّما استمدت انطلاقتها من المسجد، لقد كان المسجد محلاً لتعبئة القوى ضد الكفر والشرك، وأنتم باعتباركم من روّاد المساجد يجب أن تحوّلوا المساجد إلى قواعد للإسلام وللحركة الإسلامية، ليتم قطع أيادي الشرك والكفر، وتأييد المستضعفين في قبال المستكبرين». أمّا الحجّ فحدّث عنه ولا حرج، ففي تصور الإمام الخميني عن الحركة الإسلامية يحتلّ الحجّ الدور الأكبر، وكان يحرص؛ على أن يحقّق الحجّ دوره العظيم في صياغة المجتمع الإسلامي المؤمن العابد الموحد والمكافح ضد الطغيان.

لقد كان يضمّن أروع توجيهاته في رسائله المطوّلة التي كان يوجّهها إلى الحجاج كلّ عام، وإنّا نعتقد أنّ هذا الجانب يحتاج إلى دراسة معمّقة فاحصة لكي نصل إلى الأبعاد الكبرى التي كان الإمام يرمي إليها في هذا العمل الإسلامي الكبير.

ولم تكن هذه النظرة وليدة نجاح الثورة الإسلامية، بل كان يبشّر بها قبل ذلك بسنين، فهو يؤكّد في كتابه (ولاية الفقيه) على ذلك قائلاً: «يجب استثمار هذه الاجتماعات لأهداف الإعلام والتعليقات الدينية، وتوسعة مدار النهضة العقديّة والسياسية الإسلامية»^٢.

ولسنا نريد التوسّع في هذا المجال، وتكفي نظرة سريعة على رسائله إلى الحجاج لنكتشف الأهمية البالغة التي أولاها الإمام لذلك.

ومن المناسبات الإسلامية: الأعياد الكبرى باعتبارها يوم العودة إلى الله، وهنا يطلب الإمام من خلال تهانیه أن تدرك الجماهير أبعادها، وقد كانت انطلاقة الثورة الإسلامية الكبرى من يوم

١. كلام الإمام: ج ١٥ ص ٧٩.

٢. ولاية الفقيه: ص ١٨٠.

عيد الفطر المبارك، فلنلاحظ كيف يبارك الإمام الخميني مناسبة عيد الاضحى المبارك لكلّ المستضعفين قائلاً: «أبارك هذا العيد الإسلامي الكبير لكل أولئك المستضعفين في العالم، والذين ثاروا بوجه المستكبرين وأولياء الطاغوت»^١.

العامل السابع: نجاح الحركات الإسلامية والثورة الإسلامية الكبرى في إيران نفسها

فعلى الرغم من أنّ هذا العامل معلول للصحة المباركة، إلاّ أنّه بدوره يشكّل أكبر العوامل لتوسعتها ونموها في كلّ العالم الإسلامي.

العامل الثامن: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة.

وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلاّ إنّها - جميعاً - قد أجمعت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتدّ بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام. وكثيراً ما رأينا الإمام يذكّر بدور المرحوم الأسدآبادي والمدرسي والنوري وحركة فدائيي الإسلام وغيرها.

وإنّي لأعلم أنّ الكثير من أبناء هذه الأمة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أنّ الكثير من المحاولات الاستعمارية والعميلة قد جرت لجرّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على نظم لا تمت إلى الإسلام بصلة، وطبيعي أنّ هذه المحاولات لا بد وأن ينكشف زيفها في أجواء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

وهنا أوكد أنّ على القادة الإسلاميين أن يديموا دفع عجلة النهضة الفكرية والعملية، بكلّ ما يملكون من طاقة، بعد أن يحزروا وجودهم وفكرهم من سيطرة الطواغيت، والعمالة للأجنبي، فالتحرير الذاتي شرط أساس لعملية التحرير الاجتماعي.

١. كلام الإمام: ج ١ ص ١١١.

وبالتالي فإنّ التذكير بهذه القضايا وتعميق الرؤية نحوها سوف يترك آثاره الإيجابية على استمرارية عملية الصحوة وديمومة النهضة الإسلامية.

ثم إنّ عليهم عدم الانخداع بالناذج التحريفية للإسلام التي يعرضها القشريون والمنتسكون كذباً، والمتطفّلون على الإسلام.

يقول الإمام الخميني بهذا الصدد: «إنّ المجتمع الإسلامي اليوم مبتلّ بمجموعة من القشريين المقدسين كذباً، والذين يعملون على إيقاف مسيرة الإسلام والمسلمين، ويوجّهون الضربات للإسلام باسم الإسلام نفسه»^١.

وهو خطر داهم يجب الوقوف ضده، فمن هؤلاء تنبع أفكار من قبيل:

- إنّ الإسلام ليس إلاّ مجموعة تعليقات أخلاقية!

- لا حكومة في الإسلام!

- إنّ علينا الصبر حتى ظهور الإمام المهدي عليه السلام!

- يجب الفصل بين الدين والسياسة!

- الإسلام ينسجم مع كلّ النظم الأخرى!

- أحكام الإسلام فردية أمّا الشؤون الاجتماعية فمتروكة للناس!

- لا توجد روح تغييرية أو ثورية في الإسلام!

- ليست هناك صحوة إسلامية!

- لا مانع من فسح المجال للعدو الكافر كي يعيش في أوكار المسلمين، دفاعاً عن بعض

العروش!...

وأمثال ذلك من السخافات التي لا نتعب أنفسنا في دفعها، إلاّ إنّها تستطيع أن تترك أثرها

السيء في أذهان المسلمين.

١. كلام الإمام: ج ١٥ ص ١٧٦.

الشهيد حسن البنا وأفكاره التقريبية

مقدمة:

دفعني الذكرى المتوية لولادة الشهيد الكبير الأستاذ حسن البنا (١٩٠٦-٢٠٠٦) للحديث الموجز عن بعد واحد من أبعاد شخصيته الفذة المعطاءة، وهو البعد التقريبي الحافل، تقديراً لدوره الكبير في مجال توحيد الأمة وتعبئة طاقاتها لتحقيق النهضة الشاملة ومواجهة التحديات الخطيرة. فقد كان ; أحد الكبار الذين أقدموا على تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية وهم

نخبة من العلماء المعروفين، من قبيل:

- الأستاذ محمد علي علوبة باشا
- والشيخ عبدالمجيد سليم، شيخ الأزهر
- والحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين
- والشيخ محمد عبدالفتاح العناني، عضو هيئة كبار العلماء وزعيم المالكية
- والشيخ عيسى منون، عضو هيئة كبار العلماء من علماء الشافعية
- والشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر وعالم الحنفية
- والشيخ محمد تقي القمي، من علماء الإمامية
- والشيخ عبدالوهاب خلاف، من اكابر علماء الأصول المتأخرين
- والشيخ علي الخفيف، شيخ الأزهر
- والشيخ علي بن اسماعيل المؤيد، من علماء الزيدية
- والشيخ محمد عبداللطيف السبكي، أستاذ الأزهر من الحنبلية.
- والشيخ محمد محمد المدني، العالم الكبير

- والشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء، من مراجع النجف
 - والسيد هبة الدين الشهرستاني، من علماء الكاظمية
 والعلامة عبدالحسين شرف الدين، العالم الكبير المعروف.
 إنَّ وقوف هذا الأستاذ إلى جانب هذه الكوكبة الطليعية يعبرُ أعظم تعبير عن جرأته وشجاعته
 وبعد نظرته التقريبية، وقد تجلَّى هذا البعد في النظام الأساسي لهذه الجماعة، وخصوصاً في المادة
 الثانية التي تحدّثت عن أهداف الجمعية قائلة: تستهدف هذه الهيئة مايلي:
 ١- السعي لتحقيق الأرضية المناسبة للوحدة والتضامن بين المذاهب الإسلامية المختلفة،
 ذلك أن الرؤى التي لا ترتبط بالأصول الإسلامية العامة قد فرقت بين المسلمين.
 ٢- نشر العقائد والقوانين الإسلامية العامة باللغات المختلفة، وتوضيح احتياج المجتمع لها
 في مقام العمل.

٣- السعي لحلّ النزاعات بين شعبيين أو طائفتين إسلاميتين، وتحقيق التقريب والتضامن بينهما.
 ورغم أن المرحوم البنا لم يكن من علماء الأزهر إلاّ أنّه كان ذا شخصية حركية رائعة ترك
 تأثيرها بسرعة هائلة على الآخرين، ونجد نموذجاً لذلك في حديث الشيخ القمي عن ذكرياته مع
 جماعة التقريب حيث (يقف طويلاً عند الشيخ حسن البنا. حين يذكره يسري إلى جسده نوع من
 النشاط والحيوية في الكلام كأنّ نشاط الشيخ البنا يسري إلى جسده. لم يكن حسن البنا عالماً
 أزهرياً، ولم تكن له علاقات مع شيوخ الأزهر، لكنّه كان جبلاً شامخاً في همومه وتحركه ونشاطه
 وتخطيطه وإخلاصه. بهذه الصفات الكبيرة اخترق أوساط الشباب الجامعي وربّى جيلاً تقيّاً
 ورعاً مجاهداً مثقفاً ثقافة إسلامية واعية صحيحة. كان يحمل همّ التقريب بين مذاهب المسلمين
 انطلاقاً من هدفه الذي كان يعيشه بكلّ وجوده، وهو عودة الأمة المسلمة إلى عزّتها وكرامتها
 ومكانتها على الساحة التاريخية. روحه التقريبية هذه سرت إلى جماعة (الإخوان المسلمين) التي
 أسّسها ورعاها وأشرف على مسيرتها، وآثاره لا تزال حتى اليوم موجودة بين جماعات الإخوان
 المسلمين، فهي الجماعة السلفية الوحيدة التي ترفض التعصّب الطائفي وتقيم علاقاتها على
 أساس الإسلام وحده لا المذهب، ولا تعير أهمية للخلافات المذهبية).^١

١. ملف التقريب للأستاذ الدكتور محمد علي آذرشب ص ١٣٧.

وقد ذكر الأستاذ آذرشب أن الشيخ البنا كان من الأوائل في هذه الجماعة ومن المهتمين بدفع مسيرة الدار، وأضاف: وكان الحديث في الايام الأولى لتشكيل الجماعة يدور عن اسم للمؤسسة التي يسم الشيخ القمي بانشائها، هل تحمل اسم الوحدة، أو التعارف، أو التعاضد أو...؟ غير أن الشيخ حسن البنا اقترح اسم التقريب لأنه أقرب إلى التعبير عن أهداف الجماعة، وحملت الجماعة والدار اسم التقريب بناءً على اقتراح هذا الشيخ التقي المجاهد.

صحيفة البنا تتبنى التقريب

لابأس أن نذكر أن الشيخ كان مهتماً أن ينشر في صحيفته ما يقرب بين أهل السنة والشيعة، وكان يتعاون مع دار التقريب في إيصال صوتها إلى السعودية التي حظرت هذا الصوت آنذاك. ولا بأس أن أذكر احدي ذكريات الشيخ القمي في هذا المجال.

بعد حادثة اعدام السيد أبو طالب اليزدي في الحجاز - كما مر ذكرها - انقطع سفر الإيرانيين إلى الحج لسنوات، ثم عاد حج الإيرانيين، وعمدت دار التقريب إلى نشر مناسك الحج على المذاهب الخمسة، أي مذاهب أهل السنة الأربعة ومذهب الشيعة الإمامية، من أجل إزالة ما علق في الازدهان تجاه الشيعة إثر التشويش الذي حدث بعد إعدام السيد الإيراني، وخلال سنوات انقطاع الإيرانيين عن الحج. هذه المناسك توضح بما لا يقبل الشك أن السنة والشيعة متفقان في معظم مناسك الحج إن لم يكن كلها.

ما كان بالإمكان إدخال هذه المناسك إلى السعودية لتوزيعها في موسم الحج، لأن التعليقات هناك لم تسمح بذلك آنئذ.

الشيخ حسن البنا وجد الطريق إلى ذلك، فطبع كل هذه المناسك في صحيفته، وأدخلها في موسم الحج إلى السعودية، وتوزعت بين الحجاج وكان لها أبلغ الأثر بين المسلمين.

وفي تلك السنة حجَّ الشيخ حسن البنا، والتقى في أيام الحج بالعالم المجاهد آية الله أبو القاسم الكاشاني الزعيم الديني لحركة تأميم النفط في إيران.^١ وقد نقل لي العلامة السيد هادي الخسر وشاهي أن بعض العلماء الكبار في إيران كانوا ينظرون إلى خطوات المرحوم البنا العملية

بكلّ تقدير، فقد حضر عام ١٣٧٥ هـ. ق في مجلس آية الله السيد رضا الصدر - وهو أحد كبار العلماء - فرآه يتحدث عن الأسرار الاجتماعية للحج، مركزاً على قضية الوحدة الإسلامية، وتحدث بالمناسبة عن دور المرحوم البنّا في سفره إلى الحج في مجال تعريف المصريين بحقيقة الشيعة، واعترض على ما كانوا يلاقونه من نظرات مشككة فيهم، مؤكداً على إسلاميتهم. وهنا التفت المرحوم الصدر إلى الحاضرين ليقول لهم: لا بد وإنكم تعرفون الشيخ حسن البنّا أنه البطل الصامد، إنه القائد العالمي الخالد للإخوان المسلمين.^١

وهكذا كان يتطابق في نظره وعمله في زمن التشكيك والتلاحي والتكفير والتفسيق مما يعني الكثير من الشجاعة والافدام.

وقد سرت هذه الروح التقريبية في أوصال هذه الحركة وانتشرت بانتشارها العالمي، فقد كان من مبادئها الابتعاد عن الجدل المذهبي والطائفي^٢ فكان الإخوان يلتزمون دائماً بروح الإسلام، ولا ينحصر في مذهب واحد، ويتعدون عن الخلافات الفرعية، ويحذرون الآخرين من الدخول فيها بل اعتبروها - كما هو الحق - متنفساً طبيعياً للمسيرة، ومظهراً من مظاهر المرونة الإسلامية والاجتهاد.^٣

وقد أكد هذا المنحى القادة الذين واصلوا دربه، فهذا المرحوم مصطفى مشهور يقول في رسالة له للسيد الخسر وشاهي: فإن دعوة الإخوان المسلمين منذ نشأت على يد المرشد الأول الإمام حسن البنّا هي دعوة تدعو إلى وحدة المسلمين جميعاً على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم الدينية والفكرية، لأنّ المسلمين ذلّوا وهانوا أمام أعدائهم بسبب الفرقة والتنازع والاختلاف المفضي إلى الكراهية والبغضاء.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ ويقول سبحانه ﴿وَلَا

١. سند مخطوط.

٢. من خطب حسن البنا، ص ١٨ - ٢٠.

٣. دعوتنا، ص ٤٣.

٤. آل عمران: ١٠٣.

تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ هُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾.

والأساس الفكري لذلك - لدينا - تجده في ركن الفهم والأصول العشرين، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة هما المصدران للتشريع.

لانكفر مسلماً أقرّ بالشهادتين وعمل بمقتضاها ما لم يأت بعمل من أعمال الكفر، وكذلك المقولة التي اشتهرت وذاعت حتى عرفت بالقاعدة الذهبية (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) والمعنى واضح، فالاتفاق يكون عادة في الأصول والاختلاف في الفروع.

والإمام الشهيد حسن البنا عليه رحمة الله كان مهموماً بهذا الأمر في أقواله وأفعاله، فلقد شاهدت صورة له في عام ١٣٢٥ هـ مع كبار العلماء في عصره منهم الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الأزهر في ذلك الوقت وساحة الشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين ومحمد التقي القمي وآخرين وأخريين في اجتماع في دار التقريب بين المذاهب الإسلامية.

وعلاقة الإخوان المسلمين العملية بالشيعة في إيران وغيرها منذ خمسينات هذا القرن وبعد قيام الثورة الإيرانية تشهد بذلك.

إنّ المسلمين أحوج ما يكونون إلى لمّ صفّهم وجمع كلمتهم، وكفاهم الفرقة التي مكّنت لاعدائهم منهم وأوهنت قواهم.

إنّ الخلافات بين السنة والشيعة الزيدية أو الاثني عشرية لاتتجاوز بعض الفروع، فالكلّ يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وأنّ القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع، والسنة المطهرة هي المصدر الثاني، والكل يتجه إلى قبلة واحدة. إنّ الدين لا يخضع لأهواء العامة، وقد آن الآوان أن تحمد هذه الفتن وينطفئ لهيها. هذا وباللّهِ التوفيق.

مصطفى مشهور ٢٧ رجب ١٤٢٣ هـ القاهرة

وهذا النفس التقريبي يشيع في كتابات المرحوم الداعية الكبير الشيخ الغزالي والمرحوم حسن

الهضبي والشيخ عمر التلمساني والشيخ سيد قطب والشيخ التراي والشيخ محمد حامد أبو النصر والشيخ مأمون الهضبي والشيخ العلامة القرضاوي والأستاذ محمد مهدي عاكف وغيرهم.

ولعل هذه الروح هي من أعظم العوامل التي قربت الحركة إلى الثورة الإسلامية الكبرى التي قادها الإمام الخميني الراحل، والحديث في هذا المجال يطول لو أردنا التفصيل.

ومن هنا كان الاعتدال والوسطية من أكبر السمات التي أتصفت بها حركة (الإخوان المسلمين). يقول الأستاذ محمود عبدالحليم في دراسته عنهم: (وقد يكون من أعظم إنجاز الإخوان المسلمين أنهم استطاعوا أن يحفظوا للفكرة الإسلامية وسطيتها دون انحراف أو انجراف وسط تيارات عاتية، من طبائع شائعة وأهواء جامحة وظروف قاسية).^١

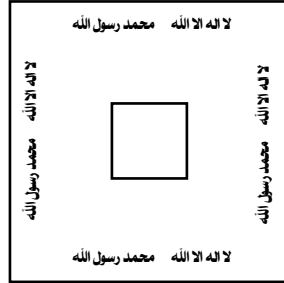
ونكاد نلمح هذا المعنى في معظم كتاباتهم، وتستند أدبياتهم إلى الكتب المتداولة عند الشيعة بشكل أكثر من غيرهم، من مثل (نهج البلاغة) الذي جمع فيه الشريف الرضي شذرات رائعة من كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول الأستاذ عبدالحليم مثلاً حين عرضه لرسالة الإمام علي عليه السلام إلى مالك بن الحارث الاشر بالولاية على مصر، يقول: (ويعدّ هذا الكتاب إحدى الوثائق التاريخية، بل إحدى الذخائر النادرة التي لم يجد الدهر بمثله، ولا تفتقت أذهان علماء الإدارة المتخصصين حتى اليوم عن شيء يقارنها أو يدانيها).^٢

وقد أصاب في كلامه هذا كبد الحقيقة.

كل ذلك كان من تأثير كلمات الإمام البنا الرصينة وتوجهاته الرائعة ودعوته الواضحة إلى الانفتاح على الأمة بمجموعها، وقد واجه في ذلك معارضة شديدة من المتزمتين السلفيين من جهة والمتصوفة المتطرفين من جهة أخرى، لأنّ دعوته سلكت مسلكاً واقعياً وسطاً، فقد كتب ; في مجلّة (الإخوان المسلمين) في أواسط الثلاثينات من القرن الماضي مقالاً رسم فيه مربعاً كبيراً كتب على حوافه الأربع من الداخل: (لا اله إلا الله محمد رسول اله) ورسم في مركز هذا المربع مربعاً صغيراً.

١. الاخوان المسلمون رؤية من الداخل، ج ٣، ص ٥٨١.

٢. ن. م. ج ٢ ص ٢٩٢.



وكتب يقول: إن إخواننا الذين ينتقدوننا يحصرون دعوتهم في المربع الصغير الذي يقع في مركز الدائرة، وهم بذلك يقصرونها على الذين اكتمل فيهم كل ما يرون أنه العقيدة الصحيحة.. وهذا عدد ضئيل، أما نحن فتتوجه بالدعوة إلى كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مهما كان مقصراً فيما سوى ذلك من تعاليم الإسلام وأفكاره. وكل ما نطالبه به أن يرتبط معنا برباط الإخوة الإسلامية للعمل على استعادة مجد الإسلام، وهذه الدعوى غير المشروطة بشيء إلا بالإقرار بالشهادتين، يستجيب لها طوائف على درجات متفاوتة من الإيمان بالتعاليم الإسلامية والعمل بها).^١

وبطبيعة الحال فهو يعتبر ذلك مساراً للهداية، ونشر العمل بالإسلام بكامله في المجتمع، ولا يغلق مطلقاً - كما هو الواقع - الحوار العلمي الهادئ في المجال الفقهي والأصولي، وكذلك المجال العقائدي والتاريخي، فكل ذلك أمر مقبول ولكن في إطار الشهادتين والإيمان بأركان الإيمان والإسلام، فرحمه الله وجزاه خير الجزاء، ونحن من جديد نحیی روحه الطاهرة وفكره البناء في ذكراه المئوية، راجين أن يتجه المسلمون جميعاً للعمل على تحقيق الوحدة الإسلامية التي ما لم نحققها فإننا لن نحظى بالتحلي بالخصائص القرآنية لهذه الأمة.

العلامة المودودي أمة في رجل

يكاد المودودي أن يكون الرجل الذي سبق عصره، ووضع أسس النهضة الإسلامية الشمولية المعاصرة، وذلك بعد أن عمل أعداء هذه الأمة طويلاً على إماتته في هذه النفوس. فجدير بنا أن نحبي الذكرى المثوية لولادة هذا الرجل العظيم المجاهد، وخصوصاً إذا عرفنا أنه عمل جاهداً على إقامة الحكومة الإسلامية في كل الأرض الإسلامية، وسعى إلى إذكاء نار الثورة الإسلامية، والاتصال بالقيادات التي يتوسم فيها القدرة على التغيير ولم تكد عينه تغمض جفنها عن هذه الحياة حتى فجر الإمام الخميني الراجل الثورة الإسلامية المباركة في إيران في نفس عام وفاته إذ (ولد عام ١٩٠٣ وتوفي عام ١٩٧٩) بعد أن كان الشيخ المودودي على اتصال به، وقد آتبه الإمام حينذاك بقوله: «لقد حرمت الأمة الإسلامية من عالم ممتاز ومفكر كانت تفتخر به، إن مولانا المودودي قدم خدمات جلّ للأهداف الإسلامية والمسلمين في شتى أنحاء العالم. إنّه لم يكن قائداً دينياً عظيماً للمسلمين في باكستان فحسب، بل كان قائداً للعالم الإسلامي كله، لقد احبى الثورة الإسلامية في العالم الإسلامي، مما أدى إلى اتساع الثورة الإسلامية في كل مكان، فكانت وفاته خسارة كبرى للعالم الإسلامي لا يمكن سدّها، فيجب استدامة السعي لتحقيق أهدافه الدينية، وعلى كل أنصار النهضة الإسلامية أن يواصلوا السير قدماً لتنتصر هذه الأهداف».

وإذا كان الإمام الخميني يعرف المودودي هكذا، فما عسى لغيره من أمثالي أن يعرفوه. ولكننا وفاء لجزء من حقه على الثورة الإسلامية نقول: إن الإمام المودودي كان من عشاق حكومة القرآن الشمولية، ولقد نذر حياته لها، وجاهد في سبيلها، وتحمل ما تحمّل، ولئن لم يستطع أن يحقق ما كان يطمح إليه في حياته فلقد استطاع أن يرسم الدرب، ويضع معالم الخطة ويفجر الأمل

ويعبئ الطاقات باستمرار، وسيبقى كذلك من خلال ما قدّمه للأجيال من فكر وتجارب حية. ونستطيع أن نشخص في مسيرته الفكرية والعملية هذه الخطوط المتتابعة والتي تتناغم في تحقيق الهدف الكبير:

١- إحياء النظرة الإسلامية الشمولية العالمية.

٢- إحياء الدعوة إلى الحكومة الإسلامية.

٣- وضع أسس المجتمع الإسلامي واستعادة خصائصه.
فلنستعرض بإيجاز هذه الخطوط.

أولاً: إحياء النظرة الإسلامية الشمولية

نحن نعلم أنّ الخطة الاستكبارية الغربية نجحت أيّما نجاح في إماتة هذه النظرة، وإحلال النظرة الفردية والتقسيمية وتأصيلها في النفوس، فراحت كل منطقة تؤكد على عناصرها الجغرافية، والقومية، واللغوية، والتاريخية وتقاليدها المحلية، ومنابعها الخاصة بل وحدودها المصطنعة، وخصوصاً بعد خطة سايكس بيكو. ورغم أنّ التخطيط لاحتلال العالم الإسلامي كله تقريباً قد فشل - بعد تنفيذه لعدة عقود - إلا أنّ المجاميع التي نالت استقلالها الصوري بقيت محكومة للالقاءات الفكرية الاستعمارية بعد الاستقلال، وعادت النظرة الإسلامية الشمولية غريبة.

وهنا ندرك الدور الذي لعبه المرحوم السيد جمال الدين والمرحوم البنا والمرحوم سيد قطب والمرحوم المودودي والإمام الخميني والشهيد الإمام الصدر وغيرهم في إحيائها وتركيزها حتى عادت ومن أواسط الستينات الميلادية قوية نابضة بالحياة. يخاطب المودودي المسلمين قائلاً: «إنّ القرآن أرادكم أن تكونوا حجة على عباد الله حين قال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^١ وإن لم تحققوا هذا الهدف فلقد أهدرتكم أعماركم.. من الضروري أن تكون مسألة هداية البشرية محور كل سعينا الاجتماعي والشعبي»^٢. كما كان في كتاباته العديدة يحاول تركيز فكرة تميز النظام الإسلامي عن باقي النظم المطروحة،

١. البقرة: ١٤٣.

٢. السيد أبو الأعلى المودودي، لسعيد اسعد گيلاني. (الترجمة الفارسية): نذير احمد سلامي، ص ٨٠.

وخصوصاً الرأسمالية والاشتراكية. كما أنه ركّز فكرة إمكان قيام هذا النظام في الواقع العملي لما يحويه من العناصر الضرورية لذلك، بل سعى لتقديم هذا النظام كشيء حي واقِع، مما أوجد رغبة جماهيرية شاملة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وهياً الأرضية لقيام تيارات واحزاب قوية تطالب بذلك، مما كلفه أن يقضي نصف حياته في السجن نتيجة ذلك، ولكن ذلك لم يثنه عن أن يجوب العالم الإسلامي مبشراً بفكرته، فاستقبلته الجماهير الإسلامية والمؤتمرات والجامعات الإسلامية ومنحه اجتماع إسلامي كبير عام ١٩٩٣ قمري لقب (امام المسلمين) تقديراً لخدماته^١. وكان طرحة لقضية (الدستور الإسلامي) طرْحاً شجاعاً في هذا المسار.

ومن الجميل أنه حاول في كتابه عن الموضوع حلّ مايطرح من إشكال مذهبي بشكل واقعي، وهو الإشكال نفسه الذي طرح على الدستور الإسلامي الإيراني الذي تبني مذهباً معيناً، يقول الإمام المودودي: «والاعتراض الثالث: أنّ الإسلام فيه فرق دينية كثيرة، ولكلّ فرقة منها فقه مستقلّ عن فقه غيرها. فإذا تقرر الآن تنفيذ القانون الإسلامي في قطر إسلامي كباكستان مثلاً، ففقه أيّ فرقة منها سيكون على أساسه هذا القانون؟».

وهذا اعتراض له أهمية كبرى ووزن عظيم في نظر الذين يعارضون فكرة تنفيذ القانون الإسلامي في باكستان أو غيرها من البلاد الإسلامية، وهم يعلّقون عليه من الآمال مالا يعلّقون على أيّ اعتراض آخر، وهم على أساسه يتوقعون أن يفرّقوا كلمة المسلمين، وينالوا بغيتهم من دفع خطر الإسلام. وقد يضطرب لأجله كثير من المسلمين المخلصين ممن لا علم لهم بالحقيقة، ويظلم عليهم الطريق، ولا يكادون يتبينون حلاً لمعضلته العويصة، على حين أن ليس هذا الاعتراض بمعضلة أصلاً، وهو لم يقم طوال الثلاثة عشر قرناً الماضية ليوم واحد مانعاً في سبيل تنفيذ القانون الإسلامي.

فأول مايجب أن يعرف بهذا الصدد أنّ الجهاز الأساسي للقانون الإسلامي، الذي يشتمل على ماافترض الله تعالى من الأحكام والقواعد والحدود القطعية، مازال معترفاً به على صورة واحدة بين جميع فرق المسلمين وطوائفهم. ولم يكن بينهم شيء من الخلاف في بابه قبل اليوم، ولا له

وجود في هذا الزمان. وكل خلاف وجد بين المسلمين حتى الآن، فإنما كان في تعبير الأحكام والمسائل الاجتهادية وقوانين دائرة الاباحة وضوابطها وحسب.

أمّا حقيقة هذه الخلافات، فهي أن ليس كلّ تعبير لأيّ حكم من أحكام الإسلام جاء به عالم من علماء المسلمين، ولا كلّ مسألة استخرجها إمام من أئمتهم بقياسه أو اجتهاده، ولا كلّ فتوى أصدرها مجتهد من مجتهدهم على أساس الاستحسان، هي القانون في حدّ ذاتها، وإنّما هي بمثابة الاقتراح، وهي لا تصير القانون إلّا بأنّ ينعقد عليها إجماع الأمة أو يسلم بها الجمهور، أي: أغلبية الأمة وجرت بها الفتوى. وكثيراً ما يقول فقهاؤها بعد بيانهم مسألة في مؤلّفاتهم: «عليه الفتوى» أو «عليه الجمهور» أو «عليه الإجماع» فمعنى قولهم هذا أن ليس هذا الرأي الآن في هذه المسألة بمثابة اقتراح أو رأي فحسب، بل قد صار جزءاً للقانون بناء على إجماع المسلمين أو اتفاق جمهورهم عليه. ثم إنّ هذه المسائل الإجماعية والجمهورية أيضاً على نوعين: نوع مازال إجماع المسلمين منعقداً عليه أو قبلته أغليبيتهم في العالم الإسلامي في كلّ قرن من قرونهم. ونوع انعقد عليه إجماع بلد من البلاد أو قبلته أغلبية المسلمين فيه.

فالمسائل من النوع الأول إن كانت إجماعية لا تقبل أن يعاد فيها النظر، ولا بدّ أن يأخذ بها المسلمون أجمعون على أنّها جزء لقانونهم. وأمّا إن كانت جمهورية، فيجب أن يراعى فيها رأي أغلبية المسلمين في ذلك البلد الخاص الذي يراد فيه تنفيذها: هل يرتضون بها قانوناً لأنفسهم أم لا؟ فإن كانت تقبلها أغليبيتهم، فإنّما تصير قانوناً لذلك البلد.

هذا عن الأحكام المدوّنة في كتب الفقه القديمة. أمّا في المستقبل فإنّ كلّ تعبير - لأيّ حكم من أحكام الله تعالى ورسوله - أو قياس أو اجتهاد أو استحسان إذا انعقد عليه إجماع أهل الحلّ والعقد في بلد من بلاد المسلمين أو اختارته أغليبيتهم، يعدّ قانوناً لذلك البلد. لقد كان قانون كلّ بلد من بلاد المسلمين من قبل أيضاً لا يشتمل إلّا على فتاوى كانت مسلماً بها عند جميع أو أغلبية سكان ذلك البلد. وهذه هي الصورة الوحيدة التي يمكن أن يعمل بها اليوم، لأنّي لا أعتقد إمكان أن تقترح صورة غيرها لعلاج هذه القضية على مبدأ الجمهورية.

وأما إن سألني أحد بعد ذلك: ماذا ستكون عليه في الدولة الإسلامية حالة فرق المسلمين التي لا تتفق مع أغليبيتهم؟

فجواب هذا: أنّ لمثل هذه الفرق أن تطالب بتنفيذ فقهها على اعتباره قانوناً لأحوالها

الشخصية، وهي مطالبة لا بد من إيجابتها في الدولة الإسلامية. أما قانون الدولة العام، فلا يكون - ولا يجوز أن يكون - إلا القانون المبني على مذهب الأغلبية. وأظنّ أنّ المسلمين ليست فيهم فرقة تقول: إنّنا إن كنّا اليوم غير متفقين على قانون الإسلام، فمن الواجب أن ينفذ فينا قانون من قوانين الكفر! إنّ اتفاق المسلمين على كلمة الكفر - إن كانوا مختلفين على كلمة الإسلام - أمر شنيع لا يكاد يمرّ بخلد مسلم من أيّ فرقة من فرق المسلمين كان، ولو إلى أي حدّ أعجب به عدد قليل من الذين أشربوا في قلوبهم حبّ الكفر وشرائعه وقوانينه.

وهذا نجد عدالة موقف الدستور الإسلامي الإيراني حيث طبّق هذا المبدأ على صعيدين:

الأول: الصعيد العام، حيث اعتبر المذهب الإمامي (مذهب الأكثرية) هو المتّبع في المسائل الخلافية القليلة المرتبطة بالسلوك العام اللازم توحيده.

الثاني: الصعيد المحلي، حيث منح الأكثرية السنيّة في مناطق سكنها حقّ صياغة المقررات المحلية العامة وفقاً لمذهبها في حدود اختيارات مجالس الشورى.

وإذا تصفّحنا ماكتبه المرحوم المودودي في كتابه (المسلمون والصراعات السياسية) وقد ألفه عام (١٩٣٦م) فإننا سنجد يتألم للوضع القلق للعالم الإسلامي آنذاك؛ لأنّ القسم الأكبر من أراضيهام كانت محتلة آنذاك، ولم يكن لديهم خطة إستراتيجية مستقبلية، بل كانوا يتوزعون بين الأفكار المختلفة ناسين قرآنهم العظيم، متكالبين على المناصب، فاقدين لأخلاقهم الإسلامية، وقد تنبأ في خطبة له عام ١٩٤٧ بتقسيم شبه القارة الهندية، وأنّ بعض الوطنين المسلمين سوف ينحرفون بالمسيرة إلى أهدافهم الضيقة. وهذا ماحدث بالضبط، وقد طرح آنذاك برنامجاً يدعو إلى انهاء الصراع بين الهندوس والمسلمين، وتكثيف عملية التوعية بين المسلمين، والتركيز على الدعوة الإسلامية ليتمكن تلاميذ الانهيار^١. إنّها تجربة أليمة خاضها المودودي وتنبأ بعواقبها، وقليلون هم أولئك العظماء الذين يعيشون حاضرهم بألم ويخططون لمستقبلهم بوعي.

ثانياً: الحكومة الإسلامية

وفي خضم الدعوة التي روج لها الغرب في العالم الإسلامي للعلمانية، وسخر لها حتى بعض

خريجي الازهر الشريف، وكثيراً من الأحزاب القومية والكتّاب المأجورين وقامت على أساسها دول متفرقة في العالم الإسلامي، حتى عدنا نشهد اليوم سيادة العلمانية على العالم الإسلامي كلّهُ إلا من رحم الله، من هذا الخضم انطلقت صرخة المودودي تدعو للحكومة الإسلامية بقوة، ولكنّه كان يركّز على أنّه يجب أن تسبق ذلك عملية توعوية تربوية، لا أن يتم إيجادها بأية وسيلة؛ لأنّها سوف تكون عرضة للانحراف.

وكان يرى أن هذه الحكومة يجب أن تقوم تحت قيادة إسلامية تمتلك أهلية (الخلافة) مستمدة شروط حاكميتها من الله تعالى، ومطبقة لقوانين الشريعة الإسلامية، ومختارة من قبل الأمة باعتبار الأمة هي الخليفة المؤمنة على تطبيق شرع الله، وهو ما أسماه (الخلافة العامة).

وكان يركّز على التفريق بين المصطلحات كما نلاحظ ذلك في كتابه: (اربع مصطلحات قرآنية) وقد فرّق في مقام آخريين (حكومة المسلمين) و(الحكومة الإسلامية) والثاني له مميزات الشخصية وهو المقصود تماماً. وكلّ إنسان انطبقت عليه الشروط فهو الحاكم مهما كان نسبه ومقامه وعصره ولونه. والقانون هو الإسلام، وعليه يجب أن يبتني دستور الدولة وهو ينظّم كل الحياة العامة، ملاحظاً الظروف الموضوعية القائمة.

والحقيقة إنّّي اعتقد أنّ للمودودي حقاً على كل الطروحات التي قدمت بعد ذلك للحكومة الإسلامية وللقانون الأساسي الإسلامي من قبيل (الدستور الإسلامي الإيراني) ومشروع الدستور المقدم من مجمع البحوث الإسلامية وغيرهما.

وإنّ كتابه (الحكومة الإسلامية) كان منشأً وعي جديد وتساؤلات رائعة عن نظام الحياة الإسلامية، وأساليبه ونوع الحكم ومصادره وكيفية تدوين الدستور، وأهداف الحكومة الإسلامية، كلّ هذه الاسئلة وجدت جوابها ولو باختصار في هذا الكتاب، ممّا خلق موجة وعي جماهيري تماماً كما ترك كتاب (الحكومة الإسلامية) للامام الخميني بما تضمنه من نظرية (ولاية الفقيه) أثره العظيم على الجماهير الإسلامية، وخصوصاً في إيران والعراق وسائر أرجاء المنطقة، وشكّل عاملاً وأساساً نظرياً لتفجّر الثورة الإسلامية في إيران، وبالتالي قاعدة لبناء الدولة الإسلامية وروحاً لدستورها الإسلامي.

ثالثاً: تبين معالم المجتمع الإسلامي

وكما رأينا شخصية إسلامية ضخمة والمرحوم الشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر تخطّط

لقيام الحكومة الإسلامية قبل قيامها بعشرين عاما عبر تأليف كتبه (فلسفتنا) و(اقتصادنا) و(البنك اللاربوي في الإسلام) والتخطيط لكتابه الآخر (مجتمعنا) الذي لم يمهل النظام البعثي المقبور ليؤلفه، فقد رأينا هذه الظاهرة مسبوقة بقيام الإمام المودودي بتخطيطه النظري والعملي (التميز) لمثل هذا المجتمع.

والمجتمع الإسلامي له خصائص يمكن استجلاؤها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولكن توضيحها وتركيزها في خلد الجماهير، ونفض الغبار التاريخي الناتج من التطبيق المنحرف، وصوغها بشكل مفردات لنظرية متكاملة، أمر جدير بالذكر، ويحتاج إلى عناية كبيرة، وهذا مانجد المودودي يركّز عليه، ويكتب في جوانبه المختلفة كتباً منها:

- ١- إرشادات حياتية قرآنية
- ٢- النظام الإسلامي للحياة
- ٣- نظرة الإسلام الأخلاقية
- ٤- النظرة السياسية الإسلامية
- ٥- الخلافة والملكية
- ٦- الحقوق الأساسية
- ٧- حقوق أهل الذمة
- ٨- الاقتصاد الإنساني وحله
- ٩- ملكية الأرض
- ١٠- الاقتصاد الإسلامي
- ١١- الربا
- ١٢- مبادئ الاقتصاد الإسلامي
- ١٣- الأسس الأخلاقية للنهضة الإسلامية
- ١٤- العدالة الاجتماعية
- ١٥- الحجاب
- ١٦- تنظيم العائلة
- ١٧- حقوق الزوجين، وغيرها.

وهكذا تناول مختلف الجوانب الاجتماعية بحيث يمكن أن تشكّل جميعاً نواة لمذهب اجتماعي إسلامي متكامل.

ففي مجال التربية الإسلامية والأخلاق أكد على المفردات الأخلاقية المهمة؛ كالتوكل والصبر والاستقامة بمفهوميهما الاجتماعيين ولزوم تربية الجيل الإسلامي عليهما، ورفض نظام التربية والتعليم الذي فرضه الإنكليز، ودعا لتربية الكادر الصالح، وإعادة النظر في نظام التربية الجامعية للمدراء، بل دعا إلى نظام تربوي عرفاني رفيع يسمو به الإنسان إلى ربه ويتحول إلى إنسان كريم مضح يعتمد القيام بالواجب قبل أي شيء (وهذا ما رأيناه يتكرر في حديث الإمام الخميني كثيراً، إنه يقول: «اعتقد أن دين الله ومصالح الأمة الإسلامية أهم من كل شيء وكل العلاقات الدنيوية»^١).

إنّه يعبر عن التسامي النفسي هذا بـ(السلوك القرآني) ويرى أن المؤمن الذي يحمل المبادئ الثورية القرآنية سوف تطوى له مراحل السلوك ليستطيع أن يفهم القرآن بشكل اكمل. ويعتقد أن الله تعالى قد منح النفس الإنسانية القدرة الذاتية على تقويم مدى عمق الارتباط بالله تعالى، فلا حاجة له إلى كشوف وكرامات وأمثالها^٢. وهو بهذا يقدم تصوراً ثورياً عن (التصوف الصحيح).

وهو يقدم رؤيته الاقتصادية الإسلامية في كتب متعددة كما رأيناه شارحاً نظرة الإسلام للارض والطبيعة وحق الإنسان فيها بشكل طبيعي ومتساو، ومتحدثاً عن دور العمل والانتاج، داعياً إلى رفض الكتز ونفي الربا ومنع الاسراف ومنع تداول الثروة لدى الاغنياء، ومركزاً على العدالة الاجتماعية، والتكافل والتوازن في مستوى المعيشة، داعياً إلى تنظيم بيت المال والدقة في التوزيع، ومؤكداً حقوق العمل والعمال.

وفي مجال العلاقات العائلية نجده يتناول مختلف الجوانب بالبحث والتحليل؛ كمسألة تنظيم النسل، وتنظيم العائلة وحقوق الزوجين والحجاب، ويراه أحد العوامل المانعة من التحلل والاسراف الجنسي إلى جانب الإصلاح الخلقي والمقررات التعزيرية.

وفي مجال الوحدة الإسلامية يؤكد على نفي التعصب والتقليد الأعمى (ويجب التفريق بينه وبين مسألة اتباع نتائج التحقيق العلمي) ويجعل المعيار القرآن والسنة فقط مع الاستهداء بأقوال

١. ن. م، ص ٢٣٦.

٢. ن. م، ص ٢٣٩.

علماء السلف. وقد حارب الدعوات التمييزية للامة كالدعوات القومية الضيقة، وجعل الوطنية الحقيقية هي المستمدة من الانتساب إلى الإسلام تماماً كما كان إقبال اللاهوري يؤكّد عليه. واعتقد أنّ القومية التي رسمها الإسلام تقع في إطار عقلائي محض هي دائرة (الشهادتين) فهي ملاك الأخوة وبهذا يتّسع مفهوم الأمة والوطن ليشمل كل المسلمين، واکدّ أنّه لا توجد في الإسلام مادة قانونية واحدة تمنح امتيازاً لأيّ مسلم على آخر بمقتضى التبعية الجغرافية أو اللغوية أو العنصرية، سواء في العبادات أو المعاملات، أو التعامل الاجتماعي أو السياسي^١.

الشهيد آية الله الصدر تلاحم بين العبقرية والجهاد

أجدني وأنا أتأهب للكتابة عن هذه الشخصية الفذة - ضئيلاً جداً لا أقوى على الإحاطة بمواقع العظمة فيها؛ لأنّها كثيرة واسعة الأبعاد.

لقد عشت فترة من عمري في ظلّه، وشفّت من مناهله العذبة الروية، وغرس في روحي معاني الإخلاص للعقيدة، ورسم أمام رؤاي الصورة الإسلامية المثلي، وتركني أسبح في بحور من علمه الزاهر، ومناقبه الرائعة، ونفحاته الجهادية الزاخرة.

إنّه كبير، كبير حقاً...

وخسارتنا به كبيرة، حقاً...

إنّه عملاق المواجهة الحضارية لهجمات استعمارية شرسة واجهت العالم الإسلامي، وتحدّت حضارته الإسلامية، فلم تجد من يقابلها إلاّ القليل، وفي طليعتهم الإمام الخميني القائد، والشهيد العظيم الصدر.

وإنّه عملاق الفكر العميق المرابي الهادي للجماهير...

وإنّه عملاق الجهاد المرّ ضدّ قوى الظلام...

وإنّه الحب الطاهر الصادق لكل ما يتسبب للإسلام، والانتظار العامل لتحقيق حكمه في الأرض.

فسلام عليه يوم ولد، ويوم استشهد، ويوم يبعث حياً...

وسلام على مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي خرّجت أمثال هؤلاء العظماء الأفذاذ، فضمنت بهم

استمرار المسيرة الإسلامية الصاعدة، وديمومة الهدى في الأرض.

من أبعاد شخصيته الفذة:

إنّني متأكد من أنّ لهذه الشخصية الفذة أبعاداً كثيرة. ومن هنا كان من اللازم عليّ أن اقتصر

على بعض فيها، عسى أن تكشف عن عظمتها وإن كانت عظمتها لا تحتاج إلى كشف.
وهذه الأبعاد هي: التنظير، والتربية، والحب، والجهاد.
فلتقف على كلِّ بعد منها بإيجاز؛

١. التنظير

فلقد كان؛ منظرًا إسلامياً يقلُّ نظيره في الزمان، ومدرسة فكرية مجدّدة في مختلف الحقول، لها خصائصها وصفاتها الفريدة، والتي يمكن اختصارها في النقاط التالية:

أ - الشمولية والكلية في النظرة

وهي خاصة يلاحظها كلُّ من يتعرّف على مؤلفات الأستاذ الشهيد ولأول مرة.. فيجده لا ينظر لكلِّ قضية وفي أيِّ حقل كانت إلاّ في إطارها العام، ومن خلال متابعة صلاتها وجذورها والمؤثرات في صياغة الموقف حولها.

إذا عالج قضية (الإمامة) - تاريخياً - ربطها بالمسيرة الإنسانية الكبرى والهدف الكبير، وإذا درس الفلسفة، نفذ إليها من خلال موقعها الاجتماعي الرفيع، وإذا عالج قضية منطقية كالاستقراء، نفذ من خلالها إلى أعظم حقيقة في الكون، وإذا تعرّض لنظام العبادات، درس دوره في نفي أكبر أعراض المرض في المسيرة الحضارية.

وإذا درس الماركسية، ناقش من خلالها نظريات العامل الواحد، وإذا ركّز على الواقعة الفقهية، انتقل لدراسة كلِّ القواعد الفقهية الأوسع والأوسع، وإذا عالج موضوعاً أصولياً، نظر إليه من جميع الجهات، وربما تطرّق إلى نظريات عالمية لم يعهد طرحها في مثل المجالات الأصولية كما تم في بحث (الوضع)، وإذا ذكر الاجتهاد وكيفيته درسه من خلال حركته والمؤثرات الخارجية فيه أو من خلال نقاط الخطر النفسية والتاريخية العاملة على انحرافه، وإذا درس قضية معاصرة كقضية البنوك، راح يضعها في ظروفها، ويسدّ كلَّ ثغورها، ويقدمها أطروحة كاملة قابلة للتطبيق، وإذا درس الموقع الإنساني، سار به منذ بدء مسيرته، وعبر به كل المراحل الاجتماعية، وإذا طالع القرآن الكريم، انتقلت روحه العظيمة في آفاقه ورجعت بتفسير موضوعي اجتماعي رائع، وحتّى عندما يكتب رسالته العملية لمقلّديه، يطرح نموذجاً جديداً للرسالة العملية، يبدأ بالعبادات ويمرّ بالمعاملات، ويصل إلى السلوك الخاص، وينتهي بالسلوك العام.

وهكذا نجده عندما يخطط للمرجعية الموضوعي التي تقود الجامعات العلمية دون تأثير بالذاتيات والعلائق الشخصية.
وأروع ما نجده من تخطيط وتنظير هو ما تجلّى في كتابه الرائع (اقتصادنا) فهو أفضل نموذج لبيان هذه الخاصة.

ب - العمق

وهي خاصة يشهد لها كلّ من هو بمستوى فهم البحث المعمق حين يطالع كتبه الرائعة، إنّه يتجلّى في كلّ كتاب من كتبه، وكلّ حديث من أحاديثه، وكلّ درس من دروسه القيّمة..
إنّه يتتبع الفكرة مناقشاً إياها بكل منطقية، وموضوعية، وإبداع، دارساً الصلة بينها وبين أسسها، وربما حاكم الفكرة على أساس ممّا تقوله هي، وهو ما صنعه حين ناقش المادية الديالكتيكية على ضوءها هي.
وأروع ما يتجلّى العمق في كتبه الفقهية، والأصولية التي عبّرت عن مرحلة جديدة في هذا المجال، كما يتجلّى بوضوح في كتابه الرائع (الأسس المنطقية للاستقراء) والذي قال عنه:
«إنّني اقمّت البراهين في هذا الكتاب بما لو قرأه المادي لآمن بالله وبالعلوم الطبيعية معاً أو كفر بهما معاً، وأغلقت في وجه الكافر باب الخضوع للعلم والتمرد على الله سبحانه».

ج - الموسوعية

فقد ألّف في مختلف المجالات الإسلامية (الاجتماعية، والاقتصادية، والفلسفية، والمالية، والأصولية، والفقهية، والتاريخية، والحضارية، والتفسيرية، والحديثية والعقدية وغيرها) وجاء في كلّ هذه المجالات بالجديد والعميق، وهو ما يقودنا إلى الصفة الأخرى وهي:

د - الأصالة

فهو يستقي من القرآن، والقرآن لا غير، يسلك الطريق الوسطى، رافضاً كلّ السبل الأخرى، غير متأثر بأية فكرة لا تأتيه من منبع الوحي وإن كان يستوعبها بحثاً ونظراً، ولا يقف منها موقف الرفض اللاموضوعي.

إنّه يناقش الفكر الماركسي المادّي بأروع مناقشة، كما يناقش الفكر الرأسمالي بكلّ عمق، فإذا

انتهى من نفيها، عاد إلى منبع الوحي يستقي منه المذهب الاقتصادي الإسلامي الأصيل. وهو يناقش الأفكار اللامنطقية المنحرفة بكل منطقية وبرهنة، ثم يختار الرأي الأصيل. وأنت تجد هذه الأصالة في كل ما كتب وخطب.

هـ - المقاصدية،

وهو ما سنشير إليه بشيء من التفصيل فيما يأتي:

و - البعد الاجتماعي

وهي صفة هامة إلى جنب الصفات الأخرى التي يتسم بها تنظيره الفريد.. إنه يرى الإنسان موجوداً يتكامل في الإطار الاجتماعي لا غير، ووعي الإسلام دينا يركّز على المسيرة الإنسانية الاجتماعية المتكاملة وإن كان يمنح الفرد أصالته الذاتية... هذه النظرة الاجتماعية الواسعة، تجلّت في أغلب بل في كل ما كتب، حتى تجده يطرح النظرية الفلسفية الإسلامية من خلال مقدمة اجتماعية، وإذا تعرّض لحركة الاجتهاد، طرحها بهذا المنظار، وإذا درس فكرة الإمامة أو الخلافة الإنسانية، تجلّى هذا البعد بشكل رائع. كل هذه كانت ملامح للشهيد العظمى، منظرًا للأمة ومخططاً لها صورتها ونظرتها الكونية، وأيديولوجيتها السلوكية العامة.

٢. التربية

وهي تستحق أن تشكل بعداً ضخماً من أبعاد شخصية الشهيد الصدر العظيمة. ولقد قضى كل عمره الشريف المبارك مربياً، يصنع الجيل الناهض الواعي من خلال:
 أ- تربية العديد من العلماء الواعين الذين انتشروا ويثرون أنوار التربية الإسلامية في جسم الأمة المسلمة.
 ب- محاضراته العامة التي كانت تترك أكبر الآثار في نفوس الشباب المسلم المتطلّع.
 ج - مؤلفاته التي تخاطب القلب والعاطفة، كما تخاطب العقل، فتترك أثرها المتوازن على شخصية الجيل الإسلامي، ممّا أمكننا أن نقول بحق: إنه ربي جيلاً كاملاً، وحصنه ضدّ كلّ الهجمات الأحادية والاستعمارية.
 د- سلوكه المناقبي الرائع الذي كان يجذب إليه كلّ واع متطلّع فيرثه التربية المثلى.

٣. الحب الإلهي والفناء في الإسلام والعمل به

فلقد كان ﷺ شعله حبّ الله وتفان في الإسلام، وشوق لتطبيقه لا يوازيه شوق ... عاش معه ومات من أجله.

لقد كان يخطّط للحكم الإسلامي نظرياً عندما بدأ بالتخطيط لكتابة (فلسفتنا)، و(اقتصادنا) و(مجتمعتنا). كما اتّجه لنفس السبب إيجاد ظاهرة التنظيم الإسلامي في المجتمع بعد أن واجه هجمة شرسة من قبل الشيوعية والعلمانية.

وقاد عملية توعية فكرية ضخمة في هذا المجال، ثم قام بدور أساسي في إنشاء جماعة العلماء، وراح يدعو للتحديد الواعي لأسلوب المرجعية، ثم عمل على مقارعة الحكم المنحرف، ممّا تركه يتعرّض للتضييق والاعتقال مرات عديدة.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة إمام الأمة الخميني العظيم، بدأت مرحلة ضخمة من التضحية، ومواجهة الحكم البعثي الكافر.

فأرسل للإمام القائد يعلن أنّه يضع كلّ إمكاناته المرجعية بخدمة الإمام والثورة الإسلامية بعد أن طلب من كل تلامذته أن يذوبوا في مرجعية الإمام القائد كما ذاب هو بدوره في الإسلام، وراح يكسر جدار الخوف والإرهاب، ويصدر الفتاوى التي تعلن للأمة أنّ حزب البعث حزب كافر علماني، وحرمة الانتماء إلى مثل هذا المسلك الخبيث، وهذا موقف يدرك من عاش في العراق خطورته. وأصدر فتواه بحرمة الصلاة خلف المرتزقة الذي دسّهم البعث بين العلماء، ثم أصدر إجازته ببدء العمليات الجهادية ضد الحكم الصدامي العاشم، كلّ ذلك حباً لله، وفناءً في الإسلام، وعملاً على تمهيد السبيل لإقامة حكومته العادلة في الأرض.

لقد كان شهيدنا الغالي يهب كلّ وجوده لهذا الهدف الكبير، ويتفاعل معه عقلياً وعاطفياً إلى حدّ عظيم.

فلا غرو أن يؤتبه الإمام الخميني قائد الأمة بقوله: «فالشهادة ميراث ناله هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية على يد أشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم، وإنّما العجب هو أن يموت مجاهد وطريق الحقّ على فراشهم دون أن يلطخ الظلمة الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم».

المنهج المقاصدي ومدى حجّيته (منهج الشهيد الصدر نموذجاً)

تعريف علم المقاصد الشرعية:

عرّفه المرحوم العلامة الشيخ ابن عاشور بأنّه «الوقوف على المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، وتدخّل في ذلك أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها، وكذلك ما يكون من معانٍ من الحكم لم تكن ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنّها ملحوظة في أنواع كثيرة منها»^١. فهو علم يرتبط بالتشريع، ويتحدّث عن غاياته العامة أو غاياته الملحوظة إمّا عموماً أو في أنواع كثيرة من الأحكام.

أهداف العلم:

وربما كان الهدف من البحث فيه بعض ما يلي أو كلّه:

١- اكتشاف أوجه الترابط بين مكونات الإسلام باعتباره شريعة متوازنة مترابطة تعالج السلوك الإنساني، وهو بدوره سلوك مترابط لأنّه ينطلق من منطلق مترابط وهو الفطرة الإنسانية، وهي حقيقة قائمة في النفس الإنسانية، ومودعة في الخميرة التكوينية له، وبالتالي فهي تربط كلّ سلوكه من جهة، وهي تتسجم مع الكون المتوازن المترابط حيث يكون كلّ شيء فيه موزوناً، وله قدره الخاص به كما يوضح ذلك القرآن الكريم في آيات عديدة، ويوضح - أيضاً - الانسجام بين التوازن التكويني والتوازن التشريعي، كما في قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^٢ والإسلام بذلك هو دين الفطرة.

٢- اكتشاف الخصائص العامة للإسلام لتمييزه عن غيره من المدارس الحياتية كالاشرافية والرأسمالية؛ لأنّ التمييز قد لا يتم بالأحكام الفرعية.

٣- اكتشاف المقاصد العامة لتساعد في عملية الاستنباط، فإنّه قد يلاحظ أنّ حكماً ما غير

١. المقاصد الشرعية، ص ١٦٥.

٢. الرحمن، الآيات: ٦- ٨.

منسجم مع الأهداف العامة للإسلام؛ كمسألة حفظ النفس أو المال أو النسب أو غير منسجم مع الحكم العام في بابه الخاص، الأمر الذي يدعو إلى إعادة النظر من جديد في عملية الاستنباط. وربما كان هذا الهدف هو الهدف الأصلي للعلم. وهو ما يؤكد عليه ابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين) ^١.
٤- كما أنه يترك أثره الكبير في تعيين السياسة الشرعية لولي الأمر، كما سيتوضح هذا الأمر عند عرضنا لمثال تطبيقي للمقاصد الخاصة.
٥- وربما كانت دراسة المقاصد الشرعية تعين على معرفة حكم المسائل المستحدثة.

الفرق بينه وبين علم الأصول

وفي مجال الفصل بينه وبين علم الأصول الذي عرّف بأنه «العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه على وجه التحقيق» أو «أنه العلم بالكبريات التي تقع في طريق استنباط الحكم الشرعي مباشرة» أو أنه «منطق الفقه»، في هذا المجال يرى المرحوم العلامة ابن عاشور أنه يختلف عنه، وأن علم الأصول ظني لوجود الاحوال العارضة، ولوجود مبدأ التعليل وغير ذلك، وأما علم المقاصد فهو علم قطعي ^٢.

ونحن نرى أنه يختلف عن علم الأصول، ولكن لا من حيث القطعية وعدمها، فالعلم مهما كان يجب أن يكون مؤدياً إلى القطع، وإلا لم يعد علماً. ثم إن علم الأصول إنما يراد للوصول إلى القطع بالحكم الشرعي عبر إجراء عملية استنباط مقطوعة الحجية. ولكنه يختلف عنه بأنه لا يشكل كبرى في عملية الاستنباط تطرد في كل الأبواب؛ كمسألة حجية خبر الواحد، أو في نوع الأبواب؛ كمسألة الاستصحاب.

علاقته بعلم الفقه

وهو - بما قدمنا - أقرب إلى علم الفقه، إلا أن الفقه يبحث عن (استنباط الأحكام الفرعية الكلية من أدلتها الشرعية) ولا يستهدف المقاصد والعلل والحكم العامة أو الخاصة، وبالتالي

١. راجع مثلاً ج ٣ ص ٥.

٢. يراجع كتاب الشيخ الحبيب بن الخوجه في الموضوع.

يكون هذا العلم أقرب إلى مباحث ما يسمّى بـ(فلسفة الفقه) ومن هنا يذكر بعض الباحثين أنّ ضرورة البحث في هذا العلم تؤدي إلى:

- ١- تقييم الحركة العامة للفقه وأدائه.
 - ٢- تعيين حدود علم الفقه.
 - ٣- إزالة التعارض في مجالات التشريع والتنفيذ.
 - ٤- تقييم ونقد السند عن طريق النصّ.
 - ٥- بلوغ أنظمة القواعد الفقهية وتأكيد عمومها.
 - ٦- تصنيف الأحكام والمسائل الشرعية في مجموعة منسجمة ومنطقية.^١
- إما علاقته بعلم الكلام فمن الواضح أنّه يركّز على علوم العقيدة، في حين يركّز علم المقاصد على الشريعة وأهدافها.

شيء عن تاريخ هذا العلم، وضرورته

ذكر أنّ هذا العلم بدأ أول ما بدأ بكتب العلل التي صدرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ومنها كتاب (علل الشرائع والأحكام) للشيخ الصدوق (المتوفى سنة ٣٨١هـ) وكتاب (اثبات العلى) للحكيم الترمذي (عاش في القرن الثالث الهجري)^٢ ثم جاء إمام الحرمين الجويني فطرح الموضوع في كتابه (البرهان في أصول الفقه) (عام ٤٧٤هـ) واهتم الغزالي (٥٠٥هـ) به في كتابيه (المستصفى) و(شفاء الغليل) والآمدني (٦٣١هـ) في كتابه (الأحكام في أصول الأحكام) والعزّبن عبدالسلام في كتابه (إحكام الأحكام) والقرا في كتاب (الإحكام) ثم الشيخ ابن تيمية (٧٢٨هـ) وابن القيم في (أعلام الموقعين) ثم ابن السبكي (٧٧١هـ) ثم الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي (المتوفى سنة ٧٨٦هـ)، في كتابه (القواعد والفوائد) ولكن الذي اعطاه بعداً علمياً متسقاً هو الشاطبي (٧٩٠هـ) في كتاب (الموافقات في أصول الشريعة).

ولم يلق هذا العلم اهتماماً كثيراً حتى العصر الأخير، ففي أوائل القرن العشرين قام قادة

١. الشيخ مهدي مهريزي في مقالة (مقاصد الشريعة)، رسالة التقريب العدد ٤٨.

٢. وقد قارن بينهما الدكتور خالد الزهري من المغرب.

النهضة الإصلاحية في تونس مثل (السالم بوحاجب) و(محمد الخضر حسين) وأخيراً قام الشيخ الطاهر بن عاشور التونسي بالتعمّق فيه، فبدأت تأليفات أخرى في الموضوع^١.
وقد طبع كتاب (الموافقات) في تونس، واطلع عليه الإمام محمد عبده في زيارته لتونس سنة ١٨٨٤ هـ وراح يروّج له في مصر وكأنّه رأى أن التقيّد بالنص اللفظي لا يفي للوصول إلى الفكر الديني التجديدي^٢.

والواقع أنّ هذا المنحى لم يحصل بعد على هيئة متكاملة ترشّحه كعلم مستقلّ يقوم إلى جانب باقي العلوم الإسلامية، رغم أنّ دوره - كما أسلفنا - لا يقلّ أهمية عنها. وقد استند المقاصديون على تنوّعهم في مجال تقرير ضرورة ملاحظة المقاصد إلى أنّ هذه المقاصد ثابتة بالأدلة الأربعة (الكتاب والسنة والإجماع والعقل) ممّا يدعو لرفض أيّ استنباط يتناقض معها.

والمقاصد عامة وخاصة

أمّا العامة فقد ذكر الغزالي منها حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وبعد أن رتب المصالح مراتب ثلاث وهي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، جعل المقاصد الخمسة في الضروريات^٣، وأضاف السبكي مسألة (المحافظة على الكرامة)^٤.
وهناك مجال مفتوح للبحث والإضافة تبعاً لأنواع حقوق الإنسان العامة كما يتصورها الإسلام؛ كالحرية والمساواة^٥.
وقد اعتبر بعض الباحثين أنّ قضية حقوق الإنسان هي (محور مقاصد الشريعة) مركزاً على أنّ

١. راجع رسالة التقريب العدد ٤٨ ص ١٢٩ مقال للشيخ مهدي مهريزي.

٢. مجلة (بكاها) الصادرة في قم العدد ٢٠٠ ص ٥.

٣. قال الإمام الغزالي «وهذه الاصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات، فهي أقوى المراتب في المصالح (المستصفي ج ١ ص ٢٨٦).

٤. المنتقى للبايجي ج ٤ ص ٢٨٢.

٥. راجع كتاب العلامة ابن الخوجة عن نظرية المقاصد ١٢٣-١٣٠. كما يراجع الاعلان الإسلامي لحقوق الانسان وقد وافق عليه مجمع الفقه الإسلامي الدولي.

القيمة الكبرى في حقوق الإنسان تكمن في احترام (إرادته الحرة) و(عقله المميز) فقتل الإرادة أشد من قتل الجسد.^١

وأكد البعض الآخر على أن الغرب ينظر لحقوق الإنسان نظرة مقلوبة، فهو يركّز على حقوق الإنسان مع إهمال لجوهر الإنسان وواجباته تجاه خالقه ومجتمعه ونفسه وتكاملها.^٢ وهذا الرأي صحيح تماماً، فإنّ الشريعة إذ وفّرت للإنسان حقوقه أعلمته بواجباته، وحينئذٍ تتكامل عملية توفير الحقوق وإعلان الواجبات لتحقيق سيره الطبيعي المتوازن على خطّ التكامل والتوازن للوصول إلى هدف خلقته.

ومن هنا نجد الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يركّز في (رسالة الحقوق) و(الصحيفة السجادية) اللتين نقلهما التاريخ عنه على امتزاج الحقوق والواجبات بأروع صورة وأسمى أسلوب. وقد وصفه المرحوم الشهيد آية الله السيد محمد باقر الصدر بقوله: «استطاع هذا الإمام العظيم بما أوتي من بلاغة فريدة، وقدرة فائقة على أساليب التعبير العربي، ومن ذهنية ربانية تتفتق عن أروع المعاني وادقها في تصوير صلة الإنسان بربه ووجده بخالقه وتعلّقه بمبدئه ومعاده، وتجسيد ما يعبر عن ذلك من قيم خلقية وحقوق وواجبات».^٣

أمّا المقاصد الخاصة فهي تدخل في إطار المقاصد العامة، ولكنّها تختصّ بأبواب خاصة، فهناك:

(١) مقاصد النظام العبادي.

(٢) مقاصد النظام التربوي.

(٣) مقاصد النظام الاجتماعي.

(٤) مقاصد النظام الاقتصادي... وغير ذلك.

ونحن فيما يلي نقدم نموذجاً للمقاصد الخاصة في الحقل الاقتصادي، ونفصّل فيه بعض الشيء لتتأكد من أهمية هذه البحوث، وارتباطها بواقعنا أشد الارتباط. وسنعمد في هذا المثال

١. حقوق الانسان محور مقاصد الشريعة، مقال الأستاذ عمر عبيد حسنة ص ١٨.

٢. المصدر السابق، مقال الأستاذ الريسوني ص ٤٠.

٣. راجع كتاب الابعاد الانسانية والحضارية في الصحيفة السجادية ص ١٩ طبع دمشق ١٤٢٥هـ.

على البحوث النظرية الرائدة لأستاذنا الشهيد الكبير السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله تعالى). وربما أمكن اعتباره مجتهداً مقاصدياً عميقاً، خصوصاً عندما حاول اكتشاف النظرية الاقتصادية الإسلامية من خلال تصنيف الأحكام الفرعية، ودراسة المفاهيم العامة للوصول إلى الخطوط المقاصدية العامة.

ولكننا نجد أحياناً يستفيد من هذا الاتجاه المقاصدي في عملية الاستنباط الفقهي - أيضاً - فمثلاً حين يدرس موضوع (تكيف خصم الكميالة على أساس البيع) ويقصد به (بيع الدين) المقبول عند فقهاء الإمامية يرى أنّ المورد لا يقبل هذا التكيف باعتبار ورود روايات خاصة فيه (وهذا يعني أنّ البنك إذا فسرنا عملية الخصم لديه بأنّها شراء للدين بأقلّ منه، لا يستحقّ على المدين إلاّ بمقدار ما دفع، ويعتبر تنازل الدائن عن الزائد لصالح المدين دائماً، لا لصالح المشتري وإن قصد الدائن ذلك. فمن تلك الروايات خبر أبي حمزة عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: سألته عن الرجل كان له على رجل دين، فجاءه فاشتراه منه بعوض، ثم انطلق إلى الذي عليه الدين، فقال: أعطني ما لفلان عليك فإنّي قد اشتريته منه، كيف يكون القضاء في ذلك؟ فقال الإمام: «يرد الرجل الذي عليه الدين ماله الذي اشترى به من الرجل الذي له الدين.»

وخبر محمد بن الفضيل، قال: قلت لعلي بن موسى الرضا: رجل اشترى ديناً على رجل، ثم ذهب إلى صاحب الدين فقال له: ادفع إليّ ما لفلان عليك فقد اشتريت منه.. قال الإمام: «يدفع إليه قيمة ما دفع إلى صاحب الدين، وبرئ الذي عليه المال من جميع ما بقي عليه.»

وبالرغم من بعض الثغرات في الاستدلال بهاتين الروايتين فإنّي شخصياً لا أنسجم نفسياً ولا فقهيّاً مع الأخذ بالرأي المعاكس، ولا أجد في نفسي وحدسي الفقهي ما يبرّر لي بوضوح ترك هاتين الروايتين والأخذ برأي يناقضهما.

وعلى هذا الضوء فليس بإمكان البنك اللاربوي أن يمارس عملية خصم الكميالة على أساس شراء الدين بأقلّ منه، ثم يستأثر المخصوم لنفسه؛ لأنّ بيع الدين بأقلّ منه ينتج دائماً بموجب الروايات المتقدمة سقوط الزائد من ذمة المدين وبراءتها منه.^١

١. البنك اللاربوي في الإسلام، طبع دار التعارف، بيروت، ص ١٦١.

وفي هذا الصدد نطرح البحث التالي، وكيفية تطبيق المنهج المقاصدي في عملية الاستنباط، ثم ندخل في بعض البحوث النظرية له.

المهم في العقود المالية هل هو الشكل أو المقصد؟

من الواضح وجود اتجاهين في الفقه للإجابة على هذا السؤال: يركز الأول على شكل العقد، وأهم ما فيه اللفظ المستعمل، في حين يعتبر الاتجاه الثاني أن المهم المقصد والمحتوى الذي يريد بيانه بهذا اللفظ أو العمل.

وقد تعرّض الفقهاء لهذا الموضوع عند دراستهم للقواعد الفقهية، وعند تعرّضهم لبحث الحيل الربوية، أو بحث العقود الصادرة سهواً أو عند حالات ذهاب العقل والوعي، وأمثال ذلك. والملاحظ أن الاتجاه الغالب للفقهاء عبر العصور هو الاتجاه الثاني، حيث تشيع بينهم التعابير التالية:

- ١- العبرة للمعنى دون الصورة.
- ٢- العبرة في العقود لمعانيها لا لصور الألفاظ.
- ٣- العقود تابعة للقصد.
- ٤- العبرة للمعاني دون الصورة.
- ٥- العقود لا تعتبر باللفظ وإنما تعتبر بالمعنى.
- ٦- العقود مبنية على مراعاة القصد.
- ٧- المقاصد معتبرة.

١. شرح الزيادات لقاضي خان، ورقة ٨٩٨.

٢. بدائع الصنائع، ج ٥ ص ٣.

٣. عوائد الأيام، ص ٥٢ وجواهر الكلام، ج ٢٣ ص ٣٣٥.

٤. تبيين الحقائق ج ٥ ص ١.

٥. المنتقى للباقي، ج ٤ ص ٢٨٢.

٦. قواعد الأحكام ج ٢ ص ١١.

٧. فتاوى شيخ الإسلام ٣٠ ص ١٥٢.

- الأحكام تتعلق بمعاني الألفاظ دون قوالها.^١
 - إذا دارت المسألة بين مراعاة اللفظ ومراعات القصد فمراعاة القصد أولى.^٢
 وهكذا تتعدّد التعابير، وربما استندت في الغالب إلى قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى وهو حديث مشهور وارد في مختلف الكتب الحديثية.
 وقد رأى الفقهاء أنه لا يختص بباب العبادات بل يعم المعاملات.
 وفي شرح كل هذه التعابير يقال: بأنّ المراد من ذلك:
 قد يكون هو أن العقد لا يتحقّق إلاّ بالقصد، فتكون إشارة إلى اشتراط كون العاقد قاصداً في مقامات العقود كلّها، ويكون معنى التبعية: عدم تحقّق العقد بدون القصد.^٣
 وقد يكون بمعنى أنّ العقد تابع للقصد، بمعنى أنّ العقد شيء يحتاج إلى موجب وقابل وعوض ومعوض وهو في هذه الأمور تابع للقصد، بمعنى أنّه لا يقع ما لم يقصد.^٤
 وقد يكون بمعنى أنّ العبرة ملاحظة ما يفهمه العرف من مقصود العاقد عبر ملاحظة ما يترتّب عليه من آثار، فهو المعتبر حتى لو كان التعبير لا يناسب ذلك.
 وعلى أيّ حال؛ فربما يستدلّ لهذه القاعدة تارةً بذكر الروايات الشريفة كالرواية الآنفه، وأخرى يستند إلى الضرورة الفقهيّة^٥ بعد أن اتفقوا على أن اللفظ بمجرد لا يؤدي إلى أثر شرعي. وربّما عبّر عن هذا بالإجماع.^٦
 ويناقش في دلالة الرواية باعتبارها تنصرف إلى العبادات وأنماط السلوك الأخلاقية، وفي الإجماع بأنّه لا يشكّل دليلاً مستقلاً، وأنّه غير تام بعد مخالفة الشافعية^٧ وغيرهم.

١. القبس لأبي بكر بن العربي ج ٢ ص ٧٠٩.

٢. المعيار للونشريسي.

٣. القواعد لدى الإمامية ج ٣ ص ٥٨٥.

٤. العناوين ج ٢ ص ٤٨ - ٤٩، مصباح الفقاهة للسيد الخوئي ج ٢ ص ١٠٦.

٥. جواهر الكلام ج ٢٢ ص ٢٦٦.

٦. تذكرة الفقهاء، ج ١ ص ٤٦٢.

٧. موسوعة القواعد والضوابط الفقهيّة للدكتور التدوي م ١ ص ٥١٩.

والذي أتصوره أن أهم ما يمكن الاستناد عليه هنا هو الأصل الأولي، فإنه يقتضي أن يكون اللفظ مجرد تعبير عن المقصود أو نوع الالتزام - كما يعبر عنه الفقه الوضعي - كما يقتضي عدم ترتب الآثار المجعولة للعقود إلا بعد تمام التعهد، وارتباط تعهد الموجب بتعهد القابل، وهذا يعني أن التركيز كله يقع على القصد والمعنى دون اللفظ والشكل وإن اشترط اللفظ للكشف عن المعنى^١. بل يمكن القول بأن الفهم العرفي قد يحول العقد من حالة إلى أخرى حتى لو تصورنا وقوع القصد الآني من الفاعل. ونحن نعلم أن الشارع قد ألقى خطابه إلى العرف، فهو الذي يشخص المصاديق والموضوعات، وهو الذي يفهم دلالات خطابات الشارع، وهذا ما سنلاحظه عند ذكر بعض التطبيقات.

بعض التطبيقات المرتبطة بالعقود المالية

وسنكتفي بتطبيقات:

التطبيق الأول: مسألة الفرار من ربا القرض

وهذه مسألة عنونت هكذا في كلمات الفقهاء، الأمر الذي أوقع البعض في شبهة مهمة ملخصها: أن الربا يعدّ من أشد المحرمات الإسلامية التي ركزت عليها النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة، وهو المسرب الطبيعي لكثير من أنماط الفساد الاجتماعي والاقتصادي، والأزمات الخانقة التي نشاهدها في النظم المتعاملة به، وإذا كان الأمر كذلك فما معنى طرح هذه المسألة في النصوص مما يوهم أن الإسلام - والعياذ بالله - نفسه يفتح السبل لجرّيان الربا نفسه في المجتمع ولكن تحت عناوين أخرى، وبحيل وأساليب التفتافية تقوم بنفس الدور المفسد دون أن تمتلك نفس الحرمة الشديدة؟!^٢

وقد عبر الإمام الخميني عن هذا الاشكال بقوله: «وهذه عويصة بل عقدة في قلوب كثير من المتفكرين، وإشكال من غير منتحلي الإسلام على هذا الحكم، ولا بد من حلّها، والتشبيث بالتعبّد^٢

١. العناوين ج ٢ ص ٥٠.

٢. ويقصد من هذا التعبير أنّ هناك من يجيب على هذا الاعتراض بأنّ علينا التعبد بما جاء في النصوص دون أي اعتراض، ولكن الإمام يرى أنّ هذا الجواب لا يحل المشكلة.

في مثل هذه المسألة التي أدركت العقول مفاصد تجويزها ومصالح منعها بعيد عن الصواب»^١.
 أمّا حلّ هذا الاشكال فيتم عبر ملاحظة الأمور التالية:

إنّ الروايات الواردة في مجال الفرار من الربا تنصبّ في معظمها على الربا المعاوضي الجاري في النقود وفي المكيل والموزون، حيث تؤدّي الضميمة من غير الجنس إلى إخراج المعاملة من كونها تعاملًا بالمثليين، كما في صحيحة الحلبي: «لا بأس بألف درهم ودرهم بألف درهم ودينارين، إذا دخل فيها ديناران أو أقلّ أو أكثر فلا بأس به»^٢.

والإشكال الذي طرحناه إنّما يتجلّى في «ربا القرض» وأمّا تجويزها في القسم الأول (المعاوضي) فلا إشكال فيه أصلاً ولا عقدة ولا عويصة لأن المثليات كسائر الأمتعة لها قيمة قد ترتفع وقد تنخفض، واشتراء منّ من الحنطة الجيدة بمنين أو بأمان من الشعير كاشتراء سائر الأمتعة بقيمتها السوقية، واشتراء دينار أو درهم له قيمة سوقية تساوي دينارين من غير صنفه أو درهمين كذلك ليس فيه إشكال ولا عويصة رأساً، بل لعلّ سرّ تحريم الشارع المقدس المبادلة فيها إلّا مثلاً بمثل خارج عن فهم العقلاء، وإنّما هو تعبد، فالحيلة في هذا القسم لا إشكال فيها.
 أمّا ربّ القرض فلم ترد في مجال التخلّص منه إلّا بعض الروايات، وهي إمّا أن تكون ضعيفة من حيث السند أو الدلالة، وأمّا أن تكون في سبيل إراءة سبيل صحيح يجزّ المعاملة إلى عقود أخرى صحيحة تترتب عليها أحكامها الطبيعية، ولا تنتج المفاصد الربوية.

وحتى لو افترضنا وجود رواية ما - كما يدعى - سليمة السند والدلالة، فهي بالنظر المسلّم به مخالفة لمقتضى الكتاب الشريف والسنة القطعية المركّزة على كون الربا من الظلم والفساد، وإعلان الحرب ضد الإسلام، وحيثنذ فهي ممّا عبّرت عنه روايات أهل البيت عليهم السلام بالزخرف، وأنه ممّا يضرب به عرض الجدار.

كما جاء في رواية يونس الشيباني قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الرجل يبيع البع، والبائع يعلم أنّه لا يسوى، والمشتري يعلم أنّه لا يسوى إلّا أنّه يعلم أنّه سيرجع فيه فيشتره منه، قال: فقال: «يا

١. كتاب البيع للإمام الخميني ج ٢ ص ٤٠٦.

٢. وسائل الشيعة للحر العاملي ج ١٢ ص ٣٧١.

يونس! إن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبدالله: كيف انتم إذا ظهر الجور وأورثتم الذل؟ قال: فقال له جابر لا بقيت إلى ذلك الزمان. ومتى يكون ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال: إذا ظهر الربا. يا يونس وهذا الربا. فإن لم تشتريه رده عليك؟ قال: قلت: نعم قال: فلا تقرينه فلا تقرينه. ١ وقد جاء في نهج البلاغة عن علي عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ قال له: يا علي إن القوم سيفتنون بأموالهم (إلى أن قال) ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنيذ والسحت بالهدية والربا بالبيع» ٢

معيار تشخيص موضوع الربا عن غيره

والمعيار المطروح هنا هو العرف. ولتوضيح ذلك نقول:

إن العرف إنما يرجع إليه في ثلاثة مجالات:

المجال الأول: ما يكتشف منه الحكم الشرعي، كما هو الأمر في عقد الفضولي صحةً ولزوماً. وإنما يتم ذلك إذا ثبت كون الحكم من الاعراف العامة الممتدة إلى عصر المعصوم عليه السلام الأمر الذي يحقق التقرير والامضاء له بمجرد عدم صدور ردع مناسب.

المجال الثاني: تشخيص مصداقية بعض المفاهيم التي أوكلت إليه من قبل الشارع، من قبيل الألفاظ التالية: الإناء، الصعيد، الفقير، المسكين، الغني، الإسراف، التبذير، في سبيل الله... وما إلى ذلك.

المجال الثالث: ما يرجع إليه لمعرفة مراد المتكلمين عندما يستعملون الألفاظ، سواء كان المتكلم الشارع أو غيره، ويرجع إليه ما يرجع إلى الدلالات الالتزامية إذا كان منشأ الدلالة ملازمة عرفية. ويمثلون لذلك بحكم الشارع بطهارة الخمر الذي انقلب إلى خل، وهو يلازم عرفاً الحكم بطهارة جميع أطراف الإناء، وكذلك يدخل فيه كل البحث عن القرائن العرفية، والجمع العرفي بين الدليلين المتنافيين، كأن يقال: إن التعارض إذا لم يكن مستقراً في نظر العرف بل كان أحد الدليلين المتعارضين قرينة على تفسير مقصود الشارع من الدليل الآخر، وجب

١. وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٣٧١.

٢. المصدر السابق ص ٤٥٦.

الجمع بينهما بتأويل الدليل الآخر وفقاً للقرينة. وتدخل هنا بحوث التقييد والإطلاق، والعموم والخصوص، والحكومة والورود.

هذا كلّ في تشخيص مراد الشارع، وكذلك فإنّ للعرف دوره في تشخيص مراد غير الشارع، ويدخل فيه ما يرجع إلى أبواب الإقرارات والوصايا والشروط والوقوف وغيرها إذا استعملت بألفاظ لها دلالاتها العرفية.

وهذا نعرف أنّ العرف وإن لم يكن أصلاً من أصول الفقه، لكنّه يلعب دوراً كبيراً في مجال الاستفادة من الأصول والنصوص.

إلا أنّ هناك مفاهيم رأى الشارع أنّ يتدخل بنفسه لتشخيص بعض مصاديقها بعد أن كان ذلك غامضاً على العرف، أو ربما يرى الشارع أنّ العرف يتّجه إلى مصاديق أخرى، الأمر الذي يتنافى مع غرضه، فإذا تدخل الشارع في تشخيص مفهوم عرفي كان هو المتّبع في ذلك.

ويمكننا أن نمثّل لذلك بالفقّاع، فإن بعض النصوص جاءت لتؤكد أنّ الفقّاع خمر استصغره الناس، كما يمكن التمثيل له بالربا المعاوضي مع اختلاف قيمة العوضين المثليين، فإنّ العرف لا يرى في الأمر عملية ربوية، في حين يؤكّد الشارع ذلك ويحرّمه.

وعلى أي حال فإنّ العرف يبقى محكماً في الحالات التي لم يتدخل الشارع في تحديدها، فيعتبر الأمر حينئذ قد أوكل إلى الشرع.

بعد هذا لا بد من الدقّة في تحقيق التشخيص العرفي، وملاحظة كلّ المناسبات التي يطرحها، والارتكازات التي يعتمد عليها، فإنّ دراسة هذه المرتكزات لتساعد كثيراً على الوصول إلى التشخيص العرفي المطلوب.

ولو عدنا إلى موضوعنا الذي نبحت فيه لرأينا أنّ من اللازم الحصول على تأكّد عرفي من عدم صدق الربا، وهو عمل قد يستدعي رفض الكثير من الحالات المشتبهة، وأتباع طريق الاحتياط في البين، وذلك بملاحظة ما جاء من تأكيد شديد على حرمة الربا وعدم القرب منه، كما جاء في الرواية: «فلا تقربنّه، فلا تقربنّه»^١.

١. وسائل الشريعة، ج ١٢ ص ٣٧١ ح ٥.

ومن يلاحظ روايات الاحتياط يجد أنها وإن لم تؤصل أصلاً عاماً يعارض أدلة البراءة الشرعية لكنّها في مثل هذا المورد قابلة للانطباق، نظراً لتقارب حدّي البيع والربا.

فهناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «من أتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه»^١.

ورغم ما قيل من أنّ الرواية ترغّب فقط في الاتقاء، وليس فيها ما يدلّ على الالتزام، فإنها تبين حالة تشدّد وتضعف بملاحظة قرب الحدّين: الحلال والحرام وبعدهما.

وهناك رواية عن الإمام علي عليه السلام إذ يقول لكميل: «يا كميل! أخوك دينك، فاحتط لدينك بما شئت»^٢.

وقد قيل: إنّ قيد «بما شئت» يبعدها عن الوجوب، إلّا أنّ الظاهر أنها ظاهرة في الاحتياط للدين بشتى الوسائل، فلا تتنافى مع الوجوب.

وهناك رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «أورع الناس من وقف عند الشبهة»^٣ وقد لوحظ عليها أنّ الاستدلال لا يتمّ إلّا إذا دلّ دليل على وجوب الاورعية، وربما اختلف الحال فيها باختلاف موارد الشبهة.

وهناك رواية عن الزهري عن الباقر عليه السلام يقول: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكات»^٤.

وهناك رواية أخرى عن جميل عن الصادق عليه السلام عن آبائه. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الأمور ثلاثة: أمر بيّن لك رشده فاتّبعه، وأمر بيّن لك غيّه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فردّه إلى الله»^٥.

وعلى أي حال، فما نؤكّده هو وجود موارد وأحكام دينية ذكرت على أساس أنها منّة إلهية على العباد، فإذا شئنا التشدّد فيها كان ذلك مخالفاً لمضمون هذا الامتنان، وذلك كما في مسألة «التقصير في السفر». كما أنّ هناك موارد أكّد الشارع شدّة حرمتها، كما في مسائل الأعراض والأموال، ومسألة الربا بالخصوص، فمن الطبيعي أن يحتاط فيها.

١. المصدر السابق، ج ١٨ ص ١٢٧، ح ٥٧.

٢. المصدر نفسه، ص ١٢٣، ح ٤١.

٣. المصدر نفسه، ص ١١٨ ح ٢٤.

٤. المصدر نفسه، ص ٧٦ ح ١.

٥. كل روايات الاحتياط الواردة في مجموع كتب اصول الفقه التي تبحث عن اصل (الاحتياط).

ومع ذلك فإننا ما لم نتأكد من الرؤية العرفية لمعاملة ما على أنها سليمة من الربا كان اللازم الاحتياط والابتعاد عن ذلك المورد.

أما كيف يمكن التأكد من الرؤية العرفية؟ فيمكن أن نطرح هنا كل ما يبعد نظر العرف عن الربا، كأن نفترض تنبيه العرف إلى وجود التزامات في هذا العقد تختلف تماماً عن خصائص العملية الربوية، من خلال عدم وجود ضمان قرضي هنا، أو من خلال عدم وجود فائدة بالنسبة، أو من خلال تقليل الأجرة إلى الحد الذي يفهم منه العرف أنها في قبال الخدمات المقدمة، أو كما يعبر عنه بكتابة الدين، وما إلى ذلك.

وكذلك من خلال تنبيه العرف إلى الفرق الحقيقي في التصود الملحوظة في هذه العقود، فإن لم نفعل ذلك كان المورد المعنون بعنوان غير الربا في نظر العرف مصداقاً للربا بعد رفضه للعنوان الكاذب في نظره. فهو هنا يراه صغرى لعنوان «الربا».

أو نقول بأن العرف يوسع من مفهوم تحريم الربا القرضي ليتجاوز به القرض نفسه ليشمل كل مورد مشابه له، كهذا المورد الذي يقبل العرف فيه أنه مصداق لهذا العنوان المدعى، ولكن مفهوم الربا بعد توسيعه يشمل هذا المورد ويخرجه من حكمه المحلل، وهنا تكون التوسعة في (الكبرى).

محاولات فقهية لتحويل الربا إلى وجه مشروع

وبغض النظر عن النصوص، فإن هناك محاولات فقهية لتحويل الفائدة إلى وجه مشروع تعرض لها الشهيد السيد الصدر في كتابه (البنك اللاربيوي) فلنستعرضها بسرعة مع بيان مناقشتها:

المحاولة الأولى: أن يقال: إنه يوجد في القرض عنصران هما: المال المقترض ونفس عملية الاقراض، ولما كان الربا وضع مال بازاء العنصر الأول، فإن وضع مال بإزاء العنصر الثاني لا مانع منه بعد أن كان عملاً يمكن مكافأته من خلال عقد الجعالة، إذ يستحق المقرض (الدائن) الزيادة المالية بعقد الجعالة لا بعقد القرض، فإذا انكشف بطلان الجعالة انتفى الاستحقاق رغم كون عقد القرض سليماً نافذاً. وهذا نظير من يجعل جعالة لمن يبيعه بيته - بأن يعطيه درهماً - فالجعل فيها لقاء عملية البيع لا بإزاء الدار المبيعة، ولهذا لا يسري على الدرهم حكم العوضين.

وهذا التقريب يتحدث عنه تارة بلحاظ الصغرى، وأخرى بلحاظ الكبرى.

أما بلحاظ الصغرى فيقال: إن العرف - بارتكازه - يرى أن الفائدة هنا جعلت في الواقع في

قبال المال المقترض، لافي قبال عملية الاقراض. وحيثُ فلا معنى لجعل على مال؛ لأنّ الجعالة تكون على عمل لا مال.

وأما بلحاظ الكبرى بافتراض أنّ المتعاملين قد ركزا في الواقع على جعل الفائدة في قبال عملية الاقراض حقيقة، وحيثُ يقال: إنّ ملاك استحقاق الجعل هو بملاك ضمان عمل الغير بأمره به لا على وجه التبّع، أي هو ضمان غرامة في العمل على غرار ضمان الغرامة في المال، وحيثُ فالجعالة لا تتصور إلا على عمل له أجره المثل في نفسه.

أما عمل الإقراض فلا مالية له في نظر العرف، وإنّما مالية الإقراض إنّما هي مالية المال المقترض فقط، وهي مالية مضمونة بالقرض، فلا يتصور ضمان آخر للعمل.

المحاولة الثانية: تحويل القرض إلى شيء آخر، كما لو افترضنا أنّ زيدا مدين لخالد بعشرة دنانير، وأنّ زيدا يتصل بالبنك ويأمره أن يدفع عشرة دنانير لخالد، فتشغل ذمة زيد بعشرة للبنك نتيجة أمره للبنك باتلاف ماله، فهو يضمن التالف، فلم يقع هنا قرض وإنّما وقع أمر باتلاف على وجه الضمان، وحيثُ يقال: إنّهُ لا مانع من التزام زيد بضمّان أكثر من العشرة فليس هو ضمّانا قرضيا وإنما هو ضمان بسبب الأمر باتلاف.

وهنا أيضاً يناقش بأنّ دليل حرمة الربا يشمل المورد بالغاء الخصوصية، فالدين بأيّ سبب حاصل، يجب أن لا يلزم المدين بالزيادة.

كما يناقش بأنّه ما الملزم للزيادة؟ فإمّا أن يكون وجود عقد للقرض أو يكون بنحو الجعالة، وحيثُ يأتي الاعتراض السابق. فتسديد البنك ليس عملاً له مالية إضافية على مالية المال المسدّد، وهو مضمون.

المحاولة الثالثة: تحويل القرض إلى البيع، وقد يعمل على تحويل القرض إلى بيع، فيخرج عن كونه ربوياً مادام التقدم من الاوراق النقدية التي لا تمثّل ذهباً ولا فضةً، ولا تدخل في المكيل أو الموزون، فيقوم طرف ببيع ثمانية دنانير بعشرة مؤجلة إلى شهرين، والتمن وإن زاد على المثمن مع وحدة الجنس ولكنه ليس من الربا المحرم في البيع.

ثم إنّهم يزيدون عليه بجعل شرط في عقد البيع هذا، يقول: بلزوم دفع درهم لقاء أيّ تأخر لمدة معينة، وهو إلزام بعقد البيع لا القرض.

إلا أنه يأتي ما قلناه من أن العرف يرى أن المعاملة هنا قرض ربوي محرّم ألبس ثوب البيع باعتبار أن المتعاملين يقصدان القرضية حقيقةً، أو أن العرف يوسّع من دائرة الربا لتشمل مثل هذا البيع لو قبلنا بأنه بيع حقيقة، وقد يقال بأن الأوراق النقدية تقوم مقام الذهب.

المحاولة الرابعة: أن يعتبر البنك نفسه وكيلاً عن المودعين في الاقراض، فهو يقرض من أموالهم للآخرين ويشترط الإضافة لنفسه، إلا أنه يقال في قبال ذلك: إن الروايات تؤكد عدم اشتراط أي شيء في عملية القرض. فقد جاء فيها تعبير «فلا يشترط إلا مثلها». أو تعبير «ويشترط أن يرد أكثر مما اخذه، فهذا هو الحرام»^١.

المحاولة الخامسة: مايسمى ببيع العينة. كأن تباع السلعة بثمن مؤجل، ثم يشتريها البائع من المشتري بثمن معجل أقال مما باع به، وذكرت له صور أخرى.

وقد قال بحرمة هذا البيع الإمامان: مالك وأحمد باعتبار أنه حيلة لربا النسئة. وهو في الحقيقة ربا مستور بالبيع. وهو يتصور على ثلاثة أنواع:

١- أن يشترط البيع الثاني في البيع الأول.

٢- أن يتبانيا على ذلك.

٣- أن يقعا صدفة ودون اتفاق.

أما الأول: فهو باطل قطعاً؛ لأنه ربا مستور لا غير في نظر العرف، أما بلحاظ الصغرى وإما بلحاظ الكبرى كما مرّ.

وقد اعترض عليه العلماء باعتراضات عديدة أخرى.

منها: لزوم الدور في الاشتراط، فيعود شرطاً فاسداً ومفسداً للعقد، فبيع الأول مشروط ببيع

المشتري، والبيع الثاني متوقّف على تمامية البيع الأول.

وقد نوقش هذا الاستدلال بالنقض في موارد.

ومنها: انتفاء القصد.

ومنها: وجود نصّ في المورد، وهو صحيحة علي بن جعفر عن الإمام موسى بن جعفر

١. وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٤٥٤.

الكاظم عليه السلام قال: سألته عن رجل باع ثوباً بعشرة دراهم، ثم اشتراه بخمسة دراهم، أيحل؟ قال: «إذا لم يشترطاً، ورضياً، فلا بأس»^١.

وهناك روايات مؤيدة لهذه الرواية، منها: رواية الحسين بن المنذر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: يجيئني الرجل فيطلب العينة، فاشترى له المتاع مرابحةً (أي اشترى المتاع بمئة وأبيعه بمئة وعشرة) ثم اشترى منه مكاني، قال: «إذا كان بالخيار: إن شاء باع، وإن شاء لم يبع، وكنت أنت بالخيار: إن شئت اشتريت وإن شئت لم تشتري، فلا بأس» فقلت: إن أهل المسجد يزعمون أن هذا فاسد، ويقولون: إن جاء به بعد أشهر صلح! قال: «إنما هذا تقديم وتأخير، فلا بأس»^٢ إلا أن الحسين بن المنذر هذا لم يوثق رغم شهرة الرواية.

وواضح أن الروايتين تنفيان الاشتراط.

وأما الثاني: فإن كان البناء الأولي شرطاً ارتكازياً عادت للصورة الأولى، وإن كانت مجرد وعد غير ملزم لم يبطل البيع.

وأما الثالث: فلا مانع منه؛ لأنه صحيح حسب القواعد.

هذه بعض المحاولات في البين، وهناك محاولات أخرى يعرف حكمها مما سبق.

التطبيق الثاني: تكييف ودائع الحساب الجاري

فقد اعتبر بعض الاقتصاديين الإسلاميين أن ودائع الحساب الجاري هي ودائع كاملة بالمعنى الشرعي، يقول الدكتور الأمين: «وإذا كانت الوديعة النقدية تحت الطلب هي مبلغ يوضع لدى البنك ويسحب منه في الوقت الذي يختاره المودع، فإن ذلك كل ما يطلب في الوديعة الحقيقية، ولا توجد أية شائبة. فإذا كان البنك قد اعتاد أن يتصرف فيها - بحسب مجرى العادة - فإن هذا التصرف المنفرد من جانب البنك لا يمكن» أن يحسب على المودع، وينسحب على إرادته فيفسرها على هذا الاتجاه من الإيداع إلى الاقراض. فإرادة المودع لم تتجه أبداً في هذا النوع من الإيداع نحو القرض. كما أن البنك لم يتسلم هذه الوديعة على أنها قرض بدليل أنه يتقاضى اجرة (عمولة)

١. وسائل الشيعة ج ١٢، ص ٣٧٠.

٢. المصدر السابق.

على حفظ الوديعة عند الطلب بعكس الوديعة لأجل، وبدليل الحذر الشديد من استعمالها والتصرف فيها من جانبه ثم المبادرة الفورية بردها عند الطلب ممّا يدل على أن البنك حينما يتصرف فيها إنما يفعل ذلك من موقف انتهازي لا يستند إلى مركز قانوني كمركز المقرض. ويؤكد إضافة على ذلك بأننا حتى لو لاحظنا مسألة الإجازة الضمنية والعرفية للمودع بتصرف المصرف بأموال الحساب الجاري فإن هذا لا يغيّر من إرادته في الوديعة، ويؤيد اختياره هذا بما اثر عن المالكية من تجويز التصرف بالمثلثات للقادر على ردها وان اعتبروا ذلك مكروهاً، بل أن (أشهب) لم يقل حتى بهذه الكراهة»^١.

والملاحظ أنه يعتبر اموال الحساب الجاري ودائع بمفهومها الشرعي تماماً مستدلاً:
أولاً: بقصد المودع، فالمودعون لم يقصدوا القرض.

ثانياً: بأخذ البنك العمولة على حفظها كما في البنوك السودانية.

ثالثاً: حذر البنك من استعمالها، فموقفه موقف انتهازي كما يعبر.

إلا أن الظاهر أن المورد مورد قرض، ذلك أن من خصائص الوديعة أن تبقى كما هي بعينها، ولا يمكن التصرف فيها، خصوصاً بما يفوت ذاتها - بإجماع المذاهب الإسلامية - إلا ما ينقله عن المالكية حيث اعتبروا ذلك مكروهاً، وخاصة إذا كانت الوديعة من الدينار والدرهم أي من النقود. هذا في حين نجد البناء منذ البدء على أن يقوم البنك بالتصرف المطلق في أموال الحساب الجاري تماماً دونها حرج أو استثناء، وإنما هو أمر طبيعي جداً، ولا يتخذ البنك فيه حالة انتهازية كما يعبر.

أما احتياطه في التصرف في أموال الحساب الجاري فهو تابع لطبيعتها الجارية ولزوم توفر سيولة نقدية في كل آن للاستجابة لاحتمالات السحب في كل آن والأ تعرّضت سمعة البنك للخطر، لا بل أمكنت المطالبة القانونية له، فحتى على مذهب المالكية لا يمكن تكييف وديعة الحساب الجاري على أساس أنها وديعة وإنما تجب الصيرورة إلى أنها قرض كامل، لأن التصرف ليس استثنائياً.

أمّا مسألة النية (نية الإيداع) فهي في الحقيقة ناشئة من عاملين:

الأول: كونها كذلك في البنوك الربوية.

١. الودائع النقدية، للدكتور حسن عبدالله الامين، (الترجمة الفارسية)، ص ٢٠٧-٢٠٨.

الثاني: إنها تقرب من الوديعة باعتبار إمكان استيفائها كاملة في كل آن، وبما يصاحب ذلك من الحفظ والصيانة، فهي تؤدي إلى نفس النتيجة التي يؤدي إليها الاستيداع تماماً. إلا أن هذه النية لا تنسجم مطلقاً - عندما يراد تكييف العقد شرعاً - مع علم الطرفين بأن هذه العين المالية بمجرد تسليمها سوف تقع تحت التصرف الكامل للبنك، وهذا إنمّا ينسجم مع القرض لا الإيداع، حتى لو وضع عليه عنوان الإيداع. ذلك نظير الإيداعات الثابتة التي لا سبيل فيها في البنوك الربوية إلا إلى القرض حتى لو تمت تحت عنوان الإيداع، فالعبرة في العقود للقصود والمعاني، لا للألفاظ والمباني. ولو قبلنا أنها ودائع، كان علينا أن نقول: إن التصرف الذي يقوم به المصرف إما أن يكون ناقلاً بدمته، وإمّا أن يبقى مجرد تصرف في مال المودّع، فإذا كان ناقلاً بدمته فمعنى ذلك الاستقراض، وهذا ينسحب على مجمل الوديعة من العقد الأول باعتباره يتصرف في أموال الحسابات الجارية كمالك كامل، بل إن المصارف إنمّا تقدم على فتح الحسابات الجارية وتقديم خدماتها، وهي لا تتقاضى على ذلك اجراً عادة، ويعتبر ما تتقاضاه بعض البنوك علامة على ضعفها بلا ريب، إنمّا تقدم على ذلك لتستفيد من السيولة النقدية التي توفرها الحسابات الجارية. وحتى لو كانت هذه البنوك لا ربوية، فهي تقوم بالمساهمة في عمليات المضاربات الكبرى أو أي من العقود المشروعة ممّا تأخذه من رأسها أولاً وما تدخله في المضاربات وغيرها ممّا استقرضته عبر الحسابات الجارية، وهي بالتالي تنال حصّتها المشروعة من الأرباح على ما دفعته إلى ساحة المضاربة من أسهم.

أمّا إذا لم يقصد المصرف نقلها إلى ذمته، فهذا يعني أن هذه الأموال يجب أن ترجع هي وأرباحها (المشروعة طبعاً) إلى المودّع؛ لأنّه مالك الأصل - حسب قاعدة الثبات في الملكية - يقول الكيدري - وهو من فقهاء الإمامية القدامى -: «إذا اتّجر بهال الوديعة فالربح لصاحبها، والخسران على المودّع»^١.

ويقول الإمام الخميني بهذا الصدد في المسألة السادسة من (أعمال البنوك): «لو كان ما يدفعه إلى البنك بعنوان الوديعة والأمانة، فإن لم يأذن بالتصرف فيها لا يجوز للبنك ذلك، ولو تصرف

١. الينابيع الفقهية، ج ١٧، ص ١٣٢.

كان ضامناً، ولو أذن جاز، وكذا لو رضي به وما يدفعه البنك إليه حلال على الصورتين، إلا أن يرجع الإذن في التصرف الناقل إلى التملك بالضمآن، فإنّ الزيادة المأخوذة مع قرار النفع حرام وإن كان القرض صحيحاً، والظاهر أنّ الودائع في البنك من هذا القبيل، فما يسمّى وديعة وأمانة قرض واقعاً، ومع قرار النفع تحرم الفائدة»^١.

والظاهر أنّه ينظر لكلا النوعين من أجناس الوديعة، أي الوديعة العينية والوديعة النقدية، ويحيز أن يتصرف البنك بالوديعة العينية بإذن المالك لقاء عوض، أما إذا رجع التصرف في الوديعة إلى التملك - كما في النقود - فقد عاد استقراضاً، ولا تجوز أخذ الفائدة فيه، وبالتالي يفتي بأنّ الودائع المصرفية بكلا نوعيها الجارية والثابتة هي قرض واقعاً.

ويعلّق مؤلف مستند تحرير الوسيلة: «والظاهر أنّه تقرير لدرس الإمام نفسه» على هذه العبارة بقوله: «وذلك لأنّ وضع النقود في البنك على ما هو المتداول في الخارج، مقارن مع الرضا بالتصرف فيه بأنحاء التصرفات، حتى التصرفات الناقلة، وهذه التصرفات الناقلة التي تصدر عن البنك لا تكون بعنوان المبادلة على أموال صاحب هذه النقود، ولو كان كذلك كان لازمه أن ربح التجارات يعود إلى صاحب هذه النقود؛ لأنّ العوض يدخل في ملك من خرج منه المعوض، مع أنّ صاحب البنك يأخذ الأرباح لنفسه، فلا يكون ذلك صحيحاً شرعاً إلاّ مع التملك بالضمآن، لكن إذا تصرف البنك فيه بالتصرفات الناقلة يخرج عن كونه أمانة ووديعة، ويصير قرضاً واقعاً، فتسمية ذلك بالوديعة إمّا لأنّه يكون في بداية الأمر كذلك، وإمّا لأنّ التسليم إلى البنك ليس لمصلحة المستقرض، وهو البنك فقط، بل يكون لمصلحة المقرض المودع - أيضاً؛ لأنّ البنك يحافظ بهذا الإيداع على المال من السرقة والتلف، ولأجل هذه الجهة يسمّى إيداعاً، وأن يكون قرضاً غالباً أو دائماً واقعاً»^٢.

أما السيد الشهيد الصدر رحمته فيقول: «فليست المبالغ التي توضع في البنوك الربوية ودائع لا تامة - كما يقال في الحساب الجاري - ولا ناقصة - كما يقال في الودائع الثابتة - وإنما هي قروض مستحقّة

١. تحرير الوسيلة، ص ٦١٦.

٢. مستند تحرير الوسيلة، ص ١١٦ قسم المسائل المستحدثة.

الوفاء دائماً أو لأجل محدّد؛ لأنّ ملكية العميل تزول نهائياً عن المبلغ الذي وضعه لدى البنك، ويصبح للبنك السلطة الكاملة على التصرف فيه... وهذا ما لا يتفق مع طبيعة الوديعة، وأنّما اطلق اسم «الودائع» على تلك المبالغ التي تتقاضاها البنوك؛ لأنّها تاريخياً بدأت بشكل ودائع وتطورت خلال تجارب البنوك وامتدّت أعمالها إلى قروض، فظلت تحتفظ من الناحية اللفظية باسم الودائع وإن فقدت المضمون الفقهي لهذا المصطلح. وموقف البنك اللاربوي من الودائع التي تتقاضاها البنوك الربوية يقوم على أساس التمييز بين الودائع المتحركة، والودائع الثابتة - كما سبق - فالودائع المتحركة يقبلها بوصفها قروضاً دون أن يدفع فيها فائدة، والودائع الثابتة يقبلها كودائع بالمعنى الفقهي للكلمة ولكنها ليست مجرد ودائع مسلمة إلى البنك لاستتابته في حفظها فحسب، بل هناك إلى جانب الإيداع توكيل من المودع للبنك في التصرف بالمال باجراء عقد المضاربة عليه.

وهكذا يختلف لدى البنك اللاربوي المحتوى الفقهي لقبوله الودائع من عملائه باختلاف حركتها وثباتها.

أمّا بالنسبة لاستيفاء هذا القرض أو السحب عليه وتكليفه، فيرى أنّ الحساب الجاري لدى البنوك قائمة تعبّر عن ديون متقابلة، فالودائع تمثّل رصيد العميل الدائن، ويمثّل ما يسحبه العميل الرصيد المدين، ويعتبر الحساب الجاري - من وجهة النظر الغربية - معبراً عن عقد قائم بذاته تفقد الحقوق النقدية معه خصائصها الفردية وتستحيل إلى عناصر حسابية ينتج عنها في النهاية رصيد دائن مستحقّ الأداء، وذلك لأنّ الفقه الغربي مازال يرى أنّ المقاصّة بين الحسابين: الدائن والمدين، تحتاج إلى قرار متفق عليه، في حين أنّ الفقه الإسلامي يرى قهريّة المقاصّة (على رأي الإمامية والحنفية) بل لا يمكن التنازل عنها؛ لأنّها ليست حقّاً قابلاً للإسقاط، ويمكن أن تفسّر عملية السحب بأنّها استيفاء للدين وهو الذي يرحّبه، فإنّ تمّ على المكشوف فذلك، يعني إنشاء دين جديد للبنك على العميل.^١

ويبدو أنّ هذا الاتجاه - أيّ اتجاه جعل الوديعة في مثل هذه الظروف قرضاً - هو الاتجاه السائد

١. البنك اللاربوي في الإسلام، ص ٨٤ - ٨٨.

لدى الفقهاء في شتى المذاهب. فقد جاء في كتاب كشف القناع المؤلّف على المذهب الحنبلي: أنّ الوديعة مع الإذن بالاستعمال عارية مضمونة.^١

كما جاء في المغني لابن قدامة: لو استعار الرجل الدراهم والدنانير لينفقها فهذا قرض.^٢ ومن الفقه الحنفي نجد السمرقندي يقول: «كلّ مالا يمكن الانتفاع به إلاّ باستهلاكه فهو قرض حقيقة، ولكن يسمّى عارية مجازاً».^٣

وكذلك نجد شمس الأئمة السرخسي يقول: «إنّ عارية الدراهم والدنانير والفلوس قرض لأنّ الإعارة إذن في الانتفاع، ولا يتأتّى الانتفاع بالنقود إلاّ باستهلاكها عيناً، فيصير مأذوناً في ذلك».^٤ هذا، والذي يبدو أنّ الفقه الوضعي نفسه مرّ بتطور في مسألة الودائع هذه. فقد نقل عن الأستاذ (ريبر) الفقيه الفرنسي أنّه رغم تغليب فكرة تفسير الوديعة بأنّها أمانة محفوظة لكنّه يرى أنّ هذا مجرد تصور نظري؛ لأنّه يتعارض مع إمكان تصرف البنك بالنقود ولذلك اتجه إلى فكرة القول بأنّ الوديعة المصرفية هي وديعة ناقصة أو شاذة، بينما اقترح البعض إعطاء عقد الوديعة صفة جديدة، وهو ما يؤيده الأستاذ علي البارودي في كتاب (القانون التجاري اللبناني) ص ٢٨٨ حيث ترى أنّ المودع إنّما يقدم على الإيداع لحفظ أمواله ولكنه لا يجرّم البنك من استعمال تلك الأموال.

وهنا نجد الأستاذ سامي حمود يردّ عليه بأنّ اللجوء إلى هذا الحلّ إنّما يكون بعد عدم إمكان تفسيره بحلّ آخر وهو الاقراض، وهذا التفسير - كما يقول الأستاذ علي جمال الدين - يستهوي غالبية الفقه الفرنسي مراعاةً منه للوضع الغالب من العمل، وهو ما أخذ به القانون المصري، حيث نصّت المادة ٧٢٦ منه على ما يأتي: «إذا كانت الوديعة مبلغاً من النقود أو أيّ شيء آخر ممّا يهلك بالاستعمال، وكان المودع عنده مأذوناً له في استعماله، اعتبر العقد قرضاً».^٥

١. البهوتي، كشف القناع، ج ٤ ص ١٤١.

٢. المغني، ج ٥، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

٣. تحفة الفقهاء، ج ٣، ص ٢٨٤.

٤. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج ٨، ص ٣٨٩٩.

٥. راجع تطور الأعمال المصرفية بما يتفق والشريعة الإسلامية، للدكتور سامي حسن أحمد محمود، ص ٢٦٤.

إذن فوجود عنصر الضمان للمال المدفوع، وتصرف البنك فيه بكل حرية كما يتصرف المالكون، ورجوع النماء إلى البنك أدلة قاطعة على أن العقد عقد قرض لأن المقصود هو هذه الآثار وإن جاء التعبير بالوديعة. وهذا ما استقر عليه رأي مجمع الفقه الإسلامي في دورته التاسعة، إذ جاء فيه:

قرار رقم: ٩٥/٣/٩٠

بشأن الودائع المصرفية / حسابات المصارف

أولاً: الودائع تحت الطلب (الحسابات الجارية) سواء أكانت لدى البنوك الإسلامية أو البنوك الربوية هي قروض بالمنظور الفقهي، حيث إنَّ المصرف المتسلم لهذه الودائع يده يد ضمان لها وهو ملزم شرعاً بالرد عند الطلب. ولا يؤثر على حكم القرض كون البنك (المقرض) مليئاً.

ثانياً: أن الودائع المصرفية تنقسم إلى نوعين بحسب واقع التعامل المصرفي:

أ- الودائع التي تدفع لها فوائد، كما هو الحال في البنوك الربوية، هي قروض ربوية محرمة، سواء أكانت من نوع الودائع تحت الطلب (الحسابات الجارية) أم الودائع لأجل، أم الودائع بإشعار، أم حسابات التوفير.

ب- الودائع التي تسلم للبنوك الملتزمة فعلياً بأحكام الشريعة الإسلامية بعقد استشاري على حصة من الربح هي رأس مال مضاربة، تطبق عليها أحكام المضاربة (القراض) في الفقه الإسلامي التي منها: عدم جواز ضمان المضارب (البنك) لرأس مال المضاربة.

ثالثاً: أن الضمان في الودائع تحت الطلب (الحسابات الجارية) هو على المقرضين لها (المساهمين في البنوك) ماداموا ينفردون بالأرباح المتولدة من استثمارها، ولا يشترك في شأن تلك الحسابات الجارية المودعون في حسابات الاستثمار؛ لأنهم لم يشاركوا في اقتراضها ولا استحقاق أرباحها.

رابعاً: أن رهن الودائع جائز، سواء أكانت من الودائع تحت الطلب (الحسابات الجارية) أم الودائع الاستثمارية، ولا يتم الرهن على مبالغها إلا بإجراء يمنع صاحب الحساب من التصرف فيه طيلة مدة الرهن. وإذا كان البنك الذي لديه الحساب الجاري هو المرتهن لزم نقل المبالغ إلى حساب استشاري، حيث ينتهي الضمان للتحويل من القرض إلى القراض (المضاربة) ويستحق أرباح الحساب صاحبه تجبياً لانتفاع المرتهن (الدائن) ببناء الرهن.

خامساً: يجوز الحجز من الحسابات إذا كان متفقاً عليه بين البنك والعميل.
سادساً: الأصل في مشروعية التعامل الأمانة والصدق بالإفصاح عن البيانات بصورة تدفع اللبس أو الإبهام، وتطابق الواقع وتنسجم مع المنظور الشرعي. ويتأكد ذلك بالنسبة للبنوك تجاه ما لديها من حسابات لاتصال عمله بالأمانة.

مثال تطبيقي نظري: واجبات الدولة في مجال الدخل الفردي

إن سياسة الدولة ووظيفتها في مجال الدخل الفردي تتلخصان في ما يلي:
أ- حماية الملكية الخاصة، والدفاع ومجاهة كل اعتداء على هذا القطاع. وتدخّل في هذا الباب أحكام الغصب والسرقة وأمثالهما.

ب- مراقبة قيامها بواجبها الاجتماعي، من حيث اعتبارها حقاً معه مسؤولية، لاحقاً مطلقاً. ومن هنا إذا انجرت الملكية الخاصة إلى سبيل تضييع فيه حقوق المجتمع، أو تحوّلت إلى عنصر مخلّ بها، أوقف الحاكم هذا الأمر. وهذا ما يستفاد من نصوص كثيرة، وأحكام معروفة، في مجال الحجر، أو الكسب المحرّم، أو أحاديث: «لا ضرر ولا ضرار»، ومنها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾^١، إذ نسب هذه الأموال (التي هي مملوكة ملكية خاصة لهؤلاء السفهاء) إلى المجتمع، وعيّن واجباتها لتقويم المجتمع، ليمنع بالتالي من فسح المجال لهؤلاء السفهاء أن يتلاعبوا بالثروة الاجتماعية كيفما يشاؤون.

ومن الواضح أنّ مفهوم السفاهة يحتاج إلى دقّة في تعيين حدوده، وبالتالي مصاديقه. فإذا فسّرنا السفه بعدم امتلاك التوازن والوعي والرشد المطلوب لتوجيه الأموال الوجهة الصحيحة، والاضطراب في التعرّف، فإنّ هذا المفهوم سيفتح مجالاً واسعاً لسيطرة المجتمع على كثير من التصرفات المضطربة، وأنواع البذل غير المترنة.

أمّا أحاديث: لا ضرر ولا ضرار فهي تشكل أساساً لقاعدة كبرى في مجال الأحكام الثانوية، وتفسح المجال لتدخّل الدولة لحماية الحقوق، ومنع الملكية من الاضرار بمصالح الأفراد من

الآخرين، فضلاً عن الإضرار بالمصلحة الاجتماعية العليا. ويمكننا هنا أن نتصور تدخلاً كاملاً للدولة، لمنع من ازدياد ثروة ما، عبر أدائها إلى إخلال بالتوازن العام لتوزيع الثروة، كما في مجال الاقطاعات الزراعية أو الصناعية، أو التجارة الواسعة، أو أي مجال آخر يرى خبراء الدولة أنه سيترك أثره التكاثري المضرّ على الوضع الاجتماعي المتوازن. بل ويمكننا أن نتصور تدخلاً للدولة لمنع بعض أنماط الانتاج الكبرى لصالح حماية ذوي الدخل المتوسط من الضرر.

فإذا أضفنا إلى هذه الأمور، النصوص التي تؤكد دفع الضرائب المالية المستحقة لصالح المجتمع، نستنتج أنّ الإسلام سدّ الأبواب أمام استغلال حق الملكية الخاصة لتحقيق الأمور التالية:

١- الاستهلاك أو التبادل اللامعقول، عبر الحجر على السفه والمريض مرض الموت والمدين وغير ذلك.

٢- التبادل اللامشروع للملكية، بما لا ينسجم مع القيم الأخلاقية والاقتصادية التي يؤمن بها الإسلام عبر أحاديث منع الكسب الحرام.

يقول الشهيد الكبير الصدر: «تصرف المالك في ماله بشكل يؤدي إلى الإضرار بالآخرين على نوعين: أحدهما: التصرف الذي يضرّ شخصاً آخر ضرراً مالياً مباشراً، بإنقاص شيء من أمواله كما إذا حفرت في أرض لك حفيرة تؤدي إلى انهدام دار مجاورة لفرد آخر.

والآخر: التصرف المضرّ بشكل غير مباشر والذي يؤدي إلى سوء حال الآخرين دون أن ينقص فعلاً شيئاً من أموالهم؛ كالأساليب التي يتبعها المشروع الرأسمالي الكبير في تدمير المشاريع الصغيرة، فإنّ هذه الأساليب لا تفقد صاحب المشروع الصغير شيئاً من بضاعته التي يملكها فعلاً، وإنّما قد تضطّره إلى تصريفها بأرخص الاثمان، والانسحاب من الميدان، والعجز عن مواصلة العمل.

أمّا النوع الأول فهو يندرج في القاعدة الإسلامية «لا ضرر ولا ضرار» فيمنع المالك وفقاً لهذه القاعدة من ممارسة ذلك النوع من التصرف.

وأمّا النوع الثاني فاندراجه في تلك القاعدة العامة يرتبط بتحديد مفهوم القاعدة عن الضرر، فإذا كان الضرر يعني النقص المباشر في المال أو النفس - كما يرى كثير من الفقهاء - فلا يندرج هذا النوع في القاعدة؛ لأنّه ليس إضراراً بهذا المعنى. وإذا كان الضرر بمعنى سوء الحال - كما جاء في كتب اللغة - فهو مفهوم أوسع من النقص المالي المباشر ويمكن وعلى هذا الأساس، إدراج

النوع الثاني في هذا المفهوم، والقول بتحديد سلطة المالك على ماله، ومنعه من ممارسة كلا النوعين المتقدمين من التصرفات المضرة، لأنها جميعاً تؤدي إلى سوء حالة الآخرين، ومردّ سوء الحال إلى النقص أيضاً، كما أوضحناه في بحوثنا الأصولية، ودللنا على شمول القاعدة له^١.
والواقع أنّ تفسير الضرر يرجع فيه إلى العرف، وهو بدوره - كما هو واضح - يطلق حقيقة عنوان الضرر على الأضرار بدوي الحرف الصغيرة في المال المذكور.

وعلى أي حال، فحتى لو لم يتم الاستدلال، فإننا نجد أنّ لولي الأمر الصلاحية اللازمة للتحديد؛ تحقيقاً للمصلحة الاجتماعية العليا، والسير المتوازن للمجتمع.

٣- الاعتداء على حقوق الأفراد الآخرين، وحقوق المجتمع العليا عبر أحداث منع الضرر.

٤- الفرار من أداء الوظائف الاجتماعية الكبرى عبر النصوص التي تفرض الزكاة والضرائب المالية الأخرى، وتحرم الامتناع عنها، وبالتالي نستطيع القول بأنّ أكبر وظيفة للدولة في مجال الملكية الخاصة هي حمايتها من جهة، والسيطرة عليها لتقوم بواجبها الاجتماعي من جهة أخرى.

واجبات الدولة في مجال مستوى المعيشة

عندما تقوم الدولة على الصعيد الفردي بواجباتها فإنّها - في الواقع - تضمن قسطاً كبيراً من قيامها بالواجب على الصعيد العام، وهو ما أسميناه: مجال (مستوى المعيشة)، أو مجال (ضمان الحدّ المطلوب للنسبة بين مستويات معيشة الأفراد في المجال الاقتصادي).
ويمكننا هنا أن نقول: إنّ هناك أساسين رئيسيين تقوم عليها سياسة الدولة الإسلامية الاقتصادية، هما: (التكافل والتعادل).

الأساس الأول: التكافل

ويتصور في مجالين أيضاً، هما: التكافل الفردي والتكافل الاجتماعي.

١- التكافل الفردي: نعني به أن يكون كلّ فرد في المجتمع الإسلامي ضامناً لأمرين باعتبارهما واجباً لا تخلف فيه، وهما:

١. اقتصادنا: ج ٢، ص ٥٦٥.

أ- الحاجات الأساس الضرورية الفورية لكل فرد في عرض المجتمع الإسلامي .
 ب- الحاجات الأساس الضرورية لمجمل المجتمع الإسلامي، والتي لا يمكن أن يتم قوامه بدونها.
 ٢ - التكافل الاجتماعي: ونعني به أن تكون الدولة ضامنة (نيابة عن المجتمع) لتحقيق الأمرين التاليين:

أ- توفير الحاجات العرفية للأفراد حتى يصلوا إلى مستوى الغنى .
 ب - تأمين أفضل الحالات الممكنة للحياة الاجتماعية. ولا نجدنا بحاجة للاستدلال على هذين النمطين من التكافل، إذ هما يكادان أن يكونا من المسلّمات الفقهية، ولكن - لزيادة التأكيد - نلاحظ النصوص التالية:

- ١- عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «تعطيه من الزكاة حتى تغنيه»^١.
- ٢- وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إذا أعطيت فأغنه»^٢.
- ٣- عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «إن من أشد ما افترض الله على خلقه ثلاثاً: إنصاف المؤمن من نفسه حتى لا يرضى لأخيه من نفسه إلا بما يرضى لنفسه منه، ومواساة الأخ في المال...»^٣.
- ٤- عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: في معرض حديثه عن حقّ المؤمن على المؤمن: «يا أبان! تقاسمه شطر مالك». ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني، فقال: «يا أبان! أما تعلم أنّ الله قد ذكر الموثرين على أنفسهم؟» قلت: بلى جعلت فداك، فقال: «إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنّما أنت وهو سواء، إنّما تؤثر إذا أنت أعطيته من النصف الآخر»^٤.
- ٥- عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من شكا الحاجة إلى مؤمن فكأنّها شكاها إلى الله»^٥.
- ٦- عن الصادق عليه السلام قال: «يأتي على الناس زمان من سأل الناس عاش، ومن سكت مات» قلت: فما أصنع إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: «تعينهم بما عندك، فإن لم تجد فبجاهك».

١. وسائل الشيعة: ج ٦، ص ١٧٨.

٢. المصدر السابق، ص ٢٩٨.

٣. المصدر نفسه، ص ٣١٢.

٤. اقتصادنا: ج ٢، ص ٦١٧.

٥. المصدر السابق، ص ٦٢٣.

٧- عن الصادق عليه السلام قال: «أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه، وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره، أقامه الله يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلولة يده إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»^١.
ويعلق الشهيد الإمام الصدر على هذا الحديث، فيقول: «والحاجة في هذا الحديث وإن جاءت مطلقة، ولكن المقصود منها هو الحاجة الشديدة».

الأساس الثاني: التعادل

وهذا هو الركن الثاني المهم من واجبات الدولة في مجال مستوى المعيشة، وبه تتكامل السياسة الاقتصادية للدولة، وبدونه لن تتحقق هذه السياسة.

والمقصود بالتعادل، ليس التعادل الحدي، والتساوي بين مستويات المعيشة، وإنما المراد به هو التقارب الطبيعي بين هذه المستويات. ولكي يتوضح هذا الأمر، نقول: هناك حدان مسلم بهما - فقهيًا - لمستويات المعيشة الفردية، لا يمكن تجاوزهما، وهما: الإسراف كحد أعلى والغنى كحد أدنى. والمقصود بالإسراف: هو الابتعاد الزائد عن الحد الطبيعي الوسط للمعيشة. كما أن المقصود بالغنى: هو امتلاك هذا الحد الطبيعي الذي يمكن الفرد من معيشة متوسطة عرفاً. ولسنا نجد حاجة للاستدلال على هذين الحدين بملاحظة وضوح ذلك، وخصوصاً إذا لاحظنا الروايات التي مرّت بنا قبل قليل، وإن كنا نجد أن أدنى تأمل في طبيعة أهداف الدولة الإسلامية الاقتصادية يكفي للدلالة على أن الحد الأدنى الذي يرتضيه الإسلام هو الغنى المذكور، وأن الحد الأعلى هو حدّ عدم الإسراف - كما مرّ - ومن هنا نستطيع أن نقول بأن الدولة عليها أن تبذل كلّ إمكاناتها المادية والتشريعية القانونية، ونفوذها المعنوي، في سبيل الارتفاع بمستوى الطبقات المحرومة في المجتمع، وتوفير كلّ الظروف الملائمة لتحقيق حدّ الغنى المطلوب، كما أنّ عليها أن تبذل كلّ طاقتها للضغط بشدة على الطبقات المترفة المتجاوزة للحدّ الطبيعي حتى تصل إلى الحدّ الذي يرتضي فيه العرف العام صدق صفة عدم الإسراف عليه.

١. وسائل الشيعة، ج ١١ ص ٥٩٩ ح ١.

وهذا يتحقق التعادل المطلوب إسلامياً في المجتمع، وينمحي التفاوت غير الطبيعي بكل آثاره السلبية. إلا أن زوال المجتمع الطبقي لا يعني زوال الفوارق بين مستويات المعيشة كلية. كلا، بل يعني أن الفوارق سوف تبقى ولكن على مستوى فوارق الدرجة - كما يعبر الشهيد الكبير الصدر - لا على مستوى الطبقة. وليس هذا التفاوت عيباً، بل هو يشكّل - حتماً - نقطة قوة إذا لاحظنا الأمرين التاليين:

أ- التفاوت في الإمكانيات الذهنية والعضلية للأفراد، وبالتالي تفاوت الأعمال من حيث القدرة على الانتاج الجيد.

ب- قبول الإسلام بمبدأ أساس الملكية، مما يؤدي إلى التفاوت في ملكيات الافراد وقدراتهم على تحقيق مستويات أفضل. فإذا ما فسحنا المجال للأفراد للعمل على رفع مستوياتهم، فقد وفرنا الدافع الانتاجي القوي، ولم نمت حسّ الابداع والسعي فيهم، إلا أن ذلك لن يبقى مطلقاً، وإنما هو مقيد بعدم تجاوز الحد الأعلى للمجتمع المتوازن العادل.

ويجب أن لا نتصور أن توفير الحد الأدنى من قبل الدولة يؤدي إلى الكسل والتواكل، فذلك تصور باطل، لأن الدولة لن تلجأ إلى التوفير الكامل لهذا المستوى، إلا إذا انعدمت الأساليب الأخرى، كأسلوب توفير وسائل الانتاج للقادرين على العمل، أو توفير السيولة النقدية الممكنة لبناء رساميل صغيرة، تعين الافراد على بناء حياتهم المعيشية المتوسطة، وغير ذلك. ومن هنا فإن العكس هو الصحيح، إذ سيكتسب الانتاج عناصر جديدة، إذا كانت سياسة الدولة تتجه إلى هذا الهدف بكل متابعة وجد.

وهنا يجب أن نذكر بأن هذين الحدين لا يمكن تعيينهما بشكل جاد، وإنما هما يتبعان الظروف المتغيرة، كمستوى الانتاج، وتوفر المعادن، وكثافة السكّان، وانعدام الأزمات الاقتصادية، والمناخ الجغرافي، والظروف السياسية، والاجتماعية، وغير ذلك. ومن هنا يجب توفير جهاز خبير يتابع هذه المتغيرات، ليكتشف - بالتالي - هوية هذين الحدين على ضوءها.

كما يجب التذكير - بعد هذا - بأن التعادل الذي ذكرناه لا يتناول المستوى الفردي بشكل مباشر، إذ ليست هناك علاقة حتمية بين مستوى الدخل ومستوى المعيشة، وإن كانت هذه العلاقة قائمة في الحالات الطبيعية، ولكنها قد تنفصم، مثلاً لعمال أخلاقي، كما في حالة الزهد، أو لعمال قانوني، كما في حالة المنع القانوني من الإسراف، أو لأي عامل آخر. وعليه، فالدخل لا

محدودية له في الدولة الإسلامية كمبدأ، ولكن هذا لا يعني أنها لا تستطيع السيطرة على نمو الدخل الفردي بشكل أهوج، فإذا رأت أن ذلك النمو الأهوج سوف يؤدي إلى تداول الثروة لدى فئة قليلة جداً، لها صفاتها غير الطبيعية، مما يسحب القدرة الاقتصادية في مجالات الانتاج والتبادل من الجماهير، أو رأت هذا النمو المتكاثف سوف يجعل من الصعب على الجهاز الاداري أن يحقق التوازن المطلوب، وأمثال ذلك فإنها تستطيع التحديد من الدخل عبر المنع من الدخول في بعض المجالات الاقتصادية، ومنح تلك المجالات لرؤوس الأموال التعاونية، أو للشركات المساهمة، أو للأفراد، أو للآخرين، أو تستطيع أن تفرض الضرائب التوازنية لتحقيق هذا الهدف. ولا مجال فعلاً للبحث عن الأسس التشريعية لذلك، ولكننا نشير إلى القدرة القانونية التي يملكها وليّ الأمر المفترض الطاعة بنصّ القرآن الكريم، فهي قدرة واسعة لتحقيق المصلحة الاجتماعية، والأهداف الاقتصادية المرسومة.

منهج الشهيد الصدر في معرفة المذهب الاقتصادي الإسلامي ودفع الإنشكال عليه

من الظواهر الواضحة في فكر الإمام الشهيد الصدر عليه السلام مسألة التنظير، فالذين عرفوه وتلمذوا عليه يواجهون هذه الظاهرة بكلّ وضوح أينما توجهوا في أبعاد هذا الفكر الرحيب، فهو رحمه الله تعالى ينظر فلسفياً وأصولياً كما ينظر فقهيّاً وفكريّاً، وحتى حينما يدرس التاريخ أو يحاول استعراض العلاقة بين البشرية وخالقها ومسؤولياتها يطرح مثلاً فكرة نظرية تستوعب التاريخ والإنسان وأهداف خلقته، وذلك في إطار العلاقة بين خطّ الخلافة وخطّ الشهادة.

منهج الإمام الشهيد في اكتشاف المذهب الاقتصادي الإسلامي

ويمكن تلخيص هذا المنهج بالخطوات التالية:

- ١ - عمل على التفريق بين البحوث العلمية والبحوث المذهبية على أساس من أن العلم يعني بها هو كائن، وأن المذهب يركّز على ما ينبغي أن يكون، ومن هنا فإنّ المذهب يعني بموضوع (العدالة الاجتماعية، أمّا العلم فهو يفسّر الواقع بصورة منفصلة عنها).^١

١. اقتصادنا، ص ٣٦٢.

٢ - كما فرّق بين المذهب والقانون، باعتبار المذهب مجموعة من النظريات الأساسية التي تعالج مشاكل الحياة الاقتصادية، في حين يركّز القانون المدني على تفصيلات العلاقات المالية بين الأفراد وحقوقهم الشخصية والعينية، ولأجل ذلك يكون (من الخطأ أن يقدم الباحث الإسلامي مجموعة من أحكام الإسلام - التي هي في مستوى القانوني المدني حسب مفهومه اليوم - ويعرضها طبقاً للنصوص التشريعية والفقهية - بوصفها مذهباً اقتصادياً إسلامياً، كما يصنع بعض الكتاب المسلمين، ولكن تشدّ الاثنان روابط قوية باعتبارهما مندمجين في مركّب عضوي نظري واحد) ^١ وعليه يكون القانون بناءً علوياً للمذهب.

٣ - أكدّ على أنّ العملية التي يقوم بها الباحث الإسلامي ليست عملية إبداعية تكوينية لمذهب ما كما هو حال المنظر الوضعي، وإنما هي عملية اكتشاف لمذهب. ذلك أنّه أمام اقتصاد منجز (تم وضعه وهو مدعو لتمييزه بوجهه الحقيقي، وتحديد بهيكله العام)، ومن هنا اختلفت خصائص العمليتين. فالمكون ينطلق أولاً من معرفة الواقع القائم لوضع النظريات العامة للمذهب لتقوم عليها الأبنية العلوية من القوانين التفصيلية، أما المكتشف فهو يبدأ بعملية النزول من الطوابق العلوية لاكتشاف أعماقها النظرية، وقد يمكن للمكتشف لا أن يعثر على الخطوط النظرية من النصوص فحسب، بل حتى على الواقع العلمي الذي قامت عليه النظرية المذهبية (من قبيل اكتشاف موقف الإسلام من نظرية مالتوس العلمية).

٤ - أكدّ أنّه لكي يتم اكتشاف المذهب لايجدنا عرض مفردات الأحكام التفصيلية، بل يتحتم علينا أن ندرس كلّ فرد باعتباره جزءاً من كلّ وجانباً من صيغة عامة مترابطة لنتهي إلى اكتشاف القاعدة العامة التي تشعّ من خلال الكلّ. ^٢

٥ - وكما تساهم الأحكام في عملية الاكتشاف فإنّ المفاهيم تشارك أيضاً في ذلك، ونقصد بالمفهوم: كلّ تصور إسلامي يفسّر واقعاً كونياً أو اجتماعياً أو تشريعياً. فالاعتقاد بصلّة الكون بالله تعالى هو مفهوم معيّن عن الكون، والاعتقاد بأنّ المجموع البشري

١. ن. م. ص ٣٦٥ - ٣٦٦.

٢. ن. م. ص ٣٧٦.

مرّ بمرحلة الفطرة قبل الوصول إلى مرحلة العقل هو مفهوم إسلامي عن التاريخ والمجتمع. والاعتقاد بأن الملكية ليست حقاً ذاتياً، وأنّها هي عملية استخلاف للإنسان على مال هو الله تعالى يشكّل مفهوماً عن الملكية.

وهذه المفاهيم يمكنها أن تساعدنا في اكتشاف المذهب.

٦ - ويلزم هنا أن نلتفت إلى منطقة الفراغ عند القيام بعملية الاكتشاف المذهبي. ذلك أنّ النظام الاقتصادي يشتمل على جانبين: أحدهما؛ مملوء بشكل منجز، والآخر، متروك أمره للدولة الإسلامية. ومن هنا فقد طبّق الرسول الأكرم ﷺ الجانب الأول، وملاً الجانب الثاني باعتباره ولي الأمر، ورغم أنّ الأوامر التي تصدر على أساس من ولاية الأمر لا تعبّر عن أحكام ثابتة إلاّ أنّها (أي أوامر الرسول العظيم ﷺ في مجال ملء منطقة الفراغ) تلقى اضواءً كاشفة على أساليب الملء لهذه المنطقة بما ينسجم وتحقيق الأهداف الاقتصادية العليا.^١

٧ - وقد ذكر المرحوم الشهيد أن الأحكام والمفاهيم لما كانت هي الباب الذي نلج فيه إلى الخطوط المذهبية، ولما كانت النصوص الدينية في الغالب لا تعطينا هذه الأحكام والمفاهيم بشكل مباشر، بل تحتاج إلى اجتهاد معقّد لمعالجة تلك النصوص واكتشاف مضامينها، وعليه فإنّ (الصورة التي نكوّنها عن المذهب الاقتصادي، لما كانت متوقّفة على الأحكام والمفاهيم فهي انعكاس لاجتهاد معيّن.. وما دامت... اجتهادية فليس من الحتم أن تكون هي الصورة الواقعية؛ لأنّ الخطأ في الاجتهاد ممكن، ولأجل ذلك كان من الممكن لمفكرين إسلاميين مختلفين أن يقدّموا صوراً مختلفة للمذهب الاقتصادي؛ تبعاً لاختلاف اجتهاداتهم، وتعتبر كلّ تلك الصور صوراً إسلامية للمذهب الاقتصادي؛ لأنّها تعبّر عن ممارسة عملية الاجتهاد التي سمح بها الإسلام وأقرّها، وهكذا تكون الصورة إسلامية ما دامت نتيجة لاجتهاد جائز شرعاً.^٢

ونلاحظ هنا أنّ الاجتهاد يتمّ في مرحلتين:

الأولى: مرحلة اكتشاف الحكم أو المفهوم من النصوص.

١. ن.م. ص ٣٨٠.

٢. ن.م. ص ٣٨٣.

والثانية: في مرحلة استنباط الخط المذهبي من مجموعة من الأحكام والمفاهيم المنسجمة في نظر المكتشف في مجال الكشف عن ذلك الخط.

وقد اعتبرت هذه النقطة بالذات نقطة الضعف في عملية الاكتشاف كما نوضح إن شاء الله تعالى.
 ٨- وقد تحدّث الإمام الشهيد عن الأخطار التي تحفّ بعملية الاجتهاد، وخصوصاً حول تلك الأحكام التي ترتبط بالجوانب الاجتماعية من حياة الإنسان (ولأجل هذا كان خطر الذاتية على عملية اكتشاف الاقتصاد الإسلامي أشدّ من خطرها على عملية الاجتهاد في أحكام فردية).^١
 وذكر من الأخطار الأمور التالية:

أ- تبرير الواقع

ب- تجريد الدليل الشرعي من ظروفه وشروطه

ج- اتخاذ موقف معين بصورة مسبقة تجاه النص^٢

٩- ويعدّ من أخطر مراحل هذا المنهج الموضوع الذي عاجله المرحوم الشهيد تحت عنوان (ضرورة الذاتية أحياناً) فهو يذكر أنّ الاجتهاد في اكتشاف الحكم التفصيلي يتمّ بصفة شرعية وطابع إسلامي ما دام يارس وظيفته، ويرسم الصورة ويحدّد معالمها في إطار الكتاب والسنة ووفقاً للشروط العامة التي لا يجوز اجتيازها.

ولكنّه يمتد بعملية الاجتهاد هذه إلى مرحلة تكوين الفكرة العامة عن الاقتصاد الإسلامي (المذهب الإسلامي)، حيث تشكّل الأحكام والمفاهيم المستنبطة اجتهادياً كلّها ذخيرة بالنسبة للاقتصاد الإسلامي، ويمكن لهذه الذخيرة أن تعطينا صوراً عديدة: كلّها شرعية وكلّها إسلامية، ويمكننا أن نتخيّر في كلّ مجال أقوى العناصر، وأقدرها على حلّ مشكلات الحياة وتحقيق الأهداف العليا للإسلام، فالمكتشف يمتلك مجال اختيار ذاتي بين المعطيات، فهو حرّ ولكن في نطاق الاجتهادات المختلفة.

ويضيف إلى ذلك أنّ هذا المكتشف (والمؤلّف هنا مكتشف) لا يتقيّد بفتاوى مجتهد معين، بل

١. ن. م. ص ٣٨٤.

٢. ن. م. ص ٣٨٦.

لا يتقيد هو بفتاواه لكي يصل إلى المطلوب.

ولتبرير هذه الحرية يذكر أن هذا الأمر هو السبيل الوحيد في بعض الحالات لاكتشاف النظرية الإسلامية والقواعد المذهبية في الاقتصاد، ولتوضيح ذلك يذكر ما يلي:

أ- أن المتفق عليه من الأحكام بين المسلمين بحيث لا يزال يحتفظ بموضوعه وصفته القطعية قد لا يتجاوز الـ ٥٪ من مجموع الأحكام.

ب- أن الاجتهاد عملية معقدة تواجه الشكوك من كل جانب، ومهما كانت نتيجته راجحة في نظر المجتهد فهو لا يجزم بصحتها في الواقع. ورغم ذلك فإن الإسلام قد سمح بها وحدد للمجتهد المدى الذي يجوز له أن يعتمد فيه على الظن ضمن قواعد تذكر في علم أصول الفقه.

ج- اذن فمن المعقول أن توجد لدى كل مجتهد مجموعة من الأخطاء والمخالفات لواقع التشريع الإسلامي وإن كان معذوراً فيها.

د- ومن المعقول أيضاً أن يكون واقع التشريع الإسلامي موزعاً هنا وهناك بنسب متفاوتة في آراء المجتهدين (ويختلف واقع الشريعة عن الصورة الاجتهادية التي يرسمها المجتهد).

هـ- فليس إذن من الضروري أن يعكس لنا اجتهاد كل واحد من المجتهدين - بما يضم من أحكام - مذهباً اقتصادياً كاملاً وأساساً موحدة منسجمة مع بناء تلك الأحكام وطبيعتها.

و- وهنا قد يختلف موقف الممارس لاكتشاف المذهب الاقتصادي عنه حين يحاول اكتشاف الحكم الشرعي التفصيلي، فموقفه كمجتهد يكشف الحكم الشرعي قد يؤدي به إلى نتيجة لا تتسجم مع غيرها من الأحكام من حيث كشفها المنظم عن الخط المذهبي العام مما يفرض عليه كفقيه نظرية اختيار مجموعة متسقة من الأحكام، وحتى لو كان بعض تلك الأحكام مما أدى إليه اجتهاد غيره من المجتهدين فهو يعمل حريته وذاتيته لحذف النتائج المتنافرة أو العناصر التي لا تتسجم مع المجموعات الأخرى مستبدلاً إياها بعناصر أو أحكام أكثر انسجاماً.

ز- ويؤكد هنا أن أقل ما يقال في تلك المجموعة: «إنها صورة من الممكن أن تكون صادقة كل الصدق في تصوير واقع التشريع الإسلامي، وليس إمكان صدقها أبعد من إمكان صدق أي صورة أخرى من الصور الكثيرة التي يزرعها الصعيد الفقهي الاجتهادي، وهي بعد ذلك تحمل مبرراتها الشرعية لأنها تعبر عن اجتهادات إسلامية مشروعة تدور كلها في فلك الكتاب والسنة،

ولأجل ذلك يصبح بالإمكان للمجتمع الإسلامي أن يختارها في مجال التطبيق من بين الصور الاجتهادية الكثيرة للشريعة التي يجب عليه أن يختار واحدة منها»^١.

١٠ - ويجذر في النهاية مما يسميه بـ (خداع الواقع التطبيقي) ويعني به: أنّ الإسلام دخل الحيز التطبيقي خلال عشرات السنين، ولذا فقد تتم محاولة اكتشاف المذهب الاقتصادي من هذا الواقع ولكنه يؤكّد أن الكاشف النظري أقدر على التصوير؛ لأنّ الواقع التطبيقي قد لا يعكس المضمون الضخم لنصّ نظري، وقد يجذع التطبيق الشخصي لأمر ما، قد يجذع المكتشف فيوحي له مثلاً بوجود عناصر رأسمالية من خلال كون الافراد في صدر الإسلام أحراراً في الاستفادة من الثروة المعدنية، ولن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع.

هذا هو منهج الإمام الشهيد في اكتشاف المذهب الاقتصادي الإسلامي قمنا بعرضه - بأمانة - من خلال نقاط عشر.

ولنحاول فيما يلي الإجابة على بعض ما أثير حول هذه العملية من إشكالات، ونختار منها إشكالين:

الأول: حول جدوى هذه العملية

الثاني: حول مشروعيتها

الإشكال الأول: جدوى هذه العملية

وقد تصور البعض من النقاد أنّ هذه العملية مضيعة للوقت والجهد، فما دمنا قد اكتشفنا الحكم الإسلامي في مختلف الموارد الاقتصادية فما الداعي لممارسة هذه العملية الثانية، وهي لا تضيف جديداً إلى تكاليف الفرد والمجتمع، بل تتحدّث عن الأسس النظرية لهذه الأحكام، والمفروض أنّ الشريعة نفسها تكفّلت معرفة مجمل الواقع الاقتصادي وحقائق العالم وعلاقات الإنسان بالطبيعة وبأخيه الإنسان - من حيث واقعها - ثم لاحظت الصورة المذهبية وما ينبغي له من سلوك، ثم أعطتنا هذه الأحكام ضمن نظم علينا تطبيقها إذا شئنا الانسجام مع معتقداتنا وتحقيق أهداف الشريعة؟ فلماذا هذا التحقيق المتعب لمعرفة الاسس النظرية التي اتبعتها؟ هذا هو مجمل الاشكال. وفي مجال الإجابة نقول: إنّ التأمل في النتائج الضخمة التي تركتها هذه العملية في المجال

النظري على الأقل، وملاحظة الاستقبال الواسع لهذه الدراسة الرائعة والمبتكرة والرائدة حتى عادت الجامعات الإسلامية في شتى أنحاء العالم، والبيوت الاقتصادية المتخصصة، ومختلف التحقيقات الاقتصادية الإسلامية، لا تستطيع أن تستغني عنها - بل راحت تدرس هذا الكتاب القيم، (أي اقتصادنا) وتطرح مقولاته على مائدة البحث العلمي الرصين. وراحت الأمم تعمل على ترجمته إلى لغاتها لتنعم بالحصيلة الفكرية الضخمة التي حواها وتوصل إليها.

كما عمل المفكرون الغربيون على التأمل فيها لاكتشاف المعالم العامة للإسلام الأصيل، كلّ ذلك يدعوننا لاكتشاف نقاط الخلل في هذا الإشكال. والذي تصوّره أنّ هناك نتائج ضخمة يمكن الحصول عليها من خلال هذه العملية، تماماً كما لاحظناه عندما استعرضنا الفوائد المرجوة لعلم المقاصد الشرعية:

١- إمكان المقارنة بين الإسلام وسائر المذاهب الأخرى لتحقيق الوضوح المطلوب:

فإنّ المقارنة بين المذاهب لا تتم من خلال التركيز على الخطوط التفصيلية النوعية، ولا يبدو الفرق بوضوح إلا عندما تتم المقارنة بين الخطوط المذهبية العامة لكلّ منها، ذلك أنّ اجتهادات التطبيق قد تؤدي إلى اختلافات ظاهري، ويبقى الأصل المذهبي واحداً كما أشار إلى ذلك الإمام الشهيد نفسه عندما تحدّث عن (العلاقة بين المذهب والقانون) وهذا ممّا يؤديّ حتماً إلى غموض الحدود في التطبيق، وضياح الأفهام، بل وقد يؤدي إلى نوع من التلفيق بين المذاهب المتعارضة، الأمر الذي شهدناه تماماً لدى الكثير من المفكرين الذين طرحوا أفكاراً ودعوا إلى العمل بها، من قبيل فكرة (الإسلام الرأسمالي) و(الاشتراكية الإسلامية) حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى حدّ تصور عدم التناقض بين (الإسلام) و(الشيوعية)!! إنّ هذا الخلط العجيب كان ثمرة الجهل بالمعالم الرئيسية للإسلام والنظريات المذهبية له بلا ريب. وقد عانى العالم الإسلامي وما زال يعاني من عملية (التهجين) و(التلفيق) و(التركيب المتناقض) و(الالتقاط).

لذلك جاءت محاولات الشهيد لعرض الواقع، وتعيين الحدود العامة، وفرز المواقف كأروع ما تكون، وما نظّنه إنّنا بحاجة إلى مواصلة هذه الطريقة لاكتشاف المعالم الإسلامية الأخرى، وتغذية الجيل الإسلامي، وبالتالي تحصينه من الوقوع في عمليات الخلط الفكري، لا في المجال

الاقتصادي فحسب، بل في مختلف المجالات الحياتية الأخرى، كما يجب أن لا ننسى الدور الذي تلعبه هذه الدراسات في مجال بيان التفوق النظري الإسلامي على المذاهب الأخرى.

٢ - التأثير على عملية الاستنباط للأحكام الفرعية:

ونحن نتصور أن مثل هذه العملية يمكنها أن تؤثر حتى على عملية الاستنباط المعروفة بشكل واقعي من خلال ما يلي:

أ - قد يتوصل المجتهد إلى قناعة خاصة بالقاعدة التي يستنبطها بهذه الطريقة ويؤمن بها على إطلاقها، من خلال كثرة الأحكام التي تكشف عنها، مما يوجد قناعة خاصة في نفسه بأن الشارع المقدس اعتمد القاعدة حين إصداره للأحكام الفرعية الكثيرة، وحيث أن هذه القناعة على مجرى استنباطه، وتبدو آثارها في مختلف المجالات التي قد يتوقف فيها نتيجة ضعف الدولة الخاصة.

ب - وقد توجد لديه ذوقاً خاصاً يغير مواقفه حتى من عمليات الاستنباط المألوفة، وذلك أن الذوق الفقهي شيء غير الاستحسان المرفوض شرعاً، أنه قد يقوى سناً وقد يقوى دلالة لم تكن لتتحقق لولا مثل هذا الذوق المستند إلى أصول شرعية مقبولة.

ولعل موقف الشهيد الصدر رحمته - الأنف ذكره - من روايتي محمد بن الفضيل حول (منع بيع الدين بأقل منه، والعود بالقيمة الاسمية على المدين) والقبول بهما رغم ما في الاستدلال بهاتين الروايتين من بعض الثغرات، ومنها: جهالة (محمد بن الفضيل) هذا؛ إلا أنه يقول: «فأني شخصياً لا انسجم نفسياً ولا فقهيّاً مع الأخذ بالرأي المعاكس، ولا أجد في نفسي وحدسي الفقهي ما يبرر لي بوضوح ترك هاتين الروايتين، والأخذ برأي يناقضهما» ناجم من هذا الذوق المذهبي^١.

إن الانسجام النفسي قد يكون ناجماً - كما نعتقد - من تأثير الخطوط المذهبية التي تصول آلياً في مجال توزيع ما بعد الانتاج.

ومهما يكن من أمر فلا يمكن أن ننكر أثر التوصل إلى الخطوط المذهبية العامة في تكوين ذوق فقهي شخصي لدى المجتهدين يكون له دوره في نتائج عملية الاستنباط.

٣ - المساهمة الضخمة في عملية تطبيق الشريعة الإسلامية:

١. البنك اللاروي، ص ١٦٠ طبعة الكويت.

وهذه الخاصية تبدو بوضوح عندما ندرك الدور الذي تلعبه النظريات في عملية التطبيق، فعندما تقوم دولة إسلامية، وينهض ولي الأمر بالمهمة، فإن عملية التطبيق تستدعي رصيماً ضخماً من النظريات الإسلامية التي تعالج أهم المشاكل الحياتية ملاحظة الخطوط الأساسية للرؤية الإسلامية، والمصلحة الإسلامية العليا للأمة مستوعبة لمختلف الدوافع والعقبات، مطبقة ذلك على المجتمع، وصولاً إلى تحقيق خصائص المجتمع الإسلامي المتحرك.

ولاريب في أنّ النظرية المذهبية الاقتصادية تسدّ فراغاً ضخماً في هذه المسيرة، وتهديها نحو الحالة المثلى. وسوف نتحدّث بمزيد من التوضيح - إن شاء الله - عن هذه النقطة عند الاجابة على الاشكال التالي.

وينبغي أن نشير هنا: إلى أنّ المعترضين بهذا الإشكال لم يعد لهم وجود رغم كثرتهم عند انطراح هذه الدراسات، وهي حالة ربما تكون طبيعية بعد انطلاقتها في جوّ لم يألّفها، ومازال لحدّ الآن، بعيداً - مع الأسف - عن انتاج امثالها رغم توفر الدوافع العملية الضخمة، ورغم الحاجة الحميمة.

وقد رأينا المرحوم الإمام الشهيد نفسه يعتبر عمله مجرد صورة يمكن أن تقوم إلى جانبها صور أخرى مستنبطة من فهم آخر للتناسق بين الأحكام.

إلا أنّنا لم نجد لحدّ الآن من ينهض بتقديم هذه الصورة الأخرى، ونسأل الله (جل وعلا) أن يحقّق لنا هذا الأمل لتكون هذه الدراسات منبعاً قيّماً يدعم مسيرة تطبيق الأحكام الإسلامية ويحقّق لنا الأمل المرجو في غد الحكم الإسلامي الشامل.

الإشكال الثاني: مشروعية هذه العملية

ولعلّ هذا يعدّ أهم إشكال يبدو للذهن عند ملاحظة هذه العملية المبتكرة، وقد أشرنا من قبل إلى تطيقين للاجتهاد في مراحل هذه العملية.

التطبيق الأول: ويتم في مجال استنباط الأحكام الفرعية من مظانّها الأصلية (الكتاب والسنة) وعلى أساس من علم أصول الفقه، وهو اجتهاد مشروع لا غبار عليه، ويؤدي إلى حجّة النتيجة المستنبطة حتى مع احتمال مخالفتها للواقع الإسلامي، وذلك بعد حصول الظنّ المعترف المنتج للحجّة والتي تؤدي للمعذرية - عند مخالفة النتيجة للواقع الشرعي - تماماً كما تعني التنجيز للأحكام على المكلف.

التطبيق الثاني: ويتم في مجال استنباط الخطوط النظرية من الأحكام والمفاهيم. وهنا يكمن الإشكال في عملية الاجتهاد هذه، فيقال: إنها لا تنتج الحجية القطعية حتى ولو كانت هذه الأحكام مستنبطة من قبل المجتهد الممارس للعمليتين معاً، فكيف بها تكون حجة، والحال أن بعض هذه الأحكام الكاشفة لا يقبلها هذا المجتهد نفسه، وأنها اختارها من مجتهدين آخرين لأنها أكثر انسجاماً مع باقي الأحكام التي أريد لها أن تعبر عن خطّ نظري عام.

ولتوضيح الأمر يقال: إن استنباط الخطّ النظري يعني الوصول إلى اللازم العام عرفاً أو عقلاً لهذه الأحكام - وهو الخطّ النظري العام - ومن المعلوم أن الكثير من تلك الأحكام قد تم التوصل إليها من خلال تطبيق (الأصول العملية) من قبيل: الاستصحاب، والتخير، والاحتياط بعد فقدان الدليل الاجتهادي عليها، ومن المسلم به أن لوازم الأصول ليست بحجة - كما يؤكد الأصوليون - بل حتى لو افترضنا أن تلك الأحكام الكاشفة قد استنبطت كلها من الأمارات (التي تعد لوازمها حجة) فإن هناك شكاً حقيقياً في كون لازم الجمع بين الحكمين من الأمور المعترف بحجيتها في التصور العرفي الممضى من قبل الشارع، وتكون النتيجة هي الشك في حجية اللازم، وهو هنا هذا الخطّ المذهبي المستنبط، والشك في الحجية كافٍ للقطع بعدمها، كما هو تعبير الأصوليين أيضاً.

فكيف الخلاص؟

وقد قلنا: إن هذا الإشكال يرد على العملية حتى لو كانت كل الأحكام مستنبطة من قبل الممارس لعملية استنباط الخطوط المذهبية، فكيف به وهو ينتقي ذاتياً الأحكام التي لا يؤمن بها هو، وأنها أدت إليها اجتهادات الآخرين؟

وإذا فقدت هذه الخطوط حجيتها فقدت معذريتها ومنجزتها، وصحة انتسابها إلى الإسلام، فكيف يمكن أن نطلق عليها صفة (النظرية الإسلامية)؟!

والجواب على هذا الإشكال يتلخص فيما يلي: نحن نؤمن أيضاً بأن الأصول العملية لا تثبت لوازمها، كما نؤمن أن دليل الحجية لا يثبت لوازم الجمع بين الأمارتين، ونؤمن أيضاً بأن الشك في الحجية كافٍ للقطع بعدمها، ولكننا نقول: إننا في مورد النظريات لا نحتاج إلى عنصر الحجية المطلوب بكل دقة في مجال الأحكام العملية الفرعية، وإنما يكفي فيها صحة

الانتساب إلى الإسلام، وهذا ما نختلف فيه مع صاحب الإشكال، وهذا بالضبط ما ركّز عليه الإمام الشهيد حينما صرّح بما يلي:

(ولأجل ذلك كان من الممكن لمفكرين إسلاميين مختلفين أن يقدّموا صوراً مختلفة للمذهب الاقتصادي تبعاً لاختلاف اجتهاداتهم، وتعتبر كل تلك الصور صوراً إسلامية للمذهب الاقتصادي) وكأنّه يريد التأكيد على أمور:

الأول: أنّ كل الناتج عن عملية الاجتهاد (ما دام قد تمّ بسلاح إسلامي) فهو شرعي وهو إسلامي.

الثاني: أنّ المجموع الإسلامي موزّع هنا وهناك بنسب متفاوتة.

الثالث: أنّ أقلّ ما يقال عن الصورة المستنبطة من مجموعة من الأحكام المنسجمة أنّها صورة من الممكن أن تكون صادقة كل الصدق في تصوير واقع التشريع الإسلامي، وليس إمكان صدقها أبعد من إمكان صدق أيّ صورة أخرى من الصور الكثيرة التي يزخر بها الصعيد الفقهي الاجتهادي، وهي بعد ذلك تحمل مبرراتها الشرعية لأنها تعبّر عن اجتهادات إسلامية مشروعة تدور كلّها في فلك الكتاب والسنة.

والحاصل: أنّ هذا المقدار من الاتصال بالواقع الإسلامي يحمّق لنا انتساباً عرفياً مقبولاً إلى الإسلام، ولا يمكننا والحال هذه أن نفني هذه النسبة عنها بعد أن كان احتمال تعبيرها عن الواقع الإسلامي بمستوى احتمال أية صورة أخرى عنه.

ثم إنّنا إذا ضمّمنا إلى هذه النتيجة ما ذكره الشهيد الصدر قدس سره نفسه من أنّ هذه الوسيلة هي الوسيلة الوحيدة التي يمكننا من خلالها الوصول إلى المبادئ العامة للإسلام، وهي ما نحتاجه لتنظيم حياتنا الاجتماعية، وتحقيق ما ذكرناه من ضرورات وفوائد عند الحديث عن جدوى هذه المحاولات، إذا ضمّمنا ذلك أدركنا عقلاً القبول الشرعي بهذا المقدار من الانتساب، وليكن ذلك من خلال (مقدمات دليل الانسداد) الذي تقبل به في مثل هذه الموارد.

ولكن يبقى التساؤل قائماً: لنفترض إنّنا قبلنا النسبة الإسلامية لهذه العملية، فمن أين نكتسب (الحجية المطلوبة) وهي غايتنا، وبها نستطيع الاعتذار إلى الله تعالى إذا خالفت هذه الصورة الواقع الإسلامي - في علم الله - والمطلوب منّا تطبيقه؟ بل كيف تكتسب هذه الصيغة عنصر (التنجز) والالزام الشرعي وهو المطلوب هنا؟

وهنا نقول: إنَّ الخلط تم هنا بين الحكم العملي الفردي، والمسيرة الاجتماعية الحكومية، فإذا كنَّا نحتاج في مجال اجتهاد المرحلة الأولى إلى الحجية الملازمة للقطع بالحكم المستنبط أو بحجية محصول الظنِّ المعبر، فإنَّنا لسنا بحاجة لمثل هذه الحجية هنا، ذلك أنَّ الذي يمنح هذه الخطوط المذهبية صفة الالتزام والتعذير هو حكم ولي الأمر بها، وجعلها سياسة عامة تمشي البلاد على ضوئها، والحكم الولائي ملزم ومعذر بلا ريب بمقتضى قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوبِئِ الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾.

ومن المعلوم أنَّ ولي الأمر وعلى ضوء من الزامه بعنصر (الشورى) وملاحظته (للأضوية الكاشفة) التي قدَّما الشرع الشريف له، وكذلك ملاحظته لمصالح الأمة العليا، يمكنه أن يصدر أوامره باعتقاد الخطوط الأساسية الأفضل لتحقيق تلك المصلحة حتى لو لم يتوصَّل هو شخصياً لحجية كل الأحكام الكاشفة، بل يستطيع أن يلزم الأمة بحكم شرعي مستنبط على أساس شرعي من قبل غيره، كما أنَّه يستطيع أن يلزم الأمة كلَّها بالعمل بفتاواه بعد تحويلها إلى أحكام حكومية، وعلى باقي المجتهدين العمل الاجتماعي وفقها؛ تحقيقاً لوحدة المسيرة الاجتماعية، وعملاً بمقتضيات طاعة ولي الأمر.

وحينئذٍ إذا رأى هذا الولي العمل بهذه الخطوط أصدر أوامره، باعتقادها ومنحها الحجية اللازمة وتحقق المطلوب.

وفي الختام نسأل الله (جل وعلا) أن يوفِّقنا لتطبيق أحكام الله تعالى في الأرض واستدامة الطريق الذي سلكه أستاذنا الإمام الشهيد، ويقر عيوننا بتحقيق أهدافه العليا.

خلاصة البحث

انتهينا في البحث إلى النتائج التالية:

أولاً: بعد أن عرفنا علم مقاصد الشريعة، وبيَّنا أهدافه، ودرسنا علاقته بالعلوم الإسلامية، وعرفنا شيئاً من تاريخ تطوره، رجَّحنا أن يكون أقرب إلى مجال فلسفة الفقه منه إلى علم الأصول أو علم الفقه.

ثانياً: رجَّحنا أن لاتنحصر المقاصد العامة بالخمسة المعروفة، وإنَّما قد تتسع لكل حقوق الإنسان الطبيعية التي يقرّها الإسلام، وقد فصلها الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

ثالثاً: ذكرنا أنّ علم مقاصد الشريعة قد يترك أثره على عملية استنباط الحكم الشرعي العملي بتكوين اتجاه خاصّ لدى المستنبط المجتهد، وذكرنا لذلك أمثلة من بحوث الشهيد الإمام السيد محمد باقر الصدر هي:

- بحثه عن تكييف خصم الكمبيالة على أساس بيع الدين.

- بحثه عن مسألة الفرار من ربا القرض وتحويله إلى وجه مشروع.

- بحثه عن تكييف ودائع الحساب الجاري.

و عرفنا أنّ هذا التأثير طبيعي ومعترف به شرعاً

رابعاً: ثم عرضنا بعض الامثلة في استنباط النظريات الاقتصادية من مجموعة أحكام وفتاوى ومفاهيم منسجمة في رأي المجتهد، ورأينا أنّ هذا العمل مفيد أولاً، ومشروع ثانياً، ويمكن أن يكتسب الحجية التي تعني (التنجز والتعذير) ثالثاً من خلال أمر ولي الأمر الشرعي بتطبيق هذه القواعد النظرية في منطقة المباحات.

الشهيد آية الله المطهري المعلم والعارف والفيلسوف الأصيل

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ..﴾.

كل ما يكتب عن الأستاذ الشهيد آية الله مرتضى المطهري قليل بلا شك، لأن الكلمات مهما كانت معبرة وذات أصالة فإنها وإن استطاعت أن توضح بعض الجوانب من حياة الأستاذ وشخصيته الفذة، فإنها غير قادرة على إعطاء صورة كاملة وشاملة عن هذا الأستاذ والفيلسوف المؤمن الصادق الملتزم. فالشهير المطهري، أستاذ كبير، ومؤمن صادق، ورسالي أصيل، كرس حياته لخدمة الأهداف الإسلامية.

كان معلماً فكرياً للثورة الإسلامية، وأسطورة في تاريخ العلم والأدب والفلسفة والعرفان الإسلامي، وعالمًا من سلالة العلماء الربانيين، سقى بدمه شجرة الإسلام.

نعم، كان من نوادر عصرنا، ولاشك في أن التاريخ سيضع اسمه إلى جانب المشاهير المعاصرين. فقد ظهر في مقطع خطير وحساس من التاريخ السياسي للإسلام في بلادنا، واستطاع بأفكاره السامية أن يصمد أمام الانحرافات والمسااعي البائسة التي كانت ترمي إلى تشويه الوجه الحقيقي للإسلام، ويحافظ على أصالة الإسلام، متحتملاً بذلك مشقات كبيرة من دون أن يتردد أو يشعر بالخوف لحظة، ولماذا يشعر بالخوف؟ وهو الذي كان يعلمنا بأن أفضل ما يحققه الإنسان في حياته هو الشهادة في سبيل الله.

حياته وشخصيته

ولد عام ١٩١٩ في قرية نريان بمحافظة خراسان، ونشأ وترعرع على يد والده الذي كان

رجالاً ورعاً، تقياً، مؤمناً وصادقاً همته الإسلام لا غير. وبهذا الصدد يقول الشهيد نفسه: «إنَّ إيمان أبي وتقواه وعمله الصالح أنار لي الطريق».

هاجر عام ١٩٣١ إلى مدينة مشهد المقدسة طلباً للعلم، ودرس هناك مقدمات العلوم الإسلامية. فمنذ أيام شبابه كان يميل إلى الفلسفة، ويكنّ المحبة للعرفاء، وأول من تأثر الشهيد بشخصيته كان «الميرزا مهدي شهدي» مدرس الفلسفة الالهية - آنذاك - في الحوزة العلمية بمدينة مشهد.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره، غادر مشهد إلى مدينة قم المقدسة، وتلمذ على يد اساتذة معروفين، مثل آية الله سيد محمود المحقق، وآية الله سيد محمد حجت. وهناك تبخّر في الفقه والأصول. عن تلك الأيام يقول أحد زملائه في الدراسة: «منذ الأيام الأولى لتعارفنا، علمت أنّ الشهيد المطهري يلتزم بصلاة الليل، وكان يدعوني لإقامة هذه الصلاة، غير أنّني كنت اتذرّع بأمر قائلاً: إنّ ماء الحوض مالح ووسخ يؤذي عيني، لكنني وفي إحدى الليالي رأيت في عالم الرؤيا أنّي نائم وأنّ شخصاً يدعى عثمان بن حنيف أيقظني من النوم وقال: إنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أرسلني إليك وهو يأمر بك بأن تستيقظ وتقيم الصلاة، وهذه رسالة لك منه. وكانت الرسالة ورقة صغيرة جداً كتب عليها؛ هذه براءة لك من النار. لم أكن أدري ماذا أفعل، وفي تلك اللحظة بالضبط أيقظني المرحوم من نومي الواقعي، وبينما كانت في يده ابريق ماء قال لي: أنّني جئتك بهذا الماء من النهر، انفض وأقم الصلاة ولا تتذرّع».

ودرس الشهيد كذلك على يد مرجع الأمة الإسلامية الإمام الخميني، الفلسفة والعرفان والأخلاق، وتأثر به إلى درجة كان يشي عليه في أكثر الأحيان، حيث كان يرى فيه القائد الصلب الذي يستطيع بإيمانه وتقواه وإرادته الحرة أن يوصل سفينة الشعب الإيراني المسلم إلى ساحل النجاة ويوعي فيه اصالة الإسلام.

وعندما بلغ الرابعة والعشرين من عمره، بدأ يدرس العلوم العقلية، وطالع عدداً من الكتب والكراسات التي كانت تتناول الفلسفة المادية ممّا مكّنه فيما بعد على إصدار كتاب «أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية» حيث فنّد فيه فلسفة المادية الديالكتيكية.

وحول الفلسفة المادية يقول الشهيد: «لقد كنت أدرس الفلسفة الالهية والفلسفة المادية برغبة كبيرة، وفي مدينة قم تبيّن لي وبشكل قاطع أنّ الفلسفة، المادية ليست - في الواقع - فلسفة ومن كان متعمّقاً في الفلسفة الإلهية، واعياً لها يرى بطلان الأفكار المادية».

في عام ١٩٥٤ هاجر إلى طهران من مدينة قم، وتزوج ابنة عالم ديني كبير، وفي طهران بدأ يلقي محاضرات حول الفلسفة الإلهية، وبعد عام، أي في عام ١٩٥٥ نشر أول مقال له في مجلة «الحكمة»، وبعد سنتين من ذلك التاريخ صدر له المجلد الأول من كتاب «أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية». وفي نفس العام دعت جامعة طهران للتدريس في كلية المعارف الإسلامية، فاغتنم الفرصة وظل مدة اثنين وعشرين عاماً يدرّس الفلسفة والحضارة والمعارف الإسلامية، وقام بكتابة ومقالاته التي تعدّ بالآلاف بإرشاد الشباب نحو الإسلام وأنقذ الكثير منهم من الجوع القاتل للدعايات والتلقينات المادية العمياء الذي كان يسود الجامعات الإيرانية آنذاك.

وكتاب «العدل الإلهي» نموذج بارز من الخدمة التي قدّمها في هذا المجال، حيث طرح فيه هذه المسألة وأعطى الرأي القوي المتين المبرهن.

ولغاية عام ١٩٧٧ كان الأستاذ يواصل تحقيقاته في مجال المسائل الاعتقادية والاقتصادية والاجتماعية في «مسجد الجواد»، و«حسينية الارشاد»، و«مركز التوحيد».

وقام بتحقيقات حول التضاد والحركة في الفلسفة الإسلامية، ونشرها بصورة مقالات، كما قام بتحقيقات أخرى حول عرفان الشاعر الإيراني حافظ وحكمته، وله بحوث في مجال المعرفة، وأيضاً عدد من الكتب في مجال الفلسفة التاريخية والاقتصاد الإسلامي والمقارنة بين الإسلام والماركسية. شارك في انتفاضة عام ١٩٦٣ التي قادها الإمام الخميني، وأودع السجن، ثم أطلق سراحه، واعتقل مجدداً بعد عدة سنوات، ومرة أخرى أطلق سراحه، غير أنه منع من الصعود على المنابر. وبعد أحداث ذلك العام التي انتهت بنفي الإمام إلى خارج البلاد، قام مع عدد من علماء الدين وبتشجيع من الإمام الخميني بتأسيس: «جمعية علماء الدين المناضلين» فكان من أعضائها النشطين.

لقد قضى الأستاذ الشهيد حياته كلّها في مكافحة المفساد وأساليب الضلالة والأفكار الملحدة والالتقاطية، ولم يتغافل أبداً عن ذكر الله وإرشاد الناس ودعوتهم إلى الصراط المستقيم.

كان فقيهاً كبيراً، تدرّج إلى أعلى المستويات في علوم الفقه، ذا رغبة كبيرة في العلم، ولم يتوقّف أبداً عن المطالعة. كما كان فيلسوفاً مشهوراً في الشرق والغرب، ويكّن احتراماً بالغاً للفلاسفة والعارفاء المسلمين.

كان - عليه الرحمة - يتواجد في أيّ مكان يشاهد نقصاً فيه، على سبيل المثال أنّه عندما أحسّ بأنّ أدب الأطفال يكاد يكون معدوماً، وأنّ الاعداء يستغلّون مثل هذه الفرص لتوجيه ضرباتهم المميّنة والمصريّة عبر ترسيخ ثقافتهم المنحطة في عقول أطفالنا لإعداد جيل لا يفهم من الحياة سوى الأكل والشرب والنوم، بدأ يكتب قصصاً للأطفال تتناول الأخلاق الإسلاميّة وحياة المسلمين في عصر صدر الإسلام، وكانت خطوة يقلّ نظيرها في هذا السبيل.

وعندما لاحظ أنّ مجلة «زن روز» (المرأة العصرية) لا ترمي سوى إلى تشويه ماهية حقوق المرأة في الإسلام، وابعاد النساء والفتيات عن الإسلام، فقد تحرّك في الوقت المناسب وبدأ بنشر سلسلة من المقالات حول «نظام حقوق المرأة في الإسلام» في نفس المجلة دون أن يأبى بالمخاطر التي قد تواجهه في المستقبل أو محاربه من قبل جهاز الأمن السابق «السافاك»، أو المحاولات التي قد تبذل لتشويه سمعته واتّهامه بالتخلف والرجعية. واستطاع بمقالاته القيّمة أن ينشر الوعي بين صفوف النساء والفتيات الإيرانيات، ويرسم أمامهنّ الطريق الصحيح لثلاً يقعن في الشرك المخطّط، ويتعدن عن القيم الإسلام السامية.

إمّا كتاب «الحجاب» فهو الآخر يعدّ من خدماته الجليلة المنقطعة النظير التي قدّمها للمجتمع الإيراني، حيث استطاع بهذا الكتاب أن يعالج المرض المسري الذي نشره أعداء الإسلام بزعامة الصهاينة بين نساءنا وفتياتنا.

وبدون شك فإنّ الشهيد المطهّري كان بطل النشاطات الفكرية والايديولوجية خلال السنوات الأخيرة.

وفي خلال الأزمة الفكرية والعقائدية التي أوجدها «السافاك» منذ عام ١٩٦٥ ولحدّ عام ١٩٧٦ فإنّه وباعتباره ممثلاً للامام الخميني استطاع أن يحافظ على مجرى الإسلام الصادق والأصيل الذي يسمى اليوم بـ «نهج الإمام» في جو المشاحنات والصراع بين تيارين فكريين هما: «الماركسية» و«مدّعي الإسلام» اللذين كانا يستقطبان الأفكار.

وفي الوقت الذي خدعت جميع الأوساط المثقفة والمناضلة بالظاهر الثوري لهذين التيارين، وكان انتقاد التيارين المذكورين يعتبر ذنباً لا يغفر ومعارضة للثورة والثورين، فإنّه من دون أن يشعر بالمخاوف والأخطار المرتقبة وقف بوجهها، واستخدم قلمه، فأثبت بطلانها وكشف الحقائق.

لقد ناضل الشهيد خلال حياته ضد أربع جهات:
الأولى: جبهة الكفر والظلم التي كانت تبذل محاولات يائسة من أجل بقائها واستمرارها.
والثانية: جبهة الكفر والإلحاد السافر التي كانت صورة أخرى من الجبهة الأولى، حيث كانت تسعى للظهور بمظهر ثوري بغية التحكم بالشعب.
والثالثة: جبهة الشرك الحديث التي ظهرت برداء الإسلام! وتطمع بالسلطة، وهذه الجبهة هي التي أسقطته شهيداً.

أمّا الرابعة: فهي جبهة الجامدين التمييزيين العاملين على تمزيق الوحدة الإسلامية.
ولعب مع بقية علماء الدين دوراً فعالاً في قيادة جماهير طهران خلال مرحلة الثورة، وزار الإمام الخميني في باريس الذي كلّفه بتشكيل مجلس الثورة الإسلامي، فكان عضواً من أعضائها.
وبعد أقلّ من عام على انتصار الثورة الإسلامية وبينما كانت عائداً إلى منزله فتح عليه المجرمون أعداء الثورة الإسلامية، النار فسقط شهيداً..
اغتالوه... فلقد نفذ صبرهم وهم يشاهدونه يدفع بعجلة الثورة الإسلامية إلى الأمام بقلمه ولسانه وكلّ ما بوسعه.

وقال الإمام الخميني مرجع الأمة الإسلامية في البيان الذي أصدره في اليوم التالي من استشهاد الأستاذ المطهري: «لقد غاب عنا المطهري الذي قلّمنا نجد له مثيلاً من ناحية طهارة الروح وصلابة الإيمان وقوة البيان... لكنّ الأعداء لن يستطيعوا أن ينهوا شخصيته الإسلامية والعملية والفلسفية، وأنّ القتلة لن يستطيعوا محق الشخصية الإسلامية لرجال الإسلام».
وفي الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد هذا الأستاذ والفيلسوف الكبير أصدر الإمام الخميني بياناً جاء فيه: «إنّه قدّم للإسلام والعلم خدمات جليلة، وإنّه لمن المؤسف حقّاً أن تقوم الأيدي المجرمة باقتلاع هذه الشجرة من الجامعات العلمية والإسلامية، وتحرم الجميع من ثمراتها القيمة، لقد كان ابناً عزيزاً لي، وخادماً صادقاً للشعب والقطر».
قالوا عن الشهيد

عن الشهيد تقول عقيلته: «كان الأستاذ يلتزم بأصول التعليم والتربية عند تعامله مع أبنائه وأفراد المجتمع، ولم يكن يجبر احداً على عمل شيء، بل كان يأتي دائماً بالبراهين والأدلة لإقناع الطرف المقابل للقيام بهذا أو ذاك العمل...».

وقال المرحوم آية الله المشكيني امام جمعة قم حول شهيدنا العزيز: «يتضح من مؤلفاته أنه كان قد فهم الإسلام بشكل صحيح، وكان سداً أمام الشيوعيين والكفرة».

وعنه قال الشهيد الدكتور مفتّح أستاذ كلية المعارف الإسلامية: «إنّه وفي أوج الثورة الإسلامية كان يقول لي: لو أنّ إمامنا وقائدنا نجح فأنني لن أطمح لأي منصب.. إنّ مكتبي هي أكبر لذة لي، إنني لا أريد شيئاً سوى أن اكتب واحقّق وأدافع عن الإسلام».

وقال الشهيد بهشتي عنه: «إنّ اغتيال المرحوم المطهري جاء في الحقيقة للقضاء على الفكر الإسلامي الأصيل، ولقد استشهد في وقت كانت هناك حاجة لدوره».

ولقد قال حجة الإسلام والمسلمين هاشمي رفسنجاني رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام: «إنّ شهادة المطهري هي بحدّ ذاتها دليل على صحة الطريق الذي كان يخطو فيه. فعندما تعرّف على نفسه جاهد بشكل متواصل لتعريف الإسلام الحقيقي، وإزالة غبار الشرك والجهل الذي كان يغطّي الرسالة الإسلامية».

ويقول المرحوم العلامة الطباطبائي عن تلميذه: «كان المطهري رجلاً تقياً، أكسب التقوى من الفلسفة، وكان ذكياً ومتحلياً بجميع الصفات الإنسانية الرفيعة، ويميل إلى العلم أشد الميل».

من أقوال الشهيد المطهري

- منطق الشهيد، هو منطق الاحتراق والاضاءة، منطق الانصهار في المجتمع لحيائه، منطق إحياء القيم الإنسانية، ومنطق خلق البطولات.
- إنّ دم الشهيد لن يذهب هباءً مطلقاً، فهو لا يسكب على الأرض، فكلّ قطرة من دمه تتبدل إلى مئات وآلاف القطرات، بل إلى بحر من الدم لتصبّ في جسم المجتمع.
- الإسلام لا يحصر العبادة بالأعمال البدنية كالصلاة والصيام، أو العبادات المالية كدفع الخمس والزكاة، بل هناك نوع آخر من العبادة، وهو العبادة الفكرية. فالعبادة الفكرية تعادل سنوات من العبادة البدنية وتسمو عليها بكثير إن اتجهت على طريق توعية الإنسان.
- الإنسان في نظام الشرك ينجذب في كلّ لحظة إلى جهة أنّه قسّة في البحر تتقاذفها الأمواج في كلّ لحظة، أمّا في النظام التوحيدي فهو كالسفينة المجهّزة بأجهزة الدلالة تجري في حركة منظمة متناسقة تحت قيادة من يحبّ الخير.

أما الإنسان غير المؤمن فهو يعيش في العالم كعميشة إنسان يعتقد بظلم وفساد القوانين والانظمة الحاكمة في بلده، ويرى نفسه مضطراً إلى الخضوع لها. مثل هذا الفرد يحسّ دوماً أنه مليء بالعقد والأحقاد، ولا يفكر على الإطلاق في إصلاح نفسه، إذ لا يرى جدوى في ذلك، فهو يرى نفسه قطرة في بحر يموج بالظلم والجور.

هذا الإنسان لا يحسّ بلذة في العالم، لأن العالم في نظره سجن رهيب.

- الإسلام نظرية انتصار الروح الإنسانية على الروح الحيوانية.. وانتصار العلم على الجهل، وانتصار العدل على الظلم، وانتصار المساواة على التمييز، وانتصار الفضيلة على الرذيلة، وانتصار التقوى على التحلل، وانتصار التوحيد على الشرك.

- طبعي أنّ الايديولوجية الوحيدة التي تستطيع أن تكون ذات ماهية إنسانية تقوم على أساس القيم الإنسانية، هي الايديولوجية الإنسانية لا الفتوية، هي الايديولوجية الموحدة لا القائمة على أساس تجزئة الإنسان، هي الايديولوجية الفطرية لا المصلحية.

- نعتقد أنّ سبب تناقضات ماركس يعود إلى أنّ ماركس كان أقلّ ماركسية من كثير من الماركسيين. ويذكر أنّ ماركس كان يشرح أمام مجموعة من الماركسيين نظرية تنافي بعض نظرياته السابقة، فلم يطق الحاضرون سماع هذا الشرح، فما كان من ماركس إلا أن قال لهم: أنا لست ماركسياً بمستواكم! ويقال: إنه ردّد في آخر حياته: لست ماركسياً.

آثار الشهيد القيمة

للسهيد الأستاذ مرتضى المطهري آثار قيمة تعد بالعشرات، ترجم عدد منها إلى أكثر من لغة عالمية، وتبذل حالياً محاولات لطبع ما لم يطبع من مؤلفاته، حيث هناك الكثير من الكتب والمقالات التي لم تطبع بعد. ومن جملة ما طبع له لحدّ اليوم:

١- الإنسان والمصير.

٢- الوحي والنبوة.

٣- الحركات الإسلامية في القرن الأخير.

٥- الإنسان والإيمان.

- ٦- العدل الالهي .
- ٧- مسألة الحجاب .
- ٨- نظام حقوق المرأة في الإسلام .
- ٩- الدوافع نحو المادية .
- ١٠- المجتمع والتاريخ .
- ١١- الامدادات الغيبية في حياة البشر .
- ١٢- المادية في إيران .
- ١٣- الادارة والقيادة في الإسلام .
- ١٤- الولاء والولاية .
- ١٥- السلوك الجنسي في الإسلام والغرب .
- ١٦- قيام وثورة الإمام المهدي (عج) .
- ١٧- تفسير الكون .
- ١٨- الإنسان والإيمان .
- ١٩- أصول الفلسفة والمدرسة الواقعية - خمس مجلدات .
- ٢٠- التكامل الاجتماعي في الإسلام .
- ٢١- في رحاب نهج البلاغة .
- ٢٢- الحياة الخالدة .
- ٢٣- قصص أهل الحق - الجزء الأول والثاني .
- ٢٤- إحراق الكتب في إيران ومصر .
- ٢٥- لن تغرب شمس هذا الدين .
- ٢٦- إيران والإسلام، ج ١، ج ٢ .
- ٢٧- عشرون مقالة .
- ٢٨- عشر مقالات .
- ٢٩- ختم النبوة .

- ٣٠- الشهيد.
- ٣١- النظرة الكونية التوحيدية.
- ٣٢- حول الثورة الإسلامية.
- ٣٣- مسألة النفاق.
- ٣٤- المجتمع والتاريخ.
- ٣٥- أصالة الروح.
- ٣٦- مبدأ التضاد كما تصوره الفلسفة الإسلامية.
- ٣٧- البحث عن الحقيقة.
- ٣٨- الجهاد.
- ٣٩- هدف الحياة.
- ٤٠- أبحاث اقتصادية.
- ٤١- ماركس والماركسية.

وهناك كتب ومقالات ومحاضرات لم تطبع لحدّ الآن منها؛ الإمام والقيادة، الاقتصاد الإسلامي، الإنسان في تصور الماركسية والإسلام.

المطهري والصدر والإحياء الديني

يمكن تلخيص الموضوع في نقاط:

النقطة الأولى: قبل الحديث عن الموضوع أودّ أن أسجّل أنّي وقّفت للاستفادة من أساتذة كبار وعلماء أفاضل، ولكنّ أساتذتين جليلين منهم تركا أكبر الأثر في حياتي العلمية والفكرية بل والروحية، وهما: المرحوم الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر والمرحوم آية الله الشهيد المطهري.

ولقد كانا شبيهين إلى حدّ بعيد في كثير من الخصائص، ومنها:

- تقارب الشهادتين.

- الجهاد حتى آخر نفس وعن وعي.

- التنظير والانتقال من المفردة إلى القانون.

- الموسوعية والتأليف في مختلف الجوانب.
 - العمق والاستدلال المتين.
 - الاهتمام الجاد بالفلسفة الإسلامية وعرضها بشكل واضح وبناء.
 - التضلع في الفقه.
 - التعبد العرفاني.
 - الولاء لأهل البيت عليه السلام.
 - الاهتمام بقضايا الأمة الفكرية والعملية.
 - الصحوة الإسلامية العالمية.
 - الإصلاح الحوزوي في النجف وقم.
 - التخطيط المستقبلي لبناء المجتمع الإسلامي المطلوب.
 - الخلق والتواضع الكامل، وخصوصاً للعلم والعلماء.
 - العمل في سبيل الوحدة الإسلامية.
 - حبّ ودعم الثورة الإسلامية والإمام الخميني الراحل ١ وغير ذلك.
 - الوقوف بوجه الأفكار اليسارية واليمينية والهجينة ورد عاديتهما.
 - إقامة الجسور مع المفكرين والشباب والجامعات، وتغذيتهم بالثقافة الإسلامية الأصيلة.
 - التجديد في الفكر الديني.
- النقطة الثانية: الخطوط الأساسية لدى المرحومين لعملية تحقيق التجديد الديني
ويمكن تلخيص هدف العملية في أمرين:
- ١- اكتشاف النظرة الأصيلة للدين في مجمل قضايا الحياة.
 - ٢- استبعاد الرواسب الدخيلة نتيجة العادات والتقاليد، والبعد الزمني عن عصر النصّ، والفهم الخاطيء وغير ذلك. وكان الشهيد المطهري يطرح جملة الإمام أمير المؤمنين «ولبس الإسلام لبس الفرد مقلوباً»^١.

١. نهج البلاغة، الخطبة (٧).

وقدرسا لتحقيق ذلك خطوطاً كثيرة منها:

- ١- التأكيد على قدسية الوحي والنص الديني، وفتح المجال امام نقد الفكر المبتني عليه.
- ٢- التركيز على العقل والبرهنة الصدرائية والتجديد في علم الكلام والربط بين العقل والعلم والدين مع تحديد مجال كل منها.
- ٣- التأكيد على فلسفة العلوم، والأخلاق والتاريخ والعلاقات الاجتماعية، بل وفلسفة أصل الاتجاه الديني.
- ٤- التأكيد على العودة للمصادر الأصيلة.
- ٥- تفعيل عملية الاجتهاد في كل النواحي، وتخليصه من ضيق الأفق، واعطائه المرونة اللازمة.
- ٦- التأكيد على الهدف الإنساني للشريعة، والحكمة العملية والعدالة الاجتماعية، والحرية الإنسانية، والاجتماعية والمعنوية وحقوق الإنسان والفطرة وغير ذلك.
- ٧- التأكيد على التمييز بين المتغير والثابت، وبين رؤية الإسلام وسلوك المسلمين.
- ٨- التأكيد على إصلاح التعليم الديني والارتقاء بالحوزات العلمية.
- ٩- التأكيد على شمولية الأحياء لمختلف العلوم الإسلامية.
- ١٠- التأكيد على تحسيس المجتمع بالسلوكات الضارة، والأفكار الدخيلة، والشعارات الباطلة، والتفاسير القشرية للإسلام أو التسطيفية للفكر الإسلامي.
- ١١- مناقشة الأفكار والاتجاهات اللاإسلامية من قبيل: القومية الضيقة، الاتجاهات اليسارية، الاتجاهات الالتقاطية التركيبية الغربية، والمناهج المتأثرة بالفلسفات الغربية والحداثة وأمثالها.
- ١٢- التخطيط لإقامة الجسور بين الدراسات الدينية التقليدية والدراسات الجامعية، ونقل إيجابيات كلٍّ منهما للآخر.
- ١٣- الانفتاح على الأفكار المطروحة، وبناء عملية حوارية منطقية معها لاكتشاف المشتركات والإفادة من التجارب الفكرية.
- ١٤- تعميق قضية الوحدة الإسلامية والاهتمام بقضايا الأمة المصرية؛ كقضية فلسطين، ودفع العلماء للقيام بدورهم كورثة للأنبياء.

النقطة الثالثة: المقصود بعملية التجديد في فكر الشهيدين:

يجب أن نستبعد بعض المعاني المرفوضة من قبيل:

١- جعل ما يسمّى بالحدائث أو المعاصرة أو القيم الغربية المطروحة اليوم أصلاً ثابتاً ثم العمل على تغيير التصور الإسلامي الثابت لينسجم معها، أو لوي النصوص الإسلامية الأصيلة لتحقيق هذا الهدف.

٢- اتباع المنهج الهرموني في فهم النصوص، ورفض كلّ التراث الأصولي القائم على أسس ثابتة بالعقل والنقل، وربما شابه هذا الأسلوب ما سمي سابقاً بـ (ما يستحسنه المجتهد دوننا دليل) بل هو أسوأ منه لأنه يعطي هذه الصفة للمجتهد وغيره.

٣- الخلط بين مراتب الأدلة لتحقيق هدف مسبق، مع أنّ بعض الأدلة مقدّم رتبة على غيره.

٤- التلفيق بين الفتاوى بشكل يؤدي للتلاعب بمقاصد الشريعة الثابتة.

٥- رفض كلّ التراث السابق للعلماء، مع أنّه من المعقول على الأقل الاستئناس به والإفادة من النتائج العلمية.

أمّا المعاني الأيجابية فيمكن أن نذكر منها ما يلي:

١- تغيير الأحكام بتغيير الموضوعات.

٢- استنباط رأي الإسلام في الموضوعات المستحدثة أو الأفكار الحديثة كالتعددية والديمقراطية أو حتى بعض النظريات العلمية.

٣- المرونة في تطبيق الإسلام.

٤- التصرف الأفضل للحاكم الشرعي في منطقة المباحات أو حتى التكليفات وفقاً للمصلحة.

٥- مراعاة مقاصد الشريعة الكبرى والعدالة والحق والاتجاه الإنساني في الشريعة.

٦- مناقشة بعض المسلمات؛ كالأجماعات المعلّلة، وتوجيه النقد للفكر الديني الإسلامي.

٧- التفريق بين ما صدر عن المعصوم كإمام وما صدر عنه كحكم شرعي عام.

٨- ملاحظة الترابط بين الأحكام وعدم التركيز على البعض دون ملاحظة الآخر، والنظر

للإسلام كأطروحة.

- ٩- التأكد من عدم تدخّل الشروط النفسية والزمانية عند النقل بالمعنى، والتأكد من عدم وجود قرائن صارفة، وملاحظة دور الزمان والمكان في الأحكام.
- ١٠- إعمال الذوق الشرعي المسلّم به، والمعتمد على الأدلّة الأخرى في ترجيح النصوص.
- ١١- تأويل النصّ إذا خالف عقلاً أو إجماعاً أو سيرة قطعية معتبرة.
- ١٢- ملاحظة أقسام الأحكام الأولية والثانوية والسلطانية وتقديم ما حقّه التقديم. وغير ذلك.

حديث في ذكرى تكريم الشهيذة بنت الهدى (قدس سرها)

قبل أن أتحدّث عن أبعاد شخصيتها أود أن أعرّف بأن معلوماتي عن هذه المرأة الجليلة معلومات متواضعة والحقيقة أن كل الأخوات اللواتي كنّ يتصلن بهذه الشخصية كنّ يقدّمن أنفسهن بغير الاسم المعروف والمشهور إنما بالكنية، فمثلاً أم أحمد، أم فرقان، أم ابتهاج وما إلى ذلك، وبالتالي فمعلوماتي التي يمكن اكتسابها من هذه الأخوات قليلة وغير معروفة. ثم إن الذي كتب عن السيدة (بنت الهدى) قليل جداً، ولقد راجعت الموسوعة التي ألّفت عن الشهيد الصدر ومن خمسة أجزاء فرأيت من هذه الموسوعة المقاطع التي تشير إلى السيدة الشهيذة العلوية مما لا يروي الظماً عن حياتها وعن اتصالاتها، ولا أخفيكم سرّاً إنني وقفت عند بعض المقاطع وبكيت للمظلومية التي عاشتها هذه السيدة الجليلة، ولكن كل ذلك لا يكفي لإعطائي صورة كاملة عن هذه الشهيذة. ربما لم يكن عمرها يتجاوز قليلاً الخمسة والأربعين عاماً، لكنها قدّمت صورة رائعة للمرأة المسلمة المجاهدة البطلة.

إنها ربطت حياتها العملية بحياة أخيها واعتبرت حياتها جزءاً من حياة أخيها إلى النهاية، وهكذا شاء الله أن تستشهد معه في يوم واحد. ومما حدّثني فيه بعض الإخوة أن شهادتيهما تمّت على يدي المجرم صدام وفي نفس غرفته الإدارية قتلها معاً، وقيل قتلها بعد إعدام الشهيد الصدر! هذه المرأة المؤمنة كانت تدعو الله أن يجعلها حمّامة تتخلّص من هذا السجن وتنتقل لتواسي كل امرأة مفجوعة بزوجها وبأبيها وبأخيها وبأبنها...

ومن مناجاتها: (إلهي! إن تظافرت في حياتي طرق الشقاء فإن في طريقي إليك سعادة لا تضاهي). وهكذا هو الإنسان المؤمن إذ يتعلّق قلبه وضميره بالله تعالى مهما تعاضمت عليه الضغوط،

فنظرة، من الله إليه وبيت في الجنة في ظل رضوان من الله تعدل كل الحياة وكل ذخائر الفراغة وكل بهائمهم وكل عظمتهم.

كل هذه اللذة لا قيمة لها إزاء بيت في ظل الرضوان الإلهي: (ضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله).

هذه المرأة كانت تقول: إلهي! إن تظافرت في حياتي طرق الشقاء فإن في طريقي إليك سعادة لا تضاهي. إلهي! لقد صحوت من بعد غفوة لكي أنطلق في مسيرة النور نحو العطاء الإلهي. كلمات درية نقلت عن المرحومة الشهيذة.

ومن الأبعاد التي تذكر البعد الأدبي، الأدب الرسالي، وهو جانب معروف من أفراد هذا البيت، بيت الصدر الذي يحفل بالنوادير. كانت في صغرها تصدر مجلة عائلية توزعها بين العائلة وكأنها في سن الأربعين مكتملة في الذهن والشخصية.

ومما ينقل عنها إنها عندما كانت في العشرين أحدثت تحوّلاً كبيراً في الذهنية النسوية آنذاك، وفي الحادية والعشرين كانت تكتب مقالات في مجلة (الأصواء) ومما ينقل عنها أنها في الثالثة عشرة بدأت تنظّم الشعر الرسالي البناء، وإليكم بعض أبياتها لتعرفوا هذه النظرة.

تقول:

إسلامنا أنت الحبيب وكل صعب فيك سهل

وتخاطب البنت المؤمنة وتقول:

رجعية! إن قيل عنك فلا تبالي واصمدي قولي أنا بنت الرسالة من هداها أهتدي

شعرها شعر رائع في لفظه، رائع في معناه: لن أنثني

قسماً وإن مليء الطريق بما يعيق السير قدما

قسماً وإن جهد الزمان لكبي يثبّط في عزمنا

أو حاول السدّ الخؤون بأن يرش إليّ سهما

وتفاعلت شتى الظروف تكيّل ألاماً وهمّنا

فتراكمت سحب الهموم بأفق فكري فادلها

لن أنثني عـمـاً أروم
كـلـاً ولـن أدع الجهاد
وإن غدت قدماي تـدمي
فغـايـتي أغـلى وأسمى

أنا كنت أعلم أن درب
خال من الريحان ينشر
لكنني أقدمت أفقو السير
فلطالما كان المجاهد
ولطالما نصر الإله
فالحق يخلد في الوجود
سأضل أشدو باسم اسلامي
الحق بالأشواك حافل
عطره بين الجداول
في خطى والأوائـل
مفرداً بين الجحافل
جنوده وهم القلائل
وكل ما يعده زائل
وأنكر كل باطل

شعر رائع، شعرته سامية ومعناه أسمى وأعلى، أما في البعد التعليمي فهي بعد دراستها على يدي أخويها آية الله السيد إسماعيل الصدر والمرجع الكبير السيد محمد باقر الصدر عادت عالمة شاعرة مفكرة.

والعلم أحياناً لا ينسجم مع الشعر، لأن العلم يتطلب شخصية جادة، بينما الشعر يتطلب شخصية رومانسية خيالية أدبية.

أذكر بالمناسبة أن الشيخ الحرّ العاملي صاحب كتاب وسائل الشيعة - وهو الكتاب الذي لا بدّ أن يحضر لدى كل المراجع حينها يدرّسون درس الخارج - كان يقول:

علمي وشعري اقتتلا واصطلحا
علمي يـأبى أن أكون شاعراً
فأذعن الشعر لعلمي راغماً
شعري يرضى أن أكون عالماً

مع ذلك كانت هذه المرأة سامية في علمها وسامية في شعرها، وربّت جيلاً من النساء الداعيات المخلصات ووضعت أسس التشكّل النسوي الواعي في العراق واستفادت من شعرها، من قصصها ومن ترجمتها لبعض الكتب (ومنها ترجمتها لكتاب الشهيد المطهري عن الحجاب) في سبيل هذا الهدف.

البنات الصالحة.. الأم الصالحة

وكانت مدارس الزهراء من معاقل هذه المرأة الطاهرة في بغداد، في الكاظمية، في النجف، حيث كانت تديرها. وأذكر إنها لم تكن تحمل شهادة [دراسية]، وبالمناسبة تروي السيدة أم فرقان أنها التقت بالدكتورة بنت الشاطئ هذه السيدة المؤرّخة المفكّرة، وعندما رأته فكرها وإنتاجها، سألتها: من أية جامعة تخرّجت؟

أجابتها السيدة بنت الهدى: تخرّجت من جامعة البيت!

وينقل أن لها ما يقارب أحد عشر كتاباً، وهناك كتب لم تُطبع بعد. وكانت البنات يتدفّقن إلى مجلسها وهي تدير المجلس في فترة ما بعد الظهر.

وبالطبع فإن من أجمل الأحاديث الحديث عن بُعد شخصيتها الجهادي، هذه المرأة كانت تقول:

لا أريد أن أشيخ وأشيخ فيترك الدهر أثره عليّ

أريد أن أترك أثري على التاريخ وعلى الزمان

وهذه شخصية كبرى.

كانت تقول أيضاً: أنا سخرت نفسي للإسلام وأوقفت روعي للجهاد. والمعروف عنها أنها لم تتزوّج وكانت تقول بأني أرجح أن أخدم هذا الجيل وأبني جيلاً، ومن أجل الجهاد ما رأيناه في تلك الفترة التي أسّر فيها الشهيد الصدر لعشرة أشهر. البعثيون منعه الاتصال ولم يفسحوا المجال إلاّ للقليل من الطعام والغذاء ليصل إلى بيته.

ولقد كان البعث يخاف من أي اتصال بين الشهيد وهو قائد الحركة الإسلامية مع الحركة الإسلامية الضخمة في العراق، وهي التي أبقت الحضارة الإسلامية في العراق قويّة، وهي الآن لها الدور الكبير في دفع العمل الإسلامي إلى الأمام.

وما يذكر أنه يوم اعتقل الشهيد الصدر خرجت إلى الحرم وأعلنت هذا الاعتقال بالتكبير، فثارت الجماهير وضجّ الناس واضطّرت السلطة لإطلاق سراحه، رحمة الله عليها وحشرها الله تعالى مع الشهداء والصدّيقين، ووقفنا جميعاً.

العلامة السيد محمد تقي الحكيم قدوة فكرية في مجال التقريب

لقد كانت لحظات تتلمذي على آية الله السيد محمد تقي الحكيم من أمتع أيام حياتي العلمية، حيث توسّمت في سباحته الأستاذ الوقور، والعالم الكفوء، والقدرة المطمئنة في الردّ والإقناع، والمثابرة الدؤوب في التحقيق، والوعي الاجتماعي الفريد.

وأستطيع أن أوكد أنّه كان يشكّل إلى جانب إخوته من العلماء كالمرحوم العالم المظفّر والمرحوم الشهيد العظيم الصدر أحد أعمدة النهضة العلمية والاجتماعية للحوزة العلمية الرائدة في النجف الاشرف.

ولحسن الحظّ فقد وفّقت للاستماع والاستفادة منه من خلال بحوثه في كلية الفقه، كما وفقني الله تعالى للحضور في بحثه الاكاديمي (الخارج) وكان من أمتع البحوث وأعمقها.

والذي أود التركيز عليه هنا هو جانب التعادل العلمي الذي امتاز به، وأعني به: تحقيق التوازن بين الأصالة الأصولية والفقهية والعقيدية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وبين الانفتاح على آراء المذاهب الأخرى. وسأقتصر في هذا المقال على الجانب الفكري الأصولي ومن خلال كتاب السيد الأستاذ في «الأصول العامة للفقه المقارن» فقط .

الكتاب المذكور في مجمله محاولة تقريبية فكرية فريدة يقلّ نظيرها، بل يكاد ينعدم. وكم نودّ لو اقتضى العلماء الآخرون أثرها وتوسّعوا فيها، الأمر الذي لم يحدث بعد. لكننا سوف نقبّس نماذج من بحوثه لتبيّن ما ذكرناه من التوازن بين الأصالة والانفتاح، ونعرف آثاره التقريبية من خلال هذه النماذج.

أولاً: في مطلع البحوث يفصح عن هدفه من هذه البحوث حينما يذكر فوائد الفقه المقارن وتتلخّص في الأمور التالية:

أ- محاولة البلوغ إلى واقع الفقه الإسلامي.

ب- العمل على تطوير الدراسات الفقهية والأصولية.

ج- إشاعة الروح الموضوعية بين الباحثين، ومحاولة القضاء على مختلف النزعات العاطفية.

د- تضييق شقّة الخلاف بين المسلمين والحدّ من تأثير العوامل المفرّقة التي كان من أهمها وأقواها جهل علماء بعض المذاهب بأسس وركائز البعض الآخر، مما ترك المجال مفتوحاً أمام تسرّب الدعوات المغرضة في تشويه مفاهيم بعضهم والتقول عليهم بما لا يؤمنون به^١.

وهكذا نلاحظ روحاً تقريبية عالية هدفها الانفتاح على مختلف الآراء، والمنطقية في العرض، والعلمية في البحث والاستدلال، والسعي لتضييق الخلاف بين المسلمين. ويتجلّى هذا المعنى أيضاً حين يتحدّث عن أصول المقارنة، فيركّز على الروح الموضوعية «ونقصد منها هنا أن يكون المقارن مهيناً من وجهة نفسية للتحلّل من تأثير رواسبه، والخضوع لما تدعو إليه الحجة عند المقارنة، سواء وافق ما تدعو إليه ما يملكه من مسبقات أم خالفها» ويضيف: «إذا كان بهذا المستوى من القدرة على التحكم بعواطفه... كان أهلاً لأن يخوض الحديث»^٢.

ثانياً: دراسة أسباب الخلاف. وهي الأصل الثاني من أصول المقارنة.

فبعد أن أرجع ابن رشد في مقدمة كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد^٣ الخلاف إلى الصغريات، أي إلى الاختلاف في تنقيح الصغريات لحجية الظهور (أعني ظهور الكتاب والسنة) أو لحجية القياس، يؤكّد السيد الحكيم أنّ للخلاف في الكبريات أكبر أثراً من الخلاف في الصغريات، ويقصد به الخلاف في أصول الفقه ليكشف عن هدفه العام في الكتاب، وهو تضييق شقّة هذا الخلاف؛ تحقيقاً لما ذكره من قبل في التقريب بين المذاهب الفقهية.

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً هنا قلنا: إنّ هناك منشأ آخر لاختلاف نتائج البحوث الفقهية، وهو الاختلاف في ترتيب الأدلّة وكيفية الرجوع إليها، إذ يجد الباحث في بطون الكتب الفقهية الاختلاف الكثير بين الفقهاء، مع أنّ الواقع يقتضي الترتيب بينها، وهذه النقطة بالضبط درسها

١. أصول الفقه المقارن، ص ١٤.

٢. ن. م، ص ١٦.

٣. بداية المجتهد، ج ١ ص ٥ - ١٦.

السيد الحكيم في موضوع آخر بعد الحديث عن مصطلحي «الورود» و«الحكومة» وهما مصطلحان يختصّ بهما الفقه الإمامي دون غيره، وعلى ضوءهما يتم ترتيب الأدلة على النحو التالي:

أ- أدلة الطرق والأمارات (أدلة الواقع).

ب- أدلة الواقع التنزيلي كالأستصحاب.

ج- أدلة الوظيفة الشرعية.

د- أدلة الوظيفة العقلية^١.

ومتى ضمناً وحدة الترتيب في الرجوع إلى الأدلة ضمناً التقارب الكبير في النتائج. ثالثاً: موضوع التحريف: وشبهة التحريف في القرآن الكريم تعدّ من أكبر الشبهات التي تثار، لا في وجه حجّة الظواهر القرآنية فحسب، بل تستعمل كأداة ضخمة لطعن المذهب الإمامي بدعوى اتهامه به، وكتب الهمز واللمز هذه تزخر بتوجيه الاتهام والكلام المطوّل ضده.

ومن هنا نجد السيد الحكيم؛ يولي أكبر الاهتمام لهذه الشبهة، ويعالجها أروع علاج، فيبحث أولاً عن منشئها في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث، وما ورد في أصول الكافي من روايات، مؤكداً على أنّ المنشأ إنّما هو في كتب الفريقين معاً، ومعقّباً على ما قاله الشيخ أبو زهرة من أنّ ماجاء في الكافي هي وثيقة تكفير المرحوم الكليني، مؤكداً أنّ أسلوب التكفير أسلوب مرفوض، خصوصاً إذا كان من قبل العلماء، موضحاً أنّ مجرد التشكيك في هذا الموضوع لا يعدّ تشكيكاً في ضرورة من ضروريات الدين حتى يؤدي إلى الكفر، على أنّ مجرد رواية أحاديث النقص وعدم التعقيب عليها لا يدلّ على الوثوق بصدورها، بل لعلّ وضع الكليني لهذه الروايات في باب النوادر دليل على إنكارها بعد ماجاء في الرواية المرفوعة عنهم عليه السلام: «ودع الشاذّ النادر».

على أنّ الكليني نفسه روى الروايات العلاجية، والتي تأمر بعرض الروايات على كتاب الله (عز وجل) «فما وافق كتاب الله فخذوه وماخالف كتاب الله فردوه»^٢ وروايات النقص لا تنسجم مطلقاً مع الآية الشريفة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^٣.

١. أصول الفقه المقارن، ص ٩١ - ٩٢.

٢. أصول الكافي، هامش مرآة العقول ١ ص ٦.

٣. الحجر: ٩.

وهكذا يستمر في ردّ الشبهة منافحاً ومدافعاً بقوة يقول: «فرواية هذه الأحاديث في الشواذ النوادر من كتابه، وتعارضها في مروياته، ولزوم طرحها بالنسبة إلى منهجه الذي رسمه، وعدم التلازم بين الإيذان بالصدور - لو آمن بصدورها - وبين الإيذان بمضمونها، كلّ ذلك مما يوجب القطع بطرحه لهذه الأخبار وإيانه بعدم التحريف»^١.

وبعد أن يكمل دفاعه عن المرحوم الكليني - وهو من أجلة العلماء والغيارى على الدين - يعود إلى نفس الشبهة ليؤكد أنّها واردة على كتاب الصحاح والمسانيد ومستدرک الحاكم وكتر العمال وأمثالها. وإن رفع هذه الشبهة بمسألة نسخ التلاوة لا يجدي نفعاً، بل إنّ بعض المرويات لا ينسجم حتى مع نسخ التلاوة. وهنا يؤكد الأستاذ الحكيم أنّ نقل الروايات هي من طبيعة أيّ عمل موسوعي، وإنّ على المجتهدين بعد ذلك أن يفحصوا ويمحصوا.

ثم يركّز على نفس الشبهة معتبراً إياها شبهة في مقابل البديهة، وأنّ أخبار التحريف - مع تضارب مفاهيمها - لا تزيد على كونها أخبار آحاد، وهي لا تنهض على الوقوف أمام التواتر الموجب للقطع بأنّ هذا القرآن الذي بأيدينا هو القرآن الذي نزل على النبي ﷺ دون أن يزداد أو يتقص فيه. وهكذا يمضي في الاستدلال القوي القويم لينقل بعد ذلك أقوال العلماء كالشيخ الطوسي؛ والسيد المرتضى مما يؤكد أنّها شبهة لا غير.

وهكذا نجده؛ يبذل قصارى جهده وعلمه ليرفع عائناً كبيراً أمام وحدة المسلمين وتقارب آرائهم، وتحقيق التقارب بينها.

رابعاً: سنّة أهل البيت ﷺ وهذا الموضوع أيضاً يتصوره الكثيرون العائق الأكبر أمام تقارب المسلمين، باعتبار أنّه يعني إيجاد منيع آخر للشريعة في مقابل السنّة النبوية، وحيثنذ فمن الطبيعي أن يؤدي اختلاف المنابع إلى اختلاف النتائج.

إلا أنّ السيد الحكيم بمقتضى طول باعه يثبت العكس، ويؤكد أنّ الإيذان بسنّة أهل البيت ﷺ يعني تحكيم السنّة النبوية وتجليتها في المسير، مما يقلّب الاستنتاج الأنف رأساً على عقب. فقبل كلّ شيء يشير إلى الحوار الذي تمّ بين المرحوم السيد شرف الدين والمرحوم الشيخ البشري،

١. أصول الفقه المقارن، ص ٢١١.

حيث تم دفع الدور المتصور والقائل بأن كلام الأئمة لا يشكل حجّة على غيرهم إلا إذا ثبتت حججته، وأنه من السنّة، وقد دفع هذه الشبهة بأن ثبوت كونهم من الرواة الموثوقين يرفع شبهة الدور. ثم راح يستدلّ على عصمتهم وحجّية أقوالهم من الكتاب كما جاء في آية التطهير، ومن السنّة كما جاء في حديث الثقلين، ويدفع كلّ الشبهات المطروحة بأقوى الحجج والبراهين بما لا مزيد عليه أحياناً. وينتهي إلى أنّ حجّية سنّة أهل البيت ﷺ إنّما هو في الواقع تحكيم للسنّة النبوية، وتطبيق لأوامرها، خصوصاً وأنّ السنّة النبوية نفسها لم تجمع على عصره ﷺ وفيها الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، ثم إنّ المشكلة تتعقد بعده ﷺ عند كثرة الفتوح وانتشار الوضع. يقول: «وما دمنا نعلم أنّ السنّة لم تدوّن على عهد الرسول ﷺ وأنّ النبي ﷺ منزه عن التفريط برسالته، فلا بد أن نفترض جعل مرجع تحدّد لديه السنّة بكلّ خصائصها، وبهذا تتضح أهمية حديث الثقلين، وقيمة إرجاع الأمة إلى أهل البيت ﷺ فيه لأخذ الأحكام عنهم، كما تتضح أسرار تأكيده على الاقتداء بهم وجعلهم «سفن النجاة» تارة و«أماناً للامة» أخرى و«باب حطة» ثالثة وهكذا. ومما ينبغي ذكره هنا لتأكيد ما ذكره السيد الحكيم هو أنّ الرجوع إلى سنّة أهل البيت ﷺ هو في الواقع رجوع إلى سنّة رسول الله ﷺ لأنهم تلامذة الرسول، والمحكمون لشرعته، وحديثهم حديثه، وحينئذ يتحول هذا الفارق الموهوم إلى جسر للتفاهم والرجوع إلى الواقع والتقارب بين المسلمين. ولا أدلّ على ذلك من سعة المساحة المشتركة بين الفقه الإمامي والفقه السنّي حتى تصل إلى أكثر من ٩٠ بالمائة من الفقه بمجموعه، بل إنّ الروايات المشتركة بين الفريقين تشكّل أروع صورة للتقارب بين المضامين، بحيث تصبح الروايات المختلفة قليلة الحجم وضعيفة الأثر، خصوصاً على الصعيد الفقهي، ولهذا مجال مطوّل من الحديث.

خامساً: حول الأصول المختلف فيها.

ومن موارد الاختلاف الكبرى: الاختلاف حول القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وأمثالها، وقد تعرّض لها السيد الأستاذ بكلّ حكمة وموضوعية ودرسها بكلّ عمق، واستطاع من خلال دراسته أن يثبت حقيقتين كبيرتين:

الأولى: أصالة الموقف الإمامي.

الثانية: أن الهوة بين الموقفين ليست بهذا البعد الذي يتصوره البعض، بل قد تضيق هذه الهوة إلى الحد الذي يعود النزاع فيها لفظياً، ولو على مستوى بعض الاتجاهات.
وهذا ما سنلاحظه فيما يلي:

أ- القياس: وقد انتهى إلى أن تعريفه هو «مساواة فرع لأصله في علة حكمه الشرعي» وقد أكد أن هذا التعريف ليس محل الاعتراض المعروف على القياس، وإنما ينصب الاعتراض على تعريف آخر تم هجره، وهو «التماس العلل الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل». وقد أكد على أنهم أضافوا شروطاً في تعريف العلة، كأن تكون وصفاً ظاهراً، ومنضبهاً ومناسباً وأن لا يكون الوصف قاصراً على الأصل، وهذه الشروط قد تضيق شقة الخلاف.
ومن هنا فهو لا يصدر حكمه السريع على القياس، وإنما يؤكد على أن الحديث «حول حجية القياس متشعب جداً بتشعب أقوالهم وتباينها، وطبيعة البحث تدعونا إلى أن نقف منها موقفاً لا يخلو من صبر وأناة»^١.

وهو يؤكد على أن المنع عن العمل إنما ينصب على قسم من أقسام القياس لا غير، فإن المسالك لمعرفة العلة إن كانت مقطوعة أو قام على اعتبارها دليل قطعي فلا شك في الحجية، أما إذا كانت المسالك غير مقطوعة فهي التي يخالفها الشيعة، ولم تثبت الأدلة المطروحة عليها للنقد، وقد ناقشها لينتهي إلى أن جميع ما ذكره مثبتو القياس من الأدلة لا تنهض بإثبات الحجية له، فنبقى نحن والشك في حجيته، والشك في الحجية كافٍ للقطع بعدمها.

ب- الاستحسان: والبحث هنا يكاد يكون من أمتع البحوث التقريبية، إذ يثبت فيه الأستاذ أن الخلاف فيه يكاد ينعدم، فبعد استعراض تعاريفه يصل إلى أنها ترجع إلى أصول أربعة هي:
الأول: أن الاستحسان هو العمل بأقوى الدليلين، ولا خلاف فيه بين المذاهب.

الثاني: أن الاستحسان هو العمل بما يقتضيه العرف، وحيث يكون من صغريات مسألة العرف، وهو لا يكون حجة إلا إذا امتد إلى عصر المعصوم وأقر من قبله، وحيث يكون من تطبيقات كبرى حجة السنة.

١. أصول الفقه المقارن، ص ٣٢٠.

الثالث: الاستحسان الذي يرجع إلى الاستصلاح، ويأخذ حينئذ حكمه.

الرابع: الاستحسان كحالة نفسية لبعض المجتهدين، وحجّيته مقصورة على من يدعون القطع، ولا يشكل قاعدة محددة وأصلاً كسائر الأصول، وقد ناقش الأدلة المذكورة لحجّية هذا القسم الرابع وأبطلها جميعاً.

ج - المصالح المرسلّة: وقد اختلف في حجّيتها، فذهب مالك وأحمد إلى أنّ الاستصلاح طريق شرعي لاستنباط الحكم فيما لا نصّ فيه ولا إجماع، وغالى فيه الطوفي فاعتبره دليلاً أساسياً في السياسات الدنيوية والمعاملات، وقدمه على ما يعارضه من النصوص عند تعدّد الجمع. بينما ذهب الشافعي إلى أنّ من استصلح فقد شرّع كمن استحسن، والاستصلاح كالأستحسان متابعة للهوياً^١. وبعد استعراض الأقوال والأدلة يخلص الأستاذ إلى نتيجة مهمة هي: «إنّ تعاريف المصالح المرسلّة مختلفة، فبعضها ينصّ على استفادة المصلحة من النصوص والقواعد العامة... ومقتضى هذا النوع من التعاريف إلحاقها بالسنة... وأما على تعريفها الآخر فينحصر إدراكها بالعقل، والذي ينبغي أن يقال عنها: أنّها تختلف من حيث الحجّية باختلاف ذلك الإدراك... وبهذا يتضح أنّ الشيعة لا يقولون بالمصالح المرسلّة إلّا ما رجع منها إلى العقل على سبيل الجزم»^٢.

وهكذا نجد على هذا المستوى من البحث أنّ التلاقي بين الفريقين يتم في هذه المرحلة أيضاً وإن كان الاختلاف يتحقّق أحياناً في تشخيص المصاديق.

والذي أودّ أن أضيفه هنا هو أنّ العمل بالمصالح المرسلّة أمرٌ طبيعي في حدوده الطبيعية، وإنّ الذي تمّ تطبيقه في الدولة الإسلامية مثال على ذلك، ذلك أنّ المصالح المنظورة هنا هي المصالح العامة أو المصالح التي تعود إلى عموم الأفراد، وهي التي ينظر إليها القائلون بالمصلحة المرسلّة، ومع ذلك فإنّ الأمر يعود إلى الحاكم الشرعي الولي الذي أوكلت إليه رعاية مصالح الأمة، والحاكم عادة يشكل مجالس لتشخيص المصالح المذكورة.

والفرق بين هذا وما يبحث عنه في بحث المصالح يتلخّص في أمرين:

١. مصادر التشريع لخلاف، ص ٨١.

٢. أصول الفقه المقارن، ص ٤٠٤.

الأول: إيكال الأمر إلى الولي وأهل الخبرة العملية الذين يستشيرهم، وعدم الاقتصار على النظرة الفردية لهذا الفقيه أو ذاك.

الثاني: أن الأحكام القائمة على المصلحة تبقى مؤقتة بمقدار قيام المصلحة، ولا تشكل فتوى دائمة كما هو الحال لدى الفقهاء .

وقد نصّ الدستور الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية على إيجاد مجلس لتشخيص المصلحة يقوم على حلّ الخلاف بين مجلس الشورى الإسلامي ومجلس صيانة الدستور، كما يقوم ابتداءً بتشخيص المصالح العامة، وتقديم المشورة للقائد الولي في مجال إدارة شؤون الأمة.

د- فتح الذرائع وسدها: والذريعة هي «الوسيلة المفضية إلى الأحكام الخمسة» كما ينتهي إليه الأستاذ، وهذا البحث ليس من مختصات مذهب دون آخر.

فالفقه الإمامي يبحث عن مقدّمة الواجب ومقدّمة الحرام. ورغم الاختلاف في النتائج فإن البحث لا يعدّ غريباً على أيّ مذهب إسلامي. ولذا يقول: «والخلاصة أنّ جلّ من تعرّفنا عليهم من الأصوليين - شيعة وسنة - باستثناء بعض محقّقيهم من المتأخرين، هم من القائلين بفتح الذرائع وسدها وإن لم يتفقوا في حدود ما يأخذون منها وما يتركون»^١ وإن كان السيد الأستاذ يأخذ عليهم اعتبار ذلك أصلاً في مقابل بقية الأصول مع أنّها لا تعدو كونها من صغريات السنة أو العقل.

هـ- العرف، عندما يتم تشخيص مجالات العرف وهي:

١- ما يستكشف منه حكم شرعي فيما لا نصّ فيه مثل الاستصناع، بل ما يستكشف منه أصل من أصول الفقه كالاستصحاب.

٢- ما يرجع إليه لتشخيص بعض المفاهيم التي أوكل الشارع للعرف تحديدها كالاسراف.

٣- ما يستكشف منه مراد المتكلمين.

عندما يتم هذا التشخيص يتوضّح أنّ العرف لا يشكّل أصلاً من الأصول؛ لأنّه يرجع إلى السنة إمّا بالإقرار كما في المجال الأول أو بتشخيص المصاديق كما في المجالين الآخرين. وبهذا التوضيح لا يبقى مجال للخلاف المعتد به.

هذه بعض الأمثلة سقناها مما كتبه السيد الأستاذ الحكيم، لنبرز الدور الرائع الذي لعبته بحوثه في مسألة التقريب بين المذاهب، وهناك أمثلة أخرى - سواء في هذا الكتاب أو في غيره - تؤكد هذه الحقيقة. والواقع: أن فكرة التقريب بين المذاهب - وإن كانت قد طرحت مؤخراً كشعار اجتماعي لتحقيق قدر جيد من الوحدة الإسلامية - هي في الواقع واجب شرعي على كل الفقهاء، لتقضي الواقع والوصول إلى الحقيقة بروح موضوعية، والتخلّص من كثير من سوء الفهم والتهم التي تطلق على عواهنها لتضعيف هذا أو ذاك، أو حتى لتكفير بعض المسلمين، وهو أمرٌ خطير. هذا، وقد اطلعت مؤخراً على المقدمة الرائعة التي كتبها أستاذنا الحكيم لكتاب (القياس: حقيقته حجيته) لأستاذنا الآخر العلامة الدكتور مصطفى جمال الدين فرأيتها مقدمة تفصح كاملاً عن روحه التقريبية.

وقد جاء فيها - وهو يتحدث عن دوافع الاتجاه نحو الدراسات المقارنة - قوله: «أما الباعث الاجتماعي فنريد به ماتوفره هذه الدراسات المقارنة من عطاء في المجالات الاجتماعية، واهمها الحد من عوامل الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، لأن أهم هذه العوامل هو جهل بعضنا بأسس وركائز البعض الآخر كما يريد لها هو ويصدر عنها في مناحيه الفكرية والاعتقادية لا كما تعكسها كتب الخصوم في الرأي، إذ أن مثل هذه الكتب تدخلها عادة التزيدات في النقل، وتثقلها النقوض واللوازم البعيدة التي لا يؤمن بها من نسبت إليه، وربما كان له في دفعها وجهات نظر معينة لا تحفل بعرضها كتب الخلاف.

وقيمة الدراسات المقارنة - بما تتسم به من طابع الموضوعية والتجرد - تنبع من عدم الاكتفاء بهذه الكتب في استقراء الآراء ومحاكمتها، بل تلزم بالعود إلى المصادر الاصلية التي كتبت بأقلام أصحابها أو أقلام الموثقين من الاعلام إن لم يوجد لأصحاب الآراء كتب متداولة للتأكد من صحة نسبة هذه الآراء إليهم ولالتماس أدلتهم عليها من خلال ما يعرضونها منها تمهيداً لمحاكمتها. ومن خلال تجاربي الشخصية في هذا المجال وجدت أن أكثر الخلافات في المسائل الرئيسة قد تنحسر وتلاشى متى درست وفق هذا النهج، وبخاصة إذا عمد الباحث إلى وعي حقيقة ما يذهبون إليه. وقد رأيت في هذه الرسالة - نتيجة لالتزامها بهذا النهج - نماذج من انحسار الخلاف في مسائل مهمة من القياس كان يظن أنها علم على تمييز مذهب عن مذهب أو فكر عن فكر.

كما رأيت - وانا اكتب الأصول العامة- أن المعركة حول بعض هذه الأصول بين قسم من المذاهب كانت معركة فهم لما اصطلحوا عليه أكثر منها معركة اتجاه، فالنافون مثلاً لبعض الأصول كان ينصب كلامهم في نفيه على ادعاء إرادة معنى خاص منه، وهو بهذا المعنى يستحق النفي حتى في نظر المثبتين بينما ينصب كلام المثبتين على إرادة غير ذلك المعنى، وربما اتفق معهم النافون لو اطلعوا على واقع ما يريدون.

وما يتبقى من نقاط الخلاف مما لا يخضع لتلك الاعتبارات كان من الممكن أن يعرض ويحاكم بأسلوب علمي بعيداً عن وسائل المزايدات والتهريج بعد التأكيد على أن الاختلاف في المسائل النظرية أمر طبيعي بل يستحيل عادة أن لا يكون ما دامت العقول متفاوتة في قوة إدراكها، وما دامت وسائل الإدراك غير مقتصرة عليها، وهي خاضعة لعوامل واعتبارات أخرى يقع بها التفاوت عادة كعوامل الزمان والمكان، وشخصية الباحث ومزاجه الخاص.

والشيء غير الطبيعي أن تأخذ هذه الخلافات واقعاً عملياً يفرق الأخ عن أخيه.

اذكر اني تحدثت - وأنا أحضر المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية في الأزهر الشريف - إلى إخواني العلماء المؤتمرين في هذا الشأن، ومما قلته وأؤكد عليه الآن: إن الإنسان قد يتناقض مع نفسه أحياناً فهل يعتمد إلى نفسه فيهدمها لأنها ناقضته في بعض ما انتهى إليه سابقاً.

وامتنا - كما صاغها الإسلام وأراد لها أن تكون - أمة واحدة فلا يسوغ لنا بحال أن نتخذ من تناقضاتها سلماً لتفتيت هذه الوحدة والقضاء على مقوماتها الأساسية.

ثم قلت: أنا لا أدعو، في الواقع، إلى تذويب أهل السنة في الشيعة، أو الشيعة في أهل السنة، وإنما أدعو إلى أن ترتفع بخلافاتها إلى صعيد الفكر ونخضعها جميعاً إلى الاجتهاد المطلق الذي دعا مؤتمركم هذا إلى فتح أبوابه بعد أن ظلت مغلقة أمام الباحثين لعدة قرون، كما تبنى إخوانكم من الشيعة الإمامية فتحها، وما تزال مفتوحة لديهم حتى الآن.

والاجتهاد - كما نعلم جميعاً - يتسع صدره لعنصري الخطأ والصواب ويثاب صاحبه على كل حال. أما أن ننزل بهذه الخلافات إلى الواقع العملي فنفرق بها الأخ عن أخيه فهذا ما يعرض وحدة الأمة لأعظم الاخطار.

نعم هناك عقبات يمكن أن تقف امام الانطلاق إلى هذه الدراسات الاجتهادية المقارنة اهمها - فيما يتصل بالباحث المقارن - العامل النفسي.

ونريد به ما تخلفه مواجهة هذه الأفكار من آثار نفسية يصعب التحلل منها عادة، فالأفكار العلمية كانت تعرض في أكثر كتب القدماء وفقاً لمنهج الخلافين الذي يتسم بطابع الهجوم والدفاع، لأن الخلاف، كما ورد في تحديده لدى بعض الاعلام: «أما محجب يحفظ وضعاً شرعياً أو سائل يهدم ذلك» وربما اتخذ من وسائل الحفظ والهدم، سلاح اطلاق الالقاب بحساب أو بغير حساب على كل من يختلف معه، وبخاصة إذا كان من غير اعلام مذهبه، وما أكثر ما تجد امثال هذه الاقوال - أن هذا الرأي صادر من أهل الخلاف، أو الرفض، أو النصب، وربما يصل الأمر ببعضهم إلى التراشق بالقب الكفر، والشرك والارتداد بالإضافة إلى استعمالهم في عرض آراء مخالفيهم أساليب الهزاء والاستخفاف.

وهذا الأسلوب من البحث هو الذي ولد القطعية العلمية بين المدارس الفكرية التي اتسمت بها تلك المذاهب وبخاصة في عصورنا المتأخرة، وكان من نتائج هذه القطعية تأخر الكثير من العلماء عن متابعة ما يجد لدى غير أرباب مذهبه من أفكار تتسم بالاصالة والعمق، فصرنا نسمع مثلاً من يتساءل: أعند الإمامية أصول يستنبطون منها الاحكام؟! أو هل لدى أهل السنة كتب استدلالية في الفقه؟! وربما نسمعها من عالم يجلس لمناقشة رسالة جامعية يجد لدى صاحبها اعتماداً على رأي هذا المذهب أو ذاك ممن يخالفونه في الرأي.

فالباحث المقارن عندما يواجه ذلك كله يحتاج إلى الكثير من الصبر والمعاناة، حتى يهيء نفسه لتقبل التفكير الموضوعي في مسائل وشح أكثرها بأمثال هذه الأساليب الانفعالية، ملتمساً ما استطاع العذر لأصحابها، واضعاً امامه أن أكثر من وزعوا هذه الالقاب على غيرهم ممن يختلفون معهم في الرأي ما كانوا يصدرون عن الالتزام بمداليلها في مجالاتهم العلمية، ولا يرتبون عليها شيئاً مما ورد في لسان الشارع لها من آثار.

وحسبي أن أدعي اني لم أجد - في حدود تتبعي - من توقف من ترتيب أحكام الإسلام على غيره ممن اضفى عليهم تلكم الالقاب وكلماتهم في الفقه صريحاً بذلك:

وإدراك هذه الحقيقة مما ييسر على المقارن التحلل من تأثير تلك الأساليب الانفعالية على نفسه ويوفر له القدرة على تجريد أفكارها من اطرها العاطفية تمهيداً لدراستها دراسة موضوعية، ثم الحكم لها أو عليها حسبما يقتضيه الدليل وان خالف جملة مألديه من مسبقات.

ومن الحق أن نسجل هنا أن الدعوة إلى هذا النوع من الدراسات بدأت تسلك طريقها الواضحة إلى نفوس الكثير من الاعلام، وقد لمست أنا - شخصيا - اثر ذلك في أكثر المؤتمرات والندوات العلمية التي قدر لي أن احضرها، سواء ما عقد منها في البلاد العربية أم غيرها، وكان آخرها المؤتمر الذي دعت إليه المغرب للنظر في تأسيس اتحاد للجامعات الإسلامية وقد عقد في فاس وحضره ممثلون عن خمس وعشرين جامعة وكلية من مختلف انحاء العالم الإسلامي، وانبثقت عنه (جمعية اتحاد الجامعات الإسلامية) القائمة فعلا، وفي هذا المؤتمر الفت لجنة لدراسة مناهج هذه الجامعات من شهادات.

وقد رأت هذه اللجنة أن تنتزع من مجموع هذه المناهج منهجا تجعله أساسا للمعادلة وتطلب إلى الجامعات أن تكيف نفسها وفقا لمقتضياته.

وحين اقترحت أن تدخل ضمن مواد الدراسات المقارنة التي يجب أن يتوفر فيها عنصر الاستيعاب لجميع المذاهب والمدارس الفكرية في علوم الشريعة وشرحت ابعاد ما تحققه في المجالات العلمية والاجتماعية انبرى اعضاء اللجنة من عمداء واساتذة الكليات لتأييد الاقتراح واتخذ به قرار بالإجماع.

كما لمست أثر ذلك في جملة من الرسائل الجامعية التي قدر لي أن اشترك في مناقشتها سواء كان في معهد الدراسات الإسلامية العليا أم في كلية الآداب بجامعة بغداد ومنها هذه الرسالة التي تجلى فيها هذا النهج على أفضل صورة. «

العلامة مغنية فقهه واتجاهه التقريبي

كنت أودّ الحديث عن هذا العنوان في مجموع ما كتبه العلامة الكبير الشيخ محمد جواد مغنية، ولكنني فوجئت بأن كتاباً واحداً منها هو (الفقه على المذاهب الخمسة) لوحده استوعب مساحة كبيرة من الموضوع، جعلتني أركّز عليه ليكون الحلقة الأولى من دراسة أوسع، وإنه لأهل لتلك الدراسة، خصوصاً وأنّ بعض كتبه الأخر من مثل (فقه الإمام الصادق) يمتلك عمقاً وبحثاً أوسع في المجال الفقهي.

وسوف أركّز في القسم الأول من هذه الدراسة على شخصيته الفقهية كما تتجلى من استعراض هذا الكتاب بكلّ وضوح رغم أنّه لم يقصد أن يؤلّف كتاباً استدلالياً، بل أكد أنّه كان يريد في بدء الأمر أن يذكر مع كلّ قول من أقوال المذهب دليله الذي استند إليه صاحبه، ولكن أشير عليه أن يقتصر على ذكر الأقوال فقط تسهيلاً على الناس ورواجاً للكتاب، ولأنّ الكثير ممن درسوا الفقه يهتمون بالفتوى أكثر من اهتمامهم بالدليل، فكيف بغيرهم؟ ومن هنا فقد عزم على ترك التدليل إلا ما ندر (راجع المقدمة).

ومع هذا فقد أحصيت العشرات من الموارد التي تعرّض فيها للأدلة، وأبدى رأيه في كثير منها، وربما بشيء من التفصيل والتطويل، واستطلاع آراء المرجعيات الكبيرة، وربما عمداً إلى ذكر رسائله إليهم وأجوبتها. ومن هنا فإنّ الدارس يستطيع أن يستكشف شخصيته العلمية بوضوح.

القسم الأول: شخصيته الفقهية وبعض أبعادها

قلنا: إنّه رغم عزمه على عدم الاستدلال وإظهار الرأي، لجأ إليه في موارد عديدة: من قبيل:

١ - في مسألة صوت الأجنبية، وأنّه ليس بعورة ذكر أدلّة صاحب (جواهر الكلام) الشيخ النجفي من جريان السيرة، ومن خطبة الزهراء عليها السلام في المسجد وبناتها، ومحاطبة النساء للنبي

- والعلماء ومن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ حيث لم ينفه عن أصل القول (ص ٨٩ ط ٧).
- ٢- حول سهم المؤلفة قلوبهم من الزكاة، يفتي ببقاء هذا السهم، وأنه يعطى للمسلم وغيره شريطة أن يعود العطاء بالخير والمصلحة على الإسلام والمسلمين، ويقول: «لقد أعطى رسول الله ﷺ صفوان بن أمية وهو مشرك، كما أعطى ابا سفيان وأمثاله بعد أن اظهروا الإسلام» (ص ١٨٠).
- ٣- وحول عدم فورية وجوب الحج، يقول: «وهذا القول وإن ساعدت عليه الصناعة، لأن أحاديث الفور محل للنظر والنقاش، ولكنه يؤدي إلى التهاون... فالفورية أحفظ وأحوط» (ص ١٩٢).
- ٤- وحول اشتراط مرافقة المحرم للمرأة في سفر الحج وعدمه، يقول: «كان لهذا البحث وأمثاله وجه فيما سبق... أما اليوم فلا تترتب عليه أية ثمرة» (ص ١٩٣).
- ٥- وحول بدلية التيمم عن الغسل بعد أن بين الاختلاف، قال: «والحق المنع كما قالت الحنفية والمالكية؛ لأن هذا التيمم من العبادات وهي لا تشرع إلاً بدليل، ولا دليل» ويدخل في مناقشة للمرحوم السيد الحكيم في المستمسك، ويذكر أنه أرسل الملاحظة، واستلم جوابها (ص ٢١٢).
- ٦- وحول تشدد الفقهاء في مسألة البدء بالحجر الأسود بدقة يقول: «لقد جاءت هذه العبارة، وما إليها في كثير من كتب الفقه... وعلق عليها صاحب الجواهر بكلام طويل دل على اعتدال في الفطرة، وسلامة في الذوق». واقتطف منه بعضه حيث اعتبره من المستهجنات القبيحة التي تشبه أحوال المجانين، وقدر روي أن الرسول ﷺ طاف على راحلته، وراح يؤيده بأقوال باقي العلماء (ص ٢٣٤).
- ٧- وفي مسألة الجمع بين العمة و بنت أخيها قال: «واستدلوا بالآية ٢٤ من سورة النساء ﴿وَأَجَلٌ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾. فبعد أن عدت المحارم أباحت غيرهن، وهذه الإباحة تشمل الجمع بين العمة و بنت الأخ والحالة و بنت الأخت ...» (ص ٣١٠).
- ٨- وفي موضوع امتلاك البالغة الرشيدة أمرها، قال: «واستدلوا على ذلك بالقرآن: ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ وبالحدِيث عن ابن عباس عن النبي: «الأيام أحق بنفسها من وليها».. واستدلوا بالعقل.. وقد أحسن ابن القيم في قوله: «كيف يجوز للأب أن يزف ابنته بغير رضاها إلى من يريد هو، وهي من أكره الناس فيه وهو، ابغض شيء إليها، ومع هذا ينكحها إياه قهراً، ويجعلها أسيرة لديه..» (ص ٣٢٢).

٩- وفي شرط الكفاءة في الزواج، يقول: «ومهما يكن فإنَّ شرط الكفاءة في الزواج لا يتلاءم مع نص القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ومع مبادئ الإسلام «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» ومع سنّة الرسول.. لذلك رأينا جماعةً من كبار العلماء لا يشترطون الكفاءة (ص ٣٢٦).

١٠- وفي مسألة ولد الشبهة، يقول: «ومهما يكن فإنَّ أصول التشريع عند السنّة والشيعّة تستدعي عدم جواز الحكم على إنسان تولّد من ماء إنسان أنه ابن زنا متى أمكن حمله على أنه ابن شبهة....» (ص ٣٦٥).

وهكذا نجد في كثير من الموارد يستدلّ ويناقش بقوة (راجع مثلاً الصفحات: ٣٨٨، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٦، ٤١٦، ٤٨٤، ٥٩٢ وغيرها كثير).

وربما راح يذكر المصادر (راجع الصفحات: ١٤٢، ١٠٦، ١٨٨، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٨) وإن كان نقل الأقوال في الأعم يتمّ بلا ذكر لمصدر.

وقد يشير إلى تطابق بعض الآراء القديمة مع آراء علمية حديثة، كما جاء في نصّ عن الشعراي يبيّن للإمام أن يفرض ضرائب على أصحاب المعادن؛ للتقليل من خطرهم، حيث علّق عليه: «وهذا تعبير ثان عن النظرية الحديثة بأن رأس المال يؤدي بأصحابه إلى السيطرة على الحكم» (ص ١٨٨).

وقد يفصّل فيذكر رأي فقهاء عدّة من مذهب واحد (ص ٢٠٢، ٢٠٣).

وربما صحّح بعض ما نقله العلماء، فردّ على ما نقله الدكتور محمد يوسف موسى من أن الشيعة يشترطون الإشهاد في الزواج، وساوى بينهم وبين الحنفية والشافعية فقال: ولا مصدر لهذا القول (ص ٢٩٧) ورد على الشيخ الخفيف نسبة بطلان (اشتراط المرأة على زوجها أن لا يخرجها من بلدها) إلى الشيعة، واعتبره خلطاً بينه وبين ما يتنافى مع مقتضى العقد (ص ٣٠٢) وكذلك ردّ عليه في مسألة جواز طلاق السفية بإذن وليّه (ص ٤١١).

ونحن نجد أحياناً يدخل في عملية استدلال مفصّلة، كما في مسألة (ثبوت الزواج بالمعاشرة) ويأخذ في بيان الإشكالات وجوابها (ص ٣٠٤، ٣٥٠).

وقد يصف بعض الآراء بمخالفة البديهية، كما في من يشترطون استقبال عين الكعبة للقريب والبعيد على السواء (ص ٨٢) وكذلك في مسألة هدر الأضاحي، فقد ناقش المرحوم شلتوت على صفحات (رسالة الإسلام) واعترض عليها في بعض كتبه (ص ٢٧١) وهكذا نجد

يعترض على بعض المجتهدين في آرائهم في الحج قائلًا: «وصدّقوني أن عقلي لم يهضم مثل هذا من مجتهد مطلق رغم أنني قرأته وسمعتة» (ص ٢٨٢).

وفي مسألة (التبني) يقول: «وذكر الفقهاء في هذا الباب فروعاً كثيرة، منها ما لا يقبله عقل ولا شرع... ومنها ما لا نعلم مكانه من الصحة في نظر الطب...» (ص ٣٧١).

وربما استطرف بعض الأقوال كما في قول ابن أبي ليلى بمنع الإنسان عن الاغتسال عارياً لأن في الماء ساكناً (ص ٨٦) وكما في بعض الأقوال في أقل مدة الحمل (ص ٣٦٠) وكما في ما نقله في (المغني) عن بعض أنواع الولادة (ص ٥٢٨) وكذلك في ما نشرته الصحف عن الأوقاف المصرية (ص ٦٢٥).

ونلاحظ لدى المرحوم الشيخ جرأة أحياناً يقل نظيرها، وذلك كما في نقده للفقهاء في مسألة (أقل مدة الحمل) حيث يقول: «وبدئية أن هذا البحث من اختصاص الأطباء لا الفقهاء، وعليه لا يجب العمل بقولهم إذا خالف العيان والواقع؛ لأن منطق الواقع أقوى من منطقهم.. ونحن ننقل أقوال المذاهب... على أساس عدم وجوب التدين بشيء من ظاهر أقوالهم إذا خالفت الواقع» (ص ٣٦٠). وهو مستعد للتنازل عن رأي سابق له بعد أن ثبت له بطلانه، كما في مسألة تأجيل المهر لأقرب الأجلين (ص ٣٤٤).

بقي أن نشير إلى أنه ; كان وهو يستعرض الأقوال ينتقد وضعاً اجتماعياً منحرفاً كما في حالة الحجاب حيث يقول: «لقد تساهل الإسلام مع المسنّات ومشدّد على الشابات، ولكن جاء العمل على عكس ما أمر به القرآن الكريم، حيث نرى التبرّج والتهتك في الشابات، والتستر والتحفّظ من المسنّات فتساهلن فيما شدد الله وشددن فيما سهّل الله» (ص ٩١).

وهذا ما نجده أيضاً في مسألة تحويل قضية ثبوت الهلال الشرعية إلى قضية سياسية أو قضية فلكية، فبعد أن ناقش حجج الموافقين والمخالفين، أحل فيها برأيه القائل بأن الفلكيين إنما يعتمد عليهم إذا قطعوا بشيء وتكرّر صدقهم، وليس الأمر فعلاً كذلك» (ص ١٦٥).

وهو بالتالي يعمل على توضيح مداليل فعل الشريعة، ويدفع عنها الشبهات ويبين مغزى بعض الأحكام كما فعل أثناء عرضه لمعالجة الشريعة لمسألة الزنا، حيث ضيّقت الأمر فيه أيما تضيق، ولكنها ضيّقت أمر إثباته (ص ٣٦٨). كل ذلك في إطار روح سمحة بسيطة متعلّقة.

اتجاهه التقريبي

وهذا الاتجاه تلحظه في كل جوانب هذا الكتاب وبشكل رائع، ونحن هنا نشير إلى بعض هذه الجوانب:

١ - من المحاور التي يؤكد عليها التقريبون مسألة فتح باب الاجتهاد، وتفعيل دوره في مسألة مرونة الشريعة وحيويتها، بل والعمل على تجديدها وإحياء معالمها، وهذا أمر بدأ به العلامة، وأكد عليه في مقدمته، نافياً بذلك كل تعصب مقيت، مشيراً إلى كون هذه المذاهب حالة وليدة جديدة، تبقى طبيعية مادامت في إطار الانفتاح وحرية الاجتهاد، وتتحول إلى طغيان وتعصب إذا انغلقت على نفسها.

يقول في مقدمته للكتاب: «مادام الدين لا ينفك عن العقل بحال، فسدد باب الاجتهاد يكون سداً لباب الدين؛ لأن الاجتهاد معناه انطلاق، العقل وإفساح لاستنتاج الفروع من أصولها، فإذا حجرنا على العقل حجرنا على الدين بحكم التلازم بينهما، وبكلمة: إذا قلنا بسدد باب الاجتهاد يلزمنا واحد من أمرين لا ثالث لهما، ولا مناص من الالتزام بأحدهما، إما أن نسدد باب الدين، كما سدّنا باب الاجتهاد، وإما أن نقول: إن العقل لا يدعم الدين، ولا يقر حكماً من أحكامه؛ وكلاهما بعيد عن منطق الشرع والواقع.

إن «العالم» الذي يتعصب لمذهب، أي مذهب، هو أسوأ حالاً من الجاهل، ذلك لأنه لم يتعصب، والحال هذه، للدين والإسلام، وإنما تعصب للفرد، لصاحب المذهب بالذات مادام العقل لا يحتم متابعتة بالخصوص، كما أن مخالفة المذهب ليست مخالفة لواقع الإسلام وحقيقته، بل لصاحب المذهب، وبالأصح للصورة الذهنية التي تصورها عن الإسلام.

ومهما يكن؛ فكلنا يعلم أنه لم يكن في الصدر الأول مذاهب وفرق حين كان الإسلام صفواً من كل شائبة، وكان المسلمون في طليعة الأمم، ويعلم أيضاً علم اليقين أن هذه الفرق والمذاهب باعدت بين المسلمين، وأقامت بينهم حواجز وفواصل حالت دون قوتهم وسيرهم في سبيل واحدة لغاية واحدة، وأن المستعمرين وأعداء الإسلام وجدوا في هذه التفرقة خير الفرص للاستغلال وإثارة الفتن، وما سيطر الغرب على الشرق، وبلغ النهاية في استغلاله واستذلاله، إلا عن طريق الفرقة وتفتيت القوى.

لهذا كله نشأ في عقول القادة المخلصين فكرة توحيد الكلمة وتماسك الجماعة الإسلامية، والعمل لها بشتى الوسائل، ومن هذه الوسائل: فتح باب الاجتهاد، والقضاء على طغيان التبعية لمذهب معين. والمعروف بين المتفهمين أن السبب الموجب لسد باب الاجتهاد أن فتحه على مصراعيه أحدث اضطراباً وفوضى، حيث تناول إليه الصغار من طلاب العلم، وادّعا من ليس له بأهل، حتى استامه كل مفلس، أي: أن «المصلحين» داووا المرض بالقضاء على المريض، لا باستئصال الداء! هذا ما سطره الأولون في كتبهم، وردده المتأخرون على ألسنتهم من دون تحقيق وتمحيص، أما أنا فأميل إلى أن السبب الوحيد لسد باب الاجتهاد هو تخوّف الحاكم الظالم من حرية الرأي والقول على نفسه وعرشه، فاحتال وتذرع بحماية الدين - كما هي عادته - لينكل بكل حر يأبى التعاون مع دولته على الفسق والفجور.

ولا أدل على هذه الحقيقة من أن الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لم تبرز إلى الوجود إلا حين ضعفت السيطرة الأجنبية والرجعية، وما زال تحققها رهناً بتحقيق الحرية بأكمل معانيها. وبعد، فإن كلاً من التقليد والخضوع للطامعين رقّ وعبودية، وقد عشنا معها زمناً طويلاً، وأن لنا أن نعيش أحراراً في أفكارنا، كما نعيش أحراراً في بلادنا، وندع التقليد لمذهب خاص، وقول معين، ونختار من اجتهادات جميع المذاهب ما يتفق مع تطور الحياة، ويُسّر الشريعة. وإذا لم يكن التخيير من المذاهب اجتهاداً مطلقاً فإنه على كل حال ضرب من الاجتهاد.

على هذا الأساس، أساس التمهيد للتخيير من جميع المذاهب، عزمت على وضع هذا الكتاب ملخصاً فيه أقوال المذاهب الخمسة: الجعفري والحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي من مصادرها. وكما أن في أقوال المذاهب ما يتفق مع الحياة ويحقق العدالة، فإن فيها ما يجب ستره والإعراض عنه، لذا عرضت عن هذه صنّاً بكرامة الفقه والفقهاء.

والحقيقة هي أن المذهبية شكّلت غنى لهذه الأمة وحضارتها قبل أن تتحول إلى طائفية عمياء تنقل الصراع من مرحلة الصواب والخطأ إلى مرحلة الإيها والكفر.

ويلاحظ أن كل من قالوا بجواز التعبد بأيّ مذهب من المذاهب كالمرحوم مغنية والمرحوم شلتوت، لم يقصدوا التخيير بينها - كما تصوّر البعض - وإنما أردوا التأكيد على أن من ثبتت له أرجحية مذهب على آخر، كان له بل - وجب عليه - أن يتبع ذلك المذهب، ويبقى في الإطار الجامع للعمل بالإسلام كل أتباع المذاهب.

أمّا الاختلاف فهو حالة طبيعية موجودة في مجالات أخرى. يقول مثلاً (واختلاف أئمة الفقه في تفسير لفظة (الماء) في الآية [المائدة: ٨] يدلنا على أنه كاختلاف الأدباء في معنى بيت من الشعر، وعلماء اللغة في تفسير كلمة لغوية. إنه اختلاف في الفهم والاجتهاد، لا في الأصول والمصادر (ص ١٨).

٢- كما أنّ من أهم ما ينادى به التقريبيون وخصوصاً في العصر الحاضر هو الفقه المجمعي الذي يحضره الفقهاء من شتى المشارب، ويشارك فيه الخبراء المتخصصون ليشخصوا المواضيع بكلّ دقة، وتسوده الحرية والصراحة فتطرح الأدلة، وتشرح مختلف الظروف، ثم يختار الرأي الراجح وهو ما يجري في أمثال مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجده. ويبدو أنّ العلامة يشير لهذا النوع من الاجتهاد في بعض أقواله التي يؤكّد فيها على أن الفقه يجب أن يسير مع الحياة ويستوعب تغيراتها.

٣- وهو ; يعمل أحياناً على الجمع بين الأقوال، فبعد بيان آراء المذاهب في نية التيمّم قال: وخير وسيلة تجمع بين الأقوال أن يقصد التيمّم التقرب إلى الله بامثال الأمر المتعلّق بهذا التيمّم، سواء تعلّق الأمر به ابتداءً أم تولّد من الأمر بالصلاة ونموها من غايات التيمّم. (ص ٧٠). وربّما بذل جهداً ليؤكّد التشابه بين الإمامية وغيرهم في الاتفاق والاختلاف (ص ٢٩٥). وربّما حاول أن يبين علة الخلاف ليوضح اتفاهم على الأصل، يقول في مسألة التعصّب: والإمامية لا يثقون بحديث طاوس وينكرون نسبه إلى النبي ﷺ (ص ٥١٤) ومعنى هذا أنّ الاختلاف في هذه المسألة المهمة هو في قبول هذا الحديث أو رده، وإلّا فهم متفقون في الأصل.

٤- ويبدو أنّه كان يسعى لبيان سعة الاتفاق بين المذاهب في أبواب الفقه المتنوعة، مع بيان قلّة الموارد التي تنفرد بها المذاهب؛ كمسألة عدم الملازمة بين جواز الكشف عن البدن، وجواز النظر إليه، فهي ممّا قالت به الإمامية دون غيرهم (ص ٩٠).

كما انفردت بعدم صحة الصلاة في جلد غير مأكول اللحم (ص ٩٥) وعدم صحة قول (الصلاة خير من النوم) وإن وجد من الفقهاء من يوافقهم (ص ١٠٣) وانفراد الحنفية بعدم وجوب الجلوس بين السجدين (١١٢) وانفراد الإمامية بوجوب طواف النساء (ص ٢٣٠)، واشتراط الختان في الطائف (ص ٢٣٢) والاختلاف في العول والتعصّب... وكلّها موارد لا تشكل إلاّ نسبة صغيرة من مجموع الأحكام.

وإذا كانت المشتركة كثيرة، فطبيعي أن التعاون فيها، والإعذار في غيرها، سيؤدي إلى توحيد المواقف.

٥- أنه يسعى بين الحين والآخر لتأكيد اتفاق المذاهب على روايات مشتركة والاستدلال بها (ص ٢٩٤، ٣١٧ وغيرهما).

٦- ومن الأمور التي يؤكد عليها مسألة ضرورة أخذ آراء كل مذهب من كتبه، لا مما ينقل عنه، فيقول: «لا شيء أصدق في التعبير عن عقيدة أهل المذهب من كتبهم الدينية، بخاصة كتب الفقه والتشريع» (ص ٥٩٧). وهذا الأمر من شعارات التقريبيين.

٧- ومن الحقائق التاريخية التي يتغافلها البعض مسألة تعاون العلماء من الشيعة والسنة عبر التاريخ بشكل رائع لا نجد في واقعنا المعاصر، وهو أمر يؤكد المرحوم ويدعو إليه، إذ يقول: «كثيراً ما ينقل العلامة (يقصد به الحلّي) عبارات المغني بالحرف، ويعتمد عليه في معرفة أقوال المذاهب؟ وقد تبين لي من الاستقراء والتتبع أن التعاون العلمي بين السنة والشيعة فيما مضى كان أقوى بكثير مما عليه الآن، فالعلامة الحلّي ينقل في (التذكرة) أقوال المذاهب الأربعة والظاهرية وغيرهم من مذاهب السنة، وزين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني كان يدرس الفقه على المذاهب الخمسة في بعلبك ٩٥٣هـ، وقد درس في دمشق والأزهر وكذلك الشيخ علي بن عبد العال المعروف بالمحقق الثاني (الكركي) ت ٩٤٠هـ درس في الشام والأزهر.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تجرد علماء الإمامية، وطلبهم العلم للعلم، وعلى عملهم بالحديث الشريف: «الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيث وجدها»^١ كما يدل في الوقت نفسه على وحدة أصول الفقه ومصادره عند جميع المذاهب» (ص ٤٩٧) وسيأتي لنا حديث حول هذا الموضوع.

٧- ومما يؤكد عليه التقريبيون أن خطاب الإسلام وأحكامه يشمل كل المسلمين بشتى مذاهبهم، فلا معنى للتفريق فيها بين أتباع مذهب وآخر، فالتكافل والتعاون والحقوق المتبادلة والمسؤولية العامة تشمل الجميع، وهذا المعنى نجد التأكيد عليه من قبل المرحوم، ومثال ذلك ما ذكره في باب الإرث حيث قال: «المسلم يعمّ جميع أهل القبلة، فالسني يرث الشيعي، وبالعكس

١. بحار الأنوار، ج ٢ ص ١٠٥ ح ٦٦.

بنص الكتاب والسنة والإجماع، بل هذا الحكم من ضرورات الدين تماماً؛ كوجوب الصوم والصلاة» (ص ٤٩٩).

٨- ومن شعاراتهم رفض التطرف والغلو، والتأكيد على الاعتدال والوسطية. وهو أمر يؤكده الشيخ بكل قوة، يقول: «اتفق المسلمون كلمة واحدة على أن الغلاة مشركون ليسوا من الإسلام والمسلمين في شيء، ولكن الإمامية بوجه خاص تشددوا في أمر الغلاة إلى أقصى الحدود، فقد صرح علماء الإمامية في كتب العقائد والفقه بكفر الغلاة، من ذلك ما جاء في كتاب «شرح عقائد الصدوق» للشيخ المفيد (ص ٦٣ ط ١٣٧١هـ)، قال: «الغلاة المتظاهرون بالإسلام هم الذين نسبوا علياً أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الإلوهية والنبوة..» (ص ٥٠٢).

ويعلق على هذا القول بأنه يعتقد أن لا وجود اليوم لمن يؤله علياً وأولاده، وأنه زار بلاد العلويين المتهمين، فرآهم يقيمون شعائر الإسلام، ودعا إلى نفي هذه التهمة عنهم.

٩- وأخيراً فإننا نجد نجله يذكر كل الأئمة باحترام وحتى من يرفض الكثيرين من الشيعة سلوكه كابن شهاب الزهري يقول عنه «أنه فقيه تابعي جليل ومعروف أثنى عليه علماء السنة أجماع الثناء وأجله، ولقي عشرة من الصحابة» (ص ٥٢١).

وهذا أمر يدعو إليه التقريبيون، فضلاً عن ضرورة تجبّب التجريح والإهانة.

١٠- هذا والتقريب لا يعني التنازل وعدم الدفاع عن المذهب والحقيقة التاريخية في نظر أتباعه، فلا مانع من البحث العقائدي والتاريخي، ولكن في أكاديمي مناسب، وفي إطار من الأخوة والكلمة المحتشمة. ولذلك نجد العلامة مغنية غيوراً على مذهبه مدافعاً عنها، وهذا من قبيل:

(أ)- يقول في (ص ١٥٦): ١٢ قال الإمامية: من تعمّد الكذب على الله ورسوله، فحدّث أو كتب أن الله أو الرسول ﷺ قال كذا أو أمر به، وهو يعلم أنه كاذب في قوله، فقد فسد صومه، وعليه القضاء والكفارة. وبالجملة من فقهاءهم حيث أوجبوا على هذا الكاذب أن يكفّر بالجمع بين عتق الرقبة وصيام شهرين وإطعام ستين مسكيناً. ومن هذا يتبين معنا جهل أو تحامل من قال بأن الإمامية يجيزون الكذب على الله ورسوله.

(ب) - يقول (في صفحة - ٢٣٢): «جاء في كتاب الجواهر، وكتاب الحدائق، وكتاب المسالك، وكتاب العروة الوثقى وغيرها من فقه الإمامية: أن الجنب والحائض لا يجوز لهما المرور والاستطراق في المسجد الحرام ولا في مسجد الرسول الأكرم ﷺ فضلاً عن المكث، ويجوز لهما

أن يستطرقا ولا يمكن في غير الحرمين الشريفين من المساجد. وبهذا تعرف الدس والافتراء على الإمامية، حيث نسب إليهم أنهم يذهبون إلى الحرم الشريف بقصد تلويثه.

(ج)- وفي الصفحة ٣٦٦ يطرح مسألة الزواج الموقت (المتعة) وراح يدافع عنه، معتذراً بأنه سئل عن ذلك متوخياً الاختصار ما استطاع على أن يكون مجرد رأٍ وناقلاً لا مقرظاً ولا ناقداً. فهو يدع الحكم للقارئ وحده، ولا يقطع عليه الطريق بالتخطئة أو التصويب، وهذه الحالة تمثل قمة في الموضوعية. وهو يذكر في نهاية الفقرة: أن شيعة لبنان وسورية والعراق لا يستعملون المتعة على الرغم من إيمانهم بجوازها وإباحتها.

(د)- ذكر في الصفحة ٤١١ أن الرازي عبّر عن الطلاق حال الطهر لازم وإلا لا يكون سنياً... وهذا عين ما تقوله الإمامية، وأضاف: أن ابن قدامة في المغني ذكر أن طلاق البدعة هو أن يطلقها حائضاً أو في طهر أصابها فيه، ولكن إن فعل أثم ووقع في قول عامة أهل العلم، قال ابن المنذر وابن عبد البر: «لم يخالف في ذلك إلا أهل البدع والضلالة» وكأتهما يشيران إلى الإمامية، مما حرك الشيخ مغنية للقول: «وإذا كان أتباع أمر الله وسنة نبيه بدعة وضلالة، فينبغي أن يكون أتباع الشيطان سنة وهداية!» وأضاف: «ومهما يكن فإن السنة والشريعة قد اتفقوا على أن الإسلام قد نهي عن طلاق الزوجة البالغة المدخول بها غير الحامل إذا كانت غير طاهر أو في طهر واقعها فيه».

(ه)- قال في صفحة ٤١٤ «وبالتالي فإن الإمامية يضيّقون دائرة الطلاق، ويفرضون القيود الصارمة على المطلّق والمطلّقة، وصيغة الطلاق وشهوده، كلّ ذلك لأن الزواج عصمة ومودة ورحمة، وميثاق من الله... إذن لا يجوز بحال أن تنقضي هذه العصمة والمودة والرحمة، وهذا العهد والميثاق لا يكون إلا بعد أن نعلم علماً قاطعاً لكلّ شك بأنّ الشرع حلّ الزواج» وانتقد تساهل المذاهب الأخرى فيه.

(و)- في أول كتاب الوصايا: (ص ٤٦١): دافع عن منهج الشيعة في التساوي بين الذكور والإناث في استحقاق الإرث، ووزّعوا التركة على الوارثين بحسب مراتبهم الطبيعية، ورجّح هذا المنهج على غيره.

(ز)- ذكر دليلاً من كتاب الله يؤيد رأي الشيعة في التعصيب، وانتقد الشيخ أبا زهرة عندما ذكر أدلة الشيعة على التعصيب في كتابه (الميراث عند الجعفرية) ولم يشر إلى هذا الدليل من قريب ولا بعيد (ص ٥١٥).

(ح) - أشار في صفحة ٥٢١ إلى أن الشيخ أبا زهرة نقل في مسألة بطلان العول عن ابن شهاب الزهري: أن كلام ابن عباس في بطلانه جدير بالاتباع لولا فتوى الإمام العادل عمر بن الخطاب وعلق أبو زهرة عليه: «وإن الإمامية قد اختاروا رأي ابن عباس رضي الله عنهما، وإنه لفقّه جيد، كما أشار إلى ذلك ابن شهاب الزهري، وهو بحر العلم».

في الختام نكتفي بهذا المقدار، سائلين المولى له الرحمة والرضوان، ولكل العلماء والمفكرين إتباع منهج التقريب والوحدة، إنه هو السميع المجيب.

العلامة الشيخ العلايلي وسمو المعنى في سمو الذات

قرأت للشيخ العلايلي كتباً كلها رائعة، ولكنني ركزت على واحد منها يتناسب وهواي الوجداني، وهو كتاب (سمو المعنى في سمو الذات) أو (أشعة من حياة الحسين عليه السلام) تماماً كما ركزت على كتاب واحد من كتب العلامة مغنية وهو كتاب (الفقه على المذاهب الخمسة) وهو ما يتناسب أيضاً مع هواي التخصصي وهو (الفقه المقارن) وسأتحدث قليلاً عن الكتابين معاً بمناسبة تكريمهما معاً.

أما الشيخ العلايلي؛ فقد وجدته كعنوان كتابه سامياً في معانيه وتأملاته، عميقاً في تحليلاته، مؤمناً أشد الإيثار بقناعاته، ينسى ذاته وعالمه عندما يتحدث عن تأملاته في القرآن الكريم، وشخصية الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته السماوية، وشخصية الإمام علي والحسين عليهما السلام فتراه يهيم ويحلّق في آفاق العظمة الإنسانية التي ربّاهما الوحي حتى حوّلها إلى نماذج عليا تحرك الوجدان والتاريخ والإنسان في مسير الزمان.

وها أنا أشير إلى بعض ما استوقفني من أمور من خلال مطالعتي أراها جديرة بالملاحظة والتعمّق وهي:

أولاً: جمعه بين شخصية المؤرّخ الناقد الصريح الذي يقول ما توصل إليه تحليله العلمي دونها أية موارد، حتى لو خالف المتسالم عليه، ولكنه يحتفظ لنفسه بمساحة يتجلّى فيها إيمانه العقائدي متغلباً بها على ما انتهت إليه تحقيقاته التاريخية.

فهو يصدر أحكامه القاسية على شخصيات صحابية معروفة ومجلّلة من قبيل طلحة والزبير وأبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص (رضي الله عنهم) ناقلاً ما توصل إليه تحليله التاريخي دونها خشية، ولكنه يعلن بصراحة في مطاوي الكتاب ما يعتقد من نظرة تكريمية لعموم الصحابة الكرام ولا يرى في تحليلاته أية نقيصة في تجليلاته.

فيقول مثلاً بعدما انتهى من مقدمته المفصلة هذه مقدمة ليس من وكدي فيها أن أتناول صحابياً، وكلهم كرام بررة، وإنما الغرض منها أن نعرض ونفهم أسباب الانقلاب (ويقصد به الانقلاب الأموي) وعناصر الثورة الخطيرة في ذلك المحيط، ثم لا يسعنا إلا أن نشني على جميعهم، كما وقف أمير المؤمنين علي عليه السلام وأبنتهم وأرسل في كلٍّ منهم كلمة مشكورة، ودمعة حرى^١.

ويقول في ص ١٠٧: ولقد قدم النبي في نفسه نموذجاً للمسلم الكامل على تاريخ الإسلام ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^٢ ثم طبع أصحابه غراره، فجاءوا كما لو مروا تحت الطابع الواحد؛ لا يتفاوتون في أتهم معان مجسمة له، وفيهم الشاهد منه. وإذا تفاوتوا فبأشياء أخرى تمت إلى الطبيعة والعنصر؛ كالكتاب يجيء في أصناف من الورق وألوان من الحبر، ولكنه الكتاب نفسه، لا اختلاف فيه ولا عليه. ولقد جاء في كلام النبوة «الناس معادن»^٣.

ويقول في ص ٨٨: وبذلك تم للصحابة ما لم يتم لغيرهم، حينما كانوا هياكل توزع فيهم ما كان في الذات النبوية مجموعاً.

ثانياً: الروح العرفانية المتسامية العاشقة التي تطفح بالشوق حينما تدرس النماذج السامية. فهو يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم في ص ٨٧: نحن مع الحسين عليه السلام في دور نشأته، أمام النبوة في دور كمالها واستوائها، فقد ولد والنبي صلى الله عليه وسلم تتسامى به منازلها، وتتعالى به أبراجها، وبعبارة من صور المنظور كان النبي كالشعاع قبل الشمس يملأ جانباً من الفضاء ثم يذرّ قرنها حتى تتكوّر في عقابيل الأفق، فتنتظم الأفلاك، وتصل ما بين الآفاق بخيوط النور.

وعند حديثه عن علي عليه السلام يقول في ص ٥٤: علي بن أبي طالب مظهر فذّ من مظاهر التكمال الإنساني، ونموذج بارع من نماذج التفوق البشري، ومثال لبلوغ الاستعداد الكامن في النسم. وقد اجتمعت إليه أسباب عديدة من الطبيعة أو الفطرة، والوراثة والبيئة والتربية، حتى قدّمت فيه تلك الشخصية الكبيرة، والتقت عنده الطبيعة القابلة، بالتربية النبوية الفاضلة، والوراثة العريقة بالبيئة السامية. وكانت حقيقته، من وراء ذلك، تمده بها يتناهى به، حيث تقصر الأخيلة، وتنحسر التصورات.

١. ص ٨٦.

٢. الأحزاب ٣٣: ٢١.

٣. التحفة السنوية، ص ٤٢.

وفي أخصر عبارة، كان إنساناً ذا أنحاء، تلتئم بطانه على العالم والحكيم، والعبقري المحرر، والمفكر الجريء والمتشرع والخطيب، والمغامر والمجاهد. هذه أمة من الأبطال تحيي في بطل من الأمة، فلا عجب أن عددناه عنوان الكفاءة والبطولة العربية في كل التاريخ.

وعن الحسين عليه السلام يقول في ص ٨٨: ولقد كان النبي صلى الله عليه وآله يمدّه من وراء النبوة، ويغمره بالحب ويسقيه من نبعة الشعور، حتى يجيء حقاً قدسياً لمعنى قدسي، يقدم فيه المثالية العظمى التي ينشدها الإنسان بالجدّ، فلا يخوض منها إلا في السراب والآل... ويقول كلمته: «إني أحبه» منبهاً الماضي، ومسمعاً المستقبل، أو كأنها توجه بوجه صوب الأبدية في غير اعتبارات الزمن، ليعث بها كلمة أثرية أو موجة شعاعية تمر في كل جيل حتى تستقر في أعماق اللاهائية، ويسمعها من كل قبيل، من له في شعوره المرهف جهاز لاقط كالروان الدقيق. ويقصد بالروان: جهاز المذياع.

وعندما يقف أمام كتاب الله ينسى الشخصية التي يتحدث عنها ويغرق في أنوار القرآن فيقول في ص ٩٤ متحدثاً بشكل مفصل عن تعاليمه: والقرآن قبس علوي سبقت الإرادة، ليكون روحاً أخرى تتمم نقص الإنسان، وهو بعد ذلك تجربة من الغيب لسياسة النوع، وإعطاء صنف من الناس أكمل منهم، أو هو تربيت للملائك في هياكل البشر.

ثالثاً: ثقافته اللغوية العريقة وإشرافه على الكتب التاريخية واستيعابه لها، وقدرته الرائعة في الاستفادة من القرآن والحديث النبوي الشريف، وكذلك اطلاعه الواسع على آراء الغربيين، ومحاولة الاستفادة في تحليلاته التاريخية، وهؤلاء من أمثال: فإن فلوتن، وشارل سينيوبوس، والسنيور مازيني، ومونتسكيو، وماربين، والسيرمور وغيرهم. وكل ذلك يكشف عن علم واسع وثقافة حديثة جامعة.

رابعاً: ومما تجدر الإشارة إليه تلك الحرية التي يتمتع بها في قبول الآراء أو ردها حتى ولو كان في ذلك مخالفة للمشهور.

فهو يرفض أن يرجع عملية اغتيال الخليفة عمر رضي الله عنه إلى مجرد أحقاد فارسية لابي لؤلؤ كما هو المشهور لدى المؤرخين، وإنما يؤكد على كون فعلته تديراً من سيده المغيرة بن شعبه، ومؤامرة من الحزب الأموي لاسترجاع السلطة، والانقلاب على الإسلام.

كما يرفض ما يطرحه المستشرقون من أن سياسة الإمام علي عليه السلام كانت ضعيفة لا تنسجم مع تلك المرحلة.

وهو عندما يكون أمام رأيين في مسألة ما يختار بقوة الرأي الذي ينسجم معه، ففي مجال تفسير كلمة (حنيفاً) في الآية الشريفة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾^١ يقول في ص ١٠١: هذه الكلمة أي «حنيفاً» لم تتحققها اللغة، أو لم يتحققها الرواة، فهي غامضة كالغموض، وما أغمض من الشيء إلا نفسه، وما أوضح من الشيء إلا هو، ولكن جاءت بها الاستعمالات على أشكال، تأخذها بمعنى غير ما تثبت منه اللغة وتترك، ومن ثم ظن بعض مؤرخي اللغة بأنها إسلامية لا قبل لوجودها، وعلى كل فالذي نرى فيها أنها كلمة اشراقية تفيد، أدق معاني التقديس، وهي تجمع على معناها الاخلاص والاستشعار بالخشية، وتعلق القلب الدائم بالتنزيه.

وبعد هذا أكد أن المراد بالوجه ليس ما أشار إليه الزمخشري وأمثاله باعتباره من الجوارح، بل إن المراد هو ما أشار إليه المرتضى في أماليه، وهو القصد أو الذات أو النفس.

الشيخ فتحي يكن فكر وجهاد حتى النفس الأخير

لا أدري ماذا أقول وأنا أقف أمام عملاق الفكر، والجهاد والتضحية والصمود، والاحلاص والمقاومة، والتقريب والوحدة لأؤبته؟ أستسلم للواقع بكل مرارته وضغطه على المشاعر، أم أردد مع الشاعر قوله:

كذبوا لن يموت فكر خصيب وعلى كل خاطر منه طيب
وامتد مع الخيال لأضيف لوعة حبّ فأخاطبه:

أكذا ايها الحبيب الحبيب أكذا يخطف الشروق الغروب
نعم، إنها الدنيا ظاهر أنيق، وأسى عميق:

هي هذي الحياة غر لعوب طلعة حلوة وخد تريب
ثم كيف يطوي الموت جبلاً شامخاً يقهر الشموخ نفسه:

مقول ضارب وقلب ومهوى ومدى يقهر المحال رحيب
وفم صارخ وفكر غضوب أتراه ينال منه المغيب؟

هنيئاً لك! هذه الحياة المترعة بالصالحات، والعمل الحركي النشط لعشرات السنين لا يصاحبها كلل ولا ملل، ولا يقصر بها طول الطريق ووعورته، وقلة أهله، لأنه الأمل يجدوه، والإيمان بالنصر يمدّه بالثبات والعزيمة، ولأنه الوعي الكبير النافذ لعمق الحوادث، يمنحه التقدير الكامل لخطوات الطريق الرصينة القوية الركيّة، وللأرض تحت الكماة رحيب يزلزل ثهالنها.

ومما يميز هذه المسيرة الطويلة، أنها انطلقت من محضن مؤمن صارم بتقاليد الإسلام، منضبط بتعليماته، مترع بالقرآن والأدب والمعرفة التاريخية، معتزّ بروحه الجهادية التي افتخرت بها الفيحاء.

إنها مسيرة تنطلق على بركة الله، متبلورة من منبع إسلامي أصيل، فتحتضنها جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية في طرابلس العلم فترتبط بالأزهر الشريف، وتنشق معها المجموعة الجهادية الأولى وهي تضم نخبة من أنبل الشباب، ثم تأتي جماعة عباد الرحمن بيروت مشكلة ردة فعل على الجريمة الكبرى باحتلال فلسطين الحبيبة، ويستمر العمل الجهادي لتنضجه شخصية المرحوم مصطفى السباعي، ولتلتقي بشخصية المرحوم الهضيبي فتزيدها نضوجاً.. وهكذا تتوالى درجات العلى، وتعلو صرخات الخطيب الداعية من مسجد أبي سمراء، ثم لتتحول إلى مظاهرات عارمة ضد التفرعن الأميركي.

وهكذا يستمر العطاء فكراً نيراً وعملاً حركياً ودعماً للمقاومة الباسلة ضد الصهيونية دونها كلل أو خور أو انقطاع، وإذا بالكتب الثورية تملأ الآفاق: نحو حركة إسلامية عالمية، كيف ندعو إلى الإسلام، الاستيعاب في حياة الدعوة والدعاة، نحو صحوة إسلامية في مستوى العصر، المناهج التغييرية الإسلامية خلال القرن العشرين، الإسلام فكرة وحركة وانقلاب... وغيرها وغيرها كثير.

لقد كان الداعية فتحي يكن قائداً بكل معاني الكلمة، ووجهاً بارزاً من وجوه النهضة الإسلامية المعاصرة، وعنصراً فعالاً في حركة الصحوة الإسلامية، وهي أروع ظاهرة صحية في عصرنا. لقد قدّم بفكره وتجاربه الكثير الكثير لهذه الأمة، ووقف المواقف الصلبة والصعبة في دعم المقاومة الباسلة والجمهورية الإسلامية، وتحمل في سبيل الحق الكثير من العتب والعنت والشهامة.

العلامة فضل الله: الذي تجلت فيه خصائص الإنسان

فقدنا العلامة الإنسان، ففقدنا به مفكراً يصنعه عقل مبدع، ومتحرّفاً عاطفياً يقوده فكره، ومتحرّكاً كأجل ما تكون الحركة يقوده قلبه، ومتحسناً للواقع، بأروع ما يكون التحسس وأرهفه، تقوده إرادته الحرة المتمرّدة على كل قيد موهوم، أو عرف مصطنع، أو تقليد أعمى، أو ضغط ظالم أو صنمية متوارثة، أو انزوائية غير عرفية، فكأنه - بكل صدق - يحقق قولة الإمام علي عليه السلام - صوت العدالة الإنسانية - حينما حلل النفس والفطرة الإنسانية بما لا أجمل منه فقال: (العقول أئمة الأفكار، والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء)^١. وكأنه عليه السلام يريد أن يوسع من مفهوم الإمامة ليجعلها تجلياً عاماً لرحمانية الله التي انطلق منها هذا الكون وهذا الإنسان المسخر له الكون ليقراً الكون: بسم الله الرحمن الرحيم.

نعم المهم - أن يكون الإنسان إنساناً، ولكي نثبت ذلك يمكننا أن نرجع إلى حقيقة شاملة تؤكد أن الهدف من خلقة الإنسان لن يتحقق إلا إذا تجلت معالم الفطرة - وهي منظومة الخصائص الإنسانية - في حياته، وهو بالضبط ما أراده الدين وما سعت إليه الأنبياء كما يؤكد ذلك علي عليه السلام نفسه حين قال: (وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته)^٢.

وهنا أعود إلى سيدي العلامة فمن عرفه عرف فيه أنه كان مفكراً يهديه عقله إلى نظريات وأطروحات يفترضها أولاً، ويقيم عليها الدليل بروح اجتهادية - وهو المجتهد الحق الذي درس على العلماء الأفاضل في النجف من أمثال الأئمة الخوئي والحكيم والشاهروودي والحلي - فإذا تمت

١. بحار الأنوار ج ١، ص ٩٦.

٢. نهج البلاغة خط ١ ص ٤٢.

عملية الاستدلال تفاعل معها وآمن بها وراح يصرح بها بقوة دون أن يمنعه مانع أو يوقفه معارض، إنها حقيقة شهدناها في مختلف مواقفه التي أعلنها دون موارد. وسواء اتفقنا معه أم اختلفنا في الاستنتاج والاستنباط فإن علينا أن نُكبر ونُجل هذه الروح، لأنها المطلوب المفروض من الإنسان. المهم أنه كان أصيلاً في فكره، معتمداً على الدليل القوي، منظرًا بعيد النظر يصوغ فكره عاطفته، فتملاً عاطفته وجوده، وينطلق من هذا الجو كل سلوكه الحياتي، بإرادة قوية لا يقف أمامها شيء؛ فعلى الصعيد الفقهي توصل مثلاً إلى:

- حذف شرط الذكورة في مرجع التقليد في فتاواه، وعدم اعتبار الألفية فيه، وأجاز التبويض في التقليد، واعتمد قاعدة مساواة المرأة للرجل في الحقوق والواجبات، وأفتى بطهارة الإنسان عموماً، ولم يعتبر التدخين من المفطرات، وحرّم العادات المبتدعة في مراسم العزاء، واعتمد الحسابات الفلكية لتحديد بدايات الأشهر القمرية، إلى ما هنالك من فتاوى اجتهادية تتفق معه في كثير منها ولا تتفق في بعضها كما في مسألة تحديد ولاية الفقيه بقضايا الحسبة فقط في حين أن نفس منح الفقيه الولاية في أمور الحسبة بالإضافة إلى حصر القضاء والإفتاء به يؤهله - في رأينا - ليكون مصداقاً عرفياً لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^١. مما يؤدي للإيمان بولاية الفقيه والإطلاق في الطاعة، طبعاً مع شروط تذكر في محلها، وهي تحوّل المسألة من هذا العنوان إلى عنوان (اشتراط الفقه الاجتهادي في الحاكم الشرعي) وهو ما يمكن ادعاء إجماع المسلمين عليه.

وليس المهم أن تتفق معه أو نختلف وإنما المهم: الدقة في النظر واتباع الدليل، والواقعية في النظرة، والجرأة في اتخاذ الموقف،

وعلى الصعيد الفكري آمن بقضية الحوار أيما إيمان ودعا للحوار مع الغير - مهما كان - ولكنه حوار واع لا يفسح المجال للاستغلال مما ينحرف به عن دوره الأساس. وآمن بالتقريب بين المذاهب الإسلامية وعمل له بما يستطيع.

وله أفكاره الرائعة في هذا المجال فهو يعتبر (المذهبية) مجرد وجهة نظر في فهم الإسلام، ويدعو إلى إيجاد واقع تقريبي على صعيد الجماهير وعدم الاقتصار على النخبة، وأمثال ذلك. وإن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ليشرف بكونه على مدى عمره عضواً في المجلس الأعلى له، ومنظراً ونصيراً في كل المواقف، ذلك لأنه آمن بقوة بقضية الوحدة الإسلامية، وألف فيها كتباً ونذر لها حياته الشريفة.

أما في المجال السياسي فحدث عنه بكل قوة، واستعرض مواقفه المميّزة بالنظرة الصائبة والموقف الإستراتيجي، والصلابة والثبات رغم كل المؤامرات المعادية والتي تعرض لها مما أنتج أحياناً العشرات من الشهداء، والمئات من التهم والمواقف العدائية الظالمة حتى من المقربين إليه، ومن أولئك الذين لا تتوقع منها هذا الابتدال في الموقف.

لقد آمن بالصحوة الإسلامية في هذه الأمة ونظر لها في تأليفاته ومواقفه وخطبه، ودافع عنها، وزار الأقطار المختلفة وحضر المؤتمرات العالمية في الجزائر وإيران وأمريكا والغرب، وقد حضرت بعضها وشهدت مدى التوعية والتأثير الذي كان يحظى به. كما آمن بالحركة الإسلامية في كل مكان، ورآها أملاً في خلاص الأمة من وضعها البائس. وقد تجلّى ذلك في دعمه للحركة الإسلامية في العراق أيام سيطرة الشيوعيين والبعثيين، وبقي داعماً لها فكرياً وسياسياً وعملياً إلى نهاية حياته. لقد كان صاحب مدرسة حركية غدّت الكثيرين بالفكر الأصيل وكتابه (خطوات على طريق الإسلام) يبنى عن ذلك.

كما آمن بالثورة الإسلامية في إيران وقيادتها الرشيدة المتمثلة في الإمام الخميني الكبير رحمته الله وبعده الإمام الخامني (دام ظله) فنذر نفسه للدفاع عنها حتى آخر نفس. ولقد شهدت له مواقف كبيرة وتألماً عظيماً وحرصاً شديداً على دعم مسيرتها بما يقل أن يصدر من أحد الشخصيات الدينية أو الاجتماعية، وهذا ما شهد به الإمام الخامني في بيانه التأييني.

وآمن أيضاً بأن الاستكبار العالمي يتجسد اليوم في الغرب، وتقوده أمريكا قيادة شيطانية فبقي متقدماً سلوكها المستكبر، فاضحاً أساليبها، حتى أسلوب أوباما المنافق أحياناً والمعلن بالعداء أحياناً أخرى.

ومن جوانب حياته السياسية المميّزة موقفه من النظام الصهيوني الغاصب لفلسطين، فقد نظر إليه عدواً أكبر لهذه الأمة، ورصد كل تحركاته وفضح كل أساليبه، وعباً للجماهير العربية والمسلمة ضده. ولم يأل أي جهد في محاربتة. وهو ما يفسر رعايته المستمرة للمقاومة الإسلامية البطلة في

لبنان ليعتبر بحق الأب الروحي لها وليقول العلامة السيد حسن نصر الله قائد المقاومة: «لقد فقدنا اليوم أباً رحيماً ومرشداً حكيماً وكهفاً حصيناً وسنداً قوياً في كل المراحل».

والحقيقة اننا لا نستطيع أن نستوعب مختلف الأبعاد في شخصيته فهي واسعة، ولكن ينبغي أن نشير ولو بشكل سريع - بالإضافة لما سبق - إلى ما يلي:

أ - البعد التربوي لطلاب العلوم الدينية في الحوزات التي أنشأها من قبيل (المعهد الشرعي) بلبنان و(حوزة المرتضى) بسورية، وقد نشرت دراساته الفقهية المعمقة.

وقبل ذلك مارس التدريس في الحوزة النجفية العلمية الكبرى، وذلك لدورات من طلبة العلوم الدينية، وقد نقل أنه درّس (المكاسب) و(الرسائل) للشيخ الأعظم الأنصاري(قد)، و(مدارك الأحكام) للسيد العاملي(قد) لدورات تسع. كما كان يري جماهير الأمة عبر محاضراته القيمة في العراق ولبنان وسورية وإيران والجزائر وغيرها.

ب - البعد الأدبي فقد كان كاتباً أصيلاً وشاعراً مخلصاً استخدم إمكانياته في خدمة قضيته الإسلامية.

ح - البعد التفسيري فقد كتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم بأسلوب شيق. وقد امتاز تفسيره بالعصرية من حيث اللغة ومعالجة الواقع والجرأة في إبداء الرأي.

د - البعد العالمي ونقصد به النظرة الواسعة لكل البشرية والاهتمام بمشاكلها، وإبداء النظر فيها، وهو أمر أكدته القرآن الكريم وركّزه رسول الإنسانية محمد ﷺ بعد أعلن أنه (رحمة مهداة).

هـ - البعد الخيري حيث أنشأ الكثير من المشاريع الخيرية والتأهيلية؛ ومنها (جمعية المبرات الخيرية) التي تركت أثراً خيراً في مجالات رعاية الأيتام، وهي تحتضن اليوم الآلاف منهم. ومنها: مكتب الخدمات الاجتماعية. ومنها (معهد الهادي للاعاقبة السمعية والبصرية) وغير ذلك.

و - البعد الجماهيري إذ كان يعشق الجماهير ويعيش بينها حتى في أشد حالات المحنة حينما قصفت إسرائيل الضاحية وصيرتها حطاماً؛ لقد كان يؤم المصلين باستمرار، ويقرأ الدعاء مع الناس ويستقبل الصحافة باستمرار. وقد اهتم بقضايا المرأة كثيراً ودافع عن حقوقها، كما اهتم بقضايا الطفل والشباب وألّف كتباً في ذلك.

ز - البعد الثقافي وقد بدأه مبكراً فانتخب عضواً في جمعية منتدى النشر الشهيرة في النجف الاشرف، وأشرف على مجلة (الأضواء) مع المرحوم الشهيد الإمام الصدر(قد). وقد لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة الإسلامية وهكذا امتدت مسيرة التثقيف حين هاجر إلى لبنان.

ح - البعد التغييرى لقد خطط ; لإحداث التغيير فى مختلف المجالات كالمجال الحوزوى بما فى تربية الطلبة (التغييرىن، وإيجاد المرجعية العصرية الواعية (المؤسسة)، وتحلىص الفقه والأصول والتفسىر من التعقيدات التى أنتجها الخلط بين البحوث الفلسفية وهذه البحوث، مما أبعدنا عن الفهم العرفى المطلوب أحياناً.

أما التغيير فى مجال الأمة فقد أشرنا إلى بعض مناحيه.

ط - البعد الوطنى فقد بقى يناضل فى سبىل وحدة الشعب اللبنانى، وحل مشكلاته بأفكار أصيلة مرنة كان لها أكبر الأثر فى الساحة اللبنانىة التى شهدت أعظم الحوادث فى زمانه.

بعد هذا الحديث؛

أشعر حقيقةً بأنى لم أوفّه حقّه، وأنّى يمكن ذلك والرجلُ إنسان عصامى تناسقت أبعاد شخصيته الموسوعية فأتنتجت منظومة بديعة أو فقل: قصيدة إلهية، أو معزوفة طبعية جميلة يعجز اللسان أن يصف أبعادها.

لقد ترك رحيله فى قلوب الجماهير أسىً كبير، وفى قلبى لوعة حارقة. لا يعادلها إلا رحيل الأفاضل من أمثاله كالإمام الخمينى والإمام الصدر وآية الله المطهرى وأمثالهم (رحمهم الله تعالى).

فرحمه الله واسكنه الفسىح من جنانه و(إننا لله وإننا إليه راجعون)



المقالات
حول الوحدة والتقريب

فكرة عن الإستراتيجية المقترحة للتقريب ونصرها

تطرح في هذا المجال مصطلحات من قبيل:

١- رسالة المؤسسة أو الوزارة أو حتى الدولة في مجال معين

ويراد من ذلك تبيين سر تشكيّلها وفلسفة وجودها.

٢- الأهداف الرسمية

وتطلق على مجموعة الأهداف العليا والشعارات التي تمثل أبعاد رسالة المؤسسة بشكل عام

وغير قابل للتقدير.

٣- الآفاق المنظورة

وتعني الصورة التي تملكها المؤسسة عن نهاية مسيرة مشخصة خلال مدة مناسبة (تصل إلى

عشرين سنة - عادة أو أكثر) ويجب أن تتمتع بما يلي:

أ- أن تعكس ملامح الأهداف الرسمية بشكل أوضح وتوضح مستقبل المؤسسة

ب- أن يسهل تشخيصها ولو من خلال إعطائها أبعاداً محسوسة أو التمثيل لها بمثيلات سبق

تحقيقها أو غير ذلك.

ج- أن تمتلك جاذبية واسعة تستهوي العاملين في المؤسسة فكرياً وعاطفياً وتحقق مصالح كل

ذوي العلاقة

د- أن يكون تحقيقها ممكناً.

هـ- أن تمتلك خاصية صياغة الاتجاه فليس فيها ابهام .

و- أن تمتلك خاصية المرونة بحيث تستوعب مختلف الظروف.

ز- أن يسهل توضيحها وتركيزها في ذهن الآخرين.

وتترتب على امتلاك هذا التصور أهداف منها:

١- وضوح الاتجاه العام للمؤسسة مما يرفع الاختلاف في وجهات النظر بين المسؤولين فيها ويمهد للتخطيط والتصميم ويمنع الاختلاف في الاجابة على التساؤلات التي تنطرح باستمرار حول جدوى هذه الخطوة أو تلك. ذلك لأنها تحدد المسيرة في سؤال واحد: هل تنسجم هذه الخطوة مع هذه الآفاق أم لا؟

٢- حدوث الدافع بين العاملين وتنظيم حركتهم وجعلها في إطارها العام شريطه أن يتم تجسيد هذه الآفاق في نظرهم بشكل مولد للحوافز مما لا يحتاجون معه حتى المراقبين ومفتشين.

٣- إيجاد التنسيق بين مختلف النشاطات ذلك أن وجود هذه الآفاق تنقل أنظار المسؤولين من التوفيقات الفرعية إلى النجاح الجمعي، بحيث يصرفون النظر عن أي نشاط فرعي - حتى لو كان موفقاً على مستواه الخاص في سبيل تحقيق المصالح العامة للمؤسسة.

٤- الإستراتيجية:

قد تطلق الإستراتيجية على الأهداف الرسمية فقط، ولكن الاتجاه الذي نختاره والذي درجت عليه الإستراتيجيات الرسمية والمعروفة يجعلها تشمل مايلي:

- ١- مقدمة للتعريف بالمفاهيم والمصطلحات، ولشدة أهميتها تدخل كفصل أول.
 - ٢- تحديد رسالة المؤسسة.
 - ٣- تحديد أهدافها الرسمية.
 - ٤- تحديد آفاقها المنظورة.
 - ٥- تحديد مجالات عمل المؤسسة.
 - ٦- تحديد القيم والسياسات الحاكمة على المسيرة.
 - ٧- تحديد الأساليب والوسائل العامة لتحقيق الأهداف.
 - ٥- الأهداف المرحلية طويلة الأمد:
- وهي أهداف توضع لمسيرة خمسية - عادة - وتمتاز بوضوح أكبر وقياس أكثر دقةً لقرنها من التقدير الكمي الواقعي المدرك، الفعال القابل للتقسيم إلى دورات صغيرة وربما سنوية.
- ٦- الأهداف قصيرة المدى:
- وتكتشف من تعيين الأهداف السابقة وتحليلها وتكون عادة سنوية.
- ٧- البرنامج السنوي:

وهنا تتعين كل تفصيلات البرامج وميزانياتها والكادر اللازم فرداً فرداً بعد أن تكون التقديرات في المراحل السابقة إجمالية ويلاحظ:

- ١- إننا كلما سرنا من الكل إلى الجزء ازداد الوضوح إلى أن يصل إلى ما يقرب من المحسوس
 - ٢- إن الإنسان المخطط قد يطوي هذه المراحل بسرعة ودونها انتباه. ولكن تفصيلها يوقفنا على نقاط الخلل في كثير من الأحيان وهكذا كتب علم المنطق قديماً.
- كانت هذه فكرة لازمة للوصول إلى المطلوب.

نموذج إسلامي

وإذا شئنا أن نستقي من النصوص والأحكام الإسلامية مثلاً يحتذى به قلنا:
لنركز مثلاً على الجانب الاقتصادي في المجتمع الإسلامي؛ فإن الرسالة التي تضعها النصوص على عاتق الرسل وولاية الأمر هي إقامة المجتمع العادل.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^١ فمن أهداف الرسل إقامة العدالة الاجتماعية. ويمكن على نفس الضوء أن نكتشف أن الأهداف الرسمية تتمثل في نقطتين أساسيتين هما: تحقيق التكافل وضمان التوازن بين مستويات المعيشة وعلى ضوء هذه الأهداف يمكن تصوير الأفق المنظور كما يلي: (الوصول إلى مجتمع: يعمل بما يستطيع على تنمية الإنتاج.

وفي مجال التوزيع:

- ١- يكفل لكل الأفراد حاجاتهم الضرورية والطبيعية.
 - ٢- يسوده نوع من التعادل في مستوى العيش.
- ويحمل هذا الأفق كل الخصائص اللازمة: فهو أفق يعكس الأهداف الرسمية، ويسهل تشخيصه لأنه يملك أبعاداً محسوسة، كما أنه هدف جذاب، ويمكن التحقق. وله قدرة التوجيه، وفيه خاصية المرونة، بالإضافة لسهولة توضيحه للآخرين.
- ولكي يتم تحقيق هذه الأهداف يجب تطبيق سياسات معينة من قبيل:

- ١- العمل الجاد لدفع كل الطاقات نحو العمل، وتوفير مجالاته وأدواته ومقدماته، وتنمية القدرات العلمية اللازمة.
- ٢- السعي نحو محو كل أنماط التبذير والإسراف والحيلولة دون إضاعة الثروات الإنسانية والحيوانية والطبيعية الأخرى، ومنها امتلاك مستويات عالية من العيش المترف.
- ٣- دعم الأفراد العاجزين للوصول إلى خط (الغنى) - كما تعبر النصوص الإسلامية - عبر رفع مستوى التأمين الاجتماعي الشامل وقد وفر الإسلام الإمكانات الطبيعية والتشريعية اللازمة. وعلى أساس ذلك تنسق أهداف مرحلية طويلة المدى وقصيرتها وتنظم خطة خمسية وبعدها خطط سنوية واقعية.

نبذة عن محاولات وتجارب سابقة لتنظيم إستراتيجية للتقريب بين المذاهب الإسلامية

وهنا نجد من اللازم استعراض التجارب السابقة لما فيها من ثراء وأثر على تجربتنا الحالية:

١- التجربة الأولى: دار التقريب في القاهرة

ويلمح المرء الكثير من المعالم في هذه التجربة الرائدة وإن لم تكن خطوط الإستراتيجية واضحة تماماً. فالبيان الأول الذي صدر في العدد الأول من مجلة رسالة الإسلام بتوقيع العلامة الشيخ عبدالمجيد سليم رئيس لجنة الإفتاء في الأزهر الشريف تحدث عن الأسس التي يقوم عليها التقريب وأنه لا مجال للخلاف في الأحكام الثابتة وإنما يسمح بالاجتهاد في الأحكام الاجتهادية، فهو أمر مقبول شرعاً.

كما تحدث عن تحول الخلاف الطبيعي إلى عصبية جامدة أدت إلى سفك الدماء ومزقت الأمة وهو ما كان يخشى منه الرسول ﷺ وهو بالتالي يشكر الله على أن جعله يشهد عصر التآلف بين أتباع المذاهب الأربعة ويدعوه تعالى أن يشهده عصر التآلف بين طوائف المسلمين.

وهي أمور اتفق معه فيها العلامة كاشف الغطاء في مقال علق فيه على البيان الآنف مع شيء من التفصيل في أهم قضية خلافية وهي (الإمامة).

وهكذا نجد الشيخ المازندراني - من علماء إيران - يطرح نفس المسألة ولا يراها موجبة للشقاق

وكأنه كان يركز على القاعدة الذهبية (نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه). وهكذا نجد أول بيان لجماعة التقريب أيضاً يركز على كون (القرآن والسنة) أساسين للإسلام في رأي كل المسلمين، وانفتاح باب الحرية للبحث والاجتهاد فازدهر الفقه، ولكن رياح التعصب مزقت الأمة فدخلت مرحلة الركود. ولعلنا نجد في ما جاء في المادة الثانية من القانون الأساسي لجماعة التقريب بعض الأهداف الرسمية إذ جاء فيها:

١- لزوم العمل على جمع كلمة أرباب المذاهب الإسلامية

٢- نشر المبادئ الإسلامية باللغات المختلفة

٣- السعي لحل النزاعات بين الشعوب والطوائف الإسلامية.

وترددت في كلماتهم لفظة (رسالة التقريب) وراحوا يسعون لتوضيح معالم التقريب وأبعاده عن فكرة دمج المذاهب أو التبشير وغير ذلك^١ وواضح إننا لا نتوقع إستراتيجية متكاملة في هذه المرحلة المبكرة.

٢- الميثاق التأسيسي للعلامة شمس الدين

وبعد أن يشير في مقدمته إلى التجربة الرائدة في القاهرة، وإلى تجربة العلاقات التي أرساها المرحوم البنا مع علماء الشيعة، يتحدث عن خطاب الوحدة في العقيدية والشريعة ثم يؤكد أن الدعوة إلى حذف الآخر دعوة غير طبيعية ولا تخدم عملية الوحدة. ثم أنه يؤكد اننا يجب أن نستهدف تحقيق التقريب بين كل المذاهب الإسلامية على عزار ما تم من تقريب بين المذاهب الأشعرية ويعتبر ذلك أحد الأهداف الكبرى، وهو في الواقع يمثل تصوراً للأفق منظور محسوس. ومن السياسات التي يطرحها موضوع منع التبشير داخل الإسلام وحمل أتباع مذهب على ترك مذهبهم واتباع الآخر بالأسلوب التبشيري ولأمانع من عمليات الاغناء والاضافات والتكامل.

١. هناك مجموعة من الكتب تشير إلى هذه التجربة منها: دعوة التقريب: اصدار المجلس الأعلى، ملف التقريب للأستاذ الدكتور محمد علي آدرشيب. ويمكن مراجعة أعداد مجلة رسالة الإسلام التي أعاد طبعها المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

كما يدعو للانفتاح الفقهي على مستوى الدراسة والاجتهاد عبر انشاء هيئة لقضايا الوحدة والتقريب وإصدار مجلة عالمية بلغات حية.

ثم يؤكد الميثاق على ضرورة العمل على قبول الآخر عبر القيام بما سمي بعملية الحوار بين الأديان والحضارات. كما يدعو لحل الخلافات السياسية ذات الجذور الطائفية والفتاوى التعصبية. ويدعو إلى علم كلام جديد على أساس اعتبار الحقائق التالية:

- ١- إن الوحدة هي من حقائق العقيدة.
 - ٢- التركيز على الأثر العملي لأصول الدين.
 - ٣- إن الدعوة إلى الوحدة لا تعني إلغاء المذاهب أو دمجها أو التلفيق بينها، بل تعني الارتكاز إلى الثوابت العامة المشتركة في العقيدة والشريعة.
 - ٤- إن الخلافات بين السنة والشيعة هي من طبيعة الخلافات بين مذاهب أهل السنة نفسها.
 - ٥- اعتماد الدراسات المقارنة في مختلف المجالات (القرآنية، وبحوث السنة).
 - ٦- إن الخلافات السياسية للحاكمين سببت الخلافات المذهبية فيجب نفي التوجهات السياسية من الهيكل المعرفي الإسلامي.
- وبعد هذا يؤكد على أن الوحدة لا تعني محو الكيانات الخاصة، فلا مانع من التعددية السياسية والتنظيمية ويعتبر ذلك من منهج أهل البيت عليهم السلام.
- وفي نفس السياق يقدم تفسيراً آخر للتقية معتبراً إياها إحدى المحاولات العملية التي بذلوها من أجل المحافظة على الوحدة.
- ثم يعتمد الأسس التالية أساساً للميثاق:
- أولاً: الثوابت الكبرى في الإسلام توحد المسلمين ويتمثل فيها كيان الأمة.
 - ثانياً: التمدد ظاهرة طبيعية ولا يعتبر تمزقاً، والمذاهب تتمتع بالشرعية الكاملة من دون اعتبار لكونها تشكل أكثرية أو أقلية، ويجب احترام عقائدها وفهمها.
 - ثالثاً: إن المرجع في فهم المذهب هو علماءه وكتبه المعتمدة، وليس الآراء الشاذة منه أو ما يقوله عنه الآخرون.
 - رابعاً: تحريم التبشير داخل الإسلام، ولا مانع من الانتقال الفردي من مذهب لآخر بحسب القناعات ويجب احترامها.

وهنا يدعو لتعزيز حركة فتح باب الاجتهاد مع الإشارة إلى نوعين من الاجتهاد أحدهما يلبي حاجة أتباع المذهب، والآخر يلبي حاجة الأمة. تقوم به مجامع فكرية وعلمية. ويشير هنا إلى دعوة الإمام البروجدي للتركيز علي الجانب المرجعي العلمي لاهل البيت عليه السلام وتأجيل البحث عن الجانب السياسي التاريخي.

خامساً: عدم اعتبار الحالة الأقلية والأكثرية، ويركز هنا على طبيعة الاتجاه الوجدوي لدى المذهب الإمامي^١ ونلاحظ هنا وضوحاً أكبر وتنسيقاً أوسع وجرأة في الطرح وتحديد المصطلحات.

٣- تجربة مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية

حيث دعت بشخص رئيسها المرحوم حجة الإسلام السيد عبدالمجيد الخوئي إلى مؤتمر عقد في دمشق في ١٠/١٢/١٩٩٩ م أي في الأيام الاخيرة من القرن العشرين (٢٣ ذي الحجة ١٤٢٠هـ)، ركز على قضية إستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية وشارك فيه عدد من علماء المذاهب ومفكرها وعدد من المراكز والحواضر العلمية في العالم الإسلامي وخارجه، وإذا تجاوزنا كلمات الافتتاح والترحيب التي ركزت على اللقاء والتقارب والوحدة فإننا نجد المحاضرات ركزت على:

- ١- أدب الحوار
- ٢- احتواء الأزمات المذهبية
- ٣- ثقافة التقريب
- ٤- الدراسات المقارنة
- ٥- أهمية الاجتهاد
- ٦- دور المؤسسات في عملية التقريب
- ٧- ضوابط النقد العلمي
- ٨- إستراتيجية التقريب
- ٩- خلفيات الخلافات بين المسلمين

١. مجلة رسالة التقريب: العدد ٣٣، ص ١٧٧

- ١٠- مظاهر الفرقة بين المسلمين
 - ١١- الخطط العملية لرأب الصدع
 - ١٢- فكرة الإسلام بلا مذاهب
 - ١٣- ضرورة التقريب
 - واكتفى البيان الختامي بالدعوة الى:
 - ١- دعوة المنظمات والمؤسسات للعمل على تحقيق التقريب
 - ٢- تعميم ثقافة التقريب
 - ٣- العمل على إصدار الكتب والمنشورات الدورية
 - ٤- استخدام الأجهزة الإعلامية
 - ٥- دعوة وزارات التربية والتعليم إلى اعتماد ثقافة التقريب
 - ٦- الطلب من المنظمات الثقافية لتقوم بتنظيم اللقاءات التقريرية
 - ٧- الدعوة للتأكيد عليها في خطب الجمعة والدروس الدينية
 - ٨- دعوة المؤلفين لدعم تأجيح الخلافات
 - ٩- تيسير حركة الكتاب بين الدول الإسلامية
- ورغم ما طرح في المؤتمر من بحوث قيمة والإشارة إلى بعض أبعاد الإستراتيجية، إلا أننا لا نلمح تقدماً على هذا الصعيد إلا نادراً وهذا المعنى لا يعني عدم تقديرنا لهذا الجهد المبارك.

٤- تجربة الإيسيسكو العلمية:

- وتعد الإيسيسكو أهم منظمة إسلامية اهتمت بالتقريب هدفاً إستراتيجياً وذلك لأنها الجبهة المختصة بهذا الجانب ولاهتمام مديرها بذلك، خصوصاً الأستاذ الدكتور التويجري الذي قادها إلى آفاق واسعة. وقد قامت الإيسيسكو بوضع إستراتيجيات منها:
- إستراتيجية تطوير التربية الإسلامية في البلاد الإسلامية، عام ١٩٨٨.
 - الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي ١٩٩١
 - إستراتيجية تطوير العلوم والتكنولوجيا في البلدان الإسلامية، ١٩٩٧
 - إستراتيجية العمل الثقافي في الغرب، ٢٠٠٠
 - إستراتيجية الاستفادة من العقول المهاجرة في الغرب، عام ٢٠٠٢م

كما اهتمت بقضية التقريب بين المذاهب الإسلامية، فعقدت ندوتين احدهما عام ١٩٩١ والثانية عام ١٩٩٦ وعهدت إلى فريق من العملاء والمتخصصين بوضع مشروع (إستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية) ثم قدمته إلى مؤتمر وزراء الخارجية في الدول الإسلامية في دورة طهران (الدورة الثلاثين عام ٢٠٠٣) فتمت الموافقة عليه، ثم قدم إلى مؤتمر القمة الإسلامية العاشر في بوتراجايا - ماليزيا فوافق عليه.

وهذه جهود جبارة مشكورة حقاً وقد بدأت بمقدمة ركزت على:

١- شروط سلامة إستراتيجية التقريب وهي: حسن النية، والحوار القائم على اسس منطقية، والاستعانة بالخبراء وتبني الحكومات والعلماء لهذه الدعوة، وإسهام المؤسسات في التطبيق.

٢- الأسس الفكرية للتقريب وفي مقدمتها:

أ- نقاء الشريعة من الاختلافات الفكرية.

ب- كثرة الأحكام التشريعية التي تجمع المذاهب وتوحيدها.

ج- الثروة الفقهية الواسعة الناتجة من تعدد الاجتهادات التي أدت إلى تدوين الحديث وجمع الأدلة وتوسيع قواعد الاجتهاد صيانة للمسيرة.

٣- أهمية التقريب وتنطلق من:

أ- مقاصد الإسلام إلى توحيد الكلمة.

ب- مقتضيات حال المسلمين وواقعهم.

٤- مسؤولية التقريب وتقع على عاتق الأجهزة والمؤسسات والهيئات الحكومية وغير

الحكومية فهي مسؤولية جماعية.

٥- الاختلاف في الفروع والأصول.

ذلك أن المذاهب الفقهية دون استثناء قد وقفت اجتهاداتها عند الفروع فكانت سعة ورحمة واستجابة. لتنوع الأمة ومصالحها، وان أئمة المذاهب قبلوا مسألة التلمذ على غيرهم وانفتحوا على الآخر دون أن يأخذوا بأسباب القطيعة، وأنه يجب تحديد منهج دقيق للتقريب، وأن الاختلاف الفقهي بين الفقه الجعفري وبين فقه مذاهب السنة لا تزيد كثيراً عن الاختلافات بين المذاهب السنية الأربعة ذاتها، وأن الاختلافات هنا لا تضعف الكيان الواحد للأمة لأن ميدانها الفروع، وأن أخذ الموسوعات العلمية بالمذاهب الفقهية الثمانية وافتاء الأزهر الشريف - مثلاً -

بجواز التعبد على المذهب الجعفري، واعتماد تدريسه، فإن ذلك يشكل نموذجاً صحيحاً للتنوع. فنحن بحاجة إلى توسعة اجتهادية منضبطة في إطار وحدة الأصول.

والأمة مجتمعة على الأصول وهي: (العقيدة) و(الشريعة) و(الأمة) مما يثمر الوحدة في (الحضارة) وفي (دار الإسلام). وفي هذا الإطار فلا مانع من التعددية الطبيعية دونما حواجز وتهم (التكفير، والتفسيق، والتبديع).

والتقريب مطلوب عبر البعد عن الخلاف العقدي، ونفى عناصر التكفير، ونقل الخلاف من خانة الكفر والإيمان إلى خانة الخطأ والصواب.

ويتحدث الفصل الأول عن فقه الاختلاف وجهود التقريب مبتدئاً بالتذكير بكيد الأعداء للأمة، واشتداد الخلاف بين طوائف المسلمين خلافاً أعمى أحياناً فتضطرب الموازين وهو ما حذر منه القرآن الكريم. ثم يعرض أحاديث شريفة في أهمية التوحيد والاتلاف، ويستعرض احترام السلف لآراء المخالف، والحفاظ على الأخوة، مع التأكيد على ما يلي من ملاحظات:

- ١- إن التقريب لا يعنى تذويب المذاهب، بل هو خطوة للتآلف.
- ٢- ضرورة الفصل بين الاختلافات الفكرية الطبيعية وبين مسارات الأحداث الدائمة تاريخياً.
- ٣- إن التبليغ السيء عن المذاهب يمزق الأمة.

ثم يطرح الفصل عنواناً يتحدث فيه عن الجهود المبذولة في سبيل التقريب، حيث بدأت ملامح التمايز في القرن الثاني وغذت الخلافات السياسية حدة الخلاف والتعصب، إلا أننا شهدنا صوراً رائعة للتسامح.

ويستطرد قائلاً: إن علياً عليه السلام رغم خلافه مع بعض الصحابة وما جرى من حوادث اثناء حكمه فإن صدره لم يعرف الحقد، وإنه كان لا يرضى أن يتفوه أحد بسوء ضد من سبقه من الخلفاء الراشدين.

ثم إن أئمة المذاهب أخذ بعضهم العلم عن الآخر ونصر بعضهم البعض الآخر، ورفض مالك رأي المنصور في فرض تعليم المواطنين غيره.

وقد روى الشريف الرضي في تفسيره عن علماء السنة وذكر السيوطي أن صحيح مسلم ملآن من الشيعة.

وفي القرن الرابع الهجري اشتهرت المناظرات العلمية بين الباقلاني والشيخ المفيد، واشتهر

الشيخ الطوسي شيخ الشيعة في القرن الخامس بمنهجه المتوازن حتى فوض إليه الخليفة العباسي أهم كرسي علمي، وقد تتلمذ الفخر الرازي على الشيخ سديد الدين الحلي، وتلمذ الشهيد الأول على يد أربعين من علماء السنة. وفي القرن التاسع عشر ظهر السيد جمال ورشيد رضا، ثم قامت دارالتقريب في القاهرة في منتصف القرن العشرين، وكان لمؤسسة آل البيت الاردنية دورها التقريبي وانشئء المجمع العالمي للتقريب في عام ١٩٩١ وهكذا يستمر العرض. ويركز الفصل الثاني على مفاهيم التقريب ومصادره وبعد تعريفات موجزة لكل من (الإستراتيجية والتقريب والمذاهب والخلاف والمسائل) يتحدث عن المصادر والأدلة التي تنقسم الى:

أدلة نقلية: هي الكتاب والسنة ويلحقها الإجماع.

وأدلة عقلية: كالقياس والمصالح المرسله والاستحسان والعرف وسد الذرائع والاستصحاب والعقل. وبعضها متفق عليه وبعضها نقلي مختلف فيه (وهي ما عدا ذلك) والفهم الدقيق لها يؤدي للتقريب.

أما الفصل الثالث فيتحدث عن نشأة المذاهب وتطورها ومحوره الأول: نشأة المذاهب ويقف فيها عند ثلاث مجالات:

* سياسي، ويرى أن الفتنة في عهد الخليفة الثالث قد قسمت المسلمين في عهد علي إلى حوارج وشيعة ومرجئة وأهل السنة والجماعة.

* وعقدى؛ حيث اختلفوا حول الإمامة وقضية الإيمان والكفر والقضاء والقدر والصفات الالهية.

* وهكذا يتم التحدث عن مختلف المذاهب ومناهجها وبعض قواعدها.

* وفقهي: ليستعرض المسار الفقهي ويقف بالتفصيل عند المذاهب (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي والجعفري والزبيدي والإباضي).

أما المحور الثاني فيتحدث عن أصول الفقه ودوره في التقريب وفي المحور الثالث يتحدث عن ضوابط الاختلاف الفقهي.

أما الفصل الرابع: فهو يعنون بعنوان ميادين التقريب ولكنه يعرض الوسائل كالحوار الفكري والبحث والدراسة والإعلام والتأليف ويضم إليه الحديث عن الجاليات الإسلامية.

وفي الفصل الخامس: يأتي الكلام عن أهداف التقريب وهي:

- ١- السعي لتضييق الخلاف بين المدارس الاجتهادية.
 - ٢- اثبات أن الخلاف ليس جوهرياً وإنما هو خلاف اجتهادات.
 - ٣- التعريف بحقيقة التقريب.
 - ٤- التنوية بأن المساحة الخلافية لا ينفرد بها مذهب واحد.
 - ٥- التألف بين قلوب أتباع المدارس.
 - ٦- التأكيد على أن المساحة المشتركة أكبر بكثير من المساحة المختلف فيها.
 - ٧- الوقوف علمياً على أساس الاختلاف لمعرفة الكوامن وليسهل إخماد البراكين.
- ثما جاء الحديث عن أهداف إستراتيجية التقريب نفسها، وأخيراً جاء الفصل السادس ليتحدث عن سبل تنفيذ الإستراتيجية والاجراءات العملية على مختلف المستويات الوطنية والإقليمية والدولية.
- وفي ختام عرض ملخص هذه الإستراتيجية، نرى ضرورة التنبيه على بعض النقاط:
- الأولى: إن العمل في نفسه عمل رائع ومبتكر يجب أن نقدم الشكر عليه إلى هذه المنظمة الرائدة.
- الثانية: هناك بعض الملاحظات التاريخية والعلمية التي نرجو تصحيحها من قبيل:
- أ- تكرار بعض المطالب لمرات عديدة
 - ب- إن الإمام الصادق تتلمذ عليه بعض الأئمة ولكنه لم يتلمذ على أحدهم
 - ج- إن بعض ما ذكر تحت عنوان «الأدلة العقلية» لا يشكل دليلاً عقلياً كالأستصحاب، بل لا يقف إلى جانب «الأدلة الاجتهادية» فهو أصل عملي:
 - د- وهناك اخطاء عند الحديث عن نشأة المذاهب.
- الثالثة: هناك ما يجب حذفه من متن الإستراتيجية حتى لو أخذنا بتعريف الإستراتيجية المطروح فيها كالفصل الثالث، وهناك مجالات تداخل بين الفصول وعلى أي حال؛ فإنه عمل مشكور وله أثره في صياغة الإستراتيجية المقترحة.
- نقاط حول الإستراتيجية المقترحة:
- وعلى ضوء التعاريف العلمية، والتجارب الماضية جاء هذا المشروع المقترح الذي وافق عليه المجلس الأعلى للتقريب في ٢٣- ٢٤/ ١٢/ ٢٠٠٥ وهو مطروح على الجمعية العامة للنظر فيه.
- وهناك بعض الملاحظات التوضيحية:

الملاحظة الأولى: إن المشروع جاء مختصراً مضغوطاً ويتحدث عن خطة عملية للمستقبل وبالتالي فكل التوضيحات والمقدمات تركت للقسم الأول الذي ستقوم بإعداده لجنة مختصة ولن ندخل فيها فعلاً.

الملاحظة الثانية: رتبت الفصول ترتيباً منطقياً

فالأول: خصص للمفاهيم الرئيسة. وجاءت التعاريف محددة

والثاني: تعرض الأسس الأصلية التي يقوم عليها التقريب

والثالث: ركز على رسالة المجمع وآفاقه المنظورة

والرابع: تحدث عن مجالات العمل التقريبي.

وتحدث الخامس عن القيم والأطر التي تحكم المسيرة.

أما السادس فتحدث عن الأهداف الرسمية والتنظيمية التي تسعى الخطط العلمية - العشرية

لتحقيقها عبر وضع أهداف بعيدة المدى، وبالتالي عبر تعيين الأهداف القصيرة المدى (السنوية)

التي يوضع على ضوئها البرنامج السنوي وتحدد الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة.

الملاحظة الثالثة: إن الآفاق المنظورة المذكورة في الفصل الثالث تحمل كما نتصور الصفات

التي ذكرناها في المقدمة. وهذا لا يمنع من طرح آفاق أخرى أكثر عملية وجاذبية في أثناء النقاش.

الملاحظة الرابعة: لم يتعرض المشروع إلى الوسائل المطلوب استخدامها لتحقيق الأهداف إما

لأنها واضحة عموماً أو لورودها إجمالاً في النظام الأساسي للمجمع العالمي والمجال مفتوح

لاقتراح أكبر عدد منها عند المداولة العامة.

إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

تنويه:

أقدم المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية وفي إطار تحقيق أهدافه وتطلعاته على إعداد (مشروع جامع للخطة الاستراتيجية) وقدمه إلى المجلس الأعلى الدولي في اجتماعه بطهران في الفترة ١٨ و١٩ شوال ١٤٢٣ هـ الموافق ٢٣ و٢٤/١٢/٢٠٢٢م، فتمت مناقشته بالتفصيل وتعديله والموافقة عليه.

وللمشروع قسمان:

أما القسم الأول فيشكل مقدمة للإستراتيجية وهو يشمل مواضيع متنوعة منها:

أ- التعريفات الضرورية.

ب- موجز عن كيفية تشكل المذاهب.

ج- موجز عن أسباب اختلاف الفقهاء وغيرهم.

د- لمحة تاريخية عن تعامل الأئمة فيما بينهم.

هـ- لمحة تاريخية عن دور الحكام والمصالح الشخصية في تأجيج النزاع بين المسلمين وتحويل

المذهبية إلى طائفية مقيتة.

و- دور بعض الحكام وبعض العلماء في تحقيق التقارب.

ز- التقريب في العصر الحديث ودور دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.

ح- كيفية انشاء المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

ط- نقاط الضعف ونقاط القوة في حركة المجمع والتقريب.

ي- الآفاق والتوقعات حول مستقبل حركة التقريب. وسيتم اعداده لاحقاً.

وأما القسم الثاني فهو يركز على الإستراتيجية نفسها والمتمثلة في الفصول التالية:

الفصل الأول: المفاهيم التخصصية

١- التقريب:

التقريب حسب وجهة نظر المجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية يعني: التقارب بين أتباع المذاهب الإسلامية بغية تعرف بعضهم على البعض الآخر عن طريق تحقيق التآلف والأخوة الدينية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة.

٢- الوحدة الإسلامية:

الوحدة الإسلامية عبارة عن: التعاون بين أتباع المذاهب الإسلامية على أساس المبادئ الإسلامية المشتركة الثابتة والأكيدة واتخاذ موقف موحد من أجل تحقيق الأهداف والمصالح العليا للأمة الإسلامية والموقف الموحد تجاه أعدائها مع احترام التزامات كل مسلم تجاه مذهبه عقيدة وعملاً.

٣- المذاهب الإسلامية:

المقصود من المذاهب الإسلامية هو تلك المدارس الفقهية الإسلامية المعروفة التي تتمتع بنظام اجتهادي منسجم ومستند إلى الكتاب والسنة. وإن المدارس الفقهية المعترف بها حسب وجهة نظر المجتمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية هي عبارة عن: المذهب الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي من أهل السنة، والمذهب الإثني عشري والزيدي والبهرة من الشيعة والمذهب الأباضي. (على أن هناك مدارس أخرى إما أنها لا أتباع لها أو أنها تنضم لأحد المذاهب المذكورة، أو أنها تعبر عن آراء فردية لا تتقيد في عملها بمذهب معين).

الفصل الثاني: أسس التقريب

تقوم مسيرة التقريب بين المذاهب الإسلامية على مبادئ عامة من أهمها ما يلي:

- ١- إن الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الأساسيان للشريعة، والمذاهب الإسلامية كلها تشترك في هذين المصدرين، وحجية المصادر الأخرى رهن بكونها مستمدة منها.
- ٢- يعد الإيمان بالأصول والأركان التالية ضابطاً للصبغة الإسلامية:

أ: الإيمان بوحداية الله تعالى (التوحيد).

- ب: الإيمان بنبوة وخاتمية الرسول الأكرم محمد ﷺ، وأن سنته تمثل أحد مصدري الدين الرئيسيين.
- ج: الإيمان بالقرآن الكريم ومفاهيمه وأحكامه باعتباره المصدر الأول لدين الإسلام.
- د: الإيمان بالمعاد.
- هـ: عدم إنكار ضرورات الدين والتسليم بأركان الإسلام كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد ..
- ٣- شرعية الاجتهاد وحرية البحث: لقد اعترف الإسلام الحنيف بالاختلافات الفكرية عبر اعترافه بشرعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسة، ولذا على المسلمين أن يعتبروا الاختلاف في الاجتهادات أمراً طبيعياً ويحترموا الرأي الآخر.
- ٤- إن الوحدة الإسلامية هي خصيصة قرآنية للأمة الإسلامية وهي مبدأ يمتلك أهمية كبرى فيقدم في موارد التزاحم على غيره من الأحكام التي تقل عنه أهمية.
- ٥- إن مبدأ الأخوة الإسلامية يشكل أساساً عاماً لنوعية التعامل بين المسلمين.

الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته

تلخص رسالة المجمع العالمي للتقريب في: النهوض بمستوى التعارف والوعي وتعميق التفاهم بين أتباع المذاهب الإسلامية وتعزيز الاحترام المتبادل وتوطيد أواصر الأخوة الإسلامية بين المسلمين مع تجنب التمييز بشأن انتمائاتهم المذهبية أو القومية أو الوطنية بغية تحقيق الأمة الإسلامية الواحدة.

تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

يعد المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية الذي يضم بين صفوفه العشرات من علماء المذاهب الإسلامية من مختلف دول العالم؛ أحد المراكز المهمة التي عرفت بدعوتها للتقريب والوحدة في العالم الإسلامي ومهدت للتعامل البناء بين أتباع المذاهب الإسلامية المختلفة. في هذا السياق، ينوي المجمع تحقيق النقاط التالية على مدى السنوات العشر القادمة:

١- السعي إلى جعل الوضع الذي يعيشه المجتمع الإسلامي المعاصر أقرب ما يكون إلى ظروف ووضع عصر الرسول الأكرم ﷺ من حيث التأسي بجوانب الأخوة الدينية والقضاء على أجواء العداوة والعصبية الطائفية بين أتباع المذاهب الإسلامية.

- ٢- توسيع نطاق التضامن القائم فعلاً بين بعض المذاهب الإسلامية ليشمل كافة المسلمين وسائر المذاهب الإسلامية.
- ٣- تقبل عامة المسلمين للخلافات بين المذاهب والمنبثقة عن الاجتهاد المنضبط.
- ٤- اقتداء الأتباع بسلوك أئمة المذاهب الإسلامية بعضهم مع بعض وتوسيع نطاق العمل به بين أتباع المذاهب اليوم.

الفصل الرابع: مجالات التقارب

تشمل مجالات التقريب الإسلامي بين المذاهب جوانب حياة أتباع هذه المذاهب كافة حيث يمكن الإشارة إلى الجوانب التالية:

العقائد:

للمذاهب الإسلامية كافة رؤية مشتركة واحدة حول الأصول العقائدية والأركان الإسلامية والخلاف في فروعها لا يخل بأصل الإسلام والأخوة الإسلامية.

الفقه وقواعده:

وفقاً لوجهة نظر محققي فقهاء المذاهب، فإن الأبواب الفقهية تتضمن نسبة عالية من النقاط المشتركة والاختلاف في بعض المسائل الفقهية أمر طبيعي مرده إلى فهم الفقهاء واجتهاداتهم.

الأخلاق والثقافة الإسلامية:

ليس للمذاهب الإسلامية خلاف في الأصول الأخلاقية والثقافة الإسلامية على الصعيد الفردي والاجتماعي. والرسول الأكرم ﷺ أسوة الأخلاق لدى المسلمين كافة.

التاريخ:

ولا ريب أن المسلمين يتفقون على وحدة المسيرة التاريخية في مفاصلها الرئيسة والاختلافات الفرعية والتفصيلية يمكن طرحها في جو هادئ والوصول إلى موارد كثيرة للاتفاق. وعلى أي حال، فيجب أن لا تترك الخلافات آثارها السلبية على المسيرة الحاضرة للأمة.

المواقف السياسية للأمة الإسلامية:

لا شك أن المسلمين كافة لهم عدو مشترك، ينبغي لهم الوقوف بوجهه في صف واحد كأنهم ببيان مرصوص. علماً بأن سمات وميزات الأمة الإسلامية تحتم هذه الضرورة فضلاً عن أنه لم يرد منع في أي من المذاهب الإسلامية في هذا المجال، ولذا ينبغي لقادة وعلماء الإسلام والمفكرين الإسلاميين تبني سياسة موحدة تجاه الأعداء.

الفصل الخامس: المبادئ والقيم

يتمسك المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في منهجه الإصلاحية وتنفيذ برامجها انطلاقاً مما سبق بالمبادئ والقيم أدناه:

- ١- ضرورة التعاون الكامل في الموارد التي يتفق المسلمون عليها.
- ٢- ضرورة اتخاذ موقف منسق وواحد في مواجهة أعداء الإسلام.
- ٣- تجنب تكفير وتفسيق المسلمين الآخرين ورميهم بتهمة البدعة: علينا كمسلمين يقبلون بمشروعية الاجتهاد في إطار المصادر الإسلامية الرئيسية، أن نقبل مستلزمات هذا المبدأ وتبعاته حتى لو كان الرأي الاجتهادي خطأ في نظرنا. لذا ينبغي الهبوط بمرتبة الاختلافات من الكفر والإيمان إلى مرتبة الخطأ والصواب.
- كما لا ينبغي لأحد من جانب آخر أن يكفر الآخر بسبب لوازم حديثه أو رأيه تقود حسب رأينا إلى إنكار أصول الدين، فقد يكون غير ملتزم بهذه اللوازم.
- ٤- التعامل باحترام عند الاختلاف: حينما يوصي الإسلام بنوع من التحمل الديني في علاقاته مع باقي الأديان ويطلب من المسلمين أن لا يسيئوا للمقدسات الفكرية والعقائدية الباطلة للآخرين؛ فإن من الأولى أن يؤكد في إطار العلاقات بين المسلمين على مبدأ تجنب الإساءة لمقدسات أتباع المذاهب الإسلامية وأن يعذر بعضهم الآخر فيما يختلفون فيه.
- ٥- حرية اختيار المذهب: إن مبدأ حرية اختيار المذهب مبدأ عام في العلاقات الفردية، فكل شخص حر في اختيار مذهبه الإسلامي، ولا ينبغي للمنظمات والحكومات أن تفرض على أحد مذهباً دون غيره بل تعترف بالمذاهب الإسلامية جميعاً.

٦- حرية العمل بالأحكام الشخصية: فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأمر الشخصية، فإن أتباع المذاهب الإسلامية يتبع كل منهم الأحكام المتعلقة بمذهبه، سوى ما كان مرتبطاً بالنظام العام، حيث تكون كلمة الفصل للقوانين المنصوص عليها في بلادهم التي تديرها حكومة شرعية.

٧- استناداً لما ورد في سورة الزمر المباركة (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)، دعا القرآن الكريم المسلمين إلى اعتماد مبدأ الحوار السلمي مع الكفار وأهل الكتاب بعيداً عن التهويل والضوضاء وذلك من أجل بلوغ الحقيقة. من أجل ذلك وجب على المسلمين من باب أولى أن يتم حل اختلافاتهم عن طريق الحوار السلمي ومراعاة آدابه فيما بينهم.

٨- لزوم اهتمام جميع المسلمين بالجانب العملي للتقريب وتجسيد هذه القيم في حياتهم والسعي الشامل لتطبيق الشريعة الإسلامية في كل جوانب الحياة.

الفصل السادس: الأهداف الرسمية والتنظيمية

الهدف الرسمي ١: المساعدة في أمر إحياء ونشر الثقافة والتعاليم الإسلامية والدفاع عن ساحة القرآن وسنة النبي الأكرم ﷺ.

الهدف الرسمي ٢: السعي في سبيل تحقيق التعارف والتفاهم الأكثر بين العلماء والمفكرين والقادة الدينين للعالم الإسلامي في المجالات العقائدية والفقهية والاجتماعية والسياسية.

الهدف الرسمي ٣: إشاعة فكرة التقريب بين المفكرين والشخصيات النخبوية في العالم الإسلامي ونقله إلى الجماهير المسلمة وتوعيتها بمؤامرات الأعداء المفرقة للأمة.

الهدف الرسمي ٤: السعي لتحكيم وإشاعة مبدأ الاجتهاد والاستنباط في المذاهب الإسلامية.

الهدف الرسمي ٥: السعي لإيجاد التنسيق وتشكيل الجبهة الواحدة في قبال التآمر الإعلامي والهجوم الثقافي لأعداء الإسلام وذلك وفقاً للمبادئ الإسلامية المسلّم بها.

الهدف الرسمي ٦: نفي موارد سوء الظن والشبهات بين أتباع المذاهب الإسلامية.

في الختام نقول:

على ضوء هذه الإستراتيجية وضعت خطة عشرية بموافقة المجلس الاعلى ويقوم المجمع بتنفيذها لسنتين متواليتين. ولاريب أن أي تعديل تقوم به الجمعية العامة على الإستراتيجية سوف يترك أثره الكامل على الخطة التفصيلية (بعيدة المدى وقصيرته).

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

تحديات تجابه التقريب

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وبعد.

فقد اثمرت جهود العلماء والمفكرين والمصلحين اتجاهاً عاماً نحو التقريب بين المذاهب الإسلامية، وميلاً عاماً نحو تغليب لغة الحوار المنطقية. وترجيحها على اية لغة أخرى انسجاماً مع توجهات الإسلام الأصيلة وتناغماً مع الميل العالمي نحو هذا الأسلوب فيما بين الحضارات والثقافات والأديان.

والواقع أن كل النصوص الإسلامية والمفاهيم والأحكام الشرعية وتصريحات الأئمة والعلماء وسلوكياتهم تدفع نحو اعتماد هذا الأسلوب مما يفسح المجال نحو تحقق مثل هذه النتيجة. ونحن إذ نستبشر خيراً بهذا الأمر نعتقد بلزوم تعميقه في الاذهان والنفوس لأنه اتجاه علمي ونفسي خلقي في آن واحد، يريد أن يتعالى فيه الإنسان المسلم على خلافه في الراي مع الآخر، ويتغاضى عما يرتبه هذا الخلاف من مقتضيات التنوع في السلوك وصولاً إلى الموقف الموحد من التحديات الكبرى التي تواجهها الأمة، وكذلك من الأمور الداخلية التي هي لوازم الشخصية الواحدة لها.

وتستلزم عملية التعميق هذه القيام بكل ما من شأنه تحويل الرغبة في التقارب وبالتالي في التفاهم إلى ملكة وخلق اجتماعي أصيل وعمام بحيث يعود معه كل صوت تبعيدي حالة نشازاً وخروجاً على الجماعة، وسعيّاً خارج الدائرة وتحركاً خارج السرب تنفر منه الطباع وتتقرز منه النفوس.

ولن يتحقق هذا الهدف إلا إذا قام العلماء والمفكرون بعملية الاستيعاب الكامل للفكرة أولاً ودراسة تاريخها وآثارها في مسيرة الأمة التاريخية والحضارية ثانياً، وتوعية الجماهير بها وآثارها

ثالثاً ونقل الفكرة - بالتالي - إلى الممارسة العملية اليومية المستمرة حتى تتحقق تلك الملكة ويسود ذلك الخلق المطلوب.

وربما تطلب الأمر تنفيذ مشروعات اجتماعية مشتركة في المجالات البحثية أو الاجتماعية وغيرها. ولعل أهم نقطتين يجب التركيز عليهما في البين هما:

أ - استقصاء الدوافع الدينية والاجتماعية وحتى السياسية باعتبارها مقتضيات التحرك نحو التقريب في الفكر والتوحيد في العمل، واستعادة تلك الحالات التي تم فيها التقارب والتعاون بين العلماء في المشتركات - وما أوسع دائرتها - في حين راح البعض يعذر الآخر في ما اختلفوا فيه من المسائل.

ب - معرفة العقبات والموانع التي تقف بوجه ذلك. أما النقطة الأولى فليست هي محط نظرنا فعلاً رغم أهميتها. ويمكن الاستعانة فيها بأساليب القرآن الكريم المتنوعة في الدفع نحو الوحدة من خلال الدعوة المباشرة، وتركيز روح التعامل العقلاني والحوار المنطقي مع الآخر، والتذكير بتوحد العدو - رغم تناقضاته - في جبهة المواجهة مع الأمة الإسلامية، والنتائج الإيجابية للوحدة، والسلبية للتمزق وامثال ذلك وله حديث مفصل يذكر في محله.

وأما النقطة الثانية فهي موضع تركيزنا هنا رغم أننا بلحاظ محدودية الزمان لا نستطيع التوسع في الأمر.

التحديات التي تواجه التقريب:

وهذه التحديات كثيرة وقاسية بعضها من الأعداء والآخر من داخل الأمة، ولعل أهمها ما يلي:

أولاً: العامل الخارجي:

فمن الواضح تماماً أن أعداء هذه الأمة يخلقون كل الظروف التي تؤدي لتمزيقها ويقفون في وجه كل ما يعمل لتوحيدها. وقد لاحظنا أن الاستعمار الغربي عمل خلال فترة احتلاله للعالم الإسلامي، وخصوصاً في الفترة التي احتل فيها العالم الإسلامي كله تقريباً، وقضى على آخر دولة إسلامية قوية في النصف الأول من القرن الميلادي العشرين، لاحظنا أنه اعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

١ - إبقاء الأمة على تخلفها العلمي والاقتصادي والثقافي والتعليمي وغير ذلك.

٢ - إشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي إلى جانب تحريك

النزعات القومية والعنصرية ولكن سرعان ما فشل مشروعه مما دعى بعض الكتاب المعاصرين لتسميته بـ«النصر سريع الزوال للعلمانية (١٩٢٠ - ١٩٧٠)» (١)

٣- تمزيق العالم الإسلامي إلى دول وشعوب متفرقة، وتحريك العنعنات المذهبية والجغرافية والقومية والعنصرية وحتى التاريخية إذ شجع كل جزء منها للتأكيد على تأريخه قبل الإسلام أو تاريخه الخاص به بعد الإسلام حتى رأيناه يشجع بعض شعوب آسيا الوسطى لتعظم أمثال الطاغية تيمورلنك باعتباره بطلا قومياً، ونسيان جرائمه الوحشية ضد شعوب الأمة الإسلامية. كل ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي يجري الحديث عنه والتخوف منه باستمرار من قبل القادة والمفكرين والكتاب الغربيين ويتم التنظير لصراع دائم مع العالم الإسلامي على أساسه تقول الكاتبة الغربية هانتر في مقدمة كتابها (مستقبل الإسلام والغرب) مايلى: «قامت الرواية التي ألفها جون بوشان، وكان لايزال رائداً في استخبارات الجيش البريطاني عام ١٩١٦، على فرضية قيام ثورة إسلامية، من شأنها، إذا ما اندلعت، أن تقلب مجرى الحرب العالمية الأولى في غير مصلحة القوات الحليفة.

كتب بوشان في روايته، العباءة الخضراء The Green Mantle: «الإسلام عقيدة قتالية، إذ لا يزال ذلك الشيخ يقف في المحراب حاملاً القرآن باليد والسيف المشهور في اليد الأخرى. فإذا افترضنا أن هناك أملاً بالخلاص يعيد الروح حتى إلى الفلاحين في المناطق النائية ويدغدغ أحلامهم بالجنة فماذا سيحدث يا صديقي؟ ستفتح جهنم أبوابها في هذه الأرجاء عما قريب. لدي تقارير من العلماء في كل مكان؛ صغار التجار في جنوب روسيا، وتجار الأحصنة في أفغانستان والتجار التركمان، والحجاج في الطريق إلى مكة، والأشراف في شمال أفريقيا، ولاسي جلود الغنم من المغول، والفقراء الهندوس والتجار اليونانيين في الخليج، فضلا عن القناصل المحترمين الذين يستخدمون الشيفرة. هؤلاء جميعاً يجمعون في رواياتهم التي يرسلونها إلي على الأمر نفسه، أن الشرق في انتظار إشارة إلهية». بعد ذلك بنحو ثلاثة أرباع القرن، عبر المعلق السياسي الأميركي، تشارلز كراوثرمر، عن مخاوف مماثلة عندما قال إن الولايات المتحدة تواجه خطرين جيوسياسيين محتملين، يتأتى أحدهما من المنطقة نفسها التي ذكرها جون بوشان في روايته، فهو يتخذ «شكل عالم إسلامي متحد تحت راية أصولية على النمط الإيراني تخوض صراعاً وجودياً ضد الغرب الكافر»^١.

١. مستقبل الإسلام والغرب. شيرين هنتر تعريب زينب شوربا ص ١١١.

وها نحن نشهد دور اليد الاجنبية الممتدة لتحرك النزاعات الطائفية في باكستان والعراق وافغانستان ولبنان وسائر البلاد التي يتعايش فيها اتباع المذاهب. وربما استخدمت وسائل الاعلام والاقلام والالسنه الماجورة لتحقيق الهدف، والتحدث عن النفوذ الإيراني (الشيوعي) والتخويف الوهمي وبالتالي تفكيك الأمة وإهدار قواها، لتنسى وحدتها وتنحرف بوصلتها عن المشكلة الواقعية، والعدو الحقيقي، فإذا هي مشكلة الصراع العربي الفارسي أو العربي الكردي وليست مشكلة الصراع بين الصحوة الإسلامية والاستعمار والاستكبار العالمي وريبته الصهيونية العالمية.

ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام.

وهو أمر شهدناه في عصور الظلام الماضية، ونشهده اليوم أيضاً حيث يستغل البعض نفوذه ليثير العامة بل ربما بعض المتسبين لاهل العلم لتحريك الاحن والنزاعات الطائفية.

يقول أحد الكتاب المؤرخين واصفاً بعض حروب الطوائف بتحريك من السلطات الحاكمة: «وكانت لا تمر سنة دون عنف بين ما وصف بفرق السنة وفرق الشيعة في سائر ارجاء المنطقة العربية الإسلامية فقد تولى الترك بانفسهم عام ٢٤٩ هـ عمليات القمع الطائفي ضد الشيعة... وكان أكثر الضحايا من منطقة (الشاكرية) ببغداد وبتيجتها هوجم السجن المركزي واحرق أحد الجسرين الواصلين بين جانبي الكرخ والرصافة».

ويستمر في الحديث عن دور حكومات الطوائف في تحريك الفتن في مصر، وعن الاقتتال الطائفي بعد قيام حركة الزنج في سواد جنوب العراق، وامتداد النزاع إلى المدينة المنورة وإلى طبرستان، وتواصلت إلى شمال افريقيا وهكذا.^١

وهناك كتب كثيرة تتحدث عن هذه الظاهرة كمقدمة ابن خلدون وغيرها.

ويكفي أن نذكر بدور النزاع العثماني الصفوي - الذي دام أربعة قرون - في خلق الفتن الطائفية الداخلية واضعاف الأمة الإسلامية مما جر بالتالي إلى أن تفقد شوكتها وعزتها امام التحديات.

وهنا نود أن ننقل نصاً للسيد الباز العريني مترجم كتاب الحروب الصليبية للكاتب الغربي ارنست باركر يقول فيه:

١. قصة الطوائف للدكتور فاضل الانصاري ص ٢٣٣.

على أن السبب الأكبر في نجاح الصليبيين، لم يرجع فحسب إلى كثرة عددهم، وإلى ما تلقوه من مساعدات من الدولة البيزنطية، بل يرجع أساساً إلى تفرق وحدة المسلمين من الناحيتين السياسية والدينية. ففي الوقت الذي انطلقت فيه القوات الصليبية نحو الشرق، اشتد النزاع بين الاخوين دقاق ورضوان من أمراء السلاجقة، من أجل حرص كل منهما على أن ينفرد بحكم سوريا، ونشبت فعلاً الحرب بين الاخوين، بينما كان الصليبيون في طريقهم إلى الشام. وما حدث من الاختلاف الديني والسياسي، بين الخلافة العباسية في بغداد، والخلافة الفاطمية في القاهرة، كان معروفاً عند الصليبيين. وحينما سعى الأمراء السنيون في الشام إلى الاتصال بالخليفة الفاطمي، يطلبون التعاون لوقف تقدم الصليبيين، لم يجدوا استعداداً عند الخليفة الفاطمي لتحقيق غرضهم.

وإذ تبين أن نجاح الصليبيين يرجع إلى ما ساد العالم الإسلامي من الاختلاف السياسي والديني، سعى الأمراء والقادة المسلمون، على أسباب هذه التفرقة، فأعلنوا حركة الجهاد الديني. فحرزوا من الانتصارات ما أدى إلى توحيد مصر والشام واعيالي الجزيرة، وبذلك تم حصر الصليبيين على الساحل، وتلى ذلك إزالة الخلافة الفاطمية، ودعوة الديار المصرية إلى المذهب السني، فتحققت بذلك الوحدة الروحية أيضاً وتيسر لصلاح الدين عندئذ أن يقهر الصليبيين، وإن يسترد معظم ما استولوا عليه من الأراضي، ووضحت هذه السياسة، هي القاعدة التي جرى عليها الأيوبيون والمماليك حتى انقطع دابر الصليبيين نهائياً من الشرق سنة ١٢٩١، فضلاً عن تجنب البلاد خطر المغول بعد أن حاقت بهم الهزائم المتكررة.

وهذا الكتاب الذي نقلته إلى اللغة العربية، إنما يصور ما صاحب الحركة الصليبية من اغراض استعمارية، ويشرح العوامل المختلفة التي تحكمت في توجيه الحروب الصليبية، ويبين أن العداء بين الغرب والشرق إنما يرجع إلى قرون عديدة، وإن الغرب اتخذ من الأساليب ما حاول بها تحقيق آماله الاستعمارية في الشرق. وما أورده في الملحق الذي أضفته إلى هذا الكتاب، يشرح يقظة العالم العربي وقتذاك، وإدراكه أنه لن يتم القضاء على القوات المعادية إلا بالاتحاد والصبر على جهاد العدو. غير أنه ينبغي أن نشير أيضاً إلى أن الجهاد الديني الذي نادى به الزعماء والقادة من المسلمين، استجاب له السكان في جميع أنحاء الوطن العربي.

ويقول مؤلف الكتاب نفسه: في الفصل الثالث وهو يتحدث عن نزاع المسلمين الذي مهد

لنجاح الحملة الصليبية.

أما حالة آسيا الصغرى وسوريا في سنة ١٠٩٧، فتعتبر في نواح عديدة ملائمة لنجاح الصليبيين. إذ لم يحفل سلاطين السلاجقة إلا بالاحتلال العسكري لما فتحوه من الاقليم، فاستقرت حاميات سلجوقية في بعض المدن، مثل نيقية وانطاكية، واستعدت لمواجهة الصليبيين والاستماتة في مقاومتهم، وتفرق أيضاً في انحاء البلاد جيوش سلجوقية، اما مرابطة في جهات معينة، أو في حالة انتقال وارتحال. غير أن سكان المدن كانوا دائماً اعداء للحاميات العسكرية السلجوقية، كما أن مناطق شاسعة لم يكن بها على الاطلاق قوات عسكرية.

..... وفي تلك الاثناء لم يتوان الفاطميون في الافادة من هذه المنازعات. إذ أن انشقاقاً دينياً كبيراً، كان يفصل الخليفة الفاطمي في القاهرة وزعيم المذهب الشيعي، عن الخليفة العباسي ببغداد وزعيم المذهب السني. وهذا الاختلاف يجوز مقارنته، بما كان بين الكنيستين اليونانية واللاتينية من نزاع. بل أنه يفوقه بما غلب عليه من طابع الاختلاف السياسي. وكيفما كان الأمر، فإن هذا الاختلاف ادى إلى عرقلة حركة المسلمين مثلما ادى ما بين الكسيوس واللاتين من الحسد والحقد، إلى عرقلة حركة الحرب الصليبية. وادرك الأمراء الصليبيون تمام الإدراك، الفجوة التي تفصل بين خليفة القاهرة عن الأمراء السنيين في سوريا، وسعوا عن طريق مبعوثيهم إلى أن يتصلوا بخليفة القاهرة، املا في أن يظفروا، بفضل مساعدته، ببيت المقدس، التي حكمها وقتذاك نيابة عن الترك سقمان ابن الأمير ارتق^١. غير أن الخليفة (الفاطمي) رأى أن ينفرد بالعمل لنفسه، واستغل ما وقع بين أمراء سوريا من حروب، وما اثاره زحف الصليبيين من الخوف والرعب، فاستولى على بيت المقدس (اغسطس سنة ١٠٩٨) على الرغم من أن زعماء الحملة الصليبية لم يحرزوا شيئاً من النجاح في استغلال ما وقع من منازعات بين المسلمين على النحو الذي يبتغونه،

١. حدث في وقت واحد المفاوضات والقتال اثناء الحرب الصليبية الأولى. وجرى ذلك أيضاً في الحرب الثالثة والحرب السادسة. ونلاحظ ما قام به العلمانيون من نشاط في توجيه سير الحرب الصليبية. فعلى الرغم من ان هذه الحرب قامت على أساس ديني، فإنها اتخذت في سيرها صفة دنيوية. ومن الأمور المتناقضة ان حملة دينية اسهمت في نمو الحافز الدنيوي، وهيات للعلمانيين ان يفلتوا من ذلك الميل نحو التبورراطية البابوية، وكان ذلك واضحاً في زمن بابوية جريجوري السابع. أنظر حبشي: الحرب الصليبية الأولى. القاهرة ١٩٥٨ ص ١٢٦-١٢٧.

فالواقع أن ما أصابوه من النجاح، انما يرجع إلى حد كبير إلى هذه المنازعات. وما وقع من الفرقة بين أمراء الشام، وما حدث من الانقسام بين العباسيين والفاطميين هياً للصليبيين الاستيلاء على المدينة المقدسة، وانشاء مملكة بيت المقدس. على أن مصير المسيحية اللاتينية في الشرق تقرر، حينها نهض بالموصل حوالي سنة ١١٣٠م قوة جديدة، استطاعت أن توحد الشام، وحينها انضمت أيضاً سوريا، بعد اتحادها، إلى مصر، واجتمعتا في يد صلاح الدين. ويتحدث في الفصل الثالث عشر عن المقترحات التي اقترحها بييرديوا في رسالته (استعادة الأرض المقدسة) لتعالج فشل الحروب الصليبية فيقول:

ومن المعروف أن زوال نظام من الانظمة لا يتم الاعتراف به، إلا بعد زمن طويل. ولذا تحتم على الناس أن ينصرفوا إلى أن يحاولوا من جديد، أن يثيروا في الحياة الجديدة ما خمد من الجذوات. مثال ذلك أن بيير دبوا fierre Dubois في رسالته المعروفة باسم استعادة الأرض المقدسة De recuperatione Sanctae Terrae التي وجهها إلى ادوارد الأول، ملك انجلترا، في سنة ١٣٠٧، اخذ يحض على عقد مجمع بأوروبا لاقرار السلام، ومنع المنازعات التي ساعدت، مثلما حدث في سنة ١١٩٢، على فشل الحرب الصليبية التي سبق ذكرها. واقترن بهذا الدفاع العالمي (الجماعي)، الدفاع عن تجربة الكنيسة من احباسها كما يتم وضع أساس لتمويل الحرب الصليبية القادمة. ومن الاقتراحات، ما عرضها رجال، اشتهروا بشدة معرفتهم بالشرق، وتعتبر في اغراضها عظيمة الأهمية من الناحية العملية، غير أنه لم تكن لها صفة سياسية. فقيام اسطول دولي، يفرض الحصار البحري على مصر، واجراء تحالف مع المغول، واتحاد الطائفتين الدينيتين الكبيرتين، الداوية والاسبتارية، تلك هي الأسس الثلاثة الكبيرة لهذه المقترحات^١.

ثالثاً: التكفير

وتعد هذه الظاهرة من اهم العقبات بوجه التقريب. ورغم أن الإسلام وضح تماماً الحدود الفاصلة بين الكفر والإيمان، وحددها بدقة فإن هذه الحالة الغريبة حدثت بقوة. فعن عبادة بن الصامت قال رسول الله ﷺ: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

١. رسالة التقريب العدد ٦٩ الصفحات ٢٢٩ - ٢٣٦.

وان محمداً عبده ورسوله وان عيسى عبدالله ورسوله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

وفي رواية أدخله الله من ابواب الجنة الثمانية أيها شاء وروى الشيخان والترمذي: من شهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله حرم الله عليه النار. ١

وروى سعاة عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والتصديق برسول الله، به حققت الدماء، وعليه جرت المناكح والمورث، وعلى ظاهره جماعة الناس. ٢

وربى القرآن الكريم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله اتباعه على التعامل العقلاني والحوار المنطقي والقبول بالتعددية الاجتهادية إذا كانت على اسس شرعية منضبطة.

إلا أن هذه الظاهرة حدثت في ظل ظروف عصبية في مطلع الأمر كما في قضية الخوارج. ورغم أن الأئمة عبرت هذه الحالة وعادت إلى التعامل المنطقي في عصر أئمة المذاهب وقدم الأئمة اروع صور منطقية وربوا اتباعهم عليها ولكن العوامل الكثيرة الأخرى قادت إلى عودتها من جديد. وإني اعتقد أن أهم ما قاد لهذه الظاهرة هو ما يمكن تسميته بمؤاخذه الاخر بلوازم كلامه رغم أن هذا الآخر لا يؤمن بهذه الملازمة مطلقاً.

فقدياً كفر الخوارج علياً عليه السلام معتقدين أن لازم موقفه من التحكيم كفره والعياذ بالله. فقد ذكروا أنه شك في نفسه حين قال للحكمين:

«انظرا فإن كان معاوية احق بها فأثبتاه، وان كنت أولى بها فأثبتاني» فإذا هو شك في نفسه ولم يدر أهو أحق أم معاوية فنحن فيه أشد شكاً».

ورد الإمام عليهم بقوله: «فإن ذلك لم يكن شكاً مني، ولكن انصفت في القول، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ولم يكن ذلك شكاً وقد علم الله أن نبيه على الحق» ٣.

وبعد عصر الأئمة دبت هذه الحالة بوتيرة اوسع وذلك كما لاحظناه في الاختلاف حول (زيادة الصفات على الذات الالهية) و(التحسين والتقيح العقليين) حيث رأى الطرفان المتنازعان

١ . ذكرتها الصحاح في اول ما ذكرته من روايات وجمعها صاحب جمع الفوائد في مطلع كتابه.

٢ . الكافي، ج ٢ ص ٢٥.

٣ . الاحتجاج للعلامة الطبرسي ج ١ ص ٤٤٤.

أن الطرف الآخر يقوده رايه إلى الكفر وهكذا نجد هذه الظاهرة في قضايا كثيرة من قبيل (التوسل) و(الشفاعة) و(البداء) وحتى في مثل (الاستحسان) و(القياس) و(المصالح المرسله) وغيرها. في حين لو احتكم الجميع إلى الحوار المنطقي لاكتشفوا على الأقل لدى الطرف الآخر ما يبرر له الإيمان بهذه القضية أو تلك وربما اكتشفوا أن النزاع لفظي لا حقيقة له.

وربما أدى نزاع ما في مسألة فقهية مثلاً إلى أن يتهم المخالفون بالضلالة والابتداع.

فمثلاً اتفق المسلمون على أن الإسلام قد نهى عن طلاق الزوجة البالغة المدخول بها غير الحامل إذا كانت غير طاهر أو في طهر واقعها فيه، ولكن اختلفوا في تأثيره في إفساد الطلاق فقال البعض بمجرد حصول الإثم وتحقق الطلاق وقال الآخرون ببطان الطلاق فوصف هؤلاء بالضلالة والابتداع^١.

ووصل التهجم المتبادل إلى مستوى غريب فهذا المرحوم تقي الدين السبكي يقول في كتابه طبقات الشافعية الكبرى في حق أستاذه الذهبي وهو العالم المعروف: وهذا شيخنا الذهبي رحمه الله من هذا القبيل: له علم وديانة، وعنده على أهل السنة (يعني الأشاعرة) تحمل مفرط فلا يجوز أن يعتمد عليه... وقد وصل إلى حد من التعصب المفرط يُسخر منه^٢.

ويقول عن ابن حزم: «وكتابه (الملل والنحل) من شر الكتب»^٣.

وزاد الجهل والتعصب الطين بلة حيث يدخل في عملية الفتوى من ليس أهلاً لها فيفتي بغير ما أنزل الله. وهذا ما شهدناه بكل وضوح في الحركات التكفيرية في عصرنا مما أدى إلى سفك الدماء البريئة على نطاق واسع باسم الدفاع عن الدين والامة وهما من هذه الحالة براء.

رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار

التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار فإنه لا يحقق الجو الهاديء المطلوب، ويدفع لنوع من التهرب أو المماطلة أو تلمس العثرات مما يمنع من تحقق النتيجة المطلوبة. وهذا ما شهدنا نظيره في عمليات الحوار بين اتباع الأديان نتيجة ما يحمله كل طرف من تراكمات ذهنية عن الآخر فالطرف

١. الفقه على المذاهب الخمسة ص ٤١١.

٢. طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ١٣-١٥.

٣. ن. م. ج ١ ص ٩٠.

المسيحي مثلاً يحمل احقاده الصليبية وايحاءات المستشرقين بما يسمونه بـ (الهرطقة الإسلامية) وما يدور في نفسه من هواجس الصحوة الإسلامية التي تنافس مشروعه في السيطرة، في حين يحمل الطرف الإسلامي سوابق ذهنية كبيرة عن خدمة التبشير المسيحي للاستعمار على مدى قرون. ولكن العمل الجاد والتوجه للتعليمات الإسلامية الهادية والداعية لحسن الظن في الاخ المسلم يمنع من أن يلعب هذا العامل دوره في المنع من التقريب خصوصاً إذا تم على مستوى العلماء العاملين الذين خبر بعضهم بعضاً في مجالات العلم والاخلاص والعمل في سبيل الأمة بمجموعها.

خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر.

وكل واحد من هذه الأمور يمكن أن يشكل بنفسه مانعاً من تحقق الحوار المطلوب وبالتالي الوصول إلى التقريب، وقد وجدنا النصوص الإسلامية تتظافر في المنع من هذه الأمور: فقوله تعالى: «قل انما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة»^١ يمنع من الحوار في الاجواء الانفعالية المصطنعة. وقوله تعالى: «قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون»^٢ يمنع من الانشغال بالماضي ويفرض احترام الآخر وذلك أيضاً واضح في الآية التي تنهى حتى عن سب آلهة المشركين. سادساً: اضيف إلى كل ذلك أن اختلاف مناهج الاستدلال وطرق الاستنباط يمنع من التقارب في النتائج فينبغي السعي إلى ما يأتي:

- ١ - الفراغ من المفروضات المسبقة قبل بدء عملية الحوار.
- ٢ - الاتفاق على منهج واحد للاستنباط وليس هذا الاتفاق أمراً صعباً.
- ٣ - تحقيق محل الحوار بدقة لئلا ينظر كل طرف إلى قضية ومفهوم لا ينظر إليه الطرف الآخر. وهناك موانع أخرى من قبيل:

- ١ - اعتبار القول الشاذ علامة على المذهب كله.

١. سبأ: ٤٦.

٢. سبأ: ٢٥.

- وهو أمر غير منطقي، من قبيل أن يقول بعض المحدثين قولاً يرفضه كل المحققين من مذهب معين على مدى التاريخ ثم يصير مخالفوهم على نسبة لكل المذهب.
- ٢- اخذ تصورات المذهب من اقوال خصومه.
- وهو أيضاً بعيد عن المنطقية، لأن الخصوم أحياناً يعملون على نسبته الأوهام إليه انتصاراً لمذهبهم.
- ٣- دخول من ليس أهلاً في عملية الحوار.
- وهو أمر يرفضه القرآن والمنطق أيضاً: يقول تعالى - مخاطباً أهل الكتاب الذي يدعون دعاوى لا علم لهم بها: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾^١.
- ٤- اتباع الأساليب المتتوية للظفر بالآخر.
- الأمر الذي يجيل الحوار إلى لعبة لا فائدة فيها.
- وغير ذلك مما لا يسعنا المجال للتعرض له ولكن يجب حذفه حتى نصل إلى التقريب المطلوب بل الضرورة في عالمنا الملتهب.

الفهرس

مع المؤتمرات الدولية حول الوحدة والتقريب	٥
المقدمة	٧
تطور فكرة الوحدة في الجمهورية الإسلامية	٧
الفصل الأول: الإسلام والوحدة	١١
عوامل الانتصار الأول	١١
أهمية الانتصار الأول	١١
عوامل الانتصار العظيم	١٢
أولاً: التأييد الإلهي	١٢
ثانياً: شخصية القائد الشجاع الحكيم	١٢
ثالثاً: صفات المؤمنين الأوتائل من أصحاب الرسول الكرام ﷺ	١٣
رابعاً: وحدة القلوب وتآلفها	١٣
الوحدة الحقيقية	١٣
محور الوحدة الإسلامية	١٤
أ- بيان محور الوحدة	١٤
ب- التذكير بآثار الوحدة	١٥
ج- التأكيد على وحدة الأصل والمسير والهدف	١٥
د- غرس الأخلاقية والتضحية بمصالح الذات	١٥
هـ- تصوير الهدفية السامية والوظائف الكبرى	١٦

- و- حذف مقاييس التفاضل الممزقة ١٦
- ز- الدفع نحو التأكيد على نقاط الالتقاء ١٦
- ح- التربية على أسلوب المحاوراة البناءة ١٧
- ط- وهناك أساليب قرآنية ١٧
- الواقع الممزق ١٨
- عوامل التمزق اليوم ١٨
- وحدة المسيرة المؤمنة عبر التاريخ ٢٠
- والشيء الآخر: ٢٤
- صلاة الجمعة: مجتمع إسلامي مصغر من معالم المجتمع الإسلامي ٢٤
- صلاة الجمعة؛ مجتمع إسلامي مصغر ٢٥
- صلاة الجمعة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ٢٩
- دور الحج في تنشيط الوحدة الإسلامية ٣٠
- الفصل الثاني: محاور الوحدة ٣٧
- المحور الأول: القرآن الكريم ٣٧
- أولاً: وجود التشابهات في القرآن الكريم ٣٧
- أ- الآيات المحكمات: ٣٨
- ب- الراسخون في العلم: ٣٩
- منايع التشكيك في الحجية: ٤٠
- ثانياً: ما ذكر من شبهة التحريف بالنقيصة في بعض آياته ٤٠
- المحور الثاني للوحدة: السنة النبوية ٤١
- اتباع السنة والعمل بالحديث من الضرورة ٤٢
- دوافع المشككين ٤٣
- بعض الشبهات المطروحة واجوبتها ٤٣
- المحور الثالث: المرجعية العلمية والتفسيرية لأهل البيت عليهم السلام ٤٩
- المرجعية العلمية للمسلمين في القرآن والسنة ٥٠

٥٦	المكانة العلمية لأهل البيت <small>عليهم السلام</small> في الواقع الإسلامي
٦٠	أسلوب المناظرة يكشف عن علم أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٦٤	الإنتاج العلمي لأهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٦٦	علم أهل البيت <small>عليهم السلام</small> في خدمة مصالح الأمة
٦٨	النتائج
٧٠	النتيجة
٧٠	ملاحظة أخيرة
٧١	الفصل الثالث: الثورة الإسلامية والوحدة
٧١	صراع الثورة الإسلامية وأعدائها حول قضية الوحدة الإسلامية
٧٥	الوحدة الإسلامية كما توحى بها ذكرى ولادة الرسول <small>صلى الله عليه وآله</small>
٧٩	التأمر الاستعماري على الثورة والوحدة
٨٣	شذرات من كلمات الإمام الخميني <small>رحمته الله</small> حول (وحدة المسلمين)
٨٩	الفصل الرابع: التقريب طريق الوحدة
٨٩	التقريب والتفاهم منهجه وأخلاقياته
٨٩	المقدمة
٩٠	الإسلام والاجتهاد
٩٢	القرآن وشروط الحوار وأخلاقياته
٩٢	أ- مقدمات الحوار:
٩٣	ب- المتحاوران:
٩٥	ح- موضوع الحوار:
٩٦	د- اجواء الحوار:
٩٦	هـ- منهج الحوار:
٩٧	و- هدف الحوار:
٩٨	ز- ويمكن أن نضيف إلى كل هذا وجود الحكم العادل
٩٨	حول التقريب والتفاهم

- شبهات في الين ٩٨
- التفاهم حول أصول الفقه سبيل للتقريب ١٠٣
- المدخل ١٠٣
- أسباب الاختلاف ١٠٥
- ثلاثة مواضيع لها أهميتها في هذا المجال ١٠٩
- الموضوع الأول: ضرورة التحديد في منهج الاستدلال وملاحظة الترتيب المنطقي ... ١٠٩
- الموضوع الثاني: ضرورة التركيز على محل الخلاف وتنقيحه ١١٢
- أ- الاجتهاد ١١٢
- ب- القياس: ١١٣
- ج- الاستحسان: ١١٤
- الموضوع الثالث: ضرورة اخراج بعض ما ادعي كونه من الأصول من دائرتها ١١٦
- التقريب بين مراتب الأدلة في الاجتهاد ١١٦
- مبادئ لا بد من الاتفاق عليها أولاً ١١٧
- ١- الأدلة ونظرها إلى الواقع ١١٧
- ٢- الأحكام الأولية والثانوية ١١٨
- ٣- أهم عنصر في تقديم الأدلة على غيرها ١١٩
- الترتيب المنطقي ١١٩
- رأي الإمام الجويني في ترتيب أصول الفقه ١٢٣
- الأمر الأول: ١٢٤
- الأمر الثاني: ١٢٥
- الأمر الثالث: ١٢٦
- السيد محسن الأمين علم التقريب ١٢٩
- اتجاهان تقريبيان ١٣٤
- اتجاه الفقه التقريبي ١٣٥
- اتجاه التقريب الفقهي ١٣٥

١٣٨.....	التقريب ومنهجه الاجتهادي
١٤٣.....	آية الله السيد محمد تقى الحكيم قدوة فكرية في مجال التقريب
١٤٣.....	المقدمة
١٤٤.....	أولاً: في مطلع البحوث
١٤٥.....	ثانياً: دراسة أسباب الخلاف
١٤٥.....	ثالثاً: موضوع التحريف
١٤٧.....	رابعاً: سنة أهل البيت:
١٤٨.....	خامساً: حول الأصول المختلف فيها (القياس ...).
١٤٩.....	أ- القياس
١٤٩.....	ب- الاستحسان
١٥٠.....	ج- المصالح المرسله
١٥١.....	د- فتح الذرائع وسدها
١٥١.....	هـ- العرف
١٥٣.....	إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
١٥٣.....	تنويه
١٥٣.....	وللمشروع قسمان:
١٥٤.....	الفصل الأول: المفاهيم التخصصية
١٥٤.....	١- التقريب
١٥٤.....	٢- الوحدة الإسلامية
١٥٤.....	٣- المذاهب الإسلامية
١٥٤.....	الفصل الثاني: أسس التقريب
١٥٥.....	الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته
١٥٥.....	تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
١٥٦.....	الفصل الرابع: مجالات التقارب
١٥٦.....	العقائد

١٥٦.....	الفقه وقواعده
١٥٦.....	الأخلاق والثقافة الإسلامية
١٥٧.....	التاريخ
١٥٧.....	المواقف السياسية للأمة الإسلامية
١٥٧.....	الفصل الخامس: المبادئ والقيم
١٥٨.....	الفصل السادس: الأهداف الرسمية والتنظيمية
١٥٩.....	رسالتنا تقريب الفكر وتوحيد العمل
١٦١.....	المقدمة
١٦١.....	فكرة الوحدة في الجمهورية الإسلامية
١٦٧.....	الفصل الأول: أضواء على مفاهيم الوحدة والتقريب والحوار المنطقي
١٦٨.....	الوحدة الحقيقية
١٦٩.....	محاوِر الوحدة الإسلامية
١٦٩.....	المحور الأول: القرآن الكريم
١٧٢.....	المحور الثاني: السنّة النبوية
١٧٣.....	ضرورة إتباع السنّة والعمل بالحديث
١٧٤.....	دوافع المشكّكين
١٧٥.....	بعض الشبهات المطروحة وأجوبتها
١٧٨.....	نقطتان مهمتان
١٨٠.....	المحور الثالث: المرجعية العلمية والتفسيرية لأهل البيت:
١٨١.....	علم أهل البيت: في خدمة مصالح الأمة
١٨٤.....	الواقع الممزّق
١٨٥.....	عوامل التمزّق
١٨٦.....	حول التقريب والتفاهم
١٨٧.....	التقريب ضرورة ملحة
١٨٨.....	قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية والتعليمية الإسلامية

١٨٨.....	الرؤية الثقافية الإسلامية ووجوب التعليم بها
١٩٠.....	أهمية الحوار
١٩١.....	مجالات الحوار
١٩٢.....	عناصر الحوار
٢٠٢.....	التعايش بين الشعوب في الرؤية الإسلامية:
٢٠٥.....	الفصل الثاني: الاختلاف المذهبي وإستراتيجية التعامل معه
٢٠٥.....	الاختلاف المذهبي
٢٠٦.....	خطر الذاتية في الاجتهاد ووسائل التحوط
٢٠٧.....	نشوء المذاهب الإسلامية
٢١١.....	حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية
٢١١.....	الأسس
٢١٣.....	المبادئ والقيم التي ينبغي أن يلتزم بها التقريبيون
٢١٤.....	الأول: التعاون في ما إتفقنا عليه
٢١٤.....	الثاني: التعذير عند الاختلاف
٢١٦.....	الثالث: تجنب التكفير والتفسيق والإتهام بالابتداع
٢١٦.....	الرابع: عدم المؤاخذه بلوازم الرأي
٢١٧.....	الخامس: التعامل باحترام عند الحوار
٢١٧.....	السادس: تجنب الإساءة لمقدسات الآخرين
٢١٨.....	السابع: الحرية في اختيار المذهب
٢١٨.....	شبهات في الين
٢٢٣.....	إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
٢٢٣.....	تمهيد:
٢٢٣.....	وللمشروع قسمان:
٢٢٤.....	الفصل الأول: المفاهيم التخصصية
٢٢٤.....	١ - التقريب

- ٢- الوحدة الإسلامية ٢٢٤
- ٣- المذاهب الإسلامية ٢٢٤
- الفصل الثاني: أسس التقريب ٢٢٥
- الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته ٢٢٥
- تتلخص رسالة المجمع العالمي للتقريب في: ٢٢٥
- تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية ٢٢٥
- الفصل الرابع: مجالات التقارب ٢٢٦
- العقائد ٢٢٦
- الفقه وقواعده ٢٢٦
- الأخلاق والثقافة الإسلامية ٢٢٦
- التاريخ ٢٢٧
- المواقف السياسية للأمة الإسلامية ٢٢٧
- الفصل الخامس: المبادئ والقيم ٢٢٧
- العلاقات بين الأئمة والعلماء في العصور السابقة ٢٢٨
- العلاقات بين الأئمة في العصور الإسلامية ٢٢٨
- نظرة الأئمة إلى بعضهم البعض ٢٣٠
- وصايا إلى الاتباع ٢٣٣
- بين العلماء من اتباع المذاهب ٢٣٥
- الشهيدان الأول والثاني نموذجان رائعان للإنتفاع على المذاهب الأخرى: ٢٣٨
- من مظاهر الحالة الطائفية اللاعقلانية ٢٤٢
- عوامل الانحراف ٢٤٦
- تنوع المذاهب بين الماضي والحاضر ٢٥٢
- الفصل الثالث: أجواء التقريب، ٢٥٧
- وسطية وعقلانية وتوازن وأمن اجتماعي، مقترحات لتعميقها ٢٥٧
- التقريب والوسطية والأمن الاجتماعي ٢٥٧

- ٢٦٢..... الحل على مستوى الأمة الإسلامية
- ٢٦٥..... التقريب بين المذاهب والعقلانية المطلوبة
- ٢٦٨..... التقريب والتوازن المطلوب في الخطاب الإسلامي
- ٢٦٩..... النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم
- ٢٧٣..... التوازن المطلوب بين خصوصيات الفرد والوطن وعموميات الأمة
- ٢٧٥..... التقريب وصيانة الهوية من تهديد التنميط وتداعيات التفريط
- ٢٧٥..... متى يطرح السؤال؟
- ٢٧٥..... ماهي الهوية على صعيد الأمة؟
- ٢٧٧..... موارد الحذر
- ٢٧٨..... السلوك الرشيد
- ٢٨٣..... الحجج جو نموذجي للتقريب والوحدة
- ٢٨٩..... مقترحات لتحقيق التقريب
- ٢٨٩..... وسائل مقترحة لتحقيق التقريب الفكري
- ٢٩١..... توحيد مناهج الاستدلال من أهم وسائل التقريب
- ٢٩٣..... الاختلاف في ترتيب الأدلة
- ٢٩٣..... مبادئ لا بد من الإتفاق عليها أولاً:
- ٢٩٤..... ١ - الأدلة ونظرها إلى الواقع
- ٢٩٤..... ٢ - الأحكام الأولية والثانوية
- ٢٩٥..... ٣ - أهم عنصر في تقديم الأدلة على غيرها
- ٢٩٦..... الترتيب المنطقي
- ٢٩٩..... رأي الإمام الجويني في ترتيب أصول الفقه
- ٣٠٠..... الأمر الأول:
- ٣٠١..... الأمر الثاني:
- ٣٠٢..... الأمر الثالث:
- ٣٠٣..... ملاحظة:

- الفصل الرابع: آراء وتعقيبات ٣٠٥
- آراء وتعقيبات ٣٠٥
- النموذج الأول: بين السنة والشيعة.. هل تنجح الفتنة الطائفية؟ ٣٠٥
- الاستعمار هو الاستعمار ٣٠٥
- لماذا ولمصلحة من نهدم جسور التواصل بين السنة والشيعة؟ ٣١٦
- التعقيب: ٣٢٢
- النموذج الثاني: عاشوراء في التاريخ ٣٢٤
- الاحتفاء بعاشوراء ٣٢٤
- عاشوراء في اللغة والإصطلاح ٣٢٥
- عاشوراء قبل الإسلام ٣٢٦
- عاشوراء في صدر الإسلام وبعد الهجرة ٣٢٧
- عاشوراء بعد سنة ٦٠هـ ٣٢٨
- ممارسات الاحتفال ٣٣٠
- دروس من عاشوراء ٣٣١
- أ- تعظيم أيام الله، والاحتفاء بها بما شرع: ٣٣١
- ب- تأكيد موقف الإسلام الوفاقي من الرسائل السماوية: ٣٣٢
- ج- التقريب بين المذاهب الإسلامية، والتقارب بين أتباعها: ٣٣٢
- د- نفض البدع عن مناسباتنا الدينية ٣٣٢
- وأخيراً: ٣٣٣
- التعقيب ٣٣٣
- النموذج الثالث: التقريب بين المذاهب الإسلامية ٣٣٤
- التعقيب: ٣٤١
- النموذج الرابع: هل التقريب بين السنة والشيعة.. ممكن؟! ٣٤٣
- التعقيب: ٣٥٢
- ونختتم الفصل بذكر بيان موجه إلى الأمة الإسلامية عموماً وإلى شعبنا العراقي خصوصاً ٣٥٣

- ٣٥٣..... حول افتراءات (الزرقاوي) وعصابته التكفيرية
- ٣٥٤..... الأمر الأول:
- ٣٥٥..... الأمر الثاني:
- ٣٥٥..... الأمر الثالث:
- ٣٥٦..... الأمر الرابع:
- ٣٥٨..... الأمر الخامس:
- ٣٥٩..... فهرس مصادر التحقيق
- ٣٧٣..... لمحات من فكر بعض الشخصيات التقريبية
- ٣٧٥..... تقديم
- ٣٧٧..... كلمة المؤلف
- ٣٧٧..... فكرة عن رواد الوحدة الإسلامية والتقريب
- ٣٧٨..... شخصيات تقريبية واهتمام وحدوي
- ٣٩١..... السيد الشريف الرضي عليه السلام وشخصيته المتوازنة
- ٣٩٢..... حياته الشخصية وظروفه السياسية
- ٣٩٤..... أولاً: العلم المعمق والأدب والشعر الرائع ورغم
- ٣٩٦..... ثانياً: الاعتزاز بالمذهب والدفاع عنه مع الانفتاح على الآخر
- ٣٩٨..... ثالثاً: بين خلق الشعراء وأدب العلماء وعفتهم
- ٤٠١..... الشهيدان: نموذج لتعامل علماء المذاهب فيما بينهم (مع التركيز على الشهيدان الأول والثاني)
- ٤٠٤..... الشهيدان الأول والثاني نموذجان رائعان للانفتاح على المذاهب الأخرى:
- ٤٠٩..... الحالة الطائفية اللاعقلانية
- ٤١٣..... العلامة ابن ميثم: نظرة إلى مقدمته في شرح نهج البلاغة
- ٤١٤..... القاعدة الأولى:
- ٤١٧..... أما القاعدة الثانية:
- ٤١٧..... أما القاعدة الثالثة:
- ٤١٨..... ملاحظات سريعة

- ٤١٩..... وفي الختام:
- ٤٢١..... السيد جمال الدين: الخطّة الوحدوية والصحة الإسلامية
- ٤٢١..... صورة الواقع الأليم ونقاط الضعف
- ٤٢٥..... جمال الدين والصحة الإسلامية
- ٤٣٣..... العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي عالم مجاهد ضد الاستعمار وعملائه
- ٤٣٩..... العلامة السيد محسن الأمين: علم التقريب
- ٤٤٤..... اتجاهان تقريبيان
- ٤٤٥..... اتجاه الفقه التقريبي
- ٤٤٥..... اتجاه التقريب الفقهي
- ٤٤٨..... التقريب ومنهجه الاجتهادي
- ٤٥٣..... الإمام النورسي: من خلال لمعاته في (رسائل النور)
- ٤٥٩..... العلامة شرف الدين والخطوط العامة للمنهج الوحدوي في كتابيه: (الفصول المهمة) و.....
- ٤٥٩..... ١- الخطوط العامة للمنهج الوحدوي في (الفصول المهمة)
- ٤٦٠..... الخطّ الأول: أهمية الوحدة وأخطار التمزّق
- ٤٦٠..... الخطّ الثاني: تعيين الحدّ الفاصل بين الإيثار والكفر، والنجاة والهلاك
- ٤٦٢..... الخطّ الثالث: إعادة الثقة المتبادلة والتآلف بين السنّة والشيعة
- ٤٦٧..... ٢- الخطوط العامة للمنهج الوحدوي في (المراجعات)
- ٤٧٧..... الإمام الحكيم مرجع العصر الذهبي للحوزة العلمية
- ٤٨٢..... وفي الختام؟
- ٤٨٥..... الإمام الخميني رحمته الله وحركة الصحة الإسلامية
- ٤٩٨..... حقيقة الصحة
- ٥٠١..... أ- التحرك الإسلامي الواسع
- ٥٠٢..... ب- انتفاء الأساطير الاستعمارية
- ٥٠٣..... ج- معالم كبيرة أخرى

عوامل الصحوة	٥٠٥
العامل الأول: تأييد الله تعالى	٥٠٦
العامل الثاني: توفر القيادة المطلوبة	٥٠٦
العامل الثالث: قيام العلماء بواجباتهم	٥١٠
العامل الرابع: التحول الشعبي باتجاه الإسلام والمعنويات	٥١٢
العامل الخامس: اشتداد ظلم الطغاة وتصاعد الهجوم الاستعماري	٥١٣
العامل السادس: الأماكن والمناسبات والشعائر الإسلامية وحسن استثمارها ..	٥١٤
العامل السابع: نجاح الحركات الإسلامية والثورة الإسلامية الكبرى في إيران ..	٥١٦
العامل الثامن: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر- التوعية	٥١٦
والحماس الثوري بين أبناء الأمة.	٥١٦
الشهيد حسن البنا وأفكاره التقريبية	٥١٩
مقدمة	٥١٩
صحيفة البنا تبني التقريب	٥٢١
العلامة المودودي أمة في رجل	٥٢٧
أولاً: إحياء النظرة الإسلامية الشمولية	٥٢٨
ثانياً: الحكومة الإسلامية	٥٣١
ثالثاً: تبيين معالم المجتمع الإسلامي	٥٣٢
الشهيد آية الله الصدر تلاحم بين العبقريّة والجهاد	٥٣٧
١. التنظير	٥٣٨
أ- الشمولية والكلية في النظرة	٥٣٨
ب- العمق	٥٣٩
ج- الموسوعية	٥٣٩
د- الأصالة	٥٣٩
هـ- المقاصدية،	٥٤٠

- ٥٤٠ و- البعد الاجتماعي
- ٥٤٠ ٢. التربية
- ٥٤١ ٣. الحب الإلهي والفناء في الإسلام والعمل به
- ٥٤٢ المنهج المقاصدي ومدى حجّيته (منهج الشهيد الصدر نموذجاً)
- ٥٤٢ تعريف علم المقاصد الشرعية:
- ٥٤٢ أهداف العلم:
- ٥٤٣ الفرق بينه وبين علم الأصول
- ٥٤٣ علاقته بعلم الفقه
- ٥٤٤ شيء عن تاريخ هذا العلم، وضرورته
- ٥٤٥ والمقاصد عامة وخاصة
- ٥٤٨ المهم في العقود المالية هل هو الشكل أو المقصد؟
- ٥٥٠ بعض التطبيقات المرتبطة بالعقود المالية
- ٥٥٠ التطبيق الأول: مسألة الفرار من ربا القرض
- ٥٥٢ معيار تشخيص موضوع الربا عن غيره
- ٥٥٥ محاولات فقهية لتحويل الربا إلى وجه مشروع
- ٥٥٨ التطبيق الثاني: تكييف ودائع الحساب الجاري
- ٥٦٥ مثال تطبيقي نظري: واجبات الدولة في مجال الدخل الفردي
- ٥٦٧ واجبات الدولة في مجال مستوى المعيشة
- ٥٦٧ الأساس الأول: التكافل
- ٥٦٩ الأساس الثاني: التعادل
- ٥٧١ منهج الشهيد الصدر في معرفة المذهب الاقتصادي الإسلامي ودفع الإشكال عليه
- ٥٧١ منهج الإمام الشهيد في اكتشاف المذهب الاقتصادي الإسلامي
- ٥٨٢ خلاصة البحث
- ٥٨٥ الشهيد آية الله المطهري المعلم والعارف والفيلسوف الأصيل
- ٥٨٥ حياته وشخصيته

- ٥٩٠..... من أقوال الشهيد المطهري
- ٥٩١..... آثار الشهيد القيمة
- ٥٩٣..... المطهري والصدر والإحياء الديني
- ٥٩٩..... حديث في ذكرى تكريم الشهيدة بنت الهدى (قدس سرها)
- ٦٠٢..... البنت الصالحة.. الأم الصالحة
- ٦٠٣..... العلامة السيد محمد تقي الحكيم قدوة فكرية في مجال التقريب
- ٦١٥..... العلامة مغنية فقهه واتجاهه التقريبي
- ٦١٥..... القسم الأول: شخصيته الفقهية وبعض أبعادها
- ٦١٩..... اتجاهه التقريبي
- ٦٢٧..... العلامة الشيخ العلايلي وسمو المعنى في سمو الذات
- ٦٣١..... الشيخ فتحي يكن فكر وجهاد حتى النفس الأخير
- ٦٣٣..... العلامة فضل الله: الذي تجلت فيه خصائص الإنسان
- ٦٣٩..... المقالات حول الوحدة والتقريب
- ٦٤١..... فكرة عن الإستراتيجية المقترحة للتقريب ونصها
- ٦٤٤..... نبذة عن محاولات وتجارب سابقة لتنظيم إستراتيجية للتقريب بين المذاهب الإسلامية.
- ٦٤٤..... ١- التجربة الأولى: دار التقريب في القاهرة
- ٦٤٥..... ٢- الميثاق التأسيسي للعلامة شمس الدين
- ٦٤٧..... ٣- تجربة مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية
- ٦٤٨..... ٤- تجربة الايسسكو العلمية:
- ٦٥٥..... إستراتيجية المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية
- ٦٥٥..... تنويه:
- ٦٥٦..... الفصل الأول: المفاهيم التخصصية
- ٦٥٦..... ١- التقريب:
- ٦٥٦..... ٢- الوحدة الإسلامية:

٦٥٦.....	٣- المذاهب الإسلامية:
٦٥٦.....	الفصل الثاني: أسس التقريب
٦٥٧.....	الفصل الثالث: رسالة المجمع وتطلعاته
٦٥٧.....	تطلعات المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:
٦٥٨.....	الفصل الرابع: مجالات التقارب
٦٥٨.....	العقائد:
٦٥٨.....	الفقه وقواعده:
٦٥٨.....	الأخلاق والثقافة الإسلامية:
٦٥٨.....	التاريخ
٦٥٩.....	المواقف السياسية للأمة الإسلامية:
٦٥٩.....	الفصل الخامس: المبادئ والقيم
٦٦١.....	تحديات تجابه التقريب
٦٦٢.....	التحديات التي تواجه التقريب:
٦٦٢.....	أولاً: العامل الخارجي:
٦٦٤.....	ثانياً: المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام.
٦٦٧.....	ثالثاً: التكفير
٦٦٩.....	رابعاً: التشكيك في نوايا الداخلين في الحوار
٦٧٠.....	خامساً: التهويل والتضخيم واستحضار الماضي والتهجم على المقدسات وعدم احترام الآخر.
٦٧٣.....	الفهرس